كتاب الشهر

خطوات من الحرية

عن كتاب
EIGHTY - SEVEN FEET TO FREEDOM
بقلم وليم بيرنى

***

منذ اليوم الذى ارتفع فيه سور برلين فى اغسطس ١٩٦١ ، جربت جماعات صغيرة من ابناء المانيا الشرقية كل وسيلة للفرار منه ، فقفز البعض من نوافذ المبانى التى تقع على الحدود ، واندفع آخرون يشقون الحصار فى سيارات نقل ، واوقف فريق آخر قطارا وفر به ، واستولى غيره على باخرة فى احدى القنوات •• والبعض تسلل من خلال المجارى الى ان اغلقت تماما •

وفى ٢٤ يناير ١٩٦٢ زحفت عصبة تضم ٢٨ لاجئا الى برلين الشرقيه من خلال نفق اشترك خمسة منهم فى حفره •• وشجع هذا العمل الجرىء جماعات اخرى ، فبدات تحفر تحت السور على الرغم من اجراءات الامن التى تزداد احكاما بمعرفة بوليس الحدود •• واكتشف البعض فاعتقلوا •• ونجح غيرهم •• وفى اواخر يوليو ١٩٦٢ كان هناك حوالى ١٠٠ رجل وامرأة وطفل قد تسللوا الى برلين الغربيـة من انفاق تحت الارض •

وهاهى ذى قصة «نفق يناير» الذى يعد أبا لكل هذه الانفاق •• انه النفق الذى هرب منه أكبر مجموعة منفرده من اللاجئين حتى الان •

بيت ال بيكر لايختلف كثيرا عن مئات من المنازل الاخرى التى تراها فى المانيا الشرقية أو الغربيه ، فجدرانه المغطاة بالمصيص الابيض والتى ترتفع طابقين ، تتربع فى ثبات تحت سقف كبير مدبب مغطى بالقرميد الاحمر ، وحديقته الصغيرة مزروعه بالخضر والزهور ، مع خمس أو ست شجيرات صغيرة من أشجار الفاكهة ، ويكشف البيت عن وثوق أصحابه وتدبيرهم والروابط العائليه القويه التى تربط بينهم •• وهناك أبراج مخروطيه الشكل للحمام ترتفع فوق السطح .. ولكن الشىء الذى يميز بيت آل بيكر حقا هو موقعه ••• فهو يقع مباشرة على

الحدود التي تفصل الشرق عن الغرب في ضاحية « جلينيكه » الهادئة التي تقع في برلين الشرقية ، وعلى مسافة ٣٠ مترا فقط من مؤخرة المنزل ، تقع ضاحيـه « فرونهـاو » في القطـاع الفرنسي من برلين الغربيـه ، وبين الاثنين يقع السور ، وهو يتكون في تلك النقطـة من أربعة صفوف من الاسلاك الشائكة،وسياج من الاوتاد، تقوم بالدورية فيهبلا انقطاع دوريات مدججةبالسلاح من «بوليس الشعب» في برلين الشرقية

وفي عصر يوم الاثنين ١٨ ديسمبر ١٩٦١ عاد اثنان من أبناء أسرة بيكر هما « أروين » و « جونتر » الى البيت معـا قادمين من عملهمـا ، وما كادا يفتحان الباب الامامي ، حتى سمعـا دقات رتيبة تنبعث من القبو ،فاندفعا يهبطان الدرجات الى أسفل لاستطلاع الامر فوجدا شقيقهما الاشقر الوسيم (برونو) يحفر جدار القبو بالازميل والمطرقة .. ولم يكن هنـــــاك ما يدعوهما الى سؤاله عما يفعل .

وتطلع اليهمـــا برونو ، ثم مسح بعض الغبار عن جبهته المبللة بالعرق وقال :

ـ أعلم أنكما تعتقدان أنني مجنون .. ولكن لابد لي من أن أفعل ذلك.. هذا السوراللعين يزداد طولاًوارتفاعا كل يوم ، وأملنا الوحيد هو أن نحفر نفقا من هنا .

فقال جونتر بصوت يفيض سخرية بكل تأكيد .. منذ متى بدأت العمل ؟

ـ حوالي ثلاث ساعات .

فأشار جونتر الى الجدار وقال :

ـ هل رأيت ما أنجزته ؟

كان سطح الطوب الحجري الصلب المصقول كما هو لم تصبه غير خدوش قليله !

وقال اروين : هيـــا يابرونو .. لدينا بعض الجعة في الطابق الأعلى ، فهيا نبحث الامر في هدوء ..

وهكذا صـعد الثلاثة الى المطبخ ، حيث واصل برونو الدفاع عن نفسه ثم قال بمرارة :

ـ أتذكران ماحدث عندما اعتزمنا أن نشـق طريقنـا خلال الاسـلاك الشائكه ؟

وكانا يذكران ذلك جيدا ..

كان ذلك منذ شهر ، عندماحاولوا عبثاالفرارفوقالارض .. ففيالساعة التاسعه والنصف من تلك الليـلة ، اطفـأوا كل الاضـــواء ، حتى تظن الدوريات أنهم لجأوا الى الفراش .. ثم جلسوا ينتظرون في الظلام ، ولم يكونوا قد عرفوا أن الدوريات عززت

آخيرا ، لان عددا من الناس فر قبل ذلك ببضعة أيام ... وكان كل ما يعرفونه أن بوليس الشعب ظلوا يمرون كثيرا مع كلاب بوليسيةتزمجر لدى أقل صوت مشتبه فيه .. وامتد انتظارهم حتى بزغ الفجر أخيرا ..

وبعد هذا الفشل ، أراد برونو أن يبدأ حفر نفقه ، ولكن أروين خالفه فى ذلك ، وقد راح الآن يعيد عرض الاسباب التى تدعوه الى ذلك فقال:

ـ انظر الى الامر بهذه الطريقة يابرونو .. اننا اذاشققناطريقنا خلال الاسلاك ، فقد يفلح أكثرنا فى الفرار، حتى اذا أمسكوا واحدا أو اثنين أو اطلقت عليهماالنار ... أما النفق ، فأية فرصة امامنا ؟ سوف يسمعنا البوليس بكل تأكيد أثناء الحفر ثم يلقون بنا فى السجن أو ماهو أسوأ، مع كل أصدقائنا الذين كانوا يعرفون مسألة النفق ... وبعض الذين لايعرفون !

ووافق برونو مرة أخرى فى تردد على اقتراح أخيه بأن يبذلوا محاولة أخرى لشق طريقهم عبر الاسلاك الشائكة ، على أن يحددوا موعدالفرار فى أقرب وقت مستطاع بعد رأس السنه الجديدة

لن تستطيعى عبور الحدود

لم يكن آل بيكر ممن يهتمون بالسياسة قط..كان كل مايريدونه من السياسيين أن يتركوهم وشأنهم .. ولكن بعد أن قام السور فى ١٣ أغسطس ١٩٦١ ، ازدادت أعصابهم ارهاقا حتى أنهم فضلوا المخاطرة بأرواحهم على العيش فى هذا السجن الجديد

كانت الام فراو كلارا بيكر التى تبلغ الثالثه والخمسين من عمرها ذات طلعة جليلة وبسمة هادئه ، وقد ترملت ومعها سته من أطفالها عندما مات زوجها فى معسكر لاسرى الحرب فى عام ١٩٤٥ ، واستطاعت هى أن تتخلص من معسكر للاجئين فى عام ١٩٤٧ ، حيث استقرت أخيرا مع أطفالها فى ضاحية « جلينيكه ».

ولم تكن الحياة سهلة بالنسبة لهم ، ولكنهم استطاعوا على الرغم من ذلك أن يعيشوا فى اطمئنان .. فقد كان لهم عم يعيش فى أمريكا ، ظل يرسل لهم نقودا وطرودا من الطعام حتى توفى فى عام ١٩٥٥ .

وفى عام ١٩٥٠ انتقلت الاسرة الى البيت الواقع على الحدود ، وأتم الابناء الثلاثة دراستهم ، والتحقوا ببعض الاعمال ، بينما ذهب أخوهم

الاكبـــر « ارنولد » الى دورتموند بالمــانيا الغربية للاقامة مع خاله ٠٠ وفى عـــام ١٩٦١ ، كان « اروين » الذى يبلغ السابعـة والعشرين من عمره يكسب مرتبـا فوق المتوسط كسائق سيارة لمدير أكاديمية الفنون فى برلين الشرقية ، بينمـــا كان « برونو » الذى يبـــلغ الحـــادية والعشرين يحصل على أجر طيب من عمله ككهـــربائى ، وشقيقه التوأم « جونتر » يربح جيدا من عمله كبراد

كانت الاخت الكبرى « جيردا » ـ وهى فى الثانية والعشرين من عمرها ـ تعبر الحدود الى برلين الغربية كل صباح حيث تحصـــل على أجر طيب من عملها كحلاقة ٠ أما شـــقيقتها المرحة النامية الجسم ـ كريســتل ـ ذات الثمانية عشر ربيعـــا ، فكانت تتدرب للعمل كبائعة فى متجر ٠

كان آل بيـــكر أسرة مجتهـــدة متفائلة ، وقد أصـــبح بيتهم أشـبه بالمركز الاجتمـــاعى غـير الرســمى لشـــباب الحى ٠ وتقول الام الآن : « لم يكن فردوسا ٠٠ ولكنه لم يكن سيئا تماما ، فقد كان فى استطاعتنا أن نذهب الى برلين الغربية فى أى وقت نشـــاء ٠٠ ثم جاء السور ٠٠ واغلقت الابواب على عالم آل بيكر »

وفى صـــباح الاثنين ١٤ أغسطس انطلقت « جيردا » كالعادة الى برلين الشرقية ، ولكنها ما لبثت أن عادت بعد نصف ســـاعة الى البيت وهى تقول ان البوليس أوقفهـــا ، وقالوا لها أنها لن تستطيع عبور الحدود ٠

ـ ولكن ماذا عن عملك ؟

ـ قالوا لى : انسى كل شىء بشأنه أو بشـــأن العبور الى هنـــاك مرة أخرى ٠

وسكتت ، وأحاطتها أمها بذراعيها وقالت لها :

ـ لا تدعى الامر يقلقك ياجـيردا ٠٠ سوف تستقيم الامور مرة أخرى خلال يومين أو ثلاثة ٠٠

ولكن البوليس ومتطوعى المصانع اقبلوا فى اليـــوم التـــالى على طول « أورانيبزجروشوس » وهو الطريق الرئيسى الملاحق لبيت آل بيـــكر ، وجاءت معهم ســـيارات نقل تحمـــل لفات ضخمة من الاسلاك الشائكة ٠ وراح جنود البوليس يمدون ميـــلا بعد آخر من هذه الاسلاك الكئيبة من بوابة براندنبرج حتى ضـــاحية « جلينيكة » الصغيرة الهـــادئة وما وراءها ٠

فى ظل السور

أصبحت الحيـــاة خلف الســـور

سلسلة من الازمات الصغيرة ٠٠ فقد حصلت جيردا على عمل فى منشأة للحلاقة ببرلين الشرقيـة ، ولكن أجرها الجديد كان يقـل عن نصف ما كانت تتقاضاه فى برلين الغربية فضلا عن أن الادارة كانت تشجع زميلاتها فى العمل على عدم الثقة فيها لانها كانت « عابرة حدود » ، فقد كانوا يعتبرون كل من عمل فى برلين الغربيـة أصيب بالانحطاط الرأسمالى ٠

وطلب من الرجال فى الورشـة الكهربائية التى يعمل فيها « برونو » التطوع للخدمة فى جيش الشعب ، ولكن (برونو) استطاع التخلص من ذلك بفضل شهادة طبيب تقر بوجود صمم فى احدى أذنيـه ، وان ظل سيف التهديد مصلتا فوق رأسه ٠

أما جونتر فقد حثه أحد زملائه فى العمل على الابلاغ عن أى شخص يدلى بملاحظات معادية للنظام ٠ وقال له أنه هو نفسـه عضـو فى بوليس الامن ٠

وبين كل ثلاث أو أربع أمسيات ، كان اثنان من رجال البوليس يدقان البـاب الامامى لبيت آل بيكر ٠٠ ويفحصان أوراق تحقيق الشخصية لسكانه ٠ وفى كل مرة يفحصان جهـاز الراديو فى غرفة الجلوس للتـأكد من أنه لم يكن مفتوحا على احدى محطات برلين الغربية ٠٠

وازدادت مشكلة نقص الطعـام حدة ، وأصبحت بعض الالوان نادرة فى كل مكان كاللحـم والبطاطس والزبد واللبن والخضر ٠ والواقع أن آل بيكر كانوا أفضل حالا من كثير من جيرانهم بفضـل ما يزرعونه فى حديقتـه الصـغيرة ٠٠ وترددت الفكاهات حول نقص الكبد التى يغرم بها الالمان ، ولكن الفكاهات ظلت تقـل كلما ازداد ظل السور طولا ، وطلب من العمـال والطلبة التوقيع على عرائض يرفضون فيها أى بريد أو طعام أو طرود ثياب من الغرب !

وكانت الشائعات أسوأ كثيرا من الحقائق ٠٠ وكانت بينها شائعتـان تزعجان آل بيكر بصفة خاصـة ، أولاهما قانون التجنيـد العام الذى يجعل كل الشبان القـادرين بدنيـا عرضـة للعمـل فى قوات المانيا الشرقية المسلحة ، ويشـمل هـذا أبناء آل بيكر ٠٠ والثانية ، ان كل القاطنين عند الحدود سيعاد اسكانهم فى مكان ما داخل المـانيا الشرقية ، وان كل بيوتهم ستدمر ٠٠ وهـذا

أيضا يشمل بيت آل بيكر !

المؤامرة تزداد تضخما

بعد أن اتفق أبناء بيكر على بذل محاولة أخيرة للفرار خلال الاسلاك الشائكة ، قرروا أن تتم المحاولة فى ١٣ يناير ١٩٦٢ .. وكانت ليلة سبت ، ولم يكن آل بيكر وحدهم فى هذه المرة .

كان أول من أقبل بعد ظهر ذلك اليوم هما فرانز شفارتز - ٥٠ سنة - وهو ميكانيكى على درجة كبيرة من الوعى ، وزوجته « اليزى » .. ولم يكن يدور فى خلدهما غير موضوع عبور الحدود الى الغرب ، اذ أن الهر شفارتز فقد عمله الطبيب فى برلين الغربية بعد ارتفاع السور ، كما كانت بنتاه المتزوجتان تعيشان فى برلين الغربية .. أما الصغيرتان فكانتا تعبران الحدود كل يوم الى مدرستهما هناك .

وفجأة فصل السور بين الاثنتين الصغيرتين وبين مدرستهما وزميلاتهما فى الدراسة .. ولم تتمكنا من الالتحاق باحدى مدارس المانيا الشرقية باعتبارهما من « عابرات الحدود » السابقات .. وقيل لهما أنه يجب أن تثبتا ولاءهما للجمهورية الشعبية الديموقراطية بالحصول على عمل فى المصانع .

ولم تكن الفتاتان راغبتين فى انتظار ما ليس منه بد - وهو العمل فى مصنع تختاره الحكومة .. ومن ثم فقد توسلتا الى أبويهما للفرار الى الغرب . ولكن الاب كان متفائلا ، اذ كان كزوجته يعتقد أن السور مجرد رعب عابر قال لهما فى حزم « لا حاجة لاحد أن يغامر بحياته .. اصبرا » ..

ولكن الفتاتين - وعمراهما ١٦ و١٨ سنة - لم تكونا فى سن تسمح لهما بالصبر .. اذ بعد أن فشلت الفتاتان فى اقناع أبويهما بالفرار ، عمدتا الى وضع خطط سرية خاصة بهما .. وبعد أن تناولتا الغداء فى يوم السبت ١٩ سبتمبر ١٩٦١ ، تسللتا بمفردهما عبر الحدود ..

حدث هذا بعد انشاء السور بشهر واحد ، وكانت لا تزال هناك ثغرات فى النظام الموضوع للامن .. وبعد ثلاثة أيام ، تلقى آل شفارتز رسالة تقول ان الفتاتين تعيشان مع أختيهما المتزوجتين فى برلين الغربية .. ومنذ ذلك الحين كانت الفتيات الاربع يقفن كل بضعة أيام فوق قمة تل « فرونهاو » ويلوحن بأيديهن لامهن التى كانت ترقبهن من خلال منظار مكبر وقد اغرورقت

ميناها بالدموع وقد ثار شفارتز غضبا في مبدأ الامر لان ابنتيه خدعتاه هو وزوجته ، ولكنه بعد أن ازدادت الحياة سوءا خلف السور على مر الايام والاسابيع ، قرر أن يهرب هو وزوجته أيضا ..

وفي عصر أحد الايام ، توجه شفارتز الى دار آل بيكر ليسأل « برونو » عما اذا كان في استطاعته أن يصلح له جهاز التليفزيون .. وبينما كانا يتحدثان ، ظل فرانز شفارتز يتطلع من خلال النوافذ التي تواجه ضاحية « فرونهاو » .. ثم قال :

ـ ان منزلكم يقع على الحدود تماما .. أليس كذلك ؟ .. ألم تراودكم فكرة الفرار ؟

فقال جونتر :

ـ ربما .. ولكن لماذا ؟

فصارحهم شفارتز بما كان يدور في خلده .. وأحست فراو بيكر برنة صدق في صوته فوثقت فيه بوحي من غريزتها وقالت له :

ـ سوف نحاول ذلك ليلة السبت .. فاذا أردت الانضمام الينا ، فتعال مع زوجتك لتناول العشاء ..

وبعد تناول العشاء في تلك الامسية ، جاء زوجان آخران ، هما الفريد موللر وزوجته وهما في منتصف العقد الرابع من عمرهما ، وكانت معهما ابنتهما « جيزيلا » الشقراء ابنة الثامنة . وقد قرر آل موللر الانتقال الى الغرب حتى قبل قيام سور برلين ، وظلا طوال شهر يوليو ١٩٦١ يهربان الملابس والاحذية والاشياء الضرورية عبر الحدود واختزانها في المكتب الذي يعمل فيه موللر في برلين الغربية ، كمهندس للتدفئة .

وبعد أن أصبحا حبيسين وراء السور ، قررا أن يهربا في أسرع وقت مستطاع .. وقد تعارف موللر في الاوتوبيس الذي يستقله كل يوم الى عمله بشقراء مراهقة تفيض حيوية ، هي كريستل بيكر ، وعندما علم أن بيت أسرتها يقع على الحدود مباشرة ، جاء لزيارتها ذات ليلة ، وبعد ساعة واحدة ، دعته فراو بيكر وأبناؤها للانضمام اليهم في رحلة السبت هو وأسرته .

المحاولة الثانية

في تلك الليلة ، تناولت الاسر الثلاث « بيكر ، وشفارتز ، وموللر » القهوة معا ، وتحدثوا في كل شيء ما عدا ما يشغل أذهانهم جميعا ، الى أن ساد الظلام الحالك في الخارج ..

وعندئذ ركزوا اهتمامهم على وقع أقدام رجال البوليس الذين كان يبدو أنهم يأتون فى انتظام لا ينقطع .. وكان الجنود يوجهون أضواء مصابيحهم اليدوية بين حين وآخر نحو النوافذ ، وعندئذ يسكت الجميع حتى يعود الظلام المطمئن ..

وفى الساعة ١١٫٤٥ مساء كانت أعصاب فراو بيكر قد أصبحت على وشك الانهيار فقالت :

ـ اننى لم أسمع صوت رجال البوليس منذ فترة طويلة .. لعل هذا هو الوقت المناسب .. سأخرج لارى ..

فقال شفارتز : سأذهب معك .

فقال أروين :

ـ أعتقد أن الوقت لم يحن بعد .. تستطيع أن تلقى نظرة اذا شئت .. ولكن كن حذرا ..

وخرج شفارتز مع فراو بيكر الى الحديقة .. كان كل شىء هادئا ، وفجأة سمعا أصوات أحذية ثقيلة قادمة من اليسار ، ولم يكن هناك وقت للاسراع بالعودة الى المنزل ، كما أنه لم يكن هناك تفسير معقول لوجودهما فى الظلام فى هذا المكان المجاور مباشرة للحدود .. فهمس شفارتز قائلا :

ـ ارقدى بسرعة ..

ورقدا فوق الارض الثلجية تحت شجرة صنوبر .. بينما توقف اثنان من رجال بوليس الشعب على مسافة ثلاثة أمتار منهما ، وظل الاثنان يتحدثان عن الجو ، ومتى تنتهى نوبتهما ، والحياة فى درسدن لمدة نصف ساعة على الاقل ، خالتها فراو بيكر ساعتين بينما كانت ترقد الى جوار شفارتز فى الحديقة وقد أمسكا أنفاسهما ، الى أن انصرف الجنديان أخيرا .. وعندما عادا الى البيت كانت السيدة العجوز فى حالة شبه هستيرية ..

وصاحت قائلة :

ـ لن نستطيع عبور الحدود بنجاح أبدا ..

كانت ليلة رهيبة مخيبة للآمال ، ولكنها أسفرت عن نتيجة ايجابية واحدة .. لقد اقتنع الرجال الآن بأنهم لن يستطيعوا الفرار فوق الارض أبدا .

ودعا أبناء بيكر كل من شفارتز وموللر للهبوط معهم الى القبو .. وهناك أشار أروين بيكر الى الآثار التى أحدثها برونو فى الجدار الحجرى الاملس ، وعلى الفور قال شفارتز :

ـ نفق .. ولا شك ..



وشملت الحماسة أبناء بيكر جميعا .. ووافق شفارتز على أن يعكف فورا على بحث المشروع .. ولكن موللر المهندس ، ساورته بعض الشكوك .. وظلوا يتحدثون حوالى ساعة عن الاحتمالات ، والوسائل ، والاخطار .. وأخيرا قال موللر بهدوء :

ـ حسنا .. اننى موافق .. هل نبدأ صباح الاثنين ؟

فقال أروين : بالضبط .. سوف نبلغ عن مرضنا فى أعمالنا .. فالى السابعة من صباح الاثنين اذن ..

ـ حسنا ..

النفق ..

فى صباح الاثنين وصل موللر الى بيت آل بيكر قبيل شروق الشمس وهو يحمل آلة حفر كهربائية استعارها من الورشة التى يعمل بها .. ولمعت عينا برونو عندما رآها اذ كان يعرف انها يمكن أن توفر عليهم ساعات من العمل المرهق

ونقلها الى القبو واستمع الى طنينها ، ثم وضعها فوق البقعة التى بدأ يحفرها بالازميل . وعلى الفور دوى صوت هادر يصم الآذان فأسرع يقطع التيار الكهربائى عنها .. وقال :

ـ إن صوتا كهذا كفيل بأن يحضر لا البوليس فحسب ، بل وأولبريخت نفسه ..

وهكذا تركوا جهاز الحفر .. وظل بقية الرجال يتبادلون العمل مع برونو بالمطرقة والازميل بقية ساعات النهار ..

وانضم شفارتز الى الجماعة فى يوم الاربعاء ، وظل يعمل معهم كل صباح .. اذ أنه لم يرد الابلاغ عن مرضه فى عمله تفاديا للشبهات .. وفى ذلك الحين ، كان الباقون قد زودوا أنفسهم بالمطارق وأدوات الجرف ، والمعاول التى قاموا بتهريبها الى بيت آل بيكر تحت معاطفهم .

وسرعان ما اكتشفوا أن جدار القبو ـ الذى بنى فى القرن التاسع عشر ـ يبلغ سمكه حوالى ٦٠ سنتيمترا ، وهو من الصخر الاملس .. وراحوا يعملون بالتناوب ، إثنان فى كل مرة ، حتى امتلأت عيونهم ورئاتهم بالغبار ، واستغرقوا ثلاثة أيام لفتح ثغرة ارتفاعها ١٢٠ سنتيمترا واتساعها ٦٠ سم ، وكانوا يريدونها كبيرة فى البداية ، اذ أن النفق قد يزداد صغرا كلما اقتربوا من نهايته ..

وفى حوالى الخامسة بعد ظهر الاربعاء ، كانوا قد اقتحموا جدار القبو ، وأصبحوا أمام الرمل والطين الموجود فى الخارج .. ومنذ ذلك الحين ، أخذ العمل يتقدم بسرعة تثير الغبطة .. ولكن ما لبثت أن ظهرت متاعب جديدة لابد من حلها .. كانت هناك أولا مشكلة التخلص من التراب الناتج من الحفر .. واقترح جونتر لذلك حلا سهلا وهو القاء التراب فى بئر مهجورة بالحديقة ، ولكن الآخرين اعترضوا على الفكرة خوفا من أن يلاحظ البوليس ذلك ، فضلا عن اضطرارهم لانفاق أغلب وقتهم وطاقاتهم فى حمل الانقاض الى أعلى ثم الى الخارج .. وبدلا من ذلك ، صنع الرجال حواجز بدائية ، كمستودعات الفحم القديمة وكدسوا التراب فيها داخل القبو .

وكانت هناك بعد ذلك الحاجة الى الضوء .. فقد أصبح القبو مظلما فى الداخل ، وكان الاثنان اللذان يعملان فى المقدمة لا يكادان يريان

شيئا .. وحل الكهربائى برونو هذه المشكلة بمد سلك كهربائى فى أعلى النفق ، وكان يضيف مصباحا اليه كل تسعة أقدام كلما تقدم الحفر ..

وكلما سار الحفر قدما ، زادت كمية التراب التى يلزم التخلص منها ، وزادت صعوبة نقله . وكان القاء التراب باليد الى الوراء يستهلك الوقت والجهد ، وحل التوأمان برونو وجونتر هذه المشكلة أيضا ، عندما وجدا صندوقا مربعا عمقه ٣٠ سم وطول كل ضلع ٦٠ سم ، ففتحا ثغرتين فى جانبيه ، وأوصلا بينهما حبلا طويلا ، بحيث كان القائمون بالحفر فى النفق يملأون الصندوق بالانقاض ، ويقوم الآخرون بجذبه وافراغ ما به من تراب فى المستودعات

واستمرت العملية فى صمت تام لا تقطعه غير لهثات الرجال وصوت المجارف وهى تحفر فى الرمال .

وفى يوم الجمعة ١٩ يناير ، كانوا قد تجاوزوا أول حاجز من الاسلاك الشائكة ، وأصبحوا تحت الطريق العام الذى يشكل الحدود مباشرة ، وهو أمر أكثر خطرا .. وتحت متر واحد من الرصيف مباشرة ، حتى أن القائمين بالحفر كان فى استطاعتهم أن يسمعوا خطوات رجال البوليس بل وأصواتهم ، وهم يمرون فوق رءوسهم ..

وفى خلال استراحة قصيرة لتناول قدح من الجعة ، قال جونتر : اذا كان فى استطاعتنا أن نسمعهم ، فلماذا لا يسمعوننا هم ؟

فقال موللر فى صراحة : انها مخاطرة يجب أن نقوم بها .. وليس علينا الا أن نعمل فى هدوء .

ووضع برونو قدحه ثم قال :

ــ كلا .. فى استطاعتنا أن نفعل أفضل من ذلك .. سوف نستخدم الانوار فى النفق كاشارة .. وسأضع مفتاحا فى الطابق الاعلى حيث تقف « جيردا » أمام النافذة لمراقبة الطريق ، فاذا شاهدت رجال البوليس قادمين ، أطفأت النور ، فنتوقف عن العمل الى أن ينصرفوا .

وهكذا بدأت سهرة جيردا عند النافذة .. ومنذ ذلك الحين ، ظلت ترقب الحدود من الفجر الى الغسق ، وتطفىء النور وتضيئه كلما جاء رجال البوليس أو انصرفوا .. ولم تكن فترات التأخير تزيد عادة على دقيقة أو دقيقتين ، ولكنها اضطرت ذات مرة الى ابقائهم فى الظلام فترة أطول عندما توقف اثنان من الجنود

وقالا لها :
ـ ماذا تفعلين عندك فى النافذة ؟
ودق قلب جيردا بسرعة •• ثم قالت :
ـ اننى أفكر فى واجبى المدرسى •
فضحك أحدهما وقال :
ـ عندما أنتهى من دوريتى ، سأحضر لمساعدتك فى انجازه ••
فقالت جيردا فى رزانة :
ـ اذا فعلت ذلك فسوف أبلغ ضابطك ••
فانصرف الاثنان ، وتنهدت جيردا وأعادت اضاءة النور ••

ثلاثة أمتار من الحرية

كان الجو حارا والعمل قذرا مثيرا للعرق داخل النفق •• ومن حسن الحظ أنه لم يحدث أى انهيار داخل النفق •• فقد دعموا النفق عند المدخل بألواح من الخشب ، حتى اذا بلغوا تحت الطريق العام لم يعد ذلك ضروريا •• ولكن قطرات من الجليد الذائب ظلت تتساقط من خلاله ، مما جعلهم فى شك من تحمل النفق للضغط ••

وفى يوم السبت ٢٠ يناير ، بينما كان برونو يقوم بالحفر ، اذ غمره فجأة طوفان من الرمل ، وأصابته قطعة من الخشب على رأسه ، واخذت الانوار تضاء وتطفأ فى جنون ••

وما لبث صوت جيردا أن بلغ مسامع « برونو » فى القبو قائلة : « افعلوا شيئا بسرعة •• ان أحد أعمدة السور قد انزلق الى أسفل ، والسلك الشائك يهتز وسيرى بوليس الشعب هذا عندما يعودون •

وفكر برونو بسرعة ثم قال :
ـ عودى الى أعلى وأضيئى النور مرتين عندما يبدو العمود على ما يرام
وأمسك العمود ثم دفعه الى أعلى من خلال الارض ببطء ، حتى جاءته ومضتان من جيردا •• ثم نادى جونتر قائلا :
ـ ضع دعامة لهذا العمود •• فسوف نحفر من حوله •

وفى يوم الاثنين ٢٢ يناير ، بدت نهاية العمل وشيكة ، وأعلن شفارتز أنه أبلغ عن مرضه فى عمله ، وسيستطيع منذ الآن أن يعمل معهم طوال الوقت ، وبهذا أصبح عدد القائمين بالحفر خمسة •• وازداد العمل سرعة •• وفى نفس اليوم قدر الرجال انهم وصلوا فعلا الى الغرب ، فقرروا أن يدفعوا عصا الى أعلى عند نهاية النفق ، وكان على جيردا أن تضىء الضوء مرة اذا برزت

العصا في الغرب ومرتين اذا كانت لا تزال في الشرق ..

ودفع برونو وجونز العصا الى أعلى وراقبا الاضواء .. ومضت لحظة لم تظهر خلالها ثم أضيئت وأطفئت .. ثم أضيئت وأطفئت .. وأسرعا بانزال العصا ، وزحفا عائدين للتحدث مع جيردا ..

كانت لاهثة الانفاس وهي تقول لهما : انكم لا تزالون على مسافة ٣ أمتار داخل الحدود وقد انزلتما العصا في الوقت المناسب قبل أن يراها اثنان من جنود البوليس كانا قادمين .

وعاد الرجال للعمل بسرعة للانتهاء من الامتار الثلاثة الباقية ، وعندما تركوا العمل في تلك الليلة أعلنوا أنهم واثقون من أنهم سيتمكنون من الخروج الى الغرب في اليوم التالي .

اليوم الاخير ..

ان يوم الثلاثاء الاخير لا يزال بالنسبة لفراو بيكر يوما يحوى خليطا من الانطباعات المثيرة كالكابوس .. فقد كان مجرد التفكير في وجود النفق والخوف مما قد يحدث لهم اذا اكتشف امره كفيلا بأن يثير الرعشة في أوصالها .. وما لبث المنزل أن أخذ يمتلئ بضيوف غير منتظرين مما أثار دهشتها ..

كان أول من وصل سيد مهذب أبيض الشعر ومعه زوجته التي تبلغ الحادية والسبعين من عمرها ، ومعهما سيدة أخرى تصغرها ببضعة أعوام .. ولم تكن فراو بيكر قد رأتهم من قبل ، وقال الرجل مفسرا حضوره :



ــ لقد تكرم الهر موللر بدعوتى أنا وزوجتى ، وقد سمحنا لانفسنا أن نحضر معنا فراو زيللر •• انها أرملة تزوجت ابنتاها من ولدينا ، وهم جميعا يعيشون فى برلين الغربية • ولم نستطع أن نذهب بدونها •• ولعلك تفهمين ؟

فقالت فراو بيكر :

ــ بلا شك .. أرجو أن تتفضلوا بالدخول ••

وفى خلال الساعات القليلة التالية وجدت فراو بيكر نفسها تستضيف مجموعة متتابعة من الاصدقاء والغرباء .. كانت بينهم هيلدا التى تبلغ التاسعة عشرة من عمرها وهى فتاة ممتلئة الجسم هادئة الصوت ، سبق أن ترددت عدة مرات على المنزل فى الشهور السابقة ، وكثيرا ما ساعدت فى تنظيف ثياب الرجال أثناء حفر النفق ، واعطائهم اشارة الامان قبل مغادرة البيت •• وكانت فراو بيكر تعتبرها صديقة لابنها برونو ، ولكن برونو أعلن فى تلك الليلة انها خطيبته ••

وازدادت الدهشة عندما جاءت فتاة طويلة زرقاء العينين ، قدمها لهم جونتر على أنها صديقته (ولم يكن قد أشار قبل ذلك الى اسمها أمام الاسرة) •

وغادرت كريستل البيت بعد الغداء ، ولا شك أن أخواتها كانوا سيثورون غضبا لو عرفوا أنها كانت تدعو كثيرا من أصدقائها للاشتراك فى مغامرة الليلة ، ولكن غريزة كريستل كانت صادقة •• فان أحدا لم يبلغ عن أسرة بيكر •• حتى القلائل الذين رفضوا الانضمام اليهم ••

وجاءت أكثر اللحظات ألما بالنسبة لفراو بيكر ، عندما دق جرس الباب حوالى الساعة الثامنة مساء ، وفتحت الباب فراو شفارتز ثم عادت تقول :

ــ هناك سيدة تريد مقابلتك •• وهى بدينة جدا ••

فهمست فراو بيكر قائلة لنفسها :

ــ يا الهى العزيز ••

كانت تعرف من تكون هذه السيدة •• انها فراو كراوس الصديقة والجارة العزيزة •• وكم كانت تتمنى لو استطاعت دعوتها للفرار معهم من النفق ، ولكن فراو كراوس كانت من الضخامة الى حد غير عادى •• كما كان زوجها مريضا بالربو ، ويخشى أن يصاب بنوبة خلال تسلله من النفق المترب ••

ومن ثم فان أحدا لم يذكر لفراو

كراوس شيئا عن النفق •• وعرفت فراو بيكر أنها لن تستطيع دعوة صديقتها للدخول الآن والبيت ملئ بكل هؤلاء الاصدقاء والغرباء •

ومضت نحو الباب فى بطء ••• وقالت :

ـ أهلا فراو كراوس ••

فقالت السيدة :

ـ كنت مارة من هنا ففكرت أن اقابلك لحظة ••

ـ ما ألطف ذلك منك •• ولكننى آسفة جدا •• فان رأسى يؤلمنى ، وكنت على وشك الذهاب الى الفراش

ولكن فراو بيكر لم تستطع أن تترك الامر عند هذا الحد ، وقالت :

ـ أرجو أن تنتظرى لحظة ••

وعادت الى غرفة الجلوس حيث أحضرت الكتاب المقدس ، ثم رجعت الى الباب وقالت لصديقتها : كنت أريد أن أعطيك هذا ، فقد ذكرت لى يوما أن إنجيل أسرتك فقد يوم ضرب منزلكم بالقنابل ••

وخشيت ألا تتمكن من السيطرة على شعورها أكثر من ذلك ، فانحنت للامام وطبعت قبلة على وجنة فراو كراوس ••

وشكرتها السيدة البدينة وانطلقت فى الظلام ••• (وبعد أقل من أربعة شهور فرت هى وزوجها و ١٠ آخرون من نفق حفروه فى قبو بيتهم الذى يقع على مسافة مائة متر من بيت آل بيكر) ••

اللحظات الاخيرة

فى الساعة العاشرة والنصف مساء ، كان هناك ٢٨ شخصا متناثرون فى أنحاء غرف بيت آل بيكر ، أطفئت كل الانوار ••• وجلسوا جميعا فى الظلام وقد استغرق كل منهم فى أفكاره عن الماضى والمستقبل •

وفى القبو كان اهتمام الجميع مركزا على أزمه جديدة طرأت ••• فقد اصطدم القائمون بالحفر وهم يشقون النفق الى أعلى للخروج الى العراء بماسورة من الاسمنت يبلغ قطرها ١٢٠ سم ، وفحصها المهندس موللر ثم قرر أنها تحوى أسلاكا تليفونية وكانت المشكله هى ما اذا كانوا يواصلون الحفر تحتها ، أو الى جوارها ، والمخاطرة بالخروج فى المنطقة الشرقية •••

وسأل أروين : كم يستغرق حفر النفق من تحتها ؟

ـ ٢٤ ساعه أخرى

قال : اننى ارى أن نجرب حظنا ونحفر الى أعلى •

قال : اننى أرى أن نجرب حظنا

وبينما كان برونو وجونتر يحفران الى أعلى ، بدآ يواجهان جذور الاشجار فهمس برونو قائلا :

ـ اعطوني مقص الحديقة ..

وبعد ٤٥ دقيقه ، قبل الساعة الاولى من صباح الاربعاء ٢٤ يناير . كان برونو قد انتهى من الحفر

وزحف برونو وجونتر عائدين الى القبو .. وقال الاول : هيا بنا

فقال موللر مفكرا : أنتظر دقيقة عندما نخرج ، يجب أن تكون لدينا بعض الحماية ، فقد يسمعنا رجال البوليس ويبدأون في اطلاق النار .. اننى أقترح أن يخرج أحدنا أولا ، ويطلب من بوليس غرب برلين الوقوف للحراسة قرب الفوهة

فقال برونو :

ـ انها فكرة طيبة .. من الذى يخرج ؟

فأشار جونتر الى موللر وقال :

ـ أنت

فأحنى موللر رأسه وراح يزحف من مدخل النفق .

النجاة

صعد برونو الى الدار وهمس بالنبأ الى امه ، فقالت : حسنا .. أبلغ الآخرين ثم اطلب الى جيردا وكريستل أن تصحباني .

وهبطت مع ابنتيها الى القبو ، وتبعها الباقون فى سكون ، وراح برونو يزحف فى المقدمة وهو يقول :

ـ سأدلكم على الطريق

ورقد عشرة أشخاص فى النفق في صمت ، بينما كان هناك ١٧ آخرون ينتظرون في القبو .. وقد ارتدت النساء أفضل مالديهن من ثياب .. وعندما شق موللر طريقه الى أعلى من فتحة النفق ، اكتشف فى هلع انهم جاءوا مباشرة تحت السياج المصنوع من الاوتاد ... لقد كانوا على مسافة متر من الاعمدة الاخرى الصغيرة التى تعتبر علامة البداية الفعليه للمنطقة الغربية ... أى أنهم من الناحية الفنيه كانوا لايزالون داخل المنطقه الشرقية ، ولبوليس الشعب الحق فى اطلاق النار عليهم

وسمع صوت خطوات رجال البوليس تقترب من الطريق فهمس قائلا لبرونو :

ـ صمتا ... انهم قادمون ..

وهمس برونو قائلا لامه :

ـ صمتا ..

وما لبث التحذير أن سرى في بقية الصف ..

وظل موللر راقدا فى الغابه ساكن الانفاس حتى مر الجنود ، بينما

رقدت فراو بيكروالآخرون فيالنفق، يصغون لصوت الخطوات المرعبة وهي على مسافة متر واحد من رؤوسهم .

وخلال هذه اللحظات الاخيرة من التوتر الذي لايطاق ، اتجهت أفكار الكثيرين منهم الى عالم كل يوم ... فكرت كريستل في قطها الاليف « بيتر » الذي لم تستطع العثور عليه في تلكالليلة لتصحبه معها ، فتركت خلفها رسالة وبعض النقود لعل احدا يتولى العنايه به .. كانت تتساءل الآن : « ترى من الذي سيحصل على بيتر » أما أروين فكان يقول لنفسه: « انني سعيد لان آخر شيء عملته هو الصعود الى الحديقة وقطع شجرة المطاط حتى لا يحصلوا عليها » .. وفكرت أمه فيصديقتها فراو كراوس وقالت لنفسها : « ليغفر الله لي ... ولتغفر لي فراو كراوس »

وانصرف رجال البوليس ، وهمس موللر لبرونو قائلا : كل شيء على مايرام ... سأذهب

وانتظروا في ظلام خانق ، بينما تسلق هو تل « فرونهاو » ، وسار متعثرا مسافة نصف ميل ، ثم طرق باب أول بيت قابله .. وكانت الساعه الاولى والدقيقة الخامسة عشرة صباحا ... وأضيء النور أخيرا ، فتحرجل الباب وهو يسخط ويلعن وقص عليه موللر قصه النفق بسرعه ثم سأله : الديكم تليفون ؟

ـ أجل .. انه التليفون الوحيد على مسافه ميل .. انت سعيد الحظ ادخل .

وبعد نصف ساعة ، عاد موللر الى مدخل النفق معثلاثة من رجالبوليس برلين الغربيه المدججين بالسلاح ومع كل منهم بطارية ليكشف بها نفسه وسلاحه اذا بدأ بوليس المانيا الشرقية في اثارة آية متاعب

وراح اللاجئونيخرجون منالفتحة، قذرين ، يرتعشبون ويلهثون ... فخرج برونو أولا ، ثم أخته جيردا التي همست قائلة :

ـ أمي قادمه بعدي

واشترك الاثنان في معاونه أمهما على الصعود من الحفرة برفق ، بينما جذبت كريستل نفسها الى أعلى دون مساعدة .

كان الانتظار في النفق قد حطم أعصاب الجميع ... وبعد لحظة ، كانت كريستل ترقد الى جوار أمهما فوق الحشائش المتجمدة ، وهي تتطلع الى النجوم ، وتغمغم مرة بعد اخرى قائلة : شكرا لك يا الهي .. شكرا لك

وفى قبو آل بيكر الصامت ، زحف المنتظرون كل بمفرده فى النفق ، كلما خلا الطرف الآخر منه، وربطت فراو موللر عروسة صغيرة حول وسط طفلتها جيزيلا وهمست تقول : « تشجعى ياصغيرتى »

وابتهجت جيزيلا عندما اكتشفت انها تستطيع أن تقف وتسير عند بداية النفق ولكنها سرعان مااضطرت الى أن تزحف كالآخرين ..

وخرجوا جميعا فى نظام دقيق ، وشاهدت فراو شفارتز بزة عسكرية فى ضوء القمر المعتم ، وظنت أنه من جنود بوليس الشعب ، فأحنت رأسها داخل النفق ، ولكن زوجها طمأنها وساعدها مع جندى من بوليس برلين الغربية على الخروج

وكانت آخر من غادر النفق هى الجدة التى تبلغ الحاديه والسبعين وقد أصرت على أن يتقدمها زوجها

وهكذا استطاع ٢٨ رجلا وامرأة وطفلا أن يزحفوا تحت الارض الى الغرب فى أكبر حادث فرار جماعى منذ انشاء سور برلين ..

نظرة أخيرة

أمضى اللاجئون الايام القليلة التاليه فى معسكر «مارينفلد» للاجئين فى برلين الغربيه ، قبل أن يغادروه الى بيوتهم الجديدة فى برلين ، ودورتموند ، وهمبورج وميونيخ ومدن أخرى فى المانيا الغربية .

وبعد أسبوع ، عادت جيردا وكريستل الى تل « فرونهاو » المغطى بالجليد الذى يقع فى مواجهة بيتهم ، ثم هبطتا التل ، وتطلعتا الى فتحه النفق الذى اغلق تماما كما سد من الجانب الآخر

وقالت كريستل فى خشوع :

ـ انه صغير جدا .. لست أدرى كيف نفذنا من خلاله

وعبر الحدود والاسلاك الشائكة ، وقف بيتهم خاليا مهجورا ..

ونادت كريستل قطها بيتر ، ولكنه لم يلب النداء .. ووضعت جيردا يدها على كتف أختها وقالت :

ـ هيا بنا ياكريستل ... لقد انتهت حياتنا هناك

وصعدت الفتاتان التل مرة أخرى نحو حياتهما الجديدة

***

النتيجة !

سأل المدرس تلميذه ـ وهو ابن لاحد ملوك الصناعة فى أمريكا ـ قائلا :

ـ اذا أخذت ٥١ من ١٠٠ فما الذى تحصل عليه ؟

فقال الفتى على الفور :

ـ هذا أمر سهل .. فسوف تصبح لك السيطرة على الشركة !

كتاب الشهر

استمع يا قلبي



ملخصة عن كتاب LISTEN MY HEART

بقلم هيلين ١٠. وايت



« جمعت بينهما اقدار عجيبه على الرغم مما في حياتيهما من متناقضات كثيرة .. فاذا بالرجل الذى كرس حيـــاته لكل ما يتعلق بالصوت ، يقع في غرام فتاة ابتلاها القدر بالصمم التام منذ طفولتها الباكرة ..

وتزوج الكسندر جراهام بل مخترع التليفون ، بفتـاته مابل هابارد ، وهى المخلوقة الوحيدة التى لاتستطيع ان تنتفع باختراع زوجها الذى اثار انقـــلابا في العالم كله ..

وكانت حياتهما التى استمرت زهاء نصف قرن قصة غرام متصلة الحلقات .. وكانت الفتاة الصماء ملهمــــة لزوجها عبقرى وعاملا من عوامل نجاحه ، فقد كانت عـــلى الرغم من عاهتها ذات ذكاء عظيم وحيوية دافقة ، وجاذبية لا تقاوم.

وفى اسلوب يفيض دفئـــا وروعة ، استطاعت « هيلين وايت » ان تنقل للعالم صورة صادقة لهذا الغرام الذى دام ٥٠ عاما ، وكان مرجعها الاول أوراق الاسرة التى لم يسبق أن سمح لاحد من الغرباء بالاطلاع عليها »

كانت « مابل هابارد » فى الرابعة من عمرها أصابتها نوبة شديدة من الحمى القرمزية .. كانت طفلة مرحة تفيض بهجة، ولكن المرض تركها قلقة حائرة .. صامتة يطويهـــا الخوف .. وبعد أن ظلت ترقد بلا حركة عدة أسابيع ، بدأت أمها تعرض عليها الاشياء التى كانت تألفهـــا وتحبهـــا ، محـــاولة تحطيم خمولها ، ولكن الطفلة لم تستجب لها قط .. ولم تنطق ببنت شفة ..

وذات يوم ألهمت جرترود هاربارد بفكرة طارئة .. لقـــد كانت الصغيرة مابل قبل مرضهـــا بفترة قصيرة قد صحبت أبويها الى سيرك بارنوم حيث أحبت زوجـــة القزم المشهور باسم الجنرال عقلة الاصـــبع .. فاشترت الام صورة لهـــذه الزوجة الضـــئيلة الحجم وعرضتهـــا على طفلتهـــا .. ولاول مرة منذ أسابيع أضـــاءت وجه الطفـــلة بسمة بطيئة ؛ وقال الصوت الذى صـــمت طويلا : انها السيدة الصغيرة .. السيدة الصغيرة .

وأمسكت الصورة وطبعت عليهـــا

قبلة كما كانت تفعل قبل مرضها ..

ومن هـذه البداية راح شـفاؤها يمضي قدما بسرعة ، ولكن حدث يوما أن سألت الطفلة في ألم : « لماذا لاتغرد العصافير ؟ .. ولماذا لا تتحـدثون أنتم الى ؟ »

ومزقت هذه الكلمات قلبي أبويها، فقد أدركا أن المرض قد ترك طفلتهما الصغيرة صماء تماما ! .

وكانت هنـاك حقيقـة واحـدة مشـجعة ، وهي أن مابل كانت على عكس الاطفال الذين يولدون صما قد تعلمت الـكلام فعلا .. وكان أبوها « جاردنر هابارد » محاميا على جانب من الثراء في مدينـة (كامبريدج) بولاية ماساشوستس ، وكان عضوا في مجلس التعـليم بالولاية يومئـذ فأدرك أنهـا سوف تحتاج الى تعليم خاص لتحتفظ بقدرتها على الـكلام وتحسنه . ولكن كم كان حزنه شديدا عنـدما فشـل في العثور على أي مدرس في أمريكا عـام ١٨٦٣ يرضى بمجرد أن يحـاول تعليم طفلة صماء كيف تتكلم ..

وذهب الى كل مدرسـة للصم . ولكنه كان يسمع نفس الحكم : « انك لن تستطيع أن تحتفظ بقدرة ابنتك على الكلام ، بل انها ستصاب بالبكم بعد شهور لانها لا يمكنها أن تسمع »

وقيل له أن لغة الاشارة هي أمله الوحيد .. ولم تكن هناك أية مدارس للصم يومئذ ، بل كان الصم يذهبون الى « الملاجيء » ... وقد صـعق جاردنر وزوجتـه لسـماع هـذه الكلمة ..

وسـمع هابارد أن الصم يتعلمون في ألمانيا كيف يقرأون شفاه الآخرين وهكذا يتكلمون ، فقرر في يأسـه أن يتابع هـذا البصيص من الامل على الرغم من ان كل المدارس الامريكيـة سفهت الفكرة باعتبارها خيالية ، ولم يجـد من يشـجعه غير الدكتـور « صـمويل جريدلي هـامر » مدير معهد بركنز للعميان في بوسطن الذي زار مدارس الصم في ألمانيـا بصحبة المربي الشهير «هوارس مان» ، وأعدا عنها تقريرا مشجعا ..

وقال « هامر » لوالد الطفلة الصماء « يمكنـك بكل تأكيد أن تنقذ قدرة طفلتك على الكلام .. تحدث اليهـا دائما ، ولكن تأكد أولا أنهـا ترقب شفتيك .. علمها بالذبذبة ، ودعهـا تلمس حلقـك ، وهرير القطـة ، والبيانو ، واجعلها تتكلم ، وأن تطلب كل ما تريد بالـكلام ولا تدع إحـدا يستخدم معها لغة الاشارة .

وافادت هذه الطريقة فى النهاية ، وبعد عامين من مثل هذا التدريب ، أحضر آل هابارد مربية خاصة تدعى « ماري ترو » للعناية بنباتهما ، وكانت « مابل » تستخدم الكلمات والعبارات بطلاقة فاستطاعت ان تتكيف مع الحياة العادية .

وما كادت « ماري ترو » التى كانت قد أتمت دراستها لتوها ترى مابل بخبثها وعينيها المرحتين المتألقتين ، حتى أدركت بوحى الغريزة انها سوف تجد فى هذه الطفلة العجيبة اعظم تحد متعب واجهته ، وأعظم مكافأة مجزية تتلقاها ..

أما بالنسبة لمابل ، فقد لخصت علاقتهما بعد ذلك بسنوات بقولها « كانت ماري ترو معلمتى لمدة ٣ سنوات ، وصديقتى طوال الوقت » .

تجربة سعيدة

اصرت مسز هابارد على أن يتعلم الاطفال جميعا معا : جريس التى تبلغ الرابعة ، وبرتا التى بلغت السادسة ، ومابل التى أصبحت فى الثامنة تقريبا ، وقال مستر هاربارد للمربية : « اجعلى مابل تقرأ شفتيك ، ولا تستخدمى أية اشارة أو ايماءة » .. وفيما عدا ذلك لم تتلق ماري أية تعليمات أخرى ..

وذهلت المدرسة الشابة عندما اكتشفت كيف أن أشياء كثيرة مما يستوعبها الاطفال بالغريزة ليست الا الغازا تماما بالنسبة لطفلة صماء ، ولكن ماري ترو كانت تتمتع بفطنة وذكاء بحيث استطاعت أن تجرب وسائل اضافية لتعليمها .. وكانت تحكى للطفلة قصصا لا حصر لها ، وتبتكر ألعابا خاصة بالكلمات .. وأخذتها للنزهة فى انحاء كامبريدج ، أو تركبان عربة تجرها الخيول الى بوسطن لزيارة المتاجر ، وتبذل كل مافى وسعها من محصولها من الكلمات

ونجحت هذه الخطة فى زيادة قدرة مابل على قراءة الشفاه ، وبعد بضعة



شهور تعلمت القراءه والهجاء ، كما كانت تشترك فى الصلاة وتردد الاناشيد الدينية مع شقيقاتها .. وسار تعليم مابل قدما ، وفتحت لها القراءة ابواب عالم ساحر ، حتى انها

كانت تتوسل الى امها ان تتركها تقرأ بعد أن تحين ساعة نومها ..

وقالت مارى ترو لمسز هابارد أن ابنتها الصماء تعرف من العلوم أكثر مماتعرفه أية طفلة عادية فى مثل سنها، وعندما سمع الاب ذلك قال انه سيسعى لتدبير امتحان رسمى لابنته، وبعد بضعة أيام جاءت مدرسة من احدى مدارس كامبريدج العامة لامتحان مابل بأسئلة مدرسية عادية فى مستوى سنتها الدراسية ، فأجابت مابل على الاسئلة بسهولة ..

وقدمت المدرسة تقريرها وجاء فيه : « يسعدنى أن أقول أن مابل الصغيرة يمكن مقارنتها بأطفال فى مثل سنها ، بل انها متقدمة بعض الشىء



على من يبلغون العاشرة من عمرهم (وكانت مابل يومها فى التاسعة فقط) .. وقد دهشت للاستعداد الذى كانت تقرأ به الكلمات من شفتى ولا سيما أننى لم يسبق لى التحدث معها ، اذ كانت تفهمنى دون مشقة» .

نجم شاهد

حققت مابل أعظم نصر لها عندما ظهرت فى تلك السنة كشاهدة أمام المجلس التشريعى لولاية ماساشوستس التى لم تكن قد وضعت بعد تدابير للاطفال الصم بها ، بل كانت تكتفى بارسالهم الى ولاية كونكتيكت عندما يبلغون العاشرة ويصبحون أهلا لدخول الملجأ .. وقد تمت صياغة التشريع اللازم لانشاء مدارس للصم بالولاية ، واقترح هابارد تعليمهم قراءة الشفاه الى جانب لغة الاشارات ، ولكن هذه الفكرة عورضت بشدة .. ولما كان هابارد محاميا ، فقد كان يدرك قيمة ستراتيجية المفاجأة ، ومن ثم فقد أحضر كلا من مابل ومربيتها مارى ترو الى اجتماع اللجنة .

وشهدت مارى ترو بأنها لم تر من قبل أى طفل أصم ، وتحدثت عن تعليمها لمابل فتركت أثرا طيبا فى نفوس أعضاء اللجنة ، ولكن تلاها القس كولنزستون من الملجأ الامريكى فى « هانفورد » بولاية كونكتيكت الذى سفه كل الجهود لتعليم قراءة الشفاه وقال : ان اعادة القدرة على النطق للاطفال الصم تكلف أكثر مما تستحق، وأيده فى ذلك زميله الاب جون كيب

الذى قال ان الطفل الاصم مهما بلغ من فصاحة فى الكلام فسيظل ذهنه غارقا فى الظلام .

وطلب جاردنر هابارد الى اللجنة أن تمتحن ابنته مابل ليدحض هذه الآراء .. وعندما جلست مابل فى مقعد الشهود ، بدت طفلة متيقظة ، تفيض حيوية وجاذبية ، ولم تظهر أى ارتباك أو خجل أمام أولئك الاغراب .

وبدأ أحد أعضاء اللجنة يسألها : ما اسمك ؟ .. وماذا درست ؟ .. وهل لك اخوة واخوات ؟ . واجابتهم مابل بصوت مرتفع ينم عن ذكاء .. وتناوب أعضاء اللجنة اعتصارها بأسئلة فى التاريخ والجغرافيا ومسائل الحساب ، وكانت اجابات مابل سريعة ووجهها يضىء بالتحفز ..

وتمتم أحد الاعضاء قائلا : انه لا يستطيع أن يقول ان عقلها غارق فى ظلام تام .. وقدمت لها مارى ترو كتابا طالعت فيه بضع صفحات بوضوح وسهولة ، حتى ساد الغرفة جو مهيب ..

وكانت نتيجة هذا الامتحان أن أوصت اللجنة باستخدام طريقة قراءة الشفاه وتعليم الاطفال الصم الكلام فى كل المدارس التى تنشئها ولاية ماساشوستس .

وفى طريق العودة الى البيت ، ظلت مابل صامتة بصورة غير عادية .. فقد وجه اليها أحد أعضاء اللجنة سؤالا حيرها وأزعجها اذ قال : « هل انت طفلة صماء ؟ » وعندما نظرت الى أبيها متسائلة ، هز رأسه لها فقالت فى تلعثم : أجل ..

ولكن السؤال ما زال يزعجها ، وسألت مربيتها ومعلمتها قائلة :

ــ مس ترو .. ما هى الطفلة الصماء . ؟ وماذا كان يعنى هذا الرجل ؟ .

وتطلعت مس ترو الى الوجه الصغير الحائر ، والعينين اللتين كانتا تبحثان عن الرد فى عينيها ، ثم حاولت أن تشرح الامر بكل ما فى وسعها من رقة وبساطة ، لقد كانت مابل لا تدرك بعد أنها تختلف عن غيرها فى شىء ..

البحث المتواصل

وأخيرا تركت مارى ترو خدمة آل هابارد لتقبل منصبا فى مدرسة « هوراس مان » لتعليم الصم فى بوسطن ، وعندئذ التحقت مابل وشقيقتاها بمدرسة محلية خاصة وكان أبواها يتوقان لجعل كلامها أكثر وضوحا وصوتها أكثر مرونة ، وعندما بلغت الثانية عشرة من عمرها

الحقاها باحدى مدارس الصم المتقدمة فى المانيا .

وقد اكتشفت مسز جرترود هابارد مدى تقدم ابنتها الفعلى عندما راحت تبحث عن مدرسة مناسبة لمابل فى المانيا ، اذ لم يصدق مديرو المدارس التى زاروها أنها صماء بعدما أبدته من براعة وذكاء أثناء امتحانهم لها .. وأخيرا قال لها احدهم :

ـ اننا لا نستطيع أن نفعل لها شيئا هنا .. فليس هناك أى طفل المانى فى اية مدرسة يستطيع ان يجاريها فى طريقة الحديث أو القراءة أو المعلومات العامة .. انها معجزة حقيقية ..

وهكذا اضطرت الام الى الحاق ابنتها بمدرسة نهارية ممتازة للاطفال العاديين غير الصم ، وفى خلال شهور قلائل كانت مابل تقرأ وتكتب وتتحدث الالمانية بطلاقة وسهولة .

ورتب آل هابارد الامر بحيث يظل أحد أعضاء الاسرة مع مابل بصفة دائمة ، حتى بلغت الخامسة عشرة ، فعادت من الخارج الى بوسطن عندما ترددت أنباء عن مدرس شاب قد يلقى محاضرات فى مدرسة « هوراس مان » للصم ، وانه يعرض نظاما جديدا لتعليم الصم الكلام وتحسين أصواتهم .

وقد أطلق على طريقته اسم « الكلام المنظور » واثبتت كل التقارير أن نتائج هذه الطريقة معجزة .

وقالت مارى ترو التى عملت مع الاستاذ الشاب ، لتلميذتها مابل بعد عودتها : « ان كل الناس الذين اصيبوا باللعثمة أو الصمم يتحدثون عن هذا الرجل .. انه سكوتلندى جاء الى بوسطن من كندا منذ عام أو عامين بهذه الطريقة التى ابتكرها أبوه وسماها « الكلام المنظور » وهو يرسم الرموز على السبورة فيستطيع اى انسان بمتابعتها أن ينتج اى صوت فى العالم .

ونظرا للحماسة التى كانت تبديها مس ترو فى الحديث عن المعلم الشاب ، فقد أحنت مابل رأسها وقالت :

ـ حسنا .. وربما اخذت بضعة دروس فى الموسيقى على يديه .

وكان اسم هذا المعلم الشاب هو : « الكسندر جراهام بل » .

طفولة عبقرى

كان الكسندر طوال حياته يهتم بحماسة بكل ما له علاقة بالصوت .. وكان موسيقيا موهوبا ، حتى انه فكر يوما فى العمل عازفا للبيانو فى الحفلات الموسيقية . وفى أدنبرة

بسكوتلندا حيث ولد ونشأ ، كان أبوه « الكسندر ملفيل بل » مشهورا بأنه « مصحح النطق المعيب » ، واستطاع بل الشاب أن يتقن طريقة أبيه في « الكلام المنظور » في وقت مبكر ، وكانت عبارة عن سلسلة من رموز تشبه الاوتار ، تهدف لكي يرى التلاميذ الذين يتلعثمون في كلامهم وضع سقف الحلق واللسان والاسنان اللازم لانتاج صوت معين .

وكانت الطلبات تنهال على « بل » الكبير لالقاء المحاضرات ، وما كاد أبناؤه الثلاثة يكبرون ، حتى دربهم



لمساعدته . وكانت وسائل انتاج الاصوات تخلب لب الكسندر بل الصغير ، وقد حدث يوما أن وجده اخوته راكعا الى جوار كلب الاسرة ليجبره على فتح فكيه ، فسأله ادوارد قائلا :

ــ أهو مريض ؟ .

فهز « اليك » راسه وقال :

ــ كلا .. انني اتساءل فقط عما اذا كان في استطاعتي أن أعلمه الكلام .. استمع . انني عندما اضغط على فكيه هنا وهنا .. يقول جا ــ جا ــ جا ..

وأصغى أخوه الاكبر ملفيل فسمع هذا الصوت .. وبعد أيام من التدريب على الضغط على فكي الكلب ، نجح الاخوان في انتاج شيء يشبه في الصوت عبارة «كيف حال جدتك ؟»

وانتشرت شهرة الكلب الناطق على مدى بعيد ، والطريف أن الكلب كان يبدو وكأنه مسرور حقا من هذه العملية ..

وفي سن السادسة عشرة ، حصل « اليك » على وظيفة في أكاديمية (وستون هاوس) في بلدة الجين بسكوتلندا ليعلم الالقاء والموسيقى ، وسرعان ما أصبح يساعد أيضا في التعليم بمدرسة للصم بلندن ، كما كان يشترك في حضور الدروس في جامعة أدنبره أحيانا وأحيانا أخرى في جامعة لندن .. وظل يعيش حياة مزدحمة جدا بالعمل خلال السنوات القليلة الماضية .

ثم جاءت المأساة لآل بل .. فقد أصيب ادوارد بالسل وهو في الثامنة

عشرة ، وبعد ثلاث سنوات انتهت حياة ملفيل بنكبة مماثلة .. ثم بدأ « اليك » نفسه يصاب بنوبات رهيبة من الارهاق والحمى ، وحذره أحد الاخصائيين بأنه لم يبق له فى الحياة غير ستة شهور .. واستبد الرعب بالاب والام خوفا من أن يسلبهما ضباب لندن أو برودة سكوتلندا ابنهما الباقى ، فقاما بتصفية شئونهما فجأة وانتقلا الى كندا .

وبعد بضعة شهور فى هواء كندا النقى حدثت المعجزة .. فقد اختفى شبح السل ولم يعد بعد ذلك قط ، ولكن طريقة حياة « اليك » تغيرت تغيرا مهما ، وعندما ذهب بل الاب الى بوسطن فى جولة لالقاء المحاضرات ، عرض عليه منصب فى مدرسة « هوراس مان » للصم ، ولم يكن هو نفسه مهتما بهذا العمل ، ولكنه أقنع ابنه بالتقدم للوظيفة .. وهكذا جاء « بل » الصغير الى بوسطن فى ابريل ١٨٧١ ، حيث التقى بعد عامين بالفتاة التى أصبحت عجلة التوازن فى حياته .. وكانت يومئذ فى الخامسة عشرة من عمرها .

لا أستطيع الزواج بمثل هذا الرجل

فى ذلك الحين كان الكسندر جراهام بل يعمل بمدرسة الخطابة فى جامعة بوسطن ، وهو يحمل لقب أستاذ فسيولوجيا الصوت ، ولكن عندما التحقت « مابل هابارد » بفصله كانت أبعد من أن تتأثر بذلك ، بل لعلها كانت ترمقه بنظراتها الساخرة وهو يقف أمام السبورة ليرسم الجبال



الصوتية واللسان بضربات سريعة متمكنة .

كان طويلا نحيلا جدا ، واعتقدت أنه فى الاربعين . (فى حين أنه كان فى السادسة والعشرين فقط) اذ تركه المرض شديد الشحوب والهزال حتى بدا أكبر كثيرا من سنه .. كما كانت تروعها ثيابه التى لا تتناسب مع جسمه ، على عكس رجال جامعة هارفارد الذين كانوا يترددون على بيت عمتيها الشابتين ، والسادة الذين رأتهم فى الخارج .

ولكنه كان معلما بالسليقة ، يفيض حيوية وحماسة ، حتى أن مابل

سرعان ما خضعت للمغناطيسية التى تنبعث منه .. ولكن كمدرس فقط .. وكتبت عنه فى مفكرتها تنتقد ثيابه المهملة وتقول : انها لا تميل اليه هو نفسه .. ثم أضافت - كأنما بوحى نبوءة عجيبة - تقول « انني لا أستطيع قط الزواج بمثل هذا الرجل » .

وعلى الرغم من سخريتها منه ، فقد وجدت مابل نفسها تتعلم الكثير من الاستاذ « بل » وكانت حصصه كلها ممتعة ، ولكن الاستاذ مالبث أن ابلغ مستر هابارد فجأة أنه لن يستطيع أن يواصل تعليم ابنتها بنفسه ، وان مساعدا له سيواصل التدريس لها ..

وفشلت كل توسلات الإم واسئلتها الحائرة فى انتزاع تفسير مرض منه ، فقد قال ان مابل تحرز تقدما طيبا حقا ولا عيب فيها ، ولكنه لا يرى من الحكمة أن يتولى تعليمها بنفسه فى ذلك الوقت ..

ولكن الحقيقة أن الاستاذ الشاب كان يمر بتجربة تثير القلق فى نفسه .. لقد غرق فى حب تلميذته ابنة الخامسة عشرة .. وبعد كثير من التردد والحيرة حزم أمره قائلا لنفسه : « اننى اريدها أن تفكر فى يوما كعاشق .. لا كمدرس » .

وظل « بل » يواصل الحضور خلال الدروس التى يلقيها مساعده ، وحدث يوما عندما خرجت مابل خلال عاصفة جليدية عنيفة لحضور الدروس ، أن أصر بل على مصاحبتها للعودة الى المنزل ، وكانت تلك بداية علاقة جديدة بينهما .. وفى الصيف التالى اصبح بل زائرا منتظما لبيت آل هابارد .

كان قد اصبح شهيرا جدا يومئذ ، وقد اعجبت به شقيقتا مابل الصغيرتان اللتان كانتا تغريانه ليقص عليهما حكايات الاشباح ، كما كانت مسز هابارد تعجب بالطريقة التى يعزف بها على البيانو ، أما الاب مستر هابارد فكان يكن احتراما بالغا للشاب ويهتم بآرائه فى كثير من الموضوعات ولا سيما العلوم .

ولكن هدف كل مناورات « بل » هو أن يكون مع مابل ، وكانت خلوتهما المفضلة فى بيت النباتات الزجاجى ، حيث يجلسان معا طويلا ، فينسى الاثنان أنها صماء تقرأ الشفاه ، ويتحدثان معا بسهولة فى مختلف الموضوعات السياسية والاجتماعية .

صدى البيانو

كان « اليك » يعيش يومئذ فى

بيت توماس ســاندرز ، وهو تاجر جلود ثرى ، كان بل يعطى لابنه الاصم دروسا خاصة ، فسمح له ساندرز باستخدام قبو بيته كمعمل فكان بل يقضى كل لحظات فراغه هناك .

كان يحــاول يومئــذ أن يدخل تحسينات على ما أسماه « البرقيات المتعددة » فقــد كان نظام التلغراف المستخدم عندئذ عاجزا شديد البطء لا يستطيع ان يرســل غير برقيــة واحــدة فى المرة الواحــدة ، ففكر فى البحث عن وسيلة لارســال برقيات متعددة على نفس السلك التلغرافى فى نفس الوقت ، وســيطرت الفكرة على رأسه ..

وحثته مابل على أن يحدث والدها عن فكرته هذه .. وبينما كان يعزف يوما على البيانو فى بيت آل هابارد ، توقف عن العزف ، وحدث مســتر هابارد عن فكرته فى التلغراف المتعدد الرسائل ، والتجارب التى كان يجريها فى قبو بيت ســاندرز ، والنتــائج المشجعة التى توصل اليها ..

واهتم هابارد بهذا الموضوع وقال له ، أعتقــد أن فكرتك صــــائبة يا مستر بل ، وانى أود فى ان أقوم بتمويلها ومساعدتك فى الحصول على براءة الاختراع اللازمة .

فقال « اليك » ان ساندرز عرض عليــه منذ أيام أن يمول المشروع مع مســـاعدته فى الحصول على براءة الاختراع مقــابل نصــف الارباح .. فأحنى هابارد رأسه وقال :

ـ هذا جميل .. ولكنى أعتقــد أنه من الافضل أن يكون لك أكثر من سند واحد .. فلماذا لاتحدث مستر ساندرز وتسأله عما اذا كان يوافق على تقسيم الملكية الى ثلاثة أجزاء ؟

كان توماس ساندرز معجبا بمــا فعله « بل » لاخراج ابنه الاصم من بلادته وخمــوله ، وكان مســـتعدا للايمــان بأن الكســندر جراهام بل يستطيع أن يفعل أى شىء فى ميدان الصوت .

وقد عرض تمويل المشروع وحده ولــكنه عنــدما رأى حماســة بل فى اقتراحه اشتراك هابارد معهما ،وافق على ذلك بروح طيبة .

وقد تبين أن هــذا العمل كان من حسن حــظ الجميــع ، اذ سرعان ما احتــاج المخترع الشــاب الى كل تمويل ممكن ، اذ كادت موارد هابارد تنضب قبل أن يتمكنوا من جنى أى نتيجة لاستثمارهم ، كما كان ساندرز يواجه دينا قدره ١١٠ آلاف دولار .

استطيع نقل الكلام بالتلغراف

أزاح هــذا التأييد المالى شبحا مخيفــا من حياة بل الى الابد ، فلم يعــد امامه بعــد ذلك الا ان يصنع جهازه بنفسه .. كان فى استطاعته دائمــا أن يرسم خططا لاى جهــاز ، ولكنه كان عاجزا عن صناعته فعلا ، فاستأجر شابا بارعا فى الصناعة يدعى توماس واتســـون فى العشرين من عمره ليساعده بعض الوقت ، واحتل



الطـابق الثالث من منزل ســاندرز والقبو وبدأ يعمل ١٨ ساعة يوميا .

كان بل يعمــل الى جانب جهــاز البرقيات المتعددة فى محــاولة صنع جهاز برقى يرسل البرقيات بخط يد صاحبهــا ، وجهاز للـكتابة الصوتية يتولى السماع نيابة عن الاطفال الصم وقد تبــين أن كل هــذه المشروعات خادعة . ولكن الوقت الذى أنفق عليها لم يضع هباء .

وبينمــا كانا يعمــلان الى ساعة متأخرة من الليل يوما محاولين التغلب على عقبة غامضة فى جهاز البرقيات المتعـــددة ، اذ توقف بل فجأة ونظر الى زميله واتسون وقال بعد تفكير :

ـ مستر واتسون .. اننى واثق اننى ســأتمكن قريبــا من الـكلام بالتلغـــراف .. فاذا اســتطعت الحصول على جهــاز يجعــل تيــار الكهرباء يتنوع فى شدته كمــا يتنوع الهواء فى كثافته عندما يمر الصوت خلاله ، فاننى سأستطيع ارسال اى صوت بالتلغراف حتى صوت الكلام .

ورسم « اليك » عدة رســـومات سريعة للجهاز كما يتصوره ، وأمضيا عدة ساعات فى الحديث عنه ووضــع الخطط اللازمة لكيفيــــة صــنعه ، واختارا اســـما للجهــاز المقترح هو « التليفون » مشــتقا من كلمتــين يونانيتين هما (تلى) ومعناها «بعيدا جدا » و « فون » ومعناها «صوت» .. ولكن تكاليف المشروع كانت تثبط عزيمتهما ، فاتفقا بعد تردد على أن هذه الفكرة يجب طرحها جانبا .

وقال بل ان ســاندرز وهابارد لن يرحبا بهذه الفكرة ، وانهمــا يحثانه على اتمام جهاز البرقيات المتعددة ، وهمــــا على حق فى ذلك .. والى أن

اتم ما يريدانه ، فليس لى حق فى التفكير فى صناعة التليفون .

ولكن فكرة التليفون لم تغادر رأسه .. وفى اليوم الذى بلغ فيه الثامنة والعشرين (وهو ٣ مارس ١٨٧٥) عرف بل انه يجب أن يعمل لاخراج فكرته عن التليفون الكهربائى الذى يتكلم ، بغض النظر عمايقوله ممولوه أو يظنون .. وعلى الرغم من كل العقبات الاخرى ! .

صيف عاصف

كان بل يعرف أنه سائر فى الطريق الصحيح لاختراع التليفون ، واذا كانت معلوماته عن الكهرباء طفيفة بالنسبة لما يحاول عمله ، فقد كان هذا مجرد نقص يمكن تصحيحه . فقد كان يشعر بثقة داخلية قوية فى اختراعه حتى انه لم يشعر بأى شىء آخر . ومع ذلك فقد توقف العمل تماما فى يونيو ١٨٧٥ .

كان توم قد أصيب بالتيفويد، ثم بدأ « بل » نفسه يشعر بالضيق المالى اذ كان دخله الوحيد يومئذ هو مرتبه الهزيل من جامعة بوسطن ، فلم يكن لديه وقت يتيح له القاء المحاضرات فى الخارج ، وخجل أن يلتمس شيئا لنفقاته الشخصية من ممولیه ، حتى أدى ضغط ديونه الى شبه انهيار عصبى .. وجاءت اللطمة الاخيرة التى اظلمت دنياه كلها ، عندما أعلنت مابل فجأة أنها راحلة عن كامبريدج لتمضى شهورا غير معروف عددها عند ابنة عم عانس تقيم فى «نانتاكت» وادت الصدمة الى أن ينسى بل



على الفور أنه ليس من « النوع الذى يصلح الزواج » وقال لنفسه فى تعاسة أنه اذا كانت مابل راحلة عن كامبريدج الى الابد ، فانه لا يستطيع أن يتركها تمضى دون أن يخبرها بمدى حبه واعزازه لها ..

وقرر أن يتصل فورا بآل هابارد، مع أن الوقت لم يكن مناسبا قط لطلبه يد ابنتهم .. فان مشروعاته كلها كانت لا تزال بلا حل ، وكان هو نفسه شبه مريض ، مثقل بأعباء الديون .

وعندما وصل بل الى المنزل وجد

أن هابارد بعيد عن البلدة ؛ فحاول أن يتحدث مع مسز هابارد ، ولكن الكلمات تجمدت فى حلقه ، وعاد الى بيته .. وهناك صب يأسه فى رسالة قال فيها :

« عزيزتى مسز هابارد :

« اغفرى لى حريتى فى الكتابة اليك فى هذا الوقت ، ولكنى أواجه متاعب شديدة ، وليس فى وسعى الا أن ألتمس نصيحتك ..

«لقد اكتشفت أن اهتمامى بتلميذتى العزيزة مابل قد نما حتى أصبح شعورا أكثر عمقا من مجرد الصداقة، بل اننى أحبها باخلاص شديد ... »

كانت الرسالة منمقة الاسلوب ، ولكنها كتبت من القلب .. وطلب فى نهايتها السماح له بأن يكشف لمابل عن حبه ..

وأحست الام بهزة شديدة عندما تلقت هذه الرسالة .. فبعثت تستدعيه ، وقالت له :

ـ أعتقد يا مستر بل ان مابل لم تبلغ بعد السن التى تستطيع فيها سماع اعترافك لها بحبك ، ومن ثم فاننى ارجوك أن تنتظر عاما ..وأعدك فى نفس الوقت بأننى سأتيح لك الفرصة الكاملة لرؤيتها .

وعندما عاد مستر هابارد من سفره ، كان أكثر ذهولا من زوجته، وقال لبل :

ـ لو لم تقل لك زوجتى انتظر عاما، لقلت لك أنتظر عامين .

وعندما رحلت مابل من كامبريدج، كان غيابها مع سخطه على وعده لامها سببا جعل هذا الصيف من أسوأ الاوقات التى مرت به ..

ولم يرها حتى عادت فى أواخر أغسطس ، ويومئذ قادته مابل الى بيت النباتات الزجاجى وقالت مطمئنة اياه :

ـ مستر بل .. اننى لا أكرهك حقا .. بل اننى أميل اليك فهل يكفى هذا الآن ؟ .

وكان هذا كافيا لاعادة عقله اليه .. وبعد بضعة أيام تلقى رسالة من أمها تقول فيها : « اننى أحلك من وعدك كلية .. فاذا استطعت أن تفوز بحب مابل ، فان سعادة ابنتى العزيزة سوف تسعدنى أيضا » .

لا يستطيع أن يرفض سيدة

أحس هابارد بخيبة أمل وألم للطريقة التى يتابع بها الكسندر جراهام بل مشروع التليفون ... وكان واتسون قد أتم صناعة أول جهاز للتليفون فى يونيو ، ولكنه عندما ظل بلا عمل حتى نوفمبر ،

قال هابارد : ان بل يضـيع كثيرا من الوقت والمـال على الاختراع .

ولمـا كان يجفـل من فكرة زواج ابنتـه من مخلوق خيالى غير عملى ، فقـد أعلن أن على « بلَ » أن يختار بين طريقتين : فاما أن يصبح انسانا معقولا ويعترف بأن مشروع تليفونه هـذا خيالى ، ويتخلى عن التدريس للصم ، ويستأنف عمـله فى مشروع البرقيـات المتعـددة وعندئذ يتزوج مابل .. واما ان يتمسـك بعمـله كمدرس ويمضى فى مشروع التليفون ويتخلى عن مابل .

ورفض « بل » الخضوع لهـذا الانذار ، فلم يكن يفكر قط فى اتباع اى الطريقتـين المعروضـتين عليـه وأجاب على مسـتر هابارد برسـالة حاسمة تتسم بالادب والاحترام قال فيها : انه لن يتخلى عن عمله فى فصول « الكلام المنظور » الا بعد أن يجد عملا أكثر ربحا منه ، او يجد من يصـلح ليحـل محله فيـه .. وقال « واذا كانت مابل تحبنى كما أحبها فانهـا لن تعترض على اى عمل شريف اقوم به . اما اذا لم تكن تحبنى الى حـد يكفى لقبولى مهما كانت مهنتى فاننى لا أريدها أبدا .. اننى لا أريد نصف حب ، ولا أريدها أن تتزوج مهنتى »

ولكن مابل لم يرضها ان توضع فى كفـة ميزان مقـابل تليفون بل ، أو لعلها كانت تصغى عندئذ الى صوت قلبهـا .. ففى يوم الاحتفـال بعيد ميلادها الثـامن عشر ، جاء بل الى الحفل ، فقـادته الى بقعتها المفضلة فى بيت النباتات الزجاجى ، وقدشرحت فى رسالة لمعلمتها القديمة مارى ترو ماحدث هناك فقالت : « لقد قلت له اننى أحبـه أكثر من أى شخص آخر غير أمى ، وانه اذا شاء فاننى ساعلن خطبتى له فى نفس اليوم .. وفوجىء هو بذلك وهو فى ذروة يأسه ، وكاد



يرفض ان اربط نفسى به ، وذكرنى باننى ما زلت صغيرة واننى لم أر بعد رجالا غيره ، ولكننى قلت له اننى لن استطيع أن أجد من أحبه كل هـذا الحب ، فوافق على الخطبة مغتبطا ،

وقال لىّ أننى يجب أن أدرك أننى أنا التى فعلت ذلك ، وانه لا يستطيع أن يرفض طلب سيدة » .

تحت السلك .. وفوقه !

بعد بضعة أسابيع ، أذاع جاردنر اعلانا مفاجئا .. قال انه قرر انه يجب على « بل » ان يسجل اختراع التليفون .. وكان هو نفسه لم يؤمن به بعد ، ولكنه ولا شك شىء جديد ومن يدرى ! .. وكان يعرف باعتباره رجل أعمال انه يجب حماية حقوق « اليك » .. ولكن بل قال انه لايستطيع ان يسجل اختراعه فى الولايات المتحدة ، وعندما سأله هابارد عن السبب فى دهشته ، قال فى خجل انه زار أسرته فى كندا فى شهر سبتمبر وكان فى حالة مالية سيئة ، وهناك اتصل بصديق لابيه من أعضاء البرلمان يسمى جورج براون وحدثه عن مشروع التليفون وسأله عما اذا كان يقبل تمويله ، فاهتم براون وأخوه جوردون بالمشروع ، ووافقا على أن يدفعا له ٥٠ دولارا شهريا لمدة ستة شهور مقابل نصف الحق فى كل مخترعاته التى تسجل خارج الولايات المتحدة ، وسيبدأ الدفع له بمجرد تسجيل الاختراع فى بريطانيا .. ثم ختم حديثه قائلا :

ـ لهذا يجب الا اتقدم بطلب التسجيل فى واشنطون اولا ، حتى لا يصبح تسجيل الاختراع فى بريطانيا ملغى ..

وقال ان براون سيسافر الى لندن قريبا لتسجيل الاختراع بنفسه هناك .

وعلى الرغم من هلع هابارد لاكتشافه أن بل تنازل عن نصف حقوقه فى كل مخترعاته التى تسجل فى الخارج مقابل ٣٠٠ دولار فقط ـ ولم تدفع بعد ـ فانه حاول أن يكون لبقا ، وطلب من بل أن يعد مواصفات اختراعه ليطلب تسجيله فى واشنطون فورا ، وان اتصاله بأصدقاء أبيه لم يجلب له أى خير .

وأحنى بل رأسه وقال :

ـ أعترف أننى وضعت نفسى فى موقف حرج جدا ولكننى أعطيت كلمتى ، ولن اسجل اختراعى فى أمريكا الا بعد أن أعرف ما حدث فى لندن .

وسكت هابارد ، فقد كان يعرف مبلغ عناد بل ، وانه يفضل التنازل عن كل حقوقه حتى لاينكث فى وعده .

وعندما سافر جورج براون من نيويورك فى يناير ، زاره بل وهابارد مع محام متخصص فى تسجيل الاختراعات وتحدث معه عن اتفاقه

مع بل ، فوعدهم بارسال برقيةاليهم بمجرد تسجيل الاختراع فى لندن .

واستطاع هابارد أن يقنع الكسندر بل باعداد مجموعة أخرى من المواصفات لتسجيلها فى واشنطون بمجرد وصول البرقية .. ولكن البرقية لم تصل ، اذ أن براون مالبث ان ساورته الشكوك فى المسألة كلها ، وانتهى الى الاعتقاد بأن التليفون فكرة جنونية لا تستحق المغامرة بمبلغ ٣٠٠ دولار ، ووضع أوراق التسجيل فى قاع حقيبته ، ومالبث أن نسيها بعد ذلك ! .

وظل بل يرفض تقديم أوراقه لواشنطون ، حتى استبد الحنق بهابارد ، فأرسل أمرا للمحامى فى واشنطون بتسجيل الاختراع ، وهكذا تم تسجيله فى ١٤ فبراير ١٨٧٦ وقد أثار ذلك غضب بل وسخطه ...

***

وحتى هذا التاريخ ، كان الاختراع لا يزال شيئا نظريا ، لم يجرب بعد بطريقة عملية ، ولكن بعد تسجيل الاختراع بأسبوع واحد ، نجح بل فى اكمال آلته الاولى العملية ، فقد كان هو وواتسون يجريان اختبارا روتينيا لجهاز ارسال فى ساعة متأخرة ذات ليلة ، وذهب توم الى غرفة نوم اليك وأقفل الباب ثم رفع سماعة التليفون وفجاة سمع صوتا يدوى فى أذنيه بلهجة آمرة : « مستر واتسون تعال هنا .. اننى أريدك » .

وكانت أسلاك جهاز الارسال قد سقطت فى حامض كبريتيك مخفف ، وبينما كان بل يستعد لاختبار الآلة ، سقط بعض الحامض مصادفة على فخذه ، فاضطره الالم الى أن يصيح رغم ارادته .. وعندئذ ألقى واتسون السماعة ، واندفع من الغرفة صائحا :

ـ مستر بل . لقد سمعتك ... سمعتك ! .

وعندما أدركا أن التليفون تكلم اخيرا ، نظر كل منهما الى الآخر غير مصدق ، ثم أخذا يضحكان ويبكيان فى نفس الوقت .. واختبر الرجلان الآلة مرة بعد أخرى .. لم يكن هناك خطأ ما .. لقد كانت كلماتهما عبر الاسلاك واضحة جميلة ! .

انتصار المكر الانثوى

اذا كان الكسندر جراهام بل لايعرف شيئا فى المسائل المتعلقة بالاعمال ، فقد ثبت أن مابل ورثت كفاءة أبيها فى الاعمال بصورة كاملة ... فكانت هى التى أصرت على أن يعرض اختراعه فى المعرض الذى

أقيم فى فيلادلفيا احتفالا بمرور ١٠٠ سنة على استقلال أمريكا وقالت له :

ــ هذه فرصتك الكبرى .. سوف ترى البلاد كلها تليفونك أو تسمعه .

ولكن بل رفض ذلك بحجة أنه لا يزال فى حاجة الى تحسينات وتغييرات .. وظلت مابل تواصل الحاحها لاقناعه ، حتى قبل أخيرا أن يعرض تليفونه فى فيلادلفيا ، أما هو فلن يذهب معه ، لان فصوله الدراسية فى حاجة ماسة اليه ! .

وعرض التليفون فى المعرض فلم يجتذب الا اهتماما قليلا لعدم وجود المخترع معه ، وناشده كل من هابارد وساندرز وتوماس واتسون أن يحضر دون جدوى ، حتى يئسوا من اقناعه .. ولكن مابل لم تستسلم اليأس ، بل عكفت على تدبير مؤامرة لاحضاره بالقوة ..

وبعد ظهر ذات يوم توجهت بعربة الاسرة الى المدرسة التى يعمل فيها بل قرب موعد انتهاء الدراسة ، وعرضت أن يذهبا معا فى نزهة قصيرة بالعربة ولا سيما أنه متعب من تصحيح أوراق الامتحانات .. وخدع بل ببراءة مظهرها ورقة حديثها فصعد الى جوارها ، وانطلقت بهما العربة وهو مسترخ الى جوارها ولم يشعر الا وقد اقتربت العربة من محطة السكة الحديد ، فانفجر قائلا :

ــ ما معنى هذا ؟ .

فابتسمت مابل قائلة :

ــ معناه أنك ستركب القطار الى فيلادلفيا .

ولم تتركه الا بعد أن ركب القطار وهو يحمل حقيبة الثياب التى أحضرتها له معها ..

وفى فيلادلفيا استطاع ببراعة فى الشرح والعرض أن يركز اهتمام الجمهور على هذا الاختراع العجيب الجديد ، حتى لقد قال سير وليم تومسون الذى كان بين المحكمين فى المعروضات العلمية : « سادتى .. هذا أعجب شىء رأيته فى أمريكا » .

لقد فقدت التليفون !

كان الكسندر بل لايستطيع العمل الا فى الساعات المتأخرة من الليل ، فيكتفى بالنوم جيدا خلال النهار . وقد حاولت مابل وكثيرون من معارفه تغيير هذه العادة دون جدوى .. وواصل عمله مركزا اهتمامه على تحسين التليفون ..

وفى الوقت الذى تزوج فيه من مابل فى يونيو ١٨٧٧ كان الاختراع قد أصبح معدا تماما للاستغلال التجارى بصورة عملية ، وتألفت أول

شركة لتليفون بل ، بالاشتراك مع جاردنر هابارد وتوماس ساندرز كموظفين فيها ، ولكنها أدت الى نتائج كادت تحطم اعصاب المخترع المرهف الحس ..

وسافر العروسان الشابان الى انجلترا لقضاء شهر عسل قصير ، فاستقبل بل هناك استقبالا رائعا جعلهما يطيلان بقاءهما الى أكثر من عام ، سجل خلاله اختراعه فى لندن والقارة الاوربية ، وعرض التليفون على الملكة فيكتوريا .

وفى نفس الوقت كانت الشركة الامريكية الوليدة قد اكتسبت ٣٠٠٠ مشترك وبدات تزدهر وتنمو ، عندما اقتحمت الميدان شركة (ويسترن يونيون) للتلغرافات التى أعلنت فى ديسمبر ١٨٧٨ عن تأليف شركة باسم « التليفون الامريكى المتكلم » تستخدم أجهزة تليفونية ممتازة من اختراع توماس اديسون واليشا جراى والبروفسور ا . دولبير ! .

والحقيقة ان الشركة الجديدة لم تكن قد نجحت فى اختراع التليفون بعد على الرغم من أنها عهدت الى اديسون وزملائه بايجاد اية طريقة أخرى لصنعه ، مستهينة بهذا المدرس المجهول الذى يعلم الصم ..

وقرر هابارد الدفاع عن حقوق اختراع بل بمفاجأة شركة « وسترن يونيون » القوية وأعد العدة لرفع القضية ، ثم أبرق الى بل بالقصة كلها ودعاه للعودة فورا الى بوسطن حتى لا يخسروا الدعوى لعدم وجود المخترع الاصلى .

ولكن المسألة لم ترق لبل الذى أصيب بصدمة عنيفة وشعر بالمرض ، وقال لمابل انه لايريد أن يدخل فى أى نزاع مع أحد بسبب اختراعه ، وان شركة وسترن تستطيع الحصول على التليفون اذا شاءت ، أما هو فسوف يعود الى بيت أبيه فى أونتاريو ويبحث لنفسه عن عمل كمدرس فى أى مكان فى كندا .. وأبرق لهابارد يقول : « لن أحضر لبوسطن .. سأذهب الى كويبك » . ثم التفت لمابل وقال :

ـ لقد فقدت التليفون ! .

ولكنهما عند وصولهما الى كويبك ، وجدا توم واتسون فى انتظارهما هناك .. وكان هابارد قد أوفده لاحضار بل بأية طريقة حتى لايفقد كل حقوقه وتسقط الدعوى لعدم وجوده ، ولكن بل قال انه قرر الا تكون له أية صلة بالتليفون ، وانه سيكرس حياته للتدريس ! .

ووجد واتسون فى مابل حليفا

قويا ، فأخذ يحاول اقناع صديقه العنيد بأن التليفون على عتبة اشياء عظيمة وانه ما زال فى حاجة اليه ، وانه ملتزم أمام المولين الذين أنفقوا اموالهم على اختراعه .. وبعد جهد كبير نجحا فى اقناعه بأن الانسحاب الآن من الميدان عمل غير مشرف .

واستمرت القضية ضد شركة (وسترن الكتريك) عاما ، وبعدتقديم الادلة التى أثبتت أنالكسندر جراهام بل هو وحده مخترع التليفون ، عقدت تسوية بينالشركتين، احتفظت فيها شركة بل بأربعة اخماس الارباح فىكلالتسجيلات المختلفة ، والخمس الباقى لشركة وسترن ..

وعندما أذيعت أنباء انتصار شركة بل ، ارتفعت أسعارأسهمها التيكانت لا تساوى شيئا الى ٩٥٥ دولارا للسهم الواحد ! .

شهر العسل الطويل

وكان من سخرية القدر أن تصبح امرأة لا يمكنها سماع أى صوت زوجة للرجل الذى لم يهتم طوال حياته بشيء غير الصوت ؟ ..

كلا .. ان بل لم يكن يعتبر الامر كذلك .. ففى خلال شهر العسل الطويل ، الذى استغرق كل حياتهما معا ، كان يحدثها دائما عن الموسيقى، ويناقش معها كل جوانب الصوت الاخرى ، وكأنها قادرة على الاستماع جيداً ..

وانجب الزوجان ابنتين، هما الزى ماى ، وماريان .. وعاش آل بل فى واشنطون وكان لهما قصر صيفى فى جزيرة «كيب برتون» بنوفاسكوشيا، كما سافرا كثيرا الى أوربا . وواصل بل تحسيناته التى لا تحصى على التليفون ، كما ابتكر رئة حديدية لمرض شلل الاطفال ، وأجرى تجارب على الراديو ، والطيران والسفن السريعة ... وكانت مابل تشاركه فى كل اهتمام بذكاء حاد ..

وعاش بل وزوجته مابل معاحوالى ٥٠ عاما فى رباط وثيق .. حتىالموت لم يستطع ان يفرق بينهما أكثر من خمسة شهور ، فقد مات هو فى اغسطس ١٩٢٢ ولحقت به مابل فى يناير التالى ، ودفنا جنبا الى جنب فوق قمة تل تطل علىبيتهما المحبوب فى جزيرة « كيب برتون » .

***

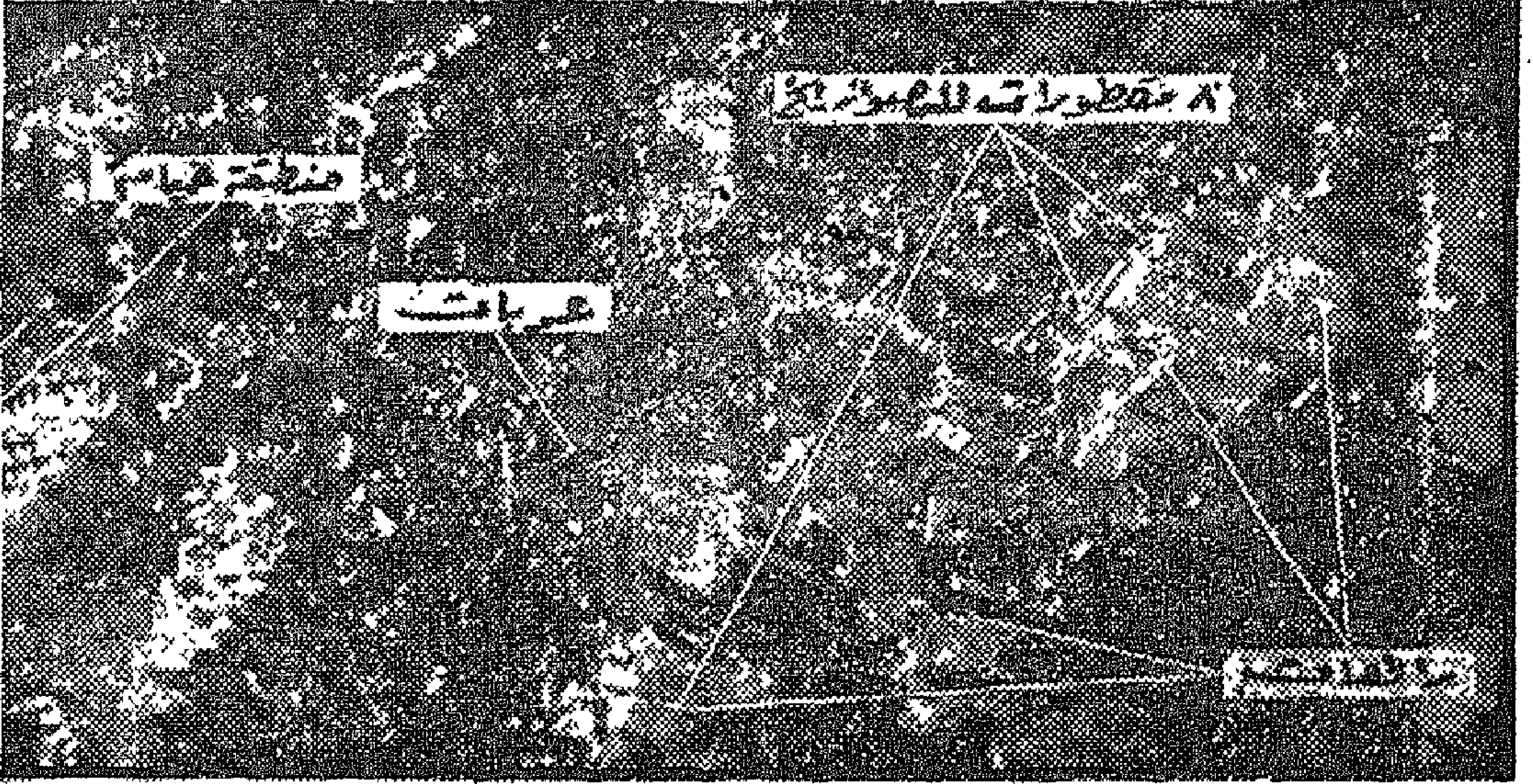
شرط ...

جاء فى كتيب عن قيادة السيارات صدراخيرا فى فرنسا ما يلى :

« مسموح بالوقوف بالسيارة الى جوارالرصيف على شريطة ان تترك فراغا بين سيارتك والمبنى المجاور يكفى لمرور سيدة تجر عربة اطفال .. وهذه المسافة حوالى متر »

كتاب الشهر

يوم نامت أمريكا



انصورا كهذه التيالتقطتيوم١٤ اكتوبر لقاعدة صواريخ روسية في كوبا، اقنعت المسئولينالامريكيين بان السوفيت ادخلوا اسلحة ستراتيجية الى نصفالكرةالغربى

ملخص عن كتاب WHILE AMERICA SLEPT

بقلم جيمس دانييل وجونهابل

((لاأعتقد اننا كنا نتوقع منه انيضع الصواريخ فى كوبا ، اذ انه كان يبدو عملا تنقصه الفطنـــة كما تبينفيما بعد ... ولا بد أنه كان يعتقد ان في استطاعته أن يفعل ذلك سرا ، وأن الولاياتالمتحدةسوف تقبله ..))

الرئيس جون كنيدى فى حديث تليفزيونى أذيع فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٦٢

يوم نامت أمريكا

بهذه الكلمات لخص الرئيس الامريكي موقفا يعد من أشد مواقف المواجهه انفجارا في العلاقات بين روسيا وأمريكا حتى الآن ، واذا كان الحشد الذرى السوفيتي الكبير في كوبا قد أخذ الحكومة الامريكية على حين غرة ، فان الرد الامريكي الحاسم قد هز الكرملين من أعلى رأسه الى أخمص قدميه ...

فكيف حدثت هذه المجموعه من الاعمال المشئومه التي اتسمت بسوء التقدير ؟ .. ولماذا ظل كثير من الاسئلة الخاصة بهذه الازمة بلا جواب ؟

في صباح اليوم التالي للخطاب الذى القاه الرئيس كنيدى في ٢٢ اكتوبر ١٩٦٢ والذى آكد فيه وجود الصواريخ الروسية في كوبا ، عهدت « الريدرز دايجست » الى قوة ضخمة من المراسلين في انحاء العالم لمساعدة المحررين الجوالين جيمس دانييل وجون هابل على تقديم الاجابات على تلك الاسئلة .. وهاهي القصة الكاملة للازمة الكوبية .. كيف حدثت .. ولماذا ؟

كان لكل ثانيه أهميتها ... لن يغمض لاحد جفن في تلك الليلة حتى ينتهى ذلك العمل المذهل .. لقد تم تكبير الفيلم حتى أصبح يعادل شقة من الارض طولها ١٦ كيلو مترا واتساعها ستة أمتار .. ثم شرعت جماعات من مترجمي الصور ، مسلحه بأدوات دقيقة جدا للتكبير والتجسيم تعمل على كل قطاع .. كان التوتر يسود المكان ، فقد كان الرجال يعرفون ما الذى يبحثون عنه ... كانوا يعملون بهدوء وسرعة ودقه .. فكل أثر يجب متابعته في كل سنتيمتر من تلك الصور الفوتوغرافية التى التقطت لهذه الجزيرة التى تشبه ثمرة الموز والتى يبلغ طولها ١٢٠٠ كيلومتر

ومضى العمل طوال الليل ، وطوال اليوم التالى .. كانت تلك عمليه من آكبر عمليات تحليل الصور في تاريخ المخابرات الحربية لاية دولة ... اذ لم تكد طائرات (ى - ٢) التى كلفت بهذه المهمة الخطرة تعود في يوم الاحد ١٤ اكتوبر ، حتى أخرج ملاحوها صور أفلامها وأرسلوها الى واشنطون في نفاثات تفوق سرعة الصوت ... وكان البحث الذى يدور في الصور

التى التقطتها هذه الطائرات ، أشبه بالزحف على الايدى والارجل لتفتيش ١٦ كيلو مترا من الطرف العامه بوساطه عدسه مكبرة . للبحث عن العقرب الثانى المفقود من ساعه يد نسائيه !. ومع ذلك ، فقد كوفىء الباحثون على مثابرتهم واجتهادهم . عندما انحنى أحد مترجمى الصور على احدى موائد العرض عند ظهر يوم الاثنين ، ثم أطلق صفيرا خافتا وصاح :

ـ مرحى ... انظروا الى هذا ..

كان « هذا » هو صورة لمنطقة أشبه بالغابة تقع على مقربه من سان كريستوبال فى جزيرة كوبا ... استطاعت العيون المدربه أن تتحقق من وجود أربع قواعد لاطلاق الصواريخ متوسطة المدى التى تقطع ١٩٠٠ كيلو متر .. وكانت هناك ثمانية صواريخ تقف قريبا منها فوق عربات مقطورة ، كما كانت هناك بعض مقطورات محمله بوقود الصواريخ ، وتجمعات من سيارات النقل العسكرية ، ومدينة من الخيام تتسع لخمسمائة جندى ..

كان يبدو بوضوح تام أن المنشأة كلها روسية وليست كوبية ، وبمقارنه هيئة صاروخ يبرز من تحت غطاء المشمع ، قرر الاخصائيون انه يماثل تماما فى الحجم والبناء أحدث صواريخ روسيا متوسطة المدى عابرة القارات .

وسرعان ماكشف بقيه مترجمى الصور عن أشياء أخرى .. فعلى مقربة من « ريمديوس » التى تقع فى وسط كوبا ، كان هناك حقل تستخدم أرضه لرعى الاغنام يوم ٥ سبتمبر ١٩٦٢ ، فاذا به الآن ـ بعد خمسة أسابيع ـ قد أصبح قاعدة لصواريخ متوسطة المدى ـ يبلغ مداها ٤٢٠٠ كم ـ كما كانت هناك أربع منصات لاطلاق الصواريخ مبنية بالاسمنت ، وبرجان للمراقبة ، ومدينه من الخيام لفريق البناء الروسى ، ومصنع كبير لخلط الاسمنت

والى الشمال الغربى من «ريمديوس» وعلى مقربة من بلدة تسمى (ساجوا لاجراندى) وجدت قاعدة اخرى متحركة لصواريخ متوسطه المدى ، جاهزة للعمل تقريبا ، كما أظهرت الصور أن قاعدتين من قواعد الاطلاق الاربع قد زودتا بآلات خاصة لرفع الصواريخ واعدادها فوق قاعدة الاطلاق ، كما كانت هناك ثلاثة مبان كاملة لتجهيز الصواريخ للاطلاق ومجموعه ضخمه من السيارات ومدينة

من الخيام ٠

وعلى مقربه من « جوانا جاى » ـ وهي بلدةقريبة من سان كريستوبال كان هناك حقل ترعى فيه الماشيةحتى يوم ٢٩ اغسطس ، فأصبح يحوى الآن أربع قواعد لاطلاق الصواريخ ، ووكرين للمراقبه ، وفجوات لتخزين صواريخ اضافية

وفى ساعه متأخرة من بعد ظهر الاثنين انتهى محللوالصور من عملهم، وانطلقت رسالة بالشفرة عبر خط تليفونى خاص بالامن ، لتنقل أخطر رسالة فى التاريخ الامريكى وتقول : « هناك الآن دليل حاسم على اجراء عملية توزيع واسعه النطاق لاسلحة ذريه ستراتيجية هجومية فى كوبا »

ولو أن عمليه الحشد العسكرى قد اكتملت ، لتحولت كوبا الى منصة اطلاق صاروخيه تستطيع أن تقضى على الجزء الاكبر من قوة أمريكا الانتقامية ، ولاصبحت قاذفات القيادة الجوية الاستراتيجيةوقواعد الصواريخ الامريكيه عابرة القارات تحت رحمة هجوم ذرى دقيق بلا انذار ، فضلا عن وقوع كل مدينة أمريكية كبرى ـ عدا ستيل ـ فى نطاق هذا الهجوم!

أصوات لاتسمع

كيف تسنى أن يحدث ذلك ؟٠٠ وكيف استطاع الكرملين أن ينقل مثل هذه الترسانه الهائله القاتلةالى نصف الكرة الغربى ، وان ينشىء ، تحت أنف واشنطون ، قوة ذرية تكفى لوضع أمريكا تحت رحمة الاسلحه الروسية ؟

لقد تعالت أصوات التحذير منذ أوائل ١٩٦٢ ، فى الصحف ودوائر الكونجرس ومن المسئولين فى المخابرات الحكومية ، وظل كنيدى يتلقى طوال الصيف مايفيد قلق رجال مخابراته المتزايد من حشد آلوف من الجنود الروس فى كوبا تحت ستار انهم من « الفنيين » وفى سبتمبر تم تركيب بطاريات منأحدث القذائف الروسية المضادة للطائرات فى منطقة سان كريستوبال فىالطرف الغربى لكوبا ، ولكن الشعور الذى كان سائدا بين مستشارى الرئيس كان يغلب عليه الشك ، فقد كانت شكوكهم أكبر كثيراً من أن تصدق ، لانها كانت تشير الى موقف لم يسبق له مثيل فى العصر الذرى ٠

فمنذ بداية الحرب الباردة ، قامت كل من أمريكا وروسيا بتوزيع دقيق حكيم للاسلحة الذريه التى تملكانها والتى تعرف كل منهما قوتها المروعه، هكذا لم تضع أمريكا أية أسلحة

ان صورا كهـذه التى التقطت يوم ١٤ أكتوبر لقاعدة صواريخ روسية فى كوبا ، اقنعت المسئولين الامريكيين بأن السوفيت أدخلوا أسـلحة ستراتيجية الى نصف الكرة الغربى .

ذرية فى أراضى دول أخرى الا بصورة علنيه ووفقا لمعاهدات آعدت باتقـان بالغ ، وكذلك لم تضـع روسيا مثل هـذه الاسلحـة قط فى أرض غير أراضيها .. ولا شك أن الكرملين كان يعلم أن أمريكا لن تسمح أبدا بحشد أسلحه ذرية فى منطقة حيويه كالبحر الكاريبى ...

وكان هذا هو السبب الذى جعل واشنطون تتمسك بعدم التصديق ، على الرغم من الادلة المتـزايدة على أن هذا هو العمل الذى يفعله الكرملين بالضبط .

وفى الوقت ذاته ، قـرر رجـال المخابرات الامريكيه أن يكشفوا عن حقيقة الاشياء التى يشحنها الروس الى كوبا ، ولا سيما ماحملته ٦ سفن سوفيتيه وصلت الى كوبا فى أواخر مارس تحمل صنـاديق ذات أحجـام غير عادية ، وتم تفريغها ليـلا تحت حراسه شديدة ثم رحلت قبل أضواء الفجر الاولى ... فما هو الذى يحيطه الروس بكل هذه السرية ؟

وفى ١١ سـبتمبر أحس الكرملين

بشكوك امريكا المتزايدة ، فأعلن خروشوف فى ذلك اليوم أن الصواريخ المعدة لحمل الرؤوس الذريه الروسية من القوة بحيث لاداعى لنقلها الى أية دولة أخرى ... وأصر على أن الاسلحة التى قدمت لكوبا ذات طبيعة دفاعية بحته ..

وفى المؤتمر الصحفى الذى عقده الرئيس كنيدى فى ١٣ سبتمبر ، بدا أن الرئيس كنيدى قد قبل تأكيدات خروشوف ، ولكنه حدد موقف أمريكا بعبارات محددة قال فيها : « لو حدث أن أصبح الحشد الشيوعى فى كوبا خطرا على أمننا فى أى وقت أو تدخل فيه .. أو اذا أصبحت كوبا قاعدة عسكرية هجوميه للسوفييت ، لها قدرة ذات أهمية ، فان هذه البلاد ستفعل كل مايجب أن تفعله لحماية أمنها وأمن حلفائها » .. وكان هذا تحذيرا ليس هناك ماهو أكثر منه وضوحا وصراحه

دليل قوى

وجاء أول دليل فوتوغرافى قوى على أن الروس يرسلون أسلحة ذات قدرة ذريه الى كوبا ، من طائرات حاملات البحريه التى كانت تحلق فى تدريبات روتينية فى منطقه الكاريبى وتلقى نظرات على السفن المتجهة لكوبا من ارتفاع منخفض .

وأظهرت الصور التى التقطت فى ٢٨ سبتمبر سفينتى شحن روسيتين تحملان فوق ظهريهما شحنات ثقيلة فى صناديق ضخمة ، عشرة منها طويلة رفيعة تحملها احدى السفينتين ، وعددا آخر من صناديق خشبيه أكبر حجما وأغرب شكلا على السفينة الاخرى ... واستخرجت من الملفات صور قديمة مماثلة وأجريت مقارنات تفصيليه ، ثبت منها أن هذه الصناديق تحوى قاذفات نفاثة من طراز اليوشن ـ٢٨ » التى يبلغ مداها ١٢٠٠ كم تستطيع حمل قنابل ذرية . وصدر أمر عاجل للمخابرات بمتابعه السفينتين لمعرفة محتويات الصناديق ... وتبين أن الشحنات نقلت الى مطار مهجور ، أعد من جديد للعمل وأقيمت حوله متاريس كثيرة وركبت حوله بطاريات مضادة للطائرات .. وما لبثت أن خرجت من الصناديق قطع قاذفات ستراتيجية تم تجميعها لتؤيد شكوك مترجمى الصور الفوتوغرافية ..

ودلت الصور على أن هناك ٢١ قاذفة من هذا النوع على الاقل فى كوبا ... ولما كانت هذه الطائرات تستطيع القاء قنابل ذرية ، فلم يعد

هناك سبب لافتراض انهم لم يرسلو أيضا صواريخ ذريه ... وعلى هذا الاساس صدر قرار فى أوائل اكتوبر بمحاولة تصوير منطقه سان كريستوبال ... وتولت طائرات (ى-٢) تنفيذ هذا الامر ..

وعادت الطائرات من رحلاتهـــا المتواصلة بصور ومعلومات مدهله ..

النبأ يتسرب

نظرا لطبيعة الصور التى جلبتهـا طائرات (ى-٢) البالغه الخطورة فقد كان على مركز تحليل الصور أن يتصل فورا بجون ماكون مدير وكالة المخابرات المركزيه فى مســاء ذلك اليوم - الاثنين ١٥ اكتوبر - ولكن ماكون كان قد طار الى لوس انجليس لاحضار جثمان ابن زوجته الذى قتل فى حادث سباق ، وهكذا تولى نائبه الجنرال مارشال كارتر عبء نقل النبا الى كبار المسئولين فى واشنطون ..

وما كاد الجنرال جــوزيف كارول يسمع النبـا من كارتر حتى اتصـل بروزويل جلباتريك نائب وزير الدفاع ثم انطلق الثلاثة مع اثنين من مترجمى الصور الى منزل الجنرال ماكسويل تايلور رئيس هيئة أركان حرب القوات المشتركه ، حيث كانت هنــاك مادبه عشاء على وشك أن تبدأ ... وتبادل الجميع الحديث بسرعه بعيدا عن مسامع الضيوف ، واتفقـوا على ان امـريكا أخذت على حين غرة . لقد قام الروس بأكبر لعبه تسلل فى العصر الذرى

وفى الثامنة والنصف مساء ، نقل تايلور النبــا الى ماك جورج باندى مساعد كنيدى الخاص لشئون الامن القومى ، ولكن النبـا لم يصــل الى كنيدى الا فى صــباح الثــلاثاء حتى لايزعج فى المساء بلا مبرر

اعلى مستوى

فى الثامنة من صبــاح الثلاثاء ١٦ اكتوبر ، دخل أحد ضباط المخابرات يصحبه اثنــان من مترجمى الصـــور يحملان أوراقا وصـــورا فوتوغرافية المبنى الغربى المنخفض الملحق بالبيت الابيض حيث توجد مكاتب الرئيس، ودخلوا الغرفه الصغيرة التى يقيم فيها جورج باندى فى الطــابق الاســفل ، وسرعان ما أطلعوه على الادله المصورة، وبعــد ٤٥ دقيقة ، اتجــه باندى الى المصعد الخاص لكنيدى ..

وما كاد باندى يصــل الى الطابق الثانى حتى دق باب مخدع كنيدى .. وقد اعتاد الرئيس الامريكى أن يستمع الى موجز للانباء قبل ارتداء ثيابه كل صباح، عن المسائل التى تجمعت خلال الليل ، ثم يصدر أوامــر اليوم الاولى

لرجاله

وفى هذا الصباح عندما فتح الباب كان الرئيس لايزال جالسا على طرف فراشه بثوب النوم «البيجاما» وفوقها برنس الحمام ... وبدأ أولا باصدار تعليمات سريعة حول المسائل التى كان يقرؤها من قبل فى صحف الصباح ، وعندئذ قاطعه باندى قائلا :

ـ سيدى الرئيس .. لدينا الآن دليل فوتوغرافى قوى ستراه بعد قليل يثبت أن للروس صواريخ هجومية فى كوبا ...

وأبدى كنيدى اهتماما بالغا بالمعلومات التى جلبها باندى ، وبعد عشر دقائق غادر باندى مخدع الرئيس وقد حمل قائمه باسماء كبار الموظفين وأعضاء مجلس الامن القومى الذين يريد كنيدى مقابلتهم فى ذلك الصباح

وبعد أن انصرف باندى ، غرق كنيدى فى تأملات وأفكار ـ بعضها مرير ـ لابد أن الروس كرسوا عاما على الاقل لمشروع صواريخهم فى كوبا ، وهذه الصواريخ التى ربما صنعت خلف جبال الاورال ، نقلت أرضا وبحرا حول نصف العالم ، وأفرغت على مسافة بضعة كيلومترات فقط من فلوريدا ، ونقلت عبر الطرق العامه فى كوبا ، ووضعت فى آماكنها جميعا ، دون أن تنتزع ثقة واشنطون الجادة فى أن خروشوف لن يفعل شيئا كهذا أبدا ... ! بل لقد قطع خروشوف نفسه شوطا بعيدا ليغذى هذا الاطمئنان، ولا سيما فى الرسائل الشخصية التى اعتاد تبادلها معه بعد اجتماعهما فى فينا فى يونيو ١٩٦١

ولقد أكد خروشوف أكثر من مرة أن الاسلحه التى يرسلها الى كوبا لاتستخدم الا فى الدفاع فقط .

وتقول مصادر البيت الابيض ان شيئا لم يثر غضب كنيدى فى مسألة كوبا مثلما آثاره خداع خروشوف فى هذه المسأله .

المعنى الحقيقى

بعد أن تم تداول الصور التى التقطتها الطائرات (ى ـ ٢) بين المسئولين الامريكيين ، لم يعد من الممكن أن يقبل أحد تفسير خروشوف بأن حشده العسكرى فى كوبا كان دفاعيا بحتا .. وبعد أن تحطم هذا الوهم ، أصبح من الضرورى الآن أن تقرر آمريكا هل تترك هذا التحدى يمضى ، وتقبل فى الواقع توازنا جديداً للقوى فى العالم ... أم تقاوم ذلك ، مخاطرة باشعال نيران حرب عامة ؟.. كان الخيار آمرا لايحتمل التأخير ولا يمكن تفاديه .. فقد



.. لم يبال أحد بالتحذيرات التى أطلقها السناتور كنيث كتينج ...

بدأت الاحداث الآن تنشىء قوتها الدافعه السريعه ..

بدأ الرئيس كنيدى يومه الرسمى فى التاسعة النصف بمقابلة خاصة لرجل الفضاء ولتر شيرا وزوجته وطفليه ... وبعد تبادل الحديث والتقاط الصور ، سار معهم فى الحديقة الجنوبية للبيت الابيض دون أن يبدو عليه أى انفعال لما كان يدور فى رأسه يومئذ ، والواقع أن كنيدى ظل طوال الاسبوع محافظا على سلوكه الهادىء حتى لايثير تكهنات الصحف بأن شيئا ضخما فى الطريق .

وفى الحاديةعشرة والدقيقةالخامسة والاربعين ، عقد الرئيس اجتماعا فى قاعه الوزارة جمعت كل الرسميين الذين طلب من باندى دعوتهم ، وقد أطلق على هذه الجماعه فيما بعد اسم «اللجنةالتنفيذية لمجلس الامن القومى» ... وفى هذا الاجتماع أبدى كل فرد رأيه بصراحة ، وغير بعضهم آراءه مرارا بعد أن ظهرت أدله جديدة .. ودرست حلول بديلة مختلفة ، ثم نبذت أو قبلت ، وكلها انتهت الى اتفاق تام ...

وقد عرف الآن أنه كانت هناك وجهتان متناقضتان على الاقل لتفسير مغزى الصواريخ ... فهناك رأى يقول ان حشود خروشوف فى كوبا ماهى الا لطمةتمهيديه للضربةالقاضيه التى ستتلوها ، والتى تهدف لاحداث ارتباك فى الولايات المتحدة بحيث يستطيع خروشوف أن يفرض تسويته الخاصه لمشكلة برلين .. وأصحاب هذا التفكير يرون انوجود الصواريخ فى كوبا مجرد تحويل للانظار ولاسباب نفسية،ووفقا لهذه النظرية، فان الروس لايمكن أن يطلقوا صواريخهم من كوبا الا بعد اطلاق صواريخهم عابرة القارات من روسيا

ذاتها ، ممـا يؤدى الى انتقام امريكى مدمر قبل وصولها ، ومن ثم فان ميزة الوقت التى حققها روسـيا بوضـع صواريخها قرب الشواطىء الامريكيه لامعنى لها .

وعارض العسكريون هـذا الرأى بقوة على أساس أن برلين هى نقطـة تحويل الانظـار وليست كوبا ، وان روسيا تستهدف شل الغريزة الطبيعيه لوقاية النفس لدى أمـريكا باعـلان تأجيل تسويه مشكله برلين الى مابعد انتخـابات نوفمبـر الامريكيـه . والتأكيـدات الخادعة عن الاسـلحة الدفاعية فى كوبا .. وقـد أصـبح هدف روسيا هو ابقاء الولايات المتحدة فى حاله ارتبـاك فترة أطول قليـلا ريثما تصبح كوبا قلعه حصينة ... وعندما تصـل الى هـذه المرحله فان ميزة أمريكا الذرية لن تكون لها أيه قيمة .

ولقـد كانت أمـريكا تتمتع حقـا بميزة ذريه .. ففى خلال اسبوع أزمه كوبا ، كان هناك ١٠٢ صاروخ بعيد المـدى من طراز (أطلس) معـدة للعمل ، و ٥٤ صاروخا بعيد المدى من طراز (تيتان) فى أمريكا ذاتها ، و ٨ غواصـات ذريه تحمـل ١٢٨ صاروخا من طراز (بولاريس) على أهبه الاستعداد ، كما كان تحت قيادة حلف الاطلنطى فى كل من بريطانيا وايطاليا وتركيا ١٠٥ صـواريخ من طرازى « جوبيتر » و« ثور » متوسطة المـدى مستعدة للاطلاق ... وهكذا كان لدى أمـريكا وحلفائهـا ٣٨٩ صاروخا عابرا للقارات جاهزة للعمل ، وفى الطريق الى هذه الترسانه بسرعة الصاروخ « مينيوتمان » ومداه أكثر من ٩٦٠٠ كم ويمكن اطلاقه فى ٣١ ثانيه .

ووفقا للمعهد البريطانى للدراسات الاستراتيجيه ـ وهو حجة فى هـذا المجال ـ كان لدى روسيا فى اكتوبر الماضى ٧٥ صـاروخا عابرا للقـارات معـدا للعمـل ، وربمـا حـوالى ٥٠ صاروخا من طراز (جوليم) قصـير المدى فى الغواصـات .. أى أن كل ماكان لدى روسـيا من صـواريخ تستطيع الوصول الى أهداف أمريكيه هو ١٢٥ صاروخا ـ أى أقل من ثلث مجموع ما لدى العالم الحر .. ولكن نقل الصواريخ المتوسـطة المـدى الى أعماق نصف الكرة الغربى ، يجعل روسيا تضيق هذه الفجوة بينها وبين الغرب كما يلى :

أولا : ان الصواريخ المتوسطة المدى فى كوبا تعد بديلا للصواريخ عابرة

القارات فى روسيا وهى أغلى ثمنا ..
ودون حاجه لانتظار طويل لزيادة الترسانة الروسيه من هذه الصواريخ

ثانيا : ان وجود الصاروخ فى كوبا يكفل توجيها أكثر دقة مما لو كان فى روسيا .. وتستطيع الصواريخ الاقصر مدى من عابرة القارات أن تكون حاسمة فى تحقيق اصابات مباشرة على أهداف ذات تركيز شديد، كمواقع الصاروخ « مينيوتمان »

ثالثا : ان وجود الصواريخ فى كوبا يمكن أن يهدد أهدافا لا فى أمريكا فحسب ، بل وفى كل أنحاء أمريكا اللاتينيه ، مما يحقق للسوفيت ممارسه الضغط والاكراه عليها .

رابعا : لما كان الوقت الذى يسمح بالانذار بالهجوم على أمريكا سوف يقل الى العدم ، فان القيادة الجوية الاستراتيجية ستضطر الى توزيع طائراتها على قواعد دائمة ، مما يقلل أثرها كثيرا كسلاح رادع .

كل هذه الاعتبارات تنتهى كلها الى استنتاج واحد .. وهو أن وجود الصواريخ الروسيه فى كوبا قد غير ميزان القوى العالمية تغييرا قاطعا ، الا اذا أزيلت فورا ولو بالقوة اذا دعا الحال .. وكانت تلك هى المخاطرة التى يتحتم على أمريكا مواجهتها الآن

لقد كانت مقاومه خطف روسيا لكوبا الآن ، وفى مثل ذلك الوقت المتأخر - تتضمن المخاطرة بحرب كبرى .. ولكن عدم المقاومة يعادل الاستسلام ، واذا لم تفعل أمريكا شيئا ، فان أى تعهد أمريكى بمساعدة آية دولة فى العالم لن يساوى الورق الذى يكتب عليه ... وسوف يصاب حلف الاطلنطى بالتصدع ، وتتبعثر منظمة الدول الامريكيه كما يتبعثر السمان أمام الصقر ..

وسوف تنتهى الحرب الباردة بانتصار الروس ..

انزعوا عنها الغطاء

لقد نشر الكثير عن الايام الستة المهمة من ١٦ الى ٢١ أكتوبر ١٩٦٢، التى كان كنيدى ولجنته التنفيذية يعدون خلالها الرد الامريكى على هذا العمل .. وقد عمدت بعض الروايات الى تقسيم المشتركين فى اللجنه الى « متشددين » و « متساهلين » ، ولكن آيه محاولة كهذه تتجاهل الحقيقة الدستوريه الاساسيه التى تقول ان رئيس الولايات المتحدة هو وحده المسئول .. وقد كان من واجب جون كنيدى أن يستشير أوسع قطاع ممكن من الآراء والمعلومات ثم يضع بعد ذلك سياسة الدولة .

وكانت اول خطوة قام بها الرئيس كنيدى ، هى طلب الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الصواريخ والسرعة التى تصبح فيها جاهزة للعمل، والتوزيع العسكرى للقوات الروسيه الكبيرة فى كوبا ... وقد قال أحد أعضاء لجنه كنيدى التنفيذيه فيما بعد : « اذا كنت تنوى الذهاب الى كوبا لتنزع الاغطيه عن هذه الصواريخ فعليك أولا أن تتأكد أنك عندما ترفع الغطاء ، ستجد ماقلت للعالم انه موجود هناك »

ومن أجل تقديم هذه المعلومات التفصيليه ، ظلت وكاله المخابرات المركزيه ، ومجلس المخابرات الامريكى يعملان ليلا ونهارا ، وأستمرت طائرات (ى ــ ٢) فى رحلاتها بلا قيد ، وكانت تهبط الى ارتفاع منخفض لتعود بصور مقربة للمناطق التى يحوطها الشك ، محددة اياها بوساطة تقارير المخابرات الارضية من داخل كوبا ، حتى بلغ جملة ماقامت به حوالى ٢٠٠٠ رحلة جويه للتصوير

وكشفت صور الاستطلاع الامريكيه عن ٩ قواعد للصواريخ الروسيه متوسطه المدى تستطيع اصابه أيه أهداف فى نصف الكرة الغربى .. وفى كل قاعدة ٤ منصات للاطلاق ، وقواعد صاروخيه لاعداد صواريخ آخرى ، وهذا يعنى احتمال وجود حوالى ٤٨ صاروخا متوسط المدى فى كوبا

ولم تذكر امريكا شيئا قط عن المدى الكامل لتوزيع القوات الروسية فى كوبا ، فيما عدا قواعد الصواريخ متوسطه المدى والاستعدادات الخاصة بها ، ولكن تقارير اللاجئين وغيرها من المصادر ، جعلت من الواضح أن كوبا الصغيرة تحولت الى جبل طارق حقيقى .. فقد كانت هناك أكثر من فرقه من الجنود الروس (غيرالفنيين) منتظمين فى وحدات مقاتلة ، وقال احصاء موثوق به ان هذه القوات تقيم فى ٤٧ مكانا ، فضلا عن وجود ثلاثه مطارات سوفيتية ، وقاعدة بحريه سوفيتيه فى كوبا .

أبجدية حيوية

فى أول اجتماع للرئيس كنيدى بمستشاريه ، كان واضحا أن أمام أمريكا الخيار بين ٦ خطوات مفتوحة، وما دامت استجابة العدو قد تؤدى لتحول سريع فى الاتجاه المختار للعمل ، فمن الافضل وصف هذه الخطوات الست البديله بأنها «طرق»

الطريق (أ) : آلا تفعل شيئا .. وهو أمر لايمكن التفكير فيه بعد أن



وفى الامم المتحدة عرض ادلاى ستيفنسون السفير الامريكى القضية امام أنظار العالم، ويرى الى يساره مستشاره ارثر دين ..

اعترفت الحكومه ذاتها بشدة الخطر

الطريق (ب) : الاحتجاج لدى خروشوف شخصيا • وقد لقى هذا الطريق بعض التأييد فى مبدأ الامر ويقول مصدر صديق أن ادلاى ستيفنسون مندوب أمريكا لدى الامم المتحدة الذى تناول العشاء مع كنيدى ليلة ١٦ أكتوبر وسمع عن الصواريخ يومئذ ، دافع عن ارسال بعثه شخصيه الى الكرملين ، ولكن الرئيس ولجنته التنفيذية رفضا على الفور مجرد اطلاع خروشوف على أن واشنطون تعرف شيئا عن الصواريخ، حتى لاينتهز الفرصه وتكون له ميزة المبادأة الدبلوماسية ويعلن عن وجود الصواريخ ويهدد باستخدامها

الطريق (ج) : شكوى روسيا وكوبا أمام مجلس الامن ـ وكان يرأس الوفد يومئذ فاليريان زورين المندوب الروسى ـ على أساس أنه بعد أن يستخدم الفيتو يمكن الفوز ببعض التأييد المعنوى فى الجمعيه العامه ، ولكن هذه الفكرة لم يكتب لها النجاح

الطريق (د) : حظر الشحنات العسكرية لكوبا على أساس تضييق قائمة المهربات تدريجيا .. وهذا الحظر سوف يسىء الى المحايدين وحساسيتهم حيال حريه كل البحار، ولكنه سيكون خطوة أولى مكشوفة لعلها تظهر استعداد أمريكا لقطع شوط أبعد ، كما أنه سيكفل تدريبا للقوات البحريه فى منطقة تعد بحيرة أمريكية فعلا

الطريق (هـ) : القيام بهجوم جوى مفاجىء للقضاء على الصواريخ .. وهى عملية ستطلق صيحات تصم الاذان ضد أمريكا لانقضاضها على كوبا الصغيرة • وفى خلالها سيقتل كثيرون جداً من الفنيين الروس مما يجعل خروشوف يواجه ضغطا قويا للانتقام فى كوبا أو فى أوربا .. كما أنه

مالم تضرب أمريكا الجزيرة بأسلحه ذريه فعلا ، فان هناك احتمالا قويا بأن صاروخا أو أكثر قد يدمر مدنا امريكية .

الطريق (و) : شن غزو مفاجىء لكوبا لازالة الصواريخ والوجود العسكرى وكاسترو .. وكل شيء فى عملية واحدة .. كانت هيئة أركان الحرب الامريكية المشتركة قد أعدت منذ زمن بعيد خططا لغزو كوبا ، ولكن هذه الخطط أصبحت قديمة بعد أن ازداد الحشد الروسي العسكرى فى كوبا كل يوم ... وسيتطلب الغزو وقتا آخر يصبح خلاله عدد آخر من القواعدالصاروخية الروسية معدا للعمل .. وهكذا فان الغزو المفاجىء بدا أنه ليس ردا أمريكيا مبدئيا قط ، وان كانت فكرة الغزو بعد الانذار ظلت تزداد أهميه كعمل أخير اذا لم تتراجع روسيا .

وفى اجتماعات اللجنة التنفيذية يومى ١٧ و ١٨ اكتوبر ، تركزت المناقشات حول الطريق (هـ) ـ وهو القيام بهجوم جوى على كوبا ـ وتزعم روبرت كنيدى المدعى العام وشقيق الرئيس سياسة الكفاح لاستبعاد هذا الهجوم الجوى ..

وفى النهايه دافع روبرت كنيدى وروبرت ماكنمارا وزير الدفاع عن فكرة منع الشحنات العسكريه التى وصفها الرئيس بأنها « عزل صحى » .. ومضى رجال القانون فى وزارات العدل والخارجيه والدفاع يعدون



« هناك طريق واحد لن نختاره أبدا .. طريق الخضوع او الاستسلام ... »

الوثائق والسوابق المتعلقة بمثل هذا الحظر ... ومنذ ١٨ اكتوبر أخذت اللجنه التنفيذية تعمل على أساس فرض حظر مصحوب بالمطالبة بازالة الصواريخ واجراء تفتيش على الطبيعة

أسبوع كنيدى

بينما كان الرئيس كنيدى خلال الاسبوع يوازن بين أخطر مسألتين للحرب والسلام ... للحياة والموت،

ظل محتفظا بطـابع البرود الخارجي الذي اشـتهر به ٠٠٠ وقـد واجهت رصانه الرئيس أقسى اختبار لها يوم الخميس ، عنـدما اجتمـع باندريه جروميكو وزير الخارجية الروسيه فى مقابله مقررة من قبل ٠٠٠ فقد أبلغ جروميكو الرئيس عن عزم خروشوف على ابرام معاهدة مستقلة مع المانيـا الشرقية بعد انتهاءانتخابات ٦نوفمبر الامريكية،وكيف أنحكومه اولبريخت سوف تطرد الامريكيين بعد ذلك من برلين ٠٠

وورد ذكـر كـوبا عرضـا خـلا الحديث ، وعنـدئذ خـرج الرئيس كنيدى من الغرفه لاحضار صورة من تصريحه الذى ألقـاه عنهـا فى ١٣ سبتمبر الماضى ، ثم عاد وتلا تحذيره الوارد فى هذا التصريح وقال فيه : « اذا حول الروس كوبا الى قاعـدة عسـكرية هجوميـة فسـوف تفعـل الولايات المتحدة كل مايجب عليها أن تفعله » ٠٠ ورد جروميكو قائلا ان روسـيا لن تتورط مطلقا فى بناء أية قوة عسكريه هجوميـة فى كوبا ٠٠ وعنـدئذ بذل كنيـدى جهدا جبـارا للاحتفاظ بهدوء أعصابه

وعلى الرغـم من كل الاحتيـاطات لتكتم الامـر ، فقـد بدأت الشائعات تتردد فى ١٩ أكتوبر بأنشيئا ضخما يجرى اعداده ، وأثار نقل سرب من نفاثات السـلاح البحرى الى فلوريدا اهتمـام الصـحف ٠٠ وألغى راسك حضوره فى حفل لاصحاب الاعمال فى فيرجينيا، وطلبالىهيئة أركانالحرب المشتركة البقاء فى واشنطون،وعندما سـئلت وزارة الدفاع عن وجـود صواريخ متوسطة المـدى فى كوبا ، جاء الرد نفيا يتسم بالمراوغة وهو : « لم نتلق معلومات تشير الى وجود مثل هذه الاسلحة فى كوبا »

وفى محـاوله أخيرة للقضـاء على التكهنات ، طار كنيدى يوم الجمعـة لالقـاء خطب سياسـية فى أوهايو وايلنوى ، ولكن هذه الرحله كان لابد من قطعها بسبب خطورة آخر أنبـاء المخـابرات عن كوبا ، واضـطر بيير مالنجر السكرتير الصـحفى للرئيس الى أن يزعم للصحفيين صباح السبت أن كنيدى مصاب بمرض فى جهـاز التنفس وحمى طفيفه وانه ألغى كل مواعيده الاخرى للخطابه

وعاد كنيـدى طائرا الى واشنطون ٠٠ وبعـد أن تقـرر أخـيرا فى يوم السبت المطالبةبازالة الصواريخ و[illegible] الاسلحة الهجوميه الاخـرى من كوبا وفرض حصار محدود عليها ، طلبت

وزارة الخارجية تأخير اعلان النبأ ٢٤ ساعه حتى يوم الاثنين حتى تبلغ كل السفارات الامريكيه فى الخارج ، لتحشد تأييد الدول الاجنبية لموقف أمريكا ، ووضعت خطة لتنسيق كل شيء يتم عمله فى أنحاء العالم دقيقة بدقيقه ..

لقد كان كنيدى على وشك القاء أهم خطاب فى حياته السياسية.

تضييق الحلقه

فى مطلع هذا الاسبوع الحاسم الذى اتخذ فيه هذا القرار ، كانت بعض عناصر من القوات البرمائيه التابعة لقيادة الاطلنطى قد بدأت تمريناتها المقررة من قبل للتدريب ، وتتضمن شن هجوم وهمى على نطاق وآسع ، على جزيرة (فيك) التى تقع على مسافه ٣٠ كم جنوب شرقى طرف « بورتوريكو » . وكان يشترك فى هذه التدريبات الروتينية ٢٠ آلف رجل، وكانت مهمتها انشاء رأس جسر يستطيع مشاة الاسطول استخدامه للنزول الى الشاطيء لاسقاط حكومة ديكتاتور وهمى اسمه « ورتساك » ـ وهو اسم كاسترو معكوسا بالمقلوب

ولكن فى منتصف ليله الاحد ٢١ آكتوبر ، أرسلت برقيات من مقر القائد العام لمنطقة الاطلنطى فى



« الميجور رودلف آندرسون »

فيرجينيا تعلن حاله التأهب فى كل القوات البحرية ، مع ابلاغها نبأ الرساله التى سيذيعها كنيدى على العالم عن جود أسلحه ذرية هجومية فى كوبا..وأجلت المناورات البرمائيه الى آجل غير مسمى ، ولكن عناصرها وزعت على مواقع سرية لاستخدامها اذا دعا الحال الىاستخدام عمل آخر ضد كاسترو .

وفى صبيحة السبت ٢٠ اكتوبر تولى الاميرال الفريد جوستاف وارد قيادة الاسطول آلامريكى الثانى الذى

سيقود قوات الحصار ..

وفي الوقت الذى كانت فيه الوحدات البحرية تتجمع، كانت قوات السلاح الجوى والجيش ومشاة الاسطول يجرى توزيعها أيضا ..

ففي صباح السبت ٢٠ اكتوبر كانت القوة الجويه رقم ١٩ التابعه للقيادة الجويه التكتيكيه تنتقل الى قاعدة السلاح الجوى المترامية الاطراف خارج (هومستيد) بولايه فلوريدا، وعهد اليه بمراقبه وقيادة الحشد الجوى الذى يتدفق على فلوريدا

وبعد الظهر ، طار الجنرال وليم كولينز القائد البحرى من كامب ليجون الى خليج جوانتا نامو لتولى قيادة القوات الارضيه لمشاة الاسطول هناك

ومن مقر قيادته فى (فورت براج) بولاية (فورت كارولينا) ، وضع الجنرل هاملتون هاوتز الفيلق السابع عشر الذى ينقل بالطائرات فى حالة تأهب تام، بما فى ذلك الفرق الموجود فى كنتاكى وكانساس ، وجورجيا .. ومن (فورت هود) بولايه تكساس شرعت الفرقه الاولى المدرعه تنطلق شرقا

وكانت أكثر الاماكن ازدحاما وعملا فى الركن الجنوبى الشرقى من القارة المدجج بالرجال والسلاح ، هى جزيرة (كى وست) التى تبلغ مساحتها ٣ كم فى ٥ر٦ كم ، وتقع على مقربه من ساحل فلوريدا .. وفي يوم الجمعة أمر الاميرال « أدم رودام ماك الروى » قائد قاعدة كى وست البحريه ضابطه الجوى باخلاء كل شىء من مطار « بوكاتشيكا » ماعدا الطائرات الضروريه ، لايجاد مكان للمقاتلات التابعه للبحريه ومشاة الاسطول ..

وطوال ليلة الجمعة ويوم السبت ، ظلت طائرات النقل الضخمه تترى على بوكاتشيكا حامله رجالا وعتادا ووحدات متنقلة من الرادار وأدوات التصوير والسيارات والاسلحة من كل نوع وتعود لتحضر المزيد منها .. وما كاد ظهر الاحد يحل حتى كانت فلوريدا ترقد تحت درع من الدفاع الجوى لايمكن اختراقه ، وكانت المطاردات المقاتلة التى تفوق سرعة الصوت تدور باستمرار فوق المواقع الاستراتيجيه فوق مضيق فلوريدا ، وعلى الارض غيرها كثير متأهب للتحليق فى ثوان وقد زودت بالوقود والسلاح ، وجلس بها ملاحوها .. وكانت هناك أكثر من ألف مطاردة مقاتله مسلحه تقف متأهبة فى أنحاء الولايات المتحدة .

وأخيرا فى ليله الاحد ، تلقى الاميرال ماك الروى أمرا من القائد العام لمنطقه الاطلنطى بارسال مدمرآته للبحر .. عندما حل الظلام فى اليوم التالى ، كانت سفن فرقة المدمرات رقم ٦٠١ تقترب من الطريق الرئيسى للمضايق بين ساحل فلوريدا و « جريت بهاما بانك »

لقد تم اعداد الحلقة ..

مشهد فى الكرملين

وعندما اقترب موعد اذاعة خطاب الرئيس كنيدى ـ فى الثانية من صباح ٢٣ اكتوبر بتوقيت موسكو ـ بدأ شعور الارتياح يتلاشى بين الذين يقومون بتقدير الموقف من رجال المخابرات فى الكرملين ••• ولم يعد فى استطاعة خروشوف الا أن يشك فى أن أمريكا منهمكة فى حشد عسكرى ضخم وخطير فى منطقه الكاريبى •••

وفى واشنطون دعى السفير الروسى لمقابلة دين راسك وزير الخارجية الامريكيه فى الساعة السادسة بعد الظهر ـ الواحدة بتوقيت موسكو . ولم يذكر شىء عن موضوع المقابلة ••

وفى الموانىء من كى وست الى نيويورك ، ومن سان دييجو الى بريمرتون ، ومن موانىء على ساحل الاطلنطى الاوربى والبحر المتوسط ، وكل انحاء المحيط الهادى ، كانت سفن البحرية الامريكية وغواصاتها تهرع الى البحر طوال ساعات بعد الظهيرة ••

وفى ساعة متأخرة من بعد الظهر ، وصل تقرير الى موسكو يفيد أن ثلاث غواصات بولاريس وسفينتها الام انزلقت الى البحر بهدوء من قواعدها فى هول لوك باسكوتلندا •

كل هذه الحركات ، بالاضافه الى اعلان أن كنيدى سيوجه خطابا للامة فى المساء حول موضوع على أكبر قدر من الاهميه ، أقنع رجال الكرملين بأن هناك معركة فاصلة على وشك الوقوع ••• لاول مرة فى التاريخ ، كانت هناك دولة ذريه كبرى على وشك أن توجه تحديا مباشرا لدولة ذرية أخرى

الرئيس يتكلم

فى اللحظة التى بدأ فيها كنيدى حديثه فى ليلة ٢٢ اكتوبر ١٩٦٢ ، صدرت أوامر معينه لغرفه الحرب المشتركة فى البنتاجون ، وأخذت الاضواء والارقام تومض على لوحات عرض الكترونيه فى كل مركز قيادة أمريكى رئيسى فى العالم .. ووقفت كل عناصر القوى العسكرية الامريكية فى أنحاء العالم فى حالة دفاع رقم (٣) باستثناء القيادة الجوية

الاستراتيجيه التى تحولت الى حالة الدفاع رقم (٢) وهناك خمس حالات للدفاع .. فالحالة رقم (٥) هى العاديه - أى حاله التاهب خلال وقت السلم ، والحالة رقم (٢) أكثرها أهمية ، اذ تضع الوحدة على قدم الاستعداد الكامل للحرب بحيث لاتحتاج الا الى اشارة واحدة للتحول الى الحالة رقم (١) التى تصبح فيها فى حالة حرب .

وتوقفت كل رحلات التدريب . وفى أكثر من ٨٠ قاعدة للقاذفات : فى أمريكا وجوام وبريطانيا والمغرب واسبانيا زودت كل الطائرات بالوقود والاسلحة الذرية ووقفت متاهبة للتحليق . وعززت الحراسة فى كل قاعدة من قواعد القيادة الجوية الاستراتيجيه وكل قاعدة صاروخيه فى العالم اذ أن قواعد القيادة الجويه الاستراتيجيه هى الاهداف الرئيسيه

وانتقلت أسراب من القاذفات (ب-٤٧) الى حوالى ٤٠ مطارا مدنيا من الساحل الشرقى الى الغربى وهى مطارات كان اعدادها يجرى منذ سنين لمثل هذا الموقف

وبينما كانت حاله التاهب تجرى فى السلاح الجوى ، كانت أطقم اطلاق الصواريخ عابرة القارات المنتشرة فى أنحاء الولايات المتحدة تقف كلها فى حالة تأهب كامل فضلا عن كل الاساطيل البحريه الثمانيه من الغواصات بعيدة المدى التى تحمل ١٢٨ صاروخا من طراز بولاريس ، وتقف على مسافات مناسبه من الاهداف الرئيسيه الروسيه ..

ووقف كنيدى يقول فى قوة :

« كانت سياستنا تتسم بالصبر وضبط النفس ، وفقا لما يناسب دولة مسالمة قوية تتزعم تحالفا فى أنحاء العالم .. أما الآن فقد أصبح الامر يتطلب عملا آخر ، يجرى الآن .. وقد يكون هذا العمل مجرد بداية فقط ..

« اننا لن نخاطر بحرب ذريه عالمية قبل الاوان أو بلا ضرورة ... حرب تكون ثمار النصر فيها رمادا فى أفواهنا - ولكننا لن نتقاعس أيضا عن هذه المخاطرة فى أى وقت ينبغى مواجهتها فيها ...؟

« هذا التهديد الروسى الاخير - أو أى تهديد آخر يتم بصورة مستقلة أو ردا على أعمالنا هذا الاسبوع - سوف نواجهه بعزم لايفل ، وأيه خطوة معاديه فى أى مكان فى العالم ضد سلامه وحرية الشعوب التى التزمنا حيالها ، بما فى ذلك شعب

برلين الشجاع بصفه خاصة ، سوف نواجهها بأى عمل يتطلبه الموقف »

كانت الساعة الثانية والدقيقة الثامنه عشرة صباحا فى موسكو عندما أتم الرئيس تحديه الذى يتسم بالتصميم ... وتكشف عالم من المعانى الصريحه بعد أن جاءت معلومات المخابرات الروسية الى الكرملين

وفى واشنطون ، بدأت حملة الخارجية الامريكيه منذ اللحظة التى ألقى فيها الرئيس خطابه ... وطلب الى السفير الروسى الصعود الى مكتب راسك وزير الخارجية ، وقبل صعوده تحدث فى مرح مع الصحفيين .. ثم عاد بعد ساعه و ٢٥ دقيقه يمسك فى يده نسخة من خطاب الرئيس .. وسأله أحد الصحفيين قائلا: «سيدى السفير .. هل هناك أزمه سوفيتية ــ أمريكية ؟ »

فقال دوبرين : اسأل وزير الخارجية .

وفى الدرج الكبير بالطابق الاسفل بالوزارة اجتمع ٤٦ سفيرا لدول صديقة يستمعون الى خطاب كنيدى مترجما الى لغاتهم فى نفس وقت القائه ، ثم تحدث معهم جورج بول وكيل الوزارة عن حركه روسيا فى نصف الكرة الغربى ، ثم عرض مدير مخابرات الوزارة عليهم لوحات زجاجية لصور طائرات الاستطلاع ...

وتولى دين راسك بنفسه اطلاع سفراء الدول المحايدة على الموقف ، كل على انفراد وفى اليوم التالى ــ الثلاثاء ٢٣ أكتوبر ، اجتمعت منظمة الدول الامريكيه واستمعت الى شرح للموقف فأيدت القرار الامريكى بأغلبيه ١٩ ضد صفر

وفى نفس اليوم ، دعى مجلس الامن لاجتماع طارىء ، شرح فيه ادلاى ستيفنسون المندوب الامريكى حجج أمريكا مطالبا بادانة روسيا وكوبا ..

وفى يوم الخميس وقف فالريان زورين مندوب روسيا ليتكلم ، فقال انه ليس فى كوبا آية صواريخ هجوميه ، وأن أمريكا لم تثبت وجودها .. وبعد أن تحدى ستيفنسون المندوب الروسى أن ينفى وجود الصواريخ فى كوبا ، عرض على المجلس الصور التى التقطتها لها الطائرات (ى-٢)

***

وفى يوم الاربعاء ٢٤ اكتوبر ، كان وليم نوكس سكارسديل مدير شركه وستنجهاوس الدوليه بنيويورك ينهى زيارته لموسكو كضيف على منظمه

التجارة الدوليه الروسية ، عنـدما تلقى دعوة من خروشوف لمقابلته فى الكرملين فى الساعة الثالثه ..

ووصل نوكس بعد الموعـد بربع ساعة مصحوبا بمترجم روسى، فأدخل الى مكتب خروشـــوف وظل رئيس الوزراء الروسى يتحـدث اليـه ثلاث ساعات ... اعترف خلالهـا بأن له حقا صواريخ هجوميه وطائرات فى كوبا ، وأنه سـوف يستخدمهـا اذا دعت الحاجـة .. أما فيمـا يتعلق بحصـار كوبا ، فهو يريد أن يعرف كنيدى والشعب الامريكى أن الاسطول الامـريكى اذا أوقف سـفنا تجاريه روسية غير مسلحه فان غواصه روسية ستغرق احدى سفن الاسطول الامريكى ... وهكذا تنشب الحرب العالميـه الثالثه ..

وفى نفس اليـــوم قام أوثانت السكرتير العام للامم المتحدة بارسال خطـابين متشـابهين الى كل من واشنطون وموسكو ، دعا فيهمـا الى وقف الشحنات العسكريه الروسـيه لكوبا ، ورفع الحصار عن كوبا .. وأدركت واشنطون على الفور انها اذا قبلت الطلب فان المفاوضـات التى ستتلو ذلك ستكون بلا ثمـرة . وسوف تستعيد روسيا ميزة المباداة، فى الوقت الذى تبقى فيـه محتفظه بقاعدتها الذرية فى كوبا وتدعمها .. أما خروشوف فقد قبل اقتراح اوثانت شاكرا « لصالح السلام »

ولكن كنيـدى رد بصرامه قائلا : « ان التهـديد القائم خلقـه تقـديم أسلحه هجوميه سرا لكوبا والرد عليه يكمن فى ازالة مثل هذه الاسلحة »

رد الفعل فى أوربا

كانت الولايات المتحدة قد أسرعت باطلاع حليفاتها فى اوربا على الامر، اذ أوفـدت دين آتشيسـون وزير الخارجية السابق الى اوربا فى اليوم السابق لخطاب كنيـدى ، حيث أبلغ كبـار المسئولين هنـاك عن القواعد الصارخيه فى كوبا واجراءات الحصار التى سيعلنها كنيدى فى تلك الليلة .. لم يكن أحد يعرف ماذا يكون رد فعل ديجول ووزراء حلف الاطلنطى للقرار الذى اتخذته أمـريكا بمفردها فى هـذه المسـألة ، ولـكن مقـابلة آتشيسون لديجول اسفرت عن اقتناع الرئيس الفرنسى التام بموقف أمريكا

وفى المساء حضر آتشيسون اجتماعا سريا لمجلس حلف الاطلنطى ، عرض خلاله الصور على سفراء ١٥ دوله من اعضـاء الحلف ، وما لبث الجميع أن أعلنوا تأييدهم لموقف أمريكا .

الضغط يزداد

في الوقت الذى اخذت الانباءتترى فيه على الكرملين عن الموقف الموحد للعالم الحر ، كان الرئيس كنيدي يواصل ضغطه على خروشوف ..

ففى يوم الثلاثاء ٢٣ اكتوبر : أعلن ماكنمارا وزير الدفاع أن ٢٥ سفينة روسية تتجه صوب كوبا

وفى صباح الاربعاء .. تنبأ ماكنمارا بأن أول لقاء بين البحرية الامريكيه والسفن الروسية سيحدث في السابعه والنصف مساء .. وفي المساء أعلنت الوزارة أن بعض السفن غيرت طريقها

الخميس : قال ماكنمارا أن ١٢ سفينه عادتأدراجها ، والمفترض أنها كانت تحمل اسلحه هجوميه اخرى

الجمعة : أذاع البيت الابيض أن الصور الجديدة أظهرت أن الروس يواصلون العمل بسرعه في قواعد الصواريخ ، وقالت وزارة الخارجيه أن كنيدى كان جادا تماما عندما قال انه سيتخذ عملا آخر اذا لم تتم ازالة الصواريخ من كوبا ... وفى أنحاء واشنطون ، راح اعضاء الكونجرس — بوحى من البيت الابيض — يذيعون أن ضرب قواعد كوبا الصاروخية من الجو لن يتأخر كثيرا ..

وفى ليله الجمعة ، بدأ خروشوف يضطرب ... وجاءت رسالة طويلة من موسكو لكنيدى قالفيها خروشوف انه هو وكنيدى أشبه برجلين يجذبان حبلا به عقدة غير محكمه في الوسط وكلما زاد الاثنان الشد ، ازدادت العقدة احكاما حتى يأتى وقت لايستطاع فيه فكها .. اما اذا تخلى كنيدى عن الجذب من ناحيه ، فان خروشوف سيوقف الجذب من جانبه أيضا .. وأخيرا أعترف خروشوف بحقيقه الصواريخ .. وقال انه كان يعتبرها دفاعيه ، ولكنه يفهم الآن أن كنيدى قد يعتبرها هجومية .

وراح المسئولون الامريكيون طوال الليل يدرسون رسالة خروشوف المثيرة للدهشة ... وبدا أنه يقول فيها أنه مستعد لسحب الاسلحه الهجوميه من كوبا اذا نجح فى الحصول على أى وعد أمريكى ضمنى بعدم غزو كوبا .

وفى صباح السبت : أذاعت وكالة تاس من موسكو رسالة جديدة من خروشوف عرض فيها ازالة الصواريخ من كوبا اذا أزال كنيدى صواريخ حلف الاطلنطى من تركيا ، ثم يودع الطرفان ضمانات بعدم غزو كوبا فى الامم المتحدة ... ورد كنيدى فورا وعلنا برفض هذه الصفقه .. وفى

المساء بعث ردا على رسالة خروشوف السريه السابقة ، وتعهد فى الرد بتقديم ضمانات بعدم غزو كوبا ورفع الحصار عنها فورا اذا وافق خروشوف على سحب أسلحته الهجومية منها تحت اشراف الامم المتحدة

كان يوم السبت هو أسود أيام الازمه ، فالى جانب ماتضمنته رسائل خروشوف من ارتباك ، كانت هناك نذر مشئومة طوال اليوم توحى بأن سياسه الروس تزداد صلابه .

ففى حوالى العاشرة صباحا ، اسقطت بطاريه مضادة للطائرات يديرها الروس طائرة الميجور رودلف آندرسون وهو عائد من رحله استطلاعيه فوق كوبا بطائرة (ى-٢) كما أطلقت النيران على طائرتين آخريين على ارتفاع منخفض .

وبعد الظهر ، ساد التوتر بصفه خاصة عندما بدا أن أمريكا قد تشعل الحرب بطريقة عارضه ، اذ أرسلت طائرة (ى-٢) من آلاسكا الى القطب الشمالى لجمع عينات من الهواء بعد اخر تجربه ذرية لروسيا . وعند عودتها ، أخطأ الطيار وبدلا من أن يعود الى آلاسكا ، اتجه رأسا نحو موسكو عبر شبه جزيرة تشوكوتسكى ، الروسيه وعندما رأى المقاتلات الروسيه تتجمع لاسقاطه ، اضطر فى هلع أن يقطع حبل السكوت اللاسلكى ليعرف مكانه بالضبط .

وكان من المحتمل أن يعتقد خروشوف ان هذا العمل تمهيد لهجوم أمريكى على موسكو عبر الدائرة القطبيه ...

وأسرع روجر هيلزمان مدير مخابرات وزارة الخارجيه الى مكتب كنيدى ليذكر له الكارثة .. ولكن كنيدى استمع اليها بأعصاب هادئه ثم ضحك وهو يقول : « انه يبدو أن بعضهم لن يفهم المطلوب أبدا .. ثم أرسل كنيدى بعد ذلك اعتذارا وتفسيرا لخروشوف

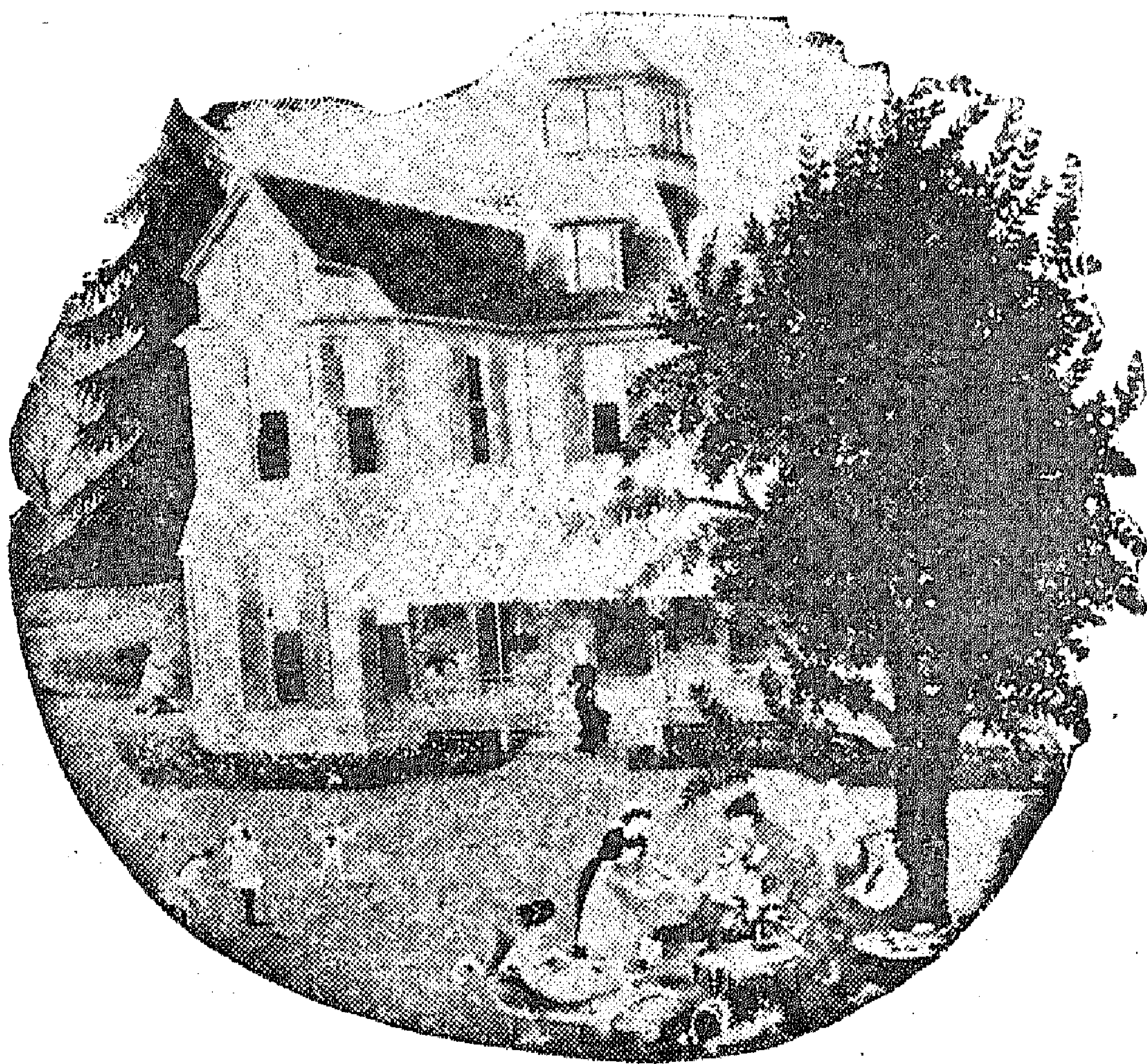
صباح الاحد : أخيرا أذعن خروشوف ... وجاء استسلامه عبر الاثير ، فقد أعلن أنه أصدر أوامره بفك الاسلحه التى يصفها كنيدى بأنها هجوميه واعادتها للاتحاد السوفيتى .. ثم قال ان الاسلحه أرسلت لكوبا لصد الهجوم عنها ، ولكن ما دام كنيدى تعهد بعدم غزوها ، فلم يعد هناك داع لوجود هذه الاسلحة . كما أن موسكو مستعدة للوصول الى اتفاق لتمكين ممثلى الامم المتحدة من التحقق من هذا التفكيك

وهكذا انتهت الازمه الكوبية ..

كتاب الشهر

البيت الذى ذهب

ملخص عن كتاب OUR OCTAGONAL WORLD



بقلم ادريان تومسون

كان المنزل الفسيح المثمن الاضلاع يقع فى
ميسورى على مقربة من سانت لويس ،
ولكنه كان يسمى « بارناسوس » .. وكان فى
الصيف يضم اسرتين يونانيتين لاطفالهما
اسماء شهيرة مثل « اخيلوس » ،
و « أرسطوطاليس » ، و « ديموستينوس » ،
و « بركليس » ، و « أرتميس » و « أفروديت »
... وقد ذهب « بارناسوس » ولم يعد له
وجود اليوم الا فى الذكرى المحبوبة ، ولكن اشادة
ادريان تومسون بذكرى طفولة يونانية ــ أمريكية
غير عادية تثير ماضيا ساحرا حقا .. »



البيت الذى ذهب

عندما وصلت انا وبركليس ، وارتميس الى المنزل بعد ظهر ذلك اليوم الحار من أيام يوليو، أصبنا بخيبة أمل ، فان العم ديمتريوس الذى كان يستقبلنا دائما بالهدايا كان فى الخارج يمتطى صهوة جواده ، وكان ابناءخالتى (افروديت) و (ارسطو) و (واخيلوس) و (ديموستينوس) قد عادوا من المدرسة وهم يتلهفون لرؤيتنا ، ولكن خالتى الين وافقت أمى عندما أصرت على اننا فى حاجة الى الراحة ..

وقالت لى أمى : « ادريان . أريد أن تغفوساعة مع اخيكواختك » ..

ولما كنت لا أزال فى السادسة من عمرى ، فلم يكن امامى الا أن اصعد الى الغرفة الاضافية المخصصة لنا ، وسرعان مااستغرق بركليس ، الذى يبلغ الخامسة ، وارتميس الذى يبلغ السابعة فى النوم ، اما انا فقد كنت اتلهف الى ارتياد المنزل الذى سيصبح مقرا لنا طوال الشهرين التاليين .

كان البيت يرتفع فوق ٣٠ فدانا من البساتين والحدائق فى احدى ضواحى سانت لويس بولاية ميسورى ، وكان المنزل مغطى بألواح خشبية خضراء ، مزينا بزخارف انفق عليها بسخاء ، وكان شكله الغريب المثمن الاضلاع يميزه عن بقية دور الطبقة الامريكية الوسطى فى مطلع القرن الحالى .. والواقع انه كان معقلاصغيرا للثقافة اليونانية..

وقد سمى البيت « بارناسوس » تيمنا باسم جبل أبولو وعرائس الشعر القديمة ، وكانت جدرانه الثمانية تضم فى داخلها مبنى على هيئة صليب يونانى ، وكانت صفته الرسمية انه منزل القنصل اليونانى المتقاعد العم ديمتريوس ، وجدنا فيامبوليس الذى كان قسيسا يونانيا ارثوذكسيا ، ولكن بارناسوس كان بالنسبة لى أنا وبروكليس وارتميس مكانا ساحرا ، مزيجا من مستشفى المجاذيب وارض العفاريت التى نقضى فيها عطلاتنا ومواسم الصيف .

وبينما كنت انتظر انتهاء ساعة النوم بعد ظهر ذلك اليوم ، تذكرت

القبــة ، وهى طاقة صغيرة تتربع كالتاج فوق قمــة البيت ، وكثيرا ما رفعت نظرى الى نوافذها من قاعــة المدخــل الكبيرة فى أسفل ، ولكنهم كانوا قد طلبــوا منا ألا نصعد اليها قط حتى لايسبب ارتفاعها لنا دوارا يجعلنا نسقط من الشرفة ..وقررت أن اقوم بجولة استقصاء ، فتسللت من الفــراش ، وشققت طريقى نحو سلم القبــة الحلزونى ، وصعدت الدرجات الضيقة المنحدرة ، واخيرا وقفت فوق أعلى قمــة شهدتها فى حيــاتى ، وبدا ان قلبى قد توقف عن الخفقان ..

لقــد أحسست كأننى الهة تقف على قمة جبل أوليمبوس ، وقدامتد العــالم كله تحتى مصــبوغا باللونين الاخضر والذهبى ، وكان فى استطاعتى ان أرى المراعى المنبسطة ، والحقول فى ضيعة عمى ، وتحتى مباشرة رأيت أمى وشقيقتها خالتى الين فى حدائق بارناســوس ، وقد ارتدتا الثيــاب البيضاء الفضفاضة التى ترتديانهــا بعــد ظهر كلّ يوم وقد صنعت على الطراز الاغريقى القــديم ، وعقصتا شعريهما الى أعلى برباط من شريط حريرى ، وانتعلتــــا فى اقدامهما صندلين ذهبيين ..

وفجــأة رأيت العم ديمتريوس قادما من بعيــد فوق جواده ، وقد انطلق مسرعا نحــو البيت حاملا على ظهره كيســـا ضخما ، وفى غمرة سرورى أسرعت أهبــط الدرجات الحلزونية ، وأيقظت أخى وأختى ، فى الوقت الذى اندفعت فيــه أمى وخالتى الين نحو المنزل ..

وهــرعت مع بركليس وارتميس الى أسفل للانضمام اليهما وقدتملكنا السرور توقعا لما نعرف انهسيحدث، ولكن خالتى لهثت قائلة باليــونانية : (ياالهى) وشرعت تعمــل بسرعة لاخفاء كلّ الاشياء القابله للكسر .

ثم اقبل العم ديمتريوس مندفعا من خلال الباب والكيس فوق ظهره، بينما كانت عينــاه تتألقان كالماسات الزرقاء فوق شاربه الشمعى ولحيته البيضاء المدببــة ، ودون ان يتوقف مر الى جــوارنا بسرعة ، ثم صعد الدرجــات الى اعلى كأنه العفريت حارس الكنز ، وكنا نرقبه فى دهشة وهو يجرى متجاوزا الطــابقين الاول والثانى حتى بلغ اخيرا الطابق الثالث الذى يقع تحت القبــة مباشرة ، ثم انحنى فوق حاجز السلالم وصاح : (هيا . . هيــا . اهبطوا ياادريان وبركليس وارتميس .. هيــا لقد

جاءت الهدايا) ..

وافرغ الكيس فى الهواء ، فانهمرت فوقنا أمطار من قطع العملة الصغيرة والجور والحلوى ، ومجمـــوعة من اللعب الصغيرة الرائعة ، وتناثرت فى كل اتجـــاه بينما كنا نحن الثلاثة نضحـك ونصيح ونجرى لالتقاطها ، وكان ذلك أول كنز وأول مغامرة من الالوف التى تمتلىء بهـــا مواسم الصيف التى نقضيهـــــا فى « بارناسوس » .



كان العم ديمتريوس ولا شك هو رب الدار ، ولكن كان المفهوم بصفة عامة أن جدى يعلوه مرتبة ...

كان جدى أديبـــا الى جانب كونه قسيســـا ، وقد أمضى أغلب أوقاته يدرس الفلسفة ويكتب تاريخ الاديان ،

وقد تعلمنا ونحن أطفال ان نتقدم ونقبل يده كلمـا دخل الغرفة ، وفى أمثال تلك المناسبات كانت أمى تتوقع منا أيضـا أن نقضى بعض الوقت فى حديث موقر معـــه . ومع ان جدى كان يتكلم ثمانى لغـات بطلاقة فان انجليزيتـــه كانت ضعيفـة ، وكان يترجم كلماته اليونانية لنا عادة الى الفرنسية والايطالية أو الروسية ، ولكن سلوكه معنا كان رقيقا وحنونا ، حتى اننا ولو لم نفهـم ماكان يقول ، كنا نعرف انها لغة الحب ..

كان اسمه بنايوتى فيامبوليس ، وقد ولد عام ١٨٤٠ بجزيرة «اتياكا» اليونانيـــة وبعد ان امضى بضع سنوات فى اليونان ، أوفد الى امريكا لانشاء أول كنيسه يونانية أرثوذكسية فى شيكاغو ، وجاءت معه بناته الين ويوريدس وأمى بنلوب وابناه جون وتيموســتكليس ، وهم كل من بقى من اطفاله الاثنى عشر .

وكان وصولهم الى شيكاغو مثيرا بين أعضاء الجالية اليونانية ، وكانت ابنتـــه الين تسترعى الانظار بصفة خاصـــة ، اذ كان لها وجه رقيق



كالجـــوهرة ، وعينان سوداوان مضيئتـان وجسـم رشـيق نحيل ، وقــد طلبت يدها حوالى ٤٠٠ مرة وهى فى عامها السـابع عشر ، من كل شـاب يونانى أعزب فى شيكاغو وما حولها ، ولكن جدى رفض كل هذه الطلبـــات ، فقد كان يهدف الى تزويجهـــا من رجـل يضمن لها مستقبلا سعيدا وورعا أيضا . وقد ظهر مثل هــذا الرجل فى شخص « ديتمريوس جانوبولو » القنصــل اليونانى فى سانت لويس ، الذى جاء الى شيكاغو ليطلب الى جدى انشاء كنيســة فى بلدته . وكان ديمتريوس سيدا جسورا ذا ثراء ومركز سام ، وكان مؤمنا ورعا ، منح أعظم اوسمة اليونان ..

وهكذا وقع اختيــار جدى على ديمتريوس ليكون زوجا لخالتى الين ، وكان اختيارا موفقــا ، لانهما تبادلا الحب على الفور ، وعقدجدى قرانهما بنفسه ، وبعد شهر العسل عادا الى ســانت لويس ، حيث رأت هــدية زفافهـــــا لاول مرة ، وهو بيت ديمتريوس العظيم : « بارناسوس » وقــد أشارت الصحف اليهــا يومئــذ باعتبارها (هيلين الحسناء) وقالت انها عروس جديرة بان تعبد فى مثل هذا المعبد ! ..

لاأعرف ماذا كان شعورها ، ففى الوقت الذى ولدت أنا فيــه ، كانت خالتى الين ملــكة بارناسوس بلا منازع ، وكانت يومها قد تجاوزت الاربعين بقليل جميلة رشيقة رقيقة ، وكانت ايضا يونانية من راسها الى اخمص قدميها ، وقد عقدت عزمها على ان تحتفظ بثقافة يونانية خالصة فى مملكتها الجميلة ، ومن اجل ذلك كانت تختلف أحيــانا مع أطفالهــا ولا سيما ابنتها افروديت .

كانت ابنــة خالتى (افروديت) طالبـــة بجامعة واشنطون ، وكانت

فى رأيى أجمـــل مخلوق على ظهر الارض .. طويلة ســمراء ، ذات شعر أسود يميـل للزرقة ، وعينين عسليتين تحت حاجبـين ناعمـــين مقوســـين ، ولا غرو ان اسماها اصـــدقاؤها يومئذ « الهة جامعة واشنطون » فقد كانت اشبه بآلهة اليونان القدماء .

وعلى الرغم من كل هذا الجمال فقد كانت افروديت فتاة قلقة ، اذلم يكن مسموحا لها بالخروج بمفردها مع اى شـــاب ، مع انها كانت فى العشرين من عمـــرها ، وكانت التعليمــات الصـارمة تقضى عليهــا بالعودة من الكليــة الى البيت رأسا بعـــد ظهر كل يوم ، وهذه القواعد فرضتها امهــا ، اذ كانت خالتى الين مصرة على ان تتـــزوج افروديت يونانيا .

ولكن متاعب افروديت كانت اعمق كثيرا من مجرد الغرام الذى تحوطه العراقيــل ، اذ انها كانت تتوق الى ان تكون طبيبة ، بينما كانت خالتى تعتبر الاشتغال بأى مهنة أمرا لايليق بفتاة ، وكانت تعارض بصفة خاصة دراســـة الطب ، لان معنى ذلك التحاق افروديت بفصول كلها شباب امريكى ، نظرا لانه لم يكن هنــاك أية فتيـــات فى كلية طب سانت لويس يومئذ . وقد ظلت هذه المسألة تثير نزاعا مريرا فى بارناسوس وقتاطويلا .

كان الجدل والمشادات تثور فجأة حول أى موضـوع تحت الشمس ، فهى جزء من الروح اليـــــونانية العاطفيــة ، التى تنفعل بعمق حيال أى شىء ، وتقترن بهـــذه المشادات اشارات دراماتيكية عجيبة ، ودموع هستيرية ..

وكانت المشــادات التى تقع حول رغبة افروديت فى ان تصبح طبيبة ، عنيفة ضــارية تنتهى دائما بصفق الابواب ، وكانت امى تقف دائما فى صف افروديت ، وكذلك كان العـم ديمتريوس الذى يحب التعليـم يؤيد ابنتـــه .. واخيرا تقرر استشارة جدى فى الامر ..

وبعد عرض الموضوع عليه ، ظل جدى يفكر فى صمت عــدة أيام ، ثم دعانا بعـد ظهر أحد الايام الى قاعة الاستقبـــال ، وقال : « لااعتقد انه ينبغى ان تصبح افروديت طبيبة ، اذ ان طبيعة تكوين المرأة تجعل مهنة الطب تضطـــرها للتضحية ببعض ميولها الطبيعية » .

وقد اسكت هذا الراى القوى أمى والعـم ديمتريوس ، ولكن افروديت

رفضت ان تتقبل الهزيمة ، وظلت طوال صيفين كاملين تجادل وتحاجي وتبكي وتتوسل ، حتى فازت بعطف كل فرد فى الاسرة ، وبدا أن الحرب لم تنته بعد .

وعندما كنا نذهب الى بارناسوس خلال الصيف ، كان أبي يبقى في بيتنا بسانت لويس ، حيث تولى مهام القنصل اليونانى هناك بعد تقاعد العم ديمتريوس ، ولكن أمي التى كانت تمجد دائما عظمة اليونان القديمة كانت تزورنا كثيرا ، وكان طبيعيا ان تحدثنا عن الاصل الاسطورى والتاريخى لاسماء أقاربنا ، وكان ربط صفات كل منهم مع صفات الشخصية التىيحملون اسمها ، يتطلباحيانامخيلة فسيحة، ولكن الامر لم يكن كذلك مع ارسطو .. فقد علمونا أن أرسطو الاول كان يسمى « الباحث عن الحقيقة »وكان ابن خالتى ارسطو يدرس القانون . وكان يبحث دائما عن الادلة والاثباتات ، وكان بالنسبة لى أنا واخوتى يعد حجة فى القانون ، نحمل اليه منازعاتنا أثناء الطفولة .

وكان ارسطو فى تسويته لهذه المناعازت يستخدم كلمات لانفهمها ، فيتحدث عن حقوق الملكية ، والاثباتبالقرائن ، والقانون الجنائى، ويزين احكامه بآراء من ارسطو وافلاطون .. فاذا واجه أية معارضة منا ، حدق فينا بعينيه السوداوين، وضمشفتيه فى ازدراء ثم قال انه يستطيع ان يلقى بنا جميعا فى السجن ، وعندئذ ننكمش وتلين عريكتنا على الفور ، أما اذا تقبلنا الحكم ، فانه يبتسم ويقودنا الى المطبخ ، حيث يعد لنا بعض الحلوى.

كعب اخيلوس

كان الفرق بين ديموستينوس واخيلوس ـ شقيقى سقراط ـ كالفرق بين الليل والنهار ، فالاول شاب طويل رقيق ، وهو أكبر ابناء خالتى واكثرهم خيالا ، فقد كان يريد ان يكون مخترعا ، وقد انبثق هذا عن حب عميق للطبيعة ، اذ كان يرى فى عمل الله خلاصة الجمال والبناء ، وكثيرا ما كان يصحبنا فى جولات يجمع خلالها تحفا : بيضة طائر ، أو نحلة ميتة ، أو قطعة من الطحالب ، وعندما نعود الى المنزل يسمح لنا باختلاس نظرات الى اسرارها من خلال المجهر ، وكان ديموستينوس هوأول من جعلنانرى عظمة جناحى الفراشة ، وقد قص علينا حكايات عن الشهب والنيازك

وكان اكثر مايثير اعجابنا به هى مخترعاته ، فقد كانت غرفته مليئة برسومات هندسية ، عليها خطوط بيضاء غامضة تبدو كقصور سحرية فى السماء ، وكانت تلك تصميمات لاجهزة توفر الوقت : اضواء تضاء وتطفأ آليا ، وآلة لغسل الاطباق ، وكانت امى هى الوحيدة التى تؤمن بأن أى أختراع منها يمكن أن يعمل، أما بقية الاسرة ، فكانت تعتز بتقرب ديموستينوس لله وحبه للطبيعة .

وأما أخيلوس ، فكان أقل فتيان الاسرة وسامة ولكنه أكثرهم مرحا ، فالوجود معه يثير البهجة والمرح ، اذ كان يحب الغناء والرقص ،وتدبير «المقالب» فيضع الصابون فى شطائرنا، واللبان فى أحذيتنا ، والضفادع فى أدراج مكاتبنا ، ويجعلنا ننهمك فى تدبير المؤامرات للانتقام منه ...

ولكن كان أكثر مايحيرنا فى « أخيلوس » هو كعبية ، فقد كان يصر على أنه مثل سميه المحارب العظيم «أخيلوس» الاغريقى ، غمس جسمه فى المياه السحرية ليصبح محصنا ، ماعدا كعب ساقه الذى فيه نقطه ضعفه !.. ولكى يثبت ذلك ، كان يسمح لنا ان ندق بقبضاتنا على صدره وعنقه وذراعيه وساقيه ورأسه ، ولكنه لايسمح لنا قط أن نلمس كعبه ، وقد دبرنا خططا متقنة حينا بعد آخر لامساكه منهما على حين غرة ، أو فى منتصف الليل لكى نقرص هذه المنطقة التى يزعم ان فيها نقطة الضعف فيه ، ولكن عين اخيلوس الحذرة كانت تحبط خططنا دائما .

وكان آخيلوس ، وديموستينوس أخوين يحب كل منهما الآخر ، ولكن الاختلاف فى أمزجتهما كان ينعكس على كل شىء يفعلانه ، حتى فى حبهما المشترك للموسيقى ، فقد كان الاول يعزف موسيقى الجاز على البورى الطويل ، بينمايعزف الثانى مقطوعات



كلاسيكية على الناى ، وكانا يتدربان فى وقت واحد ويرفض كلاهما أن يتخلى عن ساعته للآخر ، فيختلط الصوتان ويصطدمان فى ضجيج يصم الآذان .

ولكن أخيلوس توقف يوما عن العزف فجأة ، وصعدت خالتى البن لتعرف سر هذا الحدث الذى لم يسبق له مثيل . فوجدته يتغرغر بسائل مطهر ، وقد احتقن وجهه وارتفعت حرارته ، ثم رقد بعد ذلك فى الفراش وقد أصيب بالتهاب رئوى حاد ، وهدأ المنزل فى الايام التالية ، وبينما كان الطبيب يأتى ويروح ، كان ديموستينوس يحوم دائما حول فراش أخيه .

واستولى الحزن على أنا وأخوى ، فقد أدركنا أن أخيلوس لم يكن محصنا ، واعتقدنا انه سيموت ، وتذكرنا ضحكاته ومقالبه ، والكعب الذى لم نستطع قط امساكه ، وظل الخوف الكئيب يسيطر علينا ، حتى قيل لنا يوما ان اخيلوس يستطيع رؤيتنا لمدة قصيرة .. وهرعنا الى أعلى ، وفتحنا باب غرفته ، وحدقنا فى دهشة الى الفراش كان اخيلوس قد رقد على بطنه ، وركل الغطاء .. ورأينا قدميه عاريتين أمامنا بلا حول ولا قوة !

ولكن حبنا له كان أعظم من أن يسمح لنا بانتهاز هذه الفرصة ..



كان « بارنا سوس » مليئا بأماكن سرية عجيبة ملأت طفولتنا بسحر خاص ..

ففى احدى الغرف العلويه ، كان هناك باب صغير لايزيد ارتفاعه على نصف متر ، يؤدى الى غرفة منعزلة مليئة بكثير من الغلايين المختلفة الاشكال ، وكانت تلك هى غرفة الكنز بالنسبة لنا ، نحتفظ فيها بأشرطة السجاير الذهبية ، وصندوق صغير يحوى احدى أسنان أرتميس ، وبعض البلى الابيض الذى صقلناه ، حتى أصبح يتألق كاللآلىء ، ورأس سهم هندى وكتب الشفرة السرية التى نلعب بها .

وكان الضيوف الذين يتجولون

فى حدائق بارناسوس يدهشون دائما عندما يكتشفون رابية صغيرة تكسوها الحشائش والى جوارها نافذة كانت جزءا من السقف المقوس لغرفة العاصفة ، وهى مساحة صغيرة حفرت فى الصخر الصلد لتكون حصنا ضد العواصف والرياح .

وعندما كان هزيم الرعد يدوى فى السماء ، كنا نهرع الى القبو ونحن نتحسس طريقنا خلال النفق الطويل المظلم الذى يؤدى بنا الى الرابية وهناك من خلال النافذة ، نرقب العالم الذى تغمره الامطار ، وشجر البتولا وقد انحنت أغصانه فى وجه الريح ، والصفصاف يلوح بأذرعته الطويلة المبللة بالماء ..

وعلى رأس السلالم الخلفية ، كانت هناك مقصورة نسميها « المكان المخيف » فقد كان يسودها ظلام حالك ، وتمتد فى ممر دائرى مسافة مترين من خلال الجدران ولا يرتفع سقفها أكثر من مترين ، وكنا نقبع هناك امام الجدران وقد تلامست ركبنا ، ونحس بخيوط العنكبوت تلمس وجوهنا ، ونحكى قصص الاشباح فى همسات خافتة ..

وكان مكاننا البارد هو قبو النبيذ ، الذى غطيت جدرانه بصفوف من زجاجات خضراء تتألق بألوان كقوس قزح تحت ماء البحر .. وفى الايام التى يشتد فيها الحر ، كنا نحب السير فى هذه الغرفة حفاة الاقدام ، نلهو ونلعب وكأننا مخلوقات سحرية وجدت كهفا تحت البحر

وكانت هناك غرف أخرى نحبها فى « بارناسوس » كغرفة البلياردو حيث يلعب الكبار على مائدة ضخمة مرصعة بالعاج ومغطاة بقماش أخضر سميك .. وقاعة الاستقبال ذات الضوء الخافت ، التى تشيع فيها البرودة صيفا ، والدفء شتاء ، ولكن غرفه نوم خالتى وزوجها كانت تحوى الشىء الذى لامثيل له فى حياتنا .. وهو صندوق الجواهر !

كانت لخالتى ألين مجموعة من الحلى والمجوهرات ، بينها قرط ماسى رائع ، ولما كانت تتحلى بها فى أغلب الاحيان ، فقد كانت تبقيها فى بارناسوس ، ولكنها هى والعم ديمتريوس كانا يخافان اللصوص ، فابتكرا مكانا مدهشا لاخفائها ، اذ نزعا بعض قوالب الطوب من جدار مدفأة غرفه النوم وصنعا فجوة فى المدخنة ، انزلا خلالها خطافا ضخما به سلسلة طويله تغوص فى أعماق قبر مظلم ، وفى نهاية السلسلة ،

يتـــدلى صندوق حديدى يحوى المجوهرات ..

وقد أضفى هــذا بطبيعة الحال جوا من الغموض على الغرفة كلهـــا ، كان العم ديمتريوس يزيده غمـوضا بتمثيليـــة صغيرة ، يمثلها لنا نحن الاطفال .. فعنـــدما تستعد الخالة الين لخلع حليهـــا ، كان يدعونا الى الغرفة،ويتطلع حوله سرا،ثم يسدل الستائر ويغلق البـاب بالمفتاح ، ثم يركع الى جوار المدفأة ويبدأ فى رفع الاحجار .. ويسألنا فى همس عما اذا كنا نعتقد ان المجوهرات لاتزال موجودة أم انها سرقت أو سقطت فى المغـارة المظلمـــة ثم أخذ فى جـذب السلسلة شيئـــا فشيئا ونحن ننظر اليـــه فى توتر شديد ، حتى يحضر الصندوق .. ثم ينزع عنــه الغطـاء تحت ضـوء الشمعدان الذى يبهر الابصـــــار ، فتتوهج المجوهرات وتبرق ..

وعند هــذه النقطة كانت خالتى تمد يدها الى الصنـــدوق وتختار القطع التى تنوى التحلى بها ، ثم تغلق الصنـــــدوق ، بينما يمضى العم ديمتريوس فى تمثيليتــه المثيرة الى نهايتها ! واذا ما أعاد الصـنـدوق ، وارجع الطوب مكانه ، صرفنا بهمسة أخيرة،محذرا ايانا من أن نذكر شيئا عما رأيناه .

ونخرج من الغرفـة على اطراف أصابعنا وقلوبنـا تخفق ، باعتبارنا حراســــا صامتين لاكثر اسرار بارناسوس رهبة واثارة .

الفـرار

عنـــدما انهت افروديت سنتها الثالثـة بجامعة واشنطون ، كانت رغبتها فى ان تصبح طبيبة قد بلغت الذروة ، ولكن امهـــا كانت لاتزال تعارض الفكرة بقوة لاتلين .. وتكررت المشاهد العاطفية والانفعالات المتفجرة، والجدل والبكاء ..

وخــلال الاسابيع الاولى من ذلك الصيف ، ظلت خالتى صـــامدة فى موقفها بقوة ثم حدث بعد ظهر احد أيام الاحد ، أن جاء أسقف الكنيسة اليونانية فى امريكا الى «بارناسوس» للزيارة وبصحبتها اثنان من أساتذة اللاهوت ، وكان منظره مهيبا فى ثيابه الفضفاضة رقبعته العالية ، وتجمع الكبار لاحتســاء القهوة حول مائدة فى الحـديقة ، بينمـا جلسنـا نحن الاطفال تحت شجرة .

ودار الحديث بعض الوقت حول الدين والسياسة والموسيقى والفن ، الى أن قـررت الخـالة الين أن تنتهز

الفرصة ، وتلتمس رأى الاسقف فى مستقبل افروديت ، فتدرجت بالحديث فى موضوع العلوم ، وتحدث الاسقف باسهاب عن علاقة العلم بالدين ، وعندئذ قالت خالتى ان ابنتها تريد الاشتغال بالطب ، وانها مترددة فى السماح لها بذلك ، وتساءلت عن رأى الاسقف فى ذلك ..

وأخذ الاسقف يفكر فى المسألة مليا ، والجميع ينتظرون كلمته فى صبر ، وكانت افروديت خلال ذلك ترتجف رهبة .. واخيرا تكلم الاسقف قائلا : « على العكس .. انني اعتبر رغبة ابنتك جديرة بالثناء ، فنحن ندخل عصرا يجب أن تتعلم فيه المرأة ان تعتمد على نفسها كالرجل ، كما أن خدمة الانسانية تتمشى تماما مع تعاليم الدين ..

وساد الصمت فترة طويلة ، كان العم ديمتريوس خلالها مقطب الجبين يفكر بعمق ، لكى يخفى حقيقة ارتياحه ، وابتسم ارسطو ، وغمز بعينه لافروديت التى كانت تبتسم والدموع تبلل عينيها .. أما الخالة الين فقد اختفت بسمتها ، وجاهدت لكى ترسم على وجهها صورة للاذعان المؤدب ، ثم مرت باصابعها على احد حاجبيها بخفة وقالت : « انني أحنى الراس أمام حكمكم المبجل ! »

وهكذا سويت المشكلة اخيرا !

وحوش .. وأحلام !

لست أدرى بالضبط ما الذى جعل ارسطو يقرر أن يصبح محاميا ، أو جعل ديموستينوس يرغب فى أن يكون مخترعا ، وأفروديت طبيبة .. ولكنى أعرف أن رغبتى فى أن أكون كاتبة انبثقت من القصص العظيمة للاساطير الاغريقية التى سمعتها مع اخوتى ، عندما كانت أمى تقص علينا قصص الآلهة القدماء ..

وعندما اتطلع الى الوراء ، يبدو لى اننا كنا أكثر الاطفال اعتدالا ، فلم تكن بنا اية نزعات اجرامية ، ولم ينحرف احدنا كما يفعل الاحداث ، وكثيرا ماعزوت هذه الحقيقة الى اننا لم نقرأ قط الكتب الهزلية أو الصحف المثيرة بماتحويه من قصص مروعة عن القتل والجريمة ولكنى أعترف أن هذه المحبة تبدو أكثر ضعفا عندما اتذكر الاساطير اليونانية .

كانت هناك مثلا قصة « سيكلوبس » ذى العين الواحدة ، العملاق الذى اكتشف اوديسوس وبعض المحاربين فى كهفه ، وكيف امسك هذا الوحش عددا من الرجال واخرج امخاخهم

واكلهــا نيئة ! ثم انقذ اوديسوس نفسه بعد ان اسكر العملاق بالخمر، ودس عمودا مدبب ساخنا فى عينيه

وسمعنـــا عن المخلوق الرهيب « شميرا » الذى ينفث النار ، وكان على هيئــة الســد من الامام ، وعنزة فى الوســط ، وتنين من المؤخــرة ، وانى اشـــك فى ان هناك اى كتاب يحوى شخصيــة أكثر كراهية من شخصية « ميدوزا » التى كانت لها هيئة امرأة ذات جناحــين اسودين هائلين ومخـــالب حادة ، وشعرها يتلوى كالحية .. !

ولست ادرى كيف استطاعت امى أن تتجاوز عن كل السلوك الشهوانى الكريه الذى كان يملأ امثـــال تلك القصص ، وكنا اصغر فى براءة وهى تسرد علينا قصــة زوجة الملك مينو التى استبدت بها شهوتها الى ثور ، فتحولت الى بقرة لتشـــبع رغبتهـا العجيبـــه ، ولا اذكر أيضا اللغــة الدقيقة التى كانت تستخدمها وهى تحكى غراميات فينوس الفــاضحة واطفالها غير الشرعيين .

والغريب اننا لم نكن نضطرب او يساورنا الخوف من هذه الخرافات، وكثير منها كان يسرد على مسامعنا قبيل النوم ، فقــد كانت امى تجلس على حافة الفراش ، وتحـــدثنا عن الآلهـــــة اللاتى التهمن أطفــالهن ، واصبن رجالهن بالجنـــون ، والقين بالنساء الى الهاوية .

وعندما ترى امى اخيرا انالوقت أصبح متاخرا ، كانت تبسط الغطاء فوقنــا ، وتطبع على جبـين كل منــا قبله ، ثم تتمنى لنا احلاما جميلة .. وكنا نستغرق فى النوم ونحن نفكر فى الوحوش والاطفـــال الذين أكلتهـم الآلهة ! .

الزائرة

كنا ونحن فى بارناسوس اشبهبمن يعيش فى جـــزيرة ، ففى الصـيف لانكاد نغادر عالمنا اليونانى الصغير ، وكنت العب مع بركليس وارتميس دون ان نشعربغياب الاطفال الآخرين، ولم نكن نشعر بالوحدة قط ، واذا ثار بيننــا اى نزاع ، حله اوسطو ، كما كان ديموستينوس علىاستعداد دائما لكى يصحبنا فى نزهات طويلة ، واذا احســـــنا بالملل ، كــان فى استطاعتنا دائما ان نحــاول امساك كعب اخيلوس !

ولكننا كنا نمضىاغلب الوقتنلعب مع بعضنا البعض ، نستطلع الاماكن السرية التى لانهـــاية لها فى البيت الكبير ، او المزرعه ومخزن الحبوب .

وحظائر البقر ، وغرف الغسيل ، نتقبل عزلتنا عن العالم الخارجى دون سؤال .. ومن ثم فقد كان حدثا هاما عندما ايقظنى بركليس ذات صباح وقادنى الى الشرفة الامامية ، وأشار الى الحديقة ، وهناك رأيت فتاة صغيرة لم نرها من قبل كانت شقراء الشعر ، ترتدى ثوبا ازرق ، وقدماها حافيتان .

واسرعنا نوقظ ارتميس ، ثم ارتدينا ثيابنابسرعة وهرعنا نستقبل الزائرة الجديدة ، ووجدناها تحت شجرة « المانوليا » فاقتربنامنها ببطء ، ثم توقفنا واخذنا نحدق فيها ، وردت علينا بنظراتها واخيرا حطمت ارتميس الجليد وسألتها :

ـ مااسمك ؟

ولم تجب الفتاة ..

فسألها بركليس :

ـ اتريدين اللعب معنا ؟

ولكنها لم ترد أيضا ، وقررت ان اجرب حظى ، فسألتها عما اذا كانت تحب أن ترى حيوانات التجارب التى تستخدمها ابنة خالتى « افروديت » ، ولكنها قالت :

ـ قالت لى أمى اننى يجب الا العب معكم .

ـ لماذا ؟

ـ قلت لكم انه غير مسموح لى بذلك .

وتملكتنا الحيرة حيال هذه الفتاة الغامضة التى تبدو مثل « أثينا » .. وقال بركليس :

ـ هيا تعالى .. سوف نريك الحفرة التى نحفرها الى العين .. وغرفه العاصفة

ولكن الفتاة انطلقت بين الاشجار ، واختفت عن عيوننا ..

وعدنا الى البيت لنكشف هذا السر ، فقالت لنا الخالة «الين» ان الفتاة تدعى (فلو) وانها ابنة الغسالة الجديدة ، ولكنها لاتعرف سبب امتناعها عن اللعب معنا .. ولكننا عرفنا السر من (فلو) نفسها بعد ذلك ، عندما ظللنا نطاردها دون هوادة حتى اضطرت أمها للسماح لها باللعب معنا ، فقد قالت الطفلة « أن امى تقول انكم اغنياء ، ولا يجدر بى اللعب معكم .. »

وتقبلنا هذا التفسير دون أن تكون لدينا أى فكرة عن معناه ، ولكننا سررنا لان المسألة سويت وأصبح فى استطاعتنا أن نفوز باللعب مع هذه الفتاة «اللقطة» !

والواقع اننا كنا مع (فلو) بمثابة متفرجين ، نعجب بالعالم الذى

تعيش فيـــه ، والقصص التى لم نسمع بمثلهـــا من قبل عن حياتها مع امها وابيهـــا ، وكيف كان ابوها يضرب امها لانها لاتسمح له بأخذها معه الى الحانة ! ..

واحسسنا فى ذلك الصيف بمتعة كبرى ، فقد كانت (فلو) تتمتع بسحر خاص ، ينقلنا الى عالم جديدتسكنه مخلوقات عجيبـــة ، تتحدث لغة ساحرة ، حيـاتهم مليئة بالكوارث التى تبدو أعجبحتى من الخرافات اليونانية ..

ثم جاء يوم ، وجـدنا فيه غسالة جـديدة تجيء للعمل .. وذهبت « فلو » .. اختفت مع امهـا بمثل السرعة التى جاءت بها فجأة ، وعدنا الى البيت نبكى ، وهـــزت أمي وخالتى رأسيهما فى حزن لكآبتنا.. وقالت ارتميس باكية انها لن تلعب فى الخارج بعد اليوم ، وهددبركليس بالبحث عن فلو وامســاكها حتى لاترحل .. وعندئذ نظـرت امي الى خالتى ، ثم قطبت جبينهـــا وقالت مغمغمة :

ـ لقد تخلصنـــا منها فى الوقت المناسب تماما .

مؤامرة .. وفنجان قهوة!

فى أمسيات أواخر الصيف ، كانت أمي وخالتى الين تجلســان معا فى الحديقةلارتشاف القهوةالتركية وقد تسربلتا فى ثياب يونانية فضفاضة ، ثم تقلب أمي الفنجان رأسا على عقب دلالة على انها سـوف تكشف طالع خالتى ..

لقد تعلمت امى قراءة البخت من جـدتها التى كانت تؤمن بأن اسرار المستقبل تكمن فى الرسوم المزركشة التى تبدو داخل فنجان القهوة بعد احتسائه ، ولم تكن امى تأخذ الامر على محمل الجد ، على عكس خالتى «الين» التى كانت تؤمن بكل ماتتنبأ به أمي ، ولا سيما بعـد أن تحقق الكثير منها .

وفى الصيف التالى لانتهاء السنة الاولى التى امضتهـا « افروديت » بكلية الطب ، قالت امى وهى تحدق فى الفنجان الصغير : « ارى شابا .. يهتم كثيرا بأفروديت »

فسألتها خالتى :

ـ أهو يونانى ؟

كانت خالتى بعد ان خسرت معركة مستقبل افروديت قد أخذت تزيد الحمله تدريجا لكى تتزوج ابنتهـا شابا يونانيا . وكانت افروديت قد أصبح مسمـوحا لها الآن بالخروج بمفـــردها مع الشبان اذا كانت

اسماؤهم ديموس او ايفانجلوس..
أما اذا كان اسم الشاب امريكيا مثل بوب أو جيم أو هارى ، فان خالتى كانت ترفض السماح لها بالخروج معه .

وقالت امى وهى تتمعن فى الفنجان :

- لااظن انه كذلك . . فهووسيم جدا .. ياالهى . انه يضع خاتما فى اصبعها ، وهى تضع قناع الزفاف على وجهها .

وشحب وجه خالتى ثم قالت

- وكيف عرفت انه ليس يونانيا ؟

- لانه لايبدو كاليونانيين .. بل هو امريكى ينحدر من سلامه المانية .

فصاحت خالتى قائلة :

- مستحيل .. اننى لن اسمح بذلك .. ان قراءتك للفنجان خاطئة .

وهزت امى رأسها وقالت :

- وماذا يهم اذا تزوجتافروديت امريكيا ؟ هبى انها قابلت شابا رائعا .. طبيبا مثلا ؟ .

فقالت خالتى :

- ان افروديت يونانية ويجب ان تتزوج يونانيا .. فهذا هو الطريق الوحيد لكى تعرف السعادة الحقة.

كنت اصغى على مقربة منهما فى الحديقه ، واستطعت أن أرى القلق على وجه خالتى .. لقد كانت تفكر فى كل النبوءات التى تحققت من قبل، واخيرا لم تستطع مغالبة فضولها فطلبت الى امى ان تمضى فى قراءة الفنجان ..

وامسكت امى الفنجان من جديد، وقالت فى رقة :

- اننى أرى زفافا .. وأراك هناك .. اننى لم أرك قط بمثل هذا الجمال والاشراق .. انك سعيدة جدا .

وتمتمت خالتى قائلة باليونانية :

- عيب لو كان ذلك حقيقة ! ..

ثم غيرت الموضوع وعادتا معا الى المنزل ..

وبعد أيام قليلة بدأت النبوءة تتحقق، فقد أعلنت «افروديت» انها احبت طالبا معها فى الجامعة .. أمريكيا ينحدر من سلالة المانية ، ووسيما جدا (والواقع ان امى وافروديت دبرتا مؤامرة الفنجان معا) .

وواجهت خالتى التحدى على الفور، فرفضت مقابلة الشاب بشدة ، وراحت فى ثورتها تضع خططا لارسال ابنتهـا الى اليونان او اى مكان بعيد فى العالم لابعادها عن هذا

الخطر المرعب .. وعندما رفض العم ديمتريوس الموافقة على هذه الرحلات ، أخذت تملأ البيت بشبان يونانيين على أمل ان يتمكن احدهم من انتزاع الامريكى عن عرشه .

ولكن افروديت كانت تحب .. كانت افروديت الاساطير التى عندما أبعدوها عن «ادونيس» قلبت الدنيا كلها الى عالم بارد كئيب .. وعاد التوتر والكآبة يسودان جو «بارناسوس» مرة أخرى .

ولكن الازمة سرعان ماحلت فجأة بعد ظهر احد الايام ، عندما جاء صديق افروديت بسيارته الى البيت ، وسمعت افروديت وهى تقول لامها انه مصر على مقابلتها هى والعم ديتمريوس ليشرح لهما نواياه الشريفة .

كنت ألعب يومئذ فى الحديقة مع اخوتى عندما رأيناه من بعيد .. كان شابا طويلا نحيلا ، كستنائى الشعر ، عسلى العينين ، أشبه بنجم سينمائى منه بطالب طب .. وتمت المعجزة عندما خرج بعد ساعة وهو يبتسم ، وكانت الخالة الين تبدو مذهولة وهى تصافحه ..

وتحقق كل ماتنبأت به أمى ، فان خالتى الين لم تبد قط أجمل أو اكثر اشراقا وسعادة مما كانت يوم تزوجت ابنتها افروديت من «ارمين هوفومر» .

البحث عن الكنز

كانت لحظة محزنة دائما فى نهاية كل صيف عندما نضطر للرحيل عن « بارناسوس » .. ومع ذلك فاننا كنا نحب بيتنا الكائن فى سانت لويس ، وكنا نحب العودة اليه والاستعداد للسنة الدراسية الجديدة .

وكنا قد عدنا لتونا الى سانت نويس ذات خريف ، وقد جلسنا عندما دق جرس الباب وبعد لحظة دخلت خالتى الين والعم ديتمريوس .. وساد الصمت ونحن نحدق فيهما فى ذهول فقد كانت خالتى الجميلة ملوثة بالهباب ، تبدو متقدمة فى السن ، مرهفه الى أقصى حد ، وكان العم ديمتريوس يبدو الى جوارها ضئيلا جدا ، وقد كست الكآبة والصمت وجهه ..

وقطعت خالتى السكون قائلة فى همس :

ـ لقد احترق بارناسوس كله ..

وفى اللحظة التالية ساد الاضطراب كل شىء .. وتوالت الاسئلة والدموع والاحضان ، وكلنا يقول ان ذلك

مستحيل .. وجلست خالتى بعد قليل بثيابها القذرة فى غرفة الجلوس وفى صوت اجوف تتخلله نوبات بكاء، اخذت تحدثنا عما وقع :

كانت هى والعم ديتمريوس قد خرجا لشراء بعض الاشياء ، وعندما عادا فى ساعة متأخرة بعد الظهيرة ، كان «بارناسوس» يحترق ،والسنة اللهب الضخمة تزمجر مندلعة نحو السماء . وقد امتلأت الحديقة بالناس ورجال الاطفاء .. وبعد ان اطمأنت خالتى على سلامة جدى والاولاد ، وقفت مع ديمتريوس يرقبان رجال الاطفاء وهم يحاولون عبثا مكافحة اللهب الذى اضاء ظلام الليل وأحاله الى لون أحمر دموى ..

وبعد ان مرت الصدمة الاولى ، وترددت كلمات العزاء والتشجيع ، قال العم ديتمريوس انه سيبنى دارا أخرى ، وعندئذ بدأوا جميعا يشتركون فى وضع الخطط بحماسة.

اما نحن الاطفال الذين نسينا الجميع فقد بدانا ندرك المأساة .. واخذنا نبكى معا ونحن نذكر اماكننا المحببة ومراتع لهونا فى «بارناسوس» .. ورآنا العم ديتمريوس ونحن فى هذه الحال ، فصاح قائلا :

ــ ياالهى .. انظروا الى هؤلاء الاطفال المساكين ..

وهرعت أمي الينا تهدىء روعنا وفجأة قفز ديتمريوس بعيدا عن المائدة ، وضرب فخذه بمنشفة وصاح :

ــ لقد وجدتها .. هيا نبحث عن الكنز ..

وتطلعنا اليه فى دهشة وحيرة ، بينما اخذ هو يبتسم وقد عاد اللون الاحمر الى وجهه ، ولمعت عيناه الزرقاوان بنفس المرح الذى كنا نراه عندما يلقى الينا بهداياه من أعلى درابزين فى بارناسوس .. واستطرد

ــ الا تذكرون صندوق المجوهرات فى المدفأة ؟ حسنا .. انه الآن هناك بين الرماد .. وفى داخله ماسات وحلى خالتكم ، فالنار لا تدمر الماس .. سنعود الى بارناسوس عندما يبرد الرماد لنبحث عن الكنز

كان ذلك بالنسبة لى أنا وبركليس وارتميس مغامرة مثيرة .. وقد امضينا عدة اسابيع نبحث وننقب فى اكوام ضخمة من الرماد ، حتى أصبحت وجوهنا وايدينا سوداء كمكنسة المدخنة ، واخيرا وجد العم ديمتريوس الصندوق ، فاستبد بنا الفرح ،وامتلأت قلوبنا سرورا ونحن

نراه يقدمه لزوجته فى انتصار .

وهكذا .. حتى رماد بارناسوس كان كفيلا بأن يجلب السرور الى قلوبنا ! .

تراث خالد

اجتمع شمل الاسرة فى منزل افروديت الذى بنى خارج البوابات المؤدية مباشرة الى المنطقة التى كان بارناسوس يقف فيها يوما ما .. وكان اجتماعنا بهيجا مليئا بالمرح والضحكات وبينما كنا نجلس للعشاء فكرت فى الآمال الكثيرة التى انبثقت فى بارناسوس وتحققت الآن .. لقد اصبحت انا كاتبة وارسطو ـ قاضى منازعاتنا فى الطفولة ـ قاضيا حقيقيا ، وديموستينوس استاذا للرياضيات ، وصاحب براءات اختراع كثيرة ، واصبحت اختى آرتميس محررة مع زوجها فى مجلة أدبية شهرية ، وبركليس يعمل فى شركة للاعلان ، ومن حولنا جميعا اطفالنا يتحدثون عن الرياضة والاقمار الصناعية ونجوم السينما !

وتطلعت عبر المائدة الى خالتى الين .. أن وجهها الذى حفرت ٩٠ عاما من السرور والحزن خطوطها عليه ، لايزال جميلا ، وما زالت عيناها تبرقان وهى تحدق فى ابنتها افروديت ـ مسز أرمين هوفومر الآن ـ وتذكرت كل مافقدته .. لقد مات زوجها ديتمريوس ، وجدنا ، ولم تعد هناك مملكة « بارناسوس» اليونانية الصغيرة .. وساءلت نفسى عما اذا كانت لاتزال بعد كل هذه السنوات تأسف لان ابنتها افروديت تعلمت الطب ، كزوجها وابنها وابنتها ؟ ..

وكأنما قرات خالتى افكارى اذ نظرت الى بوجه يمتلىء زهوا وقالت:

ـ لا تنسى ياعزيزتى ان أبو قراط كان أبا للطب !

لقد ذهب بارناسوس .. ولكننى عندما رحت اتطلع الى اسرتى .. هؤلاء الناس الضاحكين ، المتجادلين ، الذين كانوا امريكيين ويونانيين فى نفس الوقت ، ادركت ان تراثا خالدا من الحب الذى يجمع بين قلوبنا ظل سليما لم يمسه أى ضر !

***

كان احد الشحاذين يقف فى مواجهة احدمبانى دور الاعمال وهو يحمل بعض اربطة الاحذية .. واعتاد احد المديرين ان يمنح الرجل كل يوم مبلغ عشرة سنتات دون ان ياخذ شيئا ..

وحدث ذات يوم بعد ان اعطاه المبلغ ، انربت المتسول على ظهر المدير وقال :

ـ آسف يا سيدى .. ولكن ثمن رباط الحذاء اليوم اصبح ١٥ سنتا !

كتاب الشهر

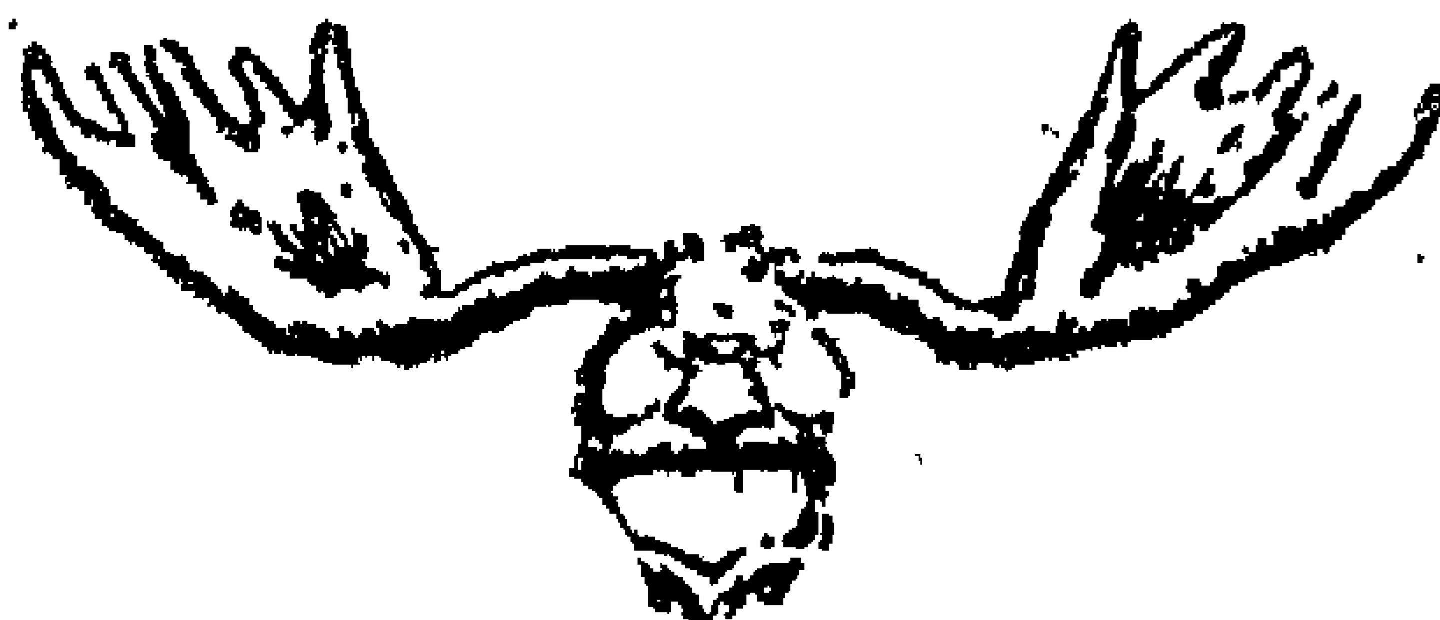
مكافح عظيم



تلخيص كتاب

T.R. : The Story of Theodore Roosevelt

بقلم نويل بوش



مـــكافح عظيــم

« وددت لو اننى لم أدع الى مبــدأ الراحة الشائن ، بل الى مبدأ الحياة التى تفيض نشاطا » .

... فى هذه الكلمات كشف تيودور روزفلت عن حقيقة نفسه كانسان . لقد كانت حيوية تيودور روزفلت الدافقة التى تتوهج من خــلال روحه تبرق فى عشرة أضواء تبهر الابصار ، فقد كان رياضيا ، ومتسلقا للجبال ، ورحالة ، وعالم طبيعة .. وكان راعى بقر ، ورئيسا للبوليس ، وجنـديا ومؤلفا عظيما ، وكان فوق كل شيء مصلحا اجتماعيا ، وسياسيا داهية ، وأكثر رؤساء الولايات المتحــدة الذين يعملون بلا كلل .

وقد أحرز تيودور روزفلت فى كل هذه الاعمال نجاحا ، وصنع فى الكثير منها تاريخا ، وحقق كل انتصــاراته بكفاح عنيف ضد محن الحياة الشاقة : أمراض الطفولة ومأســـاة عائلية ، وهزيمة سياسية ، وعين عميــاء ، ورصاصة فى الصدر .

وكان تيودور روزفلت أصــغر من تولى رئاسة الجمهورية الامريكية .. وقبل التحديات التى واجهه بها القرن الجديد بشوق ولهفة ، وكان يتخذ فى كل أزمة قرارا سريعا جريئا ، وبفضل تسوياته وأعماله التى لا تعرف الخوف والوجل ، كسب حربا ، وأنهى أخرى ، وأمكن تفادى حربين اخريين ..

بهذه الصورة الزاهية صور « نويل بوش » الشجاعة والروح الســامية اللتين ساعدتا على جعل تيودور روزفلت ـ أكثر من أى أمريكى آخر ـ « رجلا لكل المواسم » .. كما حوت دراسة رائعة لعظمة هذه الشخصية .

اصابت الحيرة أعضاء الجمعيـــة التشريعية لولاية نيويورك منـــذ ما رأوا زميلهم الشـــاب الذى وصـــل الى « البانى » فى ينـــاير ١٨٨٢ ليتــولى منصـــبه كنائب لمدينـــة نيــويورك ، فقـــد كان تيودور روزفلت يومئذ فى الثالثـــة والعشرين من عمره ، نحيلا طويلا .. وقد لاحظ كل من سمعه ، صوته الحاد الرفيع الذى يكون نشـــازا فى بعض الاحيان ، واللهجة التى تنم عن ثقافة لا تخطئها الاذن لخريج هارفارد .

كان أول أثر تركه فى نفوس زملائه النواب ، هو صورة انسان ضعيف عليل ، مثال حى للطبقة العليا فى نيويورك ، ومع ذلك فقد وقعت حادثة فى باكورة أيامه هناك ، أحدثت تغيرا ملموسا فى آرائهم حوله ، فقد حدث بعد ظهر أحد الايام ان كان روزفلت يسير كعادته مسافة التسعة عشر كيلو مترا المؤدية الى الجمعية التشريعية عندما توقف فى مطعم صغير لتناول كأس من الجعة .. وفى البار قابل زميلا خشنا من أعضاء الجمعية يدعى جون كوستيللو يشرب مع اثنين من أصدقائه .

وقال كوستيللو ساخرا وهو يلفت النظر الى السترة الصوفية الثقيلة التى يرتديها روزفلت : « ألا يخشى طفل ماما أن يصاب بالبرد ؟ »

وعندما تجاهل الشاب النحيل هذا السؤال ، وصفه كوستيللو بأنه « متحذلق صغير ملعون » ، وعندئذ خلع روزفلت نظارته بهدوء ووضعها فى جيبه ، ثم صوب لكمة واحدة أسقطت كوستيللو أرضا ، ثم صوب لكمة ثانية سريعة الى أحد صديقيه ، فطرحه أرضا هو الآخر ، وعندئذ تراجع الصديق الثانى سريعا .

وفى غمرة السكون المثير الذى تلا ذلك ، قال روزفلت لكوستيللو :

ـ اذهب واغتسل ، ثم تعال لتشرب معى كأسا من الجعة

وفعل كوستيللو ما أمر به ، وعندما انصرف روزفلت بعد ذلك لاستئناف سيره توقف ليقدم نصيحة واحدة لغريمه قائلا :

ـ عندما تكون فى حضرة سادة مهذبين ، تتصرف كسيد مهذب !

اصنع جسمك !

كانت قدرة روزفلت على ان يصرع رجلا بضربة واحدة نتيجة مجهود شاق ، فقد كان طفلا عليلا نحيلا ، نكبه القدر بضعف فى البصر ، وعلة فى جهازه الهضمى ، مع ربو شديد حتى انه كان أحيانا لا يستطيع التنفس الا بصعوبة .. ولكن والده ـ وكان مستوردا ناجحا ـ رفض ان يدلله بسبب هذا الضعف ، وعندما استمر الربو الى ما بعد بلوغه الثانية عشرة ، استدعى الغلام لمحادثة جدية معه .

وقال روزفلت الكبير لابنه :

ـ انك تملك العقل ولكنك لا تملك الجسم ، وبدون معونة الجسم لا يستطيع العقل أن ينطلق الى حيث ينبغى .. فلا بد لك أن تصنع جسمك .. انه جهد شاق ، ولكنى أعرف انك سوف تبذله .

كان تيـودور روزفلت حتى ذلك الحين شابا هادئا ، يكرس اهتمامه بصفة أساسية لمجموعة الحيوانات الغريبة التى يحتفظ بها والتى كان يصفها فى فخر بأنها « متحف روزفلت للتاريخ الطبيعى » .. ولكنه بدأ بعد ذلك نظاما صارما من التدريبات الرياضية ، ونظاما غذائيا خاصا ، حتى أصبح جسمه المعمل الذى يختبر فيه قوة ارادته ويصوغها ويعدلها ..

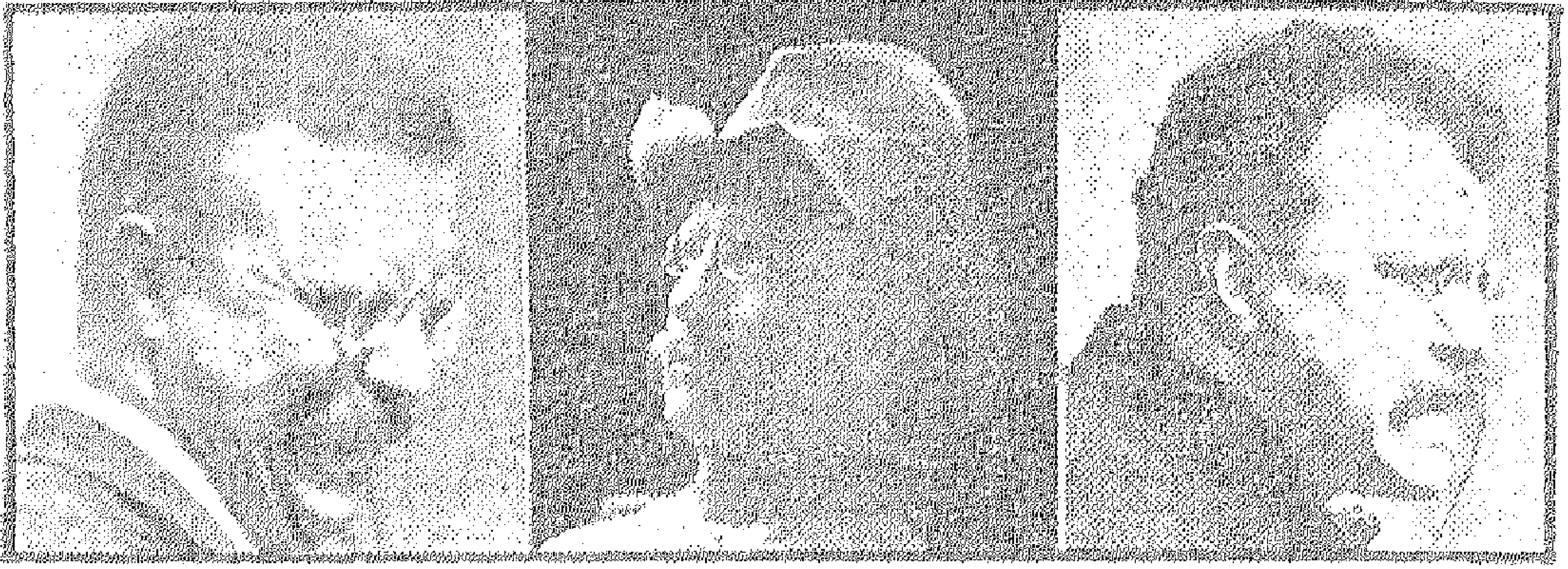
كان يمارس رفع الاثقال وتمرينات تقوية الصدر ، والعاب المتوازيين فى بيت الاسرة بالمدينة ، بينما كان يمارس السباحة والتجديف فى بيت روزفلت الريفى فى لونج ايلاند .. وخلال العطلات التى يقضيها فى المصايف القريبة كان يقطع مسافات طويلة ويتسلق الجبال وينزلق ويسبح ، ويصيد ، ويجرى ويجدف وفقا لكل موسم ، ثم تلقى بعد ذلك دروسا فى الملاكمة .

وفعل هذا النظام العجائب .. فعندما التحق بجامعة هارفارد فى سنة ١٨٧٦ ، كان الربو قد اختفى تماما ، ومع ان بنيانه كان لا يزال نحيلا ، فان عضلاته كانت متينة كالحديد ، وزادت قدرته على الاحتمال الى حد عجيب .

والتحق بعد تخرجه بكلية حقوق جامعة كولومبيا ، وكان يسير كل يوم عشرة كيلو مترات بين الجامعة وبيت الاسرة ، كما بدأ يعد كتابه الاول ، وكان يحوى دراسة للحرب البحرية بين أمريكا وانجلترا فى عام ١٨١٢ ، فبدأ بذلك حياة أدبية رائعة .. وفى عام ١٨٨١ انطلق مع عروسه « أليس لى » التى تزوجها منذ عام ، للقيام بجولة فى أوربا ، وقبل أن يعود روزفلت الى نيويورك ، ختم رحلته بتسلق عدة قمم صعبة من ذرا الالب ، بما فيها قمة (ماترهورن) التى ترتفع ٤٦٠٠ متر وكانت تعد يومئذ أقسى اختبار لتسلق الجبال فى العالم .

السياسة والمأساة

قال روزفلت يوما بطريقة عابرة لصديق دراسته ، انه قد يحاول أن يفعل شيئا للمساعدة على تحسين حال الحكم فى نيويورك .. وكان فى لحظات فراغه كطالب حقوق يتوجه الى المقر المحلى للحزب الجمهورى وكان يقع فى غرفة فوق حانة بوسط مانهاتن ، وسرعان ما أصبح زائرا منتظما للحزب ، فقد كان له من طاقته المتدفقة وشخصيته الشابة رصيد ضخم ، وسرعان ما برز اسمه



تيودور روزفلت

كمرشح للجمعية التشريعية ، وذلك بعد عودته من أوربا بقليل وفاز فى الانتخابات بضعف الاصوات التى يحصل عليها المرشح الجمهورى عادة

وسرعان ما أكسبه سلوكه الجرىء وحماسته للعمل وبراعته السياسية اعجاب زملائه فى الجمعية التشريعية، كما اجتذب اهتمام الامة كلها بمعركته الجريئة ضد اساءة الاستغلال فى دور الاعمال الكبرى ، واستغلال العمال المهاجرين ، ولكنه فى صيف عام ١٨٨٣ أصابته نكسة من مرض الربو ، ونصحه طبيبه بالراحة ، فسافر الى احد البلدان الجبلية القريبة ، ولكنه بعد أن أمضى هناك أياما قلائل جالسا وسط الحمامات الساخنة،أحس بالسخط على الخمول الذى يعيش فيه .

كان روزفلت قد قام قبل ذلك بعامين برحلة صيد فى منطقة(داكوتا) مع شقيقه « اليوت » ، ولهذا فقد انطلق غربا مرة أخرى الى « اراضى الاشرار » فى منطقة نهر ميسورى الصغيرالتىتسمىالآن «نورثداكوتا»، وكان للنوم بضعة أسابيع فى العراء وصيد الوعول اثر مدهش علىروحه، فقد أحب روزفلت الارض البرية ، ورأى انها تبشر بأمل كبير فى تربية الماشية . وقبل عودته الى نيويورك استثمر بعض أمواله فى صفقة لتربية الماشية .

وعاد الى بيته فى شهر اكتوبر وهو فى اتم صحة ، متلهفا للاشتراك فى الحملة الانتخابية لاعادة انتخابه ، ففاز بنصر جارف ، وعاد الى (البانى) فى سن الخامسة والعشرين،شخصية ذات أهمية كبرى حتى على المسرح القومى ..

وكانت زوجته « أليس » حاملا تنتظر طفلها فى أوائل سنة ١٨٨٤ ، وقد بقيت فى نيويورك حيث تجد افضل عناية خلال فترات غياب زوجها الاسبوعية فى أنحاء الولاية . وبينما كان فى البانى يعد مشروع قانون ، اذ تلقى روزفلت فى ١٣ فبراير برقية تعلن نبأ ولادة ابنته الاولى ، واستعد للعودة فورا الى نيويورك ، ولكنه قبل أن يستقل القطار تلقى برقية ثانية تقول ان أليس مريضة مرضا خطرا .

وعندما وصل الى بيته عند منتصف الليل ، رأى شقيقه اليوت الذى صاح فيه : « هناك لعنة أصابت هذا البيت .. ان امى تموت،وأليس تموت أيضا » وانطلق روزفلت الى الطابق الاعلى أولا حيث ترقد زوجته، ثم توجه الى أمه التى كانت مصابة بحمى التيفوييد .. وفى الثالثة من صباح اليوم التالى ماتت الأم ، وبعد ساعات قلائل ماتت زوجته أليس مصابة بمرض « برايت » !.

كانت الكارثتان صدمة لاتحتمل.. حتى لقد قال أحد أصدقائه يومئذ : « ان تيودور فى حالة ذهول وصدمة، لا يعرف ماذا يفعل أو يقول » .

وبعد عام كتب آخر كلمات حبه لأليس فى رثاء مؤثر ختمه بهذه الكلمات : « عندما ماتت أعز مخلوقة لقلبى ، انطفأ النور من حياتى الى الابد » ولكنه لم يتحدث عنها بعد ذلك لأى مخلوق ، ولم يشر اليها فى ترجمة حياته التى كتبها بنفسه .

الغرب الهائج

كانت الفاجعة نقطة تحول فى حياة روزفلت ، فقد حاول أن يدفن أحزانه وسط دوامة من النشاط السياسى، ولكنه اختلف مع زعامة حزبه ، بعد أن تبين له انه لن يستطيع احداث أى تقدم سياسى آخر فى ذلك الحين لانه لم يكن محبوبا من زعماء الحزب .

وأحس بكآبة وخيبة أمل ، فقفل عائدا الى مزرعته فى أرض الاشرار، حيث أصبح يمتلك ١٥٠٠ رأس من الماشية ، وهناك راح يعمل بمعونة اثنين من رعاة البقر المحنكين فى تربية الماشية .. ومع ان الحياة كانت قاسية خشنة ، فقد أحبها روزفلت .. كان يروض الجياد البرية ، وينطلق ممتطيا جواده لرعاية الماشية، ويقطع الاخشاب ويشق الكتل ، وبنى منزلا فى المزرعة يضم ٨ غرف أسماه « الكهورن » .

وفى الربيع التالى قام بأولى جولاته الكبرى على ظهور الخيل، فقد

ظل طوال ستة أسابيع شاقة فوق صهوة جواده من الفجر الى الغروب. وقد حدث ذات ليلة أن اجفل القطيع بسبب عاصفة رعدية وهبط ضفة نهر ميسورى الصغير ، فغاص هو أيضا بجواده فى النهر ، واستطاع أن يصل الى الضفة الاخرى .. وظلت المطاردة حتى الفجر ، وبعد أن أعاد جمع القطيع ، استأنف عمله اليومى المعتاد الى ما بعد سدول الليل .

وعندما كسد العمل هناك انطلق فى رحلة الى الغرب قطع خلالها ١٥٠٠ كيلو متر الى جبال « بيج هورن » بحثا عن الدب الرمادى ، وكان روزفلت يعانى دائما من ضعف ابصاره ، وكان هذا بالنسبة لأى صياد آخر يعد خسارة خطيرة ، أما بالنسبة لروزفلت فكان لا يعنى الا انه مضطر الى مشاهدة فريسته على مدى أقصر ، وكان يلخص طريقته فى الصيد فى المبدأ القائل « اذا اقتربت الى حد كاف ، فان سيفك سيصبح طويلا الى حد كاف »

وفى مدينة «ميدورا» للابقار وجد فريق من رعاة البقر وعمال مزارع تربية الماشية انه من العسير عليهم قبول هذا الرجل ذى العوينات القادم من الشرق ، بلهجته المثقفة ، وكلماته الجامعية ، ولكن روزفلت أظهر انه رجل يستطيع أن يعنى بنفسه فى اى جزء من البلاد ، وقد حدث انه كان يدخل ردهة الفندق فى بلدة « مينجوس فيل » عندما صاح سكير مدجج بالسلاح قائلا : « هذا الرجل ذو العوينات الكبيرة سوف يقدم لنا جميعا بعض المشروبات » .

ولم يقل روزفلت شيئا ولكنه جلس أمام مائدة فى أحد الاركان ، وعندئذ زمجر المشاغب العربيد قائلا: « لعلك لم تسمعنى . لقد قلت ان ذا العيون الاربع سيقدم لنا المشروبات » .

ونهض روزفلت وكأنه سيمتثل للطلب ، ثم وجه لكمة قصيرة من يمينه الى فك الرجل ، الذى سقط راسه على البار ففقد وعيه وسحبوه الى الخارج .

وفى عام ١٨٨٦ ــ فى نهاية العام الثانى لروزفلت فى الغرب ــ ساد شتاء قاس مرير حتى بلغت خسائر قطعان الماشيه فى المتوسط ٧٥ ٪ . وكانت تلك ضربة مذهلة أصابت أموال روزفلت ، وهكذا انتهت مغامرته فى تربية الماشية بكارثة ، فقرر العودة الى نيويورك .

ولكن قيمة السنتين اللتين امضاهما

روزفلت فى الغرب لايمكن حصرها ، فقد فاز خلالهما فوزا دائما فى معركتــه الطويله مــع الربو ، وبدأ يكتسب جسما متين البنيان وشاربا كثا ، وصوتا كالمبرد ، أصبح طابعا له بقية حياته ــ ولكن التغيرات كانت أعمــق من ذلك بكثير ، فان تجــربه الغرب وطدت الصفات الداخلية التى جعلته يتربع يوما على مقعــد أكبر منصب فى الولايات المتحدة .

نبيــذ الحياة

فى خلال فترة تغيبه فى الغرب ، عهد روزفلت بابنته «أليس» الصغيرة الى أختــه (أنا) لترعاهــا وكانت الاثنتان تسكنان فى بيت كبــير على خليج المحــار بلــونج ايلاند ، وكان روزفلت قد بنــاه فى الوقت الذى ماتت فيه زوجته ... وفى الشتاء تزوج روزفلت للمرة الثانية من رفيقة صــباه « اديث كريت كارو » وقــد التقى بها مصادفه فى منزله بخليج المحار فى أحد أيام عام ١٨٨٥ واستقر روزفلت فى بيتــه الذى اســماه « ساجامور هيل » وكان بيتا كبيرا يحتوى على ٢٣ غرفــه ، وبه شرفــة تحيط به أقيم على صــخرة فوق بوغاز لونج ايلاند . وفى ذلك المنزل وجــد روزفلت العزلة التى يحتــاج اليهــا لانجاز أكبر اعمــاله الادبيــة طموحا ، وهو كتابه « كسب الغرب » الذى يتكون من أربعه مجلدات .

وفى الاعوام التالية رزف روزفلت من زوجتــه (أديث) بأربعة أبنــاء وطفلة أخرى ، ونشــأ الجميع فى « ساجامور هيل » وأصبحت أيامهم هنــاك نمــوذجا لحيــاة الاسرة فى أفضل صورها .

وكانت اديث روزفلت انسانه ذات حس مرهف ، تكتم شــعورها .. ومع أنها كانت تعرف زوجهــا منذ الطفولة، فان سلوكه الشديد الافراط كان يثير دهشتها ولا شك فى بعض الاحيــان ، اذ كان يمارس الصــيد والتنس والتجــديف ، والرحــلات الخلويه بانغماس وانكباب تامين ..

كان روزفلت يرى أن هدف الحياة النشيطة ، ليس مجرد القوة البدنية، بل تحقيق القوة الداخليه ، ومن ثم كان يتحمل جروحــه ببســاله ودون اكتراث ويقول لاصدقائه ــ أننى أحب نبيــذ الحيــاة احيــانا ــ وبه بعض البراندى ! »

ولم تكن أديث تشــاطره وجهــة نظره فى بداية الامر ، وكانت حوادثه تثــير انزعاجها ولكنهــا مالبثت أن تعلمت كيف تدرك حماسته للتمرينات

الرياضية ، واستطاعت فى النهاية أن تواجه المصائب برزانة وروح مرحة ..

وفى عام ١٨٨٨ عاد روزفلت الى حلبة السياسة ، وفى السنوات العشر التالية تولى ثلاثة مناصب بالتعيين ، أولها منصب مدير المستخدمين فى عهد الرئيس بنيامين هاريسون وكانت الوظائف المدنية يومئذ تقدم لمحاسيب الحزب الحاكم، ولكن ظهور روزفلت أحدث تغييرات سريعة وحازمة فقد قال : « ان الوظائف ليست ملكا للسياسيين ، بل هى ملك الشعب ويجب أن يشغلها من يخدمون الشعب » .

وفى خلال ست سنوات نقل روزفلت ٢٦ ألف وظيفة حكوميه من فصيلة المنح السياسية الى مناصب تمنح على أساس مسابقات اختبار.. وبعد سنوات لخص الرئيس هاريسون انطباعاته عن روزفلت بقوله : « كانت المتاعب الوحيدة التى واجهتها فى تدبير أمره ، هى أنه يريد أن يضع حدا لكل الشرور فى العالم ما بين الشروق والغروب »

وعاد به منصبه الثانى الى مدينه نيويورك كمدير للبوليس ، وكانت قوة بوليس المدينه قد دب فيها الفساد .. وعلى الفور فرض روزفلت عقوبات شديدة لاى انحراف عن أداء الواجب وكان يصحب رجال البوليس المقصرين للطواف بالشوارع فى ساعة متأخرة من الليل ، مفتشا بنفسه على دوريات الجنود ، وكثيرا ما استمرت هذه الجولات الى الفجر ، وبعد غفوة قصيرة يبدأ يوما ثانيا .

وكان سجل روزفلت خلال العامين اللذين قضاهما كمدير للبوليس رائعا ، فقد رفع مستوى العاملين فيه بادخال نظام الامتحانات الكتابية، وانشاء مواصلات تليفونيه داخل الادارة وكون فرقة من راكبي الدراجات التى كانت طليعة دوريات المرور فى الطرق العامه

متاعب فى كوبا

فى عام ١٨٩٧ ـ قبل عيد ميلاده التاسع والثلاثين مباشرة ـ استدعى روزفلت الى واشنطون مرة أخرى ، هذه المرة كمساعد لوزير البحرية ، وقبل ذلك بعشرين شهرا كانت كوبا قد ثارت فى وجه أسيادها الاسبان ، وأوضحت الولايات المتحدة انها تعطف على الجانب الكوبى ، وكان روزفلت يؤمن بأن أفضل طريقة لكسب الحرب أو تفاديها هو الاستعداد للقتال فى حرب، وعلى هذا الأساس رأى مهمته

بوضوح : جعل البحرية مستعدة لحرب محتملة مع اسبانيا . وقد بذل جهده لتحقيق ذلك ، حتى عندما كان يعنى تحديا لرئيسه المباشر وزير البحرية.

وعندما أعلنت امريكا الحرب على اسبانيا فى ٢٥ ابريل ١٨٩٨ ، قرر روزفلت ان فائدته قد انتهت فى واشنطون ، وكان قد تم جمع ثلاث فرق من المتطوعين الفرسان للمساعدة فى طرد الاسبان من كوبا ، وقبل روزفلت أن يتولى منصب نائب قائد احدى هذه الفرق ، وبعد أيام قلائل كان يرتدى الثوب العسكرى ويتدرب مع المجندين من رعاة البقر فى أول فرقة أمريكية للمتطوعين الفرسان ، وقد أسمتها الصحف فرقة « الفرسان الاشداء »

تل « سان جوان »

هبط روزفلت و ٦٠٠ من الفرسان الاشداء فى كوبا فى أواخر يونيو ، وكانوا جزءا من جيش يضم ٦٠٠٠ رجل .. هبط على مسافة كيلو مترات قليلة شرق « سانتياجو » معقل الجيش الاسبانى الحصين ، وعند وصولهم تراجعت القوات الاسبانية الى الوراء ، وصدرت الاوامر بمطاردتهم فورا .

ومن دواعى السخرية ان «الفرسان الاشداء» اضطروا للسير على أقدامهم لانهم تركوا خيولهم جميعا — عدا الضباط — فى فلوريدا خلال الاضطراب الذى ساد ركوب السفن وكانت الارض التى ساروا فيها عبارة عن غابات زاخرة بالحشرات والامراض الاستوائية ، وقد اصيب كل الفرسان بالملاريا عدا روزفلت وضابط آخر .

وفى اليوم التالى لهبوطهم مباشرة أطلقوا نيرانهم لاول مرة عندما صدر الامر للفرسان الاشداء بالاشتراك فى هجوم يشن عند الفجر ، وكان روزفلت يمتطى صهوة جواده « تكساس » ، ويقود رجاله على طول طريق الغابة عندما انطلق سيل من النيران من قوة اسبانية مختبئة فى الغابة ، فأمر روزفلت بالهجوم عليهم ، وفى اللحظات التالية من القتال العنيف الذى دار ، قتل ١٦ من الفرسان الاشداء ، وجرح ٥٠ ، ولكن الاسبان اطلقوا سيقانهم للريح .

وبعد سكون دام خمسة أيام صدرت الاوامر فى ٣٠ يونيو بالزحف العام صوب سانتياجو . وفى المساء التالى كان الفرسان الاشداء فى مواجهة صف من المواقع الاسبانية التى تقع على قمة تلال سان جوان .. آخر حد طبيعى للمدينة .

كانوا طوال اليوم يسمعون أصوات المعركة من حولهم ، وأصيب روزفلت وسط معركة بالمدافع بجرح طفيف في المعصم ، وكان قد رقى حديثا الى رتبة كولونيل ، وبينما كان يقترب بقواته للانضمام الى عدة وحدات نظامية للجيش كانت أمامه وفي مواجهتهم راح الاسبان يقذفون سيولا من النيران المتتابعة من قمم التلال والمزارع والمباني والخنادق !

وجاء الامر بالهجوم ، فقفز روزفلت فوق جواده وبدأ يدفع رجاله الى الامام وكانوا في مؤخرة الفرقة ، فتحرك صف المؤخرة أسرع من الباقين ، واخترق الصفوف الامامية .. ووجد روزفلت نفسه يخترق الصفوف ، فاذا به يختلط بصفوف الجنود النظاميين الذين يتقدمونهم ، وكانوا يطلقون النار على التلال من الغابة التي يحتمون بها .

وكتب روزفلت يقول : « تحدثت مع الكابتن الذي يتولى القيادة قائلا : اننا لن نستطيع احتلال التلال باطلاق النار عليهم ، بل يجب أن نطردهم منها » وتردد الكابتن لانه لم يكن قد تلقى أوامر كهذه ، وسأله روزفلت عن رئيسه الكولونيل ، ولكنهم لم يجدوه على مقربة ، وعندئذ أعلن روزفلت قائلا : « اعتبرني اذن ضابطك الاعلى هنا . انني آمرك بالهجوم . دع رجالي يمرون يا سيدي »

واخترق الصفوف على جواده يتبعه فرسانه الاشداء مبتسمين ، وانطلق خلفهم جنود الجيش النظامي وهم فرحون بهذه الفرصة ، بينما كان روزفلت يلوح لهم بقبعته ويصيح مطلقا أوامره .. وتقدمت القوات صاعدة التل وهي تطلق نيرانها في هجوم سريع يفيض حيوية .

واحتلوا القمة ، ولكن كان أمامهم مباشرة تل آخر يحتله الاسبان .. وهجمت ألوية امريكية مختلفة بقيادة الكولونيل روزفلت عبر واد متسع من التحصينات الاسبانية ، وقبل ان يصلوا اليها فر العدو هاربا . وشن روزفلت هجوما اخر ، وفي نهاية اليوم وجد الفرسان الاشداء انفسهم على قمة سلسلة من التلال التي تطل على « سانتياجو » وانتهت المعركة !

ركلة الى اعلى

ما أن عاد روزفلت الى نيويورك ، حتى طلب اليه زعماء الحزب الجمهوري ان يرشح نفسه لمنصب حاكم الولاية فنظم حملته الانتخابية وهو يرتدي قبعة سوداء تشبه تلك التي كان يضعها على رأسه خلال حملة كوبا

وكثيرا ما صعد الى منصـــة الخطابة محاطا بعدد من « الفرسان الاشداء » في ثيابهم العسكرية ... وهكذا فاز بالمنصب .

وبعد ان أصبح حاكما لاكبر ولايات امريكا في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر ، ظـل روزفلت يحتفظ بمكانته كبطل وطني ، كما اتاحت له هذه الوظيفة تجربة ثمينـــة فى الادارة العامة على مستوى عال ، وخلال فترة توليه هـــذا المنصب ، اتقن روزفلت ايضا الاستراتيجية والتاكتيك اللازمين لانجاز التشريعات .

كان رجال الاعمـــال لايثقون فيه قط بعد انشاهدوا جهوده في مكافحة الفساد وهو حاكم للولاية ، فأصبحوا يعتمدون على السناتور توماس بلات مدير الحزب الجمهورى فى كبح جماحه وبتحريض من روزفلت عرض مشروع قانون يتضمن صـــورة جـــــديدة من الضرائب الموحدة وذلك فى ربيـــع عام ١٨٩٩ ، فعارضه بلات وجماعة رجال الاعمال بشدة ولكن روزفلت استطاع تمريره فى البرلمان ... وكان لهــذا النصر آثار بعيـــدة المدى ، فقد جعلت بلات يبحث عن طريقة للتخلص من روزفلت ... وعندما توفي حاريت هوبارت نائب رئيس الجمهورية في نفس العام ، قرر بلات ان يحـــاول « ركـــل روزفلت الى أعـــلى » وذلك بترشيحه نائبا لرئيس الجمهورية مع وليم ماكنيلى مرشح الرئاســـة وذلك فى مؤتمر الحزب الجمهـــورى الذى عقد فى عام ١٩٠٠

وتردد روزفلت في البداية ، ولكنه قرر اخيرا ان يقبل ، وفاز هو وماكنيلي بأغلبية ساحقة .

في مـــارس ١٩٠١ تولى الرئيس الجديد ونائبه منصبيهما ، وبعد ستة اشهر فقط اغتال قاتل مجنون الرئيس ماكنيلى .. وفى منتصـــف سبتمبر أدى روزفلت اليمين كرئيس للولايات المتحدة ولم يكن قد بلغ الثالثة والاربعين من عمره بعد !

مرح فى البيت الابيض !

ان أغلب الرؤساء عندما ينتقلون الى البيت الابيض يسيطر عليهم شعور بالهيبة من جو التاريخ والتقاليد الذى يسود هناك .. ولكن روزفلت وزوجته اديث وأولاده الستة لم يكن هنـــاك مايثير في نفوسهم اية هيبة ، فاستقروا في بيتهم الرسمي وكأنما بنى من اجلهم

وقد بدأ الرئيس الجديد مبتكراته بتغيير اسم مقره الرسمى الذى كان يعرف يومئذ باسم « دار الرئيس التنفيذى » فرأى روزفلت أن هذا

الاسم فيه حذلقة شديدة فاستبدل به اسم « البيت الابيض » وهو الاسم الذى كان يطلق عليه قبل ذلك للتدليل .. وبنفس الروح التى لا تخضع للرسميات ، عرف هو نفسه باسم (ت . ر) أوتيدى .

وقد أبدى آل روزفلت فى حببيتهم الجديد حماسة بالغة منذ البداية ،

وكان روزفلت الذى انهمك فى عمله الجديد بحماسة يبدأ عمله مبكرا ؛ وكثيرا ما كان يعمل حتى ما بعد منتصف الليل ، وكان يستضيف عددا ضخما من الناس على مائدة الغداء ؛ وكانت قائمة ضيوفه تشمل رعاة بقر ووزراء، وشخصيات اجتماعية واعضاء فى فرقة « الفرسان الاشداء » وقد اختلط الجميع معا فى ازدراء رائع للبروتوكول وكان أكثر ضيوف روزفلت اثارة للجدل هو صديقه الحميم ومستشاره فى شئون الاجناس « بوكر واشنطون » المربى الزنجى

كان روزفلت يخصص ساعة أو اكثر بعد ظهر كل يوم للعب التنس والعدو أو لعب قليل من المصارعة والملاكمة ... وعندما تبنى الجيش الامريكى بناء على دعوته نظاما يتطلب من كل ضباط الفرسان ركوب جيادهم مسافة ١٥٠ كيلومترا خلال ٣ أيام اظهر روزفلت أن هذا الامر ليس فيه شىء غير معقول ، اذ قام بالرحلة بنفسه فى يوم واحد وخلال عاصفة ثلجية شديدة .

ولكن الملاكمة سرعان ما استبعدت من البرنامج ، فقد كان يلعب يوما مع ضابط بحرى شاب عندما أصابه بلكمة مزقت شريانا فى عين روزفلت اليسرى الضعيفة اصلا ، وتركتها شبه عمياء

وقد ادت حماسة روزفلت للرياضة الى تكوين « مجلس اصدقاء التنس» الشهير من اعضاء الكونجرس والسلك الدبلوماسي والوزراء ، الذين كانوا يشتركون غالبا فى نزهات روزفلت النشيطة ، وكانت عضوية هذه الجماعة لاتكتسب بسهولة ، فقد كانت تتضمن اختبارا فى المشى الطويل وتسلق الجبال الوعرة واختراق الغابات مع تفادى الطرق والجسور، وخوض الانهار والحفر الموحلة ..

حفر خندق

بعد ان فاز روزفلت بالرياسة فترة ثانية عام ١٩٠٤ ، امضى سبع سنوات ونصف سنة فى البيت الابيض ،وحقق اعمالا تضعه فى مصاف اعظم الرؤساء .. ففى خلال هذه السنوات الزاخرة بالتغيير والتقلقل والانزعاج ، كانت الولايات المتحدة قد بلغت رشدها

الصناعي واصبحت دولة عالمية كبرى وقد جلب هـــذا مسئوليات واخطارا جديدة في الخارج اما في الداخل فقد أحدث صداما مباشرا بين كبار رجال الاعمال والعمال •

ولعل أعظم أعماله هو انشاء قناة بناما . وهو مشروع كان معطلا منــذ ٢٠ سنة ، بسبب تردد المسئولين ، ولما كانت القدرة على تحـريك السفن الحربيةسريعا من الاطلنطي للباسيفيكى سوف تضاعف حجم الاسطول الامريكى فقد شرع روزفلت يعمل لشق القنـــاة كجزء متمم لقوة أمريكا البحرية مهما كان شكل المعارضــــة له ، وسرعان ما عقد معاهدة منحت امريكا وحـدها مسئولية حراسة منطقة القنـاة ، ثم اشترى الشركة الفرنسية المفلســـة ـ رغم صيحات بعض اعضاء الكونجرس واخيرا اجرى مفاوضات مع كولومبيا للحصـــول على الارض اللازمة لشق القناة، ولم يكن أهل كولومبيا مرتاحين الى العـرض الامريكى ، ولكن فى عام ١٩٠٣ نشبت ثورة بيضاء فى برزخ بناما فجأة ، وعندما هـــدأ الغبار ، استقلت بناما عن كولومبيا ، وقبلت الحكومة الجـديدة الثمن الامريكى عن طيب خاطر !

العصــا الكبيرة

كانت سياسة روزفلت الخارجية تسيطر عليهــا فلسفة ذكرها يوما فى خطاب سياسى وهو يشـــير الى دور امريكا الجديد فى العالم فقال : « هناك مثل بسيط يقول (تحـــدث بنعومة واحمل عصــــا كبيرة ، تقطع شـــوطا طويلا) ومن نماذج هذه الســـياسة مسألة فنزويلا فعندما رفضت فنزويلا فى عام ١٩٠٢ أن تدفع بعض الديون الخاصة ، حاصرت المانيـــا موانيهـا فاستدعى روزفلت السفير الالمانى وقال له ان هذا الخلاف ينبغى تسويته عن طريق التحكيم أما اذا رفض الامبراطور ذلك فان الاميرال ديوى الامريكى سوف يتجه الى مكان الحصــــار وهو يحمل أوامر باطلاق النار ••• وبعد ذلك هنأ روزفلت الامبراطـــور على قراره الحكيم باحالة القضية لمحكمة لاهاى الدولية !

وقد خلقت سياسة روزفلت « الكلام الناعم والعصا الكبيرة » لامريكا دورا جديدا مثيرا فى الشئون العالميـــة ، وهو دور الاب الصارم الذى يناضل الاطفال فى كل مكان • فقد طلب الى روزفلت أن يبحث الشروط الخاصة بانهاء الحرب الناشـــبة بين اليابان وروسيا وان يكون حكمـا فى النزاع

الشائك على مراكش ، وهو النزاع الذى هدد باثارة حرب اخرى ، وبعد أن نجح فى الحالتين ، منح جائزة نوبل للسلام فى عام ١٩٠٦

وختم روزفلت سنواته فى الحكم بعمل جرىء أظهر مرة أخرى ان أمريكا أصبحت الان الدولة الاولى فى العالم ، ففى ديسمبر ١٩٠٧ أمر الاسطول الابيض الكبير الذى يضم ١٦ بارجة و١٢ الف رجل أن يقوم بجولة حول العالم .. وكان هذا عملا لم يسبق له مثيل ..

ودار الاسطول حول امريكا الجنوبية ، وعبر الباسيفيك الى نيوزيلندا واستراليا والفلبين وطوكيو وبعد عودة الاسطول بعشرة أيام ، انتهت مدة رئاسة روزفلت ، ونصب وليم هوارد تافت ـ الذى اختاره روزفلت ـ خليفة له .

مولد وعل صغير

كان كل ما يحدث لاغلب الرجال الذين رحلوا عن البيت الابيض ، هو التدهور المفاجىء من الاهمية الى التفاهة ولكن الامر لم يكن كذلك بالنسبة لروزفلت ، فانه بعد أن ترك منصبه بشهر ، انطلق مع ابنه « كرميت » الى افريقيا فى رحلة استمرت حوالى عام لم يكن الهدف منها مجرد صيد الوحوش ، بل الحصول على عينات من كل انواع المخلوقات على الجانب الشرقى للقارة كلها .

كانت تلك اول محاولة منظمة على نطاق واسع لدراسة المنطقة وقد تمت استعدادات شاملة من أجلها فعين معهد سميثسونيان ثلاثة من علماء الطبيعة للبعثة التى ضمت جيشا يشمل ٢٦٠ حمالا وحملت أربعة أطنان من الملح لحفظ جلود الفيلة وفرس النهر والخرتيت غير المعدات العلمية الاخرى حتى بلغت تكاليف نقل الامتعة وحدها حوالى ٧٥ ألف دولار . وساعد عدد من المحسنين وبينهم « كارنيجى » على تمويل الرحلة ، أما روزفلت فقد دفع نفقاته الخاصة من كتاب ألفه باسم « طرق الصيد الافريقية » يعد للان نموذجا لا مثيل له لادب الرحلات .

وقطعت البعثة ٢٤٠٠ كيلومتر من ممباسا على الساحل الشرقى الى فاشوده على النيل الابيض ، وقد صاد روزفلت وحده ٢٩٦ حيوانا بينها ثمانية افيال وتسعة اسود ، بينما جمع علماء الطبيعة أكثر من ١١ الف حيوان ثديى وطير وسمكة وزاحفة ، فأمدوا معهد سميثسونيان بما لا يزال يعد أكبر مجموعة فى العالم لنباتات وحيوانات شرق افريقيا

وعاد روزفلت للوطن في يونيو ١٩١٠ لكي تستقبله ٢١ طلقة مدفع في نيويورك وموكب استعراض هائل في الشارع الخامس ، اصبح تقليدا لكل حفلات الاستقبال التالية ولكن عمر الانتصار كان قصيرا ، اذ سمع روزفلت أن الرئيس تافت يجرى بعض تغييرات تثير القلق في واشنطون فطرد بعض اصدقاء روزفلت القدامى من مناصبهم وتخلى عن بعض السياسات التي كان يعتز بها كثيرا .

وواجه روزفلت مسألة الدور الذي ينبغى أن يقوم به في انتخابات الكونجرس التي ستجرى في عام ١٩١٠ ، وهل يؤيد صديقه القديم تافت أم يتمسك بمبادئه الخاصة ؟

وقرر ان يقوم بجولة لالقاء الخطب ... ومنذ ذلك الحين وقع شقاق محزن بين الصديقين ظل يتسع باطراد حتى انفجر علنا بصوت مدو كالرعد وطالب انصار روزفلت ان يرشح نفسه لانتخابات الرئاسة عن الجمهورية في عام ١٩١٢ ، فرفض اول الامر ، ولكنه في اوائل عام ١٩١٢ بدأ يعتقد ان الغالبية من ناخبي الجمهوريين يريدون عودته حقا ، فأعلن في فبراير انه قرر الاشتراك في المعركة

ونشبت معارك حامية في مؤتمر الحزب بين انصار روزفلت وخصومه، ودام الصراع خمسة أيام، ولكن انصار تافت تغلبوا في النهاية ، وفاز تافت بالترشيح فانسحب انصار روزفلت فورا ، واتجهوا لعقد اجتماع حماسى . ولد خلاله حزب جديد هو حزب التقدميين الذي عرف باسم « حزب الوعل الصغير »

وبدأ روزفلت حملته الانتخابية بقوته المعهودة ، وفي ١٤ اكتوبر ١٩١٢ كان في طريقه الى احدى قاعات ميلووكي مستقلاً عربة مكشوفة عندما اقتحم شخص غريب صفوف الجمهور ، ورفع مسدسه مطلقا النار على صدر روزفلت .. وترنح روزفلت وسعل ، ثم نهض مرة أخرى ... وحاول الجمهور ان يبطش بالجاني ولكن روزفلت صاح بهم : « قفوا . لا تؤذوا الرجل » ثم ابعد رجال البوليس والاصدقاء الذين الحوا عليه للذهاب الى المستشفى ، وأمر سائق السيارة بمواصلة المسير وهو لا يعرف مدى اصابته ... وقال عندئذ : « سوف ألقى هذا الخطاب أو أموت ... »

وظل أكثر من ساعة يلقى خطابه على جمهور متحمس الى حد الجنون ، ثم نقل الى المستشفى سريعا حيث تبين ان الرصاصة اخترقت معطفه السميك

ونفذت من علبــة عويناته ، حتى استقرت فى احــدى الضلوع بعد أن تبددت قوتها ، فلم تنفذ الى الرئة أو القلب

وأثارت شجاعتــه المثيرة وارادته الفذة مشـاعر الامريكيين جميعا ، وعندما عاد للاستجمام فى « ساجامور هيل » عرض بقية المرشحين الغــاء خطبهم ... وبعد بضعة اسابيـــع اجريت الانتخابات ففاز روزفلت بأربعة ملايين و٢١٦ الف صوت . وهزم تافت تماما ، ولكن مرشح الديموقراطيين وودرو ويلسون فاز بأكثر الاصوات فاصبح رئيسا للجمهورية !

نهاية المغامرة الكبرى

شفى روزفلت تماما من جروحه، ولكنه ظل يحتفظ بالرصاصــة بين ضلوعه اذ كانت فى مكان أعمق من أن تستخرج منه .. وفى خـريف عام ١٩١٣ أحس انه أصبح فى حـالة مناسبة للقيام بأكبر رحلة فى حياته.

وفى هذه المرة انطلق روزفلت الى (ماتوجروسو) فى البرازيل ، وهى من أكبر الغـــابات التى يصــعب اختراقها فى العالم .. وكان هدفه الاساسى هو كشف مجرى احـــد روافد نهر الامازون التى لم تستكشف بعد وهو « ريودا دوفيدا » ــ أى نهر الشك ــ وقد كادت الرحـــلة تكلفه حياته اذ التهب جرح قديم فى ساقه ثم أصيب بالحمى ، ونفــدت المؤن ، وظل الرجال أياما لا يأكلون غير سعف النخيل . وعنــدما عاد روزفلت فى النهاية الى عالم الحضارة، كان قد فقد ٢٣ كيلو جـــراما من جسمه ، وأصبح من الضعف الى حد اضطره الى استخدام عصا .

وقد اعتبرت الرحلة نفسها نجاحا كبيرا لروزفلت الذى كشــف نهرا طوله ١٥٠٠ كم كان مجهــولا تماما لواضعى الخرائط فى العالم ، وهو يحمل الآن اسم (ريو روزفلت)

وعاد روزفلت الى عالم على حافة الحرب العالمية الاولى ، ولما كان يؤمن بأن الولايات المتحدة سوف تنضم فى النهاية الى الحلفاء ضد المانيا ، فقد راح يدعو الى استعداد أمريكا ، أما ويلسون فكان يحبذ الحيـــاد ، فلم يبذل اى جهد لتسليح البلاد وتبين فى النهاية أن روزفلت كان على حق.

وقبل اعلان الحرب ، بدأ روزفلت يضع الخطط لاشتراكه فى القتـــال وهو يأمل ان يقود فرقة من المتطوعين كما فعل فى كوبا.. واستجاب لندائه ٢٠٠ الف شـــاب ولــكن الرئيس ويلسون رفض الطلب ، ملمحا الى

أن روزفلت انما يعمل للدعاية لنفسه .. وحاول المارشال الفرنسي جوفر، وكليمنصو مناشدة ويلسون ارسال روزفلت ومتطوعين ولكن ويلسون ظل متمسكا برايه فى عناد .. وقنع روزفلت بأن أبناءه الاربعة كانوا يخدمون فى القوات المسلحة بينما يكافح هو فى معارك سياسية. . وخلال انتخابات عامى ١٩١٦ و ١٩١٨ — وكان قد عاد بحزبه الجديد الى صفوف الجمهوريين — واصل الحملة على ويلسون ، وتحرك الجمهوريون من جديد للعمل تحت زعامته . حتى بات من المقطوع به انه سيكون مرشح الحزب فى الانتخابات التالية ، ولكن حدث فى صيف ١٩١٨ أن تلقى روزفلت نبأ فاجعا ، فقد سقطت الطائرة التى يقودها ابنه كونتين وراء خطوط الالمان وقتل . وأخفى روزفلت ألمه خلف العقيدة التى ظلت تحكم كل حياته وهى « ان أولئك الصالحين فقط للحياة هم الدين لا يرهبون الموت » .

ولكن موت كونتين أضاع منه شيئا هاما .. وفى ذلك الخريف اوقف رحلاته الانتخابية بسبب اصابته بالروماتزم ، ونقل الى المستشفى ، حيث حذروه بأنه قد يضطر لتمضية بقية أيامه فوق مقعد متحرك ، فقال « انني استطيع أن أعمل بهذه الطريقة أيضا » .

وعاد لبيته يوم عيد الميلاد وهو لا يزال يعانى آلاما شديدة ، وظل يواصل العمل بسرعة لمدة أسبوعين، وفى أمسية يوم ٥ يناير كانت زوجته أديث تجلس الى جوار فراشه عندما نهضت لتغادر الغرفة ، فنظر اليها روزفلت وقال : « ترى هل تعرفين كم أحب « ساجامور هيل » ؟ وفيما بين الرابعة والخامسة من الصباح التالى لاحظ خادمه الخاص أن تنفسه أصبح مضطربا فاستدعى المرضة ، ولكنها قبل أن تصل كان تنفس روزفلت قد توقف تماما » .

وعندما تلقى أبناؤه فى فرنسا برقية شقيقهم آرشى بوفاة أبيهم . قالوا فى فخر : « لقد مات الاسد »

●

تشاجر الرجل مع زوجته وغادر المنزل غاضبا الى احد الفنادق ، وعندما حل موعد العشاء احس بالجوع والاسف ، فاتصل بزوجته تليفونيا وسالها :

— ماذا اعددت لنا للعشاء الليلة يا سارة ؟

— انني اعد سما ..

— حسنا .. اصنعي طبقا واحدا فقط فانني لن اعود للعشاء !

كتاب الشهر

تركت عينيها ورحلت



كانت فى الثامنة من عمرها عندما عرفت النبأ السيىء ، ولكنها تركت فى الفترة التى بقيت لها تراثا أعظم بكثير مما كان فى استطاعتها أن تعرفه ... انها رحلة اليمة فى قلب عظيم لفتاة صغيرة ...

تركت عينيهـــا .. ورحلت

تلخيص كتاب

The Triumph of Janis Babson

بقلم لورانس اليوت

اســمها جانيس .. وفى ذلك الشتاء من عام ١٩٥٩ كانت فى العام الثامن من عمرها .. كان شعرها ذهبيا ، نحيلة مرنة ، عندما تضحك ، تبرق عيناها بضوء يكشــف عن ســعادة فى اعمــاقها ، وتزداد حيويتها قوة ، حتى تفيض على جنباتها فى بعض الاحيان ..

وبعد ظهر أحد أيام شهر يناير، قالت وهى تطير مندفعة داخل المنزل

ــ أماه .. يا لها من متعة

فسألتها أمها ريتا بابسون قائلة :

ــ أية متعة ؟

قالت : أوه ... المدرســة ، والجليد ، واللعب مع الاطفال ... كل شىء .

كانت قد ولدت فى « وندسور » بنوفاسكوشيا ، ولكنها وهى ما زالت طفلة رضيعة ، نقل والدها الجندى من فرســان البوليس الـكندى الى قيادة قوات الفرســـان فى أوتاوا فانتقلت الاسرة الى بيت نظيف مطلى بالمصيص الابيض ، فى شارع هادىء بضاحية « سيتى فيو » التى تقع فى الجنوب الغربى للمدينة، وقداصبح هذا المنزل وذلك الشارع هما عالم جانيس بابسون ، وقد احبتهما حبا عظيما ..

وفى هذا الشــارع ، كانت تقع مدرسة سانت نيقولاس ذات الغرف العشر ، وكانت جانيس فى الســنة الثالثة الابتدائية بها ، تشترك فى منافســة حامية مع اليزابيث هايز للفوز بأعلى الدرجات فى الفصل .. والى الوراء تمتد المزرعــة ، حيث خلب لبها منذ وقت بعيد استعراض خيول الجر ، وكانت تقفز التل بعد ظهر كل يوم وهى تحمل لها هدية من الجزر ..

وعبر الشارع أيضا تقيم «تريشيا كنيدى » أفضل صديقاتها، وفى البيت المجاور تقيم الـكلبة « ســوزى » الصــغيرة ذات الارجــل القصــيرة والشعر الناعم .. وكانت هنــاك كتب كثيرة تتحدث عن الاماكن البعيدة الساحرة ، ولوحات مرسومة بالالوان المائية ، ورقص مع أختها الكبرى ، وفتى قصير الشعر اسمه «رونى» ابتسم لها عدة مرات فى الصــيف السابق ..

كانت تركع على ركبتيها احيانا لتشكر الله على كل الاشياء الطيبة فى العالم .. لم تكن تشعر بشىء روحانى ، ولم تكن لتفهم معنى هذه الكلمة ، ولكن الله كان قريبا جدا الى جانيس بابسون ، وكانت تعرفه جيدا ، فقد كان شيئا حقيقيا بالنسبة لها .

والى جانب أمها ريتا الحسناء ذات الشعر الاحمر الداكن ، ووالدها فارس البوليس الطويل القامة ، كان هناك خمسة آخرون من آل « بابسون » : أختها شارمين التى تكبر جانيس بعامين ، وودى ، وكارين وتيمى وسالى وكلهم أصغر منها ، وكان الطفلان الصغيران تيمى وسالى يبعثان فى قلبها متعة خاصة .. وكثيرا ما كانت تضعهما فى العربة الصغيرة بعد العودة من الكنيسة يوم الاحد لكى تدفعهما بنفسها من أحد أطراف شارع « كوت دى نيبيج » الى طرفه الآخر ، وكان وجهها يشرق بالفخر عندما يتوقف الجيران لأبداء اعجابهم بحمولتها الصغيرة وكانت تقول برزانة : « انهما شقيان جدا » ثم تنفجر ضاحكة فى اشراق .

كانت ذات مشاعر عميقة ، تتألم لاشياء كثيرة ، فقد قالت يوما لأمها وهى ترى شقيقتها الصغيرة « سالى » تكبر « قد تكون آخر طفل لدينا » .. وكانت تشعر بقلق خوفا من ألا تجد الطيور ما يكفيها من الطعام خلال الشتاء ، وعندما كانت تتأثر من سماع قصة ما ، كانت غمامة تغطى عينيها وتقول متسائلة : « لماذا يجب أن يعامل الناس بعضهم البعض بهذه الدناءة ؟ . وددت لو استطعت أن أكون أفضل صديقة لكل انسان فى العالم »

وكانت تشهد برنامجا يعرضه التليفزيون ذات يوم خلال الاسبوع « العصا البيضاء » ــ وهو أسبوع مساعدة العميان فى كندا ــ وتحدث المذيع عن مساعدة بنك العيون للكثيرين من فاقدى البصر على استعادة أبصارهم بنقل انسجة القرنية اليهم بعملية جراحية ... وظهرت أم شابة لتذكر كيف فقدت ابنها فى حادث ما ، فتبرعت بعينيه لتمكن شخصا غريبا من الابصار مرة أخرى ، وقالت انها ترى أن اعادة البصر الى شخص ما لا تعرفه أبدا ، سوف يكون بمثابة حياة لابنها الصغير ..

وأثر البرنامج التليفزيونى فى نفس جانيس تأثيرا بالغا ، وظلت جالسة

تفكر وقتا طويلا ثم ذهبت الى المطبخ وقالت لأمها :

ـ أماه .. عندما اموت سوف أهب عيني لبنك العيون .

ونظرت الأم ريتا بابسون الى ابنتها ، ثم كبتت صرخة غاضبة كادت تفلت من بين شفتيها عندما رأت الدموع تتعلق بأهداب الطفلة وهى تحكى ما شاهدته .. ثم قالت :

ـ هناك كثيرون جدا فى حاجة الى المساعدة يا أماه .. ألوف وألوف ينتظرون دورهم ، ولو أن كثيرين تبرعوا بعيونهم لما حدث هذا .

وتأثرت الأم ولكنها قالت فى حرص : اننى أدرك شعورك يا عزيزتى .. ولكن هذا القرار خطير جدا بالنسبة لطفلة صغيرة ، وقد تغيرين رأيك بعد أن تكبرى .

وتموج شعر جانيس الذهبى وهى تهز رأسها هزة قاطعة ثم قالت :

ـ كلا ... بل سأبقى على هذا الشعور .. ولن أنساه يا أمى .

تل طويل الى الامام

تساقط جليد كثير فى شهر فبراير من هذا العام ، وكان ذلك بالنسبة لجانيس شيئا ساحرا فقد كانت تنطلق الى العراء عصر كل يوم ، تلعب وتهبط من فوق التل ، وتبنى قلاعا صغيرة من الجليد مع صديقاتها « تريشيا كنيدى » وبعض الفتيات الاخريات ، ثم تعود الى البيت بعد تردد وقد احمرت وجنتاها ، ولايزال رأسها مليئا بمغامرة اليوم .

ثم حدث فقط أن فقدت طاقتها النشيطة .. كان مجرد اللعب بضع دقائق يستنفد كل قواها ، تتثاءب وتتنهد بشدة ، واذا تناولت لقيمات قليلة من العشاء أحست بالتعب .. وظنت أمها فى أول الامر انها مصابة بالبرد ، ولكنها لم تكن تسعل كما أن حرارتها لم ترتفع ، ومع ذلك فقد ظل الارهاق البالغ مسيطرا عليها .

وعندما اوشك فبراير على النهاية ، زادت الظلال السوداء تحت عينى جانيس ، واصبح رأسها يؤلمها ، ورائحة الطعام المطهو تثير غثيانا فى نفسها .. وذات ليلة هبت واقفة وصاحت :

ـ أماه .. ما هذا الالم ..

فسألتها أمها فى انزعاج : اى الم . ؟ ماذا حدث ؟ .

ـ ظهرى .. انه الآن لا يؤلم ؟ ولكنه سيؤلمنى مرة أخرى بكل تأكيد

ولكنها رفضت البقاء فى المنزل ، وأصرت على الذهاب للمدرسة قائلة : انها ليست مريضة الى هذا الحد ،

كما انها لا تستطيع أن تترك اليزابيث هاير تتفوق عليها !.

وبعد ظهر يوم عاصف لم تعد جانيس الى المنزل مع شقيقتيها رودى وشارمين ، وتطلعت ريتا من نافذة غرفة الطعام . فأصابتها رجفة مما رات .. كانت جانيس تحمل كتبها بين ذراعيها وهى تكافح لهبوط منحدر طريق « كوت دى نيبيج » وكانت تنقل خطواتها ببطء فوق الجليد ، وهى تكاد تسقط على ركبتيها

ونزعت الام المعطف عن ابنتها ، ثم تفرست فيها عن كثب ، فأحست برعب مفاجىء لما أصابها من شحوب ، ومنظر عينيها العسليتين اللتين تملآن الوجه النحيل .

وعندما عاد الاب فى تلك الليلة ، قرر هو وزوجته انه يجب عرض جانيس على الطبيب ، وفى اليوم التالى عاد مبكرا من عمله وصحب الطفلة الى عيادة طبيب الاسرة الدكتور جيمس ويلانز ..

وفحص الطبيب حلق الطفلة وأذنيها ، واستمع الى دقات قلبها ، ثم فحص نقطة من دمها تحت المجهر ، وعندئذ تصلبت نظراته وقال لها :

ـ هل تسمحين للمرضة بأخذ نقطة أخرى من الدم من أصبعك ؟

وبعد أن فحص النقطة الثانية ، قال لأبيها : يبدو أن هناك نسبة مرتفعة جدا من الكرات البيضاء فى دمها .. اننى أريد دراسة هذا الدم فى المعمل فما رأيك ؟

وفى يوم الجمعة التالى توجه رودى بابسون مع ابنته جانيس الى المعمل حيث اخذت عينات عديدة من الدم من أصابعها وشرايينها ، وفى الصباح التالى اتصل الدكتور ويلانز بمستر بابسون تليفونيا وقال له باقتضاب :

ـ اسمع ... اننى لست سعيدا بذلك ، ولكنى أريدك أن تذهب بجانيس فورا الى المستشفى حيث أعرضها على طبيب أخصائى فى الدم

فقال الاب بصوت هامس :

ـ لا يمكن أن يكون سرطانا فى الدم .. أيمكن أن يكون كذلك يادكتور ويلانز ؟

وساد الصمت لحظة .. ثم جاء صوت الطبيب عبر الاسلاك التليفونية يقول : ربما كان الأمر كذلك ؟

التشخيص

بكت جانيس عندما ابلغها أبوها انها ستذهب الى المستشفى وقالت فى توسل وبكاء :

ـ اننى لست مريضة حقا ... اننى متعبة فقط

كانت تشعر بقلق للانقطاع عن المدرسة ، ولكن أمها قالت ان الاطباء سيجعلونها على ما يرام فتوقفت عن البكاء وذهبت الى غرفتها لتجمع حاجياتها .

وأحست جانيس انها تائهة فى مستشفى أوتاوا المدنى — وهو مجموعة واسعة من المبانى المقامة بالزجاج والطوب الاحمر — ولكنها امتنعت عن البكاء ، وتبعت الممرضة الى عنبر الاطفال فى ثبات .. وعندما جاء أبواها لوداعها كانت ترتدى ثوب المستشفى الابيض ، وقد جلست متربعة فى فراشها تحدق فى الاطفال الآخرين الذين يشاركونها فى الغرفة البيضاء الكبيرة .. وعندما قبلها أبواها همست فى قلق :

— ستعودان لرؤيتى .. أليس كذلك ؟

وظلت الام تواظب على الحضور بعد ظهر كل يوم ، وكان الاب يصحبها فى أغلب الامسيات ويحضران لها الرسائل من شقيقتها « شارمين » والرسومات من كارين ، وكانت جانيس تفرح بها وتعرضها على أصدقائها الجدد ، وكانت تقضى الايام الطويلة فى اللعب مع المرضى الصغار

كانت جانيس قد وضعت تحت رعاية الدكتور الكسندر انجليش من أكبر الاخصائيين فى أمراض الدم بأوتاوا ، وقد وعد بتقديم تقرير فى أقرب وقت ، وفى ليلة الخميس اتصل بآل بابسون وطلب اليهما الحضور لمقابلته فى المستشفى .

ولم تستطع الام الذهاب ، فقالت لزوجها :

— اذهب أنت وحدك .. سأنتظرك هنا ، فاننى لا استطيع الذهاب

ما كاد الدكتور انجليش يغلق باب الغرفة خلف فارس البوليس الطويل الذى يبدو التوتر على وجهه حتى قال : يؤسفنى أن اقول لك اننى واثق من أنها مصابة بسرطان الدم !

وكان رودى بابسون على استعداد لتلقى الصدمة .. فقال : أليس هناك أمل ؟

فهز الطبيب رأسه وقال :

— آسف .. فهو داء قاتل دائما ، ولكن حالتها ليست حادة ، ولا أعتقد انها أصيبت به منذ وقت بعيد ، وقد يمكن أن تعيش سنة أخرى أو أكثر بفضل العناية الطبية وما لدينا من عقاقير الآن !

واحنى الأب رأسه فى سكون ، ولم يستطع النطق بكلمة واحدة ..

واستطرد الدكتور انجليش يقول:

ـ انت حر فى أخذها الى أى مكان تشاء ، ولكنى على ثقة من التشخيص ، وليس فى كندا أو الولايات المتحدة مستشفى آخر يعرف أكثر مما نعرفه نحن عن علاج سرطان الدم ، وسيكون الامر مجرد نفقات لا داعى لها .

ثم قال انه بعد اعداد العلاج المناسب ، وتحسين التوازن فى دم جانيس ، تستطيع العودة الى البيت ، ولكنه سيحتاج الى اجراء فحص مستمر على عدد الكرات البيضاء فى دمها ومن ثم فانها يجب أن تعود الى قسم السرطان فى المستشفى مرة كل اسبوع .

واضاف الطبيب قائلا : وفيما عدا ذلك فانها تستطيع أن تفعل ما كانت تفعله دائما ، فتذهب للمدرسة وتلعب ... ولا حاجة لاخبارها بشىء أكثر من أن هناك بعض الخلل فى دمها واننا نعالجه

وعندما عاد بابسون الى البيت فى ذلك اليوم ، وجد أن زوجته ريتا قد حدست الحقيقة وادركتها بمجرد القاء نظرة واحدة على وجهه .

بصيص من ضوء الشمس

كانت جانيس قد أمضت أكثر من شهر فى المستشفى ، وفى ذلك الحين أصبحت ريتا وزوجها على معرفة وثيقة بسرطان الدم ، فقد أصيب نخاع العظام فى جسم جانيس بالجنون لسبب لا يدرك كنهه ، فأخذ ينتج كرات الدم البيضاء بمعدل خيالى اذ أن المعدل العادى ٧٥٠٠ فى المليمتر المكعب ، فاذا بالفحص يدل على انه زاد لدى جانيس مائة مرة ، والاسوأ من ذلك أن هذه الكرات البيضاء ستشق طريقها فى النهاية الى بقية أنحاء الجسم لتغزو الانسجة السليمة وتقضى عليها .

وكانت هناك عقاقير أساسية فى المعركة لابطاء سير المرض ، فعقار « ميثوتريكسيت » اذا استخدم بعناية ، يمنع التكاثر الجنونى للكرات الدموية البيضاء ، وهذا العقار السام مستخرج من النيتروجين والخردل ، ولكن هذا العقار وأمثاله ، يفقد أثره الفعال تدريجا حتى يصبح بلا أية قيمة فى النهاية !

وفى منتصف ابريل كانت جانيس كنيدى فى انتظارها أمام المنزل .. واستطاعت العودة الى البيت فى أحد أيام الربيع الدافئة ، وما كادت تصل الى هناك حتى أسرعت تغادر السيارة عندما رأت صديقتها تريشيا كنيدى فى انتظارها أمام المنزل ..

وصاحت : تريشيا .. لقد عدت للمنزل ...

ووقفت ريتا بايسون ترقب عناق الطفلتين ، فرأت لونا جديدا يفيض حيوية فى وجنتى طفلتها ، كما لاحظت نشاطها وهى تقفز الدرجات لتحية أخوتها ، فظنت أن الامر كله كان حلما سيئا ، وأن جانيس لن تموت حقا ..

وازداد هذا الظن قوة على مرور الايام ، فقد عادت جانيس الى المدرسة ، وأخذت تعوض الدروس التى فاتتها خلال الشهر المنصرم ..

وبناء على نصيحة الدكتور انجليش ، قرر الوالدان الا يذكرا الحقيقة للاطفال الآخرين حتى تعيش جانيس بطريقة طبيعية وسعادة قدر الاستطاعة .

وعاشت الاسرة فترة من الوقت فى هدوء ظاهرى ، فقد كانت هناك رحلات طويلة بالسيارة ، وألعاب بعد الظهيرة ، وزيارة الجدة التى تعيش فى نورث وليامز ، حتى سرى احساس مطرد فى نفس الابوين جعلهما يرفضان الاعتقاد بأن هذه الطفلة الحلوة التى تفيض حياة سترحل بعيدا الى غير عودة !

وكان دورى الاب يصحب جانيس الى المستشفى كل خميس .. واعتادت الطفلة هذا الروتين الجديد ، وكانت اذا وصلت الى المستشفى انطلقت الى عنبر الاطفال لتحية صديقتها « فريدا » التى تتولى شئون المطبخ ، وكانت تعرف كل الاطفال الذين يأتون الى المستشفى يوم الخميس ، وكانت صديقة ومرشدة للقادمين الجدد ، تهون عليهم آلام الحقن .

ويقول أحد الفنيين انهم كانوا ينتظرونها صباح كل خميس فى لهفة ، حتى اذا أقبلت ، بدت أمامهم كبصيص من ضوء الشمس الساطع .

وكان عدد كرات الدم البيضاء يتناقص باطراد ..

الله لا يخطىء

قضت جانيس صيفا طيبا ، وفى شهر سبتمبر ، أهداها والدها فى عيد ميلادها التاسع دراجة جديدة ، فانطلقت تجوب الغابة المجاورة بها ، واستأنفت منافستها لاليزابيث هايز للفوز بأعلى الدرجات فى السنة الرابعة الابتدائية .. ولكنها أصيبت بنكسة فى اكتوبر ، اذ نفدت طاقتها فجأة ، وقال الدكتور انجليش أن احصاء الكرات البيضاء قد زاد مرة أخرى ، وأن عقار «ميثوتريكسيت»

قد فقد اثره الفعال كما يبدو ، وأمر بنقل دماء اليها ، ثم تحول الى عقار جديد ، وقال لأبوى الطفلة انه سيكون جيدا لو لم تسرف جانيس فى نشاطها الى هذا الحد .

وسألت جانيس امها يوما : متى يتحسن دمى القديم ؟ لقد تناولت الدواء وقتا طويلا .. ألن يتحسن ابدا ..

كان ذلك هو أول الاسئلة العديدة المؤلمة التى ينبغى ان تواجهها ريتا بابسون ، ولم يكن فى استطاعتها التهرب منها بسهولة .. ومن ثم فقد امسكت يدى ابنتها وقالت برقة :

ـ انه عبء ألقاه الله على كاهلك يا حبيبتى ، وليس فى استطاعتك الا أن تتحمليه ، وانى واثقة انك ستعرفين سببه فى يوم ما .

وابتسمت جانيس ـ التى كان ايمانها تاما ـ وقالت اننى أعرف يا أمى أن الله لا يمكن أن يخطىء .. ولكنى مكتئبة فقط ..

وبدأت تمتنع عن نط الحبل والقفز ، وممارسة الالعاب الرياضية فى المدرسة ، وعندما أقبل الشتاء اكتفت بالنظر من النافذة لمشاهدة الاطفال الآخرين وهم ينزلقون هابطين التل .. وبدأت صحتها تتحسن مرة أخرى ، وفى شهر مارس ، الذى كان ينبغى أن تقترب فيه من نهايتها ـ وفقا لانذار الدكتور انجليش ـ بدأ وزنها يزداد ، وكانت اعراض مرضها الوحيدة هى صداع يصيبها من حين لآخر !

وحدث تغير آخر .. فقد سيطر عليها الهدوء والرزانة ، وسألت أمها يوما عن العالم الآخر ، وهل الايام فيه طويلة كما هى على الارض ؟

وذكرت جانيس والديها مرتين برغبتها فى التبرع بعينيها لبنك العيون ، واصبحت تواقة دائما لارضاء الآخرين ، وكانت تشعر بالسعادة البالغة من ذلك .. كما كانت تتولى رعاية أخويها الصغيرين وقد سأل بابسون الدكتور انجليش يوما عما اذا كان من الممكن أن تقع المعجزة ويظل التحسن دائما ؟

فقال الطبيب : أشكر ربك لانها على ما يرام الآن .. ولا تأمل فى المزيد .

ولكن بابسون وزوجته ظلا يفكران فى احتمال ظهور عقار جديد يبتكره بعض العلماء لشفاء هذا المرض ..

وسرعان ما أقبل سبتمبر التالى .. كانت جانيس قد بلغت العاشرة ، وبدأت سنتها الخامسة فى الدراسة

الابتدائية ، وكانت قد وعدت أبويها بأنها سوف تزيد درجاتها المنخفضة فى الحساب ، واستطاعت أن تحقق ذلك فعلا ..

ولكن تلك كانت أيامها الاخيرة فى المدرسة، فقد لاحت علامات لاتخطىء على أن معركة الحياة دخلت دورها الاخير ، وأصبح من الضرورى نقل دماء جديدة لها مرة كل عشرة أيام..

واصبحت الاختبارات التى تجرى لدمها اكثر تعقيدا ، ولم تعد نخسات الاصابع العادية تكفى لتقديم المعلومات التفصيلية التى يحتاج اليها الدكتور انجليش ، وبات ضرورياً من حين لآخر بذل نخاع العظام ، بادخال ابرة طويلة فى عظمة أعلى الفخذ وسحب بعض النخاع منها لدراسته ، وهى عملية شديدة الايلام ، والاسوأ من ذلك كله أن العقاقير القوية التى ظلت تتناولها منذ ١٨ شهرا ، غيرت شكلها تدريجا . فوجهها النحيل ازداد اسمرارا وكآبة ، وجسمها الصغير السريع أصبح الآن سمينا مترهلا .

وحاولت الأم أن تنكر ذلك أول الامر، ولكن جانيس عادت يوما من المدرسة وهى تبكى وقالت لأمها ان طفلة عيرتها لانها أصبحت سمينة وقالت ان الاطفال أصبحوا يخجلون من النظر الى شكلها المتغير ..

وضمت ريتا الطفلة الصغيرة الى صدرها وقلبها يتمزق أسى .. وابتهلت الى الله أن يرشدها الى الطريق الذى تتبعه واخيرا قالت : « هل تعتقدين ان الله يهتم كثيرا بمظهرنا يا حبيبتى ؟ ان الذى يهم هو ما فى داخلك ، وما تشعرين به فى اعماقك »

مكان الشرف

فى شهر ديسمبر ، قامت مدرسة « سانت نيكولاس » ببيع بطاقات عيد الميلاد لاعمالها الخيرية ، وقررت أن تمنح من يبيع أكبر عدد من صناديق البطاقات نسخة من رواية « القديسة تيريز والزهور » وأصرت جانيس بحماسة بالغة على ان تفوز، ولكنها عندما عادت من المستشفى، كان بقية الاطفال قد باعوا البطاقات لكل ساكنى طريق « كوت دى نييج » ولم يبق غير أسرتها وعدد قليل من الجيران تستطيع أن تبيع لهم بطاقاتها ..

وصعدت جانيس الى غرفتها وهى يائسة ، ولكنها لم تلبث أن فكرت فى صديقاتها بالمستشفى ، وعندما عادت الى هناك ، قامت بجولة سريعة فى معمل تحليل الدم وعنبر الاطفال،

فباعت من البطاقات عددا يكفل لها الفوز بالجائزة .. وبعد أن فازت بالكتاب الذى منحته لها المدرسة ، جلست تطالعه فى سرور وقالت لأختها شارمين فى ابتسام : « ان القديسة تيريز هى شقيقتى الكبرى فى السماء ، كما أنت شقيقتى الكبرى هنا » .

واظهارا لشكرها للفوز الذى حققته ، صنعت صورة لمكان ميلاد المسيح من الورق المقوى وذهبت بها الى عنبر الاطفال بالمستشفى،وسألت عاملة الاستقبال : « الديكم مكان لهذه ؟ » فتأثرت السيدة وقالت برقة : « سوف نضعها فى مكان الشرف » وأخذت الصورة ووضعتها فى احد أركان مكتبها باهتمام بالغ .

الايام الاخيرة

قبل عيد الميلاد مباشرة ، عادت دماء جانيس تتدهور من جديد ، وقرر الدكتور انجليش ضرورة اجراء بذل جديد لنخاع العظام ، وشحب وجه جانيس ، واستسلمت للخوف لاول مرة وقالت متوسلة : « أرجوك يا أبى .. لا أستطيع .. لا أستطيع»

فربت أبوها على ظهرها برقة وقال:

ـ اعتقد انك تستطيعين ياجانيس كل ما يلزمك هو الشجاعة والايمان.

ورفعت يديها الى أعلى وركعت على ركبتها قائلة فى ابتهال : «يا الهى العزيز هبنى مزيدا من الشجاعة » .

وأدار أبوها وجهه حتى لا يرى عينيها الباكيتين المحمرتين ..

وفى عيد الميلاد ، بدا أن الداء الذى لا يرحم يواصل تقدمه ، ولكن جانيس رفضت أن تستسلم لآلامها وارهاقها ، وراحت تشق الطريق وسط الجليد الى المدرسة كل يوم ، على الرغم من أن شقيقها « رودى » كان يضطر كثيرا الى مساعدتها ، وكانت عملية شراء هدايا عيد الميلاد التى ستقدمها لاخوتها ووالديها مرهقة لها ..

وعندما عاد آل بابسون الى البيت بعد أداء صلاة منتصف الليل عشية العيد ، كانت جانيس مستيقظة تتحدث مع جليسة الاطفال ، وقد أمضت وقتا مرحا وهى تبدى اعجابها بشجرة العيد التى زينت بطريقة مبتكرة .

وفى باكورة الصباح التالى ، هبطت الى الطابق الاسفل بوجه مشرق وكأنها لم تعرف الألم فى حياتها قط، وكانت ترتدي ثوبا ذا لون أزرق شاحب أهداه لها أبواها وسترة صوفية هدية من جدتها ، وتلقت

هدايا كثيرة ، بينها آلة حياكة صغيرة تعمل بالبطارية ، وعليه ألوان جديدة ، وصندوق لشغل الابرة ، وكتب كثيرة ..

وعندما جلست على الارض تحيط بها هداياها ، قالت لاخوتها : « لن أرى أبدا مثل هذا العيد السعيد ! »

ساعود بعد أسبوع !

بعد بضعة اسابيع ، وقبل أن يدق الجرس الاخير لليوم الدراسى بفترة قليلة ، اهتزت جانيس فى مقعدها متشنجة ، وحاولت أن تخفى آلامها حتى لا يلاحظها أحد من حولها وضغطت على أسنانها فى صلاة صامتة مبتهلة الى الله أن يدق الجرس الاخير بسرعة ، وهكذا غادرت مدرسة سانت نيقولا لآخر مرة دون أن يعرف أحد ما حدث .. وبعد أيام قلائل ، أصيبت ذات صباح بنوبة ألم عنيفة فى ظهرها دامت فترة أطول ، فنقلت الى المستشفى فى اليوم التالى

وقال الدكتور انجليش بعد أن فحصها : أعتقد أن كتلة الكرات الدموية البيضاء قد انتشرت خلال منطقة العصب الفقرى ، وأرى انه يستحسن بقاؤها هنا ..

ولم تحتج جانيس عندما عرفت من أبيها انها يجب أن تبقى فى المستشفى ، وقالت : « اننى واثقة من اننى سأتحسن هنا سريعا ، وسأعود اليكم بعد أسبوع .. »

ونجحت الجرعة المتزايدة فى تقوية العقار واحداث توازن سريع فى الدم ، وبعد ثلاثة أيام أستطاعت أن تغادر الفراش وانطلقت الى المطبخ ، واخذت تتنقل بين الاطفال المرضى وهى ترحب بالوافدين حديثا الى المستشفى .

وكانت تحب مساعدة الممرضات فى رعاية صغار الاطفال ، فترتب وسائدهم ، وتقرأ لهم القصص ، وترسم لهم صورا مضحكة بالالوان . وقد ظلت مستيقظة ذات ليلة حتى الفجر وهى تهدىء روع طفلة فى الثالثة من عمرها أصيبت فى حادث ووضعت فى جبيرة من الجبس .

ولكن جانيس على الرغم من قوتها وعمق شخصيتها ، كانت لا تزال طفلة صغيرة ، وظل المستشفى بالنسبة لها شيئا ينتمى الى عالم الكبار ، ولم تشك قط فى حقيقة السبب الذى جعلها تبقى فى المستشفى ، وكانت فى بعض الاحيان تهبط الى العيادة وحدها وتجلس على مقعد بمفردها . طفلة صامتة مرهفة العينين ، تنتظر بعض الاطفال الذين عرفتهم خلال العامين اللذين أمضتهما

فى العلاج هناك .. ولكنهم لم يعودوا قط !.

وسألت عن « ادى » .. وعن «جلوريا» .. فقالت عاملة الاستقبال انهما لا تأتيان الآن ، ثم أدارت وجهها بعيدا لتخفى تأثرها ..

وقالت جانيس لأمها بعد ذلك « أماه .. أتذكرين ادى وجلوريا ..؟ لقد ماتت الاثنتان أليس كذلك ؟ »

فقالت الام فى رقة : أجل ياعزيزتى.

وسبحت جانيس بأنظارها بعيدا .. ثم قالت : لا تحزنى يا أماه .. انهما الآن فى السماء ، ولابد انهما سعيدتان هناك .

كم أحبكما

جاءت المدرسة مس ماكفى لزيارة جانيس فى المستشفى ، وأحضرت معها رسائل من كل تلميذات الفصل .. وتأثرت جانيس كثيرا ، فقد كانت تتوق الى سماع أخبار كل واحدة منهن ، وراحت تسأل مس ماكفى عنهن .

وكانت أختها شارمين تبعث اليها كل مساء برسالة يحملها أبواها ، وكانت جانيس تنتظرها بلهفة ، وكانت شارمين اذا تقاعست يوما عن ارسال خطابها ، قالت جانيس بحدة « قولوا لشارمين الا تتكاسل ، فانني أريد أن أعرف كل ما يجرى » .

وفى منتصف فبراير ، استطاعت العودة الى المنزل ثانية ، ولكن نظرا لقسوة الجو ، لم يسمح لها الدكتور انجليش بالعودة للمدرسة خوفا من عواقب البرد الخطرة على صحتها .

كانت جانيس تجلس الى جوار النافذة ، تنظر الى أطفال الجيران وهم فى طريقهم للمدرسة ثم تطالع كتابا ، او تنسج قفازا لسالى ، وفى بعض الامسيات التى تشعر خلالها بالوحدة والانقباض ، ترجو أمها أن تجلس الى جوارها وتحكى لها قصة لقائها بأبيها وزواجهما !.

وبعد المدرسة ، كانت صديقاتها يأتين لزيارتها ، وكانت تستجمع كل طاقتها لتجلس معهن وتسليهن ، وتقص عليهن الحكايات المضحكة التى تطلق ضحكاتهن العالية ..

وازدادت الآلام سوءا حتى أصبحت مستمرة لا تنقطع ، ومع ان جانيس كانت ترفض الاشارة اليها ، فان وجهها كان يفصح عنها ، وفى بعض الاحيان كانت تطلق على الرغم منها صرخة مدوية ، يرن صداها فى أرجاء المنزل وسط الظلام .

وكان الاب يضطر الى حملها بين يديه الى السيارة عند الذهاب بها

الى المستشفى ، وقد زادت كمية الدم التى تؤخذ منها كل مرة ، حتى امتلأت ساقاها وذراعاها بالجروح وآثار النخسات .

وفى مارس ، كان عليها أن تعود للمستشفى مرة أخرى لاجراء سلسلة من جلسات العلاج بالاشعة ، وكان الدكتور انجليش يأمل أن تنكمش كتلة الكرات الدموية البيضاء .

وعندما بدأت تعانى صعوبة فى السير ، أعد لها طوقا حديديا ، ولكنها مع ذلك قل أن كانت تشكو او تتذمر أو تتحدث عن تعاستها .. وعندما جاء أبواها لزيارتها ذات مساء ، وجداها مستغرقة فى غفوة من النوم والى جوارها كراسة مفتوحة ، وقد كتب فيها :

« اننى فى تلك اللحظة أبكى من أجل أمى العزيزة .. العزيزة جدا ، وأبى اننى احن الى العودة الى المنزل ، ولا أعتقد اننى سأسمح لنفسى يوما بأن يساورنى اى فكر خسيس حيالهما مرة أخرى ، فاننى أرى الآن بوضوح مدى حبهما لى »

وتسلل الابوان من الغرفة على أطراف أصابعهما ، وسألا الدكتور انجليش عما اذا كان فى استطاعتهما العودة بجانيس الى البيت مع احضارها للمستشفى كلما تطلبت الحالة ؟ .. فقبل ذلك .

القلب الحبيس

وعادت جانيس الى البيت لتجد أن شارمين ورودى أعدا لافتة كبيرة كتبا عليها « مرحبا بعودتك » .. ولكن حز فى قلبها أن أختها الصغيرة سالى أوشكت أن تنساها لكثرة تغيبها فى المستشفى ، وقالت لأمها انها تخشى أن تنساها الطفلة تماما اذا ماتت .. ولم تستطع الأم أن تخفى تأثرها ، فأشاحت بوجهها بعيدا حتى لا ترى دموعها ..

كانت جانيس ترقد دائما على أريكة فى غرفة الجلوس تطالع بعض الكتب ، واذا استطاعت الجلوس قليلا ، راحت تنسج بعض الصوف ببطء ، ولكنها فى أغلب الاحيان كانت تكتفى بالجلوس بجوار النافذة والتحديق فى الطريق .. كان الألم لا يكاد يفارقها لحظة .. وقد بدأت الكرات الدموية البيضاء المتجمعة فى عمودها الفقرى تتسلل الى رأسها ، ووصل الألم الى أسنانها ، وكثيرا ما كانت تصاب بدوخة شديدة .

ولم يعد هناك مفر فى النهاية من اعادتها للمستشفى .. وبينما كان رجال الاسعاف يحملونها على المحفة ،

طلبت منهم التريث قليلا .. وراحت تجول بعينيها فى ارجاء المنزل . ثم قالت :

« اننى لا أريد أن أنسى شيئا ، حتى لا ينسانى أحد »

وفى المستشفى ، قال الدكتور انجليش لأبويها : « لم يعد هناك ما يمكننا عمله .. لقد قلت لكما اننى لست صانع معجزات .. » ثم هز راسه فى تأثر بالغ وانصرف .

وقالت جانيس بعد ذلك ان الدكتور انجليش الذى اعتاد البقاء والمزاح معها ، لا يكاد ينظر اليها الآن .. وسألت والدها : « ألم يعد يحبنى ؟ »

فقال أبوها مطمئنا اياها : كلا يا عزيزتى .. انه مشغول فقط ..

فقد كان يعرف مدى الصداقة العجيبة التى ربطت بين الطبيب ومريضته الصغيرة طوال الشهور الماضية .. ويعرف أن الرجل يعانى ألما بالغا فى أعماقه ، لأنه يرى نفسه عاجزا عن مساعدتها .. كان ألمه أكثر مما يستطيع أن يظهره .

واستعادت جانيس بعد ذلك الكثير من حيويتها القديمة بعد أن استخدمت جرعات قوية من المورفين لتهدئة آلامها ، ووجد جسدها الصغير قوة الكفاح ، وكانت تجلس مع أقاربها الذين يأتون لزيارتها وتثير ضحكاتهم بشكواها المرحة مما تعانيه فى الفراش .. وجاء عمها جو ذات يوم لزيارتها .. وعندما قرر العودة الى بلدته ، ذهب لوداعها الوداع الاخير فوجدها نائمة بالعقاقير المنومة ، وقد تألمت عندما عرفت بعد ذلك انه رحل دون أن تراه ، وفى المساء عندما جاء أبواها لرؤيتها كانت نائمة أيضا ، ولكنها فى هذه المرة وضعت قطعة ورق كبيرة على صدرها كتبت فيها : « اذا جاء أحد وانا نائمة .. فأرجو ألا يدخل » ..

وعادت تتدهور من جديد .. حتى المورفين لم يعد يهدىء آلامها الا ساعات قليلة .. وبدا بوضوح أن النهاية أصبحت قريبة .. وفى اليوم التالى قام قسيس المستشفى باعطائها السر المقدس ..

وصية فتاة صغيرة

قرر بابسون وزوجته انهما على استعداد لشراء اى شىء مهما بلغت تكاليفه لادخال السرور على نفس جانيس فى أيامها الاخيرة .. ولكن الطفلة هزت راسها وقالت : لقد كلفتكما الكثير من المال حتى الآن .. ولكنى أريد شيئا آخر ..

فقال الاب : ما هــو .. اطلبى اى شيء ..

فقــالت بسرعــة : أريد أن أرى اشقائى الاطفال مرة أخرى .. اعرف ان ذلك ضد تعليمات المستشفى ، ولكنكما تستطيعان تهريب شــارمين على الاقل ..

وفى المســـاء التالى ، تسللت شارمين من سلم خلفى الى غرفــة جانيس .. وما كادت تراها حتى طوقتها بذراعيها ، وغابت الاختان فى عناق شديد .. وتبادلتــا القبلات والاحضان ، ثم جلستا تتحــدثان وتضحــكان ، بينما وقف الابوان يحرسان باب الغرفة المقفل !.

وأمضت الشــقيقتان معا وقتا طويلا ، وعند انصراف شــارمين ، قالت لها جانيس :

ــ لا تدعى الصغار ينسوننى .

وفى الخــارج ، ذكر الاب والام لشـــارمين لاول مــرة ان جانيس ستموت .. وكانت صدمة عنيفة على قلب الفتاة ، التى امضت الليلة تبكى وتصيح : لماذا .. لماذا يا ربى !

وفى الصباح التالى عرفت جانيس نفسها الحقيقة ، عندما جاء طبيب شاب جديد ، وسألها عما بها ، وقبل أن ترد عليه ، كانت المرضة المرافقة له قد قرأت من بطاقة السرير بصوت عال ، انها مصابة بسرطان الدم !

ووقع المحظور رغم ثورة الطبيب على الممرضة .. فقد كانت جانيس تعرف معنى هذه الكلمة .. وظلت راقدة فى فراشها بعد الظهر وهى تقلب الامر فى ذهنها .. وعنــدما جاءت أمها قالت لها : اننى مصابة بسرطان الدم .. أليس كذلك ؟

فذهلت الام ، واســتولى عليها شعور جارف نحو الهرب .. ولكنها قالت أخيرا :

ــ ما الذى جعلك تظنين ذلك ؟

فأخبرتهــا بما حدث .. فقالت ريتا : وهل يفزعك ذلك ؟

فهزت جانيس رأسها وقالت :

كلا .. لابد انها ارادة الله .. لماذا اخاف ؟. وعلى أية حال ، فقــد تتحسن حالى بعد ذلك !

ولكنها فقدت الامل سريعا ، واذعنت لمشيئة الله .. وأحست الام براحة شديدة .. لقد كانت طوال الشهور الماضية تخشى هذه اللحظة الرهيبة ، وها هى قد جاءت ..

وفى يوم السبت ٦ مايو ، قالت جانيس لأمها انها تريد كتابة وصيتها ، وعندما رأت ما حل بأمها من تعاسة ، قالت :

ــ أرجو الا تحزنى يا أماه .. فهذا

هو الشيء الذى يؤلمنى .. سوف ينتابك الحزن انت وابى من اجلى ، ان لديكما بقية الاطفال ، وسأكون معكما كلما احتجتما الى .. اعدك بذلك ..

وهكذا بدأت جانيس الاستعداد لرحلتها الاخيرة ..

كانت ريتا تقول لنفسها : « هذا ليس بحقيقى .. انه مجرد كابوس ، سوف تستيقظ منه بعد قليل .. ولكنها راحت تكتب وصية جانيس كما تمليها عليها : دراجتها الجديدة أوصت بها لشارمين ، وعلبة الوانها لأخيها رودى ، وحصالة نقودها لابيها ، وأملاح الحمام لأمها ... وطوقها الحديدى لاى طفل فقير فى حاجة اليه .. ثم ختمت وصيتها قائلة : « ولا تنسى اعطاء عينى لبنك العيون » .

وأسرعت ريتا بالانصراف من المستشفى الى الكنيسة لتصلى ..

الهبة الأخيرة

فى صباح ١٢ مايو ، انجرفت جانيس فى غيبوبة متقطعة ، ووضعت داخل خيمة أوكسيجين لتسهيل تنفسها ، وكانت تحقن بالمورفين كلما تطلب الامر لتسكين آلامها .

وظل الاب فى المستشفى طوال الليل ، بينما عادت الام الى البيت لتنام قليلا ، وعندما عادت الى المستشفى فى صباح اليوم التالى ، أوقفتها ممرضة تبكى فى الردهة وقالت لها :

ــ أرجو أن تذكرى لها كم تبدو جميلة .. لقد أرادت منا أن نعدها للرحيل .. وقامت المرضات بغسل جسدها وتصفيف شعرها ، وأصرت جانيس على ارتداء ثوبها الوردى الجديد المزين بالزهور البيضاء الصغيرة ، وعندما دخلت الام الغرفة قالت لها :

ــ انك تبدين رائعة الجمال يا جانيس ..

وابتسمت الطفلة .. كانت صافية النظرات على الرغم من ضعفها الشديد وقالت :

ــ اننى مستعدة الآن تماما .. أريدك أن تبقى معى أنت وأبى .

كانت تغيب عن الوعى لحظة ، ثم تستيقظ قليلا ، لتعود الى غيبوبتها مرة اخرى .. وفى المساء فتحت عينيها كأنما تكافح للخروج من حلم كئيب .. وقالت :

ــ أبى .. هل اتفقت مع بنك العيون ؟ .

فتبادل بابسون نظرة سريعة مع

زوجته ، ثم اعترف بأنه لم يتصل بهم بعد .. فقالت :

ـ لقد وعدتني .. أرجو أن تفعل ذلك الآن ..

وخرج الاب من الغرفـة ، وأتم الاجراءات اللازمة ، وفي خلال ساعة جاء طبيب امتياز يحمل الاستمارة الخاصـة بالتبرع لبنك العيون ، فوقعها بابسون .. وابتسمت جانيس وقالت لأبيها : شكراً لك ..

وفي التاسعة مساء ، كانت جانيس أضعف من أن تبذل أى جهد أكثر من فتح عينيها بين حين وآخـر ، وفجأة كافحت لتجلس في الفراش ، واتسعت عيناها وهي تحدق أمامها ثم صاحت : أواه .. أهـذه هي السـماء ؟. أبي .. أمي .. تعاليا سريعا ..

وانحنى الاثنان فوقها ، وأدهشهما القوة المفاجئة التي سرت في الذراعين النحيلتين اللتين جذبتاهما في عناق أخير .. ثم اختفت هذه القوة فجأة كما جاءت ! ..

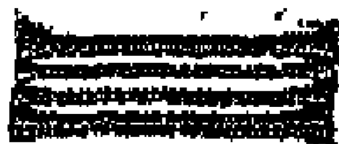
وكانت الساعة قد بلغت التاسعة والنصف مساء ..

وبعد بضع ساعات ، كانت عينا جانيس بابسون الثمينتان في طريقهما الى بنك العيون في تورنتو ، كآخر هدية من الطفلة التي صـعدت الى السماء ! ..

***

وحدث بعد أن نشر أحد الصحفيين حديثا مع بابسون وزوجته في صحيفة «جورنال» عن تبرع جانيس بعينيها ، أن تبرع في يوم صدور الصحيفة ٢٧ من أهل أوتاوا بعيونهم لبنك العيون . كما تبرع ٥٠ من أعضاء أحد النوادي المحلية في نفس الوقت .. وبعد فترة قصيرة تبرع ١٧٥ من جنود فرسان البوليس الكندي وعائلاتهم ومنـذ موتها حتى الآن ، بلغ عدد المتبرعين بعيونهم من أهل أوتاوا فقط ١٧١٠ أشخاص .

وهكذا استطاعت جانيس الصغيرة أن تترك ذكرى باقيـة لن تمحوها الايام ..



توجهت فتاة حسناء الى احدى وكالات تشغيل نماذج الرسامين والمصـورين ، وقالت لموظف تلقي الطلبات :

ـ اريد ان اقدم طلبـا للعمل كنموذج للرسامين

ففتح الرجل احد ادراج مكتبه واخرج منه ثوبا صغيرا للاستحمام وقدمه اليها دون ان ينظر اليها قائلا :

ـ املئي هذه الاستمارة

رجال في مواطن الأهوال



كتاب الشهر

رحلات في مواطن الأهوال

تلخيص كتاب THERE SHE BLOWS
بقلم هيرمان ملفيل

تعتبر قصة « موبى ديك » التى تفتقت عنهاعبقرية الكاتب المعروف هيرمان ملفيل ، فى راى كثيرين من النقـــاد من أروع قصص الادبالكلاسيكى الامريكى •• وقد قال عنهـــا جون هاسفيلد ان هذه القصة بما حوته من سرد شاملدقيق تعد خيالا جميلا يتحدث عن اعمق اسرار البحر ، وقد امتزج هذا الخيال « بأصدق تاريخ كتب للآن عن رحلة لصيد الحيتان » فضلا عن امتلائها بالمرح والمغامرة ••

ولاشك ان الصورة الدقيقة التى ترسمها هذهالقصة للايام الباسلة لصيد الحيتان فى امريكا خلال منتصف القرن التاسع عشر ، تعتبر جزءامن التراث الادبى الامريكى ••

وهاهى قطعة من تلك التحفة الادبية الفريدة •

تستطيع أن تطلق على اســـم « اسماعيل » ••• ومنذ بضع سنين لم يكن لدى غير النزر اليسير من المال ، وليس على الشاطىء ما يثير اهتمامى ، ففكرت فى أن أطوف بالبحار ، وأرى الجزء الذى يغمره الماء من العالم ، وهى طريقة أسلكها دائما لاطهر روحى المتعبه من الادران ••• فكلما وجدت كآبتى تزداد، وأحسست برطوبة ورذاذ نوفمبر يتســللان الى روحى •• وكلما وجدت نفسى أسـير وراء كل جنازة التقى بها دون ارادة ، عندئذ أرى أن الوقت قد حان لكى انطلق الى البحر ••

ولست أعنى اننى كنت أذهب الى البحر كراكب ••• فالراكب لابد أن يكون لديه كيس نقود ، فضلا عن أن الركاب يصـــابون بدوار البحـر ، ويزدادون ميـلا الى الخصـــام ، ولا يغمض لهـم جفن ••• كـلا ، اننى عندما أذهب الى البحر ، فاننى أذهب كبحار بسيط • أقف أمام الصارى ، وهم يأمروننى بذلك حقـا ، ويكون هذا النوع من الاشياء كريها جدا فى مبدأ الآمر لانه يمس كبرياء المـرء ، ولكنه لايلبث أن يتلاشى مع الوقت ••

وكنت قد عقدت العزم على الذهاب فى رحلة لصيد الحوت ، ومن ثم فقد دسست قميصا أو اثنين فى حقيبتى القديمة المصنوعه من قماش سميك ، وغادرت « مانهاتن » القديمة الطيبة، ووصلت الى « نيوبدفورد » فى ليلة سبت من شهر ديسمبر ••

ولمـا لم تبحـر سفينـــة الركاب

والبريد الى « نانتاكت » حتى يوم الاثنين ، فقد بدأ القلق يستحوذ على نفسي ، فلم أكن أعرف أين آكل وأنام حتى ذلك الوقت ... كانت ليلة موحشه شديدة البرد ، تسودها الكآبة .. ولم أكن أعرف أحدا فى هذا المكان ... وتحسست جيوبى بأصابع قلقة ، فلم تخرج الا بقطع قليلة من العملة الفضية، فقلت لنفسى وأنا أرفع كيسى فوق كتفي :

ـ أينما تذهب يا اسماعيل فلا تنس السؤال عن الثمن ، ولا تدقق كثيرا

يالها من شوارع موحشة !.. كتل من الظلام على كل جانب ... وهنا وهناك شمعة تتحرك وكأنها فوق قبر ، ولكنى وصلت الآن الى مكان ينبعث منه ضوء ، وسمعت صريرا فى الهواء ، فتطلعت الى أعلى، ورأيت لافتة تتأرجح وقد كتب عليها « فندق الخطيب » ولما كان الضوء يبدو خافتا جدا ، وعلى اللافتة المتأرجحة مسحة من الفقر ، فقد رأيت أن هذا هو أنسب مكان للاقامة الرخيصة ، والقهوة المصنوعة من الفول السودانى المحمص !

ودفعت الباب ، فوجدت نفسى فى مدخل واسع منخفض ، غطى الجزء الاسفل من جدرانه بخشب عتيق ، أما الجدار المواجه ، فقد امتلأ كله بصف من عصى ورماح الوثنيين ، بعضها مرصع بأسنان لامعة والبعض الآخر به خصلات من شعر بشرى ، ورماح قديمة صدئة ، وحراب لصيد الحيتان محطمه ومشوهة .. وهذه كما علمت فيما بعد اسلحة لها قصص وحكايات ...

وعندما بحثت عن صاحب الفندق، قال لى أن فندقه ممتلىء ، وليس لديه أى فراش خال ... ثم ضرب جبهته بيده وقال : أنتظر برهة ... هل تمانع فى الاشتراك مع صائد حيتان فى فراش واحد ؟

فقلت له اننى لاأحب ابدا أن أنام مع أحد فى فراش..ولكننى سأكتفى بنصف غطاء مع أى رجل محترم !

وجلست على أريكة خشبية عتيقة، وفى أحد أطرافها جلس بحار غارق فى أفكاره وقد راح يحفر الخشب بمطواته بنشاط ، ليرسم سفينةتسير بشراعها الكامل

واخيرا دعينا لتناول طعامنا فى غرفه ملحقة ... كان باردا مثل ايسلندا ، فلم يكن هناك أى نيران ، وقال صاحب الفندق انه لايستطيع أن يتحمل نفقاتها !.. لاشىء سوى

شمعتين موحشتين من الشحم ، وكنا نتلهف الى اغلاق سترات البحارة التى نرتديهـا ، ونمسك اقداح الشـــاى الساخن أمام شفاهنا بأصابع نصف متجمدة ، ولكن الطعام كان من أكثر الانواع تغـــذية ، فلم يكن لحمـــا وبطاطس فقط ، بل و « لقمةالقاضى » أيضا ، وكان هناك شاب يرتدى معطفا أخضر فضفاضا لايغطى غير كتفيـــه ، يلتهم هذه الحلوى بطريقة نهمة جدا .. وقال له صاحب الفندق : يابنى ... سـوف يصـــيبك كابوس بكل تأكيد !

وهمست قائلا لصاحب الفندق :

ـ أهذا هو صياد الحيتان ؟

فقال وقد بدت عليهمتعة شيطانية:

ـ كلا ان صيادالحيتان رجل اسمر اللون ..

كنت كلما فكرت فى هـــذا الصياد وأنا جالس بجوار النار بعد العشاء ، ازددت مقتا لفكرة النوم معه ... كان من الانصـــاف أن أفترض أن كـــونه صياد حيتان معناه أن ثيابه الداخلية لن تكون من النـــوع الانيق ، وبدأت أتلوى من الغيظ ... وقلت لنفسى أننى سوف انتظر وألقى عليـــه نظرة دقيقة قبل أن أصعد الى الفراش .. ولكنى على الرغم من أن بقيةالنزلاء أخذوا يقبلون آحادا ومثنى ، فلمتظهر آية بادرة من الصياد الذى سأشاركه فى فراشه :

وقلت لصاحب الفنـــدق : أى نوع هذا من الرجال ؟. أيسهر دائما الى ساعةمتأخرة هكذا ؟ لقد كادت السافه تصل الآن الى الثانية عشرة مساء .

فضـــحك الرجـــل وأجاب قائلا :

ـ كلا..انه يأوى لفراشه عادة فى وقت مبكر .. أما الليلة فقد خرج فى جولة لبيع مامعه ، ولعله لم يستطع أن يبيع رؤوسه .

قلت : ياصاحب الفندق ... قل لى من يكون هذا الصياد وماذا شأنه .. وهل ســأكون فى آمان اذا قضـــيت الليله معه ؟

قال : هدىء روعك .. لقد وصل هذا الصياد لتوه من البحار الجنوبية حيث تباع صفقة من رؤوس نيوزيلندا المحنطة « وهى تحف قيمة كما تعلم » وقد باعها جميعا عدا واحدة يحاول أن يبيعها الليلة ، لان غدا الاحد ،وليس من المناسب أن تبيع رؤوســا بشرية فى الشوارع فى الوقت الذى يتجـــه فيه الناس الى الكنيسة ... لقد أراد أن يفعـــل ذلك يوم الاحـــد الماضى ، ولكننى أوقفته وهو خارج من الباب يحمل أربعةرؤوس فى دوبارة كالبصل

تماما ... ولكن ، لقد أصبح الوقت متأخرا ، ومن الاوفق أن تذهب الى فراشك .. انه فراش جيد وفيه مكان يتسع لنوم اثنين براحة تامة.. هيا .. سوف اعطيك نورا .

واشعل شمعة وتقدم الطريق أمامي وأدخلت غرفة صغيرة باردة كالفوقعة، بها فراش ضخم .. وكانت هناك حقيبة بحار ملقاة في أحد الاركان ، وحربة طويلة تقف عند رأس الفراش

وجلست بعض الوقت أفكر في هذا الصياد الذي يبيع الرؤوس ، وذلك بعد أن بدأت أشعر بالبرد يخترق عظامي ، خلعت بنطلوني وحذائي الطويل ، والقيت بنفسي في الفراش ، وأسلمت نفسي لرعاية السماء .. وكنت على وشك الاستغراق في النوم عندما سمعت وقع اقدام ثقيلة في الممر ورأيت بصيصا من الضوء تحت بابي ..

وقلت لنفسي : أغثني يا الهي .. لابد أن هذا هو صياد الحيتان ، بائع الرؤوس الجهنمي !

وظللت راقدا في سكون تام ، وقررت آلا أنبس ببنت شفة حتى يتكلم الى ... ودخل الغريب الغرفة وهو يحمل ضوءا في احدى يديه ، وفي الاخرى ذلك الرأس النيوزيلندي ، ودون أن ينظر نحو الفراش ، وضع شمعته على الارض ، وألقى بالرأس في الحقيبة ..

كنت في لهفة لأرى وجهه ، ولكنني لم أستطع رؤيته الى أن استدار نحوي .. يا الهي ! ياله من منظر .. وياله من وجه ! كان لونه بنيا أرجوانيا داكنا ، وهنا وهناك مربعات كبيرة سوداء ، وظننت لاول وهلة أنه كان في معركة رهيبه ، أن هذه المربعات شريط لاصق ، ولكن سرعان مابدت لي الحقيقة الرهيبة ... لابد أن آكلي لحوم البشر قد دمغوه بالوشم خلال رحلاته البعيدة

وخلع الآن قبعته .. كانت قبعة جديدة مغطاة من أعلى بفراء كلب البحر .. وكدت أصيح من فرط الدهشة ، فقد كان رأسه خاليا تماما من الشعر ، عدا خصلة صغيرة معقودة وملويه الى أعلى فوق جبهته . وكان رأسه الارجواني الاصلع يبدو أشبه بجمجمة متعفنه .. ولو لم يكن الغريب يقف بيني وبين الباب لاندفعت خارجا منه بأقصى سرعة.. كان الرعب قد تملكني الى حد أنني لم أجسر على التحدث اليه ، فظللت راقدا في صمت ...

وبدأ المتوحش الآن يفعل شيئا أثار

انتباهى تماما وأقنعنى أنه لابد أن يكون وثنيا حقــا .. فقد توجه الى معطفه الثقيل ، وراح يبحث فى جيوبه ثم أخرج صورة صغيرة عجيبة مشوهة مقوسة الظهـــر ، فى لون طفل من الكونغو عمره ثلاثة أيام .. وتذكرت الرأس المحنط ، فخيل الى لاول وهلة أن هذا الشخص الاسود طفل حقيقى حفظ بطـــريقة مماثله . ولكننى وقد رأيت أنه يبرق كالابنوس المصقول ، استنتجت أنه لابد أن يكون معبودا خشبيا .. وقد تبين ذلك فعلا ، فقد اتجه المتوحش نحو مكان المدفاة الخالى ووضع الصـــورة المقوسة الظهر بين مساند الحطب ، وبدأ يردد أصواتا من حلقه ، ويغنى بصوت كالمزامير ، أناشـــيد وثنية أو شيئا من هـــذا القبيل !

وقلت لنفسى أن الوقت قد حان الآن لكى أتكلم قبل أن يطفىء النور، لكننى قبل أن أجد صوتى انطفـــأ النور فجأة ، وقفز آكل لحوم البشر المتوحش الى الفراش الى جوارى .. صرخت . اذ لم أستـــطع أن أمنع نفسى فى تلك اللحظة ، وعندئذ أطلق بجرة دهشة مفاجئة،وبدأ يتحسسنى . ورحت أصيح : « ياصاحب الفندق . تعـــال بالله عليك .. يا ملائكة أغيثونى .. »

وحمدت الله أن جاء صاحب الفندق الى الغرفه فورا وهو يحمل نورا فى يده .. وقفزت من الفراش ، وهرعت اليه ... وقال وهو يبتسم :

ـ لا تخف الآن .. ان «كويكج» لن يلمس شعرة من رأسك

وصحت : كفـاك ابتساما . لمـاذا لم تقل لى أن هذا الصياد من أكلة لحوم البشر ؟

قال : لقد ظننتك تعرف ذلك .. ألم أقل لك أنه يطوف الشوارع لبيع الرؤوس ؟ هيا الى فراشك لتنام .. ثم نظر الى كويكج وقال له : استمع لى .. أنت تفهمنى وأنا أفهمك ... هذا الرجل سينام معك.هل تفهمنى؟

وزمجر كويكج وقال وهو يجلس فى الفـراش : اننى أفهمك كثـيرا

ثم أضاف وهو يلقى ثيابه على أحد الجوانب : أصعد

وقد فعل ذلك بطريقة مهذبة حقا .. ووقفت أنظر اليه لحظة .. كان رغم كل الوشم الذى فى وجهه نظيفا، حسن المظهر .. وقلت لنفسى : «لماذا كل هذه الضجة .. ان الرجل مخلوق بشرى مثلى .. ومن الافضل أن أنام مع آكل لحوم بشريه فى وعيه من أن أنام مع متمدين مخمور .. »

ورآني أتردد ، فأشار لي بادب مرة أخرى لأصعد الى الفراش ، وتدحرج هو الى أحد الجوانب كأنما يقول لي : لن ألمس ساقا منك

وقلت : عم مســــاء ياصاحب الفندق ٠٠ تستطيع أن تذهب ٠

واستدرت في الفراش ٠٠٠ ولم أنم أفضل من تلك الليله في حياتي!

***

عندما نزلت الى حان الفندق في الصباح ، وجدته مليئا بالنزلاء ٠٠ كانوا جميعا من صيادى الحيتان ورؤساء البحارة ومساعديهم، ونجارى السفن وصانعى البراميل ، وقاذفى الحراب وحراس السفن٠٠مجموعة من الرجال الاقوياء ، ذوى اللحى الكثة والشعور الخشنة غير المشذبة ٠٠٠ كلهم يرتدون ثياب البحارة ٠

وصاح صاحب الفندق : الطعام جاهز ٠٠

ثم فتح بابا على مصراعيه ، دلفنا منه لتناول الافطار

انهم يقـــولون أن الرجال الذين شاهدوا الدنيـــا يصبحون مريحين تماما في سلوكهم ، يتحلون بالرزانة وضبط النفس عند اجتماعهم معا ، ولكن هذا لا يكون دائما ٠٠ لقدكنت أنتظر الافطـــار لكى أسمع بعض القصص الطيبة عن صيد الحوت ، ولكن دهشتي كانت كبيرة عنـــدما وجدت كل رجل تقريبا يلوذبالصمت العميق ٠٠ ليس ذلك فحسب ، بل كان يبدو عليهم الارتباك ٠٠ ها هي مجمـــوعه من كلاب البحر ، أكثرهم ليس لديه ذرة من حيـــاء ، خاضوا أعالى البحار في أضخم السفن، ولكنهم بدوا غرباء تماما بالنســـبة لبعضهم البعض٠٠ يجلسون على مائدةالافطار، وفي سكون وخجل ٠٠ انه مشـــهد عجيب !

أما بالنسبه لكويكج ، الذى كان يجلس على رأس المائدة ، فقد كان باردا كقطعة ثلج ، وقد أحضر معه الى مائدة الافطار حربته التى يصيد بها الحيتان ليستخدمها في جذبشرائح اللحم نحوه ٠٠٠ ولكن هذا العملكان يتم ببرود عظيم !

***

وبعد الافطار انطلقت الى الخارج لأمشي قليلا ٠٠ واذا كنت قددهشت في مبدأ الامر عندما رأيت فردا في مثل غرابة « كويكج » في بلدةمتحضرة فان هذه الدهشـــة سرعان ماتلاشت وأنا أسير في الطرقات ٠٠ انك قد ترى حقا أغرب المناظر الاجنبية في أى ميناء كبير ، أما في (نيوبدفورد)

فقد كان هنـــاك أكلة لحوم بشريه حقيقيون يقفون للدردشة عند نواصي الشوارع .. انه مشهد يجعل الغريب يحدق بعينيه في دهشه !

كان هناك بالاضافة الى أبناء جزر « فيجى » وغيرهم من أبنــاء الجزر الاخرى، أنواع همجية من المشتغلين بصيد الحيتان يملأون الشوارع .. وكنت ترى مشاهد أخرى أكثر غرابة وطرافة ففى تلك المدينة ، يصل كل أســبوع عشرات من أهــالى فيرمونت ونيوهامبشير ، كلهم ظمـآى للربح والمجد فى صناعة صيد الاسماك .. وأغلبهم صغــار ذوو هياكل قوية .. رجال قطعوا أشجار الغابات ، وهم يسعون الآن لقذف البلطة وحمــل لرمح لصيد الحوت ...

ولكن لا تظــن أن هــذه البلدة الشهيرة ليس بها غير قاذفى الرماح آكلى لحوم البشر والاجلاف الغلاظ، تعرضهم على زوارها ... كــلا على لاطلاق .. ان تربة نيــوبدفورد سخرية قاحلة ، ومع ذلك فلن تجد ى أى مكان آخر فى أمريكا منــازل مثل هذا الطراز النبيل ، وحدائق متنزهات أكثر غنى ممــا تجده فيها .. فمن أين جاءت ومتى ؟

ان هذه الدور النبيلة والحــدائق المزدهرة جاءت من المحيطات الاطلنطى والهادى والهندى ... كلها صيدت بالحراب، وسحبت من قاع البحر.. انهم يقولون أن الآباء فى نيوبدفورد يقدمون الحيتان كدوطة لبنــاتهم ، ويجب أن تذهب الى نيوبدفورد لترى حفلات الزفاف البهجة..انهم يقولون ان لديهم مستودعات من الزيت فى كل بيت ، وهم يحرقون فى كل ليلة كميات هائلة من الشموع المصنوعة من مادة يعزلونها من زيت الحوت .

ونساء نيوبدفورد تتفتح براعمهن كزهورهن الحمــراء ... يتضوع من الفتيات هنــاك أريج معطر يشــمه عشاقهن على بعد مئات الاميــال من الشاطىء

وفى يوم الاثنــــين ، ذهبت أنا وكويكج ـ وقــد أصــبحنا الآن صحابا ـ الى « نانتاكت » وهنــاك علمت أن السفينة (بيكود) تستعد للقيام برحلة .. كانت سفينة صغيرة، تركت أعاصير البحر وأمواج المحيطات الاربعة آثارها عليها ... وبعــد أن ركبتها ، وجدت رجلا عجوزا يرتدى ثياب الربان ربع القامة ، وسألته :

ـ أهذا أنت ربان « بيكود » ؟

قال : أعتقد أننى كذلك ... ماذا تريد ؟

ـ كنت أفكر في الحصول على عمل على سطح السفينة .

ـ أرى انك لست من أبناء (نانتاكت) .. ألم تركب قط في سفينة كهذه ؟

ـ كلا يا سيدى .. لم يسبق لى قط

ـ ألا تعرف شيئا عن صيد الحيتان ؟

ـ كلا ... ولكننى لا أشك فى أننى سأتعلم سريعا .. لقد قمت برحلات كثيرة فى السفن التجارية وأعتقد أنه ...

ـ عليها اللعنة هذه السفن التجارية ... لا تذكر لى هذا .. ولكن ما الذى يجعلكم أيها الرجال تريدون الذهاب لصيد الحيتان ؟ ان الامر يبدو مثيرا للشك قليلا .. أليس كذلك ؟ ... ألعلك سرقت ربانك السابق ؟

واحتججت على التهمة مؤكدا براءتى ... وتصورت أن أبناء نانتاكت لا يثقون فى كل الغرباء الا اذا كانوا من (كيب كود) أو من « كروم مارتا » ـ وهى جزيرة قريبة تعد مركزا لصيد الحيتان أيضا .

ثم سألنى : ولكن ما الذى يجعلك تريد صيد الحيتان ؟

قلت : حسنا ياسيدى أريد أن أرى كيف يصاد الحوت... أريد أن أرى العالم ..

ـ هل تستطيع أن تلقى حربة على حلق حوت حى ثم تقفز خلفها ؟

ـ أجل ... اذا لم يكن هناك مفر من ذلك

ـ حسنا .. انت لا تريد أن تذهب لصيد الحيتان فقط ، بل تريد أيضا أن ترى العالم ؟ .. حسنا أنظر الآن الى الجو وقل لى ماذا ترى هناك ؟

فأجبت : لا أرى كثيرا ... لا شيء غير الماء ، والافق وزوبعة مقبلة

ـ حسنا .. ماذا تريد أن ترى من العالم ؟ هل ترغب فى أن تدور حول رأس هورن ؟

وتلعثمت قليلا .. ولكننى يجب أن أذهب لصيد الحيتان .. وسوف أذهب ... وعندما رأى الرجل العجوز مثل هذا التصميم، أعرب عن استعداده لالحاقى بالسفينة

وقلت : أيها الربان .. لى صديق يريد أن يعمل بالسفينة أيضا..هل أحضره معى غدا ؟

ـ وهل سبق له أن صاد أى حوت ؟

ـ لقد قتل من الحيتان أكثر مما

أستطيع أن أحصى يا سيدى

ـ حسنا .. احضره معك اذن .

وهكـــذا جاء معي « كويكج » الى السفينة بيكود في اليوم التالى، وقد أذهل مظهره الربان الى حد ما، وقال له : هل أنت مســـيحى ..؟ انني لن أنقل وثنيا على سفينتى .

فقلت أنا : انه عضو في الكنيسة المذهبية الاولى ...

فوضع الربان نظارة على عينيه ، والقى نظـرة طويلة على كويكج .. ثم قال :

ـ أنه لم يعمد بعد ، والا لمسحت بعض ما على وجه هذا الشيطان ..

ثم التفت الى كويكج وســـأله :

ـ هل سبق أن وقفت على رأس قارب لصيد الحوت ؟

ودون أن يقول كويكج شـــيئا ، قفز على الاسوار ، ومنها الى مقدمة أحد القوارب وتعلق بجانبه، ثم وازن حربته وصاح :

ـ أيها الربان .. هل ترى تلك البقعة الصغيرة من القار على ســطح الماء هناك ؟ .

ثم صوب الرمح وقذفه فوق قبعة الربان العريضة الحوافى عبر سطح السفينة ، فأصاب بقعة القار اللامعة وأخفاها عن الانظار ..

وقال له الربان المذهول : احصـل سريعا على أوراق السفينة ... لابد أن تكون معنا ..

***

في يوم بارد بعد فترة ليســـت طويلة ، رفعت السفينة « بيكود » مراسيها ، وأقلعت في رحلتها ... وكان ضابطها الاول هو « ستاربك » وهو شاب من « نانتاكت » متــين البنيان ، وقد قال قبل الرحيل « لن آخذ في السفينة رجلا لا يهاب الموت» .. والظاهر انه كان يقصد من ذلك أن الشجاعة المفيدة هي التى تنبثق عن التقدير السليم للخطر ..

وقال الضابط الثاني « ستاب » :

ـ مرحى ياســـتاربك ، هاهوذا رجل لن تجد بين الصيادين من هو أكثر حذرا منه ..

وكان « ستاب » من أبناء (كيب كود) وهو رجل طائش مرح يأخـذ الامور ببساطة ، وكان يرأس قارب الصيد الذى يعمل به بطريقة كأن أخطر المواقف ليست الا مأدبة عشاء وأن ملاحيه جميعا من المدعوين اليها !

أما الضابط الثالث « فلاســك » فهو من منطقة (كروم مارتا) وكان شابا قصيرا متين البنيان أحمر الوجه كثير المشاكسة فيما يتعلق بالحيتان،

وكان يبدو أنه يرى أن هذه الحيتان الضخمة تعد اهانة شخصية له ومن ثم فانه يعتبر القضاء عليها أينمـا قابلها مسألة تمس شرفه بصورة ما

أولئك هم الرجال الثلاثة المهمون الذين يقـودون قوارب السـفينة (بيكود)،وكان لدى كل ضابط قاذف للحراب خاص بقاربه... وكان أول الجميع هو « كويكج » الذى اختـاره الضابط الاول (ستارباك) كوصيف له، أما الثاني فهو « تاشتيجو » وهو هندى أحمـر من قبيلة فى « كروم مارتا » ، وقـد اختاره « سـتاب » لقاربه ، والثالث هو « داجو » وهو زنجي متوحش عملاق، أسود كالفحم وقد تدلى من أذنيـه طوقان ذهبيـان كبيران ، وقد وقع اختيار «فلاسك» على هذا الزنجى المارد ، فكان يبدو الى جواره أشبه بقطعة الشطرنج !

***

كنا قد قضينا عدة أسـابيع فى السير بالسفينة نحو المناطق الدافئة، عندما سمعنا صرخة عالية تنبعث من بين شفتى « تاشتيجو » بعد ظهـر ذات يوم ، بينما كان متعلقا بقمـة الصارى ... وكان يصيح قائلا :

ـ ها هو ينفث الماء ... هناك ! هناك ! إنه ينفث الماء ..

ـ أين هو ؟

ـ فى اتجاه هبوب الريح... انه سرب كامل

وساد الضجيج على الفور فى كل مكان ..

ان الحوت يضرب الماء على نسـق واحد كدقات الساعة،وبهذا يستطيع صيادو الحيتان أن يميزوا هذه الاسماك عن غيرها من الانواع .

ودارت عجلات البكرات على الحبال والاجهزة التى تنزل القوارب الصغيرة الى البحر ... وهبطت القـوارب الثلاثة بينما قفز اليها البحارة بجرأة ومهارة لا مثيـل لهما .. وصـاح « ستاب » قائلا لبحارته :

ـ اسحبوا..اسحبو أيها الرجال الشجعان .. اسحبوا يا أبنائى بكل قواكم

وأخرج سكينه الحادة من حزامـه وقال : ليخرج كل منكم سكينتـه ويضع نصلها بين أسنانه هكذا ... والآن افعلوا شيئا...اجعلوا القارب يسرع الى الامام .

وكان لستاب طريقة خاصة لتلقين عقيدة التجديف فى رجاله ، ولكنـه لا ينغمس قـط فى عواطف كاملة ، بل يقول أروع شىء للبحارة بلهجة تجمـع بين المرح والغضـب بطريقة

عجيبة، بحيث يجعل البحارة يجدفون بقوة مهما كانت الظروف

لم يكن هناك أى صوت ظاهر في تلك اللحظة ··· لا شيء غير قطعة مضطربة من ميـــاه خضراء مزبدة ونفثات رفيعة متناثرة من بخار يحوم فوقها ··· كانت كل القوارب الآن مشتركة فيمطاردة عنيفه لتلك البقعة من الماء والهواء المضـــطرب اللذين يسبقانهم في المسير ··

وقال ستارباك لرجاله في همس :

ـ « جدفوا ··· جدفوا يا فتيـــانى الطيبون··· » أمافلاسك الصغيرالحجم فقد قال بصوت مرتفع «غنوا وقولوا شيئا أيها الاحبة·· زمجروا وجدفوا كالصاعقة · جدفوا والقوا بى فوق ظهورها الســوداء ··· افعلوا ذلك من أجـلى ، وســـأترك لكم مزرعتى وزوجتى وأطفـــالى ··· أوصـــلونى رأسا الىالحوت··اقذفوا بى فوقه !»

كانمشهدا مليئا بالمفاجأة والرهبة والسرعة ··· أمواج ضـخمة للبحر القوى القـــادر على كل شيء ··· والقارب يميل على حافة الموجة الحادة التى تشبه السكين، ثم يغوص فجأة في مطب مائى عميـق ·· وكانت السفينه « بيكود » تندفع نحوقواربها وقد انتشرتقلوعها من الخارج وكأنها دجاجــة برية تقف وراء صـــغارها الباكيه !

وكان ســتارباك الذى أجدف فى قاربه يطارد ثلاثة حيتان تسبح فى نفس الاتجاه ، والريح تهب ، ولمـــا كانت قلوعنا معـدة فقد اندفعنا الى الامام بسرعة جنونية ، وسرعان ما مررنا خلال غلالة متسعة منالضباب فلم نر السفينة أو أى زورق آخر·· فهمس ستارباك قائلا :

ـ أعطونا مزيدا من الحـركة الى الامام ·

واقتربنا من المـــاء المزبد ، حتى أطبقنـــا على الفريســة ·· وقال ستارباك هامسا :

ـ قف

وقفز «كويكج» على قدميه والحربة فىيده ··· وادرك الجميع أناللحظة الوشيكة قد حانت ، وسمعوا صوتا هائلا وكان هناك خمسين فيلا تسير معا فوق ارض غابة مليئه بالاغصان المحطمة . وفى نفسالوقت كانالقارب لا يزال يشق طريقه وسط الضباب

وهمس ستــار باك قائلا : هاهى ذى حدبته ··· هناك ·· هناك ·· اقذف الحربة

وانطلق من القارب صوت قصـير مندفع··· كان صوت رمح «كويكج»

الحديدى ، ثم جاءت دفعة خفية من مؤخرة الزورق ، بينما بدت مقدمة الزورق وهى تصطدم بالحواف،وانهار الشراع وانفجر .. وتدفق بخار ساخن جدا على مقربة، وتدحرج شيء وتقلب من تحتنا وكأنه زلزال ... كان البحارة جميعا يكادون يختنقون، والامواج تتقاذفهم ... زوبعة ، وحيتان وحراب ، امتزجت كلها معا ، أما الحوت الذى أصابته الحربة الحديدية فقد أسرع بالفرار .

ومع أن القارب قد امتلأ بالماء فانه لم يصب بضرر ، وسبحنا حوله فالتقطنا المجاديف الطافية على سطح الماء ، وعدنا الى اماكننا نتعثر ، وجلسنا وقد بلغ الماء حتى ركبنا.. وازدادت الرياح زمجرة ورحنا ننادى بقية الزوارق دون جدوى .. كنا غارقين فى الماء نرتعش من البرد ، ويئسنا من رؤية السفينة أو أى زورق ، وفجأة حدق « كويكج » الى قدميه ثم وضع يده قرب أذنه وسمعنا جميعا صوت صرير خافت من بعيد أشبه بأصوات حبال تكتمها العاصفة .. وازداد الصوت قربا ، ثم انفرج الضباب الكثيف قليلا ، وما لبثت السفينة أن لاحت وهى تقترب نحونا

وأخذونا أخيرا،وصعدنا الى سطح السفينة بسلام ، وقبل أن تقترب العاصفه منا ، عاد القاربان الآخران الى السفينة

وعندما سحبونى الى السطح،قلت وأنا لا أزال أنفض الماء عن سترتى : كويكج يا صديقى العزيز .. هل يحدث هذا الشيء كثيرا .. ؟

وعلى الرغم من البلل الشديد الذى أصابه مثلى ، فقد جعلنى أفهم — دون انفعال كثير — أن مثل هذه الاشياء تحدث غالبا .

وقلت لستاب الذى كان يجلس الآن يدخن غليونه فى هدوء تحت المطر : أعتقد اننى سمعتك يا مستر ستاب تقول ان « ستارباك » هو أكثر صيادى الحيتان الذين قابلتهم حرصا ودقة .. فهل ترى أن الانقضاض المباشر على حوت طائر بشراعك وسط الزوبعة والضباب الكثيف يعد ذروة حسن التصرف من صياد الحيتان ؟

قال : بكل تأكيد .. لقد أطلقت قواربى ذات مرة نحو الحيتان من سفينة يتسرب اليها الماء وسط عاصفة بحرية على مقربة من راس هورن .

فالتفت الى الضابط الثالث الذى كان يقف على مقربة منا وقلت :

ـ مستر فلاسك ٠٠ انك خبير بهذه الاشياء وانا لست كذلك ٠٠ فهل ترى ان فى هذه المهنة قانونا لا يمكن تغييره يقضى بأن يحطم حامل المجداف ظهره وهو يجذب نفسه نحو براثن الموت ؟.

فقال فلاسك : أجل هـــذا هو القـــانون ٠٠ فاننى أحب أن أرى بحـــارة الزورق وهم يقتربون من الموت بمؤخـــرة الزورق حتى تزوغ أبصاره وهو ينظر نحوهم ٠٠

مياه الحيتان

كنا نسير الآن فى المنطقـــة التى يسميها الصيادون « مياه الحيتان » ٠٠ ولم يكن قد مضى غير أيام قليلة عندما دوت الصيحة من قمة حارس السفينة مرة أخرى ٠٠ وعلى مقربة من جانب السفينة البعيد عن الرياح، وعلى مســافة أقل من ٧٠ مترا ، كان هناك حوت هائل يسير فى الماء وكأنه هيكل فرقاطة مقلوبة ، وكان ظهره العريض يبرق تحت أشـــعة الشـــمس كالمـــرآة ٠٠ كان ينفث نافورته ذات البخار وكأنه أحد أبناء المدينة وهو ينفث غليونه بوقار بعد ظهر يوم حار ، ولكن هـــذا الغليون كان آخر ما نفثه الحوت المسكين ٠٠ فقد بدأت السفينة النائمة فى اليقظة فورا وكأنما مستها عصـــا ساحرة !

ولابد أن النشاط المفاجىء قـــد أزعج الحوت ، وكانت القوارب قـــد أنزلت الى الماء ، فاستدار الحوت فى وقار وسبح بعيدا فى اتجاه الرياح ، وعلى الرغم من هذا الهدوء المستمر ، فقد صدرت الاوامر بألا يحاول أحد أن يتكلم فوق الهمس ، وهكذا جلسنا القرفصاء فى القوارب كالهنود الحمر، ورحنا نجدف بسرعة وهدوء ، وبينما كنا ننطلق وراء الحوت، رفع الوحش ذيله بطريقة عمودية مسافة ٤٠ قدما فى الهـــواء ، ثم ما لبث أن غاب عن الانظار وكأنه برج ابتلعه الماء ٠٠

وارتفعت صيحة تقول : « ها هو ذيل الحوت » ٠٠ وكان هذا اعلانا اشعل بعده « ستاب » عود ثقاب على راحة يده الخشـــــنة واشعل غليونه ٠٠ وبعد أن انقضت الفترة الكاملة لغوصه ، برز الحـــوت مرة أخرى على مقربة من قارب (ستاب). ولم يعد هنـــاك فائدة للحذر الآن ، وارتفع صوت المجـــاديف ، ودعا ستاب رجاله للهجوم وهو لا يزال ينفث دخان غليونه ٠٠ قال : ابدأوا من هنا ٠٠ لاتتعجلوا ، خذوا مايكفى من الوقت ، ولكن ابدأوا من هنـــا كقصف الرعود ٠٠

هذا كل شيء ..

وراحوا يجدفون بجهد شـديد حتى انطلقت صيحة ستاب: « قف.. هيا ياتاشتيجو » وتراجع رجال المجاديف الى الوراء ، وفى نفس اللحظة مرق شيء ساخن ذو فحيح ، واندفعت الحربة بسرعة .. واندفع القارب وسط مياه تغلى ، وكان كل رجل يتمسك بمقعده بقوة واهتمام حتى لا يقذف به بين الامواج .. وكان تاشتيجو يبدو بشكله الطويل قابعا عند مجداف الدقة منطويا على نفسه ..

وصاح ستاب للرجل الذى يقف عند المقدمة : اجذبه .. اجذبه ..

ثم استدار نحو الحوت ، وبدأت يداه تجذبان القارب نحوه ، وبينما كان القارب يجرى ، أخذ ستاب يطلق رمحا بعد آخر على الحوت الطائر .. وعندما أصدر أمره ، تراجع القارب عن طريق الحوت الرهيب ، ثم راح يستعد لرمية أخرى .

وتدفقت الدماء الحمراء من كل جوانب الوحش كما تتدفق المياه من جدول فى أعلى التل .. كان جسمه المعذب يتقلب وسط دماء ، تبقبق وتغلى ، بينما كانت الشمس التى مالت نحو المغيب تعكس اضواءها على هذه البركة القرمزية فى البحر ، وبدت وجوه الجميع حمراء متألقة وكأنهم من الرجال الحمر !

وصاح ستاب لرامى النبال :

ـ اقترب من الحوت .. اقترب .. اقترب ..

وعندما اقترب القارب من جانب الحوت ، أمسك ستاب رمحه الطويل الحاد ، وراح يطعن الحوت به بكل قواه مرة بعد أخرى ، وهو يبحث عن مقتل سريع للسمكة الجبارة ، التى كانت تتمرغ فى دمائها ، وتحيط نفسها برشاش يغلى لايمكن اختراقه .. وأخيرا رقد الحوت بلا حراك .

وصاح أحد البحارة .. لقد مات يا مستر ستاب ..

ـ أجل .. لقد انتهى الدخان من غليون الحوت .. وغليون ستاب فى نفس الوقت

وابعد ستاب غليونه عن فمه ، ونثر رماده فى الماء ، ثم وقف لحظة يتأمل الجثة الكبيرة !

كان الحوت الذى صاده (ستاب) بعيدا عن السفينة ، فرتبنا القوارب الثلاثة خلف بعضها البعض وبدأت عملية بطيئة لسحب الحوت الى السفينة (بيكود) ، ورحنا نحن

الثمانية عشر رجلا نكد ساعة بعد اخرى لجذب تلك الجثة الكسول فى البحر ، ومع ذلك فقد كانت تبدو وكأنها لا تتحرك قط .. واقبل الظلام ، ولكن ثلاثة أضواء فى أعلى القلوع الرئيسية للسفينة كانت ترشدنا بضوئها الخافت الى الطريق حتى اقتربنا فى النهاية وربطنا الحوت على جانب السفينة ..

كان وجه « ستاب » قد احمر من فرط الفرحة بالنصر .. وكان مولعا بأطايب الطعام مثل كثير من أبناء « نانتاكت » ، وكان يفرط فى ولعه بالحوت باعتباره شيئا لذيذ المذاق ..

وصاح ستاب : أريد شريحة لحم قبل أن أنام .. اذهب يا داجو الى السطح واقطع لى قطعة من الاجزاء الخلفية ..

وحوالى منتصف الليل كانت الشريحة قد قطعت وطهيت ، ووقف ستاب أمام عشائه الممتاز ولم يكن ستاب هو وحده الذى يتناول لحم الحوت فى تلك الليلة ، فان آلافا من سمك القرش تجمعت حول الحوت الضخم وراحت تلتهم شحمه ، وقد أحس الذين كانوا ينامون فى أسرتهم أسفل السفينة بذهول من ضربات ذيول سمك القرش على هيكل السفينة على مسافة سنتيمترات قليلة من قلوبهم .. وليست هناك فرصة ترى فيها مثل هذه الاعداد التى لا تحصى من أسماك القرش يغمرها المرح والسرور ، كما تجدها حول حوت ميت أثناء الليل .

وصاح ستاب بأعلى صوته وهو يغوص بالشوكة فى طبقه :

ـ أيها الطاهى .. أيها الطاهى .. أين هذا العجوز « فليس » ؟ تعال هنا أيها الطاهى .

وجاء العجوز الاسود يتعثر من مطبخه وهو غير مرتاح لايقاظه من فراشه الدافىء فى مثل تلك الساعة .. وقال له ستاب وهو يرفع قطعة حمراء من اللحم نحو فمه :

ـ الا ترى أن هذه الشريحة قد طهيت أكثر مما يجب ؟. الم اقل لك دائما أن شريحه الحوت يجب أن تكون خشنة لكى تكون جيدة ؟ .. الا ترى أن أسماك القرش المتجمعة حول السفينة تفضلها كذلك ؟ .. ما أكثر الضوضاء والفوضى التى تثيرها . أيها الطاهى اذهب وتحدث اليها .. قل لها انها تستطيع أن تتناول طعامها بطريقة مهذبة ، ولكنها يجب أن تلتزم الهدوء .. خذ هذا

المصباح واذهب لكى تمطها ..

وحمل « فليس » العجوز المصباح الذى قدم اليه ، وسار يعرج نحو الاسوار ، ثم أدلى الضوء نحو البحر باحدى يديه كأنما ليلقى نظرة على الرعايا الذين سيعظهم ، وقال : أيها الرفاق .. لقد أمرت أن اقول لكم انه يجب أن تكفوا عن هذا الضجيج .. أتسمعوننى .. كفوا عن هذا الضجيج اللعين .

***

ان شراهة أسماك القرش الكبيرة التى تسلب صيادى الحيتان كثيرا من دهن الحوت قبل أن يبدأوا فى تقطيع الحيتان يمكن تقليلها أحيانا الى حد كبير باستخدام معاول حادة، ولهذا فقد أمر ستاب الآن بتعليق منصات الذبح جانب السفينة ، وأنزل ثلاثة مصابيح على مقربة من البحر المضطرب ، ثم عهد الى « كويكج » وبحار آخر بقتل أسماك القرش بغرس المعاول الحديدية الحادة فى جماجمها ، وهى الجزء الحيوى الوحيد فى أجسامها .. ولكن الامواج المضطربة كانت تجعلهما يخطئان أحيانا فى تحديد مكان الضرب، ويصيبون البطون الملتوية للاسماك مما يثير وحشيتها وثورتها .. بل كان بعضها يلتهم الآخر بمجرد اصابته بجرح ينزف دمه ..

***

كانت ليلة السبت وقد تحولت السفينة « بيكود » الى اشبه بسلخانة ، وتحول كل بحار الى قصاب ، وكأننا سنقدم عشرة آلاف ثور أحمر قربانا لآلهة البحر .. وقمنا أولا بانزال خطاف لسحب دهن الحوت الى ظهر السفينة ، من خلال فجوة فتحها ستاب وستارباك .. وتكرر هذا العمل مرة بعد أخرى، وكان على صديقى كويكج ان يهبط فوق ظهر الوحش القتيل من أجل هذا الغرض ، وقد صحبته فى القارب لحمايته من أسماك القرش التى كانت تحتشد حول الحوت كما يتجمع النحل حول خليته ، وكأنها لم ترتعب من المذبحة التى حدثت لها فى الليل، ومن حسن الحظ أن أسماك القرش لا تلمس الانسان مادامت أمامها فريسة أخرى سهلة كحوت ميت ، ومع ذلك فقد كان من الحكمة مراقبتها بدقة، وكان داجو وتاشتيجو يقذفان معاول حديدية على أسماك القرش باستمرار على مقربة من كويكج لحمايته .. وأخيرا أعدناه سالما الى سطح السفينة بعد ان أدى

مهمته ..

وتم قطع دهن الحوت بسرعة الى قطع صغيرة لإختزانها فى الاوعيــة الخاصة ، وهى مجموعتان من قدور كبيرة موضوعة في أماكن صلبة تحت السطح ..

***

ودوت صيحــة تقــول : ارفعـوا السلاسل ، ودعوا الجثة تتجه الى الوراء ..

لقدقامت الحبال الآن باداء مهمتها، واخذ جسـم الحوت الابيض بعــد تقشـيــره يومض، وكأنه ضريح من الرخام ، ومع أن لونه قد تغير ، فانه لم يفقد شيئا من حجمه بصــورة ملموسه .. كان لايزال ضخما هائل الحجم ، وراح يطفو بعيـــدا والماء يتمزق من حوله ، واسماك القرش التى لاتشـبع لاتزال متجمعة حوله، بينما امتلأ الجو فوقه بطيور ضارية صارخة ..

ولم تكن تلك هى النهاية .. فقد ترى بعض السفن جسم الحــوت والرشاش الابيض يرتفع أمامه عاليا، فتسجل فى دفاترها أن فى تلك المنطقة مياه ضحلة وصخورا وأمواجا عالية؟. وربما ابتعدت السفن عن هذا الطريق بعد ذلك بسنوات ، وهكذا قد يصبح جسم الحوت الكبير مصــدر رعب للبحارة ..

***

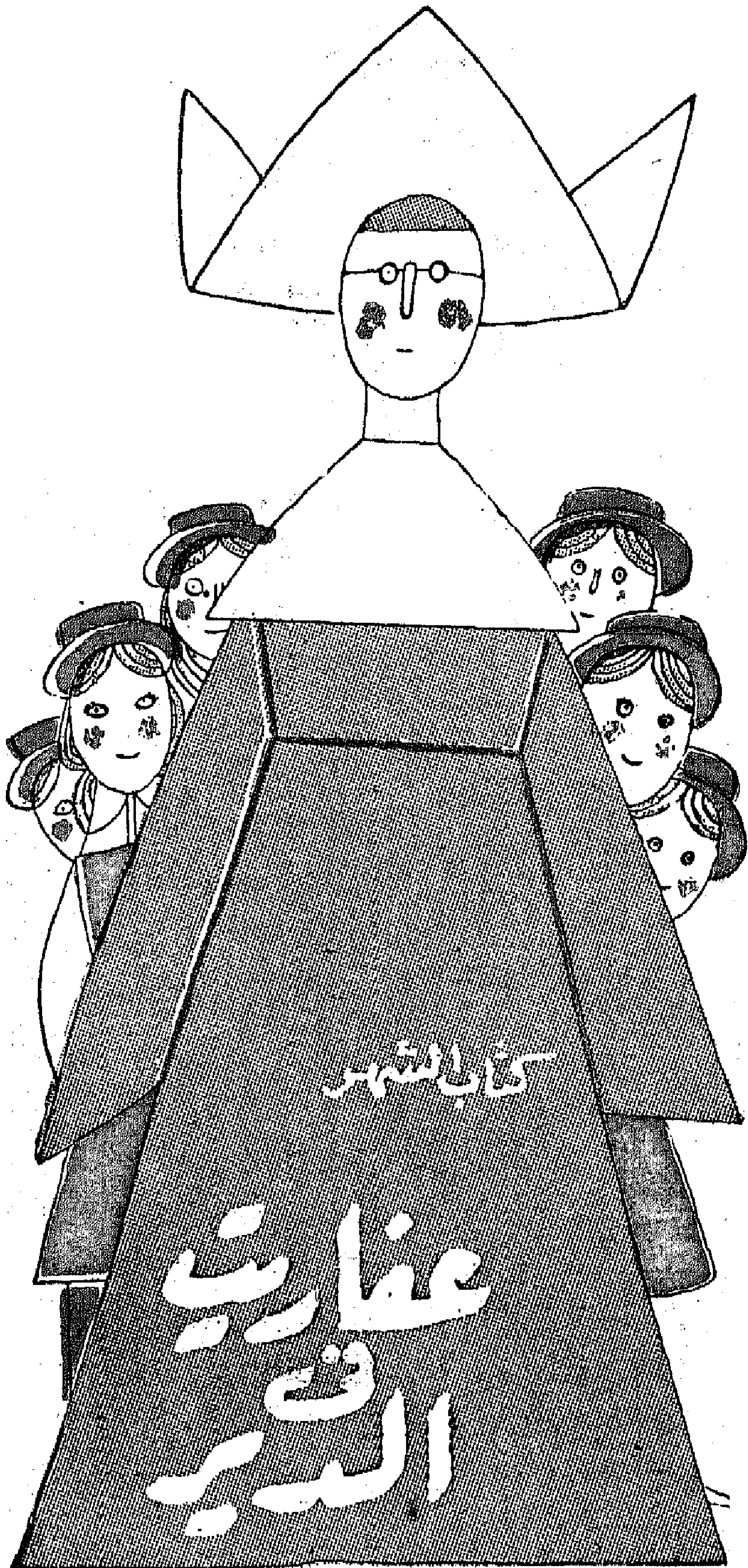
واخيرا .. عندما استخرجت آخر قطرة من زيت الحوت ووضعت فى براميل، كان لابد من تنظيف السفينة .. وقام البحــارة بعمليــة التنظيف باخلاص ، ثم ذهبــوا للاغتســال هم انفسهم .

ولكن انظر .. هناك عاليا ، فوق قمم الصوارى الثلاثة الرئيسية يقف ثلاثة رجــال يبحثون عن المزيد من الحيتان .. وفى كثير من الاحيــان لا يكاد البحارة المساكين ينتهون من تنظيف أنفســهم وارتداء ستراتهم النظيفة ، حتى تدوى صيحة أخرى تقول : « ها هو ينفث البخار ! .. فينطلقون لمصــارعة حوت آخر ، ويبدأون العمليــة المرهقه كلهــا من جديد ! ..

المعنى الحقيقى !

كان الامتحــان الذى يؤديه الراغبون فى الحصول على وظيفة فى أحد مشروعات السدود يحتوى على السؤال التالى : « ما معنى علم القوى المائية ؟ »

وتردد أحــد المتقدمين قليلا .. ثم كتب : « معناه اننى لن احصل على الوظيفة » !

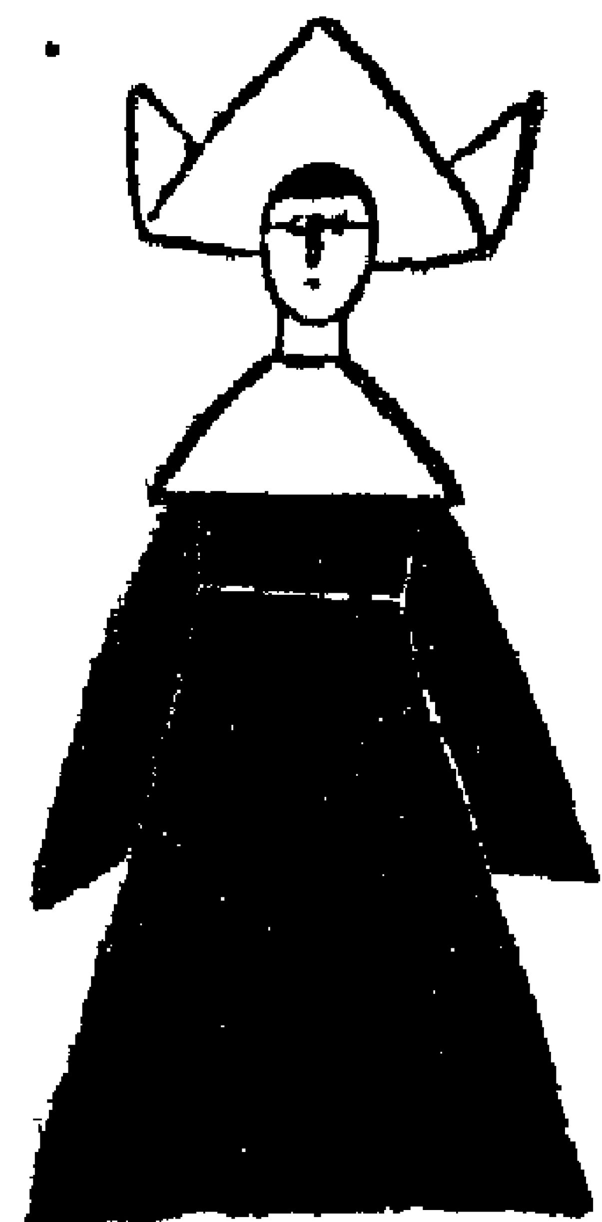

كتاب الشهر
عفاريت في الدير

امضت المؤلفة أربع سنوات في مدرسة دير سانت ماركس ، وكانت سنوات مليئة بالحب وشقاوة البنات ولكنها مع ذلك لم تخل من مغزى عميق ..



ولقد استطاعت المؤلفة واحدى زميلاتها أن تملآ جنبات الدير وأبهاءه الصارمة بالمرح والمقالب، وكانت الاثنتان تحاولان في كل لحظة أن تشيعا البهجة في حياة الدير الكئيبة تحت أنف الراهبات والام الرئيسة .. وفي هذا الكتاب الذي يفيض مرحا قصة تمس القلوب . للعفاريت الصغيرة التي كانت تعبث في أرجاء الدير .

عفاريت في الدير



تلخيص كتاب **Culprit in the Convent**

بقلم جين تراهي

لم افكر قط في الالتحاق باحدى مدارس الدير، فقد كنت اعتقد أن ان هذا النوع من المعاهد لا يكاد يفترق في شيء عن اصلاحية البنات ، ولكن ابي وامي كانا يدبران أمر تعليمي ، ومن ثم فقد وجدت نفسي بعد ظهر يوم حار من ايام الخريف في قطار ينطلق بي من شيكاغو — حيث نعيش — في طريقه الى « سانت ماركس » حيث كان مقررا ان التحق بالسنة الاولى ..

وعبر ممر القطار ، رأيت فتاة شقراء ذات وجه شيطاني تدخن سيجارة !.. وقالت سيدة عجوز ضئيلة تجلس الى جوارها انها صدمت اذ رأت طفلة مثلها تدخن ، فنظرت

إليها الشقراء الصغيرة من خلال سحب الدخان •• وقالت :

ــ سيدتى •• اننى لست طفلة • إنا من الاقزام !

واحسست بذهول ، ورجوت ان تكون الشقراء فى طريقها هى الاخرى الى مدرسة «سانت ماركس» . وكانت فى طريقها الى هناك حقا •• وعندما توقف القطار فى المحطة ، نهضنا معا ووجدنا مس كوناللى فى انتظارنا على الرصيف ، وقد افترضنا من تكوينها الجسمانى انها لابد ان تكون معلمة الالعاب ••

وقالت مس كوناللى : اننى من أعضاء هيئة التدريس بمدرسة سانت ماركس ، وعندما انادى الاسماء ارجو ان تجيب كل منكن قائلة : « هنا ».

وهمست الشقراء فى اذنى قائلة : لاتردى مثلى •

قلت : حسنا

ونادت مس كوناللى : كلانسى •

ولم يرد أحد •• وعادت تقول :

ــ تراهى ••

وظللت أنا أيضا صامتة ••

وسألتنا مس كوناللى :

ــ أليست هذه اسماءكما ؟

فقالت الشقراء فى رقة : كلا ياسيدتى ••

وأحببت هذه الفتاة حبا جما •• كانت أكثر من قابلتهن رزانة واطمئنانا •

وسألت مس كوناللى : من انتما اذن ••

قالت الشقراء ببطء : اسمى •• « فاى راى »

ولعل اسم هذه النجمة السينمائية القديمة لم يكن مألوفا لمس كوناللى ، فقد قالت لى :

ــ وانت ؟

قلت : اسمى « بونى » •• وأنا من قبيلة « السمنول » •• من الهنود الحمر •

وكتبت مس كوناللى الاسم ، وبدت الشقراء تعجب بى هى الأخرى ، ثم ركبنا سيارة الاتوبيس الى المدرسة

كان الدير يقبع على سفح تل يشرف على نهر تتدفق مياهه برقة •• وفى هذا الدير كانت الراهبات الشابات يحضرن للتدريب ، بينما تعود الراهبات العجائز ليرحلن عن العالم وكانت ابنية الدير على طراز الملك ارثر تماما •• ابراج ومسلات ومحاريث واحجار ضخمة ، وقد دعم بجدار يبلغ ارتفاعه ثلاثة امتار ، وبوابة بهما كل شىء عدا زجاجات البيرة المحطمة ، ولا ينقصها غير خندق رحب

متحرك لكى تعزله تماما عن العالم الخارجى •

وسارت مس كونللى امامنا فى خبب رياضى ،واجتزنا القاعة الرئيسية المظلمة المؤدية الى المكتب حيث جلسنا ننتظر فى أنفاس لاهثة وعرق متصبب بينما ذهبت هى لاحضار الام الرئيسة •• وعادت مس كونللى بعد قليل وقالت :

ـ ابتها البنات •• هاهى الام الرئيسة •

وسمعنا حفيف ثوبها وحبات مسبحتها الناعمة •• وهو الصوت الذى ظل يطاردنى طوال أيامى فى سانت ماركس ، ثم ظهرت كبيرة الراهبات •• كان طولها يبلغ حوالى مترين ونصف متر ، سمراء البشرة ، سوداء العينين ، ذات حاجبين كثين فوق عويناتها ، وقد بدت كنساء العصور الوسطى •

واستقبلتنا ببرود شديد وهى تقول : كيف حالكما ؟ •• ايكما « بونى » ؟

قلت فى تلعثم وانا أحاول ان أبدو هندية حمراء قدر استطاعتى :

ـ أنا •

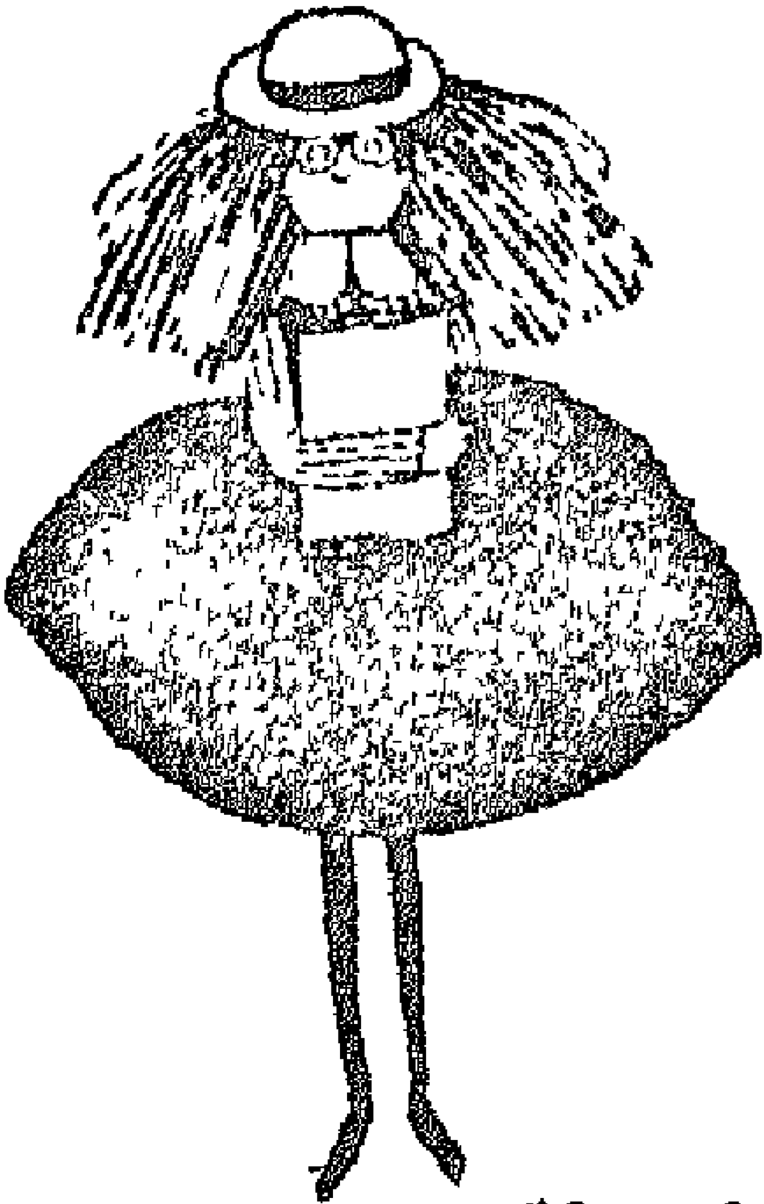
ـ وما هو إسمك الاول يا صديقتى الهندية ؟

ـ بلاك سون •

وحدقت فينا بنظرات باردة ثم قالت :

ـ يمكنكما يا جين تراهى ومارى كلانسى ان تذهبا الآن ، وارجو الا نلتقى مرة أخرى فى مثل تلك الظروف •

وهرعنا خارجتين من مكتبها الى الردهة الخالية ، وأحسست كأننى أعرفها منذ سنوات ، وبدأت أشك فى ان الحياة فى سانت ماركس ستكون مثيرة •



أسرار الدير

كنت سعيدة الحظ لاننى ولدت كاثوليكية وايرلندية أيضا •• فما الذى يمكن ان يرجوه المرء أكثر من ذلك ؟ •• ولكن امى كانت تطلب المزيد •• كانت تريد ان تكون أصغر أطفالها مؤدبة ذكية رقيقة الحديث ، بدلا من الفتاة الثائرة الشاذة التى

رزقت بها • ولما خاب املها في تحقيق ما ترجوه خلال الاثنى عشر عاما التى مضت منذ مولدى ، فقد ارسلتنى الى « سانت ماركس » معتقـدة ان فى استطاعة الراهبات ان يصقلن قطعة الفحم لتصبح ماسة متألقة •

وقد بذلت الراهبات معنا جهودا جبارة فى الحقيقة ، ولا سيما اذا راعينا أن المدرسة التى أتممت فيها دراستى الابتدائية لم تعلمنا غير زراعة البطاطا والعزف على أصابع البيـانو التى لاتصدر صوتا • أما بقية تعـليمى الابتدائى فقد كان متناثرا •، وعندما ادرك ابى اننى لا أستطيع ان أجمع الارقام ، أو أتهجى الحروف ، اتفق مع امى على ضرورة ارسالى الى الراهبات •• وأصبحت مهمتهن مزدوجة الصعوبة بتحالفى مع « مارى كلارنس » ، وقد فعلن كل ما فى استطاعتهن للفصل بيننا ، ولكننا كنـا نبتكر الوسائل للاجتماع معا واثارة المتاعب لهن ••

ولقد قيل لنا بعبارات لا لبس فيها ولا التواء ان رواق الراهبـات غير مسموح لنا بدخوله ، وانه محرم على كل الفتيات •• وقالت لنا الام الرئيسة « انه بيت الراهبات وأنتن ولاشك لاتحببن ان يتجول الغـرباء فى بيوتكن •• واذا وجدت احداكن هناك فسوف أحاسبها حسابا عسيرا » •

وما ان انصرفت من الغرفة ،حتى لكزتنى مارى قائلة :

ـ ان أفضل وقت للتـجول فى رواق الراهبات ، هو عندما يذهبن الى الكنيسة الصغيرة للصلاة فانهن لايعدن قبل ساعة على الاقل •

قلت : حسنا •• ولكن يستحسن أن نجعل « مورفى » ترقب لنا الباب•

وكانت مورفى هى أول فتـاة اخترنا مصادقتها ، فقد كنـا نحن الثلاث نشترك طوال الوقت فى حياكة قمصان النوم للراهبات ، أو نغلق أبواب حماماتهن من الداخل ثم نتسلق للخروج من النافذة •• وكانت مورفى فتاة طيبة يأتى اسمها كثـيرا فى قوائم الشرف •

وتألقت عينا مورفى لفكرة التجول فى رواق الراهبات ، وبعد ظهر ذات يوم ، بدأنا عملية الاستطلاع بعـد ذهاب الراهبات للصلاة مباشرة •• ووقفت مورفى للحراسة •

كان الامر من السهولة بحيث اننا أحسسنا بخيبة أمل • ورحنا نتجول من غرفة لاخرى •• كانت أكثرها مخادع وعنابر نوم تنام فيها الراهبات الجديدات •• ـ وكان المكان كله يبدو أشبه بعنبر فى مستشفى خيرى ـ

حتى غرفة الام الرئيسة كانت عارية متقشفة • وعندما عدنا سألنا مورفي عما رأيناه •• وهل كانت هنـــاك سلاسل أو آلات تعذيب !

وأكدنا لها ان جناح الراهبات كان كئيبا ، وأثبـــتنا لها ذلك باتاحة الفرصة لها للقيام بجولة سريعة ، ولكن مورفي خرجت علينا بفكرة تنم عن ذكاء •• فقد قالت :

– لماذا لاتتيح لبقية الفتيـــات مشـــاهدة الرواق ؟ أراهن ان في اســـتطاعتنا بيع جولات في داخله مقابل ربع دولار •

وهكذا بدأت عملية الجــولات الجماعية في جناح الراهبات ، ووجدنا زبائن كثيرات ، وحصلنا على مبالغ لابأس بها •• وحتى الفتيات الصغيرات اللواتي لم يسبق لهن ارتكاب اى ذنب في حياتهن المدرسية • قمن بالجولة لمجرد عدم استطاعتهن مقاومة الرغبة في رؤية بيت الراهبات ثم حدث يوما ان جاءت الينا اكثر الفتيات المغرورات في المدرسة ، وهمافلورنس ماكي وليليان كويجلي •• ولم نكن نتوقع حضورهما ، فقد كانت ليليان ابرع تلميذة في المدرســـة ، وكانت كلتاهما قطعة من مجموعة تاج الام الرئيسة •

وفي ساعة متأخرة بعد ظهر أحد الايام قابلنا فلورنس وليليان أمام الباب الجانبي للرواق ، وقررت انا وماري ان نتقاسم وحدنا ارباح هذه المغامرة بالذات ، فلم نحضر مورفي للمراقبة ، وانطلقت مع السائحتين الجديدتين •• وسرت انا في نهـاية الصف • وكنت أظن انني آخر من في الصف •

ولســـــت أدري متى بدأت الام الرئيسة في اقتفاء أثرنا •• ولكني أغلقت كل باب خلفي •• ورحنانسير باطمئنان ونشرح للفتاتين الاماكن التي نمر بها •• وكان الرواق في ذلك الوقت قد ساده الظلام قليـــــلا ، وانعكست اشباحنا على طول الجدران والارضيات المصقولة مما جعل العرق البارد يتصـــبب على جبين فلورنس وليليان ••

وأخيرا بلغنا بابالخروج •• وقلت – كما سمعت دليل معرض شيكاغو الدولي يقول : حسبنا هذه هي نهاية الجولة • وستجدان انكما علىالجانب الايسر من ملعب الجمباز

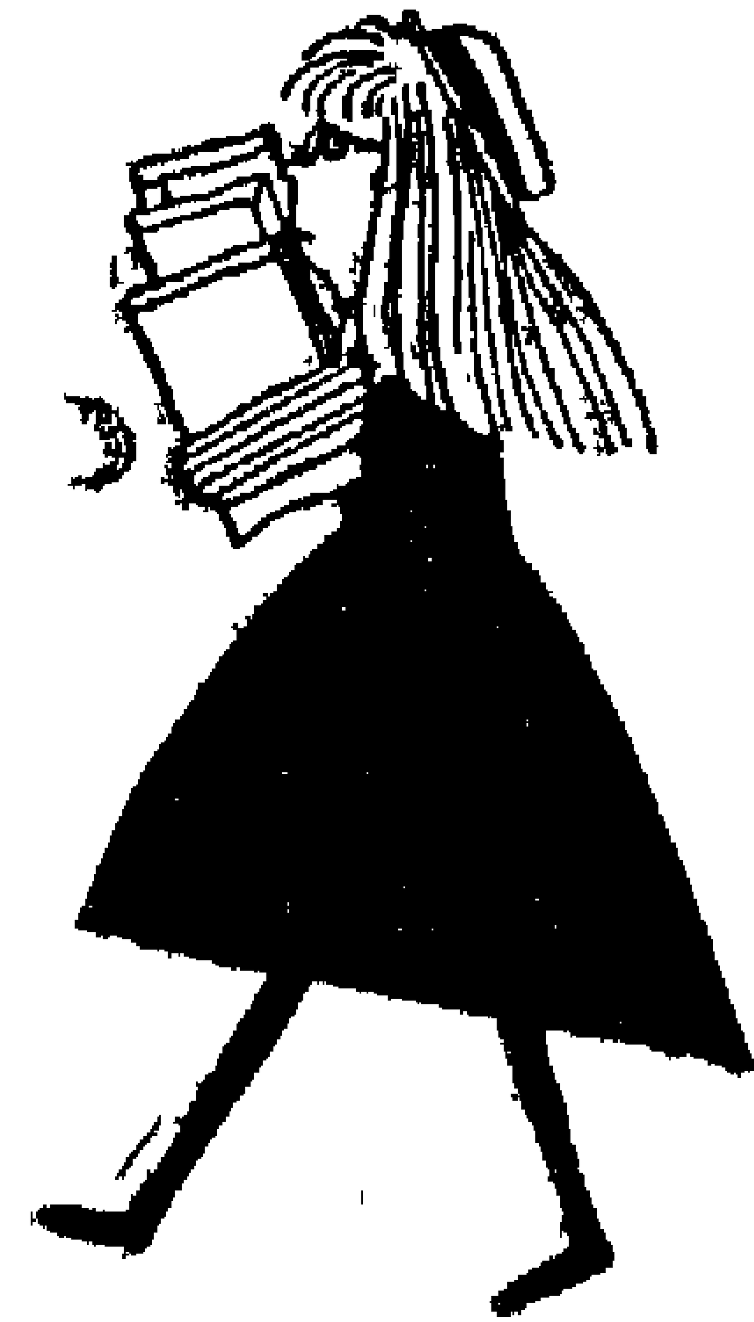
ولكن الباب لم يفتح •• ورحت ادفعه أنا وماري دون جدوى •• ثم بدأت ليليانوفلورنس تبكيانالاوسمة والميداليات الذهبية التي ستضيع

منهما .. وأخذت أتبادل النظرات مع ماري ثم قررنا ان نطلق لساقنا العنان .!

ورحنا نعدو بين الردهات والقاعات ونحن نجرب كل منافذ الخروج المعتادة ، ولكنها كانت مغلقة كلها . ثم تذكرت ماري سلم الحريق الموضوع خارج المبنى ، واسرعنا فى سرور نهبط من باب النجاة .

كان الوقت قرب الغروب عندما بلغنا الارض فى مؤخرة الرواق ، ولكن ضوء النهار كان لايزال كافيا لكي يكشف لنا شبح الام الرئيسة وهى تقف فى إنتظارنا .

وكانت لحظة لن أنساها .



لا وقت للعلوم

كانت طريقة الحياة التى وضعتها انا وماري لنفسينا فى سانت ماركس لاتكاد تترك لنا غير وقت قليل لاعمال المدرسة ، وكانت حصة الحساب هى الوحيدة التى نحبها حقا ، لان مدرستها هى الاخت ليجورى . وكانت طويلة القامة ضخمة الجسم ، وكانت تحب الاستماع الى مغامراتنا وكيفية التخلص منها ، وتحثنا على ان نذكر لها مشروعاتنا السرية ..

والعجيب ان الاخت ليجورى كانت تجعل الحساب علما مسليا حقا ، ولابد ان أحدا فى بيئتها كان يحب المراهنات ، فقد أحالت فصلنا الى شبه قاعة من قاعات الميسر ، فكنا نلعب روليت « حسابى » ونراهن على الخيل ، وكانت بارعة فى الشطرنج كما كنا نراهن بدرجات متفاوتة على واجباتنا المدرسية وساعات المذاكرة والصلوات والابتهالات . وكانت عملية الاخت ليجورى مزيجا رائعا بين المزاد وسباق الخيل ، ومن ثم فان أحدا منا لم يكن يغفو خلال حصتها وكانت الفتيات جميعا يحصلن على درجات طيبة فى الحساب .. حتى انا وماري !.

وفى السنة الثانية ، طلب الينا ان نختار بين التدبير المنزلى والتربية الوطنية ، وقد اخترت التدبير دون تردد ، أملا فى دخول مسابقة الحياكة التى تقيمها احدى مجلات الازياء ،

وكنت أحب المسابقات . وقد تملكتنى فكرة الفوز بالجائزة الاولى ، وهى رحلة لاثنتين الى ارض بعيدة .. ومن الاسباب الاخرى التى دفعتنى الى هذا الاختيار ان مدرسة التدبير المنزلى لم تكن من الراهبات وهو اغراء كاف فى حد ذاته ، وكانت المدرسة مس ايفانجلين ما كبرايد سيدة طويلة القامة ، ضخمة الجسم ، بيضاء الشعر ذات لسان الثغ ، وقد احببناها منذ اللحظة الاولى التى رأيناها فيها •

كانت مهمتنا الاولى فى الحياكة ان نصنع سراويل من الحرير ، وان نحلى أطرافها بزركشة ثم ننتقل بعد ذلك الى عمل قمصان ترتدى تحت الملابس وننتهى الى عمل فساتين كاملة •• وكنت بطيئة جدا فى عملى ، فسبقتنى الفتيات جميعا ، وكان بعضهن يصنعن الفساتين فى الوقت الذى لم إكن قد انتهيت فيه من السراويل •• وهكذا فانه فى الوقت الذى جاءت فيه استمارات المسابقة وذهبت لاخذ واحدة منها ، كاد يغمى على مس ماكبرايد .. وقالت لى : انك لم تنتهى بعد من عمل السراويل ..

ولكنى استطعت ان اقنعها بأن أبدأ فورا فى عمل الفستان ••ولكن اليوم كان يوم الجمعة لسوء الحظ ، وكانت المسابقة قد اقفلت عند منتصف الاثنين •

وأسرعت الى أحد المتاجر صباح السبت ، واحضرت نموذجا للفستان الذى سأصنعه ، وقماشا من التيل الملون ، وعندما عدت الى المدرسة ، كانت غرفة الحياكة قد خلت فيما عدا قليلا من المشتركات فى المسابقة وقد انتهين من اعداد ثيابهن ، ورحت أعمل بجنون ، ولكننى كنت لا أزال فى منتصف الطريق عندما حل المساء ••

واضطررت للتوقف لتناول العشاء وفى طريق عودتى للعمل التقيت بالام الرئيسة التى دهشت كثيرا لرؤيتى مشغولة بهذه الصورة ، حتى انها توقفت لتسألنى فى رقة : « كيف يسير العمل فى ثوبك » ؟

فقلت ببسالة : تعالى لكى أريه لك •

وعندما وصلنا الى غرفة الحياكة بدت الام الرئيسة معقودة اللسان . وأخذت تحدق فى الفستان ثم قالت ببرود : كيف قصصت كل قطعة بثنية مختلفة ؟

فقلت انها جميعا متماثلة فى الثنية •• واغرورقت عيناى بدموع الارهاق وغضبت لسخريتها وقلت : أعتقد

انه جميل •

فقالت : الا تزال لديك قطعة من القماش •

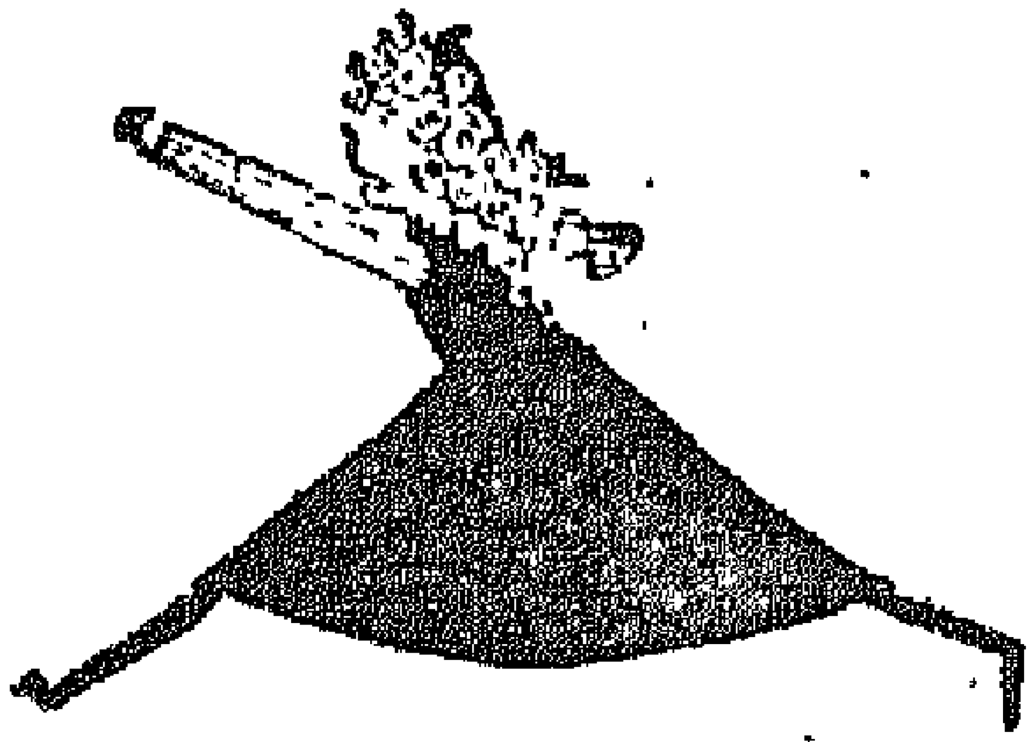
ثم امسكت المقص وراحت تقص أجزاء النموذج في لمح البصر ، وشرعت تقوم بالعمل الذى أفعله انا أحسن من اى شيء آخر ، وهو التمزيق •

ودق جرس الليل ، وهدأت الاصوات وساد السلام فى الدير ، بينما كانت الام الرئيسة مستمرة فى الحياكة .. ثم قالت فى تأمل : لقد كنت أعمل فى دار للازياء بفرنسا .. يا الهى .. هذه ثنية جميلة •

وراحت تصفر بفمها وتغنى ، حتى دهشت وقلت لنفسى : يا الهى .. أهذه هى البعبع الذى يخيفنا ..؟ وظللنا نعمل حتى ساعة متأخرة من الليل ، وعندما انتهينا ، كان الثوب قد اصبح جميلا جدا •

ولم يصدق أحد عندما جاء النبأ بعد بضعة أسابيع بفوزى بجائزة شرفية،بالاضافة الى كميةمن الخيوط تكفينى مدى الحياة وعشرة دولارات وعلى الفور وضعت خططا لانفاقها فى مرح طائش ، ولكن الام الرئيسة كان لديها اقتراح آخر • •اذ قالت لى :

ـ سوف نتبرع بالمبلغ للارساليات ويمكنك الاحتفاظ بالخيوط لنفسك •



الفنانات الاسيرات

لم أكن انا ومارى قد قررنا دراسة الرسم ، ولكنهم قرروه لنا .. ففى أحد اجتماعاتنا نصف الشهرية مع الآباء ، قالت الام الرئيسة لأمى ولمسز كلانسى انه لبذل آخر محاولة لابعادنا عن الاصلاحية فانها توصى لنا ببرنامج قوى من النشاط الاضافى .. وذلك بزيادة عدد الفصول التى نحضرها .. ووضعت جداولنا بحيث تبدأ الدراسة فى الثامنة صباحا وتنتهى فى الثامنة مساء •

وكنا ننفق كثيرا من وقتنا فى حماية الاخت انجيلا مدرسة الرسم ، وكانت لا تطيق السماح لنا بأى لغو ، وفى الوقت الذى كانت كثيرات من الطالبات هاويات الفن يأتين ويرحن فى أوقات فراغهن لرسم بعض اللوحات ، كنا نحن نضطر لرسم التفاح والبرتقال ، أو الطيور المحنطة .. لقد كنا الفنانتين الوحيدتين الاسيرتين !

وقد حاولنا يوما أن نصنع تمثالا

من المصيص لوجه احدى الزميلات واسمها « مارفل » ، وانتهزنا فرصة خلو الاستوديو ذات يوم ، فقمنا بعمل قالب على وجه مارفل ، ولكننا لم نستطع انتزاعه ، حتى كادت الفتاة تختنق .. واخيرا اضطررنا للاستنجاد بالاخت انجيلا ، فجاءت واستخدمت المطرقة والازميل لتحطيم المصيص ، وبعد ساعات من التوتر ، استطاعت تحطيم اغلبه ، ولم تفقد انجيلا غير الطبقة العليا من الجلد ، وحاجبيها ، والجزء الامامى من شعرها .. وعقابا لنا عما فعلنا طلبت منا الاخت انجيلا أن نقوم بتنظيف ارضية الاستوديو حتى تصبح لامعة مصقولة .

وسرنا أن الاخت انجيلا أبقت فمها مغلقا ، وبلغ من خضوعنا أننا لم نفعل شيئا رديئا طوال الأسبوع ، وعندما أقبل يوم السبت كنا نستحق السماح لنا بالذهاب الى البلدة ، وفى صباح ذلك اليوم الجميل ، سلمتنا الأخت انجيلا رقعة من الورق كتب عليها : « قائمة معونة السبت للاخت انجيلا » ! .. وقد احتل ذلك الأمر تفكيرنا حتى اننا لم نشعر برحيل الاتوبيس الى البلدة .. وعودته الى الدير !

وداعا للاخت ليجورى

ادركنا أن شيئا ما قد حدث فان ناقوس الصباح لم يدق ، وجاءت الاخت بلانش الطويلة القامة ، وايقظتنا وهى تهمس : استيقظن فى سكون وارتدين ثيابكن فى هدوء

وسألناها جميعا : ماذا حدث ؟

فقالت والدموع تغرق عينيها الرماديتين الشاحبتين : لقد ماتت الاخت ليجورى فى الليل .

وجلست انا ومارى فى فراشينا نتأمل هذا النبأ العجيب ... أما فلورنس ماكى فقد سألت :

ــ هل معنى هذا اننا لن نتلقى اليوم درسا فى الحساب ؟

فقالت الاخت بلانش : لا تكونى حمقاء .. لن تكون هناك أية فصول.

كانت عطلة كئيبة غير متوقعة . وارتدينا ثيابنا فى هدوء ، وهبطنا الى اسفل ، وبدا أن احدا لم يهتم بنا قط ، فقد انطوت الراهبات على انفسهن ، ففى الوقت الذى فقدنا نحن فيه مدرسة احببناها واحترمناها فقدن هن أيضا صديقة أحببنها .

وسألت مارى : ماذا سيحدث لباتونز ؟

وباتونز هذا هو كلب الاخت الراحلة ليجورى ، وكان قد جاء

يوما الى الدير فى حالة يرثى لها يبحث عن الفضلات وتصادف أن كانت هى فى المطبخ ، وكانت وجبة واحدة من يدها كافية لكى يقرر الكلب انه يريد أن يعيش داخل الرواق ! ..

ومع ان الام الرئيسة لم تكن متحمسة كثيرا للفكرة ، فقد استطاعت الاخت ليجورى اقناعها بأن الدير فى حاجة حقا الى كلب حراسة .

وبقى باتونز فى الحديقة ، وكان يتمتع بشهية كبيرة واقدام ضخمة ، أما الاخت ليجورى فكانت لا ترى غير جماله ، وتعنى بنظافته وتدليله واطعامه ، وكان هو الآخر يكاد يعبدها ويتبعها فى كل مكان .

وهمست مارى : اتظنين أن باتونز سيأكل الآن ؟

قلت : هيا الى المطبخ لنرى

ولكننا عندما ذهبنا لم نعثر له على اثر هناك .

وظللت طوال اليوم اتساءل عن الموت .. ماذا يحدث للناس عندما يموتون ؟ وهل السماء مزدحمة بهم ؟ وهل نرتدى ثيابنا هناك ؟ .. هل نغنى ونعزف على القيثار طوال الوقت وماذا يحدث اذا كنت لا تحب القيثار ؟ .. واحسست بالحزن والخوف ..

وفى الرابعة بعد الظهر جاءت الام الرئيسة الينا فى المكتبة ، وكانت تبدو باكية . وقالت فى هدوء انه فى استطاعتنا أن نذهب الى الكنيسة الصغيرة حيث ترقد الاخت الراحلة .

وظللت متجمدة فى مقعدى بينما انصرف بقية الفصل .. لقد رأيته الاخت ليجورى وهى تضحك وتتكلم أمس فقط ، ولا أريد أن أراها الآن ساكنة .

وسألتنى الام الرئيسة : الا تريدين وداع الاخت ليجورى ؟

قلت : لا أدرى .

قالت : لقد كانت صديقة طيبة لك . وكانت تقف دائما فى صفك .

واحسست بألم رهيب يبدأ فى حلقى عندما أرادت الدموع أن تخرج بقوة . لم أستطع أن ابكى فى مواجهة الأم الرئيسة ، ولابد أنها فهمت ، فقد قالت :

ــ حسنا .. يكفى أن تصلى من أجلها ..

ولكنى سرت وراءها طوال الطريق الى الكنيسة ، شاكرة صحبتها الصارمة .

واقيمت صلاة الجنازة فى كاتدرالية البلدة فى اليوم التالى . وجلسنا وراء الراهبات ، واشارت مارى الى أسرة

الاخت ليجورى وهى تجلس فى الصف الامامى . وأحسست بشعور جارف من الحزن عندما عرفت أن لها أبا وأما . وكان أخوتها الثلاثة يبدون صغارا جدا . لقد كنت أعتقد أن الراهبات يولدن كبيرات ، ولكن الاسقف أشار فى كلمته الى شبابها ، فقد كانت فى العشرين .

مولد أورورا

فى اجازة نصف السنة ، كانت الام الرئيسة تقوم برحلة الى مؤتمر تربوى فى شيكاغو تستمر ثلاثة أيام، وتعود دائما بأفكار جديدة لحياتنا المدرسية .. ففى مرة تحتل العلوم كل تفكيرها واهتمامها ، وتتوقع منا أن نلقى بأنفسنا فى العلوم كما فعل باستور ومدام كورى ، ولكن المؤتمر التالى يكون على مستوى ثقافى اكبر فتعود الأم الى الدير وقد عزمت على أن تدخل الموسيقى والفن أو التمثيل الى حياتنا .

وبعد احدى هذه الغزوات ،أعلنت الأم الرئيسة اننا جميعا بلا كياسة أو رقة ، وان حياتنا فظة كئيبة ، ومن ثم فقد عهدت الى مسز مابل فيليبس تعليمنا الرقص التعبيرى .

ثم قالت : اذا سارت الامور على ما يرام ، فان مسز فيليبس تعدنا ببرنامج مثير فى الربيع ..

وقدمت لنا مسز فيليبس ، فرقصت حول الام الرئيسة ـ وهى حركة غير متوقعة تركتها فى ارتباك قليل . ثم قالت السيدة :

ـ اننى أعرف انه سيكون لدينا أجمل فريق للتمثيل . والآن دعونا نرى رقصكن .

وأمسكت بيدى ليليان ، فكاد يغمى على الفتاة . وقالت مسز فيليبس :

ـ حسنا يا حبيبتى .. سوف أجعل منك أحسن راقصة .

وكان واضحا أن مسز فيليبس ليست مجرد راقصة ، بل هى بائعة بارعة أيضا .. وقد ابتسمت الام الرئيسة وهى تغادر الغرفة ، وهو شيء لم ارها تفعله غير ثلاث مرات من قبل .

وسارت بروفات الرقص قدما على الفور . وعندما قالت الأم الرئيسة اننا نحتاج الى عشرة دولارات للملابس ، بعث أبى برسالة ساخرة ، يبدو أن الأم الرئيسةتلقت الكثير مثلها من الآباء الآخرين ، اذ انها ردت تقول : « اننى أحاول أن أعدها لحياة كريمة .. » وحصلنا جميعا على الدولارات العشرة .

واحببنا مسز فيليبس الى حد العبادة ، وكنا نتطلع الى حصتها بلهفة بالغة ، فلم يكن لدينا شيء يماثلها .

ونظرت مسز فيليبس يوما الى خصورنا الضخمة وبطوننا البارزةثم قالت : « انكن جميعا بدينات ... بدينات جدا » . وتحدثت مع الام الرئيسة عن اعداد غذاء خاص لنا يتكون من البطاطس المدهوكة ولحم البقر والفول المطهو والصلصة ، والسلاطة .. وعندما بدأنا نفقد بعض أوزاننا ، كادت مسز فيليبس تطير من الفرح !

كان البرنامج الكبير للاحتفال وفقا للخطط النهائية يتكون من ثلاثة اجزاء :الفجر والغروب ، ومولد اورورا ، وزواج أبوللو الذى سيقام فى الحديقة اذا سمح الجو بذلك .. ولكن الدنيا أمطرت ، واضطررنا لتقديم البرنامج فى الملعب الداخلى ، وجلس الآباء فى الصفوف العليا ... وانى واثقة انه لو لم يكن هناك برنامج مطبوع ، لما أدركوا قط ان العرض الأول هو « الفجر والغروب» . فقد أخذنا نلوح بأيدينا هنا وهناك فى صمت تام ، ويصطدم بعضنا بالبعض الاخر بين حين وحين،وعندما انحنينا الى اسفل ، كان التصفيق فاترا ..

وكان الفصل الثانى عن « مولد اورورا » يبدو لنا بريئا جدا ، ولكن كثيرين من الآباء ابتسموا فى تكلف عندما بدات عملية ولادة الطفل ، ثم ظل الجميع صامتين عندما ولدت اورورا أخيرا ، ولم يصفق أحد فى النهاية ! .. ولابد أن « زواج أبوللو» قد أسقط الام الرئيسة عن مقعدها، فقد كان فاشلا تماما ..

وشوهدت مسز فيليبس لآخر مرة مع الام الرئيسة متجهتين الى مكتبها .. وعدنا فى اليوم التالى الى تناول وجبات كاملة ، ولم تعد الينا أية مدرسة للرقص بعد ذلك .

حمى فى الدم

عندما كنت فى الثانية عشرة من عمرى ، اعترفت لى أمى بانه ليست هناك « سانتا كلوز » وعندما بلغت الرابعة عشرة ، قالت لى مارى اننا لم ننشأ حقا فى عجينة الكرنب .. وعندمابلغت السادسة عشرة ـ وكنت فى السنة الرابعة بالمدرسة ـ حدثتنا الام الرئيسة عن الجنس . وكان موضوعا لا تتحمس له كثيرا .

كانت الام الرئيسة تحدثنا عن قداسة الحياة الزوجية مرة كل أسبوع . وفى نفس الوقت كان فتيان

مدرسة « سانت جيلز » القريبة يتعلمون الطرف المقابل من القطب : مسئوليات الاب . وكانت النتيجة واحدة تقريبا فى المعسكرين . وعندما التقينا اخيرا لنخوض المعركة فى سلسلة من حفلات الرقص والشاى المشتركة ، توقفنا وحدق كل منا فى الآخر دون حديثه .

واقيمت اول حفلة راقصة فى ساحة الملعب الداخلى ، ووصلت سيارة الطلبة من سانت جيلز فى الثالثة تماما ومعهم القسس المكلفون بالاشراف عليهم بمعدل واحد لكل ثلاثة فتيان ، ومع نسبة مماثلة من مدرسة سانت ماركس يمكنك أن تتخيل طرافة المسالة كلها ..

وفى تلك الحفلة قابلت « ستيفن اورايلى » وكانت له شخصية غلام صغير شقى ، أشعث الشعر ، له عينان زرقاوان فيهما خبث ، وله سجل شائن فى السلوك ، ولم تكن شجاعته لتواتينى قط للتحدث معه لو لم اكن اجلس الى جوار اخته (اونا) فى المدرسة منذ ثلاث سنوات

وقالت اونا وهي تقدمه لى :

ـ اعتقد انك ستحبين ستيفن . انه فتى مرح . وهو يقول انه يستطيع ان يرقص ..

وبدأ ستيفن حديثه معى قائلا : اليست هذه حفلة مملة ؟ .. هل تريدين الانزلاق ؟

فقلت فى حيرة : الانزلاق ؟

قال : اجل اى الرقص يا غبية .. الرقص .

وعندما توجهت للمرقص معه ، بدأت ادرك أن مسز فيليبس لم تسبب لى ضررا كبيرا وانطلق ستيفن بخطوة سريعة ، ثم ختم الرقصة بانحناءة من الركبة ، ولكنى قلت إننى لم اتعلم هذه الخطوة .. فقال :

ـ حسنا .. تعلميها الآن .

واحسست اننى اكرهه قليلا .. ثم ما لبثت أن احببت فكرة أن يصرخ احد فى وجهى .. وفعلت كما يقول ..

كانت مارى تتهمنى عادة أننى اتصرف بحماقة ، واننى اضحك كثيرا لفكاهات ستيفن ، ولكنى بدورى كنت أسخر من علاقتها بليروى وهو فتى أحمر الشعر لطيف المعشر ، يبدو انه يجد متعة فى مصاحبة مارى رغم البرود الظاهر من ناحيتها ..

كان ليروى دءوبا لا ييأس ، وقد أحب مارى لانها لم تأبه له ، كما احببت انا ستيفن لنفس السبب بالضبط .. وتلك هى الحياة !

***

كانت حفلات الرقص والشاى مجرد تمهيدات للحدث الكبير فى مباريات بطولة الرقص الرسمية التى ينظمها فصل التخرج فى المدرسة ، وقد طلبت الى ستيفن الاشتراك فيها ، فوافق بعد قليل من الالحاح ، وبعد أن اغرق ليروى مارى برسائله وزهوره وحلواه ، تلقى دعوة فاترة منها ، وتقرر أن تقام المباراة فى مايو بقاعة الرقص فى احد الفنادق مع أوركسترا محترم وأن نلبس ثيابا طويلة لاول مرة فى حياتنا .

وفى ذلك الحين كان قد ذاع فى سانت ماركس اننى أحب ستيفن بجنون ، واننى أعتزم أن أفعل شيئا فى هذا الصدد . وقلت لأخته أونا ذات مساء فى جراة اننى انوى تقبيل ستيفن ليلة المباراة . فقالت مارى :

ــ انك تثيرين اشمئزازى .

وقالت أونا : سأقول للام الرئيسة ..

وقبل ليلة الرقص الكبرى ، القت الينا الام الرئيسة بعض النصائح ، وطلبت الينا ان نتصرف بطريقة تليق بفتيات « سانت ماركس » . ثم وجهت الى نظرة طويلة وقالت اخيرا :

ــ مهما قال لك ، فقولى ان فتيات سانت ماركس لا يقبلهن احد !

وقد تبين انه لم يكن هناك مايدعو لقلق الام الرئيسة ..

وعندما نزلنا من سيارة المدرسة أمام الفندق ليلة المباراة ، وجدنا الشبان يتألقون فى سترات بيضاء ، وقد وضع اكثرهم قرنفلات حمراء فى عروة السترة ، وتجمعوا معا فى نهاية قاعة الرقص ..

ورأيته فجأة فى أظلم ركن من القاعة .. كان شعره منتصبا كعادته ، وقد ارتدى سترة بيضاء ووضع زهرة حمراء كالباقين .. ولكن وجهه .. وقلت لنفسى :

ــ يا الهى .. ماذا فعلت بوجهك يا ستيفن .

كان فتى أحلامى ستيفن يقف هناك وقد وضع قناعا معدنيا كبيرا على أنفه وفمه ، وربطه بشرائط على رأسه كأنه قناع الغازات السامة .. وحاول أن يتكلم ، ولكنه عطس بدلا من ذلك .. وحدق فى بعينيه الحمراوين اللتين تسيل دموعهما . وقال :

ــ اننى مصاب بحمى .. حمى الدريس ، واضطر لارتداء هذا القناع فى شهرى مايو وسبتمبر وقلت بقلب محطم : أواه يا ستيفن .. لقد كنت أنوى الليلة ان أتركك تقبلنى .

وبدا تعيسا ثم أشـار بيده الى المرقص .. ورقصنا معا ، ولكن أمام مئات من باقات الزهور التى وضعتها الفتيات فى ثيابهن ، كانت عينــاه تدمعان باستمرار .. وأخيرا اقترحت أن نرحل ..

واستقل ستيفن سيارة أجرة فى طريقه الى مدرسته ، بينما جلست أنا حزينة على درجات السلم الخارجى وأنا أرقب حبى الحقيقى يرحل فى بطء وهو لا يستطيع حتى أن يلوح بيده !..

جوائز المنح الدراسية

فى أواخر سنتنا النهائية ، حدثتنا الام الرئيسة فى ايجاز عن اختبارات المنح الدراسـية المختلفـة المتاحـة لطالبات سانت ماركس - أى للعشرة الاوائل من الطالبات - وبدا أن ذلك يخرجنى منها منذ البداية ، ولكن كان هناك استثناء واحد قرأت عنه فى الصحف ، وهو منحة لمعسكر كشفى للبنات ، ومع اننى لم أشعل النار لأى معسكر منذ المدرسـة الابتدائية ، فقد قررت أن أجـرب حظى .

وكانت المشكلة هى كيفية الوصول الى البـلدة فى يوم السبت عنـدما تجرى الاختبارات ، وكنت على ثقة من أن الام الرئيسة لن تسمح لى أن أمثل المدرسة اذا عرفت رغبتى ، ومن ثم فقد زيفت خطـابا من أمى للام الرئيسة تطلب فيه السـماح لى بالعودة الى شـيكاغو لأن عمتى « الاخت لوسى » الراهبــة قادمة لزيارتنا .

وجاءت الى الام الرئيسة ، وقالت فى رقة : لم أكن أعرف أن لك عمة راهبة . وكان صوتها أكثر رقة من أى وقت مضى .. فقلت :

- أجل .. حقا .

قالت : حسـنا .. ان أسرتك تريد أن تعودى لتكونى هناك عندما تأتى العمة لوسى لزيارتكم ويمكنك أن تكتبى لهم بأنك سوف تذهبين .

وكتبت رسالة الى المعسكر الكشفى أطلب استمارة دخولى المسابقة ، وفى اليوم المحـدد ركبت القطـار الى شيكاغو ، ثم أخذت سيارة أجرة الى مبنى المدرسة الكبيرة التى تجمعت فيها ألفا فتاة من المرشدات ، وأعطونى مقعدا وكراسة للاختبار .

وسرعان ما اكتشفت أنها تتضمن السؤال الذى أتقن الرد عليه ، وهو : اذا كان هناك ثلاثة رجال يمـدون ثلاثة كيلو مترات من القضبان فى ٢٠ يوما ، فكم يوما يقضيها عشرة رجال

فى مد ٢٠ كيلو مترا من القضبان ؟

وكانت الاخت الراحلة ليجورى قد علمتنى كيف أجيب على تلك الاسئلة ، فأنهيت الامتحان قبل موعده بساعة ، وقضيت بقية اليوم فى السينما .. وعندما عدت الى الدير ، أرادت الرئيسة أن تعرف كل شىء عن عمتى الراهبة ، فقلت لها انها فى طريق العودة الى ارساليتها فى الصين ..!

وعندما وصلت الرسالة التى تعلن اننى واحدة من العشر الفائزات بالمنح الدراسية ، صعق والدى ، وكتب الى المعسكر الكشفى يسأل عما اذا كان هناك اى خطأ فى الموضوع واستدعتنى الام الرئيسة الى مكتبها .. وقالت لى :

ـ أريد أن أعرف كيف فزت بهذه المنحة ؟

قلت : لقد أديت امتحانا .

وسألتنى : متى . وأين ؟ ..

وبعد ان عرفت القصة كلها ، ألقت على نظرة طويلة فاحصة ثم قالت : كنت أود أن أقول اننى فخور بك ، ولكننى لا أستطيع ان أقول ذلك حقا .

مفاجاة التخرج

بدا أن بقية العام يجرى بسرعة ، وكنا نقضى أكثر أوقات فراغنا فى التدرب على حفلة التخرج التى ستقام فى ساحة الدير تحت خيمة كبرى ..

وقالت الام الرئيسة ان ليليان سوف تلقى كلمة الوداع ، بينما تلقى فلورنس كلمة الترحيب بالزائرين ، أما أنا فسأظل ساكتة .

وجلست فى البروفة بعيدا عن مارى ، ولكننى لوحت لها بيدى ، وكانت تبدو فى الفترة الاخيرة متباعدة ساكنة ، ولم أعرف هل يرجع هذا لغضبها لفوزى بالمنحة ، او لاننى لم أخبرها عنها .. أو لأنها حزينة للرحيل عن سانت ماركس ؟

واخيرا حل اليوم العظيم .. وجاء الآباء والامهات ، والاسقف .. وفى الساعة الحادية عشرة صباحا جلسنا على مقاعدنا ، وعندما بدأ الاوركستر يعزف مارش المدرسة ، عرفت أن حياتنا فى سانت ماركس دخلت مرحلتها الاخيرة .

وألقت ليليان وفلورنس كلمتيهما ، ثم تبعهما الإسقف الذى قال فى كلمته ان الحياة أشبه بسفينة تنطلق الى البحر .. ثم وقفنا صفا واحدا للحصول على شهاداتنا وجوائزنا وأعلنت بعد ذلك الام الرئيسة أن اثنتين من زميلاتنا سوف تلتحقان بالدير فى شهر سبتمبر ، وهما ليليان كويجلى ، ومارى كلارنسى !

وخيل الى أن شخصا قد أصابنى

بعصا ضخمة على رأسي .. ماري صديقتي وزميلتي وذراعي اليمنى ، وشريكتي في مؤامراتي سوف تصبح راهبة ! .. هذا مستحيل !

ولم أستطع أن أدير عيني لأنظر الى ماري .

وعزف الاوركستر النشيد الختامي .. وسرنا كل اثنتين معا لآخر مرة فوق الممر المرصوف بالاحجار نحو المبنى الرئيسي .

وبينما كنت اتجه نحو المدرسة لابدل ثيابي واستعد للرحيل ، وجدت الام الرئيسة الى جواري ، وصحبتني الى مكتبها ، وهناك قالت لي :

ـ ألا تتحدثين الى ماري قبل رحيلك ؟. انها مضطربة لانك لم تتحدثي معها .

قلت : كلا .. لا داعي لذلك .

ـ بل هناك أكثر من داع .. وأنت تعرفين ذلك ..

فتمتمت قائلة : ان ليليان لا تهمني .. أما ماري .. فصديقتي

ـ سوف تفعلين أنت كما تشائين ، فلماذا لا تتاح نفس الفرصة لماري ؟

فقلت بعناد : ولكنها صغيرة جدا .

قلت : أليست ليليان صغيرة أيضا ؟

ـ ان ليليان لم تكن صغيرة قط .

وضحكت الام الرئيسة ، حينما كنت أنا على وشك البكاء .. وقلت :

ـ انني غاضبة لان ماري لم تذكر لي ذلك .

ـ لانها كانت في خجل مما قد تقولينه لها .

وسالت العبرات على وجهي .. وكانت أول مرة أبكي فيها في سانت ماركس وضمتني الام الرئيسة بين ذراعيها .. وقالت :

ـ ليست تلك هي نهاية العالم .. انني لم اطلب منك معروفا قط .. فهل تذهبين لتقولي لماري انك سعيدة من أجلها .

قلت : حسنا .. سأذهب

وسرت الى القاعة ، ورأيت ماري تقف في آخرها ، فلوحت لها بيدي ، ثم استدرت بدموعي نحو الام الرئيسة وقلت : ولكنني لن أفهم أبدا لماذا فعلت ذلك ..

فهمست تقول : سوف تفهمين .. عندما تكبرين !

***

من المزايا التي فهمناها عن طائرات الركاب التي تفوق سرعة الصوت ، انه ستكون قد وصلت الى اسوان في الوقت الذي تولد فيه طفلا في الاسكندرية !

كيف تعـذب أصـدقاءك ؟

حل الاسئلة الذهنية المنشورة على ص ٨٥

١ ـ ٣٠ كيلو مترا لان الراكبين كانا يسيران بسرعة ٢٠ كيلو مترا فى الساعة ، وكانت تفصلهما فى الاصل مسافة ٤٠ كيلو مترا وعندما التقيا كانا قد قضيا فى الطريق مدة ساعة، ومن ثم فان الذبابة التى تنطلق بسرعة ٣٠ كيلو مترا فى الساعة تكون قد قطعت ٣٠ كيلو مترامهما كان طريقها معقدا .

٢ ـ واحد ، واثنان ، وثلاثة .

٣ ـ ست ساعات . ان ٤٩ عقبا تصنع سبع سجائر ، ولكن كلا من هذه السجائر عندما تدخن تترك عقبا جديدا ، وهكذا تصبح هناك سبعة أعقاب اضافية . وبذلك يصبح هناك ثماني سجائر

٤ ـ نصف الغابة ، لانه سيكون بعد ذلك فى طريقه للخروج منها .

٥ ـ وكم دقيقة فى ساعة و ٢٠ دقيقة ؟

٦ ـ يحصل شخص على السلة والتفاحة لاتزال فيها . !

٧ ـ ستخسر ٩ جنيهات و٢٥ قرشا مهما يكن عدد المرات التى تكسب فيها أو تخسر ما دام العدد متساويا .

٨ ـ لقد ذكرت أربعة بيانات ذات معلومات وسيكون من الاسهل تتبع الامر اذا أعطيت هذه البيانات أرقاما من واحد الى أربعة . ان ألبرت ليس السمسار (١) وليس المحامى (٣) . وعضو الشيوخ على علاقة ودية باثنين من الثلاثة الآخرين (٤) بينما ألبرت ليس على علاقة ودية مع اثنين منهم (١) وهكذا فان ألبرت لايمكن أن يكون عضو الشيوخ .. اذن لابد أن ألبرت هو المحامى والسمسار ليس ألبرت ولا ألفريد

(١) ولايمكن أن يكون الكسندر لان هذا الرجل على علاقة طيبة بالطبيب (٢) الذى أثبتنا الآن أنه ألبرت، فلابد اذن أن السمسار هو الوسيوس . وبالنسبة للرجلين الآخرين فان الفريد ليس على علاقة ودية مع ألبرت (١) ومن رقم (٤) نستطيع أن نقول أن ألبرت لايمكن أن يكون عضو الشيوخ . فلابد اذن أن يكون الكسندر هو عضو الشيوخ والفريد هو المحامى .

عن مجموعة « اختبار الاذهان » بقلم بيتر ستورم وبول سترايف

كتاب الشهر

وداعًا يا صديقي



وداعاً يا صديقى

على الرغم من أن حربا عالميـــةوحشية كانت تدور.. فقد كان عام ١٩١٨ لا يزال فى الغـرب الامريكىالاوســـط زمنا تســـوده البراءة والبساطة ، وكان بالنسبة لسترلنجنورث الذى يبلغ الحـادية عشرة من عمره وقتا يفيض بالحرية المطلقة ،وكان افضل صديق لسترلنج الذى ماتت أمه حيوان ((راقون)) أليـفأطلق عليه اسم راسكال .

وقد أعاد نورث فى كتابه الجديدالذى أصـدره بعنوان ((راسكال)) ما ساد فترة صباه من انتصـارات ومخاوف وخضوع ، وذلكبدقة تامة وسحر جارف ..

تلخيص كتاب *RASCAL*
بقلم سـترلنج نورث

كنت فى الحادية عشرة من عمرى فى صـيف ١٩١٨ ، أعيش وحيدا مع أبى فى بيتنا الـكبير ذى الغرف العشر .. كان أبى أديبا كثير النسيان ، وكان عمله كسمســـار للعقارات كثيرا ما يذهب الى أماكن بعيدة ، ولما كان أخى هيرشل يقاتل يومئذ فى فرنســـا ، بينما تعيش شقيقتاى الكبيرتان فى أماكن أخرى ، فانني كثيرا ما كنت أبقى وحدى فى المنزل .. ولـكننى لم أكن أفتقـد الصحبة ..

كان بين حيواناتى الاليفة العديدة كثير من القطط ، واربعة من الظربان التى بلغت العام الاول من عمرها (الى أن وقع منها حادث طفيف ، فجـاء وفد من الجيران يحدثنى على التخلى عنها) وكان لدى أيضا ((واوسر)) كلبى الضخم الجـائع دائما ـ وهو من فصيلة سان برنارد ـ ، والغراب ((ادجار ألن بو)) الذى يعيش فى قبة الكنيسة المجـاورة لمنزلنـــا ، ويصيح بعبارة واحدة لايعرف غيرها كلما جاء رواد الكنيسة للصــلاة والجنازات وحفلات الزفاف ، وهى ((ما أمتع ذلك .. ما أمتع ذلك)) .. ولكن أحدث أصدقائى واكثرها دواما فى صحبتى هو ((راســكال)) الراقون الاليف ..

لقد ربيته وهو لا يزال صغيرا ،

واصـــــبح الآن يأكل معى ومع ابى على المائدة ، ويحتل مقعدى العالى القديم ، ويرتشف اللبن الدافىء من كوبى بعد ان يقف على المقعد ويضع يديه على طرف الصـــينية . كانت آداب المائدة لديه رائعة ، أفضـــل كثيرا من اغلب الاطفـــال ، كما كان راسكال ينام معى ، وكان وجـــوده معى يجعلنى اقل شـــعورا بالوحدة عندما يكون أبى بعيدا .

كان راسكال يخرج معى لصـــيد الأســـــماك واستكشـــــاف غابات ويسكونسين حول تقاطع «بريلر فورد» حيث كنا نعيش ، اذ كان يقبع بلطف فى ســـلة على الدراجة ، وسرعان ما اصبح مولعـــا بالدراجـــة الى حد الجنون ، فكان يقف على الشـــبكة السلكية ويداه تمســـكان الطـــرف الامامى للسلة .

وعنـــدما نسرع فى هبوط التل ، كان ذيله يبرز خلفـــــه ، والنظـــارة السوداء الطبيعية التى تحيط بعينيه اللامعتين ، تجعله يبدو أشبه ببطل سباق السيارات .

زيارة من ثيو

كنت فى غرفة الجلوس ذات يوم اقوم بصقل ضلوع القـــارب الذى كنت أبنيه بيدى ، بينما كان راسكال يلعب فوق القـــارب الذى لم يتم ، عندما اقتربت سيارة مسرعة وتوقفت أمام منزلنا وقفـــزت منهـــا أختى المتزوجة « ثيو دورا » . كانت قد قادت سيارتها من مينسوتا لزيارتنا واحضرت معها احدى خادماتها .

وصحت فى سعادة : ثيو .. ثيو

واسرعت اليهـــا احتضـــنها .. فقالت :

ــ يا الهى . . انك كلك مغطى بنشارة الخشب

قلت : انني ابنى زورقا كما ترين

ــ حسنا .. وأين هو ؟

ــ فى غرفة الجلوس

ولم أستطع ان اقول لهـــا اننى عنـــدما بدأت المشروع ، كان الوقت باردا فى الخارج .. وكنت أحب هذه الاخت ، ولكنى أخشاها قليلا ، فقد كانت تبدى حنانا بالغـــا نحوى منذ وفاة أمى ، ولكنها كانت تدقق كثيرا فيما يتعلق بالسلوك والملابس وتدبير المنزل الخ ..

وبعد أن القت ثيو نظرة سريعـــة على غرفة الجلوس ، رفعت يديهـــا فى هلع وقالت :

ــ يا للسماء .. انني لم أر فوضى كهذه فى حياتى ..

ــ انني انظف نشـــارة الخشـــب

كل مساء .

وقالت فى عنف : لقد أحضرت معى « جينى » لتنظف هذا المنزل من أعلاه الى أسفله ، وسأطهو بعض الطعام .. لابد أن نحضر مدبرة منزل متفرغة ، وسوف نخرج الزورق من غرفة الجلوس الآن فوراً

قلت فى حزن : الا تستطيعين تركنا وشأننا .؟ اننا نعيش الحياة التى نرغب فيها .

وأضفت قائلا فى تحد : على أية حال انت لست أمى .

فقالت فى ندم مفاجىء وهى تكافح دموعها : أواه يا بنى .

ودارت حول القارب وقبلتنى فى حنان .. ولم تكن « ثيو » قد رأت راسكال حتى تلك اللحظة ، فقدكان يخفى نفسه فى مكان منخفض يرقب ويصغى فى دهاء .

وكان راسكال يختفى وهو قابع على سجادة من فراء النمر اختلطت بخطوط فرائه ، وعندما نهض من مكانه وكأنه روح نمر من الامازون تجردمن جسده ، ذهلت ثيو وصاحت فى رعب : ما هذا بحق السماء ؟

ــ انه راسكال .. حيوانى الصغير .

ــ هل تعنى انه يعيش فى المنزل ؟

ــ بعض الوقت فقط .

ــ أخرج هذا الشىء من هنا فورا يا سترلنج .

قلت موافقا بعد تردد : حسنا ..

كنت أعرف ان راسكال يستطيع أن يفتح الباب من الخارج ويدخل فى أى وقت يشاء وطلبت منى ثيو أن أساعد جينى على احضارالحقائب ووضعها فى غرفة النوم بالطابق الاسفل . ولم أجرؤ أن أقول لها اننى أنام فى هذه الغرفة وكذلك راسكال .. وكانت ثيو تأخذ دائما غرفة النوم السفلى والحمام الملحق بها .

وكانت مشكلتى هى كيفية شرح هذا الترتيب لراسكال ، الذى اختار نفس الفراش الذى اختارته ثيو ، كما انه كان يفضل أيضا الغرف ذات الحمام ، اذ كنت أترك قليلا من الماء كل ليلة فى حوض الغسيل ليستطيع راسكال أن يجد جرعة يشربها فى أى وقت خلال الليل . فكيف أشرح لهذا المخلوق الصغير انه سيطرد من الغرفة .

راسكال ضد الغراب « بو »

كان راسكال يعيش فى فجوة بشجرة البلوط الاحمر ، وكنت لا أراه الا عندما أخرج لاطعامه لبنا دافئا ،

وكان « واوسر » كلب الحراسة ، وهو حارســـه المسئول ينـام تحت شجرة البلوط ليلا ويبقىهناك طول النهار تقريبا ، فى حالة تأهب دائم لحمايته على الرغم من أن جســـمه الذى يبلغ وزنه ٧٧ كيلوجراما كان يبدو نائما دائما .

وبعـــد ظهر أحـد الايام ، ظهر راسكال أمام فتحة جحره ، واطلق صوتا مرتعشا ، ثم برز بذيلهأولا ، وخرج من الشـــجرة بظهره فى حذر كالدب الصغير . وأحس « واوسر » بقلق كثير وراح يعـوى وهو يتطلع الىأعلى ليرى ماذا أشعر خيال هذه المشكلة الجديدة ،وطلبت منه ألايقلق وأن ينتظر ويرقب .

وانطلق راسكال فورا نحوالبركة الضحلة التى احتفظ فيهـــا بالطعم الحى الذى اســـتخدمه فى صـيد الاسماك ، وكانت عامرةدائما بأسماك « المنوة » ، وخاض الماء دون تردد ، وتحسس القاع بأصابعه الحساسة مما جعل الاسماك الصغيرة تنـدفع فى رعب تبغى الســـلامة .. كانت تلك أول رحلة صـيد يقوم بهـا ، ومع ذلك فقد كان يعرف بالضـبط كيف يمسك الاسماك .. وامسكت يداه السوداوانالماهرتان سمكةبراقة طولها ١٠سنتيمترات، ثم راحيغسلها جيدا كعادته قبل أكلها .

وحيـوانات « الراقـون » كلهـا تجتذبها الاشياء البراقة ، وعنـدما بدأ راسكال يقضى أيامه خارججحره، أعطيته ثلاثة بنسات جديدة لامعة ، كان يتحسسها بعنـاية ويشـــمها ويتذوقها ، ثم يخبئها فى ركن مظلم فى سعادة البخيـل ، مع كنوزهالاخرى المـاثلة ، كبلى الاطفال الزجاجى ، ومقبض باب نحـاس ، وســـاعتى المحطمة .. اما الغراب « بو » فكان يقبع على سور الخميلة وهو يعاكس القطط ويظل فى نفس الوقت بعيـدا عن أيديهـــا .. وكان هـذ الطائر العجوزالاجشالصوت يقوس جناحيه ويسير متبخترا فى مشـــيته عندما يخرج راسكال من جحره الى ضوء الشمس حاملا بنســـا براقا كقطع العملة الذهبية الجديدة .

لقد تبادل « بو » و « راسكال » الكراهية على الفـور عنـد لقائهما الاول، فالغربان تعرفـ أن «الراقون» يسرق بيض الطيور ويأكل صـغارها أحيانا ، بالاضـافة الى أن « بو » كان غيورا بعد أن رآنى أدللراسكال الصغير وأطعمه كثيرا ، ولكنراسكال كان قد كبر الآن الى حد يكفى لان

يجذب بعض ريش ذيل الغراب خلال مشاجراتهما الحـــامية ، ولم يكن « بو » احمق ليغامر بذلك كثيرا .

ومع ذلك فقد كان البنس مغريا جدا حتى تخلى الغراب عن حـــذره وانقض للفوز به من فم راسكال ، ولكن بو عندما هبـــط ، لم يطبـــق منقاره على قطعة العملة فحسب ، بل وعلى عشر شعرات من شـــارب راســـكال ايضا ، وحاول الفـــرار



بسرعة ولكنه وجد نفســـه مقيـــدا بالراقون الذى أطلق صيحة غضب ، وراح يقـــــاتل دفاعا عن ممتلكاته وحياته ، واشتبك الاثنان فى صراع عنيف ، وحاولت التدخل لتخليصهما ، فغضب الاثنان منى ، وقرصـــــنى راسكال بخفة لاول مرة .. وفى نفس الوقت تدحـــرج البنس من الشرفة الى الحشائش التى تقع تحتها حيث رآه الغـــراب فورا وامســـكه مرة اخرى ، وانطلق فى طريق منحـــرف الى قبـــة جرس الكنيســـــة حيث اختزن غنيمته !

منطق راسكال

لم تكن اعمال راسكال صـــادرة بوحى الغريزة وحدها ، بل كان قادرا تماما على التعلم من التجربة ، وقد اكتشفت ذلك عندما اخـــذته لأول مرة الى المكان السرى الذى اصـــيد منه الاسماك على النهر . كان هناك حاجز رملى تحته حفرة عميـــــقة هادئة ، وتركت دراجتى الى جانب اشجار الصفصـــاف ، وبدأت أعـــد شص الصيد ، ولكن راسكال لم يكن فى حاجة الى مثل هذه الاستعدادات ، بل شق طريقه على طول الحاجـــز الرملى ، فاحصا كل جزء من المناطق الضحلة ، وسرعان ما واجه « جراد بحر » ضخما ، وهو وحش لم يلتق به من قبل ، ولو ان امه علمتـــه أن يمسكه من خلف المخالب لتفادى أى خطر من هذه الكماشة التى تشـــبه أسنان المنشار ، ولكن جراد البحر قرصه عدة مرات قبل أن يتمكن من سحق رأسه بأسنانه الحادة كالمسامير ، وغسل راسكال فريســـته ثم التهم ذيلها اللذيذ . وفى طريق العـــودة

اشتريت زجاجة صـــودا ذات نكهة توت ، ودون استئذان وضع راسكال احدى يديه الصغيرتين فى الزجاجة ولعق أصابعه، وبدأ يتوسل للحصول على المزيد ، فسكبت القطرات القليلة التى بقيت منى فى فم راسكال المتلهف، وقد دهشت عندما رأيته يمســـك رقبة الزجاجة ويتدحرج على ظهره مستخدما يديه وقدميـــه ، وراح يستنزف آخر القطرات الحلوة منها، ومنذ ذلك اليوم أصبح التوت هو الطعام المفضل لديه .

وهناك درس آخر تعلمه سريعا ، وهو كيف يفتح البـــاب الخلفى ، وكنت قد تعمدت الا أصلح المقبض المكسور لان كل القطط كانت مولعة بفتح الباب والدخول منه ، وبعد أن راقبها راسكال عرف الحيلة ، وهى أن يشبك مخالبه فى ستـار الباب ويجذبه . وبعد بضـــع ليال ذهلت وسررت معا لسماع صوته المرتعش على الوسادة المجاورة لى وبدأت يداه الصغيرتان تتحسسان وجهى ، وكان قد خرج من جحره وفتح البـــاب الخلفى وتســـلل الى فراشى الـــذى يعرف انه أكثر نعومة وراحـــة من فراشه، ومنذ ذلك الحين أصبحنا ننام معا فى فراش واحد .

خاتم ثيو الماسى

خلال الساعات القليلة الاولى من زيارة ثيو ، لم يثر « راسكال » أية متاعب بعد أن اضطررت لابعاده عن المنزل ، وكان يمضى بقية اليوم نائما فى شجرة البلوط ، ولكن عندما بزغ القمر فى تلك الليـــلة ، هبـــط من الشجرة ، وسار نحو الباب وفتحه بسهولة ثم دلف الى مخـــدعنا ، وزحف الى الفراش الذى تنام فيه أختى (ثيو) .

واستيقظت أنا وأبى وكنا ننام فى الطابق العلوى على صرخة تجمـــدت لها دماؤنا ، فاندفعنا الى أسفل لنرى (ثيو) واقفة فوق مقعد متصلبية ، بينما قبع « الراقون » الصغير على الارض يحدق فى هذا المخلوق الذى يصرخ كصفارة الانذار !

وقلت لأختى ان « راســـكال » اعتاد النوم فى هـــذا الفراش وانه نظيف جدا ولا يؤذى فأمرت باخراجه فورا وأن أغلق الباب بالترباس حتى لا يستطيع العودة ..

وبعد ثلاثة أيام وقع حادث كان أكثر اثارة لقلق ثيو ، فقد كانت تعتز بخاتم خطبتها وبه ماسة مربعـــة الشكل لعلها تزن قيراطا ، مركبـــة فوق ذهب ابيض ، وكثيرا ما كانت

تضع الخاتم فى غير موضعه وتنسى مكانه .

وحـدث مرة أخرى انها فقـدت خاتمها كالعادة ، وتذكرت انها نسيته على حافة حوض الغسيل العريضة قبل أن تنام فى فراشها ، وظنت انه ربمـا سقط فى البالوعة ، أو لعـله سرق .. وفتشنا كل جزء من المنزل وبحثنا فى الحشائش واحواض الزهور ، وفكرنا فى البحث عنه فى المجارى ، وأخيرا خطر لى احتمال بعيد ، اذ قبل الفجر بقليل ، سمعت صراعا عنيفا بين راسـكال وبو فى الشرفة الخلفية .. وقبل أن اتمكن من طرد النوم من عينى هدات أصوات الصراخ والنعيق ، ونمت مرة اخرى ..

وبدأت أفكر فى الحـادث وكأننى مخبر فى سـكوتلنديارد .. وقلت لنفسى انه لابد أن راسكال قد تسلل الى المنزل فى تلك الليـلة وتسـلق افريز النافذة ومنهـا الى حوض الغسيل ليتناول جرعة من المـاء العذب ، فاذا به يجد أمامه أبدع شىء رآه فى حياته .. خاتما ماسيا كبيرا يتوهج بأضواء بيضاء وزرقاء رائعة .

فاذا كانت نظريتى صحيحة فلابد أن راسكال قد التقط الخاتم واخذه الى الشرفة الخلفية حيث شـاهد الغراب (بو) هذا الكنز معه ، وهذا يفسر المعركة التى دارت بين الاثنين وايقظتنى ، ولعل اللص الاسود قد فاز مرة أخرى على راسـكال وطار بالغنيمة .

واستأذنت الاب هوتون قبل أن أبدأ صعودى الى قبة جرس الكنيسة الذى يقع على ارتفـاع ٧٥ قدما ، وكان السلم مظلمـا مليئا بالغبار ونسيج العنكبوت ، وبعـد مجهود عنيف وصلت الى الغرفة الصـغيرة التى تقع فى القمـة ، وتشرف على البلدة والنهر ..

وبدأت أفتش قبـة الجرس التى يغمرها التراب ، وخـلف كوم من الاشياء المهجورة وجـدت مجموعة الاغصان واوراق الشـجر الرثة ، والريش الاسود التى يسميها الغراب (بو) منزلا .. وكما ان بعض الناس يحفظون نقودهم فى حشيات فراشهم فقد جعل (بو) فراشه أكثر تعبا بكوم من قطع معدنيـة براقة ملأت العش وأرضـه . كانت هنا أنواع مختلفة من بلى الاطفال من الزجاج والصلب ، وصفارة كرة القدم التى خطفها (بو) وهو يحلق فوق ملعبنا ومفتـاح لسـيارتنا .. وأعجوبة العجائب : خاتم ثيو الماسى ! وابتهجت

ثيو بعودة خاتمها ، حتى انها لم تعد تصر على ابعاد قاربى من غرفة الجلوس وأجلت القرار الخاص بمديرة المنزل المتفرغة ، واكتفت باطعامنا بعض الوجبات اللذيذة وتركت المنزل نظيفا لامعا ، ثم قبلتنى مودعة وهى تلوح بيدها أثناء رحيلها !

سرقة الحبوب الكبرى

أذهل القتال العنيف الذى دار حول « سواسو » فى يوليو ١٩١٨ بلدة بريو فورد ، وبينما كانت قائمة القتلى تزداد نموا ، والفواجع تغزو بيتا بعد آخر . وبدونا أكثر قربا من الخنادق وحقول القمح الفرنسية التى تمزقها القنابل . وسرت موجة حماسة وطنية بين أطفال البلدة ، وكانت الفتيات يغزلن الاساور الخاكية بالعشرات ، والغلمان يتنافسون فى جمع نوايا الخوخ التى تستخدم فى صنع الفحم النباتى لأقنعة الغازات .

وكانت عندى حديقة حرب يساعدنى فيها « راسكال » الذى كان يتدحرج ورائى وانا أعزق الارض ويساعدنى فى قطف البازلاء ، ولكنه كان يحتفظ لنفسه بكل ما يقطفه منها ويلتهم ما فى قرونها بنهم .. وكثيرا ما كان ينام ساعة العصر تحت أوراق شجر الراوندا للراحة ، ومن الاخطاء الخطيرة التى ارتكبتها ، اننى جعلت راسكال يتذوق لأول مرة « الاذرة السكرية » اذ بدا انه لم يتذوق من قبل طعاما شهيا كهذا .. فقد اخذ ينتزع ساقا بعد اخرى من النبات ويخرج قشورها ليلتهم ما بها فى نهم ، وقد سكر من رحيق الاذرة السكرية اللذيذ ! .

وعندما أخبرت أبى بذلك ، نظر الى فى جد وقال : أخشى أن تكون قد خلقت المتاعب لنفسك .

وكان هذا حقيقيا بكل تأكيد .. ففى تلك الليلة والليالى التالية ، كان راسكال يختفى عدة ساعات كل مرة ، وبدأ يستغرق فى النوم أغلب النهار ، وفى الصباح كانت أصوات الغضب ترتفع من الجيران بعد أن يكتشفوا واحدا بعد الآخر ان قطعة الارض التى زرعها أذرة سكرية قد اعتدى عليها مغير شيطانى خلال الليل ! .

وكان « ساى جنكينز » تاجر الاخشاب هو الذى اكتشف آثار « الراقون » بين صفوف الاذرة فى حقله ، وبعد أن ذاع النبأ ، جاء الينا وفد من الجيران ذات مساء مرددا شكواه من راسكال الذى كان يقبع فى حجرى التماسا للحماية .

وقال جنكينز : لقد رأيت آثار

هذا الوباء فى حديقتى !

وراح الجميع يرددون سخطهم وتهديداتهم وكأنهم دبابير غاضبة .

وقال أحدهم : عندما يكتمل القمر سوف أطلق عليه النار .

وقال آخر : سوف أنصب له فخا

واقترح أبى أن أشترى حزاما من الجلد وطوقا للرقبة لتقييد راسكال، ولكن جنكينز قال ان هذا لا يكفى ، فقال أبى اننى سأبنى له قفصا .

وأظهرت مسز ولتر دايت عطفا على راسكال ، ثم ضحك البعض وخف التوتر ، وقال أبى ان المسألة تعتبر منتهية ، ودعاهم لشرب عصير العنب المثلج ..

ولكن ما أن انصرف الجيران، حتى قلت لأبى الذى كان يعمل قاضيا للصلح فى غضب :

ــ تستطيع أن تضع المجرمين فى السجن .. ولكنى لن أضع راسكال الصغير الطيب .

فقال أبى وهو يهدىء روعى : هذا أفضل يا سترلنج من اطلاق النارعليه

ــ حسنا ... سوف أفر أنا وراسكال لنعيش معا فى الغابة .

وفكر أبى لحظة ، ثم قال : ما رأيك فى رحلة لمدة أسبوعين فى بحيرة سدبربور ؟ وتستطيع احضار راسكال معك .

انها مهلة طيبة وأخذت أستعد مع راسكال فى جنون بعد أن وقف على مؤخرته .. ثم سألت أبى :

ــ متى نستطيع البدء يا أبى ؟

ــ غدا .. سوف أضع لافتة على باب مكتبى قبل الرحيل !

مهلة لمدة أسبوعين

كان أبى فى أثناء عمله كسمسار العقارات كثيرا مايضارب فى ممتلكات المزارع ، وقد رهن كل ما يمتلكه واستخدم المال لشراء مزرعة بعد أخرى ، وكثيرا ما كان يقترب من الكارثة فى فترات الكساد ، ولكنه كسب جيدا فى عام ١٩١٨ عندما انتعشت المزارع .

وانطلقنا فى سيارتنا من طراز « أولدزموبيل » فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، وعرجنا شمالا ونحن نصعد وادى روك ، ولم تكن هناك طرق عامة كبيرة فى تلك الايام بل كانت الطرق الصغيرة التى تخترق المنطقة الريفية أغلبها غير ممهد تؤدى الى كل اتجاه ، تتبع الطرق الهندية ومسالك الصيد القديمة وتحيط بالاحراش ، وتلتف حول الاودية .

وانقضى الوقت بسرعة .. وكان

أبى من المغرمين بالابحاث التى لانهاية لها حول حكايات الهنــود الحمــر ، وكان رصيده لا ينفد عن قصص هذه القبائل ونحن نخترق الطرق الهنديه القديمة •

كنا قد اخـــذنا بعض الشـــطائر والبيض المسلوق والخوخ الطازج ، وعشر كعكات ، ولم يكن هناك مايدعو لاحضار طعام خاص لراسكال فقد كان ياكل كل شيء تقريبــــا ، كأنما هو انسان وهو ماكان يعتقده فى نفسه بكل تأكيد •

وأعددنا معسكرنا جنوب بحـيرة « سوبريور » على نهر برول ، وهو أحسن مكان لصيد سـمك السالمون فى ولاية ويسكونسين ولم يذكر لى أبى كعادته السبب الحقيقى من هذه الرحلة ، وكان قد اســـتدعى كشاهد خبير فى قضية منظورة فى احدى محاكم « سوبريور » ، وكان معسكرنا على مسافة حوالى ٣٠ كيلو مترا من المحكمة ، ومن ثم فقد كان أبى يرحل بعد الافطار بقليل فى كل يوم تعقد فيــه المحكمة جلساتها ثم يعود بعد الظهر •

ومر أسبوعان من الحرية المطلقة نسيت خلالهما كل احساس بمرور الزمن •• لم يكن هنـــاك ناقوس المدرسة او الكنيسة ليذكرنا بمرور الوقت ، كل يوم يمتزج باليوم التالى ولا تستطيع أن تتــذكره الا على انه اليوم الذى رايت فيــه القنفــذ او اكتشفنا فيه بحيرة مفقودة •

وتمتعنــا بالاستكشاف والصـــيد والسباحة •• وبعد ظهر أحد الايام عاد أبى ليقول ان القضية قد انتهى نظرها ، وان غـدا سيكون يومنـا الاخير على نهر برول •• وظللت راقدا فى تلك الليلة وأنا أصغى الى صوت الرياح وهى تهـز أشـجار الصنوبر الباسقة •

***

وكانت عودتنا الى المنزل يسودها المرح والبهجـــة ، فقـد قفز الكلب « واوسر » على كتفى وأسـقطنى على الحشائش وهو يمسح وجهى بلسانه الطويل فى حب بالغ ، وهبط الغراب « بو » من قبة الكنيسة وهو يردد صيحاته المعهودة فى الترحيب بنا ••

كنت قد وعـدت أن أحضر طـوقا ومقودا للحيوان وأضعه فى قفص ولم يعد فى امكانى تأجيل ذلك ••

وكان تدبير النقـود اللازمة للطوق والقفص مشكلة ، اذ لم يكن لدى كثير من النقــود • ولم يزد ما اســتطعت الحصول عليه على دولار ، وعنـدئذ

وضعت راسكال في السلة الامامية وانطلقت بالدراجة نحو البلدة في حزن ، وتوقفنا عند متجر « شادويك هارنس » وكان بارث شادويك صانعا ماهرا في الجلود ، يصنع الحقائب الجميلة وأحذية الركوب وجلود الكتب ولكن أغلب عمله كان في أدوات الجياد ... وسألني الرجل عما أريد ... فقلت له وأنا أكافح الدموع المعلقة في عيني :

ـ أريد طوقا لراسكال ومقودا مجدولا يتفق معه ... انهم يريدون مني أيضا أن أصنع قفصا له ...

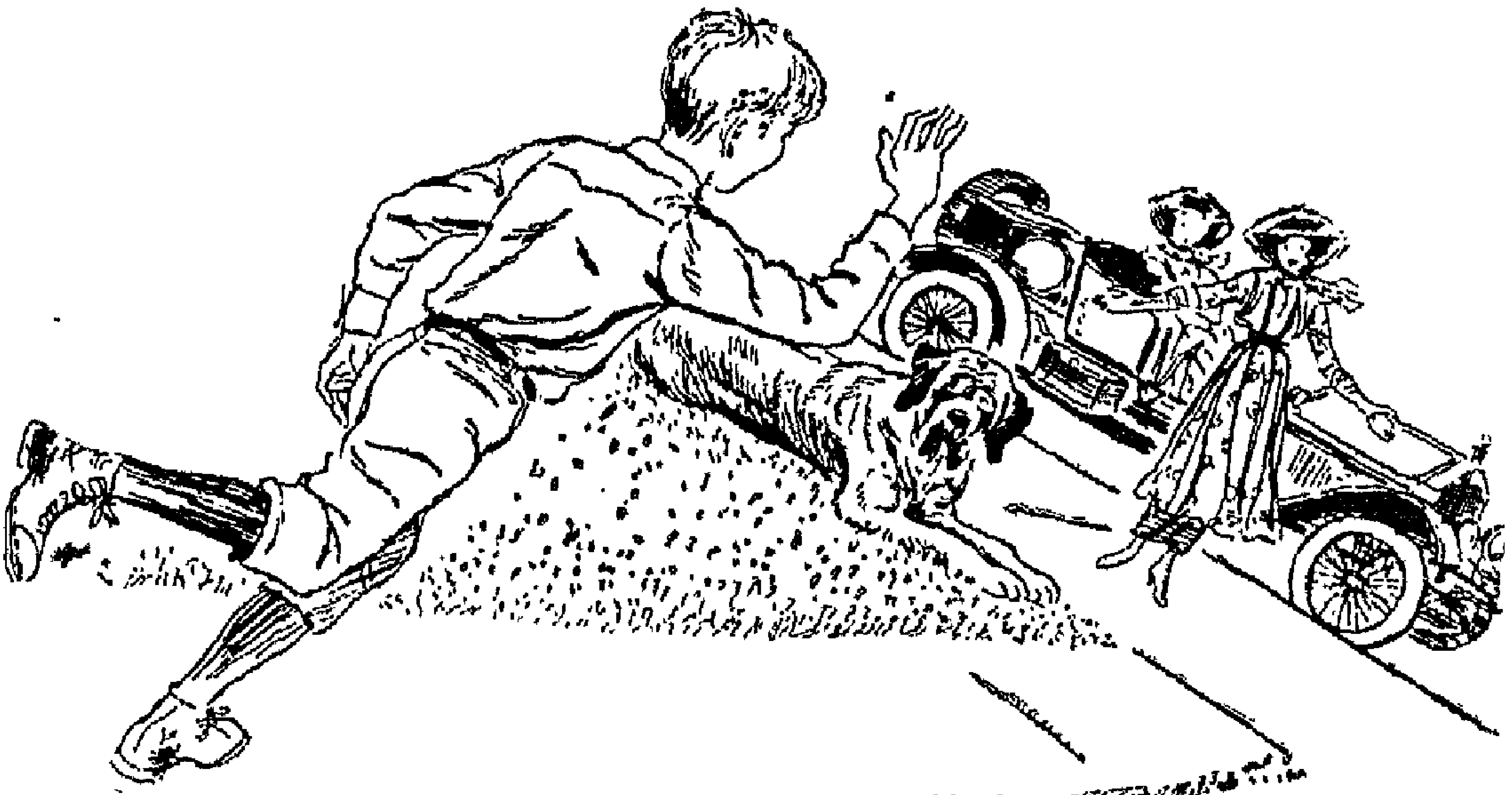
فقال : قفص لراقون صغير كهذا ؟ هل تريد أن أحفر اسمه على لوحة فضية فوق الطوق ؟

قلت في تردد : ليس عندي نقود كثيرة ، ولكن ذلك سيكون رائعا .. ان اسمه راسكال .

وراح شادويك يعمل بسرعة ودقة في اعداد الطوق ، وأخيرا وضع عدسته على عينه ونقش اسم (راسكال) على لوحة صغيرة بخط بديع

وقلت له : هذا أجمل طوق رأيته في حياتي

فضحك شادويك وقال: انه الطوق



الوحيد الذى رأيتـــه يصنع لحيــوان « الراقون » • يستحسن أن تجربه لمعرفة مقاسه •

لم أكن واثقا أن راسكال سيحب وضع الطوق حول عنقه ، ولذلك جعلته يتحسسه أولا ويشـــمه بأنفه ، ثم وضعته حول عنقه ودهشت عندما جلس القرفصاء دون أن يقاوم ، بل تحسس الطوق كمـا تفعـل المرأة بلآلئها •

وأحضر شادويك مرآة كبيرة وقف أمامها راســكال متـأثرا ، اذ أنه لم يسبق له أن رأى صــورته قط •• وصدم المرآة بأنفه أولا محاولا أن ينفذ منها ، ثم راح يعدو وراءها ليقـابل الراقون الآخر الذى رأى صورته •• وأخيرا عاد وقد استبدت به الحيرة •

وتطلب جدل المقود وقتا أطول حتى انتهى بنفس الدقة والبراعة • وكنت أعرف أننى لا أملك نقودا لمثل هـذا الطاقم ، ومن ثم فقد وضعت دولارى أمام مستر شادويك وقلت أنها دفعة أولى وانني ســأحضر له شــيئا كل أسبوع خلال الآشهر التالية •

وحدق الرجل من النافذة قليلا ، ولعل ذهنه قد رجع به الى عهد الصبا •• ثم قال :

ـ لماذا يابنى •• اننى أخدعك اذا أخذت منك أكثر من ربع دولار لهذا الطوق والمقود •

السجين الصغير

كان من الممكن أن أؤجل بنـــاء القفص لولا أن راسكال أصبح مولعا بلعبة ليلية جديدة ، هى العنب المدلى بعناقيده الارجوانيـــة فى الـــكروم القريبـــة ، ومن ثم فقد اشـــتريت الاخشاب والاســـلاك اللازمة لصـــنع القفص من متجــر قريب •• وراقبت راسكال عن كثب لأعرف أى أجزاء الساحة الخلفية يحبه أكثر من غيره ، وتبين لى انه يفضل منطقة تمتد من أسفل شجرة البلوط التى يقع فيهـا جحره ، حتى جدار الجرن ، وتبلغ مساحتهـــا حوالى ٣ر٥ متر مربع وتحتوى على زراعة من الحشـــائش والبرسيم ، وبركة الطعـم المخصص للصيد •

وقد أشركت « راســـكال » فى مساعدتى أثناء انشاء القفص ، وبدا أنه تمتع بهذه العمليـــة واستخدمت بابا قديما من الســلك للدخـــول ، وكنت حريصا على الا أغلق هذا المدخل خلال الايام التى أمضيتها فى بنـــاء القفص حتى لا يشعر راسكال لحظة واحدة انه حبيس فيه •

وساءلت نفسى : أليس أمرا شريرا

أن تأخذ واقونا من الغابة لتحبسه فى قفص .. ألا يحن راسكال لحريتـــه المفقودة ؟.. وقررت أن أتيح له مزيدا من المساحة ...

كان راسكال لايزال غير مدرك حقيقة المسألة ، وكلما سألنى الجيران متى أضعه فى القفص ، كنت أقول : «ربما غدا » . ولكن القفص انتهى أخيرا ، ولم أستطع تأجيل الامر أكثر من ذلك ...

وصحبت راســكال الى القفص ، وجلست طويلا أحادثه وأداعبــه وهو يتناول وجبة المساء ، ثم تسللت من القفص وأقفلت الباب خلفى .. ولم يفهم راسكال ماحدث .. وأقبل نحو الباب وطلب منى فى أدب أن أفتح له وأدعه يخرج .. وفجأة أدرك أنه خدع وأصبح حبيسا ، فراح يعدو بسرعه داخل الاسلاك وقد استبد به الجنون

وعدت الى المنزل لأبتعد عن صوته ولكنه كان ينفذ الى اذنى من خلال النوافذ المفتوحة متوسلا ... كان يقــول لى أنه احبنى وكان يثــق فى دائما .. ولم أستطع أن أتحمل أكثر من ذلك ، فانطلقت اليــه وفتحت له الباب ، فتعلق بى فى هلع صــــائحا وكأنه يوجه الى السؤال الذى لاأستطيع الرد عليه

وأخذته معى الى الفراش ، واستغرق فى نوم عميق ، وهو يلتصق بى طوال الليل حتى يشعر بالاطمئنان .. وفى الصباح نقلت وجار « واوسر » الى بقعة تقع أمام باب القفص مباشرة ، وأدرك (واوسر) مسئوليته الجديدة فظل قابعا هناك فى اخلاص وعيناه المليئتان بالحب متجهتان نحو السجين الصغير ، وكان فى استطاعة راسكال أن يخرج يديه ليربت على أنف الكلب .. وقد ارتحت لهـــذه الصـحبة ، ولا ســـيما بعد أن بدأت أتغيب عن البيت أغلب النهار بعد عودة المدارس فى أكتوبر ..

راسكال يذهب الى المدرسة

كانت بداية العام الدراسى حـدثا لا ينسى بصفة خاصة اذ كنت أدخل يومئذ السنة الاولى الثانوية ، وكانت عندنا معلمتان موهوبتان ، احـداهما مس ستافورد التى جعلت من النحو والادب متعة ، والثانيـــة مس والين معلمة الاحياء المولعة بعلمها .. وقد استحوذت مس والين على اهتمـــامنا منذ اليوم الاول بأن طلبت الى كل منا أن يحضر أحد حيواناته الاليفـــة الى حصة علم الاحياء ، فأحضر البعض اســـماكه الملونة ، وأحضر آخـــرون كلابهم أو ببغـــاواتهم .. ثم تلقيت

دعوة لاحضار « راسكال » معى .

وفى صباح ذلك اليوم ، قمت بتنظيفه وتمشيط شعره وفرائه حتى أصبح ناعما كالحمل ، وكان درس الاحياء هو أول دروس اليوم لحسن الحظ ، فلم نضطر للانتظار طويلا ..

وكان سلوك « راسكال » رائعا ، فقد قبع فوق مكتب المدرسة فى يقظة وأدب وكأنه أمضى أغلب حياته فى القاء المحاضرات .. وأخذ يفحص ثقالة الورق الزجاجية الموضوعة على المكتب

وبدأت مس والين حديثها قائلة :

ـ ان الراقون حيوان فضولى كما ترون ..

ثم كتبت على السبورة كلمة « راقون » وقالت انها كلمة هندية معناها « الذى يخدش » وسأل عدوى اللدود « سلامى ستيلمان » عما اذا كان يحك جلده بسبب البراغيث ، فضحك التلاميذ ، ولكن مس والين قالت : « أعتقد أن الهنود كانوا يعنون بذلك انه يحك الارض ويحفر بحثا عن بيض السلاحف وغيره من الطعام ، أو عن دود الارض » .

وقالت ان « الراقون » ابن عم الدب وانه يسمى أحيانا « الدب الغاسل » لانه يغسل كل طعامه .

وطلبت منى المدرسة ان أذكر بعض تجاربى مع راسكال ، فوقفت امام الفصل ورحت اتحدث وأنا اداعب راسكال ، واعتقد أننا فزنا باهتمام الجميع ، ولا سيما عندما تسلق كتفى وبدأ يداعب اذنى .. وذكرت لهم كل شىء عن راسكال وما نفعله معا وعن حبه للموسيقى ، وقلت اننى أنام معه أحيانا ، وطلب الجميع أن يلمسوه بأيديهم . وكان ستيلمان آخر من فى الصف ، وما كاد يصل الى راسكال حتى جذب شريطا مطاطيا ثقيلا وضرب راسكال على وجهه ، فصرخ الحيوان فى غضب عنيف ، وفى لمح البصر غرس اسنانه فى يد « سلامى ستيلمان » السمينة .

وصرخ الفتى بأعلى صوته ، وراح يدور حول نفسه وهو يصيح :

ـ الراقون مسعور .. الراقون مسعور .. لابد من قتله الآن فورا .

فقالت مس والين ببرود وصرامة :

ـ ان الجميع رأوا ما فعلته يا « سلامى » واذا كنت تعتقد ان هذا الراقون مسعور فان أبلغ عقاب لك ان تتساءل عما اذا كنت قد اصبت حقا بمرض الكلب !

وقامت بتطهير جرحه ، ثم صرفت التلاميذ وطلبت الى البقاء وابدت لى اسفها عما حدث ثم قالت : « فى هذه

الظروف سيكون عليك ان تضع الحيوان فى قفصه طوال الاسبوعين التاليين ، حتى اذا بدت عليه علامات الكلب ، كان لدينا وقت لعلاج سلامى بمصل باستور »

وظللت محبوسا مع راسكال طوال الاسبوعين اقضى معه عدة ساعات كل يوم ، ولما لم تظهر علامات المرض، فتحت له الباب ، وانطلقنا الى عالم الخريف •

معاهدتنا صلح

اجتاحت الانفلونزا الاسيوية بلدتنا فى أواخر الخريف بعد أن تفشت فى أوربا والولايات الشرقية من أمريكا وقتلت من المواطنين أكثر مما فعلت الحرب • وأغلقت المدارس ، وكاد الناس يسيرون فى الشوارع شبه المهجورة وقد وضعوا على وجوههم أقنعة غريبة من الشاش الابيض ، بعد ان زادت نسبة المرضى الخطرين على ٢٥ ٪ وضعف هذا العدد مصاب به بصورة أقل خطرا •

وكانت اصابتى أكثر اعتدالا ، وكان أبى يحيطنى بالبطانيات الصوفية وينقلنى بالسيارة الى ضيعة الاسرة القديمة فى الشمال حيث يقيم عمى فريد وزوجته الرقيقة ليليان وأبناؤهما الثلاثة وتوسلت الى أبى أن نأخذ راسكال معنا فوافق ••

وبدأت استرد قواى تحت رعاية ليليان الرقيقة ، وبدأت أساعدها فى اداء بعض الاعمال المنزلية الصغيرة واجمع البيض وأطعم العجول واضع الطعام فى حظيرة الخنازير •

وأقبل عيد ميلادى الثانى عشر ، فى يوم الهدنة الزائف الذى اذاعته وكالة اليونايتدبرس قبل ١١ نوفمبر بأسبوع ، وقد سررت كثيرا لان هيرشل سيعود من فرنسا وسنذهب لصيد الاسماك معا !

وبعد ظهر ذلك اليوم جاء أبى ليصحبنا الى البيت ، وكانت زوجة عمى ليليان قد أعدت لنا ديكا روميا كبيرا •• وفجأة وضعت يدها على فمها فى فزع وقالت :

ـ سترلنج •• انه عيد ميلادك الثانى عشر ولم يتذكره أحد منا !• بل اننى لم اعد حتى كعكة •

وغنى الجميع أغنية « عيد ميلاد سعيد » ، ثم أخرج أبى من جيبه ساعة جميلة ذات سلسلة مجدولة من شعر أمى الكستنائى ، وقد انتقلت هذه الساعة من الاب الى الابن •!

وفى صباح ١١ نوفمبر أعلنت الهدنة الحقيقية ، وساد صمت مفاجىء فى الخنادق ، وأقيمت احتفالات كبرى

فى بلدتنا اشتركت فيهـا كل عربات الاطفاء المزينـة والسيارات والعربات ذات الجياد ، وقمت أنا بتزيين عجلتى بشرائط من الورق الملون ، ووضعت راسكال أمامى فى السلة ، وانطلقت لاشترك فى الاحتفال الكبير .

***

تساقطت بشـائر الجليد الاولى فى أوائل ديسمبر ، وتبعته رقائق قليلة من الجليد فى جحر « راسـكال » بالشجرة ، وقد صنعت غطاء معدنيا على المدخل ، وبطنت الفجوة بأغطية صوفية قديمة ، وسويتر صغر حجمه علـى ، حتى يصـــبح له عش أنيق للشتاء ..

ان حيوانات الراكون لاتنام الشتاء فى الواقع ، ولكنها تنام فعلا عدة أيام كل مرة ولا تخرج الا بين حين وآخر لتناول وجبة طعام . وفى كل صباح قبل ان ارحل الى المدرسة كنت اذهب الى القفص وادخل يدى فى الفجوة ، وكم كنت اشـعر بارتياح بالغ عندما احس بجسم راسكال الدافىء المغطى بالفراء وهو يتنفس ببطء وانتظام .. ومن حين الى آخر كان يسـتيقظ الى حد كاف لكى يخرج وجهه ذا العينين الوسنانتين من الفجـوة وينظر الى .. وكنت أكافئه دائما بحفنة من البندق .

جيسكا تصل

بعثت الينا « جيسكا » شقيقتى الاخرى التى تدرس فى شيكاغو تقول انها قادمة لقضاء عطلة عيـد الميلاد معنا ، وقد وصلت على القطار الوحيد الذى يصل من هنـــاك كل يوم . وحملت أنا وأبى حقائبها الكثيرة .. كانت ترتدى معطفا جديدا ذا ياقة من الفراء وقبعة كبيرة من المخمل .. وقبلتنا ثم احتضنتنى ولكنها نظرت الى فاحصة وقالت :

ــ لقد كبرت على معطفك الصوفى يا سترلنج .. يجب أن تضع طاقية على رأسك .

كنت نظيفا ممشط الشعر ، فلم تشعر جيسكا بسخط كبير .. وسرنا الى المنزل وسط هواء شديد البرودة رغم الشمس الســـاطعة ، ومررنا بالمتاجر ونحن نضحك ونتحدث وتوجه مئات الاسئلة حتى وصلنا الى المنزل .. وعندما دخلنا غرفة الجلوس لم اكن أعرف هل ستضحك أم تبكى . كنت قد بذلت جهدى فى تزيين البيت ، ولكنها لمحت مع ذلك بعض الغبـار فوق الاثاث ، فقالت لأبى :

ــ لن تستطيع أن تستمر هكذا .. لابد من احضار مدبرة منزل متفرغة

فقلت لها : لقد عملت بكل جهـد

فى اعداد الشجرة والزينات ، كما اعددت قفصا لراسكال لابعاده عنها.

فضحكت واحتضنتنى بقوة .. ثم نظرت الى أبى وقالت وهى تتنهد :

ـ حسنا .. أظن اننى على الاقل استطيع أن أعد لكما بعض الوجبات المحترمة وانظف هذا البيت .

وفى عشية العيد ، نزعنا الاغطية عن هدايانا ، ثم وضعناها فى القارب الذى صنعته بيدى ، وكانت هدايا أبى فى المقدمة وجيسكا فى المؤخرة وهداياى فى الوسط ..وبعد العشاء أحضرنا الحيوانات : راسكال و « واوسر » واخيرا القطط ، وقد أحبت جيسكا راسكال على الفور ، ولاسيما عندما رأته يحاول الوصول الى الالعاب المعلقة فى الشجرة وبدأنا بتوزيع الهدايا على الحيوانات لانها كالاطفال لا تطيق الانتظار فحصل «واوسر» على طوق جديد ،وراسكال على حلوى وبندق ، ثم بدأ توزيع هدايا الاسرة وكانت فراء لجيسكا وطاقية من فراء القندس لأبى،وحذاء انزلاق لى .

وكانت هناك لفافة ضخمة لاتزال وسط القارب وقد كتب عليها : « من جيسكا الى سترلنج » وعندما رفعت الغطاء عنها وجدت هدية عجيبة .. قماشا ثقيلا ابيض يكفى لتغطية كل القارب الذى صنعته بيدى ، وكدت اجن فرحا لولا أن قالت جيسكا عندئذ :

ـ والآن نستطيع أن نخرج هذا القارب من غرفة الجلوس .

عودة الى البرارى

كنت أمارس الانزلاق ولعب الهوكى فى عطلات نهاية الاسبوع ، واصنع تماثيل صغيرة من الجليد ، واذا كان راسكال مستيقظا كنت أحمله على ظهرى حيث يمسك بشعرى ويحيط ياقة معطفى بمخالبه ، ثم يتمتع بأبدع ركوب ونحن ننزلق جيئة وذهابا فوق بحيرة كالتون المتجمدة.

واتممت اعداد القارب وكسوته بالقماش كما قمت بطلائه من الداخل والخارج بلون أخضر براق وفى شهر مارس بدأت أولى تباشير الربيع فى الظهور ، وكان الزورق على استعداد للنزول الى الماء .

وحققت جيسكا وثيو هدفهما ، فاصبح لنا مدبرة منزل متفرغة هى مسز كوين التى قيل انها صالحة من كل وجهة لهذا العمل ، فهى متوسطة السن ، دميمة الوجه ، نظيفة جدا .. وقد فحصت البيت بكل دقة قبل أن تتسلم العمل ، ثم طلبت غرفة نومى

لتنام هي فيها .. وقدمت لنا انذارا نهائيا : لا حيوانات في المنزل !

وبدا من المحزن أن أبي لم يستطع مقاومة مدبرة منزلنا الجديدة ، ومع انني جربت كل حيلة للتغلب عليها ، فقد أدركت في أعماقي أن شيئا لن ينقذ راسكال بعد الآن ، اذ كان عرضة لاطلاق النار عليه ، ولاسيما بعد أن أغار على بيوت الدجاج المملوكة لأحد جيراننا سريعي الثورة والغضب .. يضاف الى ذلك أن راسكال وقد بلغ مرحلة البلوغ لم يعد سعيدا تماما لوجوده لدينا . وقد سمعت ذات ليلة قمرية صيحات مفزعة ، فخرجت لأجد راسكال وأمامه « راقون » آخر وكل منهما يحاول الوصول للآخر من خلال الاسلاك .. وفي ليلة أخرى سمعت أصواتا مختلفة .. أصوات أنثى راقون وهي تحاول الوصول الى راسكال لأسباب غرامية وبدأت أدرك انه من الانانية أن أبعده عن حياته الطبيعية في الغابة .

وذات مساء دافيء قبل موعد وصول مسز كوين اتخذت قراري .. كنت أنا وراسكال ننام معا ونأكل معا على المائدة في غرفة الطعام ، ولم يكن سلوكه على ما يرام اذ كان يسير مباشرة فوق غطاء المائدة متجها الى اناء السكر حيث يرفع الغطاء ويأخذ ما يريد . وقلت لأبي اننا سنخرج بعد ظهر ذلك اليوم في رحلة طويلة بالقارب ، وأظن انه عرف ما أدبره اذ نظر الينا في عطف تام .

وأخذت معي بعض الشطائر والحلوى والتوت وبعض البندق ، وصحبت راسكال في القارب الى نهر « سوندرز » ، وسرعان ما بلغنا نهر روك واتجهنا صوب بحيرة « كوشكوندنج » وقد استغرق راسكال في النوم خلال الساعات التي قاومت فيها التيار ، ثم استيقظ قرب الغروب عندما وصلنا الى البحيرة نفسها في طريقنا الى رأس كوشكوندنج .

كانت أمسية يسطع فيها البدر الكامل - كتلك الليلة التي وجدت فيها صديقي الصغير بلا حول ولا قوة ولكنه الآن أصبح قادرا من نواح كثيرة .. قادرا على صيد كل الطعام الذي يحتاج اليه ، قادرا على التسلق والسباحة .. بل ويكاد يتكلم .

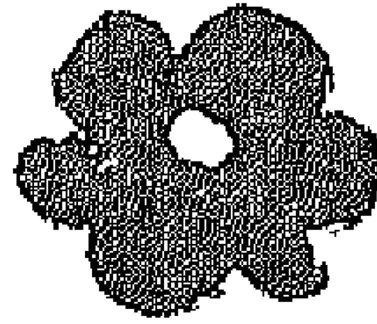
وعندما بلغنا مصب النهر ، جدفنا مع التيار في أعماق البراري ، وهناك نزعت الطوق عن عنق راسكال ، وجلسنا معا نصغي الى أصوات الليل ، حتى سمعت أخيرا الصوت الذي كنت

انتظره .. مناغاة أنثى الراقون .. وبدأ راسكال يتهيج ، وسرعان ما أجاب بصوت مناغاة أكثر عمقا ، وكانت الانثى تقترب الآن على حافة النهر وهى تطلق نداءاتها المتوسلة وهى تفيض حنانا .. وجرى راسكال نحو مقدمة الزورق محاولا ان يستشف النظر من خلال ضوء القمر والظلال ..

وقلت له : افعل ما تشاء ياصديقى الصغير .. انها حياتك انت .

وتردد برهة ، ثم استدار ينظر الى .. وأخيرا قفز الى الماء سابحا الى الشاطىء القريب .

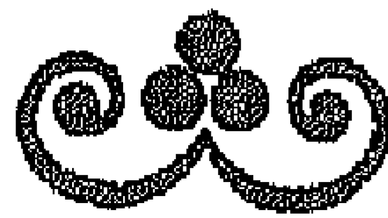
لقد اختار الانضمام الى تلك الانثى الساحرة فى مكان ما بين الظلال .. واختفيا معا عن العيون ! .



خبرة ..

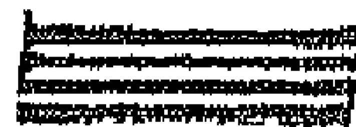
فى احدى المآدب التى اقيمت فى هوليوود ،قالت احدى الممثلات فى خبث لزميلتها جرير جارسون عندما وصل الشاى . ((تولى انت صب الشاى ياعزيزتى جرير لانك اعتدت تمثيل أدوار السيدات المحترمات)) .

فاجابت جرير جارسون : ((كلا .. بل قومى أنت بهذا العمل ، لانك قد تحتاجين الى هذه الخبرة يوما ما !)) .



امتياز !

قال أحد أهالى طهران ان ركاب سيارات الاجرة هناك يجلسون فى المقاعد الامامية حتى يستطيعوا مشاهدة الحوادث التى تقع بوضوح .. اذ تقع حوالى ٦ حوادث لكل جالون من البنزين فى طهران !

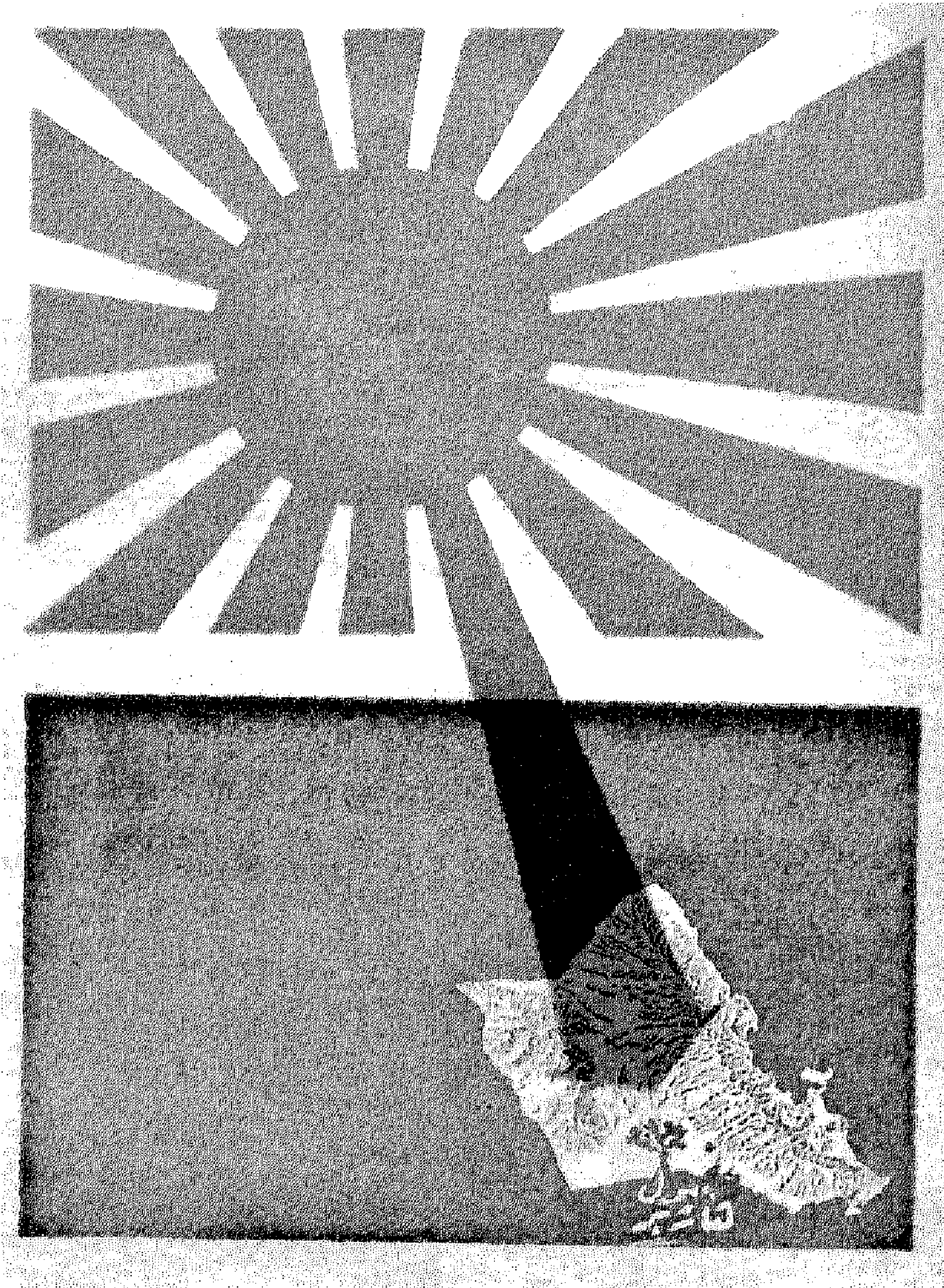


براءة !

على شاهد احد القبور فى مدينة ((الجين)) بولاية مينسوتا كتبت العبارة التالية : ((اسرة روبرت هالنيك ـ لم يعط احدنا قط صوته لروزفلت او ترومان !)) .

كتاب الشهر

هجوم فى الفجر



تلخيص كتاب TORA, TORA, TORA !

بقلم جوردون و. برانج

هجوم فى الفجر

قبل نشر هذا الكتـــاب ، ظلت القصة الكاملة الكيفية التى دبرت بها اليابـان ونفـذت هجومهـا الشائن على بيرل هاربون بين مآسى الحرب العـالمية الثانية الكبرى التىلم تذكر حتى الآن ٠٠ واليوم ، وبعد ١٧ عاما من بحث لا مثيل له ، يقدم جوردون برانج هـذا التسجيـــل الحقيقى للقصة ٠

كيف ارسلت اليابان اسطولاضخمايضم ٣١ سفينة حربية عبر ٣٥٠٠ ميل من المحيط دون ان يكتشـف أمره ؟ ٠٠ وكيف قامت حوالى ٣٥٠ طائرة بالهجوم الجوىعلى (جبــل طارق الباسيفيك) بمثل هذه المفاجاة المذهلة ؟ ٠٠

هاهى ذى الردود على تلك الاسئلةفى قصـــة ملتهبة عن الانتصار الذى تحقق بالخديعة وادى فى النهاية الى فاجعة كبرى ٠٠ وفيما يلى الجزء الاول من ملخص هذا الكتاب ٠

الطيارون اليـــابانيون يهرعون الى طائراتهم
ليستقلوها للعنـاية بالهجوم على بيرل هاربور



أسرعت ثلاث غواصات تشــــق امواج المحيط السوداء على مسافة مائة ميل امام المجموعة الرئيســـة للسفن ، وفى الوقت الذى كانت تسير فيه تحت الماء ، ظلت متنبة لاية اشارة الى المطاردة ، ومن ورائهـــا جاءت المدمرات والطـرادات والبـــوارج وحاملات الطائرات من اســـطول الهجوم نفســـه ، وانتشر التجمـــع الضخم عبر البحر مسافة ١٥٠ ميلا ، ومع ذلك فقد تاه الاسطول الضخم فى مجاهل الباسيفيكى التى لا نهـاية لها ، بعد ان قطع حوالى ٣٥٠٠ ميل من ميناء وطنه دون أن يكتشف امره

وعلى اسطح التحليق فى حاملات الطائرات ، اصـــطفت القـــاذفات والمقاتلات استعدادا للانطلاق ، وقد اتجهت انوفها صوب مقدمة السفن وكأنما هى تتلهف للتحليـــق ، وبدأ العمـــال الميكانيكيون وهم يروحون هنا وهنـــاك لاجراء الفحص الاخير لحركات الطائرات اشبه بأشبـــاح عفاريت صغيرة وسط الظلمة الكئيبة .. وكانت صناديق ذخيرة المدافـــع الرشاشة ممتلئة ، ووضعت القنابل والطوربيدات على حاملاتهـــا . .

وابتسم أحد الميكانيكيين عندما رأى أمامه رسالة مكتوبة بالطباشير على جانب احدى القنابل وقد جاء فيها :

(هذه القنبلة ستبدأ الحرب مع امريكا) ..

كان هـــذا هو الاسطول الجوى الاول للبحـرية الامبراطوريـــة اليابانية الذى كلف بالهجوم المفاجىء على بيرل هاربور ، . وكانت تلك



اميرال ايزوروكو ياماماتو
القائد العام للاسطول اليابانى المشترك

عملية مغامرة عسكرية خيالية ، قررت دولة يائسة ان تغامر عليها بمستقبلها

وفى الســـاعات التى تسبق فجر ذلك الصباح ـ ٧ ديسمبر ١٩٤١ ـ كان الجو على ظهر السفن اليابانية الحربية كئيبا يسوده الوجوم ، وكان

الطيارون القدامى الذين امضوا مئات الساعات فى الجو ، يحسون توتر الانتظار اكثر من الخوف ، اما الضباط الشبان الذين اتموا تدريبهم حديثا .. فقد اختلط خوفهم بالتأثر ، حينما سرت العصبية فى الطيارين غير المجربين على ظهر الحاملتين الجديدتين (شوكاكو) (وزيوكاكو) ... وعندما كانوا يبتلعون وجبتهم السابقة للمعركة ، وهى تتكون من الارز والشاى الاخضر ، احسوا بالطعام يتجمد فى معداتهم .

وبعد استماعهم الى الموجز الاخير للموقف ، توقف كثير من الطيارين أمام معبد صغير لآلهة (الشنتو) وانحنوا فى صلاة صامتة ، بينما ودع غيرهم زملاءهم من ملاحى السفن .

لم يكن الخوف مقصورا على صغار الضباط .. فان قائد الحملة كلها الاميرال (شويشى ناجومو) نفسه راح يذرع ارجاء مقصورته فى قلق ينتابه الارق طوال الرحلة . لقد كان مقتنعا منذ البداية ان الحملة مكتوب عليها الفناء ، بينما كان الضابط المكلف بالعمليات الجوية .. الكومندور مينورو جيندا يشعر بوطأة المسئولية المهيبة التى القيت على عاتقه ، ومع أنه كان محصنا عادة ضد القلق ، فانه فى الساعات الاخيرة السابقة للانطلاق كان يفكر فى خطر الشراك التى لايمكن التنبؤ بها . ان اليوم قد يسفر عن نصر عظيم ، أو فشل ذريع !

وقال جيندا لنفسه ان مستقبل ١٠٠ مليون من مواطنيه يتوقف على قراراته هو ..

ولكن احساسه بالهلع لم يدم طويلا .. اليس معه قائد لامع يقود الهجوم ؟ .. الا يشترك معه الجانب الاكبر من ابرع الطيارين اليابانيين من كل نوع ، اولئك الضباط الذين يتألقون فى اى سلاح جوى ؟ واحس جيندا اخيرا بالاطمئنان .. ان كل تلك الشهور التى امضوها فى التخطيط الدقيق والتدريب الشاق ، والتكتيك الدقيق سوف تؤتى ثمارها اخيرا . وشعر جيندا بالثقة تعود الى قلبه وهو يتطلع الى البحر الموحش المعادى ، وقال بعد ذلك : (لقد وجدت ان القلق قد زال عنى بصورة لاتصدق !)

وفى تلك اللحظة ، برز فوق هدير آلات السفن صوت اكثر خطورة .. انه ازيز محركات الطائرات ، فقد انطلقت طائرتان بحريتان بعيدتا المدى فى الجو لتقوما بمهمة استطلاع امامية فوق الاهداف المقرر مهاجمتها

لقد انطلق السهم من القوس . . ولم يعد فى استطاعة احد الآن ان يسترجعه . .

سجين التاريخ

لقد تم اعداد خطة ضرب (بيرل هاربور) والسير فيها فى وجه كل معارضة ابداها القائد العام للاسطول اليابانى المشترك الاميرال ايزوروكو ياماماتو . وكانت الظروف عجيبة ، فقد كان ياماماتو من المع واضعى الاستراتيجية ، وقد عارض الحرب صراحة ضد الولايات المتحدة ، فقد شاهد بنفسه قوة امريكا الصناعية عندما تلقى العلم فى جامعة هارفارد ، وعندما عين بعد ذلك ملحقا بحريا فى واشنطون .

وفى خريف ١٩٤٠ قال لرئيس وزراء اليابان : « اذا طلب منى ان اقاتل بغض النظر عن العواقب ، فسوف انطلق بكل قوة فى الشهور الستة الاولى ، ولكنى لا اثق مطلقا بما سيحدث فى السنة الثانية والثالثة . انى آمل ان تسعى لتفادى الحرب بين أمريكا واليابان »

فكيف امكن ان يضع الرجل الذى تنبأ بالنتائج بوضوح خطة الضربة التى عجلت بالحرب ؟

الرد على ذلك ، هو ان اليابان كانت قد التزمت فعلاً بالسير فى طريق لم يترك لياماماتو اى بديل . . لقد كان الرجل سجينا للتاريخ !

لقد كانت امبراطورية الجزر اليابانية دائما بلادا تتمتع بجمال لا مثيل له ، ولكن ارضها الجبلية لا تكاد تكفى لاطعام سكانها الذين يتزايدون بالملايين كل عام ، اوتزويدهم بالمواد الخام لصناعات اليابان القوية التى يستبد بها الطموح ، ومن ثم كان الحافز للتوسع قهريا . . دفع اليابان الى كوريا لتضم اليها أرض « الصباح الهادىء » فى سنة ١٩١٠ ، والى منشوريا فى ١٩٣١ ، والى الصين فى ١٩٣٧ ، ثم اكتنفتها فورة متأججة من الوطنية فى مثل شدة البحر الزاخر بالاعاصير الذى يحيط بارض الوطن غير الكريمة . . وهكذا اعمتهم الآمال فى مستقبل متألق ، فأغرتهم بالقيام بمحاولات انتحارية للفتح ، تفتقر الى العقل .

كان اليابانيون يحلمون منذ زمن بعيد بدعم امبراطوريتهم عن طريق استغلال الموارد الغنية فى الجنوب ، حيث الفلبين ، والملايو وجزر الهند الشرقية . وفى عام ١٩٣٩ عندما اصبح ياماماتو قائدا للاسطول المشترك ، كانت الفكرة المسيطرة

للاندفاع جنوبا قدتجسدت فيمشروع ضخم للغزو ..

كانت « حرب الصين » تسير ببطء في عامها الرابع دون حسم أو فائدة مستنزفة قوى اليابان ، وقد جعلت هذا الفتح أكثر رغبة ، بعد أن ازدادت الحاجة الى المعادن والزيت الحاحا ..

وقال الجنرال تيتشي سوزوكي رئيس مجلس تنمية آسيا : « أعتقد انه اذا امكن السيطرة على النقاط الرئيسية في المنطقة الجنوبية خلال ثلاثة أو اربعة شهور فسوف نتمكن من امتلاك البترول والالومنيوم والنيكل والمطاط والصفيح ، وغيرها بعد ستة شهور ، وسيكون في استطاعتنا الاستفادة تماما من هذه

الكومندور مينورو جفيدا
قائد الجو الياباني



المعادن بعد السنة الثانية من الاحتلال تقريبا » .

كان معنى تلك الخطوة الحرب ضد امريكا بكل تأكيد ، كما يعرف ياماماتو ، ولكن يجب الا نخطىء في امر واحد ، وهو أن ياماماتو كان وطنيا غيورا ، ويابانيا الى آخر نقطة من دمه . كان يحب امبراطوره ووطنه بحماسة متفجرة كالبركان ، وكان قلبه المقاتل يتبع تقاليد « الساموراى » الحقيقي : الواجب اولا . كان ياماماتو يؤمن يومئذ كأكثر أبناء اليابان ، ان اليابانيين جنس ممتاز ، اختارته العناية الالهية البعيدة النظر لمصير لا مهرب منه .. وهكذا كان من المنطق في اسلوب تفكيره أن تلعب اليابان دورا مسيطرا فيجماعة الدول الاسيوية .

وكان أكبر عقبة لعملية الجنوب هي الاسطول الامريكي ، فاذا كان العملية ان تنجح ، فلا بد من منع هذا التجمع من القوى البحرية الضخمة من المياه الجنوبية ، على الاقل خلال الشهور الحرجة الاولى .. فكيف يتسنى عمل ذلك ؟

كانت الطريقة التي تناول بها ياماماتو المشكلة متاثرة بتدريبه ومزاجه معا .. لقد كان خبيرا في

الطيران ، جسورا ، مفكرا أصيلا ، ومغامرا .. وكان يحب اقتباس الامثال ، ومن أمثاله المفضلة « اذا كنت تريد أشبال النمر ، فعليك أن تقتحم عرين النمر »

ولم يكن هناك مفر من أن تتجه عيناه الآن الى عرين النمر فى « بيرل هاربور » بجزر هاواى ، حيث توجد قاعدة الاسطول الامريكى فى المحيط الهادى .. فهل يتسنى تدمير هذا الاسطول قبل أن تبدأ عملية الجنوب ؟

فى أحد أيام يناير ١٩٤١ جلس ياماماتو فى مقصورته على ظهرسفينة القيادة « ناجاتو » وكتب رسالة لصديقه الحميم الاميرال تاكيجيرو اونيشى ، الذى كان من قواد الاسطول اليابانى القلائل ذوى العقلية الجوية. وبعد ان حذراونيشى بأن يبقى الموضوع سرا مكتوما ، راح يكتب بسرعة رسالة من ثلاث صفحات ، حدد فيها خطة هجوم جوى مفاجىء على بيرل هاربور .. وتساءل فى الختام : هل يعتقد أونيشى ان مثل هذا الهجوم ممكن ؟.. وطلب اليه أن يدرس المشكلات التى يتضمنها دراسة دقيقة .

صعب ولكنه ليس مستحيلا

كانت اول خطوة اتخذها الاميرال اونيشى ، هى دعوة الكومندور جيندا ، الضابط الطيار الذى يبلغ السادسة والثلاثين من عمره ويعمل على حاملة الطائرات (كاجا) . وكان جيندا ألمع طيار فى الاسطول اليابانى ، ذا وجه ارستقراطى يشبه الصقر ، له حاجبان كثيفان وأنف مستقيم



الاميرال شويشى ناجومو
قائد الحملة اليابانية

وذقن يبدو فيه الحزم ، وتسيطر على ملامحه عينان سوداوان نافذتان ، وكانت أفكاره تتسم بالجرأة والخيال وقد تأثر الى حد كبير بتاكتيك طيران الاسطول وتصميمه .

وعندما عرض عليه اونيشى رسالة ياماماتو ، قرأها جيندا فى تأمل ،

وعلى الفور راقت له فكرة ياماماتو الجريئة الاصيلة وقال : « انالخطة صعبة ولكنها ليست مستحيلة » .

وقالاونيشي لجيندا : «انياماماتو يعتمد كثيرا على سحق الروحالمعنوية الامريكية ، بتركيزالهجوم علىالبوارج واغراق اكبر عدد منها » .. وعلى الرغم من ان حاملات الطائرات كانت متفوقة كوحدات ضاربة ، فان اغلب الامريكيين ما زالوا يعتبرون البوارج العمود الفقرى الحقيقى للاسطول ، ومن ثم فقداعتقد ياماماتو انتدميرها سيوجه ضربة نفسية تصيبهم بالشلل .

وكانت فكرة ياماماتو أيضا ــ على الرغم من غرابتها ــ ان الطائرات المغيرة لن تعود الى حاملاتها ، وبهذا لن تكون هناك حاجة لاقتراب الحاملات الى حد خطير ، بل انها تستطيع العودة الى الوطن بعدتحليق الطائرات منها فورا .. وبعد قيام الطيارين بهجومهم ، عليهم ان ينزلوا بطائراتهمفىالماء حيثتلتقطهم المدمرات والغواصات .. وقد افترض ياماماتو ــ بسذاجة نادرة ــ انه اذا استخدم مثل هذا النوع من الهجوم ، فسوف يتخيل الامريكيون أن اليابانيين شعب فريد فى نوعه ، لا يخاف ، وانه لا فائدة من قتالهم ؟

ولكن جيندا نسف هذه الافكار فورا .. قال ان الهدف الاولسيكون حاملات الطائرات الامريكية ، نظرا لانها تمثل الخطر الاكبر على الاسطول اليابانى ، وللحصول على افضل النتائج ، فان على كلحاملات الطائرات اليابانية ان تقترب الى اقربنقطة مستطاعة منبيرلهاربور . وقال ان الهجوم بلا عودة سيكون له اثر نفسى سيىء على الطيارين ، كما أن الهبوط بالطائرات فى منطقة العدو سوف يكون تبديدا لامبرر له لطائرات وطيارين على قدر كبير من التدريب ، فضلا عنانعودةالحاملات الى الوطن بدون طائراتها سيؤدى الى كارثة اذا قام الامريكيون بهجوم مضاد .

وعاد جيندا الى حاملة الطائرات «كاجا» ورأسه يتفجر أفكارا ، وشرع فى العمل فورا ، وبعد أسبوعين قدم الى أونيشى مسودة كاملة للهجوم المقترح .

قال انه يرى انه يجب أن تشترك فى الهجوم كل حاملة طائرات يمكن الحصول عليها ، وانه يجب أنيتم قرب الفجر ،حتىيكون الاقتراب تحتستار الظلام ، كما يجب أن تشتركطائرات من القاذفات المنقضةوأخرىذاتارتفاع

كبير ، وطائرات لالقاء الطوربيد ، ومقاتلات ، كما ينبغي أن تكون لقاذفات الطوربيد الاولوية على قاذفات القنابل لانها أكثر تدميرا وأكثر دقة . ومع أن مياه بيرل هاربور ضحلة جدا بالنسبة لاى طوربيد يابانى يومئذ ، فقد ظل جيندا متمسكا برأيه ، قائلا ان هذه المشكلة يجب أن تحل .

وأقر أونيشي كل أفكار جيندا تقريبا ، وأضاف اليها بعض أفكار من عنده ، وأرسلت المسودة الى ياماماتو فى أوائل مارس ، وفى خلال شهر بدأ تنفيذها باتباع فكرة ستراتيجية كان طيارو الاسطول يحبذونها منذ وقت بعيد ، فقد تم توزيع خمس حاملات للطائرات الى قوات منفصلة ، ثم تجميعها مع عشر مدمرات ، اثنتان مع كل حاملة وذلك لتكوين الاسطول الجوى الاول .. وقد واجهت هذه الحركة معارضة قوية من قواد الطرادات الذين كانوا لا يعرفون شيئا عن خطة « بيرل هاربور » ـ ولو عرفوا بها لما اقروها ـ ومع ذلك فقد ظل ياماماتو يسير قدما فى مشروعه ، ومنذ ذلك الحين راح جيندا يعمل لاعداد العملية كشخص سيطرت عليه فكرة ما يعيشها كل يوم وكأنه راهب يتعبد فيها .

كان ياماماتو يود أن يقود الاسطول الجديد بنفسه ، ولكن نظرا لانه لا يمكن الاستغناء عنه فى منصبه ، فقد أسند المنصب الى الاميرال «شويشي ناجومو» وذلك على أساس من الاقدمية ، اذ كان « ناجومو » بحارا من الطراز القديم الذى لا خيال عنده ، ولكنه كان خبيرا معروفا فى الملاحة والمناورات البحرية ، ولم يكن لعمله الطويل المشرف أدنى صلة بالطيران ، وعندما أبلغ بخطة بيرل هاربور ذهل .. ان ارسال قوة هجوم ضخمة عبر ٣٥٠٠ ميل فى محيط ثائر الى معقل العدو أمر يتطلب نظرة دقيقة لما يتضمنه من أخطار .

وكان ناجومو يرى أن مجرد الوصول الى هاواى دون أن يكتشف أمرهم ، والتزود بالوقود خلال الطريق ، وهى عملية عسيرة فى أفضل الظروف ـ والوصول الى هناك وفقا لجدول دقيق ، كل ذلك مشكلة لا يمكن التغلب عليها .. ولما كان نجاح الاغارة يعتمد كلية على المفاجأة ، فان احتمال اكتشاف القوة يمكن أن يكلف اليابان الكثير من أسطولها ، مع خسارة الحرب فى يوم واحد .

الامبراطور يتكلم

وعلى الرغم من آمال «ناجومو» ، فان الزحف نحو الحرب ظل مستمرا

بلا هوادة .. ففى أواخر يوليـو ، فرضت اليابان « حمايتها » على الهند الصينية الفرنسية ، واحتلت عناصر من « نظامها الجديد » الجزء الشمالى من البـلاد فعـلا ، وتحركت بسرعة لاحتلال البلاد كلها ، وبعد أيام قلائل أمر الرئيس روزفلت بتجميـد كل الارصـدة اليابانية فى أمريكا ومنع السفن اليابانية من نقل أو تفريغ أية شحنة من الموانى الامريكية ، وكانت أمريكا قد أوقفت فى الخريف السابق شحنات الحديد والخردة الى اليابان ، وها هى الآن تمنع مبيعـات البترول الامريكى لليابان واتخـذت هولنـدا وبريطانيا خطـوات ممـاثلة . وقالت صحيفة يابانية : « لقد أعلنت الحرب الاقتصادية فعلا ، وليس من الصعب تصور ما سيحدث بعد ذلك »

فى ٦ سبتمبر جمـع الامبـراطور هيروهيتو قواد اليابان فى مؤتمر لبحث الموقف من جميع نواحيه ، وتجمعوا حول مائدة طويلة مستطيلة فى القاعة الشرقية الاولى بالقصر الامبراطورى ، وكان الامبـراطور يجلس على رأس المائدة ، وجلس جلالته صامتا بينمـا افتتح نوميمارو كوفوى رئيس الوزراء المؤتمر بتـلاوة مشروع تخطيـطى للسياسة القومية ، تضمن ما يأتى :

١ ــ أن الامبراطـورية عازمة على المخاطرة بالحرب مع أمريكا وبريطانيا وهولندا لتحقيق أهدافها الاقتصادية ، وستتم الاستعدادات للحرب فى أواخر اكتوبر .

٢ ــ حتى ذلك التاريخ المؤقت ، ستحاول الامبراطورية تحقيق مطالبها عن طريق التفاوض .

ولكن الحـد الادنى لمطالب الدولة سبب فشل المفاوضات ، اذ أن تحقيقها سوف يضمن لليابان امبراطورية قوية بينما يغل أيدى أمريكا وبريطانيـا وهولندا فى الشرق الاقصى .

ونهض القواد بعد ذلك واحـدا بعد آخر لمناقشـة الموقف ، وقد أكدوا جميعا الحاجة الى الاستعجال ، اذ ينبغى على اليابان أن تعمل وهى لا تزال تملك مخـزونا من المواد الضرورية بعد أن أصبح من المستحيل تعويضه بسبب عداء بريطانيا والحظر الامريكى . وأشـار الجنرال تيتشى سـوزوكى مثلا الى انه لم يبق من تموين البترول الا ما يكاد يكفى اكثر قليلا من عام واحد .

وكان آخر من تكلم هو البـارون يوشميسى هارا ــ نيابة عن الامبراطور ــ فقال أن خطوط السياسة القوميـة تبرز أهمية الحرب ، وان الدبلوماسية

اصبح لها المقام الثانى ، فهل أنا على حق اذا أعتقدت ان كلَ شيء ممكن قد عمل لانقاذ الموقف بالوسائل الدبلوماسية ؟

وساد صمت قصير .. ثم أكد الاميرال كوشيرواويكاوا وزيرالبحرية على عجل ان ذلك قد حدث ، ولكن يبدو انه لم يكن مقتنعا ، وهنا وقف الامبراطور نفسه — وسط دهشة الجميع — ليتكلم فى المؤتمر .

لم يسبق من قبل أن تحدث الامبراطور بنفسه فى مؤتمر امبراطورى ، ومع ذلك فقد وقف الرمز الحى للامبراطورية ، الامبراطور الرابع والعشرون لليابان ، ينشر « اشعاعه المقدس » .. وأخرج من جيبه قصيدة عنوانها : « جوانب البحرالاربعة » كتبها جده الامبراطور ميجى ..

وراح هيروهيتو يتلو القصيدة فى لهجة جدية بالغة وبصوت مرتفع بينما الكل يمسك أنفاسه :

« أعتقد أن كل شعوب العالم أخوة

« فلماذا اذن تكون الامواج

« والعواصف مضطربة هكذا اليوم ؟ »

وقال الامبراطور لمستمعيه انه قرأ القصيدة مرة بعد أخرى .. فلماذا لا يكون ممكنا ادخال مثل جده الاعلى فى السلام الدولى فى الموقف الحالى ؟

وتبع ذلك سكون يسوده التوتر ، الى أن رد رئيس أركان حرب القوات البحرية أخيرا بقوله ان القيادة العليا عرفت بكل تأكيد أهمية الدبلوماسية ، وانها لم تؤيد القوة المسلحة الا

الجاسوس الياباني يوشيكاوا في آواهو



باعتبارها ملجا اخيرا ، وردد رئيس اركان حرب الجيش هـذا الراى ، ولكن الامبراطور لم يقتنـع وتأجل المؤتمر « فى جو من التوتر لم يسبق له مثيـل » كما كتب رئيس الوزراء يومئذ .

هؤلاء الامريكيون الذين يعتقدون ان هيروهيتو كان فى اسـتطاعته ان يعترض على خطـة بيرل هاربور اذا شاء او اذا كانت له شخصية اكثر قوة .. هؤلاء لايفهمون حقيقةموقف الامبراطور المعقد ، فهو لا يستطيع الا أن يقدم النصح ، ويقر الامور ، وعليه ان يكون مع حكومته صـيانة لوحدة الامة ..

ومع ذلك ، فان الامبراطور لم يكن حتى هذه النقطة يعرف شـيئا عن الهجوم المقترح على بيرل هاربور !

ثورة القواد البحريين

كانت المناورات البحرية السنوية الداخلية التى تجرى بنماذج سـفن على الخرائط فى المبنى الكبير للكلية البحرية فى طوكيو تجـرى عادة فى نوفمبر أو ديسـمبر . ولـكن نظرا لاهمية الموقف فقد تقرر تقـديم موعدها الى ١١ سبتمبر ، ووافقت أركان الحرب البحرية بعد تردد على أن الاسطول الجوى الاول يسـتطيع ان يقوم بتجربة نظرية للهجوم على بيرل هاربور .

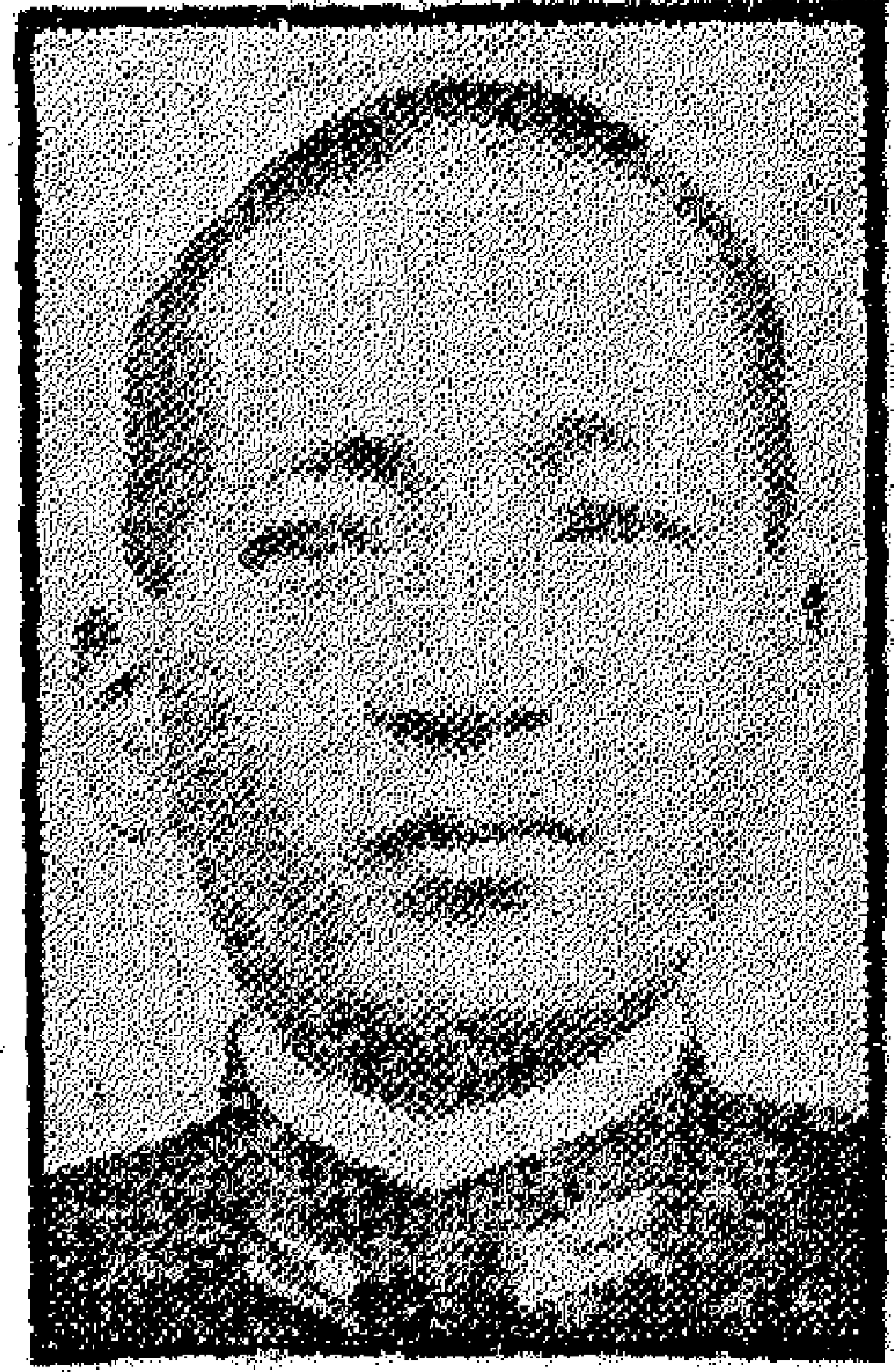
كان جينـدا الذى لا يكل قد أعد ثلاث وسـائل ممـكنة للاقتراب من «اواهو» : الاول طريق جنوبى وآخر من الوسط ، والثالث شمالى . وكان الاخير هو اقصرها واقلهـا طرقا بوساطة السفن ، ولكن ناجومو كان يؤيد الطريق الجنوبى ، مصر على أن الجو السـيىء فى أواخر الخـريف سيجعل الطريق الشمالى مستحيلا

وقال جيندا : « اذا كنت تراه سيئا ، فلا تنس ان القوادالامريكيين سـيعتقدون نفس الشىء » ووافق ناجومو علىاستخدام الطريقالشمالى فى التدريبات .

كان الهجوم الاولى فاشلا نسبيا ، فقد قام الفريق الاحمر الذى يمثل أمريكا بالاجراءات الدفاعية الامريكية المتـوقعة ، ورأى قوة ناجومو فى الصباح الباكر ، وحلق المهـاجمون فـوق سماء (أواهو) يسرب من طائرات المطاردة ، وقرر الحكام أن ناجومو فقد نصـف طائراته ، وان حاملتين غرقتا بينما أصيبت بقيـة الوحدات فى الهجوم المضـاد الذى تبع الهجوم اليابانى .

ونجحت المحاولة الثانية بصـورة

أفضل، فقد أقبلت من الشمال مباشرة بتوقيت دقيق جدا ، جعلها بعيدة عن مدى طائرات الاستطلاع الامريكية خلال ساعات النهار ، ولم يرها الاسطول . فكان الهجوم مفاجئا ، وقرر الحكام أن خسائر أمريكا كانت فادحة ، وأن القوة المهاجمة أفلتت



الكومندر ميتسو فوشيدا
قام باعداد خطة الانقضاض على بيرل هاربور

دون خسارة عدا بعض الطائرات التى أسقطت .

والعجيب أن هذه المظاهرة أثارت معارضة قوية للمشروع ، فقد رأى بعض النقاد ان الخطة كلها متهورة بصورة لا مبرر لها ، بينما رأى آخرون ـ وعيونهم تتجه الى عمليات الجنوب ـ انها وحدها سوف تنستنزف موارد اليابان البحرية الى أقصى حد .. واخيرا اقتنع قواد البوارج بأن من الخطأ الاعتماد على السفن ، اذ كانت دروعها رقيقة ، وكذلك الحال فيما يتعلق بحاملات الطائرات .

ياماماتو يلعب ورقته الرابحة

هناك صورة لياماماتو فى عنفوان قوته ، تكشف عن رجل قصير ـ حتى بالنسبة للمقاييس اليابانية ـ طوله ١٦٠ سم كتفاه عريضتان ، وصدره عريض يزدحم بالاوسمة والنياشين ، وكانت صورته هزلية فيماعدا وجهه ، فقد كان ممتلىء الشفتين مستقيم الانف ، كبير العينين ، شعره أشيب قصير .. كان وجه رجل مقاتل ذى ارادة قوية .

وعندما سمع الآن هذه الثرثرة ضد بيرل هاربور ، استدعى ياماماتو حوالى ٥٠ من قواد اسطوله فى يوم ١١ اكتوبر للاجتماع على ظهر سفينة قيادته « ناجاتو » لمراجعة خططهم الحربية . وبعد تجارب للمناورات استمرت طيلة اليوم ، اجتمعوا على السطح فى مؤتمر أخير ، وهناك أكد لهم ان لكل منهم أن يقدم كل ما لديه من مقترحات بشأن بيرل هاربور .

وراح القواد يرددون شكوكهم واحدا بعد الآخر .. ان الوقت

يجرى بسرعة خطيرة بالنسبة للعمليات فى شمال المحيط الهـادى ، كما أن الامواج العـالية والجو السـيىء سيجعلان التزود بالوقود مستحيلا ، فضلا عن أن روسيا السـوفيتية جديرة بالمراقبـة .. حتى الاميرال أونيشى الذى أطلعـه ياماماتو على الخطة سرا فى يناير ، أصبح يعتقد الآن انها خطة غير حكيمة بالطائرات الموجودة على ظهـر حاملات الطائرات فى ذلك الحـين . وتكلم ناجومو فى النهاية ، فتحدث باسهاب عن الاخطار التى تواجه الخطة . ثم قال : « ماذا يحدث اذا كان الامريكيون مستعدين تماما ، واستدرجوا اليـابانيين الى فخ فيه كارثة ؟ »

وقال جيندا ان الاحساس العـام بين كبار الضـباط ، هو أن الوقت متـأخر تماما ، فقد تدهور الموقف السياسى الى حد ان الاسطول الامريكى يقوم بالاسـتعداد لمواجهة هجـوم مفاجىء ..

واختفت آخر قطعة من الشمس الغاربة فى الافق عندما نهض ياماماتو ، وبدأ حديثه ببطء ولكن بعزيمة بادية . وكان قد سجل النقاط التى ذكرت وقال انها ستكون موضـوع بحث ، ولكنه كان يدرس الموقف الاستراتيجى كله منذ وقت بعيد .. ان العملية ضد هاواى ضرورية لاسـتراتيجية اليابان الكبرى ، وبدونها سوف يفشل الاندفاع جنوبا ، ومن ثم فانه يريد منهم أن يفهموا شيئا واحدا ، وهو : « ما دمت قائدا عاما للاسـطول المشترك ، فسوف نهاجم بيرل هاربور »

أوضح هذا البيان الجو تماما .. وعرف كل قائد فى الاسطول انه لن يحدث أى نزاع أو شكوى بعد الآن ، وأن اليابان اذا قاتلت ، فسيـذهب الاسطول للحرب فى وحدة متماسكة لشن حملة جهاد كبرى .

تجسس على أواهو

منذ ذلك الحين ، ازدادت عمليات التجسس اليابانية فى هاواى . لم تعد التقارير المنتظمة عن وجود البوارج الامريكية فى الميناء تكفى ، بل أصبحت طوكيو تريد معرفة مكان وقوف كل سفينة بالضبط وأسـئلة عديدة عن الدوريات الجوية ومواقع الطائرات .

وكثير من هذه المعلومات كانت تتم بوسـائل قانونية تماما ، فقد كون بعض أعضاء القنصلية اليابانية فريقا ممتازا لهذه المهمة ، كان نجمه كاتبا شابا يسمى نفسه «تاواشى موريمورا» وان كان اسمه الحقيقى هو «تاكيو يوشيكاوا » وهو ضابط صف سابق

بالاسطول الامبراطورى .

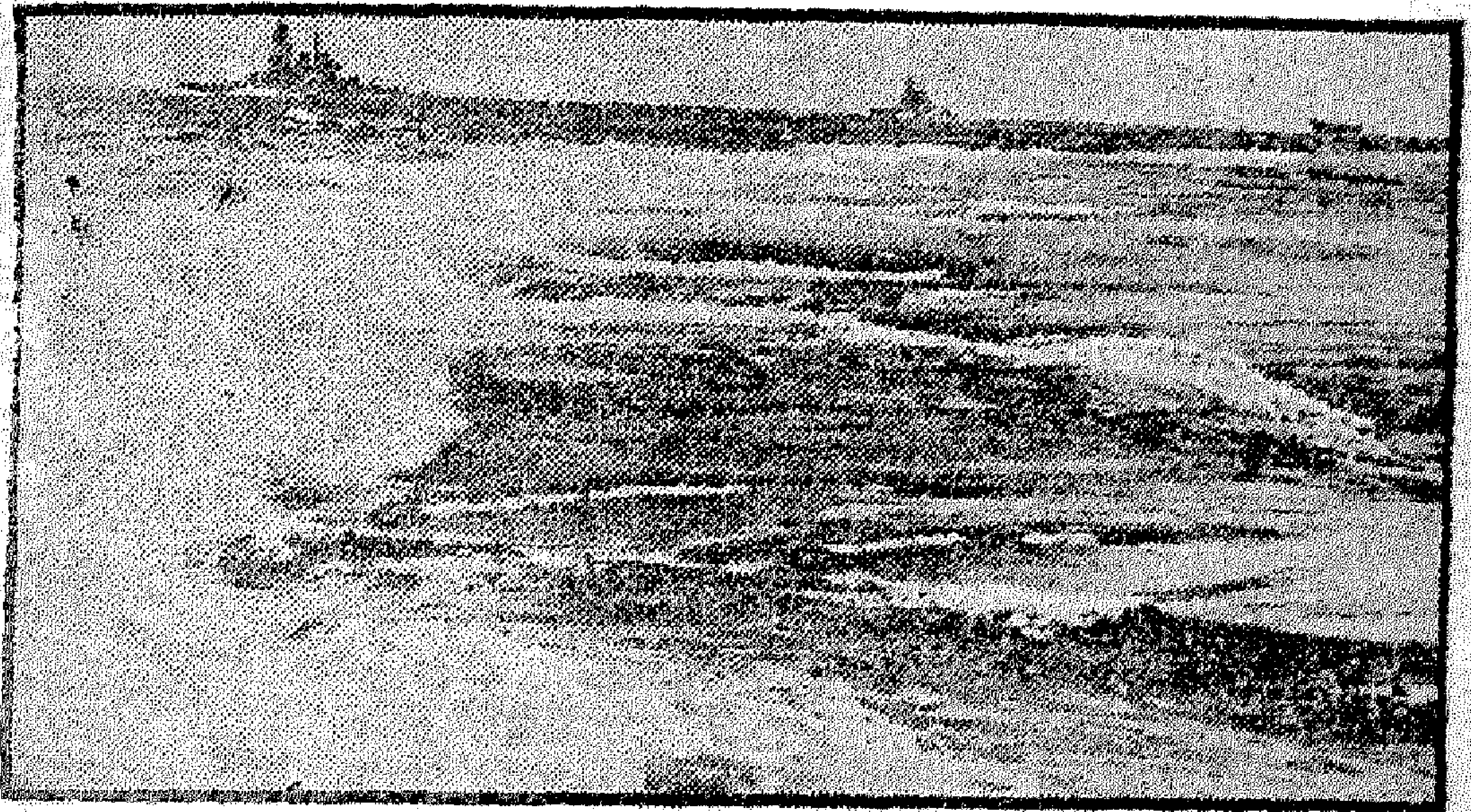
وعندما وصل يوشيكاوا الى هاواى فى ٢٨ مارس ١٩٤١ اتصل بالقنصل العام ناجاو كيتا الذى نقل حديثا الى هونولولو للعمل معه . وكان يوشيكاوا شابا فى التاسعة والعشرين يبدو أصغر من سنه ، متوسط الطول ، لا يظهر عليه قط أنه من أبرع الجواسيس بل يبدو ساذجا من النوع الذى يناديه من هم اكبر سنا « يابنى » وتتكالب عليه الفتيات ، ولم تكن له خبرة سابقة كعميل ، كما انه فقد المفصل الاول فى سبابته اليسرى وهو تشويه يجعل التعرف عليه وتذكره سهلا ، وقد دهش كيتا من ارساله للقيام بهذا العمل .

ولكن طوكيو لا ترتكب أخطاء فى مسائل كهذه : فقد كان افتقار يوشيكاوا للخبرة من مزاياه ، اذ لم يرد اسمه قط فى قوائم الملحقين الذين يثيرون شكوك المخابرات الامريكية ، كما كان اعداده للعمل نموذجيا . وكانت التعليمات التى صدرت ليوشكاوا بسيطة . ان عليه أن يصبح خبيرا فى الاسطول الامريكى بالباسيفيكى وقواعده فى جوام ، ومانيلا ، وبيرل هاربور ، وأن يجيد الانجليزية . وقد ظل طوال أربع سنوات وهو يدرس « دليل جين » للسفن المقاتلة والطائرات . ويلتهم الصحف والمجلات الامريكية والكتب الفنية حتى أصبح يعرف كل سفينة حربية وكل طائرة أمريكية بالاسم ورقم الهيكل والشكل والخصائص الفنية .

وفى أواخر ١٩٤٠ طلب منه دخول اختبارات وزارة الخارجية فى اللغة الانجليزية ليتسنى تعيينه دبلوماسيا صغيرا ، تغطية لمهمته الحقيقية ، وبعد تعيينه فى منصب اسمى فى هونولولو ، سجل لدى وزارة الخارجية الامريكية باعتباره مستشارا للقنصلية . وشرع فى العمل فورا ، فكان يطالع صحف هونولولو من أولها الى آخرها يوميا ، مهتما بصفة خاصة بأنباء الملاحة والاخبار الاجتماعية الخاصة بالضباط والبحارة الامريكيين ، وأتاح له سيره على قدميه كل يوم فى أرجاء بيرل هاربور نظرة شاملة لجزيرة (فورد) ومطارها الصغير . وكان يتوقف مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع ليتناول وجبة خفيفة فى مطعم صغير يديره يابانى عجوز على الميناء فى نهاية شبه جزيرة بيرل سيتى وهى مواجهة تماما لجزيرة فورد ، وأقرب مكان يستطيع الوصول

اليه الى بيرل هاربو .
وهنا استطاع أن يعرف أشياء كثيرة بالمراقبة المباشرة ، كمعرفة مدى السرعة التي يخرج بها الاسطول من الميناء ، وهل يتزود بامدادات جديدة ؟.. وفى الليل كان يتردد على الحانات التى يؤمها البحارة

مذكرات متبادلة ثم يحرقانها ..
وكانت حركة السياحة الى هاواى تكفل ليوشيكاوا فرصا كثيرة ، حتى حظرت امريكا كل تجارة مع اليابان ، اذ كان يقابل كل سفينة يابانية قادمة، ويحيط ببعض اليابانيين الذين يهبطون الى الميناء ليقوم معهم بجولة



وحدات من الاسطول اليابانى عبر الباسيفيك الى بيرل هاربور

والجنود الامريكيون ويصغى الى ثرثرتهم عن العمل ، ولا يوجه اية اسئلة مباشرة تجتذب الانتباه اليه
وكان توشيكاوا يقدم تقاريره الى كيتا فى ساعة متأخرة من الليل بعد أن ينام بقية أعضاء القنصلية ، يتناقش فيها الاثنان سرا بكتابة

سياحية فى الجزيرة تتيح له تغطية العدد الاكبر من الجولات التى يقوم بها دون اثارة أى شك حوله .
ومن بين الاماكن التى كان يتردد عليها كثيرا ، مطعم (مد الربيع) اليابانى الواقع على مرتفعات «آليوا» التى تشرف على مشهد رائع لبيرل

هاربور ومطار هيكام ، وكان يدعى أحيانا انه ثمل تماما ، فيحمله مدير المطعم الى غرفة تطل على الميناء ليقضى فيها الليل .. وفى احدى المرات شاهد الاسطول وهو يقلع من الميناء فى الصباح الباكر ، واستطاع أن يقدر الوقت اللازم لخروجه ونوع المناورة التى يستخدمها ، وموضع كل سفينة ، وهى معلومات مهمة جدا لطوكيو .

وفى ٧ أغسطس ، عندما أقامت قاعدة هويلر الجوية مهرجانا دعت اليه الجمهور ، كان يوشيكاوا من بين من قبلوا الدعوة بلهفة ، وشاهد كل شيء ، وكتب انطباعاته بمجرد عودته الى القنصلية ..

العملاق النائم

هل كان القواد الامريكيون يدركون أن بيرل هاربور كانت هدفا محتملا ؟

.. بكل تأكيد .

فقد كتب فرانك نوكس وزير البحرية فى ٢٤ يناير ١٩٤١ يقول : « اذا نشبت الحرب مع اليابان ، فالمعتقد أنه يمكن بسهولة أن تبدأ العمليات الحربية بهجوم مفاجىء على الاسطول أو القاعدة البحرية فى بيرل هاربور »

وبعد ثلاثة أيام - بعد أسبوعين من عرض ياماماتو خطته على اونيشى - بعث جوزيف جرو سفير امريكا فى اليابان برقية بالشفرة الى الخارجية الامريكية قال فيها : « سمع زميلى سفير بيرو من كثير من الاوساط ، - وبعضها يابانى - أن هجوما مفاجئا على بيرل هاربور يجرى اعداده فى حالة وقوع متاعب بين امريكا واليابان ، وقال انه نقل الى ذلك لانه سمعه من عدة مصادر وان بدت الخطة خيالية »

ونقلت وزارة الخارجية هذه المعلومات السرية - التى تعد من اعظم المعلومات السرية فى التاريخ - الى وزارة البحرية التى عرضتها على الاميرال هاسنبد كيمل القائد العام للاسطول الامريكى فى الباسيفيك ومعها هذا التعقيب : « أن ادارة المخابرات البحرية لا تصدق قط هذه الشائعات .. وعلى أساس المعلومات المعروفة عن مواقع وتوزيع الاسطول اليابانى والقوات المسلحة الآن لايبدو ان هناك اية خطة وشيكة ضد بيرل هاربور او فى المستقبل القريب »

ومع ذلك ، ففى رسالة سرية من الاسطول الامريكى فى الباسيفيك فى ١٥ فبراير ، افترض كيمل « أن

اعلان الحرب قد يسبقه هجـــوم مفاجيء على السفن فىبيرلهاربور» . كما ورد هــــذا الافتراض فى ثلاثة تقارير دقيقة كتبت فى عام ١٩٤١ ، آخرها عن دراسة « الموقف الجوى فى هاواى » وقد أعده الـكولونيل وليم فارذنج قائد الفرقة الخامســة للقاذفات فى السلاح الجوى بهاواى . وهذه الوثيقة أرسلت لوزارة الحربية فى ٢٠ اغسطس ، وقد افترضكاتبها أن اليابان قد تشن هجوما مفــاجئا على بيرل هاربور ، قد تستخدم فيه ٦ حاملات للطائرات ، وقال أن انسب وقت لشن هذا الهجوم هو الفجر ، والجهة التى يحتمل ان يأتى منهــا هى الشمال !. ولاحباط مثل هذا الهجوم ، أوصى التقــرير باجراءات دفاعية مختلفة ، وان تقوم دوريات جوية بعمليــات شــاملة للبحث فى منطقة هاواى تغطى ٣٦٠ درجة خلال النهار » .. ولكى يقوم سلاح هاواى الجــوى بذلك ، كان فى حاجة الى ١٨٠ طائرة من طراز (ب ــ ١٧ د) أو قاذفات أخرى ذات أربعة محركات لها مدى مماثل »

ولكن الســــلاح الجوى للجيش الامريكى لم يكن يمتلك هذا العــدد من القلاع الطائرة ، وكانت الطائرات الممكن الحصول عليها مكلفــة بالعمل فى الفلبين وبريطانيا ومنطقة الاطلنطى ، حيث كانت السياسة مركزة لانزال الهزيمة بالنازى ، وهكذا فانه عندما وجه اليابانيون ضربتهم فى ٧ ديسمبر ، لم يكن لدى السلاح الجوى الامريكى غير ١٢ طائرة من طراز (بـ ١٧) فى هاواى .

وفى صــــيف ١٩٤٠ حل خبراء الشفرة الامريكيون الشفرة اليابانية الدبلوماسية ــ وكانت تلك من أبرع الضربات فى تاريخ المخابرات ــ وهكذا أصــــبحت تقـــارير يوشيـــــكاوا الجاسوسية وردود طوكيو عليهـــا والسيل الكامل من الرسائل من والى السفارة اليابانية فى واشنطون مفتوحا كله أمام أمريكا ، ولكن هـــذا الكنز الثمين ظل دفينا على الرغم من ذلك وتكدست الرسائل الحيوية المضبوطة دون ترجمة ، وكانت تبقى أحيانا أكثر من اسبوع قبل توزيعهـــا ، وكانت اغلب أعمال المخابرات ناقصة بسبب عدم الكفاءة والقلق بشـــأن حماية المصــــدر ، ولما كان النشر قد يؤدى الى اثارة شك اليابان فى حل شفرتها فقد كانت المعلومات تحجــز فى كثير من الاحيان عن أولئــك الذين هم فى مسيس الحاجة اليها .

وكانت العلاقات الامريكية الكامنة مع اليابان تبخس قدر هذا الشعب الموهوب بطريقة محزنة ، فقد كان الياباني بالنسبة لاغلب الامريكيين رجلا ضئيلا يثير السخرية ، له أسنان كالارنب ، وعوينات ذات اطارات عاجية سميكة ، دؤوبا على العمل ولكنه حر في التفكير ، مقلد لايقدر على الابتداع ، وزعم الذين جعلوا من أنفسهم خبراء أن تكوين عيونهم الغريب يجعل اليابانيين من أضعف الطيارين .. وجاء في تقرير دبلوماسي في منتصف العقد الرابع : « في قنوات آذان اليابانيين عيب طبيعي ينتج احساسا مختلا بالتوازن » .

كانت اليابان نمرا من الورق ، أداتها الحربية ركيكة وطائراتها خليط من آلات مختلطة ، وسفنها الحربية « ثقيلة جدا ومن مرتبة ادنى .. » واذا وقع نزاع كبير فسوف تتحطم امبراطوريتها الهشة ، كما تلقى كوبا من الشاى على حائط حجرى .. ومدن اليابان المصنوعة من الورق المقوى تجعلها اكثر دول العالم عرضة للهجوم الجوى باعتبارها «حلم قاذفة القنابل » ! .. والاكثر من ذلك انها كانت تعاني من فقر دم عسكري مزمن ، اذ أن شريان حياتها يتدفق في النهر الكبير المسمى الصين ، ومن ثم فان تحديها لقوة أمريكا سيكون انتحارا قوميا .

أما فيما يتعلق بالقلعة الامريكية في وسط الباسيفيك التي تكلفت الوف الملايين من الدولارات ، فهي في أمان واطمئنان .. وقد كتب وزير البحرية ، وفلتشر برات مراسل الشئون البحرية لاحدى الصحف قبل يوم « الاحد الدموى » بتسعة شهور : « لعل بيرل هاربور هي أفضل قاعدة بحرية في الدنيا اليوم ، فليس هناك ماهو افضل منها موقعا واحسن دفاعا أو افضل تموينا » .. وأضاف الصحفي كلارك بيتسن في ٦ ديسمبر يقول : « ان الهجوم الياباني على هاواى هو أكثر شيء غير محتمل في العالم ، مع فرصة في النجاح تعادل واحداً في المليون » ..

وراح خبراء التكهنات وهواة الاستراتيجية يتحدثون بلا انقطاع عن خرافة الدفاع « بيرل هاربور المصيتة » و « جبل طارق الباسيفيك » .. وأخيرا شاهد الخريف .. — كأنما بحيلة سحرية مضللة — الامريكيين وهم يديرون ظهورهم لبيرل هاربور ليواجهوا الازمة

التى تتزايد فى الاطلنطى ، اذ كانت معركة ممرات الملاحة هناك قد بلغت الذروة فى ٤ سبتمبر عندما أطلقت غواصة المانية طوربيدها على مدمرة امريكية قرب ايسلاند .. وفى ذروة الهياج الذى تبع ذلك ، تراجعت اليابان الى الصفحات الاخيرة ، ولم تعد قط الى العناوين الرئيسية الا فى ٧ ديسمبر .

وفى ١٢ سبتمبر كتب كيمل الى الاميرال هارولد ستارك رئيس العمليات البحرية يقول : « لايزال الباسيفيك جزءا مهما جدا من الموقف الدولى » ولكن ستارك أجابه مهدئا : « اننى شخصيا لا أعتقد أن اليابانيين سوف يهاجموننا » .

كانت تلك هى الحالة الذهنية السائدة بصفة عامة .. وبينما كان الامريكيون يثبتون انظارهم على الاطلنطى ، نسوا أن الباب الخلفى كان مفتوحا !

اعداد الاسلحة

فى أواخر سبتمبر بدأ جيندا تدريب طيارى الاسطول الجوى الاول بصفة خاصة على الضربة التى ستوجه الى بيرل هاربور . كانت المهمة ضخمة ، وزاد من ضخامتها الحاجة الى السرية المطلقة مما يجعل من المستحيل أن يذكر للطيارين الهدف الذى يتدربون من أجله . وكانت هناك أنواع مختلفة من الطائرات : قاذفات تحلق على ارتفاع كبير وطائرات طوربيد ، وقاذفات منقضة ومقاتلات ، يجمع توحيدها فى قوة ضاربة تستطيع التحليق فى تشكيل كبير كامل ، لايضم ٤٠ أو ٥٠ طائرة بل عدة مئات ، وكان الوقت الباقى لانجاز ذلك قصيرا ..

واختار جيندا لقيادة هذه القوة زميله بالكلية البحرية الكومندور « ميشو فوشيدا » الذى كان فى التاسعة والثلاثين . وقد اشترك فى حرب الصين ، وطار أكثر من ٣٠٠٠ ساعة ، وقد اشتهر بانه من أبرع طيارى اليابان وأكثر ضباط البحرية اليابانية عملا . وعندما حدثه جيندا عن مشروع بيرل هاربور ، شرع فى العمل فورا ..

وأثبت الرجلان أن كلا منهما مكمل للاخر ، فقد كان فوشيدا يحول أفكار جيندا الجريئة اللامعة الى حقيقة عملية بصبر بالغ .. وكان جيندا — ككثير من الموهوبين — يعتبر ذكاءه شيئا عاديا ، وينفد صبره مع من يقل عنه ذكاء ، ولم تكن اللباقة من صفاته مما جعله يفتقر الى موهبة

اجتذاب الناس ، وكان يحظى بالاعجاب أكثر من الحب على عكس فوشيدا ، الذى كان يتمتع بالدفء المغناطيسى بالفطرة ، وكان رجاله يحبونه بوحى الغريزة ويكادون يعبدونه .. وقد اجتذب الاسطول الجوى الاول زبدة طيارى البحرية الموهوبين ، ولم تكن ادارة مثل هؤلاء الرجال الاقوياء المرهفى الحس شيئا يسيرا ، ولكن فوشيدا استطاع السيطرة عليهم منذ البداية .

وأعد فوشيدا برنامجا شاقا للتدريب رجاله على الانقضاض لالقاء القنابل بدقة بالغة من ارتفاع منخفض ، واستخدام القاذفات التى تحلق على ارتفاع شاهق . ولم يكن لدى اليابان مثيل لجهاز نوردن لتصويب القنابل ، وكان التصويب يعتمد على ابصار العين فحسب واحساس فطن باللحظة المناسبة ، ولكن الكثير أمكن انجازه عن طريق التدريب البارع بلا هوادة . وقد اختار فوشيدا احد طيارى قذف القنابل البارزين لطائرة المقدمة فى كل سرب للقاذفات ، وظل ينمى دقة توقيتهم بالتدريب الذى لا ينقطع حتى حقق فى النهاية نتائج طيبة . وفى مسابقة لالقاء القنابل ، أقيمت فى ٢٤ اكتوبر ، وكان الهدف سفينة تسير فى طريق منعرج بسرعة وخلال ريح قوية ، حققت القاذفات ٥٠ فى المائة من الاصابات . وقدر فوشيدا أنه اذا كانت السفن راسية ، فان تشكيل الطائرات الخمس نفسه قد يحقق اصابات بمعدل ٨٠ فى المائة .

نوع جديد من الطوربيد

فى اول اجتماع عقده الضباط على ظهر السفينة « اكاجى » وتحدث فوشيدا فيه عن خطة بيرل هاربور حدد جيندا المشكلات فيما يتعلق بهجوم الطوربيدات . كانت السفن الامريكية ترسو فى صفوف مزدوجة والسفن التى فى الوسط لايمكن الوصول اليها على الاطلاق ، فضلا عن أن المرسى كان ضيقا الى حد أن السفن الخارجية كانت على مسافة ٤٨٠ مترا فقط من الشاطىء الآخر للميناء . ولم يكن لدى اليابان أى طوربيد فعال فى مثل تلك الظروف ، وكان عمق الماء فى بيرل هاربور هو ١٢ مترا فقط . ومهما حلقت طائرة الطوربيدات على ارتفاع منخفض ، فان الطوربيد سوف يغوص ٢١ مترا على الاقل تحت سطح الماء قبل أن يبدأ سيره مما يجعله يغوص فى الطين دون أن يحدث ضررا .

وراح الفنيون يعملون بحماسة ، لانجاز طوربيد يجري فى المياه الضحلة ولا شك أن نجاحه سيجعله أكثر وسائل التدمير فعالية ، ولكن فوشيدا بدأ تدريب الطيارين على أية حال .

واختير خليج كاجوشيما للتدريب لانه يشبه بيرل هاربور كثيرا ، كما أن فى الخليج بركانا حيا ارتفاعه ١٢٠٠ متر يمثل جزيرة فورد ، فضلا عن تماثل كاجوشيما فى ظروفها مع أرصفة البحرية الامريكية .

وبدأ تدريب الطيارين على اطلاق الطوربيدات فى مياه ضحلة على السفن الراسية فى المياه ، ولم تكن دقة تصويب الطوربيد تسبب قلقا لفوشيدا ، فان السفن الامريكية الضخمة الثابتة ، سوف يمكن اصابتها كأهداف بعد أن يصبح لدى اليابانيين طوربيد خاص للمياه الضحلة .. وقال فوشيدا لرجاله ان التدريب سيتم على الحركات فقط نظرا لعدم وجود طوربيدات جاهزة للتدريب .

كانت التعليمات التى ذكرها تثير الذهول : كان على الطيارين ان يرتفعوا مسافة ٢٠٠ متر ويتجمعون شمال المدينة ثم يبدأون فى الاتجاه نحو الخليج بسرعة ، وبينما الطائرات تتجه جنوبا ، عليها أن تهبط على ارتفاع ٤٠ مترا حتى تلمس الاشجار .

كان ذلك صدمة مذهلة للطيارين الذين عرفوا تمسك فوشيدا بقواعد الامان وآداب الطيران ..

وتتالت بعد ذلك التدريبات على ارتفاعات أقل لاتزيد على ٢٠ مترا ، واطلاق الطوربيد على هدف يقع على مسافة حوالى ٤٨٠ مترا من الشاطىء .. ولا شك أن أتفه خطأ قد يقذف بالطائرة فى الخليج .

وقال فوشيدا : « بعد اطلاق الطوربيد ، على كل طيار أن يرتفع الى اليمين ويعود الى القاعدة » ..

وقال محذرا : ان هذا العمل قد يكون صعبا فان مسافة التصويب قصيرة ، وهناك عقبات كثيرة سوف تواجه مثل هذا التحليق على ارتفاع منخفض .. ولما كان الاجراء كله يتطلب توازنا بين الشجاعة والدقة ، فقد اختير الكومندور موراتا لاجراء المناورة .. وكان موراتا هو بطل الاسطول فى القاء الطوربيدات .

وانتحى فوشيدا بموراتا جانبا ، وسأله : « أتستطيع أن تفعلها ؟ »

وكان كمن يسأل الشيطان عما اذا كان يستطيع أن يرتكب اثما ؟

وقد دهش أهل كاجوشيما كثيرا عندما شاهدوا ذات يوم سربا يتدفق

من الوادى الى البحر طائرة بعـــد اخرى وهى تـكاد تلمس سـقوف البيوت .

واستمرت تدريبات القاءالطوربيد يوميا وبدأ أهـل كاجوشيما يتولاهم اليأس من النظام فى البحرية ، وكأن السلطات تشجع الطيـارين على أن يمرحوا فى جو المدينة كما يشاءون ، وفى غضون ذلك كل جينـدا يضغط على ادارة الابحاث الخاصة بالبحرية مطالبا بانتاج الطوربيد الخاص بالمياه الضحلة الى أن استطاع الفنيون بعد اختبارات عديدة انتاج الطوربيـــد المطلوب .. وتقرر اجـــراء تجربة لاطلاقه تحت الماء .

ونجحت التجـــربة وان لم يكن النجاح كاملا .. وعنـــدما أصبحت الدفعة الاولى من الطوربيدات الجديدة جاهزة ، لم يصل غير حوالى نصفها الى العمق المطلوب ، ولكن المزيد من التجارب رفع هذه النسبة اخيرا الى ٨٠ فى المائة .

وقد حدث هذا التحسن فى الوقت المناسب .. وعلى الرغم من التعجيل بالانتاج فان الثلاثين طوربيدا الاولى لم يتم تجهيزها الا فى منتصف أكتوبر ، والمائة الاخيرة لم تسلم الا فى أواخر نوفمبر .. ويومئذ اضطر العمـــال للبقاء على ظهر حاملات الطائرات عند التقائها فى جزر كوريل لاتمام تجميعها الاخير هناك .

((البقية فى العدد القادم))



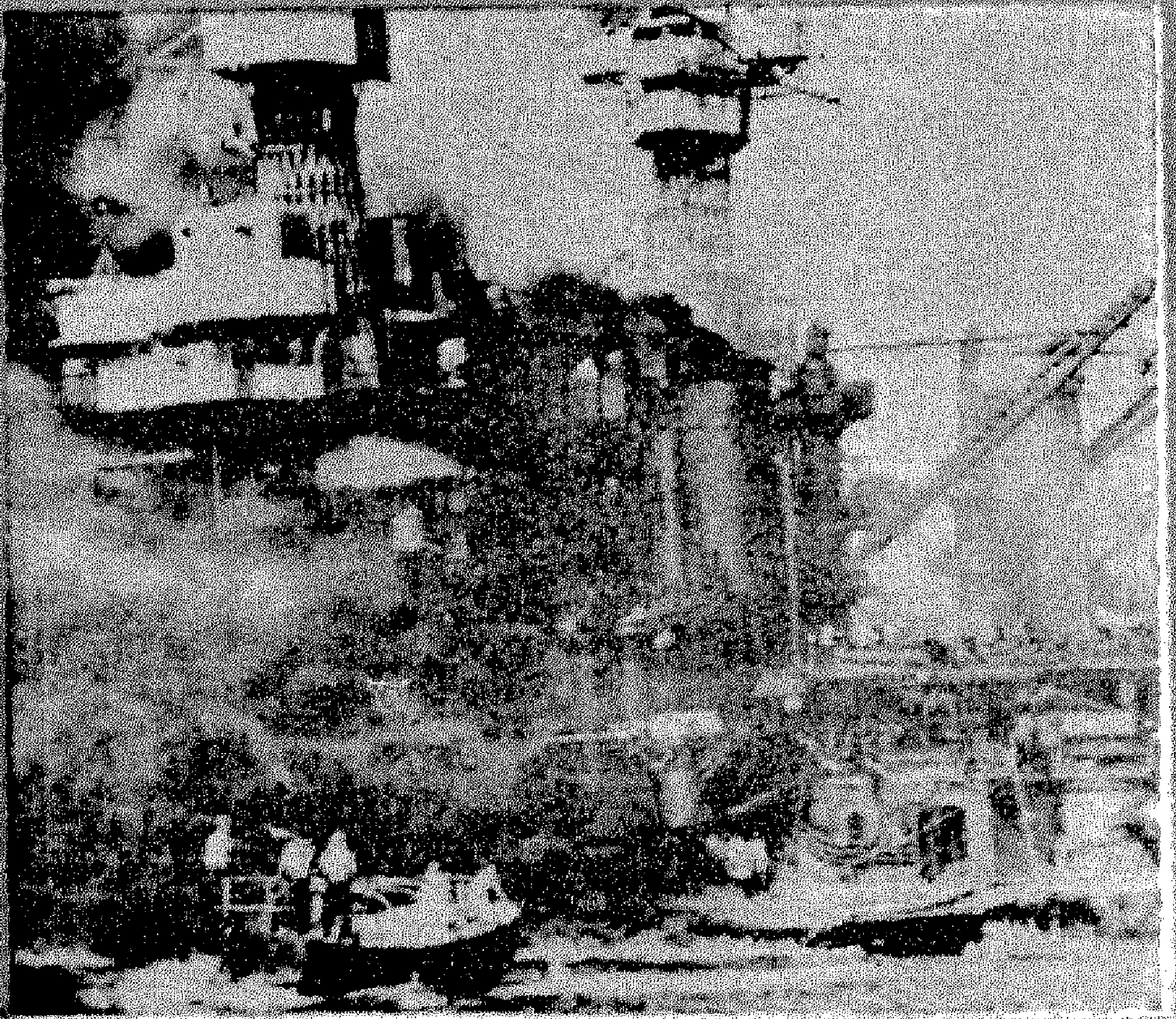
منفعة ..

قالت العروس الشابة وهى تبكى :
ــ اننى لااستطيع ان احتمل اهانات زوجى الشنيعة .. لقد جعلنى عصبية الى حد اننى فقدت الكثير من وزنى ..
فقالت عمتها : ولماذا لاتتركينه ؟
فقالت العروس : سوف افعل .. ولكنى انتظر حتى ينخفض وزنى الى ٥٠ كيلو جراما!

كتاب الشهر

هجوم في الفجر "٢"

القصة الحقيقية للهجوم على بيرل هاربر تنشر لأول مرة



تلخيص كتاب TORA, TORA, TORA

بقلم جوردون براتج

هجــوم فى الفجــر (٢)

ان قصة بيرل هاربور يجرى سردها على هذه الصفحات كما لم تسرد من قبل ومن خلال عيون الرجال الذين تحملوا الهجوم ، والذين صنعوه ، تعاد قصة القتال الملتهب الحارق دقيقة بدقيقة ، وقنبلة قنبلة .. لقد غرقت ١٨ سفينة او اصيبت بتلف بالغ فى ذلك اليوم المشئوم ، وقتل ٢٤٠٣ رجال ، وذهب معهم عصر من فنون القتال .. لقد كتبت بيرل هاربور النهاية لعصر البارجة الحربية ، كما انها كانت بداية النهاية لحكم اليابانيين فى الغزو .. ففى ٧ ديسمبر ١٩٤١ استيقظت دولة عظيمة ساخطة وبدأت كفاحا دمويا طويلا لاعادة اليابانيين الى وطنهم ..

ان كتاب جوردون برانج الزاخر بالحركة يعد تحفة من تحف الحديث عن الحرب ، ويبدو انه لن تكتب قصة اخرى اكثر صدقا وشمولا عن بيرل هاربور من هذه القصة ..

وفيما يلى الجزء الثانى من ملخص هذا الكتاب العظيم .

كتب « سان تسو » الخبير الصينى العسكرى الذى حظى باعجاب كبير فى اليابان .. يقول : « اذا ترك العدو بابا مفتوحا فلابد أن نندفع منه » وهاهى ذى الولايات المتحدة قد تركت الباب مفتوحا قليلا فى هاواى ، فاندفع اليـــابانيون ليوجهوا منـــه ضربة جاسوسية اخيرة ..

وفى سبتمبر بدأت حكومة طوكيو مفاوضات تهدف الى تخفيف الخطر الامريكى على الشحنات الى اليابان .. وبعد أسابيع من المفاوضات بين السفير اليابانى كيشيبا بورو وكوردل هل وزير الخارجية الامريكية ، تم الاتفاق على السماح لثلاث سـفن ركاب يابانية بالاقلاع من اليابان الى هاواى وامريكا على شريطة الا تحمل شـــحنات تجارية ، وقدمت امريكا

جوردون برانج مؤلف الكتاب هو استاذ التاريخ بجامعة ماريلاند ، وقد خدم فى الحرب العالمية الثانية ضابطا فى البحرية الامريكية . وفى عام ١٩٤٥ عين فى الحـــكومة العسكرية الامريكية فى طوكيو

وعاد بعد تسريحه من الجندية ليعمل مؤرخا مدنيا لفريق الاحتلال الذى راسه الجنرال ماك ارثر ، وامضى ٦ سنوات فى اليابان ، حيث عرف عن كثب كثيرين من اليـــابانيين الذين قاموا بادوار رئيسية فى الهجوم على بيرل هاربور .

ومن افواههم ، ومن محادثات اخرى لاتحصى مع يابانيين وامريكيين ، فضلا عن البحث المرهق فى السجلات .. خرجت هذه القصة التى لم تروَ من قبل .

هذا التنازل بنية حسنة للمساعدة على تخفيف التوتر القائم ، واسرعت اليابان الى استغلال الموقف .

ورست (تاتوتا مارو) أولى السفن اليابانية فى هونولولو فى ٢٣ اكتوبر ، وبعد قليل صعد اليها القنصل اليابانى العام حيث سلمه الربان مظروفا مغلقا من اركان حرب البحرية تطلب اليه عدة اشياء بينها اعداد خريطة تفصيلية عن مكان وحجم وقوة كل منشأة عسكرية فى أواهو . كما ذكرت ان هناك بعثة خاصة سوف تصل قريبا لاخذ الخريطة ، والتحدث معه حول مسائل اخرى على جانب كبير من الاهمية .

كانت البعثة تتكون من الكومندور (سوجورو سوسوزكى) الخبير فى القوات الجوية الامريكية فى الباسيفيك والكومندور (توشيدى ميجيجا) خبير الغواصات ، وكان عليهما ان يقررا الموقف فى بيرل هاربور لتقديم تقرير شخصى لاركان حرب البحرية

وواصلت (تاتوتا مارو) سفرها بعد ذلك الى امريكا ، وتبعتها (تايو مارو) التى تحمل سوزوكى وميجيجا وكان مسموحا لها بالوصول الى هاواى فقط ، وقد شرح متحدث حكومى ذلك للصحفيين الاجانب فى طوكيو بانها (مسألة ملاءمة فى جدول المواعيد) .

وفى ٢٢ اكتوبر اقلعت (تايو مارو) من يوكوهاما ولم يرد اسما سوزوكى وميجيجا ضمن قائمة الركاب بل ورد اسم الاول باعتباره مساعد الصراف . . والثانى على أنه طبيب السفينة، وما كادت تبتعد عن الارض حتى اتجهت شمالا واتبعت الطريق الذى تقرر شن الهجوم منه على بيرل هاربور . . وقد ظل الاثنان يحدقان فى الافق طوال الرحلة فلم يشاهدا سفينة واحدة طوال الرحلة الى هاواى . . كان الجو يبشر بالخير ، اغلبه سماء رمادية مع ضباب يكفى ليكون ستارا رقيقا لاخفاء السفن ، ولم تظهر طائرات الدورية الامريكية الا على مسافة حوالى ٨٠ ميلا من (أواهو)

وبلغت (تايو مارو) ميناء هونولولو فى الثامنة والنصف من صباح السبت أول نوفمبر ، وكان التوقيت مرسوما بدقة ، فقد كان اليوم هو عطلة نهاية الاسبوع ، والساعة هى المحددة للهجوم تقريبا ، والقت السفينة مراسيها عند الرصيف رقم ٨ على مقربة من برج (اكوها) واستطاع الضابطان اليابانيان بالمناظير المقربة من المؤخرة مراقبة بيرل هاربور

والمنطقة المحيطة بها باستمرار .

وبقيت السفينة فى الميناء خمسة ايام لم يغادرها خلالها سوزوكى وميجيجا وفقا للاوامر حتى لايراهما احد من المسئولين الامريكيين او يثيرا الشكوك حولهما ، ولم يزرهما القنصل العام كيتا غير ثلاث مرات احضر معه خلالها عضوين من القنصلية لحمل المواد من السفينة أو اليها حتى اذا فتشه رجال مكافحة الجاسوسية الامريكية فجأة ، لم يجدوا معه شيئا

ولم يسمح كيتا للجاسوس الكبير يوشيكاوا بالاقتراب من السفينة حتى لا يقتفى رجال المباحث الامريكية أثره ، ولكن سوزوكى سلم كيتا اسئلة كثيرة ليجيب عليها (يوشيكاوا) ، وكان بينها ما تريد اركان حرب البحرية معرفته عن تأهب(أواهو) وهل يستطيع الامريكيون ان يهبوا للقتال بعد اخطار سريع أم انه فى الاستطاعة مفاجأتهم وهم نيام .. وكانت الردود مطمئنة .

وقدم يوشيكاوا الخريطة المفصلة ورد على كل الاسئلة بوضوح ، وسلمت الى الخبيرين اليابانيين على ظهر السفينة بسلام ، وابحرت (تايو مارو) عائدة لليابان فى ٥ نوفمبر .. ورغم التفتيش الدقيق لركابها فى هونولولو ، فلم يعثر على شىء مع أحدهم .

موعد فى جزر كوريل

بلغت خطوات الاستعداد ذروتها الآن .. وفى ٦ نوفمبر اجرى فوشيدا التجربة الاخيرة الهجوم على بيرل هاربور من كل ناحية مستطاعة ، مستخدما قوة تضم ٦ حاملات طائرات واكثر من ٥٠٠ طائرة وكانت السفن التى تمثل الهدف على مسافة ٣٠٠ كيلو متر كما سيحدث فى (أواهو) . وقد اسفرت تجربتان سابقتان عن نتائج سيئة جعلت الاميرال (ياماماتو) غير راض ، كثير الانتقاد ، اما هذه التجربة الثالثة الشاملة فكانت متناسقة تماما ..

وافرغت السفن كل الاشياء غير الضرورية فى قواعدها كالقوارب الصغيرة والارائك والمقاعد الزائدة والحاجات الشخصية وذلك لاعداد السفن للمعركة واخلاء مكان للمزيد من الوقود .

واتخذت تدابير أمن مشددة لاخفاء موعد رحيل اسطول الهجوم عن الشعب اليابانى وصدرت الاوامر لاحضار الثياب الشتوية والصيفية معا حتى لا يعرف ان الاسطول يتجه شمالا وفى سبيل اخفاء أمر خروج

كل هذه الطائرات من حاملات الجنود .. صدرت تعليمات للوحدات الجوية القريبة بارسال رحلات جوية كثيرة فوق القواعد الجوية والمدن لاخفاء الغياب المفاجيء للطـائرات ، مـع تشجيع الوحدات الساحلية على منح اجازات لاكبر عدد من رجالها حتى يشاهد كثير من الملاحين فى الشوارع

وكان على الاسطول نفسه أن يراعى الصمت اللاسلكى التام خلال سفره .. على أن يزداد حجم الرسـائل والتعليمات بمجرد انطلاق الاسطول .. ولكن البحرية كانت تحشد حركة صورية منذ اسابيع كثيرة حتى لا يلاحظ ازدياد النشاط اللاسـلكى ولكى يبدو ان كل شيء يسير وفقـا للمعتاد .

وفى امسـية ١٧ نوفمبر ركب (ياماماتو) وأركان حربه السـفينة (اكاجى) التى القت مراسيها بخليج (سايكى) وهى تتمنى للاسطول حظا سعيدا . ولاحظ فوشيدا أن ياماماتو يبدو حزينا مكتئبا ، فاعتقد انه لا يحبذ الحرب مع أمريكا ، كما ان الكلمة التى القاها كانت خالية من حماسته المعهودة اذ قال للرجال فى اقتضـاب انه على الرغم من ان اليابانيين يأملون فى تحقيق المفاجأة ، فان على كل منهم أن يكون مستعدا لمقاومة امريكيـة رهيبة . وقال ان اليابان واجهت خصوما كثيرين اقوياء فى تاريخها المجيد : المغول والصين والروس ، ولكنهم سـيواجهون الآن اقوى الخصـوم واوسعهم حيلة .

وعقب الخطاب اقيمت مادبة وداع سادها جو جاد ثقيل بعض الشيء ، ولكن خلال الحفل كشف ياماماتو عن شعوره الحقيقى . قال (اننى اتوقع نجاح هذه العملية) وكانت التقاليد تقضى بان يكتفى القائد بالاعراب عن أمله فى نجاح المهمة فقط ، .. واخيرا شرب الجميع نخب الامبراطور .

وماكاد الليـل يجن حتى اظلمت (اكاجى) ورفعت مراسيها ، وتسللت الى البحر فى سكون تصحبها مدمرتان .. كما غادرت مجمـوعات مماثلة الميناء متفرقة على الساحل ، بعضها يسير على مقربة من الشاطيء الآخر بعيدا الى مسافة تصل الى ١٠٠ ميل ، كانت فى مجموعها تبلغ ٣١ سفينـة بينها ٦ حاملات طائرات وبارجتـان ثقيلتان وطرادة خفيفة وثلاث غواصات و ٩ مدمرات و ٨ ناقلات جنود .. وكانت آخر من غادرت قاعدتها حاملة الطـائرات (كاجا) التى بقيت فى ساسيبو لاصلاحها .

كان المكان المحدد للقاء هو خليج (هيتو كابو) وهو منطقة صخرية باردة تقع فى (ايتورفو) احدى جزر كوريل التى يسودها الضباب الدائم .. وتقع على مسافة حوالى الف ميل شمال طوكيو فى بحار يقل السير فيها، وهى مخبأ نموذجى كالمخابىء التى كان القراصنة يستخدمونها فيما مضى ، ولا توجد اية حياة فى المنطقة غير قريتين لصيادى الاسماك . وقبل وصول قوة (ناجومو) قطعت فجـأة كل الاتصالات التليفونية والبرقية والبرية مع العالم الخارجى .. وهناك فى عزلة تامة تجمعت اكبر قوة بحرية احتشدت حتى ذلك الحين .. فى انتظار اوامر اخرى .

مهمتنا هى ..

شرع ناجومو فى العمل فورا .. ففى الساعة الثامنة بعد ظهر ٢٢ نوفمبر ، استدعى اركان حربه الى غرفة تحوطها حراسة شديدة على ظهر (اكاجى) حيث توجد نماذج لبيرل هاربور واواهو ، وكل المعلومات التى تم جمعها عن هذين الهدفين المرتقبين .. وكان على الكوماندور سوزوكى ان يطلعهم هنا على مهمته الاخيرة التى قام بها فى هاواى .

وأصغى الجميع فى اهتمام عندما بدأ سوزوكى حديثه . كان اكثر ماذكره عن بيرل هاربور ليس جديدا ولكنه ابرز ان الاسطول الامريكى اعتاد العودة الى قاعدته فى عطلة نهاية الاسبوع ، كما وصف المطارات بدقة وتفصيل ، وقوة الجزيرة الجوية بمحتوياتها المختلفة (وقد غالى فى تقدير قوة الجيش الجوية بنسبة ١٠٠ ٪ تقريبا اذ قال ان هناك ٤٥٥ طائرة فى اواهو مع انه لم يكن فيها غير ٢٣١) .

وجلس ناجومو صامتا لا يتحرك كالتمثال طوال حديث سوزوكى ، ولكنه استوعب كل نقطة ، وعندما انتهى سوزوكى وبدأت الاسئلة ، اثير كل ماكان يقلق ناجومو من احتمالات .. هل يحتمل اكتشاف امرهم فى الطريق .. وحالة تأهب العدو .. واحتمال الضربة الانتقامية ... وما هى فرص عدم وجود الاسطول الامريكى فى بيرل هاربور ..

ولم يكن سوزوكى يأمل فى تبديد كل مخاوف ناجومو الزمنة .. فهو لايستطيع الا ان يكرر ماسبق ان قاله لهيئة اركان حرب البحرية فى طوكيو .. وهى ان الحقائق فى القضية تبدو مؤيدة للعملية .

وكانت النقطة الوحيدة التى تثير



الطيارون اليابانيون يتلقون تعليماتهم الاخيرة قبل الانطلاق الى اواهو

القلق فى تقرير سوزوكى هى افتقاره الى معلومات دقيقة عن حاملات الطائرات الامريكية . وسأله جيندا وفوشيدا عنها باهتمام ، وكانا يخشيان الا تجد القوة هذه الاهداف ذات الاهمية الاولى ، ولم يكن فى استطاعة سوزوكى أن يقدم لهما ، أى تأكيد

وفى الساعات الاولى من الصباح التالى المشرق كانت (أكاجى) تعج بالضجيج كخلية نحل بينما كان ضباط كل سفينة فى القوة يتدفقون على سطحها لعقد مؤتمر خاص ، وازدحمت غرفة الحرس بضباط القيادة والشخصيات المهمة بكل سفينة وكل اعضاء قوات الهجوم الجوية .

واستهل ناجومو الاجتماع باعلان ان مهمتهم هى الهجوم على بيرل هاربور .. وسرت موجة تأثر فى اعصاب الجميع .. وانتشرت همهمة من الاصوات كانت تلك أول مرة يكشف لهم فيها صراحة عن هدف الحملة .

وقال ناجومو انه ليس مؤكدا تماما ان الهجوم سوف يتم .. فان المفاوضات بين امريكا واليابان اذا نجحت فسوف يصدر الامر للقوة بالعودة ، اما اذا ظلت العلاقات

تسير فى طريقها الحالى الذى يخلو من الامل ، فلن يكون هناك بديل غير تنفيذ الهجوم ، وعلى كل رجل عندئذ ان يبذل كل ما فى وسعه لضمان نجاحها ..

وبعد ان اوضح رئيس اركان حرب ناجومو طبيعة العملية بصفة عامة ، تحدث عن الاحتياطات التى تجب مراعاتها ، وواجب كل وحدة خلال الرحلة الخطرة الى بيرل هاربور .. ثم بدأ اجتماع الطيارين ، وتحدث (جيندا) حوالى ساعة محددا طرق العمل لمواجهة كل احتمال ممكن .. ثم واصل فوشيدا وموراتا وغيرهما المناقشات .

وخلال الامسية ، ناقش الطيارون الذين سوف يشنون موجتى الهجوم كل وجه محتمل للهجوم من البداية للنهاية حتى لايترك شىء للظروف نظرا لانهم هم ورجالهم معرضون للموت

القوة ترحل ..

فى ٢٥ نوفمبر وصلت الرسالة التى كان يخشاها (ناجومو) .. لقد أمره ياماماتو بالاقلاع فى اليوم التالى: (سيحدث الهجوم الاول فى فجر يوم × ـ سيذكر فى تعليمات تالية) .

(فى حالة الوصول الى اتفاق فى المفاوضات مع امريكا ستعود القوة فورا الى اليابان ..)

وبدأت الرحلة الخطرة قبل فجر يوم ٢٦ نوفمبر .. كانت السفن تطويها غلالة من الضباب فبدت كالاشباح وهى تنطلق من مرساها .

ومضت الايام الاولى فى البحر دون حادث ما .. كان الجو مثاليا : رياح خفيفة ، وسموات ملبدة بالسحب ، وضباب كاف لجعل الرؤية قليلة . وكانت ناقلات الجنود تسير بسرعة بطيئة تتراوح بين ١٢ و ١٣ عقدة .

ولضمان سكوت اللاسلكى ،اقفلت مفاتيح الارسال أو ازيلت تماما ، ولم يستخدم فى الاتصالات بين السفن غير الرايات والاضواء ، وكانت السفن تحرص على الاظلام التام ليلا وتقليل كمية الدخان الاسود الذى ينبعث عادة من ظهر حاملات الطائرات ..

ولم تستطع تدابير الامن هذه ان تبدد القلق العنيف الذى سيطر على (ناجومو) منذ لحظة الرحيل . لقد القى على كاهله عبء لم يواجه مثله غير قلائل من القواد البحريين . ان هذه القوة الضخمة ذات الحاملات المتعددة لن تحرز النجاح الا بتحقيق عنصر المفاجأة الكاملة . ولم يستطع ناجومو ان يتخلص من الشبح الذى يطارده ويجعله يحس بانه تحت رقابة

مستمرة من الغواصات الامريكية ، كما كان يساوره قلق مستمر بسبب احتمال عدم تلقيه الرسالة اذا نجحت المفاوضات وقررت طوكيو وقف الهجوم !

ولكن قلق القائد وجو التوتر المتزايد لم يؤثرا فى روح الجراة بين الطيارين والملاحين . لقد اعتادوا المخاطر اليومية لمهنتهم المليئة بالاخطار ، مع ولاء اعمى للامبراطور والوطن وكانوا يسترخون ليلا وهم يمارسون العابهم المفضلة ، وفى النهار يواصلون برنامج تدريبهم بهمة لاتعرف الكلل . وكان طيارو القاذفات وطائرات الطوربيد يدرسون نماذج مصغرة لجزيرتى فورد وأواهو حتى يعرفوا كل معالمهما وحدودهما ، ويفحصون نماذج البوارج الامريكية للتعرف عليها فورا .

وبينما كان الاسطول الجوى الاول يطبق على فريسته من الشمال ، كانت العيون التى تركزت على الباسيفيك قد اضطرت لتوجيه اهتمامها صوب الجنوب ، اذ كانت السفن اليابانية تسير فى قوافل مكشوفة هناك . . وكتبت (النيويورك تايمز) تقول ان روزفلت يقابل مبعوثى طوكيو فى الوقت الذى يحتشد فيه اليابانيون فى الهند الصينية وربما يدبرون زحفا على تايلاند . .

وكانت هناك مناورة اخرى ماكرة للخداع ، وهى رحيل (تاتوتا مارو) من يوكوهاما فى ٢ ديسمبر ، وكانت تلك هى ثالثة بواخر الركاب التى سمح بارسالها الى امريكا ، ومهمتها هى مبادلة الامريكيين الذين تم اجلاؤهم من الشرق بالرعايا اليابانيين فى امريكا (وكانت رحلتها مقبولة وقد نشرتها صحف امريكا على نطاق واسع . . وكان مقررا ان تصل السفينة الى امريكا فى ١٤ ديسمبر . . وفى عدد (النيويورك تايمز) الصادر فى ٣ ديسمبر برقية من طوكيو تصف هذا العمل بانه دليل على انه لايتوقع حدوث شىء من جانب اليابان لبعض الوقت . .)

وقد وضحت الخدعة عندما عكست تاتوتا مارو طريقها بعد ٧ ديسمبر وعادت لليابان .

تمتع بحلمك فى سلام !

فى اليوم السابع للقوة الضاربة فى البحر ، تلقى ناجومو تعليمات باللاسلكى قضت على احد اسباب قلقه . كان اليوم هو اول ديسمبر فى شرق خط التاريخ الدولى (٢ ديسمبر فى اليابان) . وكانت الرسالة

تقول (تسلق جبل نيناكا) وهى عبارة بالشفرة معناها ان المفاوضات قد فشلت وان الحرب اصبحت الآن مؤكدة .. ولاول مرة تحدد موعد الهجوم وهو ٧ ديسمبر .

وكان الاسطول قد اجتاز المياه الخطرة شمال القاعدة الامريكية فى (ميدواى) وازداد الجو توترا ففى تلك المنطقة يزداد احتمال اكتشافهم بوساطة طائرة أو سفينة امريكية ، ولكن الاسطول افلت من الاكتشاف بمعجزة ، واستعد الجميع للقتال بارتياح ، وفى غضون ذلك تلقى السفير نومورا والمبعوث الخاص (سابورو كوروزو) تعليمات بالابقاء على محادثات السلام مستمرة فى واشنطون ، وقد ظلت المفاوضات التى تجرى فى جو من العلانية تشغل اهتمام امريكا خلال الايام القليلة التالية .

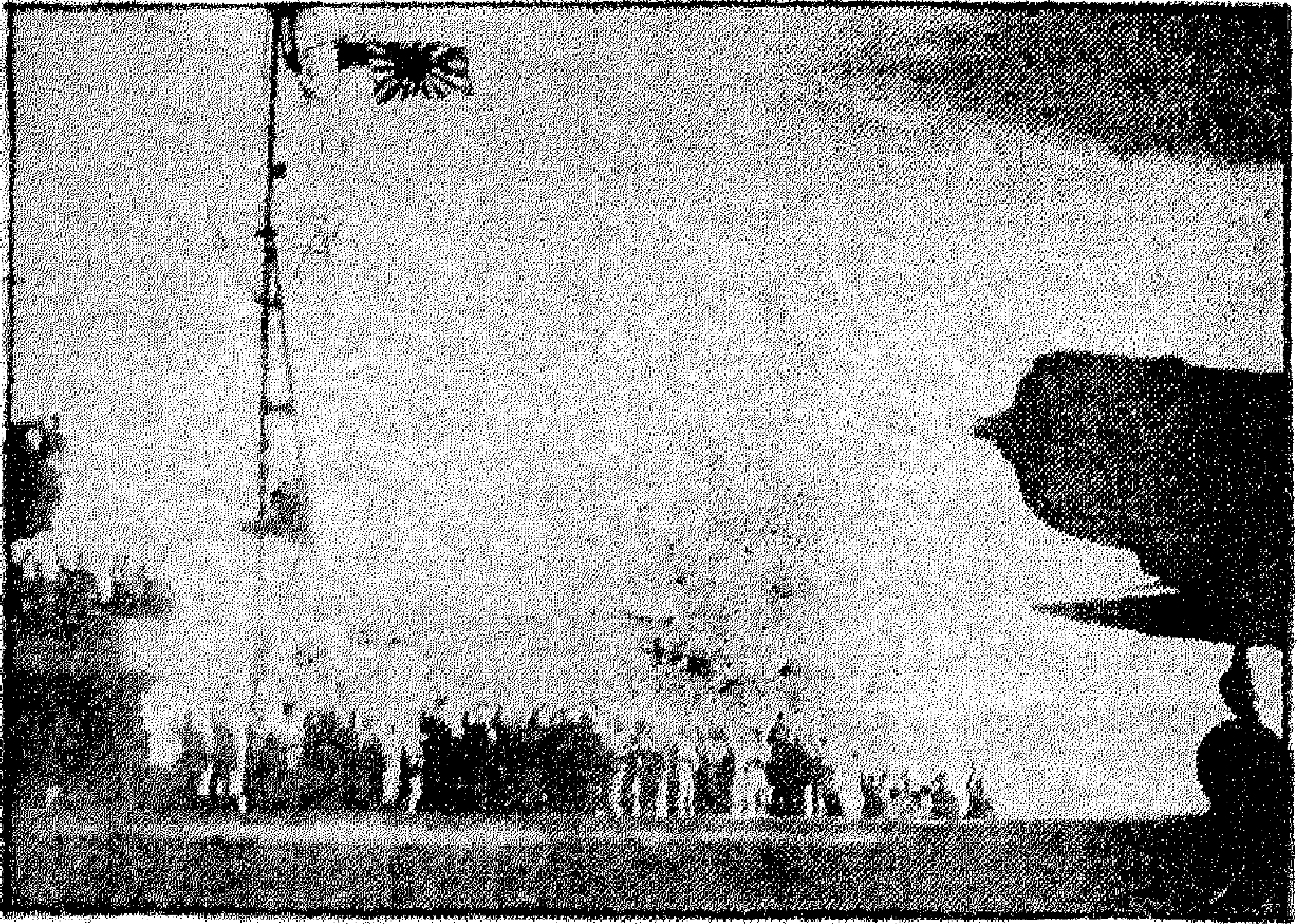
وفى ٦ ديسمبر ، زودت كل سفينة فى القوة باقصى ماتستطيع حمله من وقود ، وارسلت ناقلات البترول الى مكان للالتقاء فيه بعد الهجوم ، وبعد (ميدواى) بمسافة قصيرة دعى كل الملاحين الى السطح ، وهناك تليت عليهم رسالة الامبراطور الحربية ، وتلتها رسالة من ياماماتو قال فيها :

(ان مصير الامبراطورية معلق على هذه المعركة . فليفعل كل رجل ما فى وسعه .)

وبعدئذ دارت السفن بزاوية ١٨٠ فى اتجاه الجنوب وبدأت زحفها الاخير بأقصى سرعة الى المنطقة التى ستنطلق منها الطائرات .

كانت القوة الآن على مسافة تزيد قليلا على ٥٠٠ ميل من هدفها ، ولما كان اكتشافها هنا وهى على عتبة قلعة العدو يعنى كارثة مؤكدة ، فان الساعات القليلة التالية كانت تتسم بتوتر مؤلم ولكن الحظ ظل فى صفهم فلم يقابلوا أية دورية أمريكية ، وعندما أسدل الظلام أستاره السود قل التوتر كثيرا .. وطوى الليل الاسطول اليابانى الكبير فى اغلاله خلال الساعات الباقية ..

وقبل منتصف الليل بقليل بعثت طوكيو تقريرا من هاواى كان جينذا وفوشيدا فى انتظاره بلهفة ، وقد جاء فيه انه لم توضع اية مناطيد لعرقلة الطيارين عن قذف قنابلهم (مع ان هذه المناطيد شحنت اليها أخيرا) كما لم يظهر اى دليل على وجود شباك طوربيد لحماية البوارج .. وجاء فى رسالة اخيرة من طوكيو فى الساعات السابقة للهجوم انه لاتوجد حاملات طائرات امريكية فى بيرل هاربور ، وان



بحارة حاملات الطائرات اليابانية يلوحون بأيديهم
لوداع أول وحدة تحلق فى اتجاه بيرل هاربور

تسع بوارج تقف هناك بالاضافة الى سبع طرادات و ١٩ مدمرة ، كما جاء تقرير عن الجو حول (أواهو) .

كانت كل عيون البحرية فى اليابان مثبتة الآن على بيرل هاربور .. وكتب الاميرال ماتومى اوجاكى رئيس اركان حرب ياماماتو فى مذكراته : (هاواى .. سوف تقعين فى المصيدة كالفار .. تمتعى بحلمك فى سلام يوما آخر) .. ولم يستطع ان يكبح عواطفه فاضاف : (ما أعظم أن تقامر هكذا على مصير امة !)

وفى فجر ٧ ديسمبر المظلم أحس الاميرال ناجومو بارتياح لنقل المسئولية عن كاهله عن هذه المقامرة ، وقال لجينندا .. (لقد احضرت القوة الى منطقة الهجوم بنجاح .. والان انتقل العبء الى كاهلك ..)

وبهذه الكلمات انتهى العهد القديم .. وتولى عصر الطيران الجديد الامر

تورا ! تورا ! تورا !

فى الخامسة والنصف صباحا : ارسلت الطائرتان البحريتان بعيدتا المدى الى الامام للاستكشاف من

سطحي الطرادتين الثقيلتين (تشيكوما) و (تونى) .. وكان على الطائرتين ان تحلقا فوق أواهو ومرسى (لاهينا) على مقربة من جزيرة مارى للقيام بالمراقبة الاخيرة للاسطول الامريكى وكان طيارو كل الحاملات قد ايقظوا قبل الثالثة بقليل ، وان كان الكثيرون منهم لم يستطيعوا النوم على اية حال وقد قضوا الليل يكتبون رسائل الوداع للوطن أو كلمات وداع فى مذكراتهم وما ان انتهوا من افطارهم حتى تجمعوا فى غرفة تلخيص الموقف فى كل حاملة للاستماع الى الحديث الاخير لرفع الروح المعنوية والحماسية

وفى الخامسة والنصف استدارت حاملات الطائرات الست ، وقد أصبحت الآن على مسافة ٢٠٠ ميل شمال اواهو — واتجهت شرقا بعد أن زادت سرعتها الى ٢٤ عقدة لمقابلة ريح راسية خفيفة خلال فترة أطلاق الطائرات .

كانت الامواج عالية جدا والسفن الضخمة تميل بعنف ، وكان رذاذ الماء يرتفع فوق أسطح التحليق ، ولكن التحليق كان لا يزال ممكنا رغم صعوبته ، وارتفع علم القتال على كل حاملة للطائرات ، كانت الحماسة تجتاح قلوب ملاحي الاسطح وهم يجهزون الممرات لاطلاق الموجة الاولى من نسور اليابان ، بينما كان الطيارون يستعدون لركوب طائراتهم وقد وبط كل منهم منديلا طويلا رفيعا فوق خوذته الجلدية ، وهو تقليد قديم من تقاليد الساموراى قبل دخول المعركة ..

وتم تنفيذ عملية اطلاق الطائرات كلها بسهولة وسرعة .. كانت الموجة الاولى تضم ٤٣ مقاتلة و ٤٩ قاذفة عالية الارتفاع و ٥١ قاذفة منقضة و ٤٠ طائرة لالقاء الطوربيد . وفى خلال ١٥ دقيقة فقط كانت الطائرات كلها وعددها ١٨٣ قد حلقت فى الجو ، وهو رقم قياسى فى اطلاق الطائرات .

وباشارة من فوشيدا الذى سار بمجموعة من القاذفات العمودية فى صف واحد عبر مقدمة « اكاجى » اتخذت الطائرات تشكيلات للطيران ، واتجهت نحو أواهو وبيرل هاربور على أن تتبعها موجة أخرى بمجرد تمكن البحارة من رفع بقية الطائرات الى أسطح التحليق ، وسيكون مجموع القوة ٣٥٣ طائرة تشترك فى الهجوم ، وهو أكبر حشد للقوى الجوية البحرية فى تاريخ الحرب حتى ذلك الحين .

ان شمس الامبراطورية اليابانية

المشرقة لم ترتفع من قبل الى مثل تلك السموات .. وكان الجميع يعرفون ذلك .. وكان بحارة الاسطح يهتفون وقد جرت العبرات على وجنات البعض وهم يلوحون بقبعاتهم لوداع الطائرات التى اخذت تتضاءل حتى أصبحت مجرد نقط دقيقة ..

وأحس جيندا على الجسر بنوبة فخر كبرى ، فذهب الى غرفة الرقابة منتظرا رسالة فوشيدا الاولى التى سيرسلها عند بلوغ الهدف .

وعبر الباسفيك ، كان قواد الاساطيل اليابانية الثانى والثالث والرابع والخامس ينتظرون أيضا هذه الرسالة التى ستلقى بهم فى معارك فى ١٢ جبهة مختلفة .. وفى الوطن البعيد ، كان ياماماتو ينتظر أيضا ، بينما تجمع كبار اعضاء أركان حرب البحرية العامة فى نادى البحرية بطوكيو وقد سادهم الوجوم .

وجاءت أولى المعلومات عندما ذكرت احدى طائرات الاستكشاف أن السفن الامريكية لا تزال فى بيرل هاربور ، وانه ليس هناك دليل على حالة تأهب بينها .

وفى السابعة والدقيقة التاسعة والاربعين تماما ، تلقى فوشيدا رسالة لاسلكية من سماء هاواى تقول : تو .. تو .. تو ! .

كانت المقطع الاول من كلمة «هجوم» باللغة اليابانية . وتعنى أن الموجة الاولى بدات هجومها ولكنها لم تذكر شيئا عن ظروف هذا الهجوم .. وبعد دقائق قليلة انطلقت رسالة لاسلكية اخرى من فوشيدا الى رؤسائه المتلهفين القلقين على ظهر الحاملة « أكاجى » وفى طوكيو .. وكانت الرسالة تقول : « تورا .. تورا .. تورا .. ! » ومعناها باليابانية « نمر .. نمر .. نمر ! » وكانت تلك هى كلمة الشفرة المتفق عليها للابلاغ عن أن المفاجأة التامة قد تحققت ! .

لوحة رائعة

كشف فجر يوم ٧ ديسمبر ١٩٤١ عن روعة وبهاء غير عاديين حتى فى هاواى ذاتها .. ففى سكون الصباح المهيب ، كانت أشعة الشمس تتسلل برقة لونها الذهبى فوق جزيرة « أواهو » الخضراء وما يحيط بها من رمال ناعمة ، بينما كانت الامواج العالية تتحطم على شاطىء وايكيكى بزبدها الابيض كما تفعل منذ بدء الخليقة .. وعلى طول الشاطىء كان سعف اشجار جوز الهند الرفيعة يهتز برقة مع نسيم المحيط .. كانت لوحة رائعة لعالم يكسوه

جمال أشبه بجنة عدن وبراءتها ..

ولكن كثيرين من ضباط الجيش والاسطول الامريكى كانوا - اذا سمحت الظروف - يفضلون النوم . وعلى الرغم من التوتر المتزايد مع اليابان ، فقد كانت هناك تجمعات وحفلات فى عطلة نهاية الاسبوع كالعادة فى أرجاء القاعدة الامريكية العسكرية ، وكانوا يتلذذون بساعات صباح الاحد باعتبارها فرصة للحصول على النوم الذين هم فى أمس الحاجة اليه ..

وكالعادة أيضا استيقظ الاميرال هاسبند كيمل ، القائد العام للاسطول الامريكى فى الباسفيك مبكرا ، وقد كرس ساعات طويلة لتحسين حالة التأهب للقتال فى سفنه المحبوبة ، وكان رجلا زاهدا بحكم العادة ، بحارا من رأسه الى أخمص قدميه ، ولكنه فى ذلك الصباح كان يعتزم أن يلعب مباراة فى الجولف مبكرا مع الجنرال ولتر شورت قائد قوات الجيش فى هاواى وكان جديرا حقا بالاسترخاء بعد أن قضى أسبوعا شاقا بلغ الذروة يوم السبت بمحادثات مستفيضة مع أركان حربه حول ترتيب الاسطول ، وهل ينبغى له أن يبقى فى بيرل هاربور أم يخرج الى البحر .

وقد كان جزء كبير منه قد انطلق فعلا الى البحر نتيجة رسالة « التحذير من الحرب » التى أرسلتها واشنطون فى ٢٧ نوفمبر ، وفى اليوم التالى انطلقت قوة خاصة تضم حاملة الطائرات « انتر برايز » وثلاث طرادات ثقيلة وتسع مدمرات لتسليم شحنة من الطائرات الى جزيرة « ويك » . وفى ٥ ديسمبر أقلعت قوة أخرى تضم الحاملة لكسنجتون وثلاث طرادات ثقيلة وخمس مدمرات لتعزيز (ميدواى) بمزيد من الطائرات .. كما توجهت قوة ثالثة الى جزيرة جونستون على مسافة ٧٠٠ ميل جنوب غرب أواهو لاجراء تدريبات لانزال الجنود .

ولما كانت حاملات الطائرات الثلاث المخصصة للعمل فى الباسيفيك غير موجودة الآن فى بيرل هاربور فان السفن التى بقيت فى القاعدة الكبيرة لن تجد حماية جوية اذا غامرت بالخروج الى البحر ، كما أنها ستكون عرضة للخطر فى أعالى البحار بدون مظلة جوية أكثر مما لو بقيت فى الميناء . وهكذا اتخذ القرار النهائى ، ستبقى السفن فى مراسيها حيث تكون على الاقل فى حماية طائرات الجيش الموجودة على البر .

وفى مساء السبت ، حضر الاميرال كيمل بثيابه المدنية مأدبةعشاء صغيرة غير رسمية مع بعض كبار ضباط الاسطول الآخرين ، وبينهم بعض أصدقائه القدامى الذين أمضى معهم أمسية ممتعة شرب خلالها كأسه الوحيدة ، وفى التاسعة والنصف تركهم كيمل ، ليكون فى العاشرة فى فراشه .

ولكنه لم يتمتع قط بمباراة الجولف التى كان ينتظرها صباح الاحد .. فقبل السابعة والنصف بقليل وهو يستعد لمغادرة المنزل ، دق جرس التليفون ، وكان المتحدث هوالكومندور فنسانت مورفى الضابط المنوب بمقر القيادة ، وكان يريد الابلاغ عن حادث يثير القلق ، وهوأن المدمرة « وارد » اتصلت بغواصة غريبة على مقربة من بيرل هاربور واطلقت النار عليها وفقا لاوامر كيمل التى تقضى بوجوب اعتبار كل الغواصات التى توجد فى المياه القريبة معادية والقاء قنابل الاعماق عليها .. ومع ذلك فقد كان لا بد من التحقيق فى الحادث وحضور كيمل الى مكتبه .. وقال لمورفى انه قادم فوراً .

امر كيمل باعداد سيارته لنقله الى مقر قيادة الاسطول الذى يقع على مسيرة خمس دقائق ، وبينما كان فى انتظارها اتصل بهمورفى مرة أخرى وقال ان المدمرة « وارد » اشتبكت فى مغامرة أخرى إذ رات سفينة صيد يابانية داخل المياه الممنوعة فصحبتها الى خفر السواحل .. وفى الوقت الذى كان مورفى يحادث فيه كيمل ، اقبل أحد صغار المزارعين الى مقر القيادة وقال ان الطائرات اليابانية تهاجم بيرل هاربور ، ومع أن مورفى لم يكد يصدق هو نفسه هذا النبأ المذهل ، فقد نقله الى كيمل .. وروع الاميرال من الفكرة الرهيبة ، فالقى بسماعة التليفون من يده وانطلق الى الخارج ليرى بنفسه ..

ووقف كيمل أطول دقيقتين فى حياته فى ساحة منزله بمرتفعات « ماكالابا » .. وفى الوقت الذى كان ينتظر فيه سيارته ، رأى القاذفات والمقاتلات اليابانية وهى تنقض على بيرل هاربور كالخفافيش مصاصة الدماء .. كان يقف مذهولا يستبد به الالم والحزن وهو لايصدق بصره .. لقد كان عهد من عهود الباسيفيك يحتضر أمامه .. ومعه حياته العملية .. لقد كان الهجوم اليابانى يشيع جنازة البوارج ، ويدخل عصر القوة الجوية البحرية .

وجاءت سيارة كيمل على عجل .. وأسرع اليها الاميرال وهو يربط رباط رقبته .. وبينما كانت السيارة تنطلق هادرة ، قفز اليها أحد قواد أسراب الغواصات ، ووصل الاثنان الى مقر القيادة العامة لاسطول الباسيفيك بين الثامنة وخمس دقائق والثامنة وعشر دقائق .

فى ذلك الحين كان الهجوم على اشده .. قاذفات الطوربيد تنقض فوق بيرل هاربور على ارتفاع منخفض، حتى لتكاد تلمس باليد ، وهى تقذف طوربيداتها القاتلة فى احشاء بوارج كيمل الثمينة ، بينما كانت القاذفات المنقضة تتواثب كالصقور المتوحشة فوق مطار هيكام القريب .. ومن ارتفاع شاهق ، كانت القاذفات تمطر الارض بصواريخها القاتلة ، وكانت المقاتلات تدور فى السماء لتنسج الطنافس الدموية الرهيبة وتضرب بنيرانها كل شيء تراه ..

وامتزج زئير القنابل وأزيز الرصاص وهدير الطائرات وأصوات المدافع المضادة التى يطلقها المدافعون من كل ركن ، ورائحة النار والدخان الكثيف .. كل ذلك امتزج فى سيمفونية تهز الاعصاب من فرط الضجيج والفوضى، كشيء برز من أظلم ركن فى الجحيم ..

وقد شلت المفاجأة المرعبة التى انتجتها الغارة اليابانية الاولى أغلب الامريكيين فترة من الوقت واندفع كيمل الى مقر قيادته محذرا وعلى وجهه قناع كئيب غير مفهوم وهو يحاول أن يلم شتات نفسه بين انقاض عالمه المنهار ..

انهض .. لقد اندلعت الحرب !

كان الكومندور (لوجان رامس) ضابط العمليات باركان حرب القوات الجوية للبحرية فى جزيرة (فورد) أول من اعلن نبأ الهجوم للعالم . لقد حضر الى مبنى الادارة فى لمح البصر بعد ان سمع نبأ بالتليفون يقول ان طيارا لمح احدى الغواصات .. وجلس ينتظر التحقيق من صحة النبأ ليأمر بخروج دوريات تقوم ببحث عام للمنطقة .

كان حرس البحرية يرفعون رايات جزيرة فورد فى نوبة استيقاظ ، عندما سمع رامس صيحة طائرة تنقض فوق المحطة ، وظن ان احد رجاله هو الذى فعل ذلك فاستولى عليه الغضب وطلب من الملازم النوبتجى ديك بالنجر أن يحصل على رقم هذا الطيار لمعاقبته على انتهاك قواعد الامان .

وهبطت الطائرة الى ارتفاع منخفض جدا ، وتطلع الرجلان من

النافذة لمراقبتها .. ثم قال رامس للملازم بالنجر : عليك أن تعرف أيا من قواد الاسراب يحلق فى الجـو الآن ..

فقـال بالنجر : لقـد رأيت شيئا اسود يسقط من تلك الطائرة .

وفى الوقت الذى كان يتكلم فيه ، حدث انفجار عنيف فى حظائر الطائرات .. وتغيرت ملامح رامس بعد ان فهم الموقف بسرعة وهتف : هـذه طائرة يابانية .. انها قنبلة بطيئة الانفجار

وهرع عبر الردهة ، وطلب الى كل رجال اللاسلكى العـاملين ، ابلاغ الرسالة التالية بلغة انجليزية واضحة وهى : (غارة جوية على بيرل هاربور .. هذه ليست تدريبات) ..

وهكذا انطلقت اشهر رسـالة لاسلكية حتى ذلك الحين على موجات الاثير .. وبعث مقر قيـادة كيمـل نفس الرسالة .. وتوقف لاسـلكى جزيرة فورد عن الارسال اولا . . وكان الكومندور لوجان رامس هـو الذى بعث الكلمة التى أيقظت الولايات المتحدة من سباتها العميق .

وكان الكومندور (تشـارل كو) ضابط الخطط الحربية لاركان حرب القـوات البحرية الجوية للاميرال بلنجر فى فراشه عندما بدا الهجوم .. كان لايزال مترددا فى النهوض وتناول الافطار .. فقد كان معتادا ان يعد بنفسه افطـار الاسرة يوم الاحد .. وفجأة قفز من فراشـه على صوت قاذفة منقضـة ، تلاها انفجار قنبلة .. وعرف حقيقة الامر على الفور ، فصاح بزوجته : انهضى .. لقد اندلعت الحرب .

ثم القى على جسمه روب الحمام وانتعل خفا فى قدميه ، وساعد ابنه وابنته على ارتداء ثيابهمـا ثم هرع معهما الى بيت الاميرال بلنجر الذى يعتبر بدرومه مخبأ نموذجيـا من القنابل لانه بنى من الاساسات المتينة لقلعة قديمة ، وقد حاول ابنه (تشارلز) الذى يبلغ الخامسة ان يتسلل فى اعقاب أبيه ليتمتع بمشـاهدة منظر الطائرات المنقضة والالعاب النارية المنطلقـة فى السماء ، ولكنهم أمسكوا به ، بينما كانت الطائرات اليابانية تنقض وتدور فى السماء وهى تضرب المنطقة بمدافعها الرشاشة .

وبعد أن ادخل (كو) ابنه تشارلز داخل المخبأ وطبع قبلـة وداع على شفتى زوجتـه ، عاد الى البيت ليرتدى ثيابه .. وفجأة ثبت فى مكانه نتيجة لموجة اصطدام رهيبة عندما انفجرت البارجة (أريزونا) وتبسع

حركة الهواء الثقيلة هدير يصم الاذان .. وتساقطت كتل ضخمة والواح من الصلب وغيرها من الانقاض كالمطر فى الحديقة ، واخترقت قطعة فى حجم قالب الطوب لوحا مصفحا بين طبقتين من الخشب فوق حظيرة سيارات ، واستقرت فى رفرف سيارته ... وكان (كو) محظوظا بوصوله الى مقر عمله بعد بضع دقائق وهو يرتدى حلة من اللون الخاكى ارتداها فوق بيجامته ، وكان لا يزال ينتعل احدى فردتى خفه !

وقد أكملت كارثة أريزونا خيبة أمل الكابتن جيمس شوميكر قائد المحطة المسئول عن لوازم المكاتب والحظائر والثكنات وقاعات طعام الجنود ، وبينما كان يقود سيارته الى مبنى القيادة ، وهو يبعد صناديق القنابل عن طريقه ، اذ توقف مذهولا وسط الدمار .. كان شوميكر يواجه الآن مشهدا مروعا : حظيرة طائرات تحترق كأنها غابة مشتعلة ، وطائرات تلتهب بشدة ، وكانت قد وضعت متلامسة الاجنحة كاجراء احتياطى ضد التخريب !

وصاح آمرا ضابط الصف والبحارة القلائل الذين حوله : ابعدوا الطائرات السليمة عن النيران ..وكان هذا هو كل ما استطاع ان يفعله ، اذ عندما أقبلت فرقة الاطفاء فى تلك اللحظة ، ما لبثت أن اكتشفت عدم وجود ضغط الماء ! .

لقد غرقت « أريزونا » فوق المورد الرئيسى للمياه !

اخطار القيادة

عندما وصل الكابتن وليم (بوكر) سميث رئيس اركان حرب الاميرال كيمل الى مقر القيادة ، وجه الاميرال سميث الهجوم بنفسه من مكتب الخطط الحربية ، وكان معه نائبه الاميرال وليم ساترلى باى قائد قوات المعركة الذى كانت ثيابه يغمرها رشاش الزيت المتطاير من الطرادة المنكوبة « كاليفورنيا » .. وما كاد سميث يرى الرجلين ، حتى ذكرهما بأنهما يجب الا يكونا معا فى هذا المكان اذ ان ضربة واحدة يمكن أن تقتلهما معا وتترك الاسطول بدون قائد اعلى ، ومن ثم فقد انتقل الاميرال باى الى الطرف الاخر من المبنى .

وجاء ضابط الاتصالات ، الكومندور « جيرمانى » كيرتيس الى المكان بعد حوالى ١٢ دقيقة من بدء الغارة الجوية ، ووقف مع كيمل وسميث امام النافذة يتابعون الهجوم ، بينما كانت الطائرات

اليابانية تهدر فوق الاسطح وهي منطلقة لالقاء طوربيداتها فوق الميناء .. كان دوى الانفجارات التى لاتنقطع يطلق نافورات هائلة وسحبا تدور وترتفع لتغطى السماء ، ولكن الضباط الثلاثة لم يتمكنوا فى موقعهم الممتاز من رؤية الضربات الحقيقية التى كانوا يتلقون انباءها سريعا ..

لقد أذهلتهم قوة الهجوم وأثره الفعال .. وظنوا أن هذه الطائرات اتت من احدى الحاملات أو ربما من اثنتين ، فلم يكن لديهم وسيلة يعرفون بها مدى ضخامة القوة اليابانية التى تقبع وراء الافق .. وقد تحدث كثير من الضباط الامريكيين فى شهاداتهم امام لجان التحقيق الاولى عن حاملة الطائرات ، وكانوا يذكرون احيانا كلمة (الحاملات) فى حين ان هذه الصيحات الشيطانية التى ملأت السماء لم تكن آتية من حاملة طائرات واحدة بل من ست حاملات .. وكان ذلك ابعد مما تصل اليه خيالاتهم فى ذلك اليوم . يوم الاحد ٧ ديسمبر .

وعندما وردنبأ المصير الذى واجهته البوارج الضخمة : انفجار (اريزونا) وانقلاب (اوكلاهوما) وغرق (كاليفورنيا) انطلقت صيحة الم من بين شفتى الاميرال كيمل .. لقد تولى قيادة هذا الاسطول منذ عشرة شهور فقط .. ومنذ أقل من ٢١ ساعة اتخذ قرار ابقائه فى بيرل هاربور ، وهاهى ذى سفنه قد تحطمت وامتلأت السماء سوادا من الدخان المنبعث من حرائقها ..

ويذكر سميث أنه كان هو وكيمل يتوقعان ان تكون نتائج الهجوم أسوأ مما كانت .. لقد سحقت القوة الجوية للجزيرة ، ولم يكن هناك فى رأيهما مايحول دون تدمير بقية السفن التى فى القاعدة فضلا عن كل ساحة البحرية

ولعل كيمل كان يأمل أن تتاح له فرصة الانتقام من ذكرى ذلك اليوم الرهيب ، ولكن لابد انه عرف أن هذه الكارثة قد وضعت نهاية حياته البحرية .. وتلك هى اخطار القيادة والفرصة التى اتيحت لرجل للوصول الى المرتفعات .. ولقد عبر المارشال الفرنسى جوفر عن ذلك اروع تعبير عندما قال يوما انه لم يعرف من المسئول عن الانتصار فى معركة المارن ، ولكنه كان سيعرف جيدا من المسئول لو أن المعركة انتهت بالهزيمة .

وعلى الرغم من ضخامة الالم الذى تملكه بسبب ضياع سفنه ، فقد كان الشيء الذى مزق قلب كيمل الشجاع حقا هو مصرع رجاله .. لقد فقدت

أمريكا فى بيرل هاربور من الارواح اكثر مما فقدت فى القتال البحرى الذى دار خلال الحرب الامريكيــة الاسبانية والحرب العالمية الاولى معا ... ولم يكن هؤلاء الرجال مجــرد ارقام احصائية بالنسبة لكيمل ، بل لعله كان يعرف أكثرهم بالصورة ، والمئات منهم بالاسم .. وكان كثيرون منهم أصدقاء شخصيين له .. ولقد كانوا جميعا من القادة المحنكين الى اصغر بحار فى العنــــاصر ، رجاله ومسئوليته ..

كان كيرتس يقف الى جوار كيمل امام النافذة عندما مرقت ، صاصة من خلال الزجاج واصطدمت بصدر كيمل ، وتركت بقعة سوداء على بزته البيضاء ، ثم هوت الى الارض دون ان تناله بأذى .. وقد بلغ من حزنه ويأسه ، انه تمتم قائلا لنفسه أكثر مما يقول لكيرتس :

ـ لو انها قتلتنى لكانت اكثر رحمة

النهاية فى العدد القادم



تأكيد !

التقى الدكتور تشارلس مايو بسيدة عجوز تزعم انها بلغت العام الثامن بعد المائة .. ومع ان الجراح الكبير قد شـك فى ذلك . الا انه رحب بها بحرارة وقال لها :

ـ تهانئى .. اننى آمل ان اراك فى عيد ميلادك التاسع بعد المائة

فأجابته العجوز باقتناع تام :

ـ سوف ترانى بكل تأكيد .. فان أشخاصا قلائل جـــدا يموتون بين سن ١٨٠ و١٠٩



٨ دول فقط !

كتب أحد القراء لمجلة « تايم » الامريكية يقول :

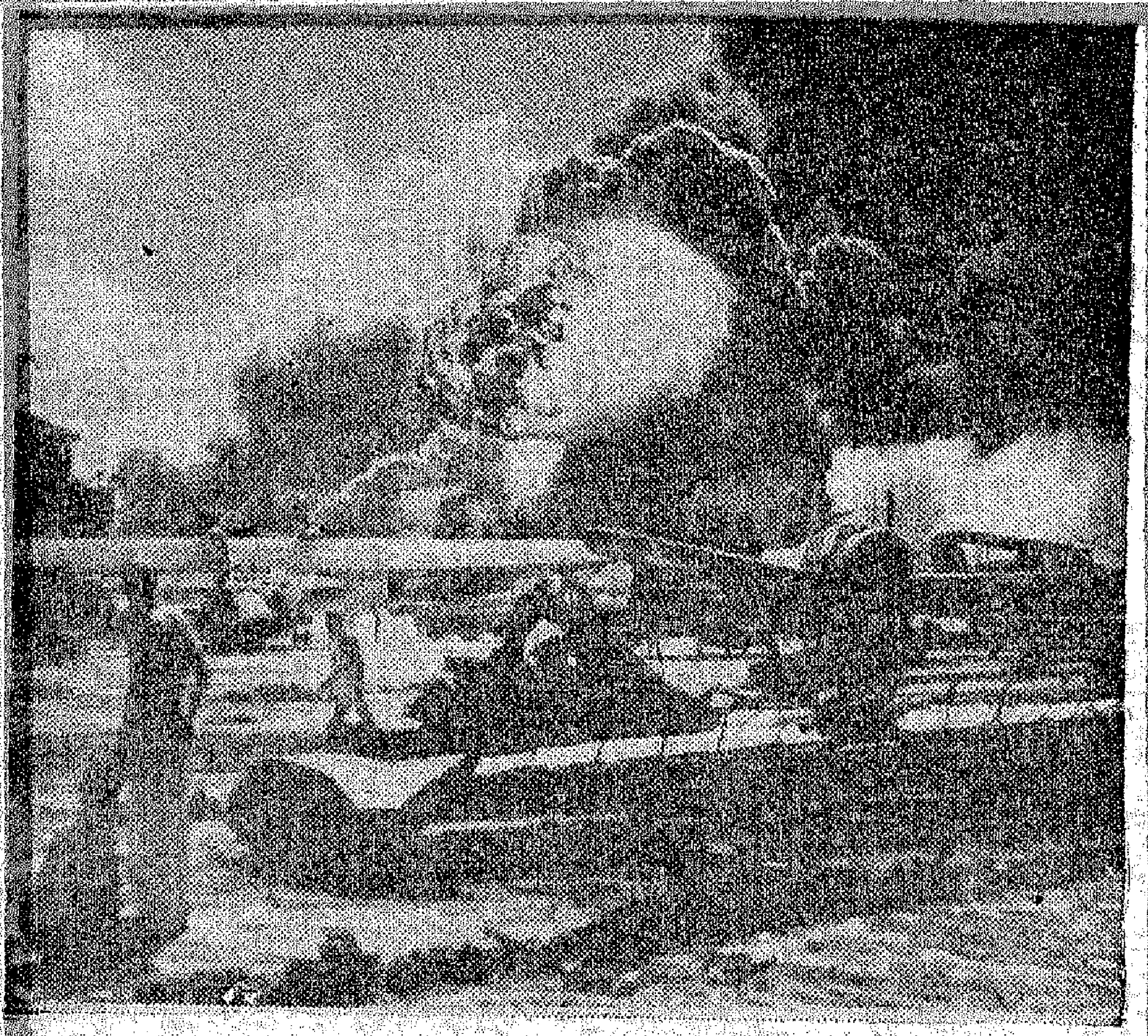
« هل هناك دولة ـ كبيرة أو صغيرة ـ لم تقف فى الطابور لتحصل عـــلى نصيبها من مساعداتنا ؟

فردت المجلة تقول : « هناك ٨ دول لم تفعل ذلك وهى : « اندورا وبوتان والكويت وموناكو ، ومسقط وعمان ، وسويسرا ومدينة الفاتيكان .. وامارة ليختنشتاين »

كتاب الشهر

هجوم في الفجر «٣»

القصة الحقيقية للهجوم على بيرل هاربر تنشر لأول مرة



تلخيص كتاب TORA, TORA, TORA

بقلم جوردون برانج

هجــوم فى الفجــر (٣)

استخدمت الموجة الاولى للهجوم اليابانى ١٨٣ طائرة ، بينها ٥١ قاذفة منقضة و٨٩ قاذفة عالية الارتفاع ، و ٤٠ طائرةطوربيد و ٤٣ مقاتلة ، وكان يتولى قيادتهـا الـكومودور ميتسو فوشـيدا الذى اشـترك فى الحرب الصينية ، وهو طيار بالسليقة فى التاسعة والثلاثين من عمره ، يسـيطر بدفء شخصيته ومغنـاطيسيتها على ولاء من طياريه يكاد يبلغ حد العبادة ..

كانت قاذفات اسطول فوشيدا ـ وفقا لمعايير اليوم ـ تعد بدائية بطيئة معرضـة للخطر ، فقد كانت أقصى سرعة لها لاتكاد تتجاوز ٢٠٠ ميل فى الساعة ، وكانت كل منها تحمل قنبلة واحدة ، وهى خاليـة من الدروع أو خزانات الوقود التى تغلق ثقوبها من تلقاء ذاتها ، ولكنهـا كانت تحمـل سلاحا واحدا ممتازا ... ففى غرف قيادتها ، جلست زبدة طيارى البحرية اليابانية وكانوا افضـل طيارين فى العالم فى صـباح ذلك اليوم تدريبا وخبرة بالقتال .

وكان قواد المقاتلات من هذا الطراز ايضا ، بينما كانت الطائرة من طراز « زيرو » هذه أقوى ما انتجته اليابان فى الحرب العـالمية الثانية ، وعلى الرغم من انها لم تكن تحمل اية قنابل فقـد كان الموت العنيف ينبثق من مدفعين عيار ٢٠ مليمترا فى جناحيها ومدفعين رشاشين عيار ٧ر٧ مليمتر فى مقدمتها ، وكانت سرعتها وارتفاعها وقدرتهـا على المناورة مفـاجأة مؤلمة للطيارين الامريكيين ..

اما اكثر الطـائرات تدميرا ، فهى قاذفات الطـوربيد التى يقـودها الكومودور « شجاروموراتا » الذى يبلغ الثانية والثلاثين ، والذى حارب هو ايضا فى الصين .. ومع ان سجل موراتا وهو طـالب فى الاكاديميـة الحربية لم يكن مؤثرا ، فانه ما أن بدأ التدريب على الطيران حتى اصبح فريدا .. كان جسمه اكمل نموذج بدنى للطيار ، قويا وشـيقا ، سريعا كالسحلية فى كل حركاته ، وسرعان ما اصبح هذا الشاب الصغير الحجم المختال فى مشيته بطل الابطـال ، فقد كان يتمتع بأعصـاب لاتقهر ، وروح شيطانية مرحة ، وقد كتب له أن يموت فى ٢٦ أكتوبر ١٩٤٢ فى معركة جزر « سانتا كروز » بعد ان

شن احدى غاراته الشهيرة بالطوربيد على سفينة امريكية .

وقد ادى خطأ يسير الى عرقلة توقيت الهجوم الذى اجريت عليه بروفات كثيرة ، فان فوشيدا ـ وقد طمأنته تقارير طائرة الاستكشاف الى أن الامريكيين مازالوا نياما ، واستمرار راديو هونولولو فى اذاعة موسيقاه الشعبية ـ اطلق اشارة ضوئية واحدة دلالة على ان « المفاجأة تحققت » ، وهذا يعنى ان تنطلق طائرة الطوربيد أولا على السفن الامريكية ما دامت لن تلقى اية مقاومة ، وامامها اهداف لا يخفيها دخان او نيران المدفعية ، ولكن قائد احدى مجموعات الطائرات المقاتلة لم ير الاشارة الضوئية بسبب السحب ، ولهذا اطلق فوشيدا طلقة اخرى لتنبيهه ..

وكانت الطلقتان اشارة الى ان « المفاجأة لم تتحقق » وفى هذه الحالة تقوم قاذفات القنابل بالهجوم اولا .. واخطأ الكومودرر تاكاهاشى أدراك مقصد فوشيدا ، فاندفع بقاذفاته المنقضة للهجوم ، وادرك موراتا ان تاكاهاشى أخطأ تفسير الاشارة ، ولكن مادام يقود طائراته من موقع يمكنها من ان تبدأ القاء قنابلها ، فان موراتا لم يكن امامه الا ان يدفع طائرات الطوربيد نحو السفن الحربية بأسرع وقت ممكن .

وكان هجوم قاذفات القنابل قبل قاذفات الطوربيد بفترة قليلة هو السبب فى الفرق الطفيف الذى حدث اخيرا ... فقد كانت عناصر المفاجأة كاملة معجزة الى حد انه لم تكن هناك غير مقاومة قليلة فعالة ... ويبدو ان فوشيدا قد أدرك ذلك خلال دقيقتى الهدوء اللتين بقيتا بعد اطلاق الاشارتين المختلطتين ، وقبل القاء القنبلة الاولى .. فقد وجد ان مشاهد الجزيرة تتكشف تحت طائرته المسرعة بصورة تبعث على الاطمئنان التام ... كانت المقاتلات والقاذفات الامريكية تقف تحته مكشوفة فى صفوف منتظمة على طول المطارات الصغيرة وكأنها لعب صغيرة على ارض غرفة الاطفال ، كما كانت بيرل هاربور ترقد هادئة فى سلام ، وفوق الجزيرة كلها جو من الهدوء الذى يسود خلال الاجازات . ولاشك ان فوشيدا قد قال لنفسه عندئذ آن رمز الشمس المشرقة لم يبد قط اكثر سعادة لليابان منه فى ذلك اليوم !

دمار فى قاعدة هويلر الجوية

كانت كل القاذفات المنقضة وعددها ٥١ ، وكل المقاتلات الثلاث والاربعين

قد كلفت بتدمير قوة هاواى الجوية ، وقد انفصلت عن بقيـــة الطـائرات بتوقيت دقيق جدا ، وقبل ان تلقى اول قنبلة على السفن بفترة قصيرة هاجمت في وقت واحد قاعدتي هويلر وهيكام والمحطة الجوية البحرية فى جزيرة فورد وغيرها من المنشـآت الجوية .

وفى هويلر ـ التى كانت تمثـــل أعظم خطر على المقـــاتلات اليابانية (اذ كان فيها اكثر من ضعف العدد الذى حشده فوشـــيدا ، وذلك من الطائرات طراز ب ـ ٤٠ وب ـ ٣٦) كان الضابط الآمر وهو الـكولونيل وليم فلاد قد اتخذ تدابير عملية لحماية طائراته وكان قد ملأ المكان بأكثر من مائة حفرة فى الارض على هيئة حرف U ارتفاع كل منها حوالى ثلاثة امتار لتوزيعها فيها ، ولكن الطـــائرات لم تكن فى تلك الحفر فى ذلك الصباح ـ على الرغم من احتجاجات فلاد وقلقه ، بل كانت تصطف فى صفوف منتظمة امام حظائرها تحيط بها حراســـه مسلحه شديده . وذلك بأمر الجنرال شورت الذى كان يخاف دائما اعمال التخريب من اليابانيين المحليين .

كانت الساعة حوالى الثامنة عندما انقضت قاذفه منقضة وهى تصرخ على مطار هويلر والقت قنابلها الفتاكة ثم دارت وعادت لكى تضرب الطـائرات المتجمعة والحظائر والثكنات بمدافعها الرشاشة ، وانضمت الطائرات من طراز (زيرو) الى القاذفات وانطلقت معا لكى تمزق القاعدة اربا ، وكانت تطير احيانا على ارتفاع منخفض جدا حتى ان الطيارين اليابانيين وجـدوا فيما بعد قطعا من اسلاك المنشـــآت الامريكية تلتف حول عجلات هبوط طائراتهم .. وماكادت احدى طائرات قاعدة هويلر تصـــاب حتى اصبحت شعلة من النيران ، ثم اشتعلت الطائرة المجـاورة لها واحترقت وهكذا حتى اصبحت المنطقة كلها اشبه بنهر متدفق من النار !

وسواء اكان الهجوم مفاجأ ام لا .. فقد كان اغلب الطيـــارين اليابانيين يتوقعون انهم يطيرون الى مصـــيرهم المحتوم ... وكان بعضهم قد كتب وصيته فى الامسية الســابقه ، ولم يكن يتوقع ان يرى زوجته واطفاله ، ولكنهم وجدوا ان الاقتراب من الهدف كان اسهل من ان يصـــدق فلم تكن هناك طائرات امريكية فى الســماء ، وقليل من نيران المدافع المضادة ومع ان بعض القاذفات المنقضه قد عادت اربع او خمس مرات لتطـــلق نيران

مدافعها الرشاشة فلم تسقط اية واحدة منها فوق قاعدة هويلر

***

كان الجنرال هوارد ديفيدسون قائد جناح المطاردة الرابع عشر الكبير الحجم يحلق ذقنه فى حمامه عندما بدأت القنابل تتساقط فاندفع الى الخارج وراى الطائرات اليابانية تمزق مطار هويلر اربا ، وتملكه الرعب عندما رأى ابنتيه التوأمتين فرانسيس وجوليانا وهما فى العاشرة من عمرهما تقفزان فى سرور عبر الحديقة وتجمعان اشياء لامعة تتساقط حولهما دون ان تدركا الخطر المحدق بهما .. كانت تلك هى الخراطيش الفارغة المتساقطة من الطائرات المهاجمة وساعد ديفيدسون زوجته على اجتذاب الطفلتين للداخل ثم أسرع الى مقر قيادته لتوجيه المقاومة ، وراح يعمل مع ضباطه وجنوده لابعاد الطائرات التى لم يصبها تلف عن التى اشتعلت فيها النيران .

وقال ديفيدسون للجنة روبرتسون التى شكلت فى ١٦ ديسمبر ١٩٤١ للتحقيق فى الكارثة : « كانت المدافع غير معبأة بالذخيرة ، كانت تلك هى أكبر عقبة واجهتنا ولاسيما فى احدى الحظائر التى كنا نختزن فيها ذخيرتنا كانت تحترق ، والذخيرة معها .! »

وقبل ان ينتهى الهجوم كانت هناك حظائر كثيرة للطائرات قد تمزقت واحترقت حتى اصبحت هياكل متفحمة وقتلت القنابل التى القيت على ثكنات الجنود بضع مئات فى اماكنهم واصابت غيرهم بجراح بالغة ...

ورغم ان قاعدة هويلر كانت تترنح وقد امتلأت بجنود سادهم الذهول والارتباك فقد قاتلوا ببسالة للرد على العدو .. وقال الكولونيل فلاد « ان الجنود والضباط وقفوا أمام هذا السيل المنهمر من القنابل والرصاصات وكافحوا بشجاعة »

ولكن عندما ابتعدت القاذفات والمقاتلات بعد عربدتها الدموية ، كان مطار هويلر مسرحا للخراب والدمار الشامل ، مع سحابة من الدخان واللهب ترتفع الى عنان السماء .. كما كان كوما بشعا من حطام الطائرات ، فقد قضى اليابانيون على الثلث او اكثر من طائرات الجنرال ديفيد سون من طراز ب - ٤٠ وب - ٣٦ .

سأرسل لكم ضابط اتصال !

كان مطار هيكام الذى يضم حوالى ٧٠ قاذفة يغفو هو الآخر تحت شمس الصباح الباكر وكانت طائراته

الجديدة ذات المحركات الاربعـــة من طراز ب - ١٧ المعروفة باسم «القلاع الطائرة» تثير خوف اليابانيين نظرا لمداها وقوتها الضاربة ، ولكن لم يكن هناك غير ١٢ منها . وكانت كل القاذفات تقف الى جوار بعضها متقـــاربة امام حظائرها ، لاحول لها ولاقوة كعصافير فقست حديثا في اعشاشها ، كزميلاتها المقاتلات في قاعدة هويلر .

وفجأة مزق هواء الصباح هــدير محركات يصم الآذان ، واقبلت من الشمال سحابة كاملة من الطائرات المسرعة ، وسرعان ماانقسمت واندفعت في اتجاهات مختلفة ، وتحرك قسم يضم ٩ قاذفات منقضـــة نحو مطـــار هيكام نفسه بقصد تدميره .

كان الجنرال فردريك مارتن قائد القوة الجوية فى هاواى قد نقل مقر قيادته حديثا الى قاعـــدة هيكام ، وكان رئيس اركان حـــربه الـــكفء الـــكولونيل جيمس موليسون يحلق ذقنه عنـــدما بدأت القنـــابل تنفجر فاسرع بارتداء ثيابه وهرع الى مكتبه ، ومن هناك اتصـــل تليفونيا بزميله الكولونيل ولتر فيليبس رئيس اركان حرب الجنرال شورت واخبره بانهم يواجهون هجوما يابانيا فلم يصـــدق فيليبس ذلك وقال :

- لقد فقدت صوابك يا جيمس .. ماذا حدث ؟ .. هل انت ثمل ؟ .. استيقظ . اصح .

ومد موليسون يده بسماعة التليفون ليسمع فيليبس صوت سقوط القنابل واخيرا فهم فيليبس مايحدث فقال : انني اسمعها .. انني اسمعها .. ماذا تريد ان افعل ؟ ثم أضاف : « سوف ارسل لك ضابط اتصال فورا ! »

- وفي تلك اللحظة بالذات انهار السقف

***

وجاء الجنرال مارتن الى مقـــر القيادة بعد موليســـون بحوالى عشر دقائق ، وبدأ الصعود بطريقة آلية الى مكتبه بالطابق الاعلى ، ولكن موليسون اوقفه قائلا :

- لا تصـــعد ياجنرال . ان الامر خطير جدا .. اذا بقيت هنا فسيكون هناك سقفان على الاقل بينك وبين العدو .

وأدرك مارتن سلامة هذا الرأى ، فجلس على مكتب موليســـون بينما احضروا مكتبـــا آخر لرئيس اركان حربه .

كان موليسون شـــديد القلق على رئيسه الذى بدا عليه المرض بوضوح ، وكانت القرحة القديمة فى معدته قد تفتحت فى ذلك الصـــباح واصيب

بنزيف داخلى ، ودل وجههالشاحب وعيناه المرهقتان على انه فى حالةذهول ... ولكنه قال فيما بعد للجنة روبرتس ، كنا نامل عندئذ فى محاولة اصابة حاملات الطائرات اليابانية اذا استطعنا ذلك فاتصلت بالاميرال بلينجر رئيس القوات الجوية البحرية المحلية بتليفون المطار ، لان البحرية مسئولة عن عمليات البحث . وكان الضرب شديدا جدا الى حد ان احدنا لم يكن يسمع الآخر وقد قال لى انه ليست لديه اية معلومات يستطيع تقديمها عن الاتجاه الذى نتجه اليه للعثور على الحاملات .

وعلى اية حال فانه لم يكن لدى مارتن ولابلينجر طائرات كافية باقية لتحدى الاسطول اليابانى ، وكان الرجلان قد أذاعا قبل ذلك بثمانية شهور - فى ٣٠ مارس ١٩٤١ - تقريرا مشتركا يشير الى احتمال وقوع هجوم جوى يابانى مفاجىء من حاملات تحضر الى مسافة ٣٠٠ ميل من الجزيرة ، وقالا ان مثل هذا الهجوم يمكن كشفه مقدما بدوريات منتظمة تقوم بها طائرات بعيدة المدى ولم تكن الطائرات التى تقوم بهذه المهمة قد جاءت بعد ... فهل تذكر احدهما الآن هذا التقرير الشهير الذى بلغ من الدقة والذكاء هذاالحد ، والذى اصبح الآن بلافائدة مع الاسف ؟

رجال شجعان تحت النيران

لم يبق فى جزيرةفورد غيرطائرتين أو ثلاث طائرات من طائرات الدورية البحرية التابعة للاميرال بلينجر فى حالة صالحة للتحليق فى الجو ،وذلك على الرغم من الجهود الباسلة لاصلاح الطائرات التالفة ، وهى جهود اصطدمت فى مبدأ الامر بعراقيل اجراءات الروتين الجامدة ، حتى اضطر الاميرال بلينجر مرة الى ان يأمر بعض جنوده من مشاة الاسطول باستخدام القوة على الامدادات اللازمة .

ولكن فى كثير من الحالات هب الرجال بوحى الغريزة لمواجهة الازمة وضربوا اروع الامثال ، وواجهوا الاخطار بشجاعة نادرة تحت سيل من نيران العدو .

وقبل الهجوم بدقائق قليلة كان الكابتن بروك الين قائد احد اسراب القاذفات بقاعدة هيكام قد تلقى مكالمة تليفونية من زوجته الحامل فى امريكا وكانت تحدثه من بيت ابويها فى فلوريدا فقالت انها تشعر بقلق بشأن سوء الحالة فى الباسيفيك ،

وتساءلت عن موعد عودتها الى هاواى فقـــال لها الاتحضر حتى تتكشف الامور ، وقبل ان يضع السماعة بقليل اهتز الجو بسلسلة من الانفجـــارات العنيفة ، واذ أدرك فورا أن اليابانيين وجهوا ضربتهم لم تخطر ببـــاله غير فكرة واحدة ، هى التحليق بقاذفتـه والقتال ...

وبينما كان يسرع الى منطقة العمليات فى عجلة مثيرة ، وجد أن اليابانيين قد احالوا المكان جحيما .. لقـــد دمرت احدى القنابل الاولى حظيرة لاصـلاح الطائرات ، وانفجرت اخرى فى مبنى للمهمات فتناثرت محتوياته فى الهواء ... وكما حدث فى هويلر ، حدثت اسوأ مذبحة بين الجنود حيث سقطت قنبلة فى قاعة الطعام الكبرى بالثكنات التى تضم ٣٠٠٠ جندى ، بينما كان كثيرون يتناولون افطارهم ...

ومزقت قنابل اخرى موارد الماء ، واصابت مهمات رجال مكافحة الحريق حتى بات من المستحيل اخماد نيران الجحيم التى شبت هناك .

ووسط كل هـــذه الفوضى ، قفز بروك الين الى مقعد القيادة فى احدى القاذفات من طراز (ب ــ ١٧) وحاول التحليق بها ، واســـتطاع ان يدير ثلاثة محركات ولكنه لم يستطع ادارة الرابع ، غير انه تمكن من ابعاد طائرته عن الحطـائر المحترقة ، ثم انضمت الطائرات اليابانية من طراز (زيرو) الى القـاذفات المنقضـــة فى غارات الضرب بالمدافع الرشاشة حتى بدا ان كل دبابير الجحيم قد اطلقت من عقالها .... وكاد بروك يستسلم لليأس .

اجنحة البراءة

كانت هناك ١٢ طائرة من طراز (ب ــ ١٧) فى طريقها من امريكا الى الفلبين وقد تقرر ان تتوقف فى مطار هيكام للتزود بالوقود والخــدمة ، وكان طياروها يشقون الآن طريقهم نحو الجحيم دون ان يدروا لما ينتظرهم هناك . !

وقد ثبت أن هـــذه الرحلة كانت سيئة الطالع الى حد كبير ، فان توقع وصـــول هذه الطائرات ، جعـل الامريكيين على الارض يتجـــاهلون الانذار الواضح من الرادار ، والذى كان من الممكن أن ينقذ الاسطول.. وكان اثنان من الجنود التـــابعين للفرقة الخامسة والخمسين بسلاح الاشـــارة فى محطـة للرادار قرب (كاهوكو بونيت) عنـــد الطرف الشمالى لأواهو قد شاهدوا اشارات قوية على شاشة الرادار .. وكانت هذه الاشارات التى التقطتها محطة

الرادار للطائرات اليـــابانية وهي لا تزال على مســـافة ١٣٦ ميلا ، وعنـــدئذ اتصـــل الجنـــديان بمركز الاستعلامات ، فأجابهما الملازم كيريت تيلور الضابط النوبتجي بالمركز قائلا : « حسنا .. لا تقلقا بشأنها » .. وكان تيلور يعلم أنه ينتظر وصول دقيقة ، ولا يزال هناك وقت أمام القوات الامريكية للتـــاهب ، وامام الطيارين للقفز الى طائراتهم والانطلاق بها لمقابلة الغزاة واحبـــاط محاولات قاذفات الطوربيد التي يقودها موراتا .. كانت تلك آخر فرصـــة للقوات الامريكيـــــة في هاواى وقد أفلتت منهم !



الجنرال ولتر شـــورت : كانت تســـيطر عليه مخاوف حدوث اعمال تخريب محلية !..

الاميرال هاسنيد كيمل : هـــل يبقى الاســـطول في الميناء ام يرســـله الى البحـــرية ؟..

ومضت القاذفات (ب ـ ١٧) بقيادة الميجـــور ترومان لاندون تتجه صوب نيران جحيم مدمرة دون أن يســـاورها اى ريب ، بعد رحلة طويلة مرهقـــــة استمرت ١٤ ساعة وكانوا يحلقـــــون فـــــرادى بدلا من التشكيلات ، وقد أوشـــك وقـــود بعضهم على النفاد ، وكانت كل الطائرات غير مسلحة .

وبينما كانوا يشـــــقون طريقهم وســـــط الســـــحب للاقتراب من (اواهو) ، التقوا بمجموعة تضم عـــددا يتراوح بين ٦ و ٩ طائرات تتجه نحوهم مباشرة من الجنوب ، مجموعة من القاذفات طراز ب ـ ١٧ من أمريكا ، فافترض أن هـــذه هى الطائرات التى ظهرت على شـــاشة الرادار .

كانت الساعة عندئذ حوالى السابعة والربع صباحا ، وفوشيدا وأسطوله الجوى القوى ما زالا على مسافة ٤٥

وظن لاندون أن طائرات السلاح الجوى الامريكى قادمة لتحيتهم ، ولكن فى نفس اللحظة انقضت عليهم الطائرات بنيران مدافعها الرشاشة ، ورأى الطيارون الامريكيون علامة الشمس المشرقة .. وصاح أحدهم فى جهاز الاتصال الداخلى : ياللعنة انهم يابانيون ..

وعلى الفور قام لاندون بعمل مراوغ ، واستطاع لحسن الحظ أن يفلت من الطائرات اليابانية بين السحب ، وسرعان ما كان يحلق فوق (اواهو) ورأى مطار هيكام الآن تحته وقد ارتفعت منه سحب الدخان تغلى كأنها تنبعث من غلاية ساخنة .. وأبلغ الامر لبرج الرقابة ثم قام بدورة واسعة ليبدأ الهبوط من ارتفاع ١٨٠٠ متر ولكن البرج حذره بأن هناك ٣ طائرات يابانية فى أعقابه . ونظر لاندون خلفه فشاهدها تطبق على طائرته كالخفافيش وهم يطلقون عليه نيران مدافعهم الرشاشة وزاد الامرسوءا أن القوات الامريكية على الارض كانت تطلق نيرانها عليه أيضا .. ومع ذلك كله ، واصل هبوطه وهو يترنح ..

ومن الاشياء التى تذكر بالثناء لطيارى القاذفات (ب-١٧) الامريكية انهم استطاعوا الهبوط على أية صورة فى مثل هذه الظروف

فوشيدا يقدر الخسائر

تبدل المشهد الجوى بعد ذلك .. ولم تعد القاذفات والمقاتلات اليابانية تئز كالنحل حول المكان ، فقد عادت الى حاملاتها ما عدا بعض طائرات تحلق دون نظام .. ولم تعد الطائرات اليابانية فى تشكيلات شاملة ، اذ كانت كل منها قد تواعدت على اللقاء بعد انهاء مهمتها عند نقطة تقع على مسافة ٢٠ ميلا شمال غرب (أواهو) .. ولكى تمنع الطائرات الامريكية من تتبعها ومعرفة مكان القوة الاساسية ، استخدمت وسائل خداع متقنة ، فانطلق كل منها غربا مسافة ٣٠ ميلا قبل أن تتجه جنوبا مرة أخرى .. وكان بعضهم يتجه الى ناحية عكسية لمكان حاملته تماما .

كانت طائرات الطوربيد أول من غادر منطقة القتال ، وما أن ألقت طوربيداتها ، حتى تولت بعض الطائرات المقاتلة حراستها ، وانطلقت نحو نقطة الالتقاء ، وكانت هناك رياح شرقية قد أتاحت لهم ظروفا مثالية للهجوم ، اذ ارتفع الدخان الناتج من اصابات القنابل ونيران

المدافع المضادة فوق جزيرة فورد ، واخفى طائرات الطوربيد التى تحلق على ارتفاع قليل مما أتاح لهم القاء نظرة شاملة على الهدف .. وعندما اتجهوا شمالا ، كانوا يعرفون انهم انزلوا خسارة فادحة بالاسطول الامريكى .

وكان فى استطاعة القاذفات المنقضة ايضا أن تلقى نظرة متفرسة .. ففى



الكومندور لوجان رامسى : احصل على رقم هذا الرجل ....

حوالى الساعة الثامنة وعشر دقائق ، اتصل الكومودور كاكويش تاكاهاش بالقوة الاساسية وأبلغها رسالة لاسلكية قال فيها : « ألقيت القنابل على جزيرة فورد وهيكام وهويلر ونزلت بها خسائر رهيبة » ..

وكانت خسائره هو عبارة عن أحد قواد القاذفات المنقضة ، ولم تفقد المقاتلات غير ثلاث طائرات فى حين أن هجماتها على القوة الجوية الامريكية كانت فاتكة ، واسقطت طائرات (زيرو) اليابانية عددا من طائرات المطاردة الامريكية فى مطار بيلوز عندما تأهبت للتحليق فى الجو

وقد واصل «فوشيدا» الدوران فوق اواهو محاولا تقدير الخسائر التى وقعت ليقدم تقريرا كاملا عنها عند عودته . كانت النيران المضادة للطائرات قد ازدادت قوتها الآن ، ولاسيما من السفن والميناء ، بحيث بات من العسير عليه اختراق غلالة الدخان والنار ليرى ماتحتها ، ولكنه استطاع بمواصلة المناورة أن يقدر الموقف .

لقد أحالت غارات الطوربيد والقنابل الميناء الى بيت محترق يمتلىء بالموتى وفى كل مكان رجال يجرون هنا وهناك أو يقفزون فى الماء ويسبحون نحو الشاطىء .. الكل يحاول يائسا الفرار من الزيت الخانق واللهب الزاحف الذى يهددهم فى كل اتجاه .. وبدا أن كل البوارج تقريبا قد غرقت أو احترقت أو أصيبت بتلف بالغ .

وفى الساعة ٨ و٥٥ دقيقة سمع فوشيدا اشارة هجوم الموجةالثانية التى كانت الآن فوق الجانبالشرقى لاواهو ، وقبل أن يستدير للعودة الى حاملة طائراته ، رأى القاذفات التى جاءت حديثا وهى تحلق فوق جزيرة فورد ، وكان يعتزم توجيه بعض التعليمات لهذهالموجة الثانية ، ولكن السرعة التى بدأت تنفذمهمتها بها جعلت مثل هذه الاوامر غير ضرورية .

وبينما كان فوشيدا يعود الى حاملة الطائرات (اكاجى) وقد امتلأت نفسه رضاء ، لميكنيستطيع التنبؤ بالاثرالاخير للصاعقة الرهيبة التى القاها على المعسكر الامريكى.. ولم يعرف قط أنه أيقظ عملاقا من غفوته ، وغير مجرى تاريخ اليابان تغييرا لا رجعة فيه ..

الموجة الثانية

مر حوالى نصف ساعة بيننهاية هجوم الموجة الاولى وبدء الثانية ــ وهو وقت كاف لازالة الانقاض من ممرات الطائرات ونصب المدافع الرشاشة والمدافعالمضادة للطائرات، واصلاح الطائرات التى لا تزال صالحة للتحليق، والاستعداد لمواجهة الضربة الثانية المنتظرة فى أية لحظة

.. كانت كل منشأة عسكريةفىأواهو خلال تلك الفترة القصيرة الهادئة تعج بنشاط محموم كقرية النمل.. ولكن العمل توقف عندما انقض الاسطول الجوى الثانى ــ الذىيضم ١٧٠ طائرة يابانية هذه المرة ــ قادما من الشمال ..

ومرة أخرى دوى هدير معركة (أواهو) فى ثورة لا تهدأ .. قنابل تنفجر وطائرات تصرخ ومدافع تنطلق ، وانقاض تطير .. وحظائر الطائرات تتمزق ، والسفن تتلوى والمبانى تحترق .. ورجال جرحى ومحتضرونفى كل مكان ، كانالدخان برائحته الكريهة أسود كثيفا الىحد حال دون القاء القنابل اليابانية بدقة

ومرةأخرى قاتلتالقوات الامريكية بشجاعة ضد احتمالات مؤلمة .. وبعد أن فقد طيارو الموجة اليابانية عنصر المفاجأة الذى كفل السلامة للموجة الاولى ، سرعان ما أدرك الطيارون انهم فى معركة حقيقية ، فقد كانت نيران المدافع المضادة تنطلق عليهم شديدة حامية ..

وكان هجوم الموجة الثانية كله بالقاذفات المنقضة فقط والمقاتلات وقاذفات القنابل ذات الارتفاع العالى ، نظرا

لان طائرات الطوربيد الثقيلةالحركة لاتستطيع الوقوف أمام عدومتيقظ، وقد صـدرت التعليمات للمهاجمين بالتركيز على السفن التى أصيبت بتلف بالغ وتدميرها حتى لا يمـكن انقاذها ، ولـكن الدخان الاسـود الكثيف المنبعث من هذه السـفن جعل الرؤية مستحيلة ، ومن ثم لم يكن أمام القـاذفات من خيار الا الانقضاض على السفن التى أفلتت دون اصابة أو أصيبت بتلف قليل .

وخلال الهجوم رأت بعض القاذفات البارجة «نيفادا» ــ ٢٩ ألف طن ــ وهى تحاول الهرب الى البحر فانقضت عليها كما تنقض الصقور على أوزة سمينة ، وكانت البـارجة تتحرك ببطء نحو القناة الخارجية بعد ان أصـابها طوربيـد فى الموجة الاولى أحدث فيهـا فجوة بحجم منزل ، وبدت فرصـة ذهبية لاغلاق قاعدة بيرل هاربور ، باغراق هـذه الـكتلة الضـخمة من الصلب فى القنـاة الرئيسية . . ولو حدث ذلك لاستغرق الامر عدة شهور لازالة مثل هـذه العقبة ، وفى غضون ذلك لن تستطيع اية سـفن من أسطول الباسيفيك الدخول أو الخروج ، وتجد السفن التى فى البحر نفسـها معزولة عن قاعدتها الرئيسية التى تتزود منها بالوقود والاصلاح والتموين .

واسـتطاعت القاذفات اليابانية المنقضة اصابة البـارجة الامريكية بخمس قنابل على الاقل ، ولكنها لم تستطع اغراقها وارسل الريراميرال وليم فيرلونج الذى اشترك فى المعركة منذ القنبلة الاولى ، قاطرتين بحريتين لابعادها من القناة ، فاسـتطاعت البارجة «نيفادا» بما بقى فيها من قوة وبمساعدة القاطرتين أن تصـل الى الجانب الآخر من القناة حيث جنحت على القاع . . وكانت القنابل قد أشعلت عدة حرائق بهـا ولكن القـاطرتين أطفـأتاها . . وعاشت «نيفادا» وأصبحت من أوائل ضحايا بيرل هاربور التى عادت الى العمل .

وفى الساعة التاسـعة والدقيقة الخـامسة والاربعين أتمت الموجة الثـانية مهمتها ، وانسحبت تاركة سموات أواهو للهيب والدخان . . ومن العسير تقدير مدى الدمار الذى أحدثته كل موجة فى هيـكام وغيره من المطارات ولكن هناك نقطة لاخطأ فيها ، وهى ان القوة الجوية الامريكية فى هاواى أصيبت بخسائر تشـبه فى ضخامتها النسبية ما أصاب القوة البحرية ، ان لم يكن أكثر !

الفرصة الضـــائعة

بدأت طائرات الموجة الاولى تصل عائدة الى مركز القوة الهجـــومية حوالى العاشرة صباحا ، وتبعتهـا طائرات الموجة الثانية بعـد حوالى ســاعتين ، وكان الجو قد ازداد سوءا ، والامواج العـــالية والرياح الغادرة تجعل الهبوط عسيرا ، مما أدى الى كثرة الاصابات عند الهبوط ، واضطروا لالقاء بعض الطائرات التى أصيبت أثناء هبوطها فى البحر لاخلاء الاسطح للطائرات التى نفد وقودها وكانت تحلق فوق الرؤوس بصبر نافد .

وفوق ظهــــر حاملة الطـائرات « هيريو » انتظر الضباط الاطبـاء على السطح مستعدين لنقل الجرحى الى المستشفى وكانت آثار الاصابات العديدة على الطائرات القادمة تجعلهم يخشون أســوأ الاحتمالات ، ولكن من الغريب انه لم يصـــب أحد من الطيـــارين فى أى من الموجتين من التابعين للحاملة « هيريو » ، ولكن بعض السفن الاخرى كانت أقل حظا ، اذ مات ضـــابط صف مصابا على ظهر الحاملة « اكاجى » ودفن فى البحر .

وبعـد العودة الى (ندويكاكو) توجه الملازم « ماساو ساتو » الى غرفة اللاسلكى وأصغى الى الرسائل الواردة من قاذفتين ضلتـــا الطريق وكانتا تريدان معرفة موقع القـوة الاساسية ، ولكن الســـفن كانت تحتفظ بصمت لاســـلكى تام فلم تستطع الرد ، واخيرا قالت القاذفتان ان وقودهما قد نفد وانهما ستسقطان فى البحر ..

كانت الخسائر تافهة نسبيا ـ ٢٩ طائرة فقدت فى القتال وعدد قليل آخر فقد فى البحر أو تحطم عنـد النزول ، بينما عادت أكثر من ٣٠٠ طائرة ســـالمة . لقد نجح الهجوم أكثر مما كانت أكثر آمال اليابانيين تهورا تتوقعه ، وكان الطيارون على ظهر الحـــاملات الست مبتهجين الى حد هيستيرى

وعلى ظهر (اكاجى) ســـفينة قيادة الاسطول كان التأثر والسرور يسريان كالكهرباء ، وكانت الساعة قد جاوزت الحـــادية عشرة عندما هبط فوشيدا على سطحها بطائرته الممتلئة بالثقــوب وكان جينـدا فى انتظاره فاعتصر يده فى سرور بالغ ، وبعد أن تبادل الرجلان التهـــانى ، عادا جيندا الى الجسر بينما جمع فوشيدا قادة الجمـــاعات المختلفة

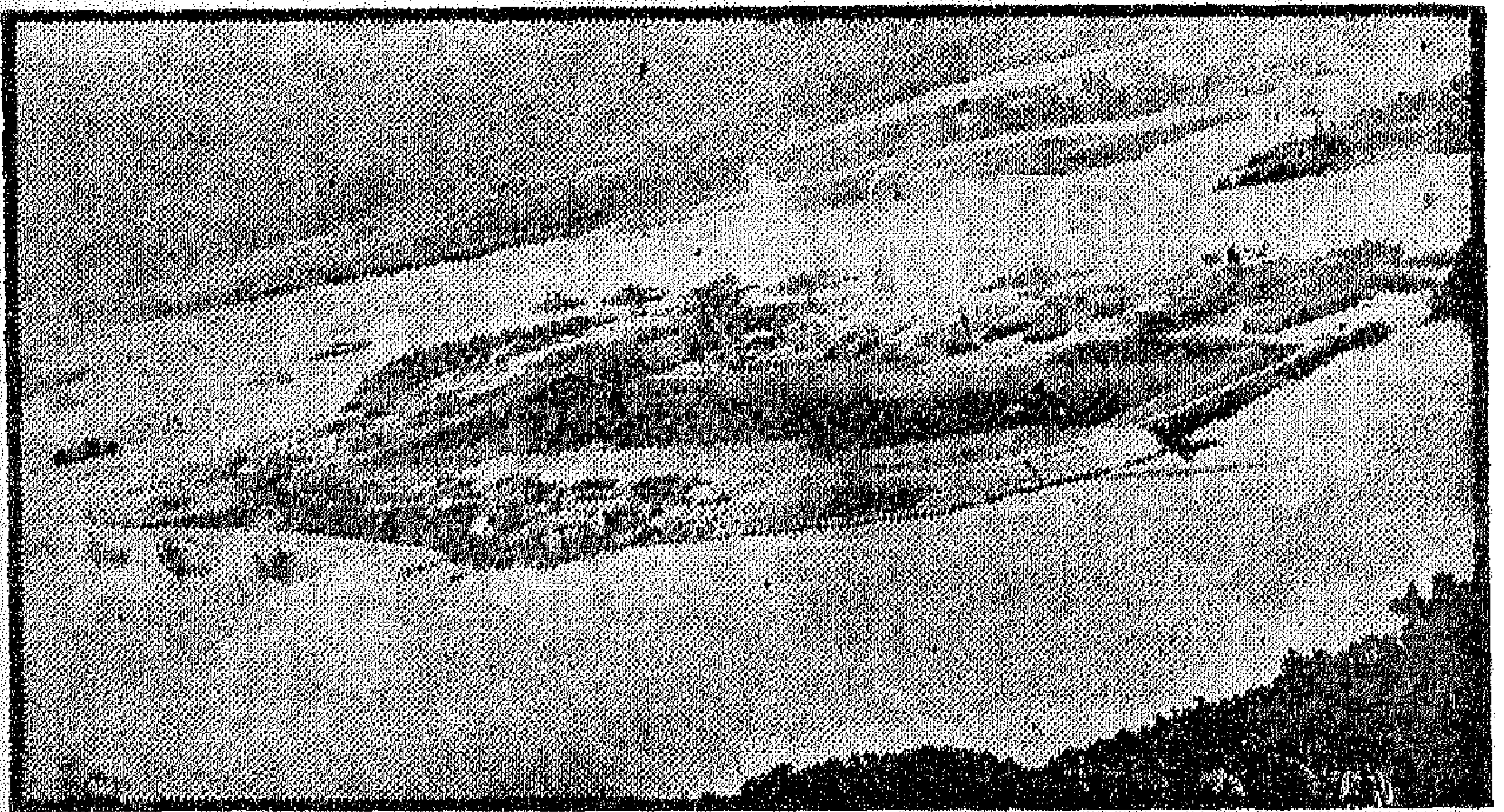
ليقدموا تقاريرهم ..

وبعد أن ذكر كل طيار ما فعله أمكن تقدير نتائج الهجوم ، وساعدت المعلومات الواردة من بقية حاملات الطائرات على اعداد التفاصيل التى سرعان ما كونت صورة للخراب الشامل الذى أصاب بيرل هاربور ، ولكن هذه التقارير الدقيقة لم تستطع اخفاء الحقيقة ... وهى أن كل جماعات الطيارين كانت تتنافس للعودة واتمام مهمة التدمير .

كانت فرصة ذهبية تركها اليابانيون تفلت من أيديهم ، وعندما دعى فوشيدا ليقدم تقريره عن الغارة للاميرال ناجومو القائد العام للقوة المهاجمة ، أراد فوشيدا بالحاح أن يشن هجوما أخيرا كاسحا على القاعدة الامريكية مؤكدا أن الامريكيين لم تعد لديهم قدرة على الرد على الضربات ، ولكن ناجومو ابتسم فى رضاء . وبدا أنه لا ينوى استغلال الموقف .. والواقع أن هدفه الوحيد كان العودة الى اليابان بأسرع ما يستطيع ..

كان ناجومو أميرال بارجة تقليديا لم يدع قط انه يفهم القوة الجوية ، ولم يكن مستريحا الى عملية بيرل هاربور كلها ، ومع أن نبوءاته المتشائمة

التقطت هذه الصورة من طائرة يابانية خلال الهجوم على جزيرة فورد
وترى نافورة الماء التى انبثقت نتيجة قنبلة كادت تصيب البارجة اوكلاهوما



لم تتحقق وعادت سفنه سالمة ، فانه أراد الابتعاد بهـا ، ولعله كان يرى أن أعظم مساهمة يقـدمها لمشروع الحرب الشـاملة اليابانى ، هو أن يعيـد قواته سـالمة لان مهام اخرى مهمة تنتظرها .

وأبلغ الاميرال ياماجوتشي ـ قائد الفرقة الثانية من حاملات الطائرات « ناجومو » انه يسـتطيع اطلاق موجة ثالثة من سفنه فورا لشـن هجوم آخر ، وأيده جيندا وفوشيدا لدى ناجومو ولـكن دون جـدوى

وفى تلك المرحلة كان فى استطاعة الاميرال « ايزوروكو » وحـده أن يعيد ناجومو الى « أواهو » باعتباره رئيسه المباشر والقائد العام للاسطول المشترك ، ويمكنه أن يأمره بهجوم جديد على البحرية الامريكية يقضى عليها قضاء مبرما .

وقد تابع ياماماتو واركان حربه انباء الغـارة على بيرل هاربور بقلق شـديد على ظهر « ناجاتو » التى كانت تقف فى هاشيراجيما فى البحار الداخلية ، وجاءت انبـاء لاسـلكية سارة من الطائرات اليـابانية تقول « أن بوارج العدو أصيبت بخسائر فادحة» وأن «جزيرة فورد تحترق» .. وليس هنـاك أى تدخل جوى أمريكى .. فضلا عن الرسـائل الامريكية التى استبد بها الانزعاج : «كل السفن تبتعد عن بيرل هاربور» .. وكان كل هذا يتحدث عن نجاح ساحق ..

ولـكن بيرل هاربور كانت مجرد واحدة من مسئوليات ياماماتو الكثيرة .. وكانت هناك عمليـات أخرى للاسطول تجرى فعـلا ضمن خطة معقدة تشمل أغلب الباسـيفيك ، ومن ثم فقد ترك اتخاذ القرارات التاكتيكية للقائد الموجود فى مسرح المعركة ، وهو ضابط مفرط فى الحذر .. وكان حرص الاميرال «ناجومو» يرجع بعضـه الى حقيقة ان اليابانيين يقاتلون حرب الرجل الفقير ، فمن اليسير جدا أن تكون جريئا وعدوانيا اذا كان فى امكانك أن تتحمل ذلك ، واذا ضاعت سفن أمريكا فان الدولة تستطيع أن تبنى غيرها فى حين أن كل اميرال يابانى كان يسأل نفسـه : « هل يتسنى تعويض سفينتى اذا فقدتها ؟ » لقد كانت قدرة اليابان على أن تبنى سفنا مقيدة لا بالعجز فى المواد الاسـتراتيجيـة والآلات والوقود فحسب ، بل بعـدم الكفاية أيضا فى المعـلومات الفنية والايدى المدربة ، فضلا عن أن اقتصـادها

الضعيف لا يكاد يستطيع ان يتحمل مقابلة ضربة بضربة مع الصناعة الامريكية الضخمة

كان ناجومو يشعر انه رجل فى بيت قمار ، قامر بمدخرات حياته كلها على قلب ورقة وكسب، وكانت فكرته الوحيدة هى أن يقبض ربحه ويعود الى بيته .

وهكذا اقلعت القوةالمهاجمةمتجهة الى الوطن فى حزم ، وقد بلغ من غضب فوشيدا على ذلك الحذر المفرط انه لم يتحدث مع الاميرال ناجومو الا نادرا طوال الرحلة كلها.

فوضى فى أواهو

فى الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم المشئوم ، توجه أحد سعاة التلغراف الى مقرالاميرال كيمل يحمل برقية من الجنرال جورج مارشال الى الجنرال شورت ، وقد أرسلت نسخة منها الى كيمل لابلاغه النبأ وهذه الرسالة ـ التى أرسلت بالطرق التجارية ووصلت بعد انتهاء الغارة بأكثر من خمس ساعات ـ ذكرت لقوات الدفاع عن الجزيرة ان اليابانيين قدموا انذارا نهائيا فى السابعة والنصف صباحا بتوقيت هونولولو ، وانهم يجب أن يكونوا فى حالة تأهب !

وتفرس كيمل فى البرقية بغضب وحيرة ثم القاها فى سلة المهملات . . لقد أصبحت أهميتها الآن تاريخية بحتة . .

هذا الحادث يبدو أنه لم يكن غريبا وسط الفوضى الضاربة أطنابها والتى سادت فى أواهو ، فلم يكن هناك من يعرف مثلا من اين جاءت الضربة، والعجيب أن أحدا من الطيارين الامريكيين لم ينجح فى تتبع الطائرات اليابانية فى عودتها الى حاملاتها التى كانت تقف على مسافة ٢٠٠ ميل شمالا . .

وكانت الانباء الاولى تتفق على أن المهاجمين جاءوا من الجنوب فأرسلت كل طائرات البحث الموجودة للتفتيش فى تلك المنطقة !. . فى حين ان محطة اوبانا للرادار أظهرت ان طريق العودة كان يتجه الى الشمال، ولكن هذه المعلومات الدقيقة تجوهلت . . ربما لان الرادار كان حديثا جدا حتى أن الضباط الامريكيين كانوا لا يثقون فيه

واجتاحت الجزيرة شائعات خيالية لقيت تصديقا على نطاق واسع ، فقيل ان المزارعين اليابانيين فى هاواى صنعوا سهاما فى حقول القصب مصوبة نحو بيرل هاربور ، كما قيل

ان سيارات يقودها مخربون يابانيون تعمدت سد الطرق الى بيرل هاربور . وهي شائعات ثبت عدم صحتها وقيل ان اليابانيين يهبطون على الشـــاطىء الشمالى فى (دياموند هيد) وكان الغزو اليابانى متوقعا فى اية لحظة ، وقد وزع الجنرال شـــورت ألوفا من رجاله فى أوكار للبنادق لصده ،وكان بينهم رجال من سلاح الطيران ، كان فى استطاعتهم لولا ذلك اصـــــلاح الطائرات التى اصابها العطب •

وعاش المدافعون عن اواهو بقيـــة يوم ٧ ديسمبر كما يفعل رجل يتنقل فى منزل مســـكون نصف مذعور ، يقفز ليرى رؤية الظـــلال ، ويضرب بوحشية كل مايعترض طريقه ،وعندما عاد الطيارون الذين ذهبوا للبحث عن الحاملات اليابانية ، أسقطهم زملاؤهم الذين اسرعوا الى اطـــلاق نيرانهـــم بهيستيرية بالغة ، بل ان سفن الانقاذ التى كانت لاتزال تحاول التقـــاط الرجال من المياه الملوثة بالزيت بعد حلول الظلام ، كان مشاة الاســـطول يطلقون عليها النار بعصبية ••

حساب الخسائر

قال الاميرال كيمل فى شهادته أمام لجنـــة روبرتس للتحقيق ، وبأمانة نموذجية لا زيف فيها : « ينبغى ان اقول ان الغارة الجوية كانت مناورة عسكرية دبرت بطريقة بديعة ونفذت بطريقة بديعة ، واذا طرحنا جانبـــا ما فيها من خيانة لاجدال فيها • فاننى اقول ان اليابانيين قاموا بعمل رائع »

وقد اظهرت دراسة الخسائر ان اليابانين اغرقوا وقلبوا او اتلفوا بشدة ثمانى بوارج وثلاثة طرادات خفيفـة وثلاث مدمرات واربع سفن مساعدة وشـلوا حركة ما يبلغ مجموعه ٣٠٠ الف طن ، ووجهوا للبحرية الامريكية اعنف ضربة محطمة فى تاريخهـــا ، فضلا عن محو كثير من المنشآت فى مطـــارى هيكام وهويلر وغيرهما من المطارات ودمروا ٦٤ طائرة من طائرات قوات هاواى الجوية وعـــددها ٢٣١ وتركوا مالايزيد على ٧٩ من الطائرات الباقية يمكن استخدامها فورا واخيرا فقـــد اتلفوا اكثر من نصف طائرات القوة البحرية للجزيرة •

ولكن كيف يعلل المرء هذه الخسائر الرهيبة ؟ •• ان اليابانيين باستغلال مزية المفاجأة قد تغلبوا على القوات الامريكية ببساطة بالقاء ٣٥٣ طائرة ضدها فى جزيرة واحدة ســاحقة ، وهو عدد مذهل فى ذلك الحين ، ولكن كثيرا من التدمير أيضا كان نتيجة للفن الجـــديد لحرب الطوربيد الجوى •

وكان القـــادة البحريون الامريكيون يعتقـدون ان الطوربيد الجوى لايمكن اطلاقه بنجاح فى ميـاه بيرل هاربور الضحلة ، ولكن اليابانيين حلوا هذه المشكلة فى اللحظة الاخيرة ،وابتكروا كذلك قنابل فتاكة تخترق الدورع من القنابل عيار ١٦ بوصـــة التى كانت تســـتخدمها بوارجهم ، وكانت تلك مفاجأة للقوات الامريكية ايضا •

ولكن النصر اليابانى كان ابعد من أن يكون كاملا ، فقـــد واجهوا أكبر خيبة امل عندما فشلوا فى تدمير اية واحدة من الحاملات الامريكية الثلاث، فافلتت « انتربرايز » بمعجزة ، اذانها بعد عودتها من جزيرة (ويك) انقذها تأخير الهى بسبب مشـــكلة تزويد المدمرات المصاحبة لها بالوقود وسط الامواج الشديدة ، ولهذا كانت على مسافة ٢٠٠ ميل من (أواهو) عندما شن فوشيدا اولى موجات الهجوم •

كما فشل الطيـارون اليابانيون ايضـــا فى تحطيم ورش الآلات فى (اواهو) وهي مرافق ثمينة جـــدا استطاعت اصلاح السفن المصـــابة ، وكذلك تركوا خزانات البترول سليمة وكان فيهـــا كميات الوقود الهـائلة اللازمة لابقاء الاسطول يتحرك ، ولو انها فقدت ، لاضطرت بقية الاسطول الامريكى الى الهرب الى كاليفــورنيا وتسليم قيادة الباسيفيكى لليابانيين عدة شهور •

واخيرا فان الدور الذى لعبتـــه الغواصات اليابانيـــة فى هجوم بيرل هاربور كان فاشلا الى حد ان رجال البحرية اليابانية مازالوا حائرين حتى اليوم فى تفسيره •• ففى ٧ ديسمبر كان مجموع غواصات الاميرال كيمل فى بيرل هاربور هو تسع غواصات ، وقد أرسل اليابانيون ضدها ٢٥ غواصة كبيرة وخمس غواصات صغيرة تتسع كل منها لرجلين •• هذه الغواصات الثلاثون كانت تشق طريقها خـــلال المياه المظلمة للباســـيفيك قبل ذلك بأيام ، وكانت كلها تقف حول اواهو قبل الهجوم الجـــديد بفترة طويلة ، وكان المتـــوقع ان تلعب دورا مهمـــا فى الهجـــوم ، وذلك بان تتـــولى الغواصات الصغيرة الاجهاز على السفن التى أصـــيبت داخـــل البنـــاء بينما تنقذ الغواصات الكبرى الطيارين اليابانيين الذين يسقطون فى البحر ، وتقوم باغراق السفن الامريكية التى تحاول دخول القاعدة او مبارحتها •

ويبدو ان الغواصات اليابانية لم تكن مدربة جيدا كالطيارين ، فقـــد كانت حاملة الطـــائرات انتربرايز

والطرادات الثلاثة المصاحبة لها تمثل اهدافا مغرية ، وكذلك بقية السفن الامريكية الاخرى . ولكن سفن الاميرال كيمل كانت متأهبة تماما وقد احبطت كل محاولة ضدها ، فاغرقت غواصة كبيرة و ٤ من الغواصات الصغرى ، وجنحت الخامسة واضطرت للاستسلام ، ولم يحقق الاسطول الياباني تحت الماء شيئا .

تحية للابطال الغزاة !

لم يكن ذهول اليابانيين بعد انباء الهجوم على بيرل هاربور اقل مما اصاب الامريكيين ، فقد كان تأثرهم شديدا ، وقد راح باعة الصحف يذرعون الطرقات بلا انقطاع وهم يدقون اجراسهم .. كان كل نبأ جديد حجة جديدة لاصدار ملحق جديد .. وجاء فى افتتاحية مثيرة لصحيفة « منيتشى » : لقد حان يوم زحف ١٠٠ مليون من مواطنينا .. أقبل اليوم الذى كنا ننتظره بفارغ الصبر .

واستمر ترديد الحان الابتهاج الشعبية على الرغم من تحذيرات الزعماء السياسيين والعسكريين الجدية بان اياما عصيبة تنتظرهم ، وكانت عناوين الصحف كلها تتباهى بأن « اليابان لم تعد دولة لاتملك شيئا: وان التاريخ اليوم فى جانب المحور » وقال محرر صحيفة (نيتشى نيتشى) ان شعارنا اليوم هو « ان القوات الامبراطورية لاتقهر » .

كانت البحرية « موضوعة على الرف » منذ أمد بعيد فى حين أن الجيش كان يتمتع بدفء التأييد الشعبى ، وقد حان الآن دور البحرية ، وانهالت عليها عبارات الاطراء والتمجيد ، وارتفعت سمعة الاسطول الامبراطورى الى عنان السماء ... وعندما عاد الاسطول الجوى الاول فى ٢٢ ديسمبر من رحلته المنتصرة ، اقيمت المهرجانات الكبرى والقيت خطب التهنئة والمديح .. حتى الاميرال اوسامى ناجومو رئيس اركان حرب البحرية الذى عارض أصلا خطة ياماماتو الجنونية ، كرر امام الجمعية قوله : « يوكوياتا .. يوكوياتا » اى رائع ! رائع !

وفى خلال كل هذه الاحتفالات لوحظ ان هناك رجلا واحدا ظل صامتا ... انه الاميرال ايزوروكو ياماماتو الذى رغم سروره وروحه العالية ، كان يتطلع الى المستقبل فى حذر .

وقال لبحارته المنتصرين : « لقد كانت عمليتكم ضد بيرل هاربور نجاحا عظيما .. ولكن لابد لكم من الحذر

التام من الغرور ، فهناك معارك كثيرة امامكم » .

وكان الكومودور ميتسو فوشيدا هو بطل الساعة بصفة خاصة ، وقد سعى الصحفيون لاخذ الاحاديث منه وانهالت عيه كلمات المجد والاطراء واخيرا منح اعظم تكريم يمكن أن يطمح فيه أحد من اليابانيين ،عندما أعرب الامبراطور عن رغبته فى الاستماع الى تقرير شخصى عن الهجوم الرائع .. وقد رتب الاميرال ناجومو مقابلة مع ابن السماءواحضر معه فوشيدا وشيجيكارو شيمازاكى الذى قاد الموجة الثانية ، وكان مثول ناجومو امام الامبراطور لايشكل اى مشكلة لانه اميرال ، ولكن رتبة فوشيدا وشيمازاكى كانت تثيرورطة امام سدنة الاتيكيت فى القصر الامبراطورى ، وقد توصلوا الى حل بترقية الطيارين مؤقتا الى رتبة « مساعد خاص لرئيس اركان حرب الاسطول » .

وامتدت المقابلة التى كان مقررا ان تستغرق ١٥ دقيقة الى ٤٥دقيقة وتحدث فوشيدا الى الامبراطورراسا ردا على اسئلته رغم ما فى ذلك من مجافاة للبروتوكول . . وكان هيروهيتو قلقا بصفة خاصة بشان اصابات غير المحاربين ، والاطمئنان الى عدم اصابة أية سفن مستشفى فى بيرل هاربور أو ضرب أية طائرات مدنية أوطائرات تدريب غير مسلحة ، وقد طمأنه فوشيدا الى ان ذلك لم يحدث .

وكان فوشيدا مضطربا خلال المقابلة كلها يتعثر فى بعض الكلمات ويضغط يديه فى عصبية وقد أحس براحة كبرى عندما انتهت هذهالمحنة وقال ان الهجوم على بيرلهاربوركان أسهل كثيرا من الحديث عنه مع الامبراطور .

ملحمة مأساة اليابان

كان طريق النزول غير مستو عندما بدأ ، ولكنه كان منذ البداية تقريبا قاسيا لايلين .. لقد أثمرت المقامرة الهائلة فى بيرل هاربور أعظم نصر قدر لليابان أن تكسبه ، وقد حاربت الحرب الطويلة المؤلمة التى تلت ذلك بكل البراعة والشجاعة التى كانت من امجادها ، ولكن جيش هيروهيتو وبحريته لم يصلا بعد ذلك قط الى ذروة الهجوم الاول ، ولم تتح لهما بعد ذلك الفرصة لاستغلال موهبتهم فى العمل الدءوب والتصميم الرائع والصبر الذى لا ينفد استغلالا كاملا .

وقد انطلق الاسطول اليابانى بعد

بيرل هاربور فى انحـــاء الباسيفيكى كسرب من الحيتان القاتلة ولكن فى اقل من ستة شهور ، أغرقت أربع من حاملات طائراته الثمينة فى معركة (ميـــدواى) وهى أكاجى وكاجا وسوريو وهيريو ، وعكست هـــذه الهزيمة المذهلة تيار الحـــرب فى الباسيفيك ، بينمـــا هبطت حملة (سايبان) ومعـــركة خليج لايت بالاسطول الامبراطورى الى أسطول « بركة صيد » .. وفى نهاية الحرب أصبح المبنى الاصـــفر الكبير الذى يضم أركان حرب البحـــرية كتلة متفحمة لاحياة فيها من الانقاض .

وعاش جنيدا الى نهـاية الحرب ليصبح بعد ذلك رئيسا لاركان حرب السلاح الجوى اليابانى الجـــديد وعضوا فى البرلمان اليابانى وصديقـــا لامريكا .. اما فوشيدا الذى أصيب بشظايا (شرابنـــل) فى ساقيه خلال معـــركة ميـــدواى عنـــدما غرقت (اكاجى) فقد عاش ليصبح قسيســا مسيحيا تقيا ، ولـــكن أغلب الذين اشـــتركوا فى ضربة بيرل هـــاربور قضى عليهم فى النيران التى أشـــعلوا لهيبها .. فلقى شيجيرو اتيايا قائد الطائرات (زيرو) مصرعه فوق جزر كوريل فى ٢٤ يوليو ١٩٤٤ عنـــد ما اخطأ طيارو الجيش اليابانى وظنوه عـــدوا واســـقطوا طائرته ، ولقى تاكاهاشى قائد القاذفات المنقضـــة فى اسطول فوشيدا حتفه فى ٨ مايو من نفس العام بينما سقط شيمازاكى قائد الموجة الثانية فى البحـــر بين الفلبين وفورموزا فى ٩ يناير ١٩٤٥ وسقطت طائرة الكومودور ايجوســـا قائد القاذفات المنقضة الذى أصبـــح اسطورة حية فى الحرب ، محترقـــة فوق سايبان فى ١٦ يونيو ١٩٤٤ .

أما الاميرال ياماماتو قائدالاسطول فقد مات وهو يقوم بجولة تفتيشية فى الجبهة فى ١٨ أبريل ١٩٤٣ وكانت المخابرات الامريكية قد كشفت سر الشفرة اليابانيـــة وعرفت تحركاته ونصبت له كمينا بطائرة امريكيـــة فوق احدى الغابات .

ولعل احدا من هؤلاء الضحايا لم يكن يريد أن يعيش فى اليابان التى واجهت هذا المصير الفاجع .

درس فى الحـــرب

كان من الممكن أن تكون الخسارة فى بيرل هاربور أسوأ كثيرا مما حدث فقد فشـــل اليابانيون فى تدمير الساحة البحرية وورشها الميكانيكية الحيوية وخزانات الوقود التى تحوى شريان الاسطول الحيوى ، والواقع

أن قرار كيمل بابعاد سفنه عن الميناء في نهاية الاسبوع كان قرارا حكيما، اذ لو أغرقت طائرات ناجومو سفنه في البحر لضاعت الى الابد ، في حين أن الكثير منها عاد ليقاتل فيما بعد.

ولم يكف جنيدا عن العويل لان ناجومو لم يسمح لطياريه بالعودة للقضاء على السفن الامريكية القضاء الأخير ، وكان يقول انه لو حدث ذلك لتغير مصير الحرب في الباسيفيك الى حد كبير . ويتفق كثيرون من رجال البحرية الأمريكية في ذلك ، وبينهم الاميرال تشستر نيمتز الذي خلف كيمل في قيادة هاواي فقد كتب يقول: « ان الذين سيدرسون حربنا في الباسيفيك فيما بعد سيعترفون ولاشك بأن قائد الحاملات اليابانية المهاجمة أضاع فرصة ذهبية بقصر هجومه على بيرل هاربور على عمليات يوم واحد ، وعلى الاهداف المحدودة التي اختارها »

ولكن بيرل هاربور لم تكن صورة كارثة لا شفاء منها — عدا الخسائر الفادحة في الارواح — بل ان بعض قواد البحرية الامريكية يعتقدون أن اليابانيين « قدموا معروفا لنا » باغراق كثير من « قطع الحديد الخردة القديمة » وجعل حاملة الطائرات هي « قلب القوة البحرية الجديدة » كما أن اليابان نبذت الثمار الناضجة لحياد مفيد بخوضها حربا حامية مع أمريكا ، ويجعل هاواي الهدف الأول لهجومها المذهل وحدت أمريكا المنقسمة انقساما سيئا ، وقضت على ميلها الى العزلة .. واعترف الاميرال شو يشي هارا قائد الفرقة الخامسة لحاملات الطائرات اليابانية بذلك بقوله : « كان ينبغي على الرئيس روزفلت أن ينعم علينا بأوسمة ! » .



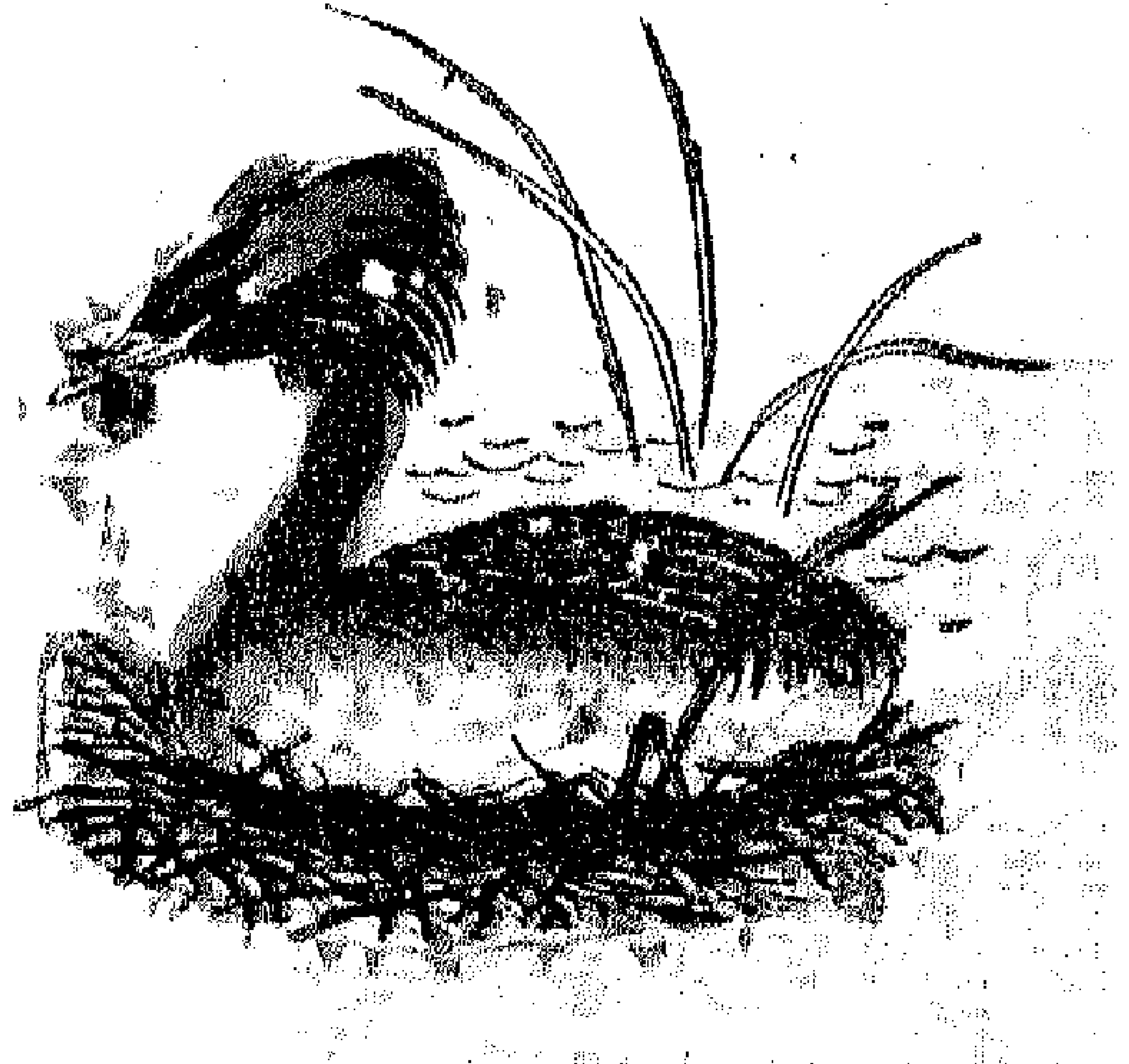
للظواريء !

شوهد شخص عار ذو لحية طويلة يخرج من البوابة الامامية لاحدى مستعمرات العراة ، وعندما سئل عما اذا كان يعتقد ان اللحية شيء غير عادي لاحد أنصار مذهب العري .. قال:

— قد يضطر الانسان للخروج لاحتساء قدح من القهوة !

« امنح الطبيعة اى بيئة ، وهي كفيلة بان تعد لها مخلوقاً . وكثيراً ما يكون بعض هذه المخلوقات لاتكاد يصدقها العقل »

سلاح لكل مخلوق



يأكل الريش ، وحيوان ثديي لايشرب قط ، وسمكة ينبت فى راسها دوبارة للقيد ودودة لاصطياد السمك الآخر .. اهذه مخلوقات تراها فى الكابوس ؟ كلا ! بل هى موجودة معنا فعلا وتشاركنا فى سكنى هذه الارض .

لقد فطرت الطبيعة اكثر الحيوانات لتلائم الوجوه الكثيرة للارض فالايائل للمستنقعات ، والسناجب للاشجار ، والجمال للصحارى ، والضفادع لمجموعات اوراق السوسن الطافية فوق سطح الماء .. امنح الطبيعة ، بيئة وموقفا وسوف تطور مخلوقا ليناسبه ، فتكيف اصبع قدم هنا ، وعينا هناك ، الى ان يناسب الكائن المكان . ونتيجة لهذا الاعداد والتركيب ، فان بعض المخلوقات التى لايصدقها العقل حقا تدور معنا حول الشمس .

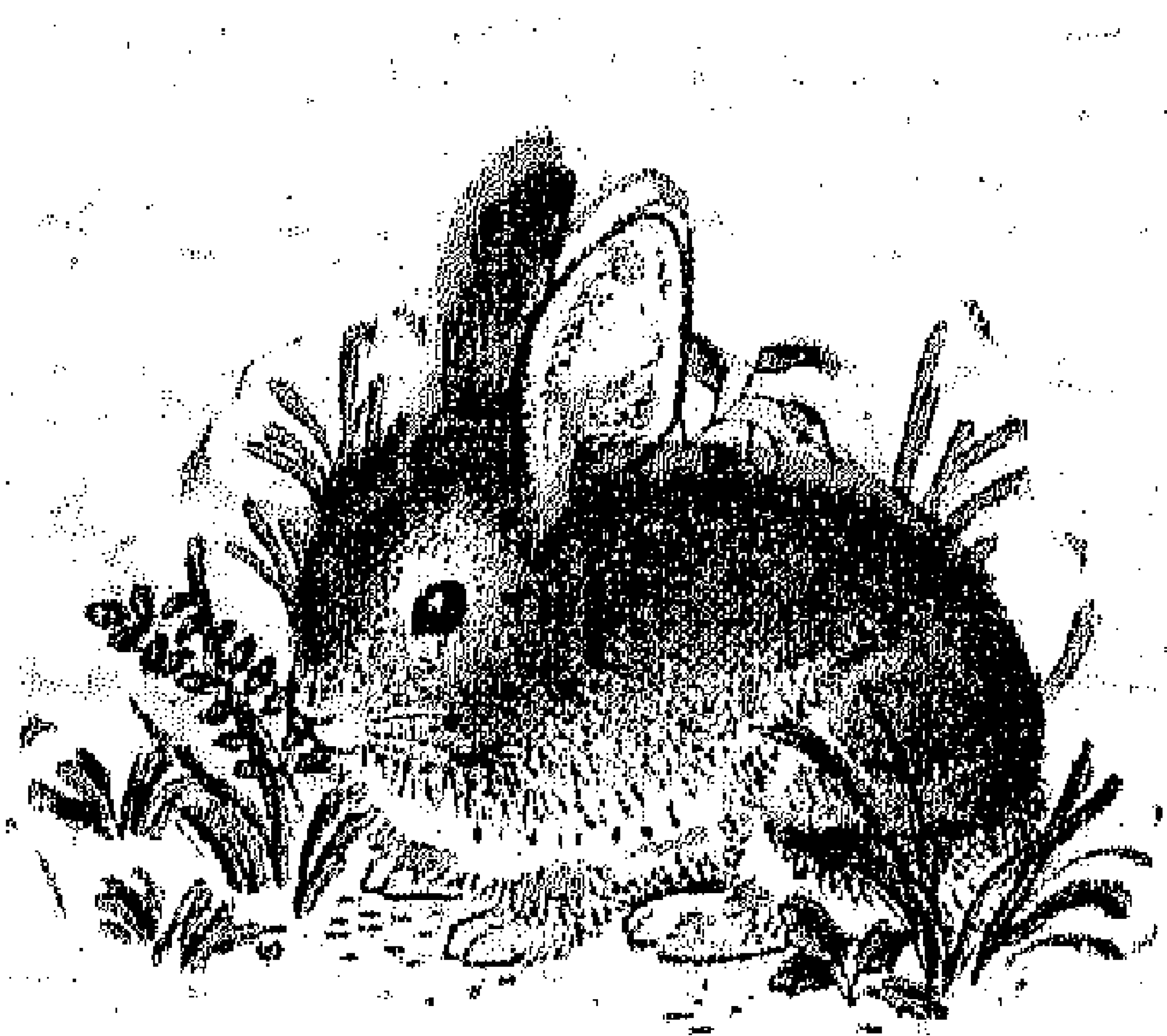
لقد رايت ذات صيف فى ولاية (مين) انثى البط الغاطس الاقرن وهى ترعى صغارها المتمايلة الثلاثة .. لتناول طعام العشاء بين الحشائش المدببة الخضراء . وفجأة شاهدت خلال منظارى المكبر انها كانت تطعم صغارها بكميات من الريش من عش بطة مهجور . . وكانت ، وهى تحشو الريش الجاف فى الافواه الفاغرة ، تدفع كل ريشة

مرة أو مرتين لتدخلها فى فم الصغير .. وفى النهاية ابتلعت هى اثنتى عشرة ريشة أو نحوها ، ثم مضت فى طريقها فوق الماء وتوارت راضيـــة بين النباتات ..

وعلمت فيما بعد ان الريش يكون

شرب الماء فالرطوبة التى فى أوراقها تكفى حيوان (الكوالا) تماما ، وتجعله الحيوان الوحيد على سطح الارض الذى لا يحتاج الى الماء لتكملة طعامه

اما المخلوق الذى ينبت خيط الصيد فى رأسه ، فقد خلق لوديان





٦٠٪ من طعام البط الغطاس . ولما سألت عن السبب ، أجابنى عــالم أحياء بقوله : (لان الطبيعة تجــد فائدة لكل شىء . ويبدو أن الريش يعمـــل كمصفاة لمنع عظام الاســماك من دخول الامعاء واتلافها) .

وفى استراليا كثير من الحيوانات الغريبة ، ومن اكثرها غرابة حيوان (الكوالا) (وهو حيـــوان استرالى رمادى اللون ذو فراء يحمـل صغاره فى جراب) . وهذا الدب الصغير الحجم ، المهيأ تماما لشجرة واحدة معينة هى شجرة (الكافور) لايحتاج لاى شىء آخر سواها حتى ولا الى

البحار المظلمة حيث الطعام من الندرة بحيث ان السمك ذى الشص الذى يعيش على الاســماك الصغيرة فى البحار العميقة ، ينبت له خيط فى طرفه زائدة تتلـوى كالــدودة . فتستلفت انظار الاســماك عابرة السبيل التى تمر بين حين وآخر وتقترب السمكة من الطعم ، فتدور سـمكة أبو الشص ذات الاسـنان وتبتلعها .

ويخلق قاع المحيط الجبـــار مشكلات أخرى (فذكر اسماك أبو الشص يستطيع أن يسبح عـــدة سنوات دون ان يقابل انثى من نوعه

.. وقد حلت الطبيعة هذه المشكلة بان جعلت الانثى تحمل زوجا ضئيل الجسم ملتحما بجسمها فى احكـام ويعتقد علماء الاحياء المائية ان هذا الزوج يبدأ عندما يفقس البيض فى بادىء الامر ، ويكون هناك الكثير من المواليد الجدد من الجنسين وعندئذ يمسك الذكر بالانثى بفمـه ويتعلق بها الى أن يصبح جزءا منها فعـلا ويلتصق فمـه بمعدتها ويظل الذكر طوال حياته ملتصقا بزوجته ، محدثا اكثر الزيجات غرابة على ظهر الارض

وقد شكل الصوت اجسام كثير من الحيوانات . فقد خفت الصوت فى آذان ذكر الضفدع حتى اصبحت اذناه اكبر من عينيه . وهو الآن يسمع جيـدا حتى انه عند سماع أقل الاصوات المنذرة بالخطر يجنح الى السـلامة تحت ورقة شجر غارقة .. وللارنب اذنان طويلتان يسمع بهمـا حفيف اجنحة البومة الهادىء . بينما توجد أذنا الجندب (أبو النطيط) فى أسفل بطنه ، حيث يستطيع اكتشاف وقع أقدام الغراب أو الزباب (حيـوان يشبه الفأر يأكل الحشرات) وهو يقترب متسللا .

ويحدد الطعام فى بعض الاحيـان هيئـة الحيـوان . فالخراطين وهى (ديدان حمر طويلة) قد حددت شكل حمار الحجل وهو طائر يشبه طائر الشنقب من طيور الغابات ، ولهـذا المخلوق منقار طويل ضيق يبدو فى شكله كالقلم الرصاص يغـوص فى جحور الديدان فى اتقان .. ولكن لهذا المنقار مضاره ، فعندما يغوص فى جحر ديدان ، يتعرض الطـائر للهجوم من اعلى ، ولمواجهة هـذا الخطر كانت عيون (حمار الحجل) قريبة من قمة رأسه .. وتمكنـه هذه الاداة الغريبة من التفرس فى الاشجار لدرء الخطر عن نفسـه ، حتى ولو كان منقاره غائصا .. انه تدبير موفق لطول العمر — ولكنـه يخلق ولا شك كائنا غريب المنظر .

وقد تفتقت الحاجة الى اقتناص الفريسة المراوغة عن بعض الحيـل المذهلة فى عالم الاحياء فشقـائق النعمان ، وهو حيوان يشبه الزهرة يعيش بالقرب من الشاطىء ، ويقبع عادة فى مكان واحد لا يبرحه ، يتغذى بالاسماك المنطلقـة . وكان من الضرورى وجود فخ جهنمى لصيدها .. ولذلك نمت فى (شقائق النعمان) ملامس ذات قنابل فى طرف كل منها .. وعندما تدخل سمكه بين هـذه الملامس ، تطلق الاطراف خيطا رفيعا

فى جسم السمكة ، ويفجر الخيط بدوره سما يصيبها بالشلل وتطبق الملامس على السمكة الفاقدة الوعى ، وتقذفها فى بلعوم شقائق النعمان .

ويبدو ان الطبيعة قد بذلت غاية جهدها فى خلق الادوات غير المعقولة للدفاع عن النفس . فطائر (اليقنه)، وهو من طيور المناطق الاستوائيـــة الامريكيـــة مثـــلا ، قـــد منـــح منخسين ينشران كسلاح مطواة حاد يطوى عند ثنية جناحى الطـائر ، يستطيع بهما أن يمزق أعداءه أربا .

والسحالى مخلوقات محترفة فى درء العـدوان . فالتمســاح البرى ذو الرأسين ، الذى صنع ذيله مثل رأسه ، يربك عدوه ويحيره . وعندما يهجم الصقر على هذا الحيوان ، يتوقع انه سيجرى فى اتجاه الرأس المرفوع ويستعد لهذه الحركة ، ومع ذلك فان الطائر لا يصيب شيئا فى العادة ، لانه يسدد الضربات الى الذيل . أما الرأس الحقيقى ، فيكون فى الناحية الاخرى .

ولا تكاد توجد اية بيئة مهمـــا كانت عدائية ، لم تتغلب عليها بعض الكائنات الحية . . ان الارض ، طبعا . . هى العـــدو الاكبر للاســـماك ، واذا طرحت فوقها ماتت ، واذا جفت بحيراتها اصبحت بلا حول ولا قوة . واذا وضعت بعض الاســماك فى هذا الموقف ، فيكــاد يكـــون من المؤكد انها ستستنبط طريقـــة ما للتغالب عليه . وهكذا خلق (السمك الرئوى) . وهو نوع يستنشق الهواء ولا بد له من الخروج الى السطح كل عشرين دقيقة أو نحو ذلك والا غرق . . وعندما تجف برك افريقيا فى موسم الجدب ، يغلف (السمك الرئوى) نفسه بالطين ويظل منتظرا هكـــذا سنوات طويلة فى بعض الاحيان ، حتى اذا هطلت الامطار فى النهــاية استأنف حياته فى الماء .

وكما أن الطبيعة تضفى اشياء على المخلوقات التى تحتاج اليها ، فانها فى بعض الاحيان تنزع أشياء ممن ليسوا فى حاجة اليها . فذبابة مايو البالغة مثلا ، لا فم لها ولا معدة . وقـــد وجدتنى فى العام الماضى على شاطىء احدى البحيرات بين مئات الآلاف من هذه الحشرات وقلت لموظف المحافظة على الحيوانات الذى كنت معه انى سعيد لانها لاتعض ، فأجابنى بانها ليس لها فم تعض به ، ثم شرح ذلك بقوله : (ان الذبابة البالغة لاتعيش الا يوما واحدا وهذا اليوم يكرس كله للمسرات واللهو ، فهى لاتفعـــل



شيئا الا ان ترقص وتتزاوج فى حياتها القصيرة ومن ثم فانها ليست بحاجة الى الفم !)

وليس بمستغرب مع هذا التطور المتقن ان بعض هذه المخلوقات من مخترعات الطبيعة تعمل بسرعة بالغة ويدخل فى هذا الباب (عداد السرعة) عند حيوان الرنة فهناك وتر عقلي ينفصم الى الامام والى الخلف فوق قدم الرنة ، وبين سرعة مشيته وهو شيء لا فائدة فيه . . وكذلك الانف الموجود فوق معدة (العقرب) ، واللسان الذى يشبه الريش لطائر (الطوفان)

ولعل (الضفدع البرى الاقرن) الذى يعيش فى جنوب غرب الولايات المتحدة هو اكثر مبتكرات الطبيعة غير العادية اثارة للذهول . فقد دعانى ان مرة احد علماء الزواحف لاشاهد واحدة من هذه (السحالى) بعد ان بدلت جلدها مبـــاشرة . ورأيت فى قفص زجاجى مليء بالرمـــل ذكـــرا كبيرا . وبجواره جلده القديم . . اخذ عالم الزواحف فى ازعاج الحيوان بهجوم كاذب ، واجفل رجل الصحراء العجوز وهو فى سترته الجـــديدة المعرضة للخطر . وفجأة احمرت مقلتاه ، وتجمدت فى مكانى من الدهشة عندما وخز صديقى وخزته الاخيرة للحيوان — فقد انطلـــق من عينى السحلية رذاذ رفيع من الدم كمـــا تنطلق النار من التنين ! لقـــد رد الحيوان الهجوم بسلاح مذهل يروع اكثر الاعداء ضراوة وقسوة .

وعدت الى المنزل بعد ذلك وانا افكر فى وسائل البقاء الغريبة التى منحهـــا النشوء والارتقـــاء لمخلوقات الارض ، وهى وسائل مضحكـــة فى بعض الاحيان ، محزنة فى احيـــان اخرى . . وعرفت ان علماء الاحياء على حق . (اذا كانت هناك اية ملاءمة ممكنة ، فقد جربتها الطبيعة) .

بقلم جان جورج



قال الصبى الصغير لامه وهى تصر عـــلى ان يغتسل قبل العشاء : اننى سآكل فقط . . ولن اجرى عملية جراحية فى مخ احد !

كتاب الشهر

عزيزتي كلمنتين



قصة ليدي تشرشل

ملخصة عن كتاب «My Darling Clementine»

يقلم جاك فيشمان

عزيزتي كليمنتين

لقي كتاب : ((عزيزتي كليمنتين)) رواجا هائلا في قارئين ، ويرجع هذا النجاح الهائل الذى حققه الكتاب الى ما في مادته ذاتها من غنى وخصوبة .. كان سير ونستون تشرشل ليس أكثر شخصيات هذا العصر عنفا وحيوية فحسب ، بل ان ليدى تشرشل من ناحيتها امرأة جميلة موهوبة ذات سحر عظيم .. وان اخلاصها لزوجها الكثير المفاجآت في لحظات السراء والضراء ، ولباقتها وحكمتها في تغذية عبقريته ، لمما يجعل هذا الكتاب من أعظم قصص الحب التى لاتنسى في عصرنا هذا .

قال ونستون تشرشل عن زوجته : ((كانت رفيقة حياتي ودعامتها كلها .. ولم اكن استطيع أن انجح بدونها)) ..

ومع ذلك ففى الوقت الذى تم فيه زواجها ، كان الحديث الذى يردده مجتمع لندن هو : ((لن ينجح هذا الزواج ابدا)) .. بل لقد مضى احد معارفهما ابعد من ذلك كثيرا فتنبأ بأن هذا الزواج لن يدوم غير ستة شهور اذا حالفه الحظ .. وقال « ان زواجهما سيفشل لان ونستون ليس من النوع الذى يصلح للزواج»

وكان ونستون يبدو كذلك بكسل تأكيد ، فقد أمضى باعتباره أكثر عزاب بريطانيا المرغوب فيهم عدة سنوات وهو يكافح بنجاح فى معركة دفاعية ضد امهات المجتمع وبناتهن المرشحات للزواج .. ولم يكن غافلا عن مفاتن النساء الجميلات ، ولكنه كان مشغولا



بحياته السياسية .. كان شابا فى عجلة من أمره بعد أن أصبح وزيرا للتجارة وعضوا بمجلس الوزراء وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره .

ولكن كليمنتين هوزيير غيرت كل ذلك ..

لقد قدم ونستون تشرشل اليهـا فى مأدبة عشاء فى بيت عمة كليمنتين الكبرى بلندن فى ربيع ١٩٠٨ وعلى الفور أحب هذه الفتـــاة المتواضعة الخفيفة الحركة ، وبعد أن انسحبت السيدات ــ وفقا للتقاليـــد ــ عن مائدة العشاء ، لاحظ الاصدقاء انه كان متلهفا لاول مرة لان يترك النبيـــذ وحديث الرجال لكى يلحق بالسيدات بأسرع ما يستطيع !

كان كل من هناك يعرف كليمنتين التى تبلغ الثالثة والعشرين جيدا .. وقد اشادت مجلات المجتمع بجمالها الاغريقي وعينيها الواسعتين الرماديتين .. كانت سليلة اسرة ارستقراطية ولكنها فقيرة ، وكانت تعيش مع أمها واخيها واخواتها الثلاث فى فرنسا ، وعندما عادت الاسرة الى لندن بعد ان اتمت تعليمها ، ساهمت كليمنتين فى دخل الاسرة بتدريس الفرنسية ، وهو مازاد من احترام ونستون لها .

واصبح ونستون زائرا منتظما لبيت آل هوزيير الصغير طوال ذلك الصيف متوددا الى كليمنتين فقد وجد فيها منذ لقائهما الاول مثله الاعلى .. وطلب الى ابن عمه « دوق مارلبورو » أن يدعو بلانش هوزيير وابنتها الى قصر آل تشرشل « بلنهايم بالاس » وفى احد أيام اغسطس ، سار مع كليمنتين عبر الضيعة الى « معبد ديانا » وهو جناح حجرى اقيم بين الاشجار بجوار بحيرة صغيرة .. وهناك عرض عليها الزواج ، فقبلت

وبعد ايام قلائل ، كتبت كليمنتين لعمتها تقول : « لا استطيع ان اصف لك سعادتى . لقد كنت أهتم به كثيرا عندما طلب منى الزواج ، ولكننى أصبحت اكثر سعادة منذ هذا اليوم

لقد تحدد يوم ١٢ سبتمبر لزفافنا وكانت تلك المناسبة فى لندن اشبه بالزفاف الملكى ، وعندما غادرت العروس والعريس كنيسة سانت مارجريت . لم يستطع البوليس ان يمنع الجمهور من الاندفاع ، فاقتحم المئات الصفوف واحاطوا بالعربة يهتفون ويصيحون مهنئين .

وبدأ شهر العسل فى قصر بلنهايم ثم سافرا الى ايطاليا والنمسا .. وقالت كليمنتين لاحدى صديقاتها فيما بعد : « عندما زرنا البندقية ، اردت أن اركب الجندول فاصر على ان نركب زورقا بخاريا قائلا انه أكثر فائدة للصحة ، فان الابخرة تقتل الجراثيم وغيرها . وهكذا ركبنا لنشا يسير بالبنزين ! ليس هناك خيال كثير فى وينى »

ولكن بعد سنوات كتب تشرشل نفسه ملخصا لما كان يعنيه الزواج بالنسبه له .. فقد ختم كتابه «مقتبل حياتى » بهذه الكلمات .. « حتى سبتمبر ١٩٠٨ ، عندما تزوجت وعشت سعيدا الى الابد بعد ذلك »

الزواج منه ليس امرا يسيرا

بعد ان استقر تشرشل وعروسه فى لندن بشهور قلائل ، قالت كليمنتين لونستون انها حامل فى طفلها الاول

فكاد يجن من الفرح ، واخذ يعاملهـا كأنها قطعة من الخزف مما كان يضحك كليمنتين .. وعندما وضعت ابنتهما ديانا ، سأل لويد جورج تشرشـل قائلا « أهى طفلة جميلة ؟ » وكان هذا سؤالا عادلا ، فقد كانت كليمنتين من ملكات الجمال فى تلك الايام فى حين ان تشرشل على الرغم من شعره الاحمر وعينيـه الـزرقاوين الملتهبتين وشخصيته الكهربائيه لم يكن يعتبر وسيما . وقال تشرشل وقد اشرق وجهه : انها اجمل طفلة رأيتها حتى الان .

فقال لويد جورج : مثل أمها على ما أعتقد ؟

فأجاب تشرشل فى رزانة : كلا .. بل هى صورة منى .

كانت سعادتهما واضحة لكل ذى عينين ، وبدأ كثيرون ممن لم يقروا هذا الزواج من قبل ، يشعرون انه أثبت انه سيكون زواجا طيبا ..

ومع أن آل تشرشل كانوا يتنقلون وسط الدوائر الاجتماعية الراقية ، فقد كانوا فقراء وفقا للمعايير المالية فى تلك الايام ، وكان على ونستون ان يعمل كصحفى ومؤلف للانفـاق على البيت وقال لاحد معارفه : « ان الامر جدير بذلك اذا كنت تعيش مع شخص تحبه » .

وقالت كليمنتين لاصدقائها معترفة .. « ان الزواج منه لايمكن ان يكون أمرا يسيرا » .. والواقع ان عـدم اكتراث تشرشل بالمسائل الشخصية .. وتفكيره وحبه النوم نهارا والعمل ليلا كل ذلك كان يجعل منه مشكله كافيـة لاية امرأة ، ولـكن تكريس كليمنتين لكل قواها من أجل رفاهية تشرشل كان اسهاما منهـا فى عظمة زوجها .

كانت تشاطره عصبيته عندما يلقى خطابا كتبه حديثا ، فيبالغ فى القـاء فقرة تدور حول كارثة أو حادث مثير للشجن والدموع تسيل على وجنتيه .. وتضحك من لمساته الفكاهيـه ، أو تحنى رأسها تأييدا لنقـاطه التى اعدها بدقة ، فقد كان يتدرب على اتقان خطبه مع كليمنتين ، ملاحظـا تعليقاتها البارعه البناءة ، وكانت تقول له بصراحة ان كثيرا من خطبه الاولى كانت عنيفة متهـورة ومفرطه فى زخارفها ، وقد سـاعدته فى التغلب على عائق فى الخطـابة كثيرا ما كان يجعـل كلماته متلعثمه مؤلمة ، وكان ينظـر الى كليمنتين وهى تجلس فى شرفة مجلس العموم صامتة تبتسم مشجعة وهو يجـاهد لحل نقـاطه

واضحة معبرة ، وكان يفعل ذلك غالبا في وجه تقليد قاس للعشمته من شباب النواب .

وخلال الحرب العالمية الاولى حدثت كارثة الدردنيل ، وهى حملة جريئة فكر فيها ونستون باعتباره وزيرا للحربية ، ولكن القيادة العسكرية لم تنفذها جيدا ، والقى اللوم على تشرشل واضطر الى الاستقالة !

وقال صديقه لورد ايسماى : « لو ان عملية الدردنيل وجدت تأييدا مناسبا اقصرت امد الحرب عامين ، ولكن تشرشل ابعد ، فأحس ان حياته قد تحطمت ، وكان لهذه التجربة وطأة مروعة عليه ، واعتقد ان ايمان زوجته به قبل كل شىء ، هو الصخرة التى تعلق بها خلال هذا الوقت العصيب » ..

وفى نوبة حماسته للقتال والخطر .. غادر تشرشل وطنه ليقاتل فى فرنسا ، ولكن اصدقاءه فى البرلمان الحوا عليه للعودة الى وستمنستر حيث تكون فائدته اعظم كثيرا لبلده ، ووافقت كليمنتين .. واخيرا اقتنع ونستون بالعودة . وفى عام ١٩١٧ اصبح وزيرا للذخيرة وعضوا فى الحكومة مرة اخرى .. واصبحت دار آل تشرشل مقرا للقيادة ونستون الحربية الثانية .. ولم تكن تحمل الا شبها بعيدا للدور ، فقد كانت مليئة بصناديق الرسائل الرسمية والتليفونات والسكرتيرين الذين يكتبون على الالة الكاتبة فى كل مكان ، بينما تقوم كليمنتين والخدم بترك اعمالهم بين حين وآخر لابعاد الاطفال عن طريقهم .. وكان عددهم الان قد اصبح ثلاثة

ثم حدث فى ١١ نوفمبر ١٩١٨ ان تطلع ونستون من احدى نوافذ وزارة البحرية ، واصغى الى ساعة (بيج بن) وهى تدق احدى عشرة دقة .. لقد وقعت اتفاقية الهدنة وانتهت الحرب .. واسرعت كليمنتين اليه مشرقة الوجه لتشاطر زوجها هذه اللحظة ، وغادرا المبنى معا وانطلقا بالسيارة بين الجماهير الهاتفة لمقابلة ديفيد لويد جورج رئيس الوزراء بعد انتهاء القتال .. وبدأ ان شكر الشعب كله موجه لرئيس الوزراء وحده .. واختفى تشرشل وكليمنتين وسط الظلال السياسية .. ولكن ذلك لم يدم طويلا !

الحياة مع الخطر

كانت المناسبات السياسية تواصل القيام بدور المخرب لحمايتهما الزوجية .. ان قلائل ممن يكرمون اسم ونستون تشرشل اليوم هم

الذين يعرفون مدى الكراهية التى كانت تحيط بهذا الاسم فى يوم ما.

حدث أن اغتالت جماعة (سين فين) الوطنية الثورية الايرلندية نائبا بريطانيا هاجم الجماعة بعنف ، وأدركت كليمنتين أن ونستون - الذى كان مسئولا يومئذ عن الشئون الايرلندية - يمكن ان يكون الهدف التالى للجماعة ، كما ان الخطر كان محدقا بها هى والاطفال ، اذ يحتمل ان يخطف بعض اعضاء (سين فين) احدهم لاستلاله كسلاح ضد ونستون

وظل بيتهم محروسا كالقلعة طوال الاسابيع التالية الى ان زال الخطر .. كانت كل غرفة تفتش يوميا بوساطة البوليس السرى بحثا عن قنابل أو قناصة مختفين ، ولكن كليمنتين لم تظهر أى خوف أو تحاول وقف ونستون عن المخاطرة قط ، ولكنها كانت تحرص على اتخاذ كل احتياط ممكن من اجل سلامته فى هدوء .

والفت كليمنتين الاهانات الشخصية كما الفت الخطر المادى . وكانت اولى تجاربها طوال الانتخابات العامه التى جرت فى سنة ١٩٢٢ ، فقد كان رد الفعل ضد الحكومة فى اعقاب الحرب يهدد بقاء تشرشل فى مقعده بالبرلمان عن دائرة (داندى) باسكوتلندا ..

واضطر ونستون قبل بدء الحملة الانتخابية بثلاثة ايام ان يجرى عملية لاستئصال الزائدة الدودية ، فحملت كليمنتين عبء النشاط الانتخابى .

وعندما وصلت الى قاعة المحاضرات بمدينة داندى لافتتاح الحملة ، استقبلت بالنعيق وصيحات الاستهزاء .. والقى البعض كمية من (سعوط كهربائى) فى القاعة المزدحمة ، فاصيب كل من على المنصة بنوبات شديدة من العطاس ، ولكنها تمكنت من كبت عطاسها ونهضت الكلام فبدأت قائلة :

- يسعدنى أن ارى أنكم جميعا فى داندى أحياء تركلون بأقدامكم !

ولكن مثيرى الشغب قاطعوها على الفور ، فوقفت فى هدوء الى أن عاد النظام .. ومضت تقول :

- وددت فقط لو ان زوجى لم يمنعه مرضه عن ..

وهنا قاطعها أحدهم قائلا فى سخرية : أهو مريض حقا ؟

فقالت : لقد كان مريضا جدا .. ولا اعتقد انه من النبل ان توجه مثل هذا السؤال لقد كان لزوجى شرف تمثيل هذه البلدة ١٤ عاما .

فقال أحدهم : ان ١٤ سنة فترة طويلة جدا .

وتوالى سيل الاسئلة عليها .

فأجابت عليها قدر استطاعتها ، وكان صوتها يرن فى أنحاء القاعة وأخيرا غادرت الاجتماع منتصرة دون شك •

وبعد ليلتين واجهت جمهورا يضم ٤٠٠٠ شخص ، وعلى الرغم من العبارات العنيفة التى كان يوجهها فريق يزعم انه شيوعى ، فقد ألقت خطابها وأجابت على الاسئلة بكفاءة • وفى الصباح التالى كتبت صحيفة « ديلى هيرالد » تقول : « على الرغم من انها لم تواجه مياها سهلة فقد أثبتت مسز تشرشل أنها مجاهدة عظيمة لصالح زوجها •• وكان اصغاء الجمهور لها أفضل من اصغائه لاحد من المتحدثين الآخرين ، وذلك نتيجة لما تتمتع به من لباقة وعزيمة جديرة بالاعجاب •• »

واستطاع تشرشل الانضمام الى الحملة قبل الاقتراع بيومين ، ولكن تيار الشعور الشعبى كان جارفا لا يمكن صده ، وفقد مقعد داندى ، وخرج من البرلمان لاول مرة منذ عام ١٩٠٠

وذات صباح ، بعد الانتخاب ، كان تشرشل وزوجته ينطلقان بالسيارة أمام مبنى البرلمان عندما قال ونستون « من العسير بعد أن يقضى الانسان ربع قرن فى هذا المكان أن يعرف أنه لم يعد له أى حق هناك •• »

فأجابته قائلة : سوف تأتى الفرصة مرة أخرى •

ملكة بين الزوجات

وجاءت الفرصة فى عام ١٩٢٤ ولم ينتخب تشرشل للبرلمان عضوا عن دائرة ابينج فحسب ، بل وعين وزيرا للمالية •• ووجدت كليمنتين مجالا جديدا لشخصيتها العظيمة كربة بيت للمنزل رقم ١١ داونتج ستريت حيث المقر الرسمى لوزير المالية •• لقد أشاعت لمساتها دفئا جديدا فى الغرف الرسمية الباردة •• وجعلت من المكان بيتا حقا •

وبفضل يدها الماهرة ، أصبح المنزل رقم ١١ ، وقصر « شارتويل » الريفى مركزين اجتماعيين للزائرين من كل أنحاء العالم ، وكان ونستون مغرما باقامة المآدب ، وكثيرا ما كان هو وكليمنتين يكشفان خلال الطعام عن حب كل منهما للآخر بوضوح •• •• بتبادل البسمات الرقيقة كان تأثير كليمنتين البارع واضحا لكل ضيف ، فقد كانت هذه « الملكة بين الزوجات » — كما كان لويد ريدل يسميها — مستعدة دائما لان تتولى الامر كلما هددت احدى نوبات ونستون العصبية المفاجئة بقلب حديث المائدة الى كارثة !

وهي تستطيع ان تكون دبلوماسية قادرة عندما تكون في ضيافة احد .. ففي احدى مآدب العشاء التي دعيت اليها ، أسرت ربة البيت في حرج لكليمنتين بان حاكما أجنبيا بارزا شوهد وهو يسرق طبقا فضيا صغيرا من مجموعة أثريةلايمكن تعويضه .. وسألتها ماذا تفعل ؟

وفكرت كليمنتين قليلا ثم اقترحت خطة على ونستون ينفذها في هدوء.. وفي ابتسامةشيطانية ،وضع تشرشل طبقا آخر تحتمنشفة المائدةوانتقل الى جوار الحاكم ، وكشف أمامه في خبث الطبق الذي يبرز من جيبه وهمس له قائلا : « ان معي واحدا مثلك ، ولكننا قد نضطر الى اعادتهما فقد رآونا ونحن نأخذهما » .. وهكذا أعاد الرجلان الطبقين في سكون .

ولقد حاولت اكثر من زوجة وزير ان تكتسب سمعة النفوذ من وراء العرش ، ولكن كليمنتين لم تتخذ قط هذا الطريق ، ولكنها عملت فقط على ألا تطغى الظلال على منجزاتها الخاصة ومع ذلك فانها لاتسرق ابدا أضواء المسرح .. وقد قدمت مرة في خطاب القته في احدى مدارس البنات هذه النصيحة : « اذا وجدت نفسك في منافسة مع الرجل، فلاتحاولى ابدا أن تكوني عدوانية في منافستك ، فالتي تبرز نقطتها بقوة قد تفقد امتيازها ، وسوف تكسبين كثيرا اذا تمسكت بمعتقداتك في هدوء » .

وأدى عملها الذي عهدت الى نفسها بالقيام به الى آن يسود احساس بالنظام في حياة زوجها المنزلية الشاذة ، اذ وضعت قاعدة لحياتهما قاعدة تقضي باستخدام الوقت افضل استخدام مع السماح بمرونة كافية للمفاجآت غيرالمتوقعة ، ولكنها كانت قبل شيء تهتم بمراعاة حالة ونستون النفسية وراحته كمخلوق ، ولا سيما حبه للطعام الجيد .

وقد سئلت يوما عن أهم شخص في حياتها ، فقالت : الطاهي ولا شك .

وقال أحد ضيوفها يوما علىمائدة العشاء : « ليست هناك تجارب اكثر ايحاء من أن تكون واحدا منضيوف كليمنتين تشرشل ، لا لانها زوجه تشرشل ، بل لانها تملك خاصية القدرة على آن تحصل على آفضلشيء من آي شخص .. »

تحت الظلال

في أواخر العقد الثالث من هذا القرن بدأت رياح التغيير تهب ضد حزب تشرشل من جديد ، وفي عام

١٩٢٩ ابعدت حكومة المحافظين من الحكم ، ومع ان تشرشل احتفظ بمقعده في البرلمان فقد هبطت شعبيته الى الحضيض .. وكانت كليمنتين تعرف ان ونستون يعيش من أجل اليوم الذي يتمكن فيه من تولى السلطة والحكم من جديد ، ولكنه كان خلال منتصف العقد الرابع وحيدا ، يضيع صوته هباء وسط الصحراء ، فلم يهتم أحد بتحذيراته من أخطار نظام هتلر ، فقد كان الجمهور يومئذ يفضل الكلمات التي تريح أعصابه ، ويقول عن تشرشل « دعوه يكتب التاريخ ، ولكن من الخطر السماح له بأن يصنعه » .

وخلال تلك الاعوام كافحت كليمنتين باستمرار لتخفف مذاق مرارة الابعاد السياسى ، وتحمل ونستون كل العداء والسخرية بثبات وجلد يدعمه ايمانها العميق بمستقبله وعندما كانت آماله تتعثر ، كانت تتعهده بالرعاية، واذا أحس بالوحشة غمرته بحنانها ..

وخلال عام ١٩٣٨ كانت كليمنتين والاسرة كلها تعيش باستمرار في ظلال مخاوفه على أمن البلاد ، وكان كلاهما لايتحدث عن شيء آخر أمام الضيوف الذين يأتون الى بيتهما فلم يكن هناك أي شيء آخر يهمه .. وفي قصر شاتويل كانت كليمنتين تدعو الصحفيين الدوليين والسياح وغيرهم ممن يستطيعون تزويد تشرشل بالمعلومات التي يحتاج اليها في استعداده للحرب التي اصبح الان يشعر بأنه لامفر من وقوعها ، ولكن كلمات التحذير التي أطلقها لم تجد من يرحب بها عندما استقبل العالم بارتياح بالغ عودة تشمبرلين من ميونيخ حاملا وعد هتلر على الورق بتحقيق السلام .

وما لبث تيار المد ان انقلب بسرعة وزحفت جيوش هتلر على تشيكوسلوفاكيا بخطوة الاوزة ، منتزعة الغمامة عن عيون الشعوب المحبة للحرية في العالم ، والتفتت البلاد الى الصوت الوحيد الذى لم يكن يخشى أن يقول في الماضي كيف سيكون المستقبل .. وتحولت صيحات الاستهزاء الى هتافات .

وفي مساء الجمعة اول سبتمبر ١٩٣٩ جلست كليمنتين مع السفراء واللوردات في شرفة كبار الزائرين بمجلس العموم .. كانت المانيا قد هاجمت بولندا ، وصدر الامر بتعبئة القوات البريطانية ، وكانت كليمنتين تعرف أكثر من أى شخص آخر ان

حياة زوجها كلها كانت استعدادا لهذه اللحظة .. ورآته يجلس فى صمت وقد اكتنفته الكارثة التى تنبأ بها منذ زمن طويل ، وبدأ الحزن على وجهه .

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح الاحد كانت انجلترا قد دخلت الحرب ، وراحت صفارات الانذار تدوى مولولة فى أنحاء لندن بينما تنطلق سيارات النقل حاملة الجنود والاسلحة خلال الشوارع وبعد ظهر ذلك اليوم ، تلقى ونستون مكالمة تليفونية وهو فى مسكن ابنته ديانا حيث كان يتناول الغداء مع كليمنتين وبعض أعضاء الاسرة .. وأحس كل واحد منهم بالغريزة ان تلك لم تكن مكالمة تليفونية عادية ، فقد اختار تشرشل ان يرد عليهابمفرده من غرفة النوم .

وعندما عاد الى الظهور سألته كليمنتين عمن كان يحدثه ، فنظر اليها والدموع تتألق فىعينيه ثم قال: لقد أعطونى منصبا من جديد .. اننى وزير البحرية .

فسألته ابنته سارا : وماذا ستفعل ؟

فقال : ماذا سأفعل ؟.. سأذهب فورا الىالوزارة . ان البارجة الالمانيه « بريمن » فى اعالى البحار وعلينا ان نحطمها ..

وقبل زوجته .. ثم انطلق الى الحرب !

مليون امرأة فى الحرب

منذ البداية أسهمت كليمنتين بجهود فعالة للمجهود الحربى ، وبينما كانت شهية القوات المسلحة تزداد حيال الرجال والذخائر ، اتجه ونستون اليها ملتمسا النصيحة فقالت تطمئنه أنه اذا وصفت الصورة أمام نساء بريطانيا بوضوح، فانهن سوف يهرعن للقيام بالاعمال الادارية والكتابية بمصانع الاسلحة.

وهكذا أعد تشرشل خطابا موجها للنساءفقط ، وقدمالمسودة لكليمنتين لتبدى تعليقاتها العملية عليه ، فاقترحت كثيرا من التغييرات واتبع هو نصيحتها .

وكانت الى جواره فى مانشستر يوم ٢٧ يناير ١٩٤٠ عندما خطب فى اجتماع حاشد للنساء ، فقال انه جاء يطلبمليون امرأة عاملةللمساعدة فى المجهود الحربى .. وكان نداء يثير الذهول ، كما انه كان بداية لشىء أكثر من ذلك : تغيير اجتماعى جذرى فى طريقة النساء فى الحياة ، فقد كان عليهن ان يحررن انفسهن

قدر الاســــتطاعة من روابط الاسرة والمنزل ، ويكرسن هذه الســــاعات من الحرية من أجل الحرب •

وجلبت هـــذه الخطبة التاريخية التى كان ملهمها احساس المراة لدى كليمنتين ، مليــون امرأة عاملة ، وملايين أكثر للقوات المسلحة كماطلب تشرشل •

وسرعان ما ساعدت كليمنتين بعد ذلك على توطيد الافكار الثورية بجعل نساء بريطانيا يشـــتركن فى اطلاق المدافع •• فعلى مائدة الغداء ، اقترح عليها الجنرال سير فردريك بايل قائد المدفعية المضادة للطائرات ان تتســلم النساء ادارة بطارياته ، وبهذا يمكن تحرير ٤٠ ألف رجل للاشتراك فى القتال •

وقالت كليمنتين : « هذا اقتراح رائع » •• ووافق تشرشل عليه ، ولكن بقية الضيوف ناقشـــوا الامر بتمعن ، فقد كان الاقتـــراح يناقض الفكرة السائدة ضد اشتراك النساء فى سفك الدماء خلال الحـــرب •• ولكن كليمنتين قالت : « لست ارى مايمنع ذلك ، فاذا استطاعت النساء ان تقوم باطلاق النار وكل شيء آخر ، فلست ارى ما يمنعهن من الانضمام للمدافع المضادة بل انهن سيفعلن ذلك أفضل من الرجل ، لان العتاد الحربى يحتاج الى لمسة رقيقة ! »

ونفذ الاقتراح ، وايد تشرشـــل الفكرة الى حد الســماح لابنته مارى بالانضمام الى نساء المدافع المضــــادة للطائرات • وكانت كليمنتـــين على حق ، فقد قال بايل بعد ذلك : « لقد كانت أفضـــل البطاريات فى مقــاومة غارات الصواريخ الالمانيـــة من طراز (ف — ١) على لندن هي البطاريات التى كانت تديرها النساء » •

وفى ربيع ١٩٤٠ رأت كليمنتين زوجها وهو يحقق أمل حياته •• لقد سقطت حكومة تشمبرلين المزعزعة ، وبعد ظهر ١٠ مايو استدعى ونستون الى قصر بكنجهام حيث عهـد اليـــه برئاسة الوزارة •• ان العبء الرهيب الذى سيحمله الآن ســـيكون عبء كليمنتين ايضا ••

حملة كليمنتين : انقذوا ونستون !

عندما بدأت الغــارات الالمانيـــة بالقنابل الحارقة على بريطانيـــا بكل قسوتها فى عام ١٩٤٠ ، عقد تشرشل العزم على ان يواجهها مع رفاقه من ابناء لندن ، وحاول زملاؤه من اعضاء الوزارة بكل جهـــودهم ابعـــاده عن المخاطرات ، ومنعه من الخروج ليـــلا وهو يحمل عصا فى طريقهـــا بطارية

صغيرة لكي يرى بنفسه — ولكن كليمنتين هي التي نجحت في التغلب على مناوراته باستخدام سلاحها السرى .. وهو نفسها ..

وبدأت حملة كليمنتين « لانقاذ تشرشل من نفسه » في اليوم التالي لقيامه بجولة على أرصفة ميناء لندن وكان يسير خلال غارة القنابل الحارقة حتى انه نجا من الموت بمعجزة .

وقال لورد ايسماى : « عندما ذهب للقيام بجولة اخرى ، ذهبت هي معه ، وفي تلك المرة اضطر للعودة الى البيت قبل الظلام خوفا على سلامتها » .

ومنذ ذلك الحين ، كان كلما ذهب بسيجاره وقبعته المربعة الشهيرة ، انطلقت خلفه تلك المرأة الطويلة المنتصبة القامة ذات العيون الضاحكة وكانت تسير خلفه بخطوتين ، وكانت تمشي معه وسط الطين والاوحال لزيارة مواقع المدفعية ، وتجلس معه في سيارة جيب خلال الشوارع المحطمة وهو يرسم باصابعه علامة النصر للجماهير الهاتفة له .. كانت تعرف انه يقوم بهذه الجولات لا لكى يبث الشجاعة في نفوس الشعب ، بل لان روحهم المعنوية كانت تقويه هي الاخرى .

وعندما خرج ذات ليلة في عناد وسط القنابل المتساقطة ، أصرت كليمنتين على الخروج هي الاخرى . ولم تثر اية ضجة ولم تقل « اسمع ياونستون . انني لا اريدك ان تذهب » فقد كانت تعرف أن ذلك سيكون شيئا مروعا بالنسبة لهما معا ، لانه سوف يفعل ما تطلبه على الارجح ، ولكنه سيشعر انه اصبح جبيسا لاول مرة .. !

وقد حاول سلاح الطيران الالماني مرارا القاء قنابله على رئاسة الوزارة في ١٠ داونبج ستريت وكانت كليمنتين تعرف أن المبنى لن يتحمل اصابة مباشرة ، فاقنعت ونستون باستخدام مخبأ للوقاية من الغارات ليكون مثلا لغيره ، فوافق بعد تردد ، وأعد قبوا قريبا مهجورا كمخبأ خاص للمنزل رقم ١٠ داونبج ستريت .

وذات ليلة قامت كليمنتين بجولة في محطات المترو خلال احدى الغارات بالقنابل الحارقة ، وكان قد صدر قانون يقضي بعدم استخدام هذه المحطات كمخابيء ، ولكن الالاف من اهالي لندن استمروا في استخدامها على الرغم من ذلك حيث كانوا ينامون على الارصفة الخرسانية العارية .. وبعد ان قامت كليمنتين بالتفتيش

على هــذه المحطات عادت بسرعة الى داونتج ستريت لتعد العشاء لونستون وبينما كانا يتناولان طعامهما بمفردهما، شرحت له ما شاهــدت ثم قالت في الحاح :

ــ لابد من عمل شيء لهؤلاء الناس .. وبسرعة

فأجابهــا : افعــلي لهم شــيئا يا كليمنتين .

فبدات العمــل فورا مع حليفها لورد بفربروك ، واقترحت ضرورة تخصيص أماكن محددة بالتذاكر في مخــابيء المترو لتفــادي الازدحام الشديد وضمان النظام ، كما اقترحت انشاء سراير يستطيع المترددون على المخبــأ للنــوم فيهــا ، وسرعان ما نفذت هذه الافــكار التي باركها ونستون ، وتقرر صنع مليوني فراش صغير ، واصبحت محطات المترو اكبر عنابر للنوم خلال الغارات في لندن .

وراحت كليمنتين تعمــل بلا كلل لتقوية الروح المعنــوية في الجبهة الداخلية ، ويقول الجنرال بايل انها « كانت تطــوف ببطاريات المدافع المضادة في كل انحاء البلاد ليلا ونهارا بما في ذلك المناطق النائية والمعزولة ، وكانت تصافح كل شخص تقريبــا ولا سيما الفتيات ، وكانت تسأل دائما عــن راحتهن وتفتش اماكن اقامتهن ومهماتهن والمطابخ والطعام للتأكــد من أن كل شيء على مايرام » .

وقامت كليمنتين بكثير من الجولات خلال الغارات عنــدما كان تشرشل مشغولا في أماكن اخــرى ، وكثيرا ما فعلت ذلك دون علمه .. وتقــول ايدي ليمريك رئيسة جمعية الصليب الاحمر البريطاني انها قامت بجولات لا تحصى معها على مراكز الاســعاف مما كان يرفع الروح المعنــوية لدى الشعب .. ولاحظت ليدي ليمريك صفة اخرى لا تقدر بثمن في كليمنتين وهي انها « كانت تستطيع دائمــا ان تكون موجودة عندما يريدها رئيس الوزراء .. فعلى الرغم من نشــاطها الوفير ، كانت ترى أن واجبها يتطلب البقاء في البيت اطول فترة ممكنــة اذ كانت تعرف عندئذ أن ونستون سيكون في حاجة ماسة اليها » .

كان ونستون لا يكاد يدخل البيت حتى يصــيح بأعلى صوته : عزيزتي كليمي .. حبيبتي كليمي » . وكانت تستقبله في أغلب الاحيان وقد وضعت يدها على ذراعه في لمسة ودية ، ومع ذلك فقد كان أثر تلك الحركة عليه يبدو واضحا لكل ذي عينين .. وكان يحكي لها كيف سارت الامور في ذلك

اليــوم ، فاذا كانت سيئة راحت تواسيه وتهون عليه ، وكان يكفيه أن يسمع صوتها الساحر وهى تقول برقة :

« سيسير كل شيء على ما يرام . انك تبذل كل ما فى استطاعتك » .. أن هذه الكلمات كانت ترفع روحه المعنوية ارتفاعا هائلا .. لقد كان الملايين يعبدونه ، وكانت هى الشخص الذى يعبده هو .

معجزة فى مراكش

كان عام ١٩٤٣ هو أكثر اعوام الحرب العالمية الثانية نشاطا بالنسبة لتشرشل ، فقد قطع خلاله اكثر من ٢٤ ألف ميل واشترك فى مؤتمرات عقدت فى ثلاث قارات ، وكان يواصل العمل حتى الثالثة أو الرابعة صباحا ليلة بعد اخرى .

وفى فبراير ١٩٤٣ اصيب تشرشل بالتهاب رئوى ، ولم تستطع كليمنتين ابقاءه فى الفراش الا باقناعه بانه سيدير الحرب من هناك ، وكانت الشخص الوحيد الذى يستطيع ان يسوس أصعب مريض فى العالم .. وكانت تقول لاطبائه انه اذا لم يستطيع استخدام عقله ذى النشاط العجيب فانه سيشعر بالغيظ ولن يساعد ذلك على شفائه .. وقد استرد قواه بينما كان الوزراء والمسئولون والسكرتيرون يتدفقون الى جوار فراشه بلا انقطاع للمناقشة وتلقى التعليمات !

ولكن ما لبثت ان وقعت أزمة أشد فى منتصف ديسمبر من نفس العام ، فقد اصيب بالتهاب رئوى مرة أخرى وهو فى تونس عائدا من مؤتمر طهران التاريخى ، وكان المرض فى هذه المرة اخطر كثيرا حتى اوشك على الموت فى خلال أيام .

ونقل احد الاخصائيين فى امراض الصدر من ايطاليا بالطائرة ، كما احضروا فريقا من الممرضات من القاهرة ولكن أعظم ممرضاته جميعا هى كليمنتين التى جاءت بالطائرة من لندن بناء على طلب الجنرال ايزنهاور ومع ان تشرشل كان فى حالة لا تسمح بابلاغه ذلك ، فان الاطباء سمحوا لها اخيرا بان تذهب الى جوار فراشه .

وجلست صامتة وهى تمسك يده وفجأة فتح عينيه .. وتبادل الزوج والزوجة البسمات .. وقال احد أعضاء حاشيه رئيس الوزراء : «يكاد يكون من المستحيل وصف المعجزة التى حدثت فى تلك اللحظة فقد احدث قدوم مسز تشرشل تغيرا لا يصدق ،

وكأنما كانت مسكتها ليده عمليـــة نقل من روحها وقوتها » .

ومع ان تشرشل كان في خلال أيام مرضه الاولى شبه فاقد للوعى ، فقد كانت تبقى الى جوار فراشه ساعات لكى يرى انها معه كلما فتح عينيه .. وبدأت حرارته تهبط تدريجا ، وبعد اسـبوعين اسـتطاع أن يستأنف العمـل !

ولكن كليمنتين والطبيب الخـاص لتشرشـل أصرا على ان يقضى فترة نقاهة كاملة في جو دافىء ، واقترحت هى مراكش التى كان قد احبها خلال زيارة عائلية قام بها قبل الحـرب ، وقالت انها مدينة مثالية لنقاهته .

وهناك اسـترد تشرشل صحته سريعا في ضوء الشمس وايام الراحة، وكانت كليمنتين قد احضرت له شيئا تعرف انه سيحتاج اليه .. ادوات الرسم والالوان والقمـاش .. وكان يمضى ساعات في الرسم ، وهى التى سبق ان اقترحت عليه الرسم بعـد كارثة الدردنيل مباشرة ، فأصـبح فنانا هاويا عظيما منذ ذلك الحين .

وكان الاثنـان ينطلقان بالسيارة معا ، يتمتعان بالمشاهد العظيمة للريف المراكشى وجبـال اطلس التى يكللها الجليد ، كما كانت تنظم نزهات الى بقاع مختلفة يشـترك فيها القواد والوزراء الذين يحضرون لزيارته .. فقد كانت تعلم ان الصحبة الطيبـة والطعام الجيد والبيئة المناسبة هى افضل دواء لتشرشل .

وجاء اليوم الذى أعلن فيه الطبيب وكليمنتين ان تشرشل أصبح في حالة تسمح له بالعـودة الى الوطن . وفى محطة بادنجتون بلندن كان كل أعضاء الوزارة فى انتظاره ، ومع أن نبـأ وصوله قد أحيط بالكتمـان ، فقـد امتلأت المحطة بالجمهور الذى حضر للهتاف له ..

وتصاعدت الهتافات مرة اخـرى بعد اسابيع قليلة عندما دخل تشرشل مجلس العمـوم وتطلع الى زوجتـه الجالسـة في شرفة الزائرين .. واشتركت عيون مئات من النواب مع عينيه في التطلع الى المـرأة النحيلة المبتسمة التى تجلس فوقهم . وعندئذ انطلقت اصوات النواب بهـدير من الهتاف ، تحية للمرأة التى أعادت لهم زعيمهم ..

رحلة الى روسيا

كانت كليمنتين قـد اقترحت فى اوائل ايام الحرب تخصيص تبرعات خاصـة للصليب الاحمر لارسـال امدادات طبية الى روسـيا ، ونجحت

المحاولة فجمع حوالى ثمانية ملايين جنيه ، دفعت ثمنا لكميات هائلة من الثياب والادوية واجهزة الاشعة وسيارات الاسعاف وغيرها من المواد التى شحنت الى روسيا .

واعترافا بفضلها ، دعاها ستالين فى عام ١٩٤٥ لزيارة الاتحاد السوفيتى ومع انها ابتهجت لهذه الفرصة ، فان رحلتها كانت لها فائدة مزدوجة لم يعلن عنها ، اذ كان تشرشل قد ازداد قلقه من تدهور العلاقات بينه وبين روسيا ، وكان تواقا الى جس نبض الشعب السوفيتى .. وقد رأت كليمنتين انها تستطيع ان تترك ونستون الآن اسابيع قليلة بعد ان اصبح النصر وشيكا ..

وفى روسيا وضع ستالين قطارا خاصا تحت تصرفها بحيث تستطيع ان تطوف به المناطق الرئيسية على مهل .. وكانت الجماهير تصفق لها فى كل مكان تذهب اليه : المستشفيات والملاجىء وعنابر الاطفال، ورغم حاجز اللغة ، فقد اتاحت لمن قابلته من الروس معرفة حلفائهم جيدا ، كما جمعت انطباعات ثبت انها ذات قيمة بالغة لتشرشل ..

وفى وسط الرحلة فوجئت بخسارة شخصية .. فقد ابلغها مولوتوف ــ وزير الخارجية الروسية يومئذ ــ نبأ وفاة الرئيس الامريكى فرنكلين روزفلت .. وكان وقع الصدمة عنيفا على كليمنتين ، فقد كانت هى وزوجها صديقين حميمين لاسرة روزفلت ، وكانت الاسرتان تتبادلان الزيارة كلما سنحت الفرصة . وتذكرت كليمنتين ما كان يتبادله تشرشل وروزفلت من مرح وضحكات ..

وزاد من وقع الصدمة على نفسها انها ادركت ان ونستون سيحتاج اليها فى تلك اللحظة .. وارادت ان تطير اليه ، ولكنها كانت تعرف انها لا تستطيع ان تفعل ذلك ، فانتظرت وصول مكالمة تليفونية منه .. وجاءت المكالمة ، وتبادل الزوجان الاحزان ، وقال لها تشرشل :

« لقد فقدت صديقا عظيما .. كان من أعظم الاصدقاء » .

وبينما كانت كليمنتين تواصل جولتها ، اقتربت الحرب فى اوروبا من مرحلتها الاخيرة ، وقد تلقت من السفارة البريطانية فى موسكو انباء الاحداث الهامة : اسر موسولينى ، وموت هتلر ، واستسلام الوحدات الالمانية بالجملة .. وفى ٧ مايو علمت ان المانيا استسلمت دون قيد او شرط فتاقت الى ان تكون مع زوجها

فى لحظة النصر ..

وسمعت من راديو السفارة صوت زوجهـا وهو يذيع النبأ الذى كان العالم ينتظره .. نبـأ انتصاره فى اوربا .

وفى ١٤ مايو طارت كليمنتين الى مطار نور فولت .. وما كادت الطيارة تتوقف حتى اندفعت من الباب وهى ترتدى ثوب الصليب الاحمر .. وكان ونستون فى انتظارها هناك ، ليستقبلها فى حرارة. لقد افترقا خلال تلك الايام التاريخية ، ولكنهما اجتمعا معا خلال الايام التالية .. الاكثر أهمية .

النصر .. والهزيمة

تم سحق المانيـا النازية ، ولكن كليمنتين كانت تعـرف ان مهمـة تشرشل لم تنته بعد . فهناك نصران آخران لابد من تحقيقهما : الحـرب مع اليابان ، واعادة تعمير بريطانيا .. ولكن تشرشل لم يشترك فى ايهما ! .

كان الشيء الذى لم يدركه هو او كليمنتين أو احد ممن حولهما ، ان العقيدة الجديدة للامة «التشرشلية» ليست تبجيلا لسياسة معينة ، بل تقديس لرجل ، وكانت الجمـاهير لاتزال ترتاب فى الطبقة التى يمثلهـا تشرشل .

ولما لم يكن امام ونستون وقت كثير للشئون الداخلية ، فان كليمنتين كانت هى التى تجعله على اتصـال بالشعب طوال الحرب ، ولكنها شرعت تحذره من الرغبة النامية التى تكاد تكتسح الطبقتين العاملة والوسـطى حيال الاصلاح الاشتراكى .. ولكنـه كان يوجه اهتمامه لتفادى سياسـة الحزب حتى تسـير مهمـة التعمير الكبرى فى طريقها وكان يقول: « لن تكون هناك انتخابات عامة ، على الاقل حتى تنتهى الحـرب مع اليـابان » .

ولكن الضغط داخل حزب العمال كان شديدا .. وهكذا حلت الحكومة الائتلافية، وتقرر اجراء الانتخابات فى يوليو ١٩٤٥ .. وكان تشرشل يكره فكرة الحملات السياسية وهو لايزال مشغولا بمجهود الحرب ، ومن ثم فان اغلب العبء وقع على عاتق كليمنتين من اجل اعادة انتخابه هو .

وبدآ معا جولة فى انحاء البـلاد قطعا خلالها ١٥٠٠ كيلو متر ، ومع ان كليمنتين لم تكن قـد مارست الخطابة العامة منـذ سنين ، فانها ارتقت المنصة من جـديد ، ولكنها كانت تلاحظ ان نفاد صبر ونستون كان يزداد مـع كل يوم انتخـابى بالاضافة الى ماكان يشعر به من الم لهذه المقاطعة لاتمام الحـرب التى

أسيء توقيتها .. وفى اذاعة بالراديو شن هجوما على زعماء العمال الذين اشتركوا معه فى الحكومة الائتلافية ، ولكن هذه الهجمات ارتدت اليه ، وبدأ الرأى العام يتصلب ضده ..

واحست كليمنتين هذا التيار المتغير وحذرت ونستون ، ومع انه كان يحترم نصيحتها ويعتز بها ، فانه لاول مرة تقريبا ، بدا أن نصيحتها قد اصابت اذنا صماء .. وبينما كانت حملته الفظة الخالية من المرح مستمرة ، بدأ الناس يتساءلون ماذا حدث لتشرشل المرح المبتسم !

وفى عشية الانتخابات ، قامت كليمنتين بجوله فى دائرة «وودفورد» والقت ست خطب فى اجتماعات حاشدة ، وواجهت اسئلة عاصفة ..

ومع ان ونستون قد احتفظ بمقعده فى تلك الدائرة ، فقد اتضح عند الظهر ان هزيمة حزبه اصبحت محققة مما ادهش العالم أجمع .. وتحملت كليمنتين قسوة اللحظة الرهيبة معه ، ولكن كزوجة سياسى كانت تعرف ان الشكر يخص التاريخ لا السياسة ، واكدت له فى حزم وعطف ان الهزيمة الساحقة التى منى بها حزبه اثارت مسألة مكانه فى التاريخ أو فى حب الشعب وامتنانه .

وحثه الكثير من الاصدقاء على أن يكرس نفسه لكتابة تاريخ الحرب العالمية الثانية ، ولكن كليمنتين رفضت تماما ، فقد قال تشرشل نفسه يوما « أن ترك البرلمان أمر لا يمكن التفكير فيه .. انني ابن مجلس العموم » .

وهكذا انتقل ونستون وكليمنتين من ١٠ داونتج ستريت ، ولكن روح تشرشل ظلت صلبة لا تنثنى وقال والباب يغلق خلفهما : « سنعود مرة أخرى يا كليمنتين » ..

آل تشرشل فى بيتهما

كشفت كليمنتين افضل ما لديها من حكمة ، فصحبت ونستون فى رحلة طويلة بالخارج بعيدا عن انجلترا مسرح هزيمته .. وبعملها هذا انقذت عقله وكرامته .. كانا يستقبلان أروع استقبال حيثما سافرا من الشعوب التى ساعدها على التحرر من الطغيان وقد أتاح ذلك لكليمنتين أن تنفث فيه حياة جديدة وكفاحا جديدا .. ثم عادا الى الوطن ، ومع انهما عاشا فى بيوت كثيرة ، فانه كان لهما منزل واحد حقيقى : المكان الذى أتاح لهما اعظم سنوات سعادتهما وكان ملاذهما فى السراء والضراء .. قصر شارتويل فى مقاطعة كنت .

كان قصر شارتويل الذى ابتاعه

فى عام ١٩٢٢ يثير ونستون وكليمنتين اكثر من أى مكان آخـــر .. وكان تشرشل نفسه هو الذى اشرف على التغييرات التى ادخلت عليه ، ورسما معا اسوار الحديقة واحواض الزهور والحشائش الخضراء .. وركـــزت كليمنتين جهودها على داخله ونظام الحدائق ..

وقد أغلق شارتويل خلال الحرب، ولكن ونستون وكليمنتين كانا كثـيرا ما يحنـــان الى رؤية المنزل المحبوب خلال الحرب ، وكثيرا ما قاما بزيارات مفاجئـــة له مع بعض حاشيتهما ، وكانت هى تقترح الذهاب الى هناك كلما وردت بعض الانبـاء السيئة ، فيشـــكرها هو على هـــذا المـــلاذ المؤقت ..

وفى تلك الليلة سارا خلال غرف شارتويل بثياب النوم ، وفى الصباح انطلقا معـــا متشابكى الاذرع خلال الحدائق المطرة الاريج .. وبدت الحرب بعيدة جدا عن هـــذا الملجأ الامن ، ثم عادا الى داوننج ستريت وقد تجـددت روحهمـــا وارتفعت معنويتهما .. واعيـــد فتح ابوب قصر شارتويل بعد الحـــرب وظل مسرحا لكثير من الزيارات والعطلات الطويله حتى اليوم ، على الرغم من أن تشرشل يقضى كثيرا من وقتـــه فى منزله فى هايدبارك جيت بلندن .

وتحتل كليمنتين وونستون غرفا مستقلة ، وهى ترتيبـــات ضرورية للنوم ، اذ أن غرفة نوم تشرشل هى فى الواقع مكتبا يقضى فيـــه ساعات كثـيرا ماتســـتمر حتى وقت متأخر من الليـــل يقـــرأ رسائله ويمـــلى كتـــاباته .

وتستيقظ كليمنتين عـــادة حوالى السابعة صباحا .. وغرفة نومهـــا فسيحة بسـيطة الاثاث ، بها فراش ودولاب ومائـــدة ذات مرآة ، وهى تصفف شـــعرها الفضى بنفسها ، وتتناول افطارها فى فراشها ، بينما يتناول تشرشل افطاره فى الغرفة التى تعلوها حوالى الثامنة والنصف .. وقل ان يلتقى الزوجان قبل الغداء وقد قال ونستون يوما : « حاولت أنا وزوجتى مرتين أو ثلاث مرات أن نتناول افطارنا معا ، ولكننا اضطررنا للتوقف حتى لا يتحطم زواجنا .

وعلى مقربة من مخدع كليمنتين يوجد ستوديو ونســـتون الكبير ، حيث يمارس فنـــه المحبـــوب .. وهناك ترى لوحات لم تكتمل بعـــد وأدوات الرسم والالوان ملقـــاة على مائدة معدة لاستخدامها ، وتمـــلأ

الجدار الجنوبى للاستوديو صــورة المرأة التى قدمت أول صــــندوق للرسم لتشرشل .. كليمنتين تبتسم وعلى رأسها قبعة مرحـة .. وقد رسمها وسط ضباب أزرق اللون .

وتبـدأ كليمنتين يومهـا حوالى التاسعة صباحا باملاء الرســائل ومعالجة شئون البيت ، وقبل الغداء وبعد العشاء ـ خلال الصيف ـ تمارس لعبـة الكروكيه فى الحديقة ، وقد ترتدى احيانا بنطلونا وقفازا للعمل فى الحديقة بين زهورها المحبوبة .. ومع أنها الآن فى الثامنة والسبعين، فانها تتحرك بخفة ونشاط فى انحـاء شارتويل برشـاقتها المعهـودة التى تجعل الناس يقولون انها تزداد جمالا كل عام ..

وهى تنفق جانبا كبيرا من وقتها فى التفكير فى وســائل جديدة لمساعدة ونستون فى المحافظة على مواعيده .. وقد تلقنــه فى بعض الاحيان درسا شديدا من أجل ذلك .

ويقول سير توم أوبريان : «بمجرد ذهابك الى قصر شارتويل تدرك انها ســيدة البيت ، وتحس انها تحـكم البيت .. وانك فى قصر ســيدة انجليزية .. ان ونســتون فى منزله ليس هو نفس الشخصية المندفعة المتحفزة التى تراها فى مجلس العموم ـ رغم انه يمارس اكثر عمله فى المنزل ـ انه لا يزال نفس القوة العجيبة ، ولكن زوجته تجعلك تدرك بوضـوح انك لست فى داونيج ستريت فى اجتماع لمجلس الوزراء ، ولست فى البرلمان بل انت فى البيت .. وكان هذا النظام المنزلى ضروريا ، اذ لولاه لأحـرق نفسه منذ زمن بعيد ، ولما عاش كل هذه السنوات .. انهــا الشخص الوحيد فى العــالم الذى يتلقى منه النظام ! »

التكريم الاخير

حدث يوما ، خلال احدى الساعات المظلمــة ان فتحت كليمنتين قلبهـا لاحدى صديقاتها المقربات وكشفت لها عن أعمق افكارها .. افكار لم تكشف عنها حتى لزوجها .. كان ذلك خلال الحرب ، وكانت الصديقة تتحدث عن اليوم الذى تنتهى فيه الحرب ، وماذا ستفعل البلاد لتكريم زعيمها الكبير ، وقالت كليمنتين بهــدوء : « انى لم أفكر قط فيما بعــد الحرب ، ولكن افكــر فى ان ونستون سوف يمـوت عندما تنتهى .. اننا نضع كل مالدينا فى هذه الحرب ، وسوف تأخذ منــا كل ما لدينا » .

كان حديثا هادئا حزينا الى حــد

عجيب ، فقد بدا أنها واثقة تماما ومسلمة بانه لن يبقى طويلا خلال السلام .. ولكن ونستون لم يعش فقط خلال السلام وبعد الصدمة المروعة التى اصابت حزبه فى هزيمة انتخابات ١٩٤٥ ، بل لقد أصبح الزعيم القوى للمعارضة للحكومة الاشتراكية . وفى سنة ١٩٥١ عاد منتصرا الى رئاسة الوزارة .

لقد تسلم زوجها مصائر بلاده مرة أخرى وهو فى السابعة والسبعين من عمره ،وتدفق المشاهير الى شارتويل للتشاور معه فى تكوين الحكومة الجديدة ، وعادت كليمنتين تمارس عملها كربة بيت بحرية مطلقة ثم جاء تكريمه الاكبر عندما منح جائزة نوبل للادب فى الوقت الذى كان مشغولا فيه فى مؤتمر برمودا . ومع أن كليمنتين قد حلت محله فى مناسبات كثيرة فى القاء خطبة ، فان اختيارها الاكبر كبديلة له جاء فى ديسمبر سنة ١٩٥٣ عندما دعيت لتمثيل زوجها فى حفل تسلم جائزة نوبل خلافا للتقاليد ، وذلك اعترافا من السويد بالدور العظيم الذى لعبته فى حياة زوجها ..

وبينما كانت تتدرب على القاء الخطبة فى جناحها بالقصر الملكى باستوكهولم ، اعترفت لابنتها مارى أنها تشعر لاول مرة بنوبة عصبية معتدلة ، ولما كان تشرشل يدرك شعورها ، فقد ظل يواليها ببرقيات التشجيع من برمودا ، كانت آخر برقية سلمت اليها فى صباح اليوم السابق للحفل وجاء فيها : « حظ سعيد مع كل حبى ، وينى »

ونهضت كليمنتين فى المساء لتلقى خطابا أعده ونستون من ٥٠٠ كلمة امام ٩٥٠ ضيفا .. واستقبلت فى نهايته بتصفيق حاد .. وهكذا انتهت أكثر دقائق حياتها رعبا .

وبعد المأدبة اقيمت حفلة راقصة كبرى شهدتها مع ابنتها مارى وهى جالسة فى مقعد الشرف بجوار ملكى السويد .. وكان هناك ٥٥٠ طالبا فى المرقص وفجأة بدأ بعضهم يردد أغنية بالانجليزية وكانت أغنية : اواه يا حبيبتى .... اواه يا حبيبتى كليمنتين » .

كانت تلك لحظة نادرة لا تنسى ، حتى ان كليمنتين — التى قل ان تكشف عن مشاعرها أمام الآخرين — لم تستطع أن تخفى دموعها .. ونهضت ولوحت لهم بيدها مبتسمة، فصفقوا وهتفوا لها بحماسة ..

لقد كانت جائزة نوبل التى قبلتها

لتكريم زوجها .. أما هذه المظاهرة فكانت لتكريمها هي ..

واخيرا ، فان ونستون هو وحده الذي يعرف ولا شك مدى ضخامة تأثير كليمنتين على حياته ولم يحاول هو أن يقلل من شأن هذا التأثير . بل كتب يقول : « لقد كان زواجي اسعد وامتع حدث وقع في حياتي كلها .. فما أعظم أن تتحد مع مخلوق لا يستطيع ان يفكر فكرة خسيسة »!

وقال مرة أخرى: «ان اعظم مآثري هو قدرتي على أن اقنع زوجتي بالزواج مني » .

واولئك الذين يعرفون كليمنتين جيدا يدركون انه كان في استطاعتها أن تحقق نجاحا عظيما في حياتها الخاصة ، ولكنها بدلا من ذلك كرست حياتها لتشجيع ودعم هذا العبقري العجيب .. زوجها ..

وما أعظم الفرق الذى كان يمكن ان يطرأ على حياته وعلى تاريخ العالم لو لانها اختارت الطريق الآخر !



اطمئنان

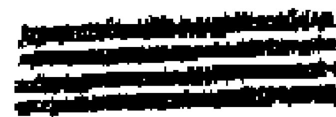
في خلال الحرب ، ركب ابي احدى الطائرات التابعة للبحرية الامريكية .. وفي خلال الطيران ، بدا الجليد يتساقط مختلطا بالمطر المتجمد ، فقال ابي للطيار : أرجو أن يكون هناك جهاز لانزال الثلج في هذه الطائرة

فقال الطيار مطمئنا اياه : اجل .. ان لدينا احدث جهاز من هذا النوع

فأجاب ابي : الحمد لله

ولكن الطيار واصل حديثه وهو يشير الى كوم من الصناديق في مؤخرة الطائرة وقال :

ـ انني في طريقي الى احدى المحطات الجوية التابعة للبحرية لتركيب الجهاز !



انتقام مناسب

عندما بدأ هتلر احراق الكتب الشهيرة ، بعث له وليم نويل صاحب المكتبة الشهيرة في لندن برقية قال فيها : (استطيع ان اعرض عليكم اسعارا عالية لكل الكتب الممنوعة ، لا تحرقها . هل تقبلون التفاوض في هذا الشأن ؟)

ولكن الفوهرر لم يرد على برقيته .. وقد انتقم منه نويل باستخدام النسخ في الباقية من كتابه (كفاحي) بدلا من اكياس الرمل لدعم سطح بيته خلال الغارات الالمانية الخارقة على لندن .

كتاب الشهر

مواطن من نيوسالم



جاء من البرية معدما جاهلا..واستقر بمحض الصدفة فى بلدة نيوسالم على حدود الينوى ،كان لايزال شابا لاخبرة له ، مرتبكا ، لايثق فى نفسه على الرغم من قوته وحجمه المهيب ، ولكن نيوسالم احتضنته وعلمته ، وشجعت روحه على أن تنمو . وعندما حان الوقت ، ايده اهلها باصواتهم ، ووضعوه على الطريق الذى أدى به فى النهاية الى الاستقرار فى قلوب العالم ..

لقد كان ابراهام لنكولن اكثر من مجرد رئيس أمريكى عظيم ، قاد بلاده خلال حرب اهلية هددت الامة بالتمزيق كان رجلا مرحا شفيقا ، وهو يمثل بالنسبة للعالم كله رمز القوة التي يمكن أن تثمرها الديموقراطيةمن اكثرالبدايات بعدا عن الاحتمال ..

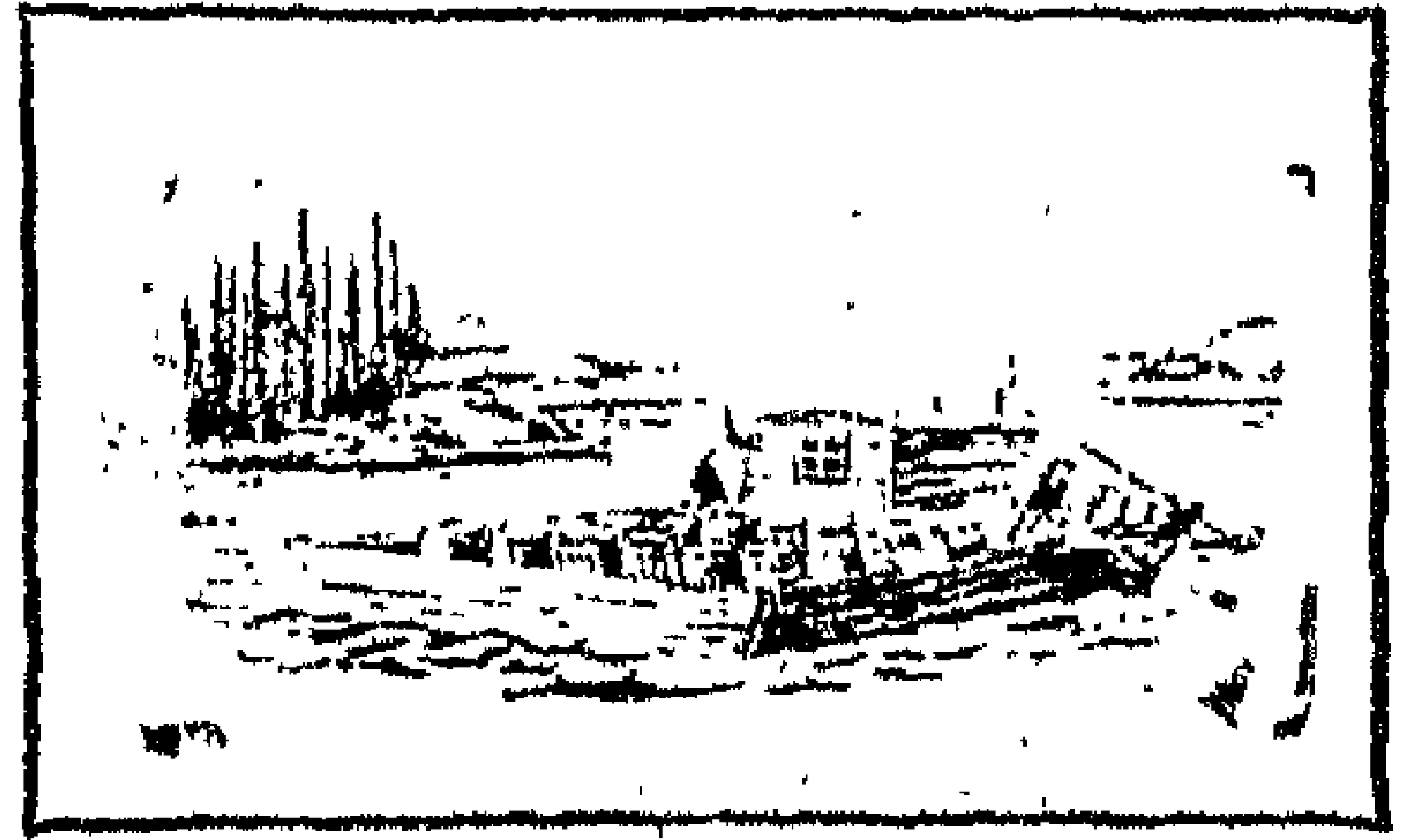
ويعطينا المؤلف بول هورجانهناصوره حية آسره لابراهام لنكولن الشاب ، فى الفترة التى عملت فيها حماسته وغيرته على اعداده للاعباء والمحن التى كانت فى انتظاره .

مواطن من نيوسالم

تلخيص كتاب

Citizen of New Salem

بقلم بول هورجان



صديق له فيما بعد يقول :

« كان يؤكد لكل من يتصل به ، انه قطعة خشب جرفها التيار ، وانه انحدر مع النهر بعد شتاء كثيف الجليد ، يطفو مع السيل مندفعا على غير هدى ، الى ان القت به المقادير مصادفة فى نيوسالم .. »

فى ١٩ ابريل ١٨٣١ ، استدارت سفينة مسطحة القاع طولها ٢٤ مترا، متجهة نحو نيواورليانز عند منحنى فى نهر سانجامون على مقربة من ضفة مرتفعة ، وفى اعلى الضفة ، كانت توجد طاحونة يمتد منها سد اقامه الطحان ... واصطدمت السفينة بالسد لتعلو فوقه ، وتتعلق به ومقدمتها مرتفعة فى الهواء ، ثم تدفقت المياه فى سطحها الفليل العمق ، وعجزت السفينة عن الحراك يوما وليلة .

كان مشهدا يغرى بالمنظر اليه.. واقبل الناس من قرية نيوسالم التى تعلو ضفة النهر ليروا ماذا سيحدث بعد ذلك ، فشاهدوا اطول رجال السفينة وهو يتولى الامر ، مع انه اصغر الرجال الثلاثة الذين على سطحها ، وامر بتخفيف حمولة السفينة بنقل جزء من شحنتها على الشاطىء ، وكانت الشحنه تتكون من براميل من لحم الخنزير ، وذرة وخنازير حية ، فنقل بعضها الى الامام حتى يتم توازن السفينه فوق السد .

ولكن السفينة لم تستطع الحركة بسبب استمرار ثقلها بالماء . فهبط النوتى الى الشاطىء ، واستعان بمثقاب احدث به فجوة فى مقدمة السفينة المعلقة ، فتدفقت منها المياه الى الخارج ، ثم سد الثقب فهبطت السفينة عن السد واستقرت فى الماء

ودهش المشاهدون لذكاء هذا

النوتى الطويل القامة ... كان يرتدى بنطلونا من قماش قطن خشن، وقد شمر أطرافه الى أعلى قصبة ساقه، فكشفت عن جزء كبير من قميص قطني ذى خطوط زرقاء وبيضاء ، وكان يضع على رأسه قبعة من القش المجدول من شرائط رفيعة من قشور الشجر لاتساوى اكثر من خمسة قروش ... وقد وصف هو نفسه يومئذ بأنه كان « فتى غريبا لاصديق له ، جاهلا ، معدما ، يعمل على سفينة مسطحة مقابل عشرة دولارات شهريا .. »

وعندما اعيد شحن البضاعة ، استأنفت السفينة رحلتها الطويلة الى نيو أورليانز ، حيث شاهد النوتى معالمها ، ولكن « دنتون أوفات » صاحب السفينة تذكر « نيوسالم » وقرر ان ينشىء متجرا فى تلك القرية النامية من قرى ايلنوى التى تقع على ضفة مرتفعة من نهر سانجامون ، واستأجر النوتى الطويل القامة لمساعدته ، اذ لم يكن لديه مايعمله أو يذهب اليه !

النوتي والكسول

تذكر اهل القرية ذلك النوتى الشاب ــ الذى كان فى الثانية والعشرين من عمره ــ عندما عاد الى نيوسالم فى يوليو ، وقد جاء بمفرده على ان يأتى اوفات فيما بعد مع البضاعة اللازمة للمتجر الجديد وسرعان مابدأ فى اكتساب المعارف والاصدقاء ..

وفى ذلك الصيف الاول ، رأوه يبرز بقامته وسط أى جمع من الناس، اذ كان طوله ١٩٣ سنتيمترا، بل كانت ثيابه تجعله يبدو اكثر طولا ، اذ لم تصل اطراف بنطلونه قط الى حذائه فقد كانت تبعد عنها حوالى ١٥ سنتيمترا ، اما اكمام قميصه فكانت لاتكاد تلمس معصميه الخشنين كغصن شجرة بندق وكان شعره كثيفا حالك السواد ، صفف بطريقة غير منتظمة ، ربما باحدى يديه الكبيرتين بحثا عن فكرة هاربة !

وكانت عيناه موضوعتين فى مكان عميق تحت ظلال حاجبيه الكثيفين فى وجه عريض العظام ، وقد بدت عظامه وعضلاته القوية بوضوح فى كل مكان من هيكله العظمى ، ولكنه كان يعتبر نفسه انسانا بسيطا صريحا ، ويبدو انه كان يدرك كل ما ينقصه من المعرفة والوجود والموهبة، فقد كان يعد نفسه دائما أقل جدارة من الكثيرين ، لانه من اطفال اقاصى

المعمورة ... ووصفه شاب من سنه رآه في مرحلة الصبا فقال انه كان « اكثر الناس خجلا وسكوتا وفظاظة وارتباكا وسذاجة ، كما كان اسوأ الناس ملابس في العالم » .. فبأى شيء استطاع ان يترك هذا الاثروان يبدو كما بدا ؟

واتيحت اول فرصة للنوتي للاجتماع بحشد من الناس في اول اغسطس ١٨٣١ عندما اجريت الانتخابات في نيوسالم ، حيث تجمع المواطنون ، وادلى هو بصوته لاول مرة ، ونطق برأيه شفويا كغيره امام كتبة الاقتراع الجالسين امام مائدة، وكان مثل هذا اليوم يخصص للسياسة واللهو ، ودار على الحاضرين نوع قوى من الويسكى يسمى «مونوجاهيلا» مع انواع اخرى من المشروبات تعرف باسم « طافيا » وتشبه الروم ..

كان النوتي يتلهف لارضاء الناس، وعندما كان يجد من يصغى له ، كان في استطاعته ان يلقى فكاهة او قطعة من الشعر الهزلى ، او يقلد شخصا ايرلنديا او هولنديا ، او زنجيا ، وهو امر كان يؤديه ببراعة تامة كما قال ت٠ اونستوت ابن صانع البراميل واضاف قائلا : « لم ار مثيلا له في دور راوية القصص » ٠٠ وهكذا جعل الناس ينسون مظهره ، ويعرفونه على حقيقته ٠٠

كان اغلب الناس يأتون الى نيوسالم ومعهم حرفتهم الخاصة ، اما النوتي فلم يكن في استطاعته الا ان يتسكع في انحاء القرية منتظرا مخدومه ، باحثا عن بعض الاعمال الصغيرة ليؤديها ، وقد كسب اجرا قليلا ذات مرة لانه ارشد سفينة من نيوسالم حتى بيردستاون على نهر ايلنوى ، ثم سار على قدميه عائدا من بيروستاون مسافة ١١٥ كيلومترا الى نيوسالم ٠٠ ولكنه وجد الآن على الاقل مكانا يذهب اليه !

كاتب المتجر

وعاد اوفات في ٣ سبتمبر ، ودفع عشرة دولارات لشراء قطعة الارض رقم ١٤ في القرية ليقيم عليها متجره ، وسرعان ماتم البناء وبدأ الكاتب الجديد عمله مع مساعد يدعى سيكى بيل جرين في التاسعة عشرة من عمره ٠

كان لديهم كمية مخزونة من مختلف السلع للاتجار فيها ... بعضها مستورد ، كالعدد والاسلحة النارية والذخائر والسروج والمشروبات الروحية ، والباقى مصنوع محليا

أو جمع من البرية ، كالجبن ولحم الخنزير والشحم والدهون ، والفراء، وشمع النحل ، ومقود الثور ، والمشروبات غير المتقنة الصنع

وكان كاتب المتجر بطريقته المعتدلة المدركة يبدو تواقا لتعلم اى درس فى الحياة المزدحمه حوله .. فقد كانت القرية بمظهرها البدائى ، ومجموعتها المتباينة من الاشخاص تكفل فرصا كثيرة للتعليم والثقافة، ولكن كان عليه اولا ان يثبت وجوده فى مواجهة ضغط اكثر خشونة من الحياة .

وعلى مقربة من نيوسالم ، كانت توجد فى البرارى مستعمرة صغيرة تسمى « غابة كلارى » وكان « فتيان غابة كلارى » يجبرون القادمين الجدد على احترامهم بطريقتهم الخاصة ... وعرف الكاتب هذا النوع ، اذ كانوا يسيطرون على المناطق البعيدة بارهاب حقير ، فيهاجمون ليلا ممتلكات من لايرضون عنه ، وكان زعيمهم هو جاك أرمسترونج الذى أراد أن يسبر غور الكاتب الجديد ، فتحداه لمصارعته ، وهو الذى لم يسبق ان هزمه احد ..

ومن العسير ان تصدق ان كاتب المتجر تعادل معه فى المصارعة .. وتصافحا بعد الانتهاء ، وقال جاك لفتيانه أن للكاتب منذ تلك اللحظة مقاما ممتازا ، رغم انه لم يكن يشرب أى خمر أو يطلق اللعنات .. اما الكاتب من ناحيته فانه لم يتدخل قط لتشتيت الفتيان ، ولكنه كان فى بعض الاحيان يجعلهم اكثر رحمة مما يعتزمون .. كان يقر الملاكمة والمصارعة ، اما اذا اشتعل الغضب وتطورت الى معركة حامية بقبضات الايدى ، فقد كان يقول : « فلنوقف ذلك » .. وكانوا يفعلون .

وكان كاتب المتجر يشهد سباق الخيل، وسباق الجرى بعد ظهر أيام السبت ، ومباريات الملاكمة والمصارعة والرماية ... كانت الالعاب والثرثرة هى العلامة التى تميز ايام المحاكمة، عندما يجىء القاضى الى القرية ، أو عندما يتجمع الجيران لمساعدة أحدهم على بناء بيته ، أو ينظمون مطاردة للذئاب أو يجتمعون لعمل الالحفة (حيث يقوم الرجال والنساء باستخدام الخيط والابرة) ... وكانت هذه المناسبة كلها تكفى لاقامة مأدبة !

كان الاثاث يسحب الى الخارج ، فاذا كان فى البيت فسحة تكفى ، كانوا يدفعون الاثاث نحو الجدران ،

وعلى صوت الاكورديون والجيتار او الكمان ، كان الراقصون يهزون ارضية المكان على نغمات الايادى المصفقة ، ويتلو ذلك وليمة حافلة بلحوم الصيد ، وخليط من بذرة الذرة المطحونة ، والبطاطا والخضر والخبز ، ومزيج يابس من ذرة على هيئة كعكة مقلية او مخبوزة ، وذرة مغلية فى الماء .. ثم يدور الويسكى المحلى على الحاضرين ، وتشرب الجماعة حتى الثمالة ...

كان بعض الضيوف يأتون من مسافات بعيدة ، وليس هناك مايدعو لتفكيرهم فى العودة خلال الظلام ، فان المنزل الخشبى النموذجى ذا الغرفة الوحدة فى نيو سالم ، كان مستعدا لمواجهة كل المناسبات وقد كتب عنه ابن صانع البراميل يقول : « فى اوقات الطعام ، يصبح كله مطبخا ، وفى الايام المطيرة عندما يأتى الجيران ليسردوا مآثرهم ، يتحول كله الى غرفة للجلوس .. وفى يوم الاحد عندما يرتدى الشبان بنطلوناتهم ، والفتيات أفخر ثيابهن ، يصبح كله قاعة للاستقبال ...وفى الليل يتحول كله الى غرفة نوم »

واذا بقى الضيوف لقضاء الليل بعد الحفلة ، كانت الارض كلها تتحول الى سراير يشترك فيها الجميع .. النساء يخلعن معاطفهن ، والرجال ستراتهم وقمصانهم وبنطلوناتهم ويعلقون ذلك كله فى مسامير على الحائط . لم يكن احد يشعر ان البيت ليس بيته او انه سيىء الادب واذا جاء الصباح ، عملت لبخة من البطاطس النىءلعلاج صداع الويسكى اذا دعاك الحال ، فان اية زوجة تستطيع اعدادها ..

كان كاتب المتجر يتناول طعامه مع أسر مختلفة : آل هيرندون ، وآل ميللر ، وآل كيلسوس ، وفى الليل ينام فى المتجر ... كان يؤدى عمله فى مرح ، مضيفا الى سلعه التى يقدمها للزبائن الكثير من القصص الفكاهيه المبالغ فيها ... وكان مستقيما مثاليا ، حدث مرة ان اخطأ فى اعطاء بقية النقود لاحدى العميلات فأبقى ٥ر٦ سنت أكثر مما يجب ، واكتشف غلطته فى نهاية اليوم ، فصححها بالسير عدة كيلو مترات لاعادة المبلغ قبل ان يهجع فى الليل .

وفى شتائه الاول بالبلدة ، اشترك فى جمعية المناقشات بنيوسالم ، وكان الاعضاء يهتزون سرورا عندما ينهض ليتحدث ، فقد كانت فكاهاته ونوادره شهيرة ، وكانوا يدهشون

اذا ألقى عليهم خطابا باسلوب بديع بدلا من حكاية مضحكة ، وكان يسحب يديه من جيوبه ويطوح بهما فى اشارات قليلة ولكنها فصيحة .. وقد اعلن رئيس الجمعية بعد احد الاجتماعات ان فى راس كاتب المتجر أكثر من مجرد النكت والمرح ، فهو خطيب رائع فعلا . وكل ماينقصه هو الثقافة ..

وكانت وجهه النظر هذه يشاطره فيها الكاتب ... احيانا بلا امل ! وفى الربيع التالى استخدم لحظات الفراغ التى كانت تتاح له فى متجر اوفات لمحاولة دراسة النحو والصرف ولكن بعد فترة قصيرة فشل المتجر ، وغادر اوفات البلدة . وعاد الكاتب معدما من جديد ، لايستطيع الحصول على عمل ثابت ..

وعلى الرغم من نظرته الواعيه لعيوبه ، فقد تحرك الآن شيء فى اعماقه ليشكل أمامه أملا خياليا . وكرس نفسه لكتابة بيان نشره فى عدد ١٥ مارس ١٨٣٢ بصحيفة « سانجامو جورنال » معلنا ترشيح نفسه لعضوية الجمعية التشريعية فى « ايلنوى » .

كانت نيوسالم - كبقيه مستعمرات الحدود الاخرى - تشعر بهزة المستقبل .. المتفائلون يتحدثون عن جمع المال لبناء طريق حديدى لمقاطعة سانجامون ، لان تحسين النقل هو مفتاح النمو للمستقبل . ووافق كاتب المتجر على تحسين النقل ، اما فيما يتعلق بالخط الحديدى فقد كتب يقول : « هناك دائما صدمة تروع القلب تصحب حساب نفقاته » . واقترح اتخاذ اجراء آخر بتحسين نهر سانجامون على اساس انه يناسب موارد القرية الصغيرة بصورة افضل .

كان يعرف النهر جيدا . السفينه المسطحة ، والسد ، والطاحونة .. وكتب المرشح يقول : « هذه الظروف دليل كاف على اننى لم اكن غافلا عن مراحل الماء » .. ومع ذلك فان تقديراته المتعلقه بنهر سانجامون لايمكن ان تكون لا اساس لهسا من العقل ..

ومع ان النهر كانت له مزاياه الطبيعية ، فان مجراه لايمكن ان يكون مفيدا بصفة عملية الى اى حد كبير « دون ان يتحسن تحسنا عظيما بوساطة الفن » . وقد تذكر ان الاخشاب التى يجرفها التيار تكاد تسد النهر بأكمله ، وان الخمسة والخمسين كيلو مترا الاخيرة هى اسوأها ، حيث يتعرج المجرى

بصورة مؤلمة تكاد تجعل الملاحة فيه مستحيلة .

وقال : « لماذا لانعدل مجرى النهر بازالة الاراضى المزروعة بالحشائش بعرض كاف فى خط مستقيم خلال ارض منبسطة من البرارى خالية من الاشجار ، واقامة سد على المجرى القديم ، ان النهر سوف يشق طريقه خلال القناة الجديدة فى وقت قصير ، وبهذا نقصر المسافة ونزيد سرعة التيار زيادة كبيرة ، فى الوقت الذى لن توجد فيه أخشاب على ضفتى النهر لعرقلة الملاحة فى المستقبل » .. ثم قال المرشح : «اذا انتخبت ، فان اى اجراء فى الجمعية التشريعية يستهدف هذا العمل سوف يحظى بتأييدى »

وفى ضوء النهار تحت شجرة ، أو ضوء ذبالة خافتة ليلا ، كان المرشح العاطل الذى لايجد مكانا ينام فيه غير الغرفة العليا فى بيت شخص ما ، يجلس ليدون كلمات كتب لها ان تتردد مرة اخرى فى اعلى غرف الحكومة !

الكابتن

عندما اندلعت حرب « الصقر الاسود » مع الهنود الحمر فى عام ١٨٣٢ ، رسم بعدها بفترة طويلة صورة لحياته ، كتبها بضمير الغائب فقال : « انضم الى فصيلة من المتطوعين ، فاختير لدهشته ضابطا لها برتبة كابتن »

وقال أول جندى فى نيوسالم اصدر له الكابتن أمرا : « اذهب الى الشيطان يا سيدى » !.. لقد كان واحدا من « فتيان غابة كلارى » التى كان أعضاؤها يكونون جزءا كبيرا من الفصيلة .. ولكن على الرغم من تحررهم فى الحديث ، فقد كانوا يتبعون قائدهم فى اخلاص ..

كانت الحرب حملة استمرت ثلاثة شهور لمطاردة الزعيم الهندى «الصقر الاسود» من قبائل الصقر والثعلب الذين جاءوا الى الشرق مع ٥٠٠ مقاتل عبر المسيسبى بحثا عن الطعام وخرقا لمعاهدة كانت مفروضة عليهم .. أما بالنسبة لفصيلة الكابتن فقد كانت حربا كلها سيرا واستراحة دون مشاهدة للعدو فى أى وقت .

وكتب الشاعر الصحفى وليم كالين بريانت الذى تقدم الى الجبهة لمشاهدة القتال ، فقال ان بعض سكان المستعمرات كانوا يشكون من أن الجنود « يشنون الحرب على الدجاج والخنازير » وقابل الكابتن فوجد « كثيرا من المتعة فى الحديث

المتع الظريف لهذا الشاب الخام ».

وبعد سنوات ، تحدث الكابتن عن خدمته العسكرية فقال « أجل يا سيدى .. لو ان الجنرال كاس تقدمنى فى حرب الصقر الاسود ، لقطف التوت البرى ! وأعتقد اننى تفوقت عليه فى الهجوم على البصل البرى .. واذا كان قد رأى أى هندى أحمر حى يقاتل ، فان هذا أكثر مما رأيت أنا .. ولكننى واجهت كثيرا من معارك الصراع الدموى ضد البعوض ، ومع اننى لم أفقد الوعى قط بسبب ما فقدته من دماء ، فاننى استطيع أن أقول بصدق ، اننى كنت أشعر بجوع فى كثير من الاحيان ! »

وفى ذات مرة ، أثار له فتيان غابة كلارى بعض المتاعب فعلا ، فقد ذهبوا ذات ليلة الى مقر الضباط فى المعسكر وسرقوا كل ما استطاعوا حمله من الخمور والانبذة ، وفى الصباح كانوا لا يستطيعون السير على أقدامهم ، وتخلفوا عن الصفوف واحدا بعد الآخر ليمسك كل منهم راسه على جانب الطريق .. وعوقب الكابتن الذى لا جريرة له ، واعتقل يومين ، وجعلوه يحمل سيفا من الخشب !.

ومع تساهله مع رجاله ، فقد كان فى استطاعته أن يسيطر عليهم بحزمه اذا شاء.. وجد يوما حشدا من الجنود الغاضبين يتجمعون حول هندى عجوز كان يتجول بين خيامهم .. وقالوا له ان الهندى جاسوس وانهم سوف يقتلونه .. وأخرج العجوز رسالة من قميصه موقعا عليها من الجنرال كاس يوصى به لدى المواطنين البيض للخدمات الطيبة التى أداها فى الماضى باخلاص ..

وصاح الجنود : « فلنجعل منه عبرة .. هذه الرسالة زائفة .. انه جاسوس » .

ثم سمعوا صوت الكابتن الذى ظهر بينهم وبين ضحيتهم يقول : « يجب ألا تفعلوا ذلك » . ويقول البعض ان وجه الكابتن كان ممتلئا بالعزيمة والغضب .. وأطلق الجنود سراح الهندى العجوز ..

وتقدمت الحملة فى الغابات والنهر ، وانتهت فترة تطوع الكابتن ، وقدرها ٣٠ يوما .. وقال بعد ذلك لاحد اصدقائه « كنت خاليا من العمل ، ولم يكن هناك خطر وقوع قتال آخر .. ولكن لم يكن فى استطاعتى الا أن أتطوع من جديد » .. وعندما تطوع مرة أخرى ، خدم الكابتن كنفر فى الجيش كغيره من الضباط الذين

وقعوا عقودا جديدة !.

وفى أواخر يونيو ، امتطى صهوة جواده وارتقى تلا صغيرا نحو معسكر قريب من « كيلدجز جروف » وتوقف الجنود فى خشوع ، عندما رأوا خمسة من البيض قتلى على الارض ..

وكتب الكابتن السابق يقول : كان ضوء الشمس الاحمر فى الصباح يغمرهم وهم يرقدون على الارض فى اتجاهنا .. وعلى قمة رأس كل منهم بقعة حمراء مستديرة ، حيث انتزع الهنود الحمر فروة رأسه ! » .. وساعد زملاءه فى دفن القتلى الخمسة .

وتم تسريحه من الجيش فى ١٦ يوليو ، كما سرحت الفصيلة كلها فى « بيوريا » ، وبدأ الزحف نحو بلدته .. كان صيف الانتخابات ، والجنود العائدون الى بيوتهم يتحدثون فى السياسة . وكان الكابتن السابق لا يرشو مرشحا ، والجيش مكان طيب للعثور على الاصوات ، فقد كان فتيان غابة كلارى جميعا يؤيدونه ، وكذلك كثيرون غيرهم ، وما أن ذاع نبأ ترشيحه حتى أيده الجنود جميعا « باعتباره حامل الراية » .. كما قال أحد رفاقه .

المرشح

وكتب يقول : « بعد أن عاد من الحملة والتشجيع الذى وجده من حب جيرانه المباشرين ، رشح نفسه عضوا فى الجمعية التشريعية » .

لم يكن أمامه غير أسبوعين لجمع التأييد .. وانطلق ليلقى خطابه الاول ، فوجد جمهورا من المستمعين يتجمع امام بيع عام فى بابستيل على مسافة ١٧ كيلومترا من سبرنجفيلد ، وكان يرتدى الثوب المناسب لمكانه وزمانه : سترة طويلة الذيل مصنوعة من أنواع مختلفة من القماش ، وبنطلون من التيل الثقيل الخشن ، وحذاء طويل من الجلد الاسود ، وقبعة من طراز عتيق من القش دون شريط ..

ووقف المرشح على مؤخرة عربة واستعد للبدء .. وفى ذلك الحين حدث هرج واضطراب فقد حاصر رجال جيس دودسون صديقه روان هيرندون فجأة ، وكان روان قد هزم جيس قبل ذلك بوقت قصير .. وهاهى العصابة كلها تحاصره الآن على حين غرة .

وقفز المرشح ممسكا المهاجم الاول لروان هيرندون من مؤخرة عنقه ومقعد بنطلونه وقذف به مسافة

أربعة أمتار .. وساد الهدوء ، وعاد المرشح الى المنصة ، ورفع يده قائلا: « أيها المواطنون .. أعتقد انكم جميعا تعرفون من أنا » .

وكانوا يعرفون !

واستطرد يقول : « ان سياستى قصيرة وحلوة ، كرقصة المرأة العجوز .. اننى أؤيد انشاء بنك قومى ، وأؤيد نظاما للتحسين الداخلى ، وتعريفة عالية للحماية . واذا انتخبتمونى ، فسأكون شاكرا ، واذا لم أنتخب فسيكون الامر سيان » .

وفى ٤ أغسطس ، عقد الاجتماع الختامى للحملة فى سبرنجفيلد ، وسمع ستيفن لوجان المرشح وهو يتكلم وأحس بالتغيير الذى يوحى به الشاب فى القلوب فى كثير من الاحيان . ويقول لوجان : « كان رجلا طويل القامة ، فظا ، خشن المظهر ... أيطالب هذا الجلف بمنصب عام؟ » . لقد جاء لوجان الى الاجتماع وهو يعتبره نوعا من العاطلين الموجودين فى نيوسالم ، وكتب لوجان بعد ذلك: « لقد كان المرشح عاطلا حقا عن العمل ، ولكنه بعد أن شرع فى الحديث ، أصبحت شديد الاهتمام به » .

وأظهرت الانتخابات التى جرت فى أغسطس انه يتمتع بشعبية كبرى ،



فقد حصل فى حدود بلدته نيوسالم على ٢٧٧ صوتا من ٣٠٠ ، وفى مقاطعة سانجامون بلغ مجموع أصواته ٦٥٣ ، ولكن هذه الاصوات لم تكن كافية لانتخابه وان كانت علامة طيبة لشاب يشك فى نفسه ، لم يمض عليه فى البلدة اكثر من عام .. وعاد مرة أخرى فى تاريخه القصير يسأل نفسه: ماذا يفعل !

طالب العلم

وكذلك تساءلت نيوسالم .. لقد وجده أصدقاؤه عاطلا معدما ، مكتئب النفس .. وتحول الرجل الكثير الفكاهات الى شخص بائس قلق . كان يقطن مع أسرة روان هيرندون ويقوم لها بأعمال صغيرة بين حين وآخر ليدفع ثمن وجباته ، وكان يتوق للتعليم ويتلهف الى أن يصبح محاميا ولكنه كما قال : « ظن انه

لن يستطيع ان ينجح فى ذلك بدون تعليم افضل » ..

ثم حدث فى اغسطس ١٨٣٢ ان اشترك مع صاحب متجر يدعى وليم بيرى . وكان الحانوت يحوى كمية كبيرة من الخمر ، ولاحظ البعض ان بيرى يفرط فى الشرب من هذا المورد المناسب ، اما الشريك الآخر فان اهتمامه بشيكسبير وبيرنز كان يعادل اهتمام بيرى بالبرميل وصنبوره !.

ولكنه الآن يجد سقفا يظلل رأسه، اذ كان ينام على المقعد الخشبى الكبير فى المتجر كل ليلة ، وكانت واجباته متفرعة ، بينها انه اذا تمادى احد العاطلين فى انتهاك حرمة الادب فى وجود سيدة من الزبائن ، فقد كان الشريك يجره الى الخارج ويقذف به ، وعندما يقل العمل ، كان يقرأ اى كتاب يستطيع أن يجده

كان شريك المتجر الوحيد فى الدنيا يشعر وهو فى الثالثة والعشرين من عمره بالحاجة الى التعليم . وقد قال ان « جملة الفترات التى امضاها فى المدرسة لا تكاد تصل الى سنة واحدة » وهو لم يدخل قط مبنى اى كلية او اكاديمية ، وفى احد ايام فبراير ١٨٣٣ ذهب الى بيت « منتور جراهام » ناظر المدرسة وقال له : «اننى افكر فى دراسة علم النحو والصرف » .

فقال له جراهام : اذا اردت ان تكون ذا مقدرة امام الجمهور فاعتقد ان هذا افضل شىء تستطيع ان تفعله.

قال : لو كان عندى كتاب النحو لبدأت الآن .

وكان الناظر لا يعرف غير كتاب واحد للنحو فى القرية ، هو كتابه الذى يستخدمه دائما مع تلاميذه فى المدرسة ، ولكنه تذكر كتابا آخر يستطيع شريك المتجر ان يستعيره. وكان يوجد فى (فانس) على مسافة تسعة كيلومترات .

ويذكر منتور جراهام ان صاحب المتجر سار على قدميه الى فانس للحصول على الكتاب ، ثم كرس كل اهتمامه الى النحو والصرف .

كان صاحب المتجر المتلهف الذهن ينتهز كل فرصة تسنح فى المتجر ليأخذ كتابه ويتلو لنفسه بعضا منه. وحتى اذا كان يجلس مع أحد، وفقد الحديث اهتمامه ، كان يستخرج الكتاب من تحت ابطه ليقضى معه دقائق قليلة ، فاذا قيلت كلمة استولت على انتباهه مرة أخرى ، أغلق الكتاب وعاد الى المحادثة من جديد.. لم يكن يفارق كتاب النحو

قط ، سواء وهو سائر بجوار النهر أو خلال الغابة ، أو على طول الشارع الوحيد .

ودرس مع جراهام خلال الربيع والصيف والخريف ، وانتقلا بعد ذلك من النحو الى الحساب وكانا يسهران حتى ساعة متأخرة. وتقول ابنة جراهام ان الاثنين كثيرا ما كانا يجلسان معا حتى منتصف الليل ، ولا يتوقفان الا عندما تخرجهما مسز جراهام لاحضار المزيد من الحطب لاذكاء النار التى نسياها خلال انهماكهما معا .

كان جراهام يرى الكثير فى تلميذه .. ويقول ان ساعات لهوه كان يستخدمها فى قذف الاطواق والسباحة والرماية وسرد القصص. وفى مرات قليلة كان يجلس مع بعض فتيات أيلنوى الجميلات .. ولكن حياته أساسا هى العمل ، وكان هناك ما يبرر افتخار المدرس عندما يتحدث عن تلميذه ..

وقد قال جراهام : « لقد علمت فى حياتى عددا يتراوح بين ٤ و ٦ آلاف طالب ، فلم يتفوق عليه أحد فى سرعة فهم قواعد وأسس النحو الانجليزى ، وتابع صاحب المتجر اهتماماته الحقيقية ، فكرس أغلب وقته كما قال جراهام ، للكتب المقدسة ، وكتب العلوم ، واكتساب المعرفة عن الناس والاشياء » . وهكذا كان صاحب المتجر يستخرج من الكتب المستعارة ما لا يستطيع أن يحصل عليه من تجربته اليومية .

وكيل البريد ، المساح ، النائب !

أشار الى نفسه وشريكه بيرى فقال : « لم يفعلا بطبيعة الحال شيئا غير الانغماس فى الديون أكثر وأكثر» .. ثم قال : « لقد أفلس المتجر ». وعندما توفى بيرى بعد فشله، تركه وهو مدين بمبلغ ١٢٠٠ دولار — وهو مبلغ بلغ من ضخامته فى عينيه انه كان يشير اليه على انه « الدين القومى » ولكنه سدده فى النهاية بما فى ذلك الفوائد .

وأصبح عاطلا مرة أخرى،واضطر الى الالتجاء الى جيرانه بحثا عن مهام يستطيع أن يكسب من ادائها فراشا وخبزا .. وأصبح لديه وقت كثير للكتب ، وفى حانة « راتليدج » راح يصغى الى المحامين الذين يتجولون لعرض خدماتهم ، والى غيرهم من المسافرين القادمين من العالم الذى لا يعرف عنه شيئا ، فعرف أن عقله وروحه قد بعثت فيهما الحياة ،وانه

وان لم تتح لهما بعد فرصة اللمعان، فانه يستطيع على الاقل أن يبين ماذا أمكنه أن يفعله في الحياة على حدود هذه البراري البدائية .

ولقد راهن بيل جرين رجلا على قبعة من الفراء ، على ان صديقه صاحب المتجر يستطيع أن يرفع بيده برميل الويسكي ويشرب من ثقبه .. وكسب رهانه عندما دحرج صديقه البرميل فوق ركبته وشرب منه ، ثم بصق الويسكي من فمه .. وفي مناسبة اخرى ، رآه جيمس شورت وهو يرفع ٣٤٠ كيلو جراما من رش البنادق بقوة خارقة .



وكانوا يحبون أيضا اية طريقة أخرى يستخدم بها قوته العظيمة .. وتقول مسز جاك ارمسترونج :«كان يفعل أي شيء لكي يريح أي انسان»: فالارامل والفقراء الذين يحتاجون الى جلب الحطب كانوا يستطيعون الاعتماد عليه ، وقد شق كوبا من الكتل الخشبية لبيعها ليحصل على نقود يشتري بها حذاء لفتى حافي القدمين « وكانت قوته هائلة في قطع الاخشاب ، حتى انك اذا سمعته وهو يسقط الاشجار في الارض الخلاء ، كنت تظن أن ثلاثة رجال يعملون معا»

وكان الاطفال ينجذبون اليه ، ويحسون أن بساطة روحه تمتد اليهم في حب ومساواة .. وكانوا يتبعونه في كثير من الاحيان ، حتى بدا انه أينما ذهب ، كان معه بعض الاطفال .. وقال أحدهم انه كان لاعب « بلي» كبيرا ، يجعلنا نحن صغار الاطفال نجري في كل اتجاه لجمع البلي الذي ينثره ! .

وسرعان ما بدأ أصدقاؤه يعملون لصالحه ، وكانوا قد أحسوا منذ بعض الوقت بعدم الرضى عن سلوك مكتب البريد في نيوسالم ، فقدموا بعض توصيات خاصة، أدت الى تعيين صاحب المتجر العاطل وكيلا للبريد في ٧ مايو ١٨٣٣ بقرار من الرئيس أندرو جاكسون .

وكان البريد يصل بالعربات مرة كل أسبوع ، فاذا كان هناك شخص ينتظر رسالة خاصة باهتمام ، كان وكيل البريد يحملها اليه بنفسه .

وكانت الرسالة عبارة عن رقعة مطوية من الورق ، ومغلقة بالشمع . ولم تكن هناك طوابع للبريد ، بل كان وكيل البريد يكتب الاجر فى الركن الاعلى على اليمين حيث يكتب العنوان ويدفع المرسل اليه أجر البريد ، وكانت الورقة الواحدة تكلف ٦ سنتات عن الثمانية والاربعين كيلومترا الاولى .

كان وكيل البريد يستخدم جوربا قديما ازرق اللون لحفظ الايصالات ، وكان بطبيعة الحال يرى كل الصحف التى تأتى الى البلدة ويقرؤها : « الجورنال » التى تصدر فى لويزفيل ، و« ريببليكان » من ميسورى ، و « الجازيت » من سنسناتى ، وقد ساهمت هذه العلاوة غير الرسمية فى تعويض أجره المنخفض الذى كان يقوم على أساس كمية العمل الذى يجرى من خلال جوربه الازرق ، وكان نصيبه يتراوح بين ٤ و ٦ دولارات شهريا !

وجاءته النجدة عندما أتيحت له فرصة اخرى ، فقد عرض عليه « جون كالهون » مساح مقاطعة سانجامون وظيفة نائب مساح ، ولما لم يكن هذا العمل يتعارض مع واجبات عمله فى البريد فقد قبله وهو يعلن أن عليه فى نفس الوقت أن يدرس علم المساحة بسرعة ، وتولى جراهام هذه المشكلة وبعد أن أتقن علم النحو فى ثلاثة أسابيع ، بدأ وكيل البريد الآن فى دراسة كتب المساحة حتى أتقن الموضوع فى ستة أسابيع ، واشترى بوصلة ، وسلسلة مساح لقياس الوحدات ، وشرع فى ممارسة عمله !.

وأدى خروجه الى الريف لتخطيط البلدان والطرق والاصقاع الجديدة الى أن أصبح معروفا للمزيد من الناس حتى أصبح اسمه مألوفا فى كل بيت ، وكان احساسه وقلبه المتفتح لرفاقه من بنى البشر ، وروحه المرحة وما تعلمه من الكتب تجعله دائما ضيفا موضع الترحيب ، فكان يأسر المزيد من الاصدقاء وربما كانوا أصواتا انتخابية مستقبلة ، فقد كانت هناك انتخابات أخرى فى الطريق .

وفى ١٩ ابريل ١٨٣٤ نشر اسمه فى صحيفة « سانجامو جورنال » على انه يرشح نفسه مرة أخرى للجمعية التشريعية .

كان روان هيرندون يعيش الآن فى « جروف ايلاند » .. وفى ذات يوم ذهب الرجل الذى كان يقطن لديه

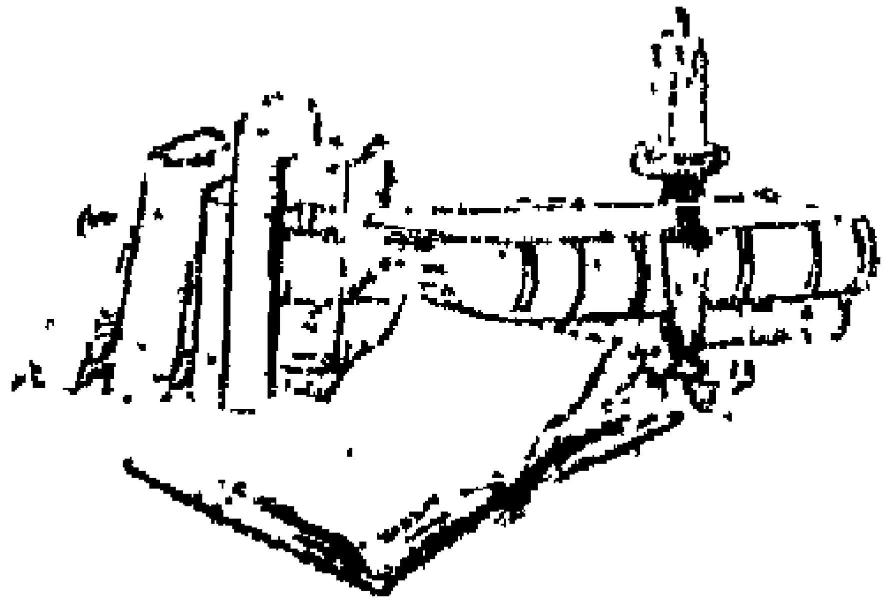
الى هناك من أجل الحملة الانتخابية، فقد كان هناك حوالى ٣٠ رجلا يحصدون فى الحقل ، ولكل منهم صوت .. وقدمه هيرندون ، ولكن ذلك لم يثر حماستهم ، اذ قالوا انهم لا يستطيعون منح أصواتهم لرجل الا اذا عمل لمساعدتهم فى عملهم .

فقال المرشح : حسنا أيها الرجال .. اذا كان هذا هو كل شيء ، فاننى واثق من أصواتكم . وامسك المنجل الكبير ، وتقدم الطريق فى كل أنحاء الحقل بسهولة تامة . . واحس الرجال بالرضاء عنه .

وفى خلال حملة الصيف من أجل الانتخابات ، التقى بزميل قديم فى السلاح خلال حرب الصقر الاسود، هو المحامى جون ستيوارت من بلدة سبرنجفيلد ، وكان ستيوارت قد شجعه من قبل على دراسة القانون، وعاد يفعل ذلك مرة أخرى ، فشرع المرشح يفكر فى امكان تحقيق حلمه فى أن يصبح محاميا ..

وفى ٤ أغسطس ، انتخب نائبا فى الجمعية العامة التاسعة للجمعية التشريعية لايلنوى وحصل على ثانى رقم بين المرشحين ، وبعد ان احتل مقعده مع ٥٥ عضوا بالمجلس ، بدأ يتعلم شيئا عن عمل الحكومة ، وهو كما يبدو كل ما استطاع أن يفعله فى فترة نيابته الاولى .

ويقول أحد الاصدقاء ان النائب الجديد كان غير مشهور فى هذه الدورة ، وعند ما تأجلت جلسات الجمعية فى ١٣ فبراير ١٨٣٥ ، عاد الى نيوسالم ، والى عمله كوكيل للبريد، ونائب للمساح ، ولكنه جلب معه الآن قرارا بمتابعة أعز أمنياته .



طالب القانون

كتب يقول : « اذا عقدت العزم على أن تجعل من نفسك محاميا ، فان نصف العمل يكون قد تم فعلا . »

ولم يكن فى نيوسالم من يستطيع تعليمه القانون .. ولكن ما أهمية ذلك ؟ اذا كان لابد للانسان أن يفعل ذلك بمفرده فانه يستطيع . والشيء الاساسى هو الحصول على الكتب اللازمة .

كان عضو الجمعية التشريعية يركب عربة مزارع أو يسير على قدميه الى سبرنجفيلد ليستعير كتب القانون من المحامى ستيوارت ، وعندما يعود

كان الجيران يلاحظون انه يدرس فيها كلما استطاع .. فى زاوية متجر، أو فى أسفل كوم من التبن .. أو أحيانا وهو راقد على ظهره وقد رفع قدميه .

وفى ذات يوم وجده المزارع راسل جودباى الذى كان يؤدى له بعض الاعمال الصغيرة جالسا حافى القدمين فوق كوم من الاخشاب وقد أمسك كتابا ، فدهش ممايفعله عامل مزرعته وسأله : ماذا تقرأ ؟

قال : اننى لا أقرأ .. بل أذاكر .

ـ تذاكر ؟ .. ماذا ؟

قال عامل المزرعة فى اهتمام :

ـ القانون يا سيدى

ويقول راسل جودباى انه دهش كثيرا من هذا الرد ولاسيما أن طالب القانون كان يجلس فوق الاخشاب فى كبرياء وكأنه « شيشرون » .. وانفجر جودباى قائلا وهو يستأنف سيره : « يا الهى ! » .

وكانت شئون الحياة العادية تسير الى جانب الدراسة ، فقد كان طالب القانون يؤدى أعمال البريد ، وقد قام بمسح غابة مساحتها عشرة فدادين ، وفى ٢٤ مارس ١٨٣٦ ، أدرج اسمه فى محضر محكمة سانجامون الجزئية باعتباره رجلا ذا سجايا طيبة ، وهى أولى خطوات ثلاث فى الطريق الى الحصول على ترخيص بمزاولة القانون .

وفى مايو فقد مركزه كوكيل للبريد ، عندما عطلت الحكومة مكتب نيوسالم ، وكانت القرية قد بدأت تضمحل ، وهجرتها العائلات التى أسس بعضها بلدة بيترسبرج ، التى قام هو نفسه بمسح أرضها فى فبراير .. فلعل المستقبل يكمن فى مكان آخر !.

المحامى والمشرع

فى أوائل الصيف امتلأ الجو من جديد بروح مثيرة .. كانت تلك هى سنة حملة انتخابية جديدة ، وأعلن عضو الجمعية عن اعادة ترشيح نفسه .. وظل المرشح يطوف المنطقة مع منافسيه من ٤ يوليو عندما بدأت الحملة فى بيترسبرج، حتى ٣٠ يوليو عندما انتهت فى سبرنجفيلد .. كان يذهب الى الاجتماعات على ظهور الخيل ، ويتحدث فى البساتين والمزارع .

وبينما كان منصرفا من أحد الاجتماعات ، مر بجواده أمام البيت الجديد للمرشح المنافس جورج فوركير، ورأى فى أعلى البيت ـ وكان من أجمل بيوت سبرنجفيلد ـ مانعة

صواعق لاول مرة ..

وأتاح له هذا التدبير فكرة عن صاحب البيت ، فقد كان جورج فوركير الى وقت قريب من أعضاء جزب الاحرار ، ولكنه يرشح نفسه الآن على مبادىء الديموقراطيين ، وذلك بعد أن عينوه فى منصب مسجل مكتب الاراضى بمرتب طيب هو ٣٠٠٠ دولار سنويا ، فلا عجب ان استطاع بناء منزل جديد فى أعلاه مانعة صواعق !.

وفى اليوم التالى له بسبرنجفيلد حان دور مرشح نيوسالم لالقاء كلمة، وبعد أن انتهى منها نهض جورج فوركير الديموقراطى وقال وهو يشير لخصمه انه يأسف لان هذا الشاب « يجب أن يوضع فى مكانه الصحيح » .. وبعد أن ألقى خطابا مستفيضا ملأه بعبارات التعالى والترفع بينما وقف مرشح نيوسالم جانبا وهو يصغى بامعان وتأثر متزايد ، وعندما حانت الفرصة للرد ، ارتقى المنصة مرة أخرى .. وشرع يقول :

« لقد بدأ مستر فوركير خطابه باعلان « ان هذا الشاب يجب أن يوضع فى مكانه » وعليكم أيها المواطنون — لا أنا — أن تقولوا ما اذا كان على ان ارتفع أم اهبط .. وقد رأى هذا السيد انه من المناسب أن يشير الى على اننى « شاب » ، متناسيا اننى أكبر فى السن مما أنا فى ألاعيب السياسيين وحيلهم ! » .

« اننى أريد ان أعيش ، وأريد مكانا ومنزلة ، ولكننى أفضل أن أموت الآن على أن أعيش لأرى اليوم الذى اغير فيه سياستى — كما فعل هذا السيد — مقابل منصب يساوى ٣٠٠٠ دولار فى السنة ، ثم أرى نفسى مضطرا لاقامة مانعة للصواعق لحماية ضمير مذنب، من اله متكدر »

وقال أحد الحاضرين : « رائع » ..

وكان تأثير هذا الرد على الحاضرين شيئا لن ينساه ، فقد خلب به لب الجمهور ، وبعد يومين ، أعيد انتخاب الشاب القادم من نيوسالم — وكان فى السابعة والعشرين — بأكبر عدد من الاصوات التى نالها أحد من المرشحين السبعة عشر .. وفى ٥ ديسمبر كان حاضرا عندما اجتمعت الجمعية العامة العاشرة لولاية ايلنوى فى « فانداليا » .

لقد جاء وقد بات هدفه المرتجى أكثر وضوحا فى الافق ، اذ قبل فى نفس اليوم طلبه الذى قدمه منذ أسابيع بممارسة القانون فى كل محاكم الولاية .. وكانت تلك هى الخطوة

الرسمية الثانية فى الطريق الى العمل الذى يريده .. وبقيت خطوة واحدة فقط ولكنه قبل أن يتمكن من اتخاذها لابد له من أن يخدم الجمعية .

وفى فترة نيابته الحالية ، واجه عضو الجمعية مجالا فسيحا من المسائل ، فقد بحث باعتباره عضو لجنة مشكلات الاموال العامة ، وأدلى بأصواته فى مسائل الضرائب والبنوك دون أن يكون فى جيبه مليم واحد ، وساعد فى اصدار قرارات بشأن مقترحات خاصة بالطرق العامة ، ورسوم الكبارى ، والملاحة فى القنوات والانهار ، وكان التعليم من المسائل العامة ، فعمل عضو الجمعية على اقامة مدارس عامة وأخرى لليتامى .

ويقول احد معاصريه : « كان عضو الجمعية فى فترة نيابته الاولى صامتا ، مراقبا دارسا ، أما الآن فقد اصبح أذكى برلمانى ، وأحذق من يتبادل الخدمات مع زملائه ممن يماثلونه سنا ومدة خدمة .. وقد أضفت هذه المهارة حيوية على جهوده التى بذلها لنقل عاصمة الولاية من فانداليا الى سبرنجفيلد ، والحقيقة انه قاد هذه المعركة حتى رأى القانون الذى يؤيده يفوز بموافقة الاغلبية فى ٢٨ فبراير ١٨٣٧ .

وفى أول مارس ، حقق انتصارا آخر عندما أدرج اسمه فى جدول المحامين بمكتب كاتب المحكمة العليا بايلنوى ، كعضو فى نقابة المحامين بالولاية .

وقبل أن تنتهى مدة العضوية ، اشترك مع زميله وابن بلدته دين ستون فى مخالفة قرار وافق عليه النواب بمعارضة الغاء الرق ، وأصدر الزميلان بيانا مشتركا يقول « ان نظام الرق يقوم على الظلم والسياسة الرديئة » ولكنهما أضافا يقولان بأسلوب ذلك العصر : « ان اصدار مبادىء الالغاء قد يزيد مساوئها أكثر مما ينقصها » .. وبهذا العمل الادبى ، استعد عضو الجمعية لتأجيل مجلس النواب ..

وبسترته القصيرة وبنطلونه المرفوع الساقين ، شق عضو الجمعية المحامى طريق العودة الى نيوسالم وقد امتلأ بعزيمة جديدة .

رحلة صوب المستقبل

كانت نيوسالم هى مدرسته وأكاديميته وكليته .. هناك تعلم كيف يستخدم اللغة بطريقة صحيحة وجميلة ، وكيف يتكلم ويناقش الجمهور ، وكيف يدرس ، ويخطط البلدان .. كيف يكتب القوانين



بقراءة القانون ، وكيف يعيش بين الناس ويحترم اهتماماتهم العادية ويغفر اهتماماتهم غير العادية .. هناك ترك الغابة والنهر اللذين علماه الكثير ، وهناك اكتشف العالم ..

لقد عمل فى كل حياته للتغلب على المساوىء ، وفى الوقت الذى كانت تكبر فيه ، كان هو أيضا يكبر فى الروح ، والصبر ، والقوة .. بين جيرانه فى نيوسالم . لقد تسامحوا معه عندماكان يعانى الآلام، وضحكوا معه وهو يمتحن قدرتهم على الضحك، وأتاحوا له آماله ، واعطوه أصواتهم عندما طلبها .. ان نيوسالم قد ساعدته على ان يصنع نفسه ، كما ساعدها هو على صنع نفسها .

وفى ١٢ ابريل نشرت صحيفة سبرنجفيلد اعلانا « بان عضو الجمعية الذى كان نوتيا وكاتب متجر وكابتن مليشنيا ، ووكيل بريد ، ونائب مساح ، وطالب قانون ، وعضو جمعية ، وهو الآن رجل قانون .. سوف يزاول المحاماة مع جون ستيوارت فى محاكم هذه الدائرة القضائية وان مكتبهما فى شارع هوفمان رقم ٤ ـ الدور العلوى »

لقد حان الوقت للانطلاق ..

واستعار من القاضى باولنج جرين مهرا صغيرا ذا سرج بال ، ووضع كتبه وبعض ثيابه الداخلية فى خرجه، وعندما كان يمتطى المهر كانت سيقانه الطويلة تكاد تلمس الارض ، وكانت ثروته عبارة عن سبعة دولارات ، وهكذا كانت مطيته عندما نزك نيوسالم المتدهورة الى سبرنجفيلد .

ووصل المحامى الجديد ومستشار القانون الى سبرنجفيلد فى ١٥ ابريل ١٨٣٧ ، وذهب الى صانع الاثاث الوحيد بالبلدة ليسأل عن سرير صغير لشخص واحد ، وذهب بعد ذلك الى متجر « جوشوا سبيد » فربط مهره ، وخلع سرجه ، ودخل المتجر وهو يسحب خرجه .. وسأل عن حشية وفراش لشخص واحد .

وامسك جوشوا سبيد قلمه ولوحه وكتب بعض الارقام ثم قال ان المجموع ١٧ دولارا ، فقال المحامى : « قد يكون هذا رخيصا ، ولكن رغم رخصه لا أملك نقودا للدفع »

وتبادل الاثنان النظرات لحظة ..

ومضى المحامي يقول : « لو انك أمهلتني حتى عيد الميلاد ، فسوف أدفع لك اذا نجحت تجربتي كمحام ، أما اذا فشلت ، فقد لا أدفع أبداً .. »

ونظر اليه سبيد وقال لنفسه انه لم ير قط مثل هذا الوجه الحزين في حياته .

وقال له : أعتقد انني أستطيع أن أقترح خطة تستطيع بموجبها أن تحقق غرضك دون أن تكون مدينا بشيء .. ان عندي غرفة متسعة جداً ، وسريرا كبيرا مزدوجا ، واني أرحب بأن تشاطرني اياهما اذا شئت ..

فقال المحامي : أين غرفتك ؟

فأشار سبيد الى السلالم المؤدية الى الطابق العلوي ، وألقى خرجه على الارض ، ثم عاد فورا وقد أشرق وجهه بالبهجة والبسمات .. وهتف قائلا :

ـ حسنا يا سبيد . لقد انتقلت الى هنا .

ولكن رضاء الشاب عن بلوغ هذه المرحلة المهمة لا يمكن أن يدوم ، وان كان يكفي مواطن نيوسالم السابق ، في الوقت الذي لايزال تائها فيه في غمرة المستقبل الذي لا يرحم ، حيث الدائرة القضائية ، والكونجرس ، والبيت الابيض ومسرح فورد .. ومكان في قلب العالم .



تظاهر فقط !

قالت الام لصديقتها وهي ترشف قدحا من الشاي :

ـ لقد بلغت ابنتي الآن السادسة عشرة من عمرها ، وأريد أن أتحدث اليها في بعض الامور ، الا انني لا أعرف كيف أبدأ الموضوع

فقالت الصديقة المجربة :

ـ المسألة ليست عسيرة جدا ... يكفي أن تحاولي الظهور بمظهر الواثقة من نفسها ، وتصرفي كأنك تعرفين قدر ما تعرفه هي !.



تعريف !

خطيب الحفل هو الرجل الذي يأكل وجبة لايريدها ، لكي يستطيع ان يقف ويسرد كثيرا من القصص التي لايذكرها ، لاشخاص سمعوها من قبل !

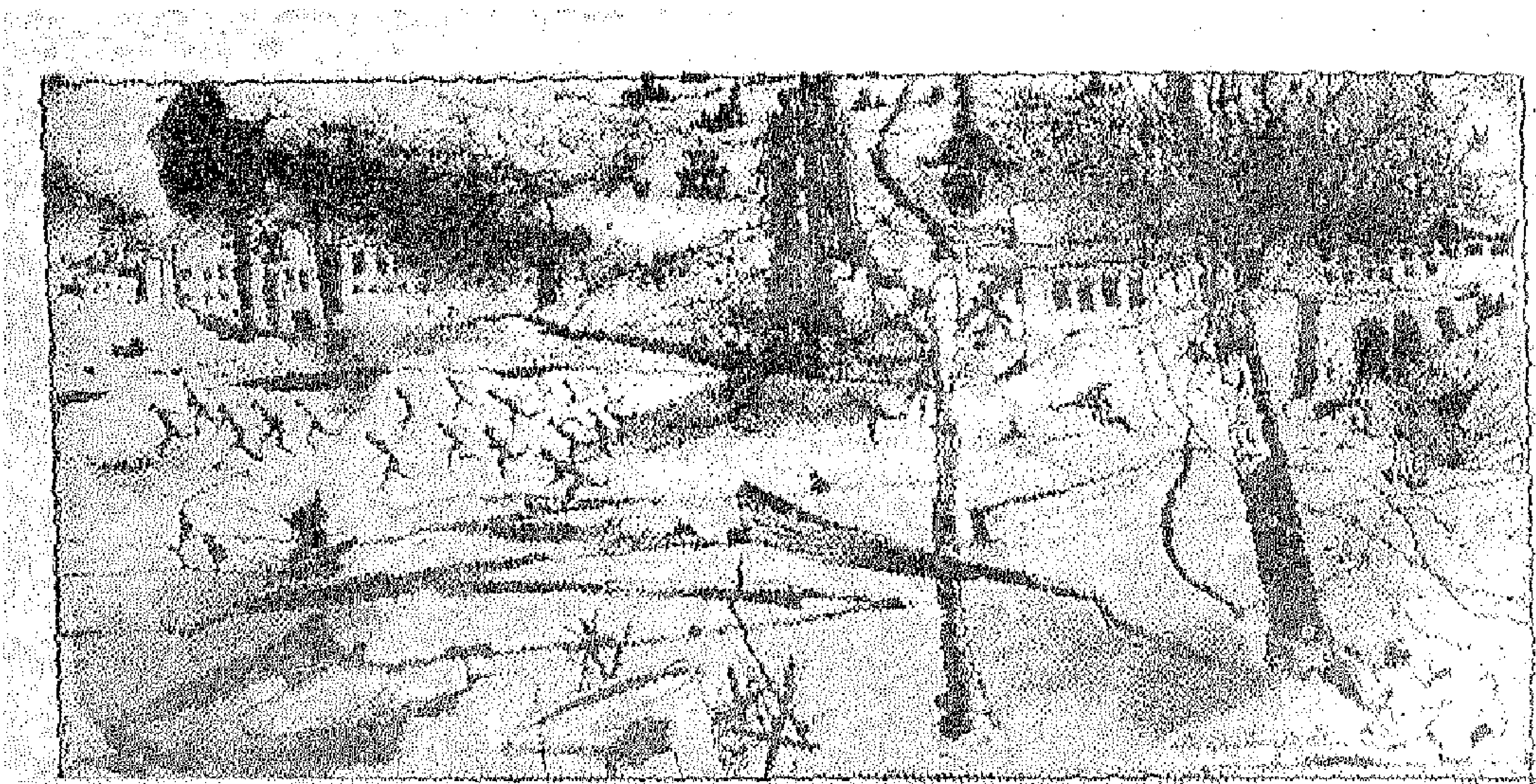
قبل الظهر بدقيقتين

قبل الظهر بدقيقتين

تلخيص كتاب Two Minutes to Noon

بقلم روبرت اوبريان

كان الزلزال الذى أصـــاب اليـابان فى عام ١٩٢٣ اكثر كوارث الطبيعة التى سجلها تاريخ الانسان تدميراً ، فقد حصــدت الانهيارات وموجات المد وأعاصير النـيران المعـربدة التى أثارها من الارواح البشرية اكثر ممــا انزلتــه قنبلة هيروشيما الذرية من الخراب ، وأحرقت من طوكيو أكثر مما أحرقتــه كله القنابل التى القيت فى الحرب العالمية الثـــانية ، وفى كتاب ((قبل الظهر بدقيقتين)) يسرد نويل بوش القصة الرهيبة الـكاملة لهذه الـكارثة الرهيبة ..



قبل الظهر بدقيقتين

استيقظ الاميرال جونوهيو ياماماتو كعادته دائما فى الرابعة والنصف من صباح يوم السبت أول سبتمبر ١٩٢٣ بعد أن واجه يوما مرهقا ، فقد كلفه الامير هيروهيتو الوصى على عرش اليابان بتشكيل حكومة جديدة بعد وفاة رئيس الوزراء وكانت الوزارة قد استقالت وفقا لما يقضى به البروتوكول تاركة البلاد متأرجحة بين حكومتين .

وعلى الرغم من انشغاله بتلك المشكلة ، فان الاميرال النحيل الذى بلغ الحادية والسبعين من عمره لم يتخل عن عاداته الصارمة التى يتبعها منذ كان فى الاكاديمية البحرية ، فبعد أن مارس بعض التمرينات السويدية بنشاط ، أخذ حماما ثم ارتدى ثيابه ، وقام بترتيب غرفته بمنتهى الدقة ، وتناول افطاره فى السادسة تماما ووضع بعد ذلك ثيابه الرسمية فى حقيبه لانه سيحتاج اليها عند مقابلته للامير الوصى .

وعندما أوصله سائقه الى النادى البحرى الذى يقع فى قلب طوكيو ، كان المخبرون الصحفيون فى انتظاره هناك ، فمر أمامهم مسرعا ، وشرع على الفور فى تشكيل حكومته الجديدة .

وظل الاميرال يعمل طوال الصباح فى دأب ، وكان يجلس أمام مائدة مع رئيس المحكمة العليا « كيشيرو هيرانوما » المرشح لدخول الوزارة ، عندما دوى من بعيد صوت هادر ، واهتزت أرض الغرفة وبدأت الثريات تتمايل فى جنون ..

وراح المبنى كله يهتز بعد ذلك ، وتساقط المصيص من السقف والجدران ، وانشقت المدخنة وسقطت على أرض الغرفة فملأتها بقطع الملاط والهباب .. ثم توقفت الصدمة .

كان ياماماتو ، ككل سكان اليابان - التى تسجل حوالى ١٥ الف زلزال مختلفة الشدة سنويا - خبيرا بطرق الزلازل ، فنفض قطع المصيص عن ثيابه ، واتجه نحو حديقة النادى فى هدوء ، وفى أدب رصين قال للصحفيين فى عبارة جادة : حسنا .. سوف يكون لديكم الكثير للكتابة عنه اليوم ..

وحدثت فى تلك اللحظة صدمة اخرى رهيبة زلزلت الارض - كأنما تريد أن تؤكد كلماته - وارتفع رشاش

الماء من بركة الحديقة ، وسمع دوى مروع من مبنى النادى حيث تهشمت المصابيح وقطع الخزف وزجاج النوافذ .

كانت سلامة الامير الوصى هى أهم ما يقلق ياماماتو فقرر أن يطمئن على ذلك فورا .. وسواء اكان هناك زلزال أم لا ، فليس من المتصور أن يظهر أمام هيروهيتو بثياب غير مناسبة ومن ثم فقد عاد الاميرال يشق طريقه مرة أخرى الى المبنى ، وسار وسط البهو الممتلىء بالانقاض ، حتى وجد حقيبته ثم أبدل ثيابه بسرعة ، وخرج مرة اخرى من النادى مرتديا ثوبه الرسمى وتوجه مباشرة الى سيارته التى لم يصبها تلف لحسن الحظ .. وأمر السائق بالانطلاق الى القصر الملكى .

كان هذا أسوأ زلزال يمكن أن تعيه ذاكرة طوكيو ، ولكنه حتى تلك اللحظة لم يكن قد احدث غير القليل من الدمار ولم يسبب غير فقد القليل من الارواح نسبيا ، فقد ظهرت شقوق ضخمة فى كثير من مبانى المدينة ، ولكن لم يدمر أى مبنى مهم غير البرج ذى الاثنى عشر طابقا وهو أطول بناء فى طوكيو ، فقد انشق الى قسمين .. وانهار حوالى ٥٠٠٠ منزل فى بقية انحاء المدينة ، وربما قتل حوالى ألف شخص .

ولكن تلك الخسائر لم تكن لتذكر بين الملايين الثلاثة من أهل طوكيو ، فقد اندفع أغلب الناس الى الشارع فى اللحظة التى بدأت فيها الهزات ، وحدثت أكثر الاصابات والوفيات نتيجة سقوط قطع القرميد من الاسطح المحطمة ، وقد استطاع الحريصون انقاذ انفسهم بحمل مقاعد فوق رؤوسهم لوقايتها ..

وبينما كان الاميرال ياماماتو وسائقه ينطلقان الى القصر بسرعة ، كانت الشوارع لا تزال نافذة ، ففيما عدا الابنية المتشققة والانقاض المتساقطة من الاسطح ، والارصفة المزدحمة ، لم يكن هناك دليل كبير على أن شيئا خطيرا قد حدث فعلا ، ولكن الاميرال وهو ادارى محنك ـ ساوره الشك فى أن تكون أنابيب الغاز والمياه الرئيسية قد تحطمت فى كل انحاء العاصمة الواسعة المكتظة ، وان تكون أسلاك التلغرافات والتليفون والكهرباء قد قطعت ، وقد تبين انه كان مصيبا فى ذلك .

واثناء مرور السيارة خلال حى « جينزا » التجارى ووسط الحوارى الضيقة الملتوية التى تتشعب فى أكثر

انحاء طوكيو ، شاهد ياماماتو ساعة فى نافذة أحد الحوانيت وقد توقفت عقاربها لحظة وقوع الزلزال قبل الثانية عشرة ظهرا بدقيقتين تماما، وهذا يعنى ان النيران كانت مشتعلة ساعتئذ فى ألوف لا تحصى من مواقد الفحم لاعداد طعام الغداء ، وارتعش الاميرال وهو يشاهد ستة أعمدة من الدخان ترتفع فوق أسطح المبانى .

وكانت مخاوفه كلها صادقة ، اذ سرعان ما تحول زلزال « كانتو » الكبير كما أطلق عليه ، الى اسوأ كارثة طبيعية فى تاريخ البشر .

جنون الارض والبحر

لم يكن الزلزال مقصورا على طوكيو فالهزة الجبارة قد هزت سهل كانتو كله — وهو عبارة عن ١٥٠ كيلومترا من اكثر اراضى اليابان اكتظاظا بالسكان — وبينها طوكيو ويوكوهاما، وعشرات من المدن والقرى على طول الساحل الشرقى .

وتجدد مركز الزلزال فيما بعد ، على مسافة ٩٥ كيلو مترا جنوب طوكيو تحت مياه خليج ساجامى .

وبينما كانت موجات الصدمة تصيب الشاطىء ، بدا أن انفجارا قد حدث تحت الاقدام ، وانطلقت ثمار البطاطس من الارض كأنها طلقات المدافع ، وغرق الفلاحون السائرون عبر الحقول حتى ركبهم فى الارض المهتزة ، وبدت المداخن تنبثق من الارض، واصبحت جزيرة جوجا شيما فجأة جزءا من الارض الرئيسية عندما اهتزت ارض البحر التى تفصلها وارتفعت الى أعلى .

وكان أثر الزلزال على مدن المصايف وقرى الصيادين شنيعا ، فقد انهار ٩٠٪ من مبانى قريتى سوجاوشيمو سوجا ، وتحولت نصف مبانى بلدة « أوداوارا » .. وعددها ٥٠٠٠ مبنى الى انقاض ، وفى خلال ساعة كانت بقية المبانى تحترق ، وفى الليل اختفت البلدة كلها .

وفى « نبو كاوا » وقع الزلزال فى الوقت الذى توقف فيه القطار الذى يحمل الذين كانوا يقضون عطلات نهاية الاسبوع فى محطة السكك الحديدية الواقعة على جانب سفح منحدر يرتفع ٤٥ مترا فوق الخليج ، فأحدثت الصدمة انهيارا فى سفح التل الذى يعلو المحطة ، وتساقطت الوف الاطنان من الاتربة والصخور والاشجار فى هدير يصم الآذان ، وقذفت بالقطار والمحطة وكل من فيهما الى البحر !

وكان مصير قرية نيوشكاوا مماثلا ،

فقد اندفعت ملايين من الامتـار من سفح الجبل الذى يقع خلف القرية مسافة ٢٠٠ متر فى الاخدود الضيق لنهر نبوشكاوا فكونت نهرا ضخما من الوحل ، اجتاح أغلب القرية ، والقى به فى الخليج فى طريقـه الى مصب النهر ..



وفى كاماكورا التى يوجد بها تمثال بوذا البرونزى الهائل ، دمرت الهزة وحدها ٨٥٪ من البلدة و ٥٠٠ منزل وقبـل ان يتمكن السكان من امساك انفاسهم ، ظهر خطر جـديد كان اول من رآه « ايان موتسو » الصغير وهو ابن دبلوماسى متقاعد ووزير خارجية سابق لليابان ، وذلك عندما هرع نحو الشاطىء بحثا عن امه ، فقد دهش ايان عندما لاحظ ان مياه الخليج كانت تنحسر بسرعةعظيمة ، وبدتالصخور التى لم تكن منظورة من قبل ، وتذكر ايان فى رعب وقشعريرة موجات المد التى تتبع الزلازل غالبا والتى قـد تصـل سرعتها الى ١٠٠٠ كيلو متر فى الساعة ..

وحدق الفتى أمامـه فى دهشة ، فرأى شيئا كأنه جدار صلب من الماء يقترب بسرعة ، ثم بدأ يعدو متجها أولا نحو أعلى منحدر الشاطىء ، ثم نحو سفح التـل الذى يعلوه ويزداد انحدارا ، وبينما كان يعبر أحد الطرق العامة ، راح يلوح بيده فى جنـون لسائق سـيارة كانت قـد توقفت لسبب ما ..

وواصل ايان عـدوه حتى اصبح فوقخط الشاطىء بخمسةعشرمترا، ثم نظر وراءه . كانت موجة المـد قد بلغت الشاطىء ، وبلغ ارتفاعها ثلاثة أمثال قامة الرجل ، وغمرت الشاطىء بموجة ضخمة اجتاحت المنحـدر الى الطريق فقلبت السيارة الواقفة ، وفى الشوارع الاكثر انخفاضا ، اندفعت المياه بين بيوت كاماكورا حتى قاربت سقوفها مكتسحةالجدران بل والمبانى كلها .. وغرق ٢٠٠ شخص فاجأتهم الموجة فى بيوتهم !.

وجاءت موجات مد أكثر ضخامة راحت تجتاح كل مكان .. ففى « آتامى » قتلت موجة ارتفاعها ١١ مترا حوالى ١٦٠ شخصا وفى «ايتو» حملت الموجة سفن صيد تزن ١٠٠ طن مسافة ٤٠٠ متر داخل الارض ، وابتلع البحر حوالى ٣٠٠ منزل .

لقد خلف الطوفان العنيف فى أعقابه دمارا وموتا رهيبين ، ولكنه فى بعض المناطق أنقذ بعض الارواح باطفائه ألوفا من الحرائق .. ومن المؤلم أن أنواعا أكثر رعبا كانت تجرى فى الشمال حيث لا توجد موجات مد ، وحيث كان الزلزال أقل عنفا .

مصرع يوكوهاما

بعد أن اجتاح الزلزال شاطىء خليج ساجامى بثوان، بلغت الصدمة يوكوهاما ، وهى مدينة يسكنها نصف مليون ، وأهم ميناء بحرى لليابان ، وسرعان ما اجتاحت المدينة كلها ، فسقط كل مبنى مهم فيها تقريبا ، وحدثت انهيارات كالرعد فى الفنادق والبنوك والمسارح والقنصليات .

وكانت هناك سفن كثيرة تقف داخل حاجز المياه فى الميناء الكبير عندما أصابها الزلزال ، وكان بينها سفينة الركاب (فيلوكيتتس) التى شاهد ركابها منظر الكارثة وسجل أحدهم انطباعاته فيما بعد فى صحيفة « كرونيكل » التى تصدر فى بلدة كوبى فقال :

ــ كانت أسطح السفينة تهتز بطريقة منذرة بالخطر حتى خشينا أن تحطم الصدمة ظهرها .. مع أننا كنا على ظهر سفينة حمولتها ١٤ ألف طن ، وفوق الماء الذى يفترض أنه أسلم مكان خلال الزلازل . وبعد حوالى دقيقة من هذه الهزة الطويلة، ارتفعت من الارض سحابة صفراء ، وراحت تكبر ولونها يزداد عمقا ، وانطلقت مسرعة نحو الشمال . ولا شك أن هذه السحابة نتجت عن الغبار المتصاعد من المبانى المنهارة ، وسرعان ما ملأت الجو كله .

وتبع ذلك الدمار الشامل حرائق كان من المستحيل حصرها ، فقد تحطمت كل أنابيب المياه الرئيسية ، وأصبحت كل سيارة اطفاء مدفونة تحت الانقاض فى مبنى المطافىء . ولما كانت المدينة تمتد بامتداد طول الميناء ، فقد وجدت رياح الجنوب طريقا سهلا للوصول الى اللهب ، واشتعلت النيران فى كميات هائلة من الفحم ظلت مشتعلة بعد ذلك

بشهرين ، وانفجرت عشرات من خزانات البترول فغمرت الشوارع والميناء بالزيت الذى اشتعل وجعل يوكوهاما صورة من الجحيم !

ودمرت الحرائق الحى التجارى بالمدينة وارقى أحيائها السكنية حيث كان يسكن عدد كبير من الرعايا الغربيين • فهلك منهم ٢٥٠ شخصا كان بينهم ماكس ديفيد جيرجاسوف القنصل الامريكى الذى وجدت جثته بعد ذلك متفحمة مع زوجته الحامل وطفلتهما فى حديقة مبنى القنصلية

وكانت مس جينى كايبر ناظرة مدرسة فيريس للبنات موجودة بالمدرسة ساعة الزلزال • فانهار المبنى وحشرت الناظرة بين الانقاض •• وبدأ بعض أعضاء هيئة التدريس الذين نجوا يفتشون بين الانقاض لاخراجها • ولكنهم قبل أن يتمكنوا من ذلك اشتعلت النيران فى المبنى كله ، وصاحت فيهم مس كايبر أن يذهبوا فقد اقتربت النيران منهم ، وأيقنت هى من النهاية ، ولكنهم واصلوا محاولاتهم الى أن امسكت النار بثيابهم فاضطروا للتراجع الى حديقة قريبة ، وهناك سمعوها تصيح مودعة اياهم ، ثم بدأت تردد أنشودة دينية •

وكان بعض الاوربيين المقيمين فى فندق « جراند هوتيل » أسعد حظا ، فقد سقط المبنى ولكن الانهيار حدث ببطء مما أتاح للجميع النجاة ، وقد سقط حوض الحمام فى الشارع بالسيدة تشارلز هنرى وهو لا يزال يحوى أغلب مياهه ، فقد كانت تستحم لحظة الزلزال !

وحاول الذين بقوا أحياء بعد الزلزال الفرار من النار باحدى طرق ثلاث : فقد هرع كثيرون الى شبكة قنوات يوكوهاما ، غير مدركين أن الزلزال أدى الى انخفاض مستوى خليج طوكيو وسحب الماء من القنوات غير تارك فيها أكثر من نصف عمقها العادى وهو ١٢٠ سم ، وهكذا سقط الالوف فى الشرك ووقفوا ينتظرون فى هلع ، وهم فى هذا الوضع المكشوف ، تحف بهم ألسنة اللهب على طول القنوات وتحاصرهم القوارب المشتعلة المنجرفة مع التيار •

وكان الملاذ الثانى هو حديقة يوكوهاما العامة التى تبلغ مساحتها ٢٠ فدانا وتبعد ميلا عن الشاطىء ، فقد تدفقت الجماهير نحوها ، وأحسست بارتياح عندما وجدت أن أنابيب المياه المحطمة قد أحالت

الحديقة الى مستنقع ، فألقوا بأنفسهم فى الوحل • وقد عاش الذين كانوا فى الوسط • أما الالوف الذين كانوا على الجوانب فقد شويت أجسادهم ببطء بوساطة الحرارة الشديدة التى كانت تضغط عليهم من كل ناحية •

وكفلت أرصفة الميناء أفضل فرصة للامان ، وهرب عشرات الالوف الى هناك ، ووقفوا حتى الاعناق فى الماء وهم يحاولون تفادى قطع الزيت المحترق التى تتساقط عليهم ، فى انتظار النجدة ، وكان بينهم جيرو موريوكا رئيس بوليس يوكوهاما الذى قضى ثلاث ساعات قلقة فى الماء قبل أن تلتقطه احدى السفن • وبعد أن تناول قدحا من الحساء وطبقا من الارز طلب السماح له بارسال نداء استغاثة ، ولم يكن أحد ممن على ظهر السفن قد فكر - وسط الذعر والارتباك - فى القيام بهذا العمل • وكتب موريوكا :

« اليوم ظهرا حدث زلزال كبير ، تبعته على الفور حرائق أحالت المدينة كلها الى بحر من النار • كل مرافق النقل دمرت ، وقطعت المواصلات • ليس لدينا طعام ولا ماء • ارسلوا النجدة فورا بحق السماء » •

وبعث الرسالة الى طوكيو • وكان الرد الوحيد .. هو السكوت !

طوكيو : بداية الفوضى

وصل الاميرال ياماماتو الى القصر بعد أن شق طريقه خلال الشوارع المزدحمة ، وأحس بارتياح عندما وجد أن الامير هيروهيتو ما زال



حيا لم يصبه شيء .. ثم قال انه غير قادر على تشكيل الحكومة الجديدة وكان هيروهيتو مستعدا لهذا الاحتمال ، فأبلغ ياماماتو أن الفيكونت كوزاى يوشيدا - من كبار أعضاء الحكومة السابقة - سيتولى مهام رئيس الوزارة بالنيابة الى أن يتمكن ياماماتو من تولى المنصب •

وغادر ياماماتو القصر عاقدا العزم على اختيار أعضاء الوزارة بأسرع ما يمكن ، ولكن كل أنواع المواصلات كانت قد قطعت ، وبدأت شائعات كئيبة تجتاح المدينة . وفى طريق العودة الى النادى ، ذهل ياماماتو عندما شاهد فى تقاطع بعض الطرق جماعات من الرجال يمسكون السيوف والعصى ورماحا من الخيزران وهم يفحصون أوراق المارة والسيارات ، وبدا انهم من فرق « اليقظة » التى تكونت لمنع السلب والشغب ، وقد أوقفت سيارته عند احدى النقط بفظاظة ، ودفع رجل عصا من الخيزران خلال النافذة فأصاب عين السائق ، وطلب معرفة شخصية الراكب وعندما سمع اسم الاميرال ياماماتو تراجع للوراء معتذراً .

ولم يرتح ياماماتو للطريقة العدوانية التى يتبعها أولئك الذين نصبوا من انفسهم حراسا للسلام ، ولكن لم يكن فى استطاعته أن يفعل شيئا عندئذ ، وكذلك حال يوشيدا وغيره من أعضاء الحكومة السابقة الذين استدعوا على عجل ..

وفى خلال الساعات التالية المليئة بالفوضى حاولوا معالجة الحالة الطارئة التى تزداد سوءا ، فاستولوا على مواد الطعام وأقاموا مكتبا للتوزيع ، ولكن الموقف سرعان ما أفلت زمامه من أيديهم ، والسبب الاساسى لذلك هو اتساع الحرائق والنيران .

زهور ادو الملتهبة

كانت الحرائق الكبرى جزءا من تاريخ طوكيو ، ففى عهد الاقطاع عندما كانت المدينة تعرف باسم (ادو) كان المثل الشائع يقول ان الحياة لا تتم الا اذا شملت ثلاثة حرائق ضخمة . وكان اليابانى يشير الى الحرائق فى كبرياء مريرة وروح لا تقهر باسم « زهور ادو » .

وسرعان ما أصبحت أعمدة الدخان الستة التى رآها ياماماتو عشرات ، وفى نهاية الساعة الاولى أبلغ مراقبو ادارة الاطفاء – الذين يرقبون النار من البرج المركزى – أن هناك ١٣٤ حريقا مشتعلا ، ولما كانت التليفونات قد أضحت لا فائدة منها ، فقد بعث مدير فرق الاطفاء بعض العدائين الى رؤساء الفرق المحلية فى ٣٠ محطة يأمرهم بالتصرف وفقا لما يقدرونه .

ولكن لم يكن هناك شىء كثير يستطيعون عمله ، فقد قضت الانابيب المحطمة على ضغط الماء ، وكانت أكثر الازقة الملتوية – التى امتلأت بالانقاض والجماهير المذعورة – أضيق

من ان تسمح بمرور سيارات الاطفاء .

وراحت الحرائق تنتشر دون هوادة ، ولم يبذل أكثر الناس أى جهد لاخماد الرماد المشتعل فى مواقدهم التى انقلبت بل تركوها مستعرة اعتقادا منهم بأن بيوتهم سوف تحترق على أية حال بالنار التى تنتشر بسرعة ، وانهم سوف يعودون لبنائها — وهو احساس يعبر عنه مثل يابانى يقول : « اسقط سبع مرات وانهض ثمانيا » .

ومع مرور ساعات بعد الظهيرة ، اندمج كثير من الحرائق فى حريقين رئيسيين على جانبى نهر «سوميدا» الذى يسرى وسط طوكيو ويشق المدينة الى نصفين . وفى منتصف الخامسة بعد الظهر كان الموقف قد أفلت زمامه ، وبدأت جموع كثيفة من الناس المذعورين تهرع نحو النهر من الجانبين ، وأغلبهم يدفع أمامه عربات كدس فوقها حاجاته القابلة للالتهاب .

وعندما بلغت الجموع الجسور الرئيسية الخمسة التى تعبر نهر سوميدا رأوا الحرائق على الضفتين المتقابلتين ، فأدركوا انه لا داعى للاستمرار ، ولكن وقت العودة كان قد فات، ومن ثم فقد ظلوا يتدافعون نحو وسط الجسور ، وانضم اليهم الوف بعد الوف بينما كانت النار تطبق عليهم ، وفى باكورة المساء بلغ الضغط من الشدة حدا اضطر كثيرين من القادمين الاول الى القفز فى النهر أو انهم دفعوا على الرغم منهم الى الماء ، فغرق الذين لا يعرفون السباحة ، واحترقت أجسام السابحين الذين وصلوا الى ضفة النهر بسبب الحرارة التى بلغت حدا لا يمكن تصوره ..

أما الذين بقوا على الجسور فلم يكن أمامهم مثل هذا الخيار ، اذ احترقوا حتى الموت بالشرارات والقطع الملتهبة التى كانت تنهال عليهم وتشعل حاجاتهم .

وفى الصباح التالى كانت أربعة جسور من الخمسة قد أصبحت أنقاضا متفحمة تكدست فوقها الجثث ، ونجا الجسر الخامس بفضل جندى شجاع لم يسمح لاحد بادخال حاجاته اليه ، فأنقذ أرواح حوالى ١٢ الف شخص .

وكان الاندفاع نحو الجسور واحدة فقط من عمليات هجرة جماعية كثيرة فى طوكيو ، ففى كثير من الاماكن اصطدمت سيول متضاربة من الهاربين ببعضها البعض فسدت الشوارع وتكدست فيها حركة المرور ، وراح

رجال البوليس والاطفاء يوجهون الجماهير نحو المناطق المكشوفة التى تبدو آمنة ولاسيماغرب نهر سوميدا حيث حديقة « أونيدو » التى تحوى حديقة حيوان طوكيو،والميدان الكبير أمام القصر الامبراطورى .

وعلى الجانب الشرقى المزدحم من النهر ، لم يكن هناك غير ملاذ واحد، هو « مستودع ملابس الجيش » وكان الجيش قد تخلى أخيرا عنه وهدم مبانيه تاركا قطعة أرض مكشوفة تبلغ حوالى ١٥ فدانا فى مواجهة النهر ، فاحتشد الناس هناك بعشرات الالوف .

واستمرت الحرائق تتضخم رغم بطولة رجال الاطفاء الذين شقوا ثغرات بين الحرائق فأنقذوا بعض المناطق المعزولة .. وكان الحريق يمثل مشهدا رهيبا ، ولكنه ذو جمال لا ينكر بالنسبة لمئات ممن كانوا يرقبونه من مناطق بعيدة مرتفعة .

كان بحر النيران الفسيح الضارى يغطى فى ذروته حوالى ٦٠٠٠ فدان، ترتفع منها السنة اللهب الى عنان السماء حتى بلغ بعضها ٩٠ مترا ، بينما تنطلق قطع كبيرة من مواد محترقة الى أعلى حتى تصل مسافة ٨ كيلو مترات وقد أحدث هذا تفاعلات جوية كانت لها آثار كارثة .

ففى الوقت الذى كانت الحرارة الشديدة تلتقى فيه بالهواء المرتفع الاكثر برودة ، تكونت سحب بيضاء هائلة فوق المدينة فى تباين حى مع الدخان الاسود ... وكانت الجموع المتزايدة فى الحدائق والاماكن الفضاء المكشوفة كمستودع ملابس الجيش، تأمل أن تكون هذه السحب بشيرا بسقوط المطر ، ولكن السحب لم تكن تحوى أى ماء ، بل كانت تحوى فى داخلها عربدة رهيبة ، جعلت حريق طوكيو يصل الى ذروة أروع مما يصدقه العقل .

التنين الملتوى .. من الجحيم

فى بداية المساء كان هناك معسكر فسيح يضم ٤٠ ألف لاجىء ملأوا أرض مستودع ملابس الجيش المكشوفة ، وقد جلب كثيرون كل ما استطاعوا حمله من أثاث وأشياء ثمينة فوق الدراجات وعربات الريكشا بينما جاء آخرون يجرون عربات كدسوا فوقها الحشيات والملابس والاوانى بل وأقفاص الطيور، وكانت أغلب النساء والاطفال الكبار يحملون الاطفال الصغار على ظهورهم، وجاء عشرات من المرضى من المستشفيات القريبة محمولين على

محفات أو بمساعدة الممرضات .

لم يكن هنـــاك ذعر أو هلع بين الجموع ، وعلى الرغم من استمرار الهزات الارضية التى بلغعددها ٢٣٧ بعد الظهر والليل ، و٩٢ فى اليوم التـالى ، فان الجميع كانوا يعرفون أن تلك مجرد صدمات تالية ليست فى خطورة الهزة الاولى .. ووجـد الناس فى هدوء أماكن مناسبة لاقامة الخيام واستعدوا لقضـاء الليل فى العراء،وبينما كانوا يفتحون صناديقهم أو يفرشون حصائرهم ووسائدهم ، أخذ الغرباء يتبـادلون الاحاديث عن تجاربهم مع الزلازل .

كان الجو السائد هنا يشبه كثيرا الجو الذى يسود حدائق ياسودا الكبيرة القريبة من مخازن الجيش ، فقـد فتحت أسرة ياســودا الثرية التى تسيطر على مجموعة من أكبر شركات اليابان أراضيها لعدد من اللاجئين ، وكان بينهم الدكتور ايكيشى ايكجوشى وزوجته وأطفاله الثلاثة . وبعـــد الرابعة بقليل أخرجت مسز ايكجوشى لاطفالهـــا بعض الارز الذى أعدته بسرعة قبل رحيلهم .. وعندما أشار بعض اللاجئين الآخرين الى انهم جوعى أيضا ، دعاهم الطبيب الطيب القلب لمشاطرتهم هذه الوجبة السريعة .

وفجأة سمعوا صوتا هادرا غـير عادى ، وازداد الهواء سوادا ، وكان طفل الدكتور ايكجوشى الـذى يبلغ الخامسة على وشك أن يضع بعض الارز فى فمه عنـدما توقف فجأة ، ووقف يحدق فى السماء بدهشـــة وقد فغر فمه .

لقد شاهد الطفل الصـغير تنينا هائل الحجم يتلوى ، وبعد الظهر كان هناك حوالى ٥٠ من أمثال هـــذا التنين المتلوى فى طوكيو بعضـــها دوامات هوائية تولدت على الارض، والبعض الآخر أعاصـير تولدت فى السماء واندفعت الى أسـفل ، ولم تترك أكثر هـــذه الوحوش الملتوية أحيـاء يصـفونها ، ولـكن الدكتور ايكجوشى ظل يذكر تماما صورة هذا التنين الملتوى .

- لقد بدا الاعصار أولا كعمود ضخم اسود من الدخـان يرتفع كناطحـة سحاب ويبدو فى أتساع ملعب للكرة، وكان يدور فى اتجاه عكسى لعقارب الساعة بسرعة ٢٤٠ كم فى الساعة، ويتحرك الى أسفل ببطء متجها نحو الجـانب الغربى لنهو ســـوميدا ، وأحدث امتصاصا رفع عددا كبيرا من قوارب النهر وصناديله حـوالى ثلاثة أمتار فوق الماء .

وفى منتصف الطريق ، اجتاح الاعصار كلية الفنون الجميلة بطوكيو التى كانت تحترق ، فامتصت الرياح ألسنة اللهب الى أعلى ثم انحرفت فجأة وقفزت عبر النهر وأحاطت بحدائق ياسودا .

وحاول الدكتور ايكجوشى أن يصيح مناديا زوجته ، ولكن صوته ضاع وسط الهدير الذى يصم الآذان، وعندما راحت السنة اللهب الشديدة تصيب الاشجار ، رفع طفله الاكبر على ظهره ، وحمل ابنته على ذراعه بينما لحقت به زوجته وهى تربط طفلها الصغير على ظهرها ، وشرعوا فى البحث عن مكان آمن وهم يصارعون الرياح ..

كان فى مواجهة بيت آل ياسودا طريق للسيارات يمتد تحت بوابة مسقوفة من الطراز العتيق ، وتزاحم آل ايكجوشى وبعض اللاجئين الآخرين داخلها بعد أن دفعتهم الرياح اليها، وقد أسفرت هذه الحركة عن كارثة، ففى اللحظة التى اخذت فيها ألسنة اللهيب الكبرى تنطلق بسرعة عبر النهر متجهة نحو الحدائق مباشرة، أصبحت البوابة المسقوفة أشبه بنفق للرياح تنطلق خلاله اللهب ورشاش الماء الذى يغلى من النهر . وفى اللحظات الرهيبة التى تلت ذلك، راح البعض يصلى ، بينما صرخ آخرون وارتفعت أناتهم ، ثم ساد السكون التام وهدأت الريح قليلا .. وتلفت الدكتور ايكجوشى نحو أسرته والآخرين .. فاذا بهم جميعا صرعى!

وعندما بدأت الرياح تتحرك ثانية الى أعلى ، قام الطبيب بترتيب وضع زوجته وأطفاله على الارض وقد عقد العزم على ان يبقى حيا أطول وقت ممكن ليكفل لاسرته دفنا لائقا، ووجد انه أسهل عليه أن يتنفس ورأسه قريب الى الارض ، فبدأ يزحف للخروج من النفق ، ولكن الرياح كانت تدفعه الى الوراء ، وظل يكافح بكل ما بقى فيه من قوة وهو يتقدم ببطء شديد ، وأخيرا بلغ احدى الاشجار فى حالة ارهاق شديد ، فدفن وجهه فى الارض ، وأخذت الرياح الثائرة تدور فوقه وهو راقد هناك وقد احترق ظهر يديه حتى العظام كما أحرقت النار شعر رأسه كله من قمة رأسه وأذنيه ، ولكن لسبب ما لم يحترق المعطف الذى كان يرتديه ، فكفل الحماية لجسمه .. وبعد لحظات فقد الوعى تماما .

ومن حدائق ياسودا انتقل الاعصار الى مستودع ملابس الجيش ، وهناك

عربد بصورة رهيبة ، فاجتاح وكنا كانت الحكومة قد اختزنت فيه بعض المواد لاحدى المدارس الاعدادية ، وأخــذت قطع الزنك والسـقالات والابواب والاسطح وعربات اليد تطير فى الهواء ، وقد حطم أحد أعمــدة التليفون المتطايرة ساقى احد الرجال، وكانت الدراجـات تطير فى الهـواء وتصطدم بالاشجار ، وشاهد أحـد جنود البوليس فتاة تمر أمامه وهى تتدحرج كالكرة ، بينما شاهد رجل آخر مئات من الناس وهم يطيرون فى الهواء كحبات الفول !.

وبالاضـافة الى النيران والرياح الثائرة ، كان الاعصار يثير رعبا خفيا فحيثما مر كانت نيرانه تستهلك كل ما فى الهواء من أوكسجين فى جرعة واحدة كبيرة ، وهكذا هرب عـــدد لا يحصى من النـيران لكى يختنقوا ويتسـاقطوا فى أكـداس وكأنهم يستغرقون فى نوم عميق .

وأخــيرا تلاشى التنين الملتوى ، وعندما وصلت فرق الانقاذ الى مسرح المأساة ، اذهلهم المشهد المرعب حيث كانت الارض مغطاة بالجثث طبقات بعضها فوق بعض فدانا بعـد آخر ولم يبق فى المنطقة كلها غير بضـع مئات من الاحياء وبينهم الدكتـور ايكجوشى . أما بقية اللاجئين وعددهم ٤٠ ألفا ، فقد هلكوا ! .

مذبحة الابرياء

سمع الاميرال ياماماتو أنباء كارثة مستودع ملابس الجيش فى الساعات الاولى من صباح ٢ سبتمبر ، وكان النبأ الرهيب هو ذروة ليلة مرهقـة لم يغمض له جفن خلالها ، وادت الى اتخاذه قرارا حاسما .

كان الاميرال عندما عاد الى بيته ـ الذى لم يصب بتلف ـ فى الامسـية السابقة قد علم ان زوجتـه ذهبت لزيارة الاميرال تاكارابى زوج ابنتها الذى يقطن على مقربة منهم ، وبعد ان لحق بها ياماماتو ، امضى الليلة فى بيت (تاكارابى) محـاولا أن يتم تشكيل وزارته ويظل على اتصال بالاحداث عن طريق رسـل ينقلونها اليه وفى الصباح لم تبق غير مناصب وزارية قليلة شاغرة ..

وكان لابـد ان يتم تكوين الوزارة فقرر اعتبار المناصب الشاغرة وزارات اضافية يتولاها بعض الوزراء الاخرين وبعد ان أوفـد الرسل لابلاغ قراره الى زمـلائه ، قام الامـيرال بزيارة سريعة لقصر اكازاكا حيث ترك قائمة بأسماء وزارته ، فأقرها هيروهيتو بسرعة ..

واقيم حفل تولى الوزارة فى السابعة والنصف مساء ، ولما كان القصر نفسه غير مأمون ، فقد أقيم الحفل فى مشرب للشاى بركن فى حديقة القصر على ضوء الشموع حيث أقسم الوزراء اليمين بين يدى هيروهيتو واحدا بعد الآخر ، بينما كان الافق يتوهج بالنار من جهة الشرق ، منعكسا من المدينة التى لاتزال تحترق .

وقال ياماماتو فيما بعد : « كان مشهدا لا ينسى ، فقد كانت السماء تلتهب بلون احمر بينما ينعكس ظل الحدائق المتراقصة على الستائر الذهبية . كان مشهدا جميلا ورهيبا معا » .

وبعد حلف اليمين ، تبرع الامير الوصى على العرش بخمسة ملايين دولار من أمواله الخاصة تضاف الى أموال التعمير التى اعتمدتها وزارة يوشيدا .. ثم دعا ياماماتو وزراءه الى الاجتماع الذى دام حتى ساعة متأخرة من الليل .

كانت المشكلة الاولى التى تواجه الحكومة الجديدة هى اقرار النظام . وكانت طوكيو والمناطق الاخرى منذ الامسية الاولى للزلزال تحت اشراف فرق المراقبة المدنية ، وقد زادت هذه الفرق التى تضم الشباب المتحمس من مأساة الكارثة ، ولا سيما بسبب معاملتها للرعايا الكوريين .

كان اليابانيون قد ضموا قبل ذلك بثلاثة عشر عاما — فى سنة ١٩١٠ — ١٧ مليونا من شعب كوريا الى بلادهم بالقوة ، ولكن أبناء كوريا لم يتقبلوا قط ضياع استقلالهم ، وكانت العلاقات بين الشعبين يسودها القلق وانعدام الثقة ، ومع أن الكوريين كانوا يعيشون فى أفقر أحياء المدن اليابانية ، فان اليابانيين كانوا ينظرون الى تلك الجاليات بشك كبير ..

وبعد الزلزال بقليل ، سرت شائعات مسمومة على نطاق واسع فى طوكيو ، تردد فى كل مكان قصصا عن رعايا كوريا الذين يسرقون وينهبون ويقتلون ، بل ان احدى الشائعات ذكرت انهم كانوا يحشدون جيشا للزحف به على طوكيو ! ورغم سخافة الاتهام الاخير فقد صدقه الكثيرون ، واخذت فرق المراقبة المدنية تسلح نفسها بسيوف الساموراى القديمة والهراوات والسكاكين ورماح الخيزران ، وأقاموا متاريس فى تقاطع الطرق الاستراتيجية للبحث عن الرعايا الكوريين .

ولم يكن هنـــاك فرق كبـــير من الناحية الجسمانية بين مظهر اليابانيين والكوريين ، ومن ثم فان فرق المراقبة عمـــدت فى محاولتهـا للكشف عن الكوريين وسـط الالوف الهائمين فى الطرقات الى سؤال من يرتابون فى أمره الى أن ينطق أحدى العبارات باليابانية التى تختلف بعض حروفها عن الكورية فاذا اكتشفوا حقيقة الشخص طعنوه بوحشـــــية أو ظلوا يضربونه حتى الموت ! ..

ولا يعرف أحد حتى الان عـــدد الكوريين الذين قتلوا فى المذبحة التى استمرت خلال اليومين الاولين بعـد الزلزال ، ويقول الكوريون ان عددهم بلغ ٦٠٠٠ بينما تقـــول الحـــكومة اليابانية انهم لا يتجاوزون الخمسمائة وانهم لم يكونوا جميعا من الكوريين ، ولكن الرقم الحقيقى قـد يكون أقل أهمية من الاثر الاخير للمذبحة ، فقد ساد الاعتقاد بين الكوريين بان الحكومة اليابانيـة كانت تتستر على هـذه الجرائم وذلك رغم ما بذله ياماماتو للسيطرة فورا على الموقف .. وقد ظل هـــذا الشعور يسمم علاقات الدولتين منذ ذلك الحين .

العودة الى الحياة

ان الذين اقترفوا تلك المذبحـــة الشائنة هم عـدد قليـل نسبيا من اليابانيين ، فقد استجاب الجزء الاكبر من الشعب لنداء الحكومة فى هـدوء وعطف ، وكان الذعر نادرا واعمال النهب فى أضيق الحدود ، كمـا كانت الجماهير التى نجت من الحرائق منظمة جيدا بصفة عامة ..

وأصدرت وزارة ياماماتو سيلا من الاوامر بمنح مساعدات مالية تتضمن تخفيضا فى الضرائب ، ووقفا لسداد بعض الديون ، ومع ذلك فان كثيرا من محاولات الحكومة الاولى لتقـديم المساعدة كانت تعرقلهـــا قلة المؤن والمواصلات ، وقد قام بأعمال الاغاثة الاولى افراد من ذوى الشجاعة .

كان الاطباء والممرضـــات يعملون ليلا ونهارا فى انحـــاء المدينة وسط ظروف مستحيلة ، فأنقذوا آلافا من اللاجئين المصابين .. وقدم اصحاب الحوانيت اليهم كعكا وشايا بلا مقابل بينما حـــول صاحب مصنع لحساء فول الصويا قرب طوكيو مصنعه الى مطبخ اغاثة ، وارســل أرزا واطعمة ومياها للشرب الى العاصمة فى لنش بخارى .

وفى محطة طوكيو المركزية استطاع مدير مخازن قطارات السكك الحديدية انقاذ اكثر من الف قطار من الحريق

لاستخدامها فى اجلاء الجرحى . وفى كثير من الحالات اضطر المهندسون الى قيادة القاطرات وسط مناطق ملتهبة ، بينما واجه رجال ساحة السكك الحديدية النيران بشجاعة خارقة ..

ولقد بدأت عملية البحث عن الاحياء بينما كانت النيران لا تزال مشتعلة فى الشمال ، وقبل ان يبرد قلب المدينة الذى أصابه الدمار ، وراح افراد فرق البحث يتجولون بين الانقاض عدة اسابيع ، وكانوا يستدعون الاصدقاء والاقارب ، أو يحملون لافتات بها أسماء المفقودين .

وكان اكثر الضحايا بؤسا هم الاطفال التائهين وقد بلغ عددهم بضعة ألوف .. الذين جمعتهم السلطات وقد عاد كثيرون منهم الى آبائهم ولكن المئات الذين لم يظهر آباؤهم قط ، وضعوا فى بيوت خاصة .

وكانت مشكلة التخلص من الموتى هى أكثر المشكلات أثارة للجزع ، وكانت عنابر المشرحات تحوى الجثث التى لم يمكن التعرف عليها حيث تبقى يومين ثم ترسل للحرق بالجملة ، وتطلب الامر احضار اطنان كثيرة من احطاب الصنوبر لتكون طعاما للنيران .. واقيمت محرقة فوق أرض مستودع ملابس الجيش ثم نشر البنزين فوق فدادين من الجثث وظلت النار مشتعلة خمسة أيام وليال قبل أن يتم العمل الرهيب .

أنقذوا اليابان

ما كادت انباء الزلازل تصل الى انحاء العالم حتى بدأ رد الفعل فى عطف شامل سريع ، بل لقد كانت المساعدات فى الطريق منذ الليلة الاولى للكارثة .

ففى يوم وقوع الزلزال كان اسطول آسيا الامريكى موجودا فى (ديرن) المستأجرة من الكوانتونج فى منشوريا .. وعلم الاميرال اندرسون قائد الاسطول بالكارثة عندما التقط رسالة من يوكوهاما باللاسلكى ، فانطلق اليها بأسطوله على الفور بعد أن حمل كل ما استطاع الحصول عليه من مؤن ، واستدعى سفنا امريكية اخرى من موان بعيدة حتى مانيلا ، وعندما وصل بعد أقل من يومين كان الدخان لا يزال يتصاعد من الانقاض ، والزيت لا يزال يحترق فى الميناء

وقد وجدت القوات الامريكية سفينة شحن فى الميناء تنقل حمولة من سيارات نقل من طراز فورد فأستولت عليها فورا وارسلتها الى

البلدة محملة بأطنان من المؤن والادوية وظلت هذه السيارات عدة اسابيع بعد ذلك الوسيلة الاساسية للنقل فى المنطقة المنكوبة ، كما أرسل مشاة الاسطول الامريكى الى الشاطىء لازالة الانقاض وبناء جسور من القوارب ، واقامة مدينة خيام على طول ميناء يوكوهاما لاقامة اللاجئين .

وقبل انقضاء ٢٤ ساعة على الزلزال طلب الرئيس كالفين كوليدج اعداد برنامج للاغاثة يتكلف خمسة ملايين دولار تجمع من تبرعات الافراد وفى خلال ايام بلغت التبرعات عشرة ملايين ، تحولت الى أخشاب وطعام وخيام وبطاطين وأدوية ، وبدأت المساعدات تصل الى اليابان خلال أسبوعين .

واستجابت دول أخرى بشىء مماثل .. ففى ١٠ سبتمبر وصل أسطول بريطانيا الاسيوى الى يوكوهاما يحمل المؤن ، وسرعان ما لحقت به السفن الايطالية والفرنسية كما جاءت تبرعات من بريطانيا والصين وهولندا وعدد آخر من الدول بينها فرنسا وايطاليا وبلجيكا والسويد والمكسيك وروسيا وتايلاند .

دقيقتان خالدتان

بدت كل الزلازل الاخرى ضئيلة الى جانب زلزال (كانتو) الكبير .. ففى طوكيو بلغ عدد الضحايا ١٠٧٥١٩ قتيلا ومفقودا و٤٢١٣٥ جريحا وذلك وفقا للبروفسور آكتيسون ايماموزا بمعهد تسجيل الزلازل بعد شهور قضاها فى جمع هذه الارقام واذا اضيفت الارقام الاجمالية من يوكوهاما والبلدان الصغرى ، وصل عدد القتلى والمفقودين الى ١٤٢٨٠٧ والجرحى ١٠٣٧٣٣ .

وفى طوكيو وحدها شملت الحرائق حوالى ضعف المساحة التى احترقت فى حرائق لندن وشيكاغو وسان فرنسيسكو الكبرى ، بل ان القنابل الذرية أو الغارات الحارقة الكبرى فى الحرب العالمية الثانية لم تحدث مثل هذه الحرائق . فقد دمر أكثر من ٣٧٥ ألف مبنى من النصف المليون التى تضمها المدينة ، واصبحت يوكوهاما التى عانت ٨٠٪ من الدمار الشامل عبارة عن كتلة سوداء من الاطلال يتصاعد منها الدخان !

وللقضاء على الشائعات التى قالت بوجوب اخلاء المدن المتهدمة ، طلب ياماماتو رئيس الوزراء الى المجلس المخصوص اصدار مرسوم امبراطورى باعادة بناء طوكيو ويوكوهاما فى أماكنهما الحالية ، وقد استقبل المرسوم

باستحسان وبدأت مشروعات التعمير فورا ..

ودعا ياماماتو وزير داخليته الكونت شيجي جوتو المؤرخ الامريكي الشهير تشارل بيرد للاشتراك في عملية اعادة بناء طوكيو ، وكان بيرد قد قضى ستة شهور في اليابان في العام الاسبق كرئيس لمعهد طوكيو للابحاث البلدية ، وقد عاد الان وقد امتلأ بمقترحات خيالية لانشاء مدينة جديدة ذات بهاء لا مثيل لها .

كان المشروع الذي أعده البروفسور بيرد وياماماتو يدعو الى اقامة عاصمة حديثة جميلة ذات شوارع فسيحة وحدائق حديثة ومتنزهات ومبان للمساكن والمكاتب تتجمع في احياء مهنية منفصلة ؛ ولكن هذا التصميم قدر له ان يبقى حلما ، فقد ثبت ان توطين الناس في احياء مخصصة للحرف أمر غير مقبول ، فان الناس يريدون أن يبقوا حيث كانوا دائما ، فضلا عن ان خروج حوالي مليون شخص من طوكيو الى الريف بعد الزلزال .. وهي خطوة شجعتها الحكومة .. أثار نقصا شديدا في الايدي العاملة جعل التعمير المنظم شبه مستحيل .

وبينما كانت مشروعات بيرد تزداد كل يوم عظمة وخيالا ، واللجان تتكاثر بدأ الناس يعيدون بناء المدينة بجهودهم الخاصة ، وبأسلوب اكثر ارتجالا من قبل ، ورفعت الانقاض والرماد ببطء وعادت الحواري الضيقة المعهودة للظهور تتلوى خلال متاهات من الاكواخ المصنوعة من اخشاب الصنوبر وسقوف من الصفيح ..

ومع ذلك فقد قامت الحكومة بجهود للتعمير ، واحدثت تحسينات كبرى ، كانشاء مبان بلدية جميلة وشوارع حديثة متسعة ، ولعل اروع نجاح حققته هو انشاء عدد كبير من الحدائق الجديدة الزاخرة بألوف من اشجار الصفصاف الباكي والكرز ومن أجمل هذه الحدائق (بستان سونيدا) الذي أصبح متنزها فسيحا على ضفاف نهر سوميدا قرب مستودع ملابس الجيش القديم .

وقد احتلت المشروعات التجارية اليوم اغلب أرض المستودع نفسه ، ولكن في عام ١٩٢٣ ـ بعد الزلزال بأيام قليلة ـ خصص ركن منها لاقامة نصب تذكاري لضحايا الحريق الكبير ، وعلى مقربة من مدخل الحديقة التي يرتع فيها الاطفال اليوم ، يوجد متحف صغير يحوي بعض تذكارات الكارثة : كلو حديدي يلتف حول

جذع شجرة من حدائق ياسودا ، ودراجة محطمة وجدت على قمة شجرة ، ورسوم بيانية تبين تقدم الحريق ساعة بساعة .. وعلى طول الجدران معرض للرسومات التى رسمها يتامى الزلزال فى فصل الرسم بالمدرسة التى انشئت خصيصا لهم

وفى وسط الحديقة تقف القائمة التذكارية ذات الطوابق الثلاثة ، وهناك وضع رماد ٥٨ الف جثة فى أوان ضخمة لحفظ الرماد ، بينما توجد على مذبح وسط القاعة شعلة تلتهب باستمرار .. وفى أول سبتمبر من كل عام تقام صلاة تذكارية على أرواح الضحايا ، يحضرها أكثر من ألف شخص ، ويدخل القاعة موكب من المسئولين مع فرقة من عازفى القصر الامبراطورى ، تعزف موسيقى البلاط التقليدية القديمة ، ويحضر احد أمراء الاسرة المالكة هذه الصلاة .

وبعد الطقوس الدينية التى يؤديها ٣٠ كاهنا بوذيا ، يتحدثون الى الجمهور عن الالتزام المقدس بذكر الموتى والاخلاص فى حبهم ..

وفى الساعة الثانية عشرة الا دقيقتين بالضبط ، يدوى صوت ناقوس ، فيحنى الحاضرون جميعا رؤوسهم فى صلاة صامتة !

نعمة كبرى !

قبل عيد الشكر الامريكى ـ الذى يأكل فيه الناس الديوك الرومية ـ سألت احدى المدرسات اطفال الفصل عن الشىء الذى يشكرون الله عليه أكثر من غيره ..

واجاب طفل صغير :

ـ انني اشكر الله لانني لست ديكا روميا !

عقاب مقدما !

يذكر جون روكفلر فى كتابه (ذكريات كيفما اتفق) ان أمه ضربته يوما بالسوط على بعض الاعمال التى وقعت فى مدرسة القرية .. وفى وسط العقاب الذى ينزل به ، احتج قائلا انه برىء

فقالت أمه فى صرامة :

ـ ولو ... لقد بدأنا هذا الضرب ويجب ان نمضى فيه ، فسيفيد فى المرة القادمة !

كتاب الشهر

ثق بنفسك أولاً

بقلم روبرت أوبريان

أمن الممكن أن نفعل شيئا حيال آفة الشعور باضطراب في العلاقات الشخصية والاجتماعية؟

هل يمكننا التغلب على احجامنا عن العمل بطريقة طبيعية في أية بيئة مهما كانت غير مألوفة لنا ؟ ••

ان الرد على هذه الأسئلة هو نعم بالتأكيد، وذلك على أساس اتجاهات جديدة في التفكير النفساني ودراسة لهذه المشكلة العامة تتسم بالادراك السليم ••

ثق بنفسك أولا

تلخيص كتاب *Challenge of Confident Living*

كلما زدت استماعا لأناس يعربون عن الشكوك والمخاوف التى تساور قلوبهم ، زدت اقتناعا بأن الكثيرين منا يسيرون فى الحياة ـ خلال هذا العالم المثير المضطرب الذى يحيط بنا ولا نهاية لجماله ـ وكأننا ضللنا الطريق بصورة ما .. هناك شىء ما مفقود ، معنى ماكنا نؤمن به فى يوم ما ، لذة ومتعة الحياة المثيرة ... بل وربما أحسسنا فى أعماقنا أننا نبدو بعيدين عن أنفسنا ، بعيدين عن أن نلمس حقيقة ذاتيتنا الداخلية ، فنحن نفتقر الى الصفة التى كانت كفيلة بأن تضع الامورفى نصابها الصحيح فى حياتنا .. تلك الصفة هى الثقة بالنفس .

ان الرجال والنساء الاكفاء ذوى الضمائر الحية فى كل مكانعاجزون عن بذل أفضل مايستطيعون منجهد وكل ذلك لانهم يفتقرون الى الثقة بالنفس ، وقد تعرف منهم ١٢ أو أكثر فى جيرتك ، والواقع أنه يمكن القول بأننا جميعا نواجه تلكالمشكلة بصورة أو بأخرى بغض النظر عن الواجهة التى نقدمها للعالم

وقد طلب الى ٦٠٠ طالب فى استقصاء أجرى باحدى الجامعات أن يذكروا أكبر مشكلاتهم الشخصية، فأجاب ثلاثة أرباعهم : « انعدامالثقة بالنفس » وفى دراسة أخرى اعترف تسعة من عشرة تقريبا بأنهم يعانون احساسا بالنقص وعدم الكفاية . ويتفق أطباءالامراض العقليةوالعصبية على أن انعدام الثقة قد يكون أكثر الشكاوى النفسية شيوعا .

وعندما حدثت طبيبى عن تلك المشكلة ، قدم لى مثلا قويا للتباينبين الثقة بالنفس وانعدامها .. قال لى: « شاهد اثنان منأصدقائى همابراون وجونس رجلا يسقط فى الطريق نتيجة اصابته بنوبة قلبية ، وكان الاثنان قد طالعا أخيرا مقالا فى احدى الصحف عن اسعاف ضحايا أمراض القلب .. ولكنهما ترددا ..

ثم تقدم براون الى الامام وركع. وشرع على قدر استطاعته فى القيام بالتدابير البسيطة التى ربما أنقذت حياة الرجل ، أما جونس فقد تراجع ! »

ويالها من دراسة عن الثقةبالنفس والافتقار اليها .. لقد كان براون

ايجابيا • عمل بأفضل مايستطيع من قدرة • كان يعرف أن مايمكنه عمله ليس شيئا كاملا ، ولكنه افضل من لا شيء ، نفعله • أما جونس فقد نظر الى الموقف بطريقة سلبيه على اساس عدم كفايته ••• رآه باعتباره ازمة شخصيه له هو نفسه • فلم يستطع أن يتصرف لانه كان خائفا من الفشل

ان أشخاصا كجونس عاجزون بالمعنى الحقيقى تماما لهذه الكلمة ، ولكنهم ليسوا استثناء بأية صورة • فانني اعرف رجلا يشتغل فى العلاقات العامة لاحدى المؤسسات الصناعية ، كان يريد أن يعمل لحسابه الخاص ولكنه يفتقر الى الاعصاب التى تمكنه من أن يتخلى عن وظيفته ••• وهناك بائع مجتهد يعتقد أنه يستحق مزيدا من المال ولكنه لايستطيع أن يقنع نفسه بطلبه خوفا من مضايقه رئيسه •• وأحد مديرى شركات التليفزيون يبتلع كأسين من مشروبات سريعة المفعول ليقوى أعصابه قبل مؤتمر مهم ، وفتاة حسناء مصابة بعقدة نقص بشأن جاذبيتها أمام الرجال فلا تشجع محاولاتهم ، وتدفن نفسها بين الكتب ، وتأكل فى افراط ، زاعمة انها تجد الخروج مع الفتيان والرقص « استهتارا » ، ولكنها •• كما اعترفت أخيرا لامها - تعانى وقتا تعسا فى المدرسة • فهل هناك شيء يمكننا أن نفعله حيال هذه المشكلة العامة الشامله ؟ هل نستطيع أن نتقدم نحو المزيد من الثقة بأنفسنا والمزيد من الاحساس بالانتماء ، وزيادة الثقسه فى الحياة ؟•• هل يمكننا أن نؤدى المهمه بأنفسنا وبما فى اعماقنا من موارد فقط ؟

ان الرد على ذلك هو نعم بصورة قاطعة جليه •

عملية من اللباقة

لم يكن الحال كذلك حتى وقت قريب ••• وكان أى تفكير فى التنمية الذاتية للثقة يبدو أمرا بعيدا عن متناول الانسان ولا امل له ، حتى أمكن وضع عمل الدكتور سيجموند فرويد وغيره من الرواد فى استكشاف النفس البشرية فى مكانه السليم •

فلماذا ؟ ••• تقول احدى مدارس علم النفس أن شخصياتنا قد ثبتت بصورة لارجوع فيها بوساطة مشاعر جربت ودفنت وراء الذاكرة فى السنوات الثلاث الاولى من الحياة • وهناك مدرسة أخرى نعتقد أننا عبيد دوافع غريزية طوال حياتنا ، كالجنس والعدوان • وهناك جماعة أخرى تؤمن بأن الانسان مسير لا مخير أثبتت

اننـــا كنا مجرد « انسان صـــناعى متفاعل » يستجيب آليا لدوافع من ضرورات اجتمـــاعية واقتصادية ، وقالت لنا جماعة رابعة أن شخصياتنا هى نتاج الوراثة والبيئة • وهى آثار عنيدة لاتخضع للسيطرة ، ولا يمكننا أن نامل فى تغيير عملها •

وعلى أية حال ، فقد كانت محاولة التغيير أمرا لاجـــدوى منه ، أى أن نزداد قوة ، وأن ننمى ثقتنا بالنفس التى لم تكن موجودة

ولكن من العجيب أن كثيرا من قوة هذه المواقف كانت نتيجة قامت على الناحية الباثولوجيـــة .. على ردود افعال فئران يائسة محبوسة فى قفص وأشخاص قلقـــين من المرضى ، وقد كتب أحد علماء النفس يقول :

« لقد اجريت دراسات كثيرة على المجرمين ، قليلة على مطيعى القانون، كثيرة عن الخوف ، قليلة عن الشجاعة كثيرة عن عمى الانسان ، قليلة عن أبصاره »

أما اليوم فان مدرسة جديدة من علم النفس تشرق كالشمس من هــذه الابحاث العقيمة •• وتميـــل بقوة بعيدا عن المتطرفين فى نظرية فرويد، اذ يقوم الطلبة والمدرسون من جيل جديد بانشاء سيكلوجية من الصحه تعرض تناقضا مثيرا للآراء التقليدية عن الشخصيه • وهذه الحركة النفسية لا تعتمد على دراسة المرض فحسب، بل وعلى دراسة العقول والشخصيات وأداء الاشخاص الاصحاء الذين تجرى عليهم الدراسة •• رجال ونساء أكفاء الى حد لا بأس به ، لمواجهة مشكلات الحياة العادية ، ليست لديهم أعراض ظاهرة لعجز جسمانى أو اضطرابات عقلية أو عاطفية تصيبهم بالعجز

وهذه الفكرة فى ايجاز تؤيد أننا أكثر من مجرد وحدات ميكانيكية ، وأكثر من مجرد عبيد لدوافع داخلية مظلمة ، وغرائز لايمكن الســـيطرة عليها ، بل أن « شخصيتنا » عملية لياقة .. عملية نمو وازدهار داخلى، تكيفها أشياء تحدث لنا ونحن نسعى نحو أهدافنا •

ويمكننا أن نقول ان المسألة أشبه بلعب الورق، فالحياة تعطينا اوراقنا، أما كيفية اللعب بها فهذا أمر متروك لنا ، وفى وســـعنا أن نحسن نوع لعبنا ونحن سائرون قـــدما خـــلال حياتنا .

والمدرسة الجـــديدة فى الفـــكر متفائله بشأن الروح البشرية وقدرتها على النمو ، وهى تعترف بالتضحية بالذات والبطـــولة ، والمنح ، وقوة

الحب ... مشحونة بالالهام والامل فهى تعرف القوة الثورية فى نسيج الآمال التى لاتقاس ولا ترسم ، والاحلام ، والكفاح ، والتعجب والايمان والضحك والمرح .

وهى لاتؤكد هذه الحقائق فحسب، بل أنها تمضى أبعد مما ذهب اليه علم النفس من قبل لتضيف قواما للفرد، فهى تقول لنا أننا مثل الآخرين جميعا فى بعض النواحى ، وأننا نماثل بعض الآخرين فى بعض النواحى ، ولكن كل منا فى النهاية يعد فريدا فى بعض النواحى . فلم يوجد ولن يوجد أبدا شخص يماثلنا تماما فى كل الوجوه ، ولن يكون هناك أبدا شخص يمتلك فرديتنا الخاصة وامكانياتنا المعينة ، وهذا تحد فى حد ذاته .

هذه النظرة القوية الى الشخصية تنقل بحثنا عن الثقة بالنفس الى جولة طويلة مثيرة ، وجهد حيوى ، ذهبى، فضلا عن أنها تثبت حقيقة البحث عن موضوع من أعمق موضوعات الحياة وأكثرها الحاحا : الرغبة القوية للنمو والكفاح من أجل الكمال الفردى .

الخوف من الفشل ..

لعل أفضل تقديم للبحث الخاص بالثقة بالنفس ، هو القاء نظرة قصيرة الى عكسه : انعدام الثقة ... لقد رأيناه وهو يعمل ، فنحن نعرف أنه يبدد شجاعتنا وتفاؤلنا وقدرتنا على التمتع بالحياة . انه يميت الحماسة ويزيل البهاء من أيام كان يجب ان تكون أكثر بهجة واشراقا . انه يعوقنا عن أعمالنا ، ويقيد حدودنا الاجتماعية ويحول بيننا وبين الحصول على المزيد من الحياة .

والعامل الفعال هنا هو الخوف من الفشل .. وبين الخطوات الاولى لمعرفة النفس بطريقة أفضل ، أن نسأل أنفسنا : متى وقف انعدام الثقة عائقا أمامنا ؟ لماذا نخاف الفشل؟

والتفسير فى أكثر الاحوال فى متناول أيدينا بسهولة ، فنحن نخشى الفشل لسبب واحد بالغ الاهمية : اننا نخاف ماسوف يظنه الآخرون فينا عندما نفشل ، وكيف يسخطون علينا ، أو يزوروننا أو يسخرون منا .. ان آراءهم فينا أهم عندنا من آرائنا فى أنفسنا .

ولا شك أننا ندرك أن الفشل نتيجة محتملة فى أية مغامرة ، وحتى اذا أدينا العمل بأنفسنا بصورة كاملة ، فان الظروف التى لا سيطرة لنا عليها تستطيع أن تؤدى الى فشل

كلى أو جزئى ... ومن الناحيـــة العقلية ، نعرف أن كل شخص لايمكن أن يكون منتصرا ... ونحن نخشى الفشل كثيرا فى بعض المواقف لسبب ما الى حد اننا نفضل ألا نحاول مطلقا بدلا من المخاطرة بالمحاولة

فما هى العوامل الكامنة تحت هذا الميل الى تفادى المخاطرة ؟

اننا نستطيع أن نميز بين نوعين من انعـــدام الثقة : نوع عام ونوع معين .

فانعـــدام الثقة العـــام يغمرك باحساس شامل من عدم الكفاية .. انه يصبغ لون حياتك كلها أو يبدده، تاركا اياك تعالج كل علاقة وكل مهمة بطريقة سلبية . انه يجعلك تخاف أن تعمـــل بطريقة خالقـة ، تخاف من التغيير ، تخاف المستقبل ... انه يجعل كل غريب يبدو عـدوا يهددك بالخطر ، انه يجعلك تشك فى أن لكل شفقة دفعا خفيا ، وكل ضربة حظ نذيرا بكارثة محتملة .

لقد تحدثت يوما الى أحد المديرين .. وكان قد ارتفع من طفولة فقيرة الى النجاح فى صناعة الثياب ـ وعزا نجاحه الى فلسفة التقطها أيام طفولته فى الشوارع .. قال : « لقد علمونى أن العالم غابة .. انه كلب يأكل كلبا ، وعليك أن تتغلب على الشخص الآخر أولا ، والا تغلب عليك » .

كان للرجـــل جو عدوانى فظ ، قد يفسره البعض على أنه ثقة بالنفس، وهو فى الحقيقة انما يعبر عن خوف وقلق وعداء كامن ، وهو عكس الثقة بالنفس تماما .

ان « قانون الغابة » الذى يؤمن به يتطلب يقظة وحرصا دائمين، فليست له حياة أو هوايات أخرى ، وزوجته التى استبد بها الضجر تقسم وقتها بين بيتهمـــا فى المدينـــة وضيعتين مختلفين فى الريف ، وابنـــة ، هى تلميذة غير سعيدة فى مدرسة راقية، أما ابنه فقد ترك دراسة القانون بعد أن حكم عليه فى حادث قيادة السيارة وهو مخمـــور ، ولم يكتب أحدهما للآخر قط ، بل ولم ير أحدهمـــا الآخر ، وكأنهما يعيشان فى كوكبين مختلفين ... وهكذا فعلى الرغم من المظهر الخارجى للثقة بالنفس الذى يبدو على هـــذا الرجل ، فان عدم اطمئنانه الداخلى قد استنفد المتعة فى حياته ..

أما انعدام الثقـة المعين فهو أكثر شيوعا من انعدام الثقة العام. ولكنه لحسن الحظ أقل تعجيزا للانســـان فنحن قد نكون مثـــلا ذوى ثقة بالغة

فى العمل ، ولكننا نخجل من التودد الى الفتيات فى حلبة الرقص ، وقد نكون غير عصبيين ، متبسطين فى الحديث فى صحبة الاصدقاء ، ولكننا نبدو منطوين متوترين فى الاجتماعات الرسمية • وقد يعمل الطبيب فى سهوله وكفاءة فى غرفة العمليات بمستشفى مجهز جيدا بالمعدات ، ولكنه يشعر بعدم الثقة بنفسه عندما يدعى فجأة لعلاج ضحية حادث اصطدام فى الطريق •

ولا يدل انعدام الثقة المعين بالضرورة الى عدم اطمئنان متغلغل فى طباعنا ، والواقع أنه ليس هناك مايثير القلق بصفة خاصة حول هذا النوع من المواقف ، ولكن وجه الخطر، هو أن انعدام الثقة المعين - أى انعدامها فى موقف واحد معين - قد ينتشر كالعدوى حتى يصبح عاما ، ويقضى على كل بهجة •

وقد يحدث الامر كما وقع فى الحادث التالى ، فعندما ثبت أن ربة بيت فى بلدتنا عاجزة عن انجاب أطفال ، عملت هى وزوجها على تبنى طفل، ولكن عندما تلقينا بعد شهور من الانتظار أن الطفل على استعداد للحضور اليهما ، احست فجأة أنها لا تستطيع قبول الطفل ، وتوسلت لزوجها وهى تبكى أن يترك الطفل لزوجين آخرين •

وقالت له : « لما كنت لا أستطيع أن أنجب طفلا ، فقد اكتشفت أننى لا أثق فى قدرتى على العناية بأى طفل ، ولم يزعجنى ذلك فى البدايه وقلت لنفسى أننى ساعمل وأتعلم ، ولكننى بدأت أفقد الثقه بعد ذلك فى نفسى كامرأة ••• واذا لم تكن تلك الثقة فكيف يمكننى أن أصبح اما طيبة ؟ » .

ولكنها بعد محادثات طويلة عديدة مع طبيب مدرك ، أمكن اقناعها بأن الانجاب ليس هو الهدف الوحيد فى الحياة ، وأن عجزها عن انجاب اطفال لا يتلف أو يقلل من أنوثتها بأية صورة • وقال لها الطبيب أن ذلك قد يجعلها فى الواقع أكثر اعتزازا بالطفل .. ولم تنجح هذه الطريقة فحسب ، بل لقد جعلتها الآن تعتزم هى وزوجها تبنى طفل آخر

ثلاث علامات محذره

ان انعدام الثقة ليس سببا يدعو الى لوم النفس بأية حال، فنحن جميعا نحس به أحيانا • وقد كتب الدكتور جوردون أولبورت بجامعة هارفارد فى كتابه : « النموذج .. والنمو فى الشخصية » فقال : فى كل يوم يواجه

احترامنا لانفسنا تهديدات خطيرة ، فنحن نشعر بالنقص والذنب وعدم الاطمئنان ، واننا لسنا محبوبين وليست الاشياء الكبرى وحدها هى التى تجعلنا نخطىء ، بل والصغيرة أيضا ، كأن نفشل فى امتحان ، أو نرتكب خطأ اجتماعيا ، مثل ارتداء ثوب غير ملائم فى احدى المناسبات مما يؤدى الى اصابتنا باضطراب أو قلق ، ونسرع الى علاج الجرح الذى أصاب نفوسنا .

وانعدام الثقة فى كثير من نواحيه حالة عادية مشروعة ، ففى شبابنا كانت الحياة مليئة بالمشكلات والشكوك ، وبمواقف جديدة غريبة كنا نفتقر خلالها الى الثقة بطبيعة الحال لمجرد اننا لم نكن محنكين فى الحياة .. ثم تأتى مرحلة متوسط العمر وما فيها من رصانة وخيال ، ومرة ثانية تضايقنا شكوك داخلية حيال القرارات التى نتخذها باعتبارنا آباء ، أو فى حياتنا المهنية .. وكلما تقدم بنا العمر برزت مسائل وأزمات جديدة لتزيد المطالب علينا ، وتبدو الثقة بالنفس التى اكتسبناها فى السنوات السابقة غير كافية لسد مطالبنا ، أو أنها لم تعدنا جيدا للمهام التى تواجهنا الآن .

ومع ذلك فاننا نستطيع فعلا فى كثير من الاحيان أن نحمد الله على انعدام الثقة ، اذ قد تكون تحذيرا لنا من أن موقفا ما لا يتفق مع حياتنا، والامثلة الثلاثة التالية هى أكثر هذه المواقف شيوعا :

نقص المعلومات :

كثيرا ما نلتقى اليوم برجال ونساء هم ضحايا الاوقات الطيبة .. فقد أدى الرواج الذى تلاقيه الشركات التى يعملون بها الى انطلاقهم بسرعة بالغة لاستيعاب المعلومات والخبرة التى تتطلبها أعمالهم الجديدة ، ويواجهون بعض المواقف التى تثير الوهن كالمثل التالى :

فبينما كنت اركب احدى الطائرات أخيرا ، انهمكت فى حديث مع مهندس شاب كان يجلس فى المقعد المجاور لى، فأخبرنى أنه رئيس لقسم فى شركة الكترونات ناجحة ، وسحرنى بحديثه فسألته :

– كم عمرك ؟

فقال فى ابتسامة واهنة : تلك هى مشكلتى الكبرى ... فعندما تعرض عليك ترقية مغرية ومرتب أكبر فى هذه الايام ، فانك لاتستطيع رفضهما ، وهكذا قبلت المنصب ، ولكننى قبل أن أتسلمه بأسبوع

واحـد علمت الحقيقـــه ، وتملكنى اضطراب عميق .. فالثقة بالنفس التى كنت أشعر بها فى عملى القديم والتى أهلتنى للترقيـــة ـ تلاشت وكأنها تيار مد انحسر سريعا .

فماذا فعل ؟...

كان رد الفعـل الاول ، أن يتبع طريقة التغطيه ، والايهام أو ارتداء ما أسماه هو « قناع الكفاءة والثقة » لاخفاء حقيقة حالته الذهنية ..

وقال لى : « كانت تجربة عجيبة جدا ، فقـــد أحسست لاول مرة فى حياتى أننى قادر على أن أكتشف أى مخادع على مسافة ميل ، وأحسست قرابة ايجابية حيال المخادعين ، فقد كنت أنا نفسى واحدا منهم » ..

وسألته : هل تستطيع أن تذكر لى كيف نجحت تلك الطريقة ؟

فابتســم قائلا لم يكن الامـــر سهلا ، ولكن اذاواجهت نفس الموقف فان نصيحتى هى : لاتخف من أن تقول (لا أعرف) ولا تخش طلب المساعدة ممن هم أكثر خبرة . لقد نجحت هـــذه الطريقة معى وعلمتنى شيئا آخر أيضا ، وهو صدق قول الشاعر (ليس هنـــاك رجل يعتبر جزيرة)

انعدام الاعتراف :

مهما كان شأننا أو مهما فعلنا ـ سواء فى ذلك ربة البيت أو عـــداء المسافات الطويلة ، أو طالب الطب أو سائق الاتوبيس ، فنحن جميعا فى حاجة الى اعتراف معقول بجهودنا سواء كان فى صورة مدح أو اشارة طيبة ، أو زيادة فى المرتب ... أو مجرد كلمة تقدير .

منذ بضع سنوات ، طلبت احدى شركات البترول الكبرى من مجموعة من المديرين والفنيـــين ان يذكروا الاسباب الشائعة للسخط بين زملائهم العاملين فى الشركة ، فكانت أغلب الردود التى قدمت هى : « عــــدم التقدم ، وعدم التقدير أو الاعتراف بجهودهم »

ان الآباء والمدربين الرياضيين ، ومديرى المســـارح ، والضـــباط العسكريين وغيرهم ممن هم فى مركز السلطة ، كثيرا مايحجمون عن ابداء المديح خـــوفا من اثارة الغرور فى قلوب الذين يتولون أمورهم ، ولكن هذه الطريقة قل أن تنجح . وقد قال لى أحد كبـــار المدربين الرياضيين : (لا شيء يقتل الثقة أسرع من استمرار الضغط فاذا كنت قد بذلت جهـــدا ضخما فى القفز العالى حتى تخطيت أخيرا قضيبا على ارتفاع مترين، فأنت

جدير بالتقدير ، وسوف تسأل نفسك عما اذا كان الامر يستحق ذلك اذا جاءك المدرب وقال لك :

ـ احسنت يافتى . ولكن كان في استطاعتك أن تكون افضل من ذلك. دعنا نرفع القضيب بضعة سنتيمترات الى اعلى .

ان المديح الصادق ، والربت على الظهر في ود مكافأة طيبة لعمل أحسن اداؤه ، وحافز طيب للثقة بالنفس ولكننا يجب ألا نعتمد عليهما حتى لا نقع في عادة العمل من أجل الحصول على التصفيق والمديح ، وعلينا أن نتعلم بدلا من ذلك أن نقدر قيمة أدائنا وأنفسنا ، وسوف نحظى بارتياح داخلي بعد ذلك – ولو لم يكن هناك من ينظر الينا أو يعرف مافعلنا ـ لمجرد معرفتنا أين نجحنا وأين فشلنا ، وأين نستطيع أن نقوم بعمل أفضل في المرة التالية . وتلك طريقة من طرق الثقة بالنفس

عدم الالمام :

مذ أعوام قدم لي اول رئيس للتحرير عملت معه نصيحة ثمينة جدا ، كنت لا أزال أرق المخبرين الناشئين عودا عندما قررت الانتقال الى صحيفة أكبر في بلدة غريبة على ، فقال لى : « ان الوجوه الجديدة والاسماء الجديدة والبيئات الجديدة تزيد الضغط والتوتر ، ومن ثم يجب أن تتيح لنفسك فترة راحة وتلمس الطريق من حولك .. ادرس البلدة أولا ، وستكون بعد ذلك على استعداد للقفز الى أشياء أكبر حجما . ولا تنس أن هذا المكان الجديد ليس معاديا ، ولكنه غير مألوف لك فقط » .

ولما كان المجتمع الجديد متحركا، مائعا في أكثر الاحيان ، فنحن نتحرك أكثر مما اعتدنا ، ويواجه الملايين منا دائما مجتمعات غير مألوفة لهم ، مع انعدام الثقة المؤقت الذى ينتج عن ذلك بطبيعة الحال ، ومع ذلك فهناك ملايين أخرى ينتفعون من هذه العناصر المثيرة للاضطراب ، وينطلقون في الطريق الى أعلى السلم كالمهندس الشاب الذى كان يجلس في المقعد المجاور لى بالطائرة ، وهم يواجهون مواقف اجتماعية جديدة بمستوى دخلهم الجديد ، والحل هو أن ندرك أولا أن احساسنا بالقلق شيء طبيعى تماما في تلك الظروف وأن كل شخص يواجه شيئا جديدا مجهولا يساوره نفس الاحساس ، وندرك ثانيا أننا نستطيع أن نتخذ خطوات ثابتة للاستكشاف والعثور على طريقنا في أنحاء عالمنا الجديد

ويقول مدرس للآداب من معارق، انه ليس هناك شيء يجعله يشعر بالاطمئنان بعد انتقاله الى حي غريب، غير قراءة تاريخ هذا الحي .. وقال لي : « انني اقرأ كل شيء عن الشوارع والكنائس والاحياء ، وما أن أعرف ماضيها حتى تصبح بمثابة الصديق القديم لي ، بل انها تؤهلني للانضمام الى مجتمع بلدتي التاريخي وتزودني بطريقة ساحرة للاشتراك في شئون المجتمع » .. وفي كل جماعة تقريبا يجب أن تتوقع جماعات ودية تختلف نواحي اهتمامهم من السياسه الى مراقبة الطيور .. ومن الشطرنج الى الغناء الكورالى ، يرحبون بالقادمين الجدد ، ويبدون خجلهم وقلقهم حيال الاشياء غير المألوفة لهم

نوعان من الثقة

وكما هو الحال في انعدام الثقة، يوجد نوعان من الثقة بالنفس ، عام ومعين ..

ولقد خلف لنا المعلم العظيم «وليم ليون فلبس » تفسيرا رائعا للثقة المعينة في ترجمة حياته عندما قال: « انها تعني أن المرء يكون واثقا من قدرة واحدة لأداء عمل معين ، واثقا من أنه كفء للموقف ، وتعني أيضا أن المرء يتمتع بالعمل وهو مطمئن الى انه يستطيع أن يؤديه جيدا »

فمن أين يأتي هذا النوع من القدرة والثقة ؟ وكيف نكتسبه ؟ بالعمل في سبيله ، وأن نرغب فيه حقا ، بعمق وجد كافيين لاكتسابه بالتدريب والعمل الشاق ، المتكرر في أغلب الاحيان ، الذى يبدو أنه غير مجز ..

ويمكننا أن نكتسب أنواعا ثمينة من الادراك بالثقة المعينة وطريقة اكتسابها من رجال ونساء في مجالين يظهرون فيهما بصورة واضحة هما: الرياضة البدنية ، والخطابة .

فمن الاشياء الاسطورية أن جاك دمبسي ـ الذى كان بطلا للعالم في الملاكمة ـ كافح جولات طويلة مرهقة بينما كانت يده اليمنى مربوطة خلف ظهره حتى ينمي قوة ضرب زائدة في يسراه . ويقول المحامي لويس نايزر مؤلف كتاب « حياتي في المحكمة » اننا حتى اذا كنا نصاب بذعر من فكرة التحدث أمام الجمهور ، فاننا نستطيع في النهاية التغلب على خوفنا اذا أردنا ذلك .. واذا مررت خلال نار الجحيم مرات كثيرة ، فسوف تصبح حرارتها محتمله .

ان آلوفا من ساعات التدريب تمنح الثقة القوية بالنفس لعازف البيانو

فى الحفلات الموسيقية ، بل ان فنانا من درجة بادرفسكى لم يجد طريقة أخرى غير هذه وقد قال ذات مرة : « قبل أن أكون عبقريا كنت كادحا »

والنوع الثانى — والنادر — من الثقة بالنفس لا يتوقف على القدرة فى مجال خاص أو الكفاءة فى موقف معين فحسب ، ولكنه سجية شخصية عامة، تعبر فى الجزء الغالب منها عن طبيعة فطرية واثقة، لشخصية مطمئنة نامية وهو يبدو فى صورة مباشرة أكثر جمالا فى الاشخاص الذين يؤمنون ، والذين يثقون فى شىء الى حد كاف ، أو يجرؤون على الايمان بشىء .

ان الايمان بأى شىء نعتبره أكبر وأهم من أنفسنا ، مصدر اساسى للقوة بلا شك ، ولكن الايمان الكامن الذى ينتج الثقة العامة بالنفس، هو قبل كل شىء ايمان بنفسك، وبانك جدير داخليا كمخلوق بشرى ، وهو فضلا عن ذلك ايمان بأنه اذا كان عالمنا هذا يتأثر بقدر من المعاناة والظلم وعدم المساواة ، فهو فى الوقت ذاته عالم يتأثر بالروائع والمعجزات والحنان والاحلام ... عالم طيب بصفة عامة .

والثقة بالنفس هى احترام الذات الهادىء الذى يبدو من سيدة شابة طلبت وظيفة كسكرتيرة لمدير وعندما طلب منها ذكر الجهات التى يمكن الرجوع اليها للسؤال عنها، أخرجت من كيسها بيانا واضحا عن مهاراتها واهتمامها بالشركة ورغبتها فى أن تخدمها، وكان البيان موقعا بامضائها هى .

وابتسم الرجل الذى يتحدث اليها وقال : « اننا لا نقبل عادة المراجع التى يكتبها الشخص لمصلحة نفسه » . فرفعت الفتاة رأسها فى كبرياء وقالت ببساطة :

— أعرف ذلك .. ولكنى أومن بقيمة نفسى .. اننى مؤمنة بنفسى » .

وبهذه الكلمات ، فازت بالوظيفة

ان الاشخاص الذين اكتسبوا ثقة عامة بالنفس أو بلغوا درجة عالية منها، كثيرا مايجدون أنفسهم يواجهون مهمة ما باطمئنان داخلى قليل أو منعدم الى قدرتهم على تنفيذها ، ولكن افتقارهم الى الثقة المعينة بالنفس فى مثل تلك الظروف قل أن تعوقهم ، فان لديهم ايمانا عاما بالنفس ، يجعلهم يعرفون أنهم سوف يبذلون كل مافى طاقتهم وقدرتهم .. وبعد أن يفعلوا ذلك ، يتقبلون كل مايحدث مقتنعين بانه مهما حدث ، فان هناك

دروسا ايجابية فى كل تجربة •

وهم لا يحتاجون الى آية آنانيةلكى « يثبتوا » وجودهم ، فهم يستمدون نوعا من الثقة الشاملة مما أسماه الفيلسوف وليم جيمس « حماسة الاستسلام الذاتى » فقد كتب يقول: « اذا منحنا قدرا معينا منها ، فان النتيجة ستكون واحدة دائما : سوف يختفى التمسك بالتقاليد ، وخجلنا وكسلنا ، وبخلنا ، وبحثنا عن السوابق ، والاذن من أجل الضمان والتأكد ، وشكوكنا الصغيرة، ووجلنا وخيبة آمالنا •• أين هى الآن ؟• لقد تقطعت كخيوط العنكبوت •• تلاشت كفقاعات فى الشمس ، وبعد أن تحررنا منها ، رحنا نطفو على السطح ، ونحلق فى الجو ، ونغنى»

إعرف نفسك

ان ضوء الحياة الدافىء المرشد ، واليقين الداخلى بأننا نحظى بالثقة العامة بالنفس ليس شيئا يمكن ايجاده بسهولة ، فان تيارات المد الشخصية تجرى قوية عميقة ، ولن تستطيع تغيير مجراها تغييرا دائما بمجرد التمنى أو اتخاذ قرارات ذات صياغة جديدة

ولكنك تستطيع أن تبدأ ، والخطوة الاولى هى أن تتقبل نفسك •• حب ذات لا غرور ولا أنانية ، بل حب متسامح مدرك ، حب قد تشعر بمثله حيال صديق قديم •

ان لصديقك عيوبه •• فهو متعب احيانا ، غير معقول احيانا أخرى ، وله حدوده بدنيا وعقليا ، فهو ممتاز فى اشياء ، ضعيف فى غيرها •• قد يستطيع أن يكون متناقضا وساحر الحديث ، حزينا ومرحا ، قويا وضعيفا ، عظيم الامل احيانا ، تغمره الكآبة أحيانا أخرى •

انه بعبارة موجزة شخص لايختلف كثيرا عنا جميعا ، والكنه صديقك•• لقد ارتبطت معه فى حب وتسامح قرب بينكما على مر السنين•• وتلك هى الطريقة المثلى للنظر الى نفسك

ان جزءا كبيرا من مهمة الوصول الى تقبل الذات الناضج انما يكمن فى أن تعرف نفسك بطريقة أفضل •• أن تكتشف الاشياء والافكار ذات الاهمية بالنسبة اليك ، وسبب آهميتها •

انظر الى نفسك •• الى ماضيك •• كيف كانت صورة ولون المجتمع الذى نشأت فيه ؟• كيف كنت تشعر حيال الاسر التى لديها مال أكثر مما لديك؟ والتى اقل منك مالا ؟•• ولماذا كنت تفكر فى مهنة أبيك ؟•• وأى دور

لعبه الدين فى حياتك ؟ ماهى الاشياء التى تعتبرها من حسناتك • وما هى نقاط ضعفك ؟

تعلم من هذا التأمل فى نفسك ، وبينما تمضى قدما فى حياتك كل يوم ، حاول أن تنمى فى نفسك فضولا سليما هادفا حيال الطريقة التى تعمل وتحس بها : اسأل نفسك اسئلة تسبر بها غور الطريقة التى تعالج بها مشكلات الحياة .. كم من معتقداتك الاساسية عن الحياة هى من عملك أنت ؟ كم قرأت أو سمعت منها فى مكان ما .. وربما من أبويك .. ثم اعتنقتها بلا وعى ودون فحص وثيق ، معتبرا أنها معتقداتك ؟... افحصها بعناية ، فمن الامور الحيوية لتقبل الذات والثقة بالنفس أن تعرف أين تقف حقا •

اسأل نفسك : كم من الاشياء التى افكر فيها او أعملها يقررها مايتوقعه الآخرون منى ؟.. هل أنا الشخص الذى هو أنا حقا ، أم أننى أمثل دورا اختارنى له شخص آخر أحتاج الى عطفه ؟.. هل أنا نفسى أم أننى أقلد شخصا آخر ؟

ان ردودا على امثلة كهذه - بعد تكفير وعناء ، وربما بعد صلاة - سوف تساعد على زيادة ادراكك لذاتك ومن ثم تقبلك لنفسك ...

وما أن تبدأ السير حتى يصبح من العسير أن تتوقف .. أنك ستنجح وتفشل .. وتتعلم . ولقد اخبرنا روبرت هنرى كيف يبدو ذلك الامر فى كتابه (روح الفن) اذ قال : « اكتشف ماهو مهم فعلا بالنسبة لك ، ثم أنشد أغنيتك ... فستجد شيئا تغنى عنه ، وسوف يشاركك قلبك بأسره فى الغناء »

تقبل الآخرين

ان الرجل الذى يثق بنفسه أشبه « بجيروسكوب » يتجه الى الداخل يتقبل الآخرين أيضا ، فالاهتمام - أى قدر بسيط من الاهتمام بشخص او شىء ما - يوقظ قوى عجيبة مثيرة ، فكلما زاد اهتمامك بالآخرين زادت الثقة التى تعمل بها ... لن يوجد شىء لاتستطيع أن تعمله ، ولا هزيمة لايمكنك تحملها • ولاخوف لاتستطيع التغلب عليه ، وذلك عندما تركز قلبك وروحك فى مساعدة الآخرين

ومادمت تنظر الى الآخرين فى شك وعدم ثقة ، فان ثقتك بنفسك سوف تهرب منك ، وسيصبح العالم عندئذ نوعين من الناس : أولئك الذين يمكنك السيطرة عليهم ، وهؤلاء الذين يسعون للسيطرة عليك ، ويصبح

طريقك في الحياة ليس ثقة بالنفس، بل حماية للنفس.

أما اذا وضعت ثقتك في الآخرين، وشعرت بحب لهم باعتبارهم رفاقا من البشر، واهتممت بهم وسعيت للتعلم منهم والعناية بهم ... فانظر أي عالم مختلف ستجده.

خالط واتصل :

مالم تشاطر الآخرين شخصيتك فانها تصبح أشبه بلوحة تحتفظ بها في غرفة مغلقة. ان علماء النفس يقدرون أن ٩٠ ٪ من كل شيء نفعله أو نفكر فيه أو نشعر به تتضمن تفاعلا مع الغير، وفي هذا النوع من الوجود نحتاج الى شخص نذكر له متاعبنا .. شخص نعترف له بعيوبنا ويشاطرنا فشلنا وانتصاراتنا ... شخص نستطيع معه أن نكون «نحن أنفسنا».

تعاون :

كتب الدكتور البرت شفايتزر يقول : « افتح عينيك وانظر الى انسان ما، أو عمل ما لمصلحة الناس يحتاج الى قليل من الوقت وقليل من الصداقة، وقليل من العطف، وقليل من حسن المعاشرة ... وقليل من العناء البشري. ابحث وانظر : هل هناك مكان ما تستطيع أن تستثمر فيه انسانيتك ؟ »

وبالمثل، التمس مساعدة الآخرين. يقول اللحن ريتشارد ريتشارد : « لقد توصلت الى فلسفة تتضمنها كلمة واحدة، فأنا لم أعمل قط شيئا بمفردي في الحياة ... لقد حملت في أمي، واحتضنني وربانى وعلمني الآخرون. ان لدي استعراضات، ولكن هناك فتيات يرقصن فيها فأنا لا أقوم بالرقص، وتلك هي فلسفتي ذات الكلمة الواحدة ... ان الكلمة التي أعيش بها هي (المساعدة) »

حاول أن تبحث عن فرصة مع الناس ... حاول بقلب متفتح أن تلتمس المساعدة منهم، فهذا في حد ذاته عمل من أعمال الثقة بالنفس.

ان الدكتور الفريد أدلر — من زملاء فرويد ورواد علم النفس — اعتاد أن يقول لمرضاه من ضحايا الخوف والقلق والكآبة « في الامكان شفاؤك في ١٤ يوما اذا اتبعت هذا العلاج : حاول التفكير كل يوم في كيفية ادخال السرور على قلب شخص ما، واستغل كل الوقت الذي تضيعه خلال الارق في التفكير في كيفية ادخال السرور على شخص ما، وستكون تلك خطوة كبرى الى الامام من اجل صحتك ».

ويضيف قائلا : « ان جهودي كلها

مكرسة لزيادة اهتمام المريض بالناحية الاجتماعية ، فانه ما أن يتمكن من الاتصال برفاقه من البشر على قدم المساواة والتعاون ، حتى يشفى من مرضه »

تقبل الحياة

قال وليم جيمس : لنؤمن بأن الحياة جديرة بالعيش ، وسيساعدك ايمانك على أن تخلق تلك الحقيقة .. تلك هى القاعدة الاخيرة ، التقبل الكلى للحياة ، بجمالها وآلامها ، ومجدها ومعاناتها

ومن وسائل تحقيق ذلك الصلاة اليومية المنتظمة حتى يكتشف المرء حقيقة نفسه مع الارادة المقدسة كما يقول بول كلوديل . وهناك وسائل أخرى فى متناول اليد . اعتز بالصمت والسكون . اهتم بالبقاء وحدك دقائق قليلة كل يوم . أوجد لك أهدافا ، فهى تدفعنا للحركة ، فنحن قادرون على أن نجاهد ونبذل أرواحنا فى سبيل أهداف قد لا تحققها أبدا . أهداف قد يكون مستحيلا تحقيقها فعلا .

كتب ماكنيل ديكسون فى كتابه (الموقف الانسانى) يقول : « اعهد اليهم بمهمة وقضية ، وكلما كانت أكثر مشقة كان ذلك أفضل ... فالناس يرتفعون الى ذروة قوتهم عندما تدعوهم الآلهة ، وسيصبحون عندئذ هم أنفسهم آلهة : ان عظمتهم تكمن فى أحلامهم ..

ولا شىء يقوى ثقتك بنفسك أكثر من اتجاه واضح محدد .. والانطلاق فى مغامرة طويلة تقودك نحوه ، وتذكر أنها ليست رحلة اسابيع او شهور ، بل رحلة سنوات ، فتذرع بالصبر ، واقنع بالمكاسب الصغيرة .

وعندما تبدأ فى اكتشاف ثقتك بنفسك ، سوف تبدأ فى التفوق ، وستجرؤ على العمل دون أنانية مطلقة .. ونحن جميعا نعرف أن هذا حقيقى ، فقد حدث لنا .. فى أحيان نادرة عندما عملنا شيئا - دون أن نفكر فى ذاتنا أو سلامتنا - شيئا كنا نعتبره عادة أمرا مستحيلا ، وهكذا نصل الى ذروة الثقة بالنفس فى اللحظة التى نتصرف فيها بطريقة طبيعية تلقائية ، خلاقة ، دون أدنى اهتمام بما اذا كنا على ثقة أم لا .

وكما أن هدف الطبيب هو مساعدتنا فى الوصول الى حالة من الصحة لا نحتاج فيها اليه ، فان هدف البحث عن الثقة بالنفس أيضا هو تمكيننا من أن نعمل بحرية وبلا خوف ، فى اطمئنان تام ، دون أن نفكر فيما اذا

كنا نعمل عن ثقة بالنفس أم لا .. بل نعمل وكأنه ليس هناك شيء نخشاه ... ولا شيء لانستطيع أن نتقبله ، ان عظمتك تكمن فى أحلامك، ولكنها لا تكون عظيمـــة الا اذا ألهمتك أن تعمل وتجاهد لبلوغها وعندما تفعل ذلك ، فسوف تجد أنك أكثر حكمة وسعادة مما كنت فى أى وقت مضى ... سوف تتجه نحو أعمق نوع من الثقة ... وستسير فى عالم جديد، ويغنى قلبك !



نجاح

قال الطبيب فى ادارة التجنيد وهو يكشف على بصر المجندين :

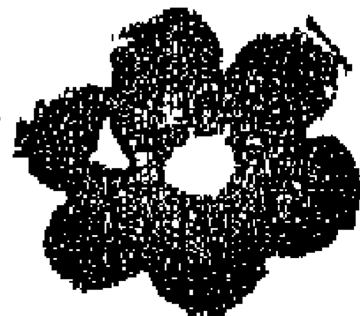
ــ اقرأ المكتوب على هذه الخريطة .

فقال المجند :

ــ اية خريطة ؟ اننى لا استطيع ان ارى اية خريطة !

فقال الطبيب :

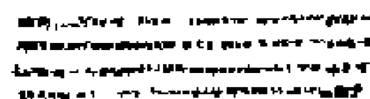
ــ حسنا .. ان بصرك سليم ، فليست هناك اية خريطة



فرحة قصيرة

قطعت السيدة ٣٠٠٠ كيلو متر لكى ترى ابنها الوحيد وهو يحصل على شارة (الاجنحة) بمناسبة تخرجه كطيار ، ثم تزوج بعد ذلك

وقالت السيدة فيما بعد : « لقد كان شيئا رائعا ، فالام لاترى كل يوم ابنها وهو يتلقى اجنحة فى الصباح ، ثم (تقصقص) فى المساء

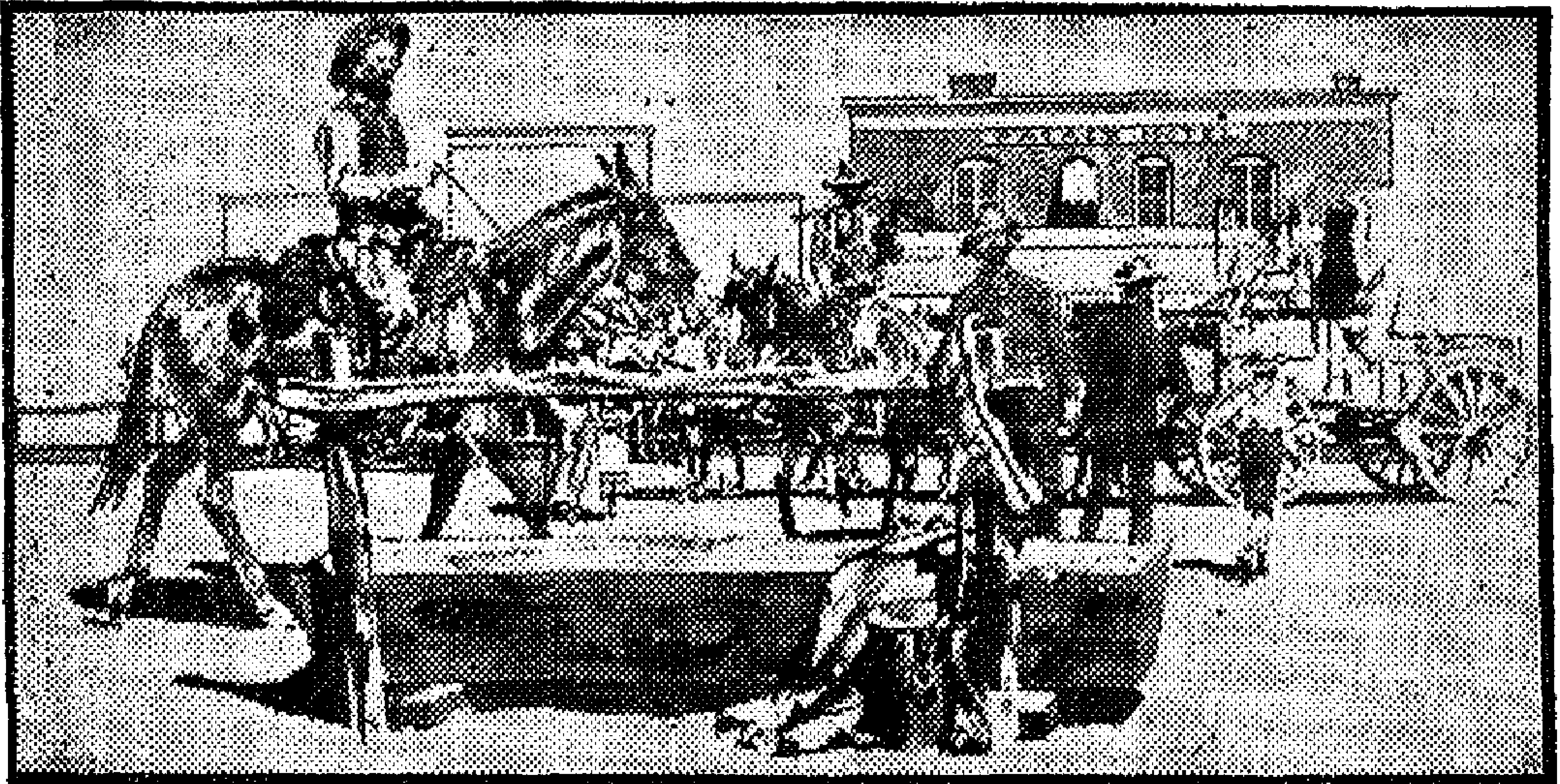


سلسلة واحدة

يقول نجم السينما بوب هوب ان عدد افلام رعاة البقر التى يعرضها التليفزيون الان قد زاد الى حد انك تستطيع ان تنتقل من قناة الى اخرى دون ان يؤثر ذلك على مجـرى احداث الفيلم !

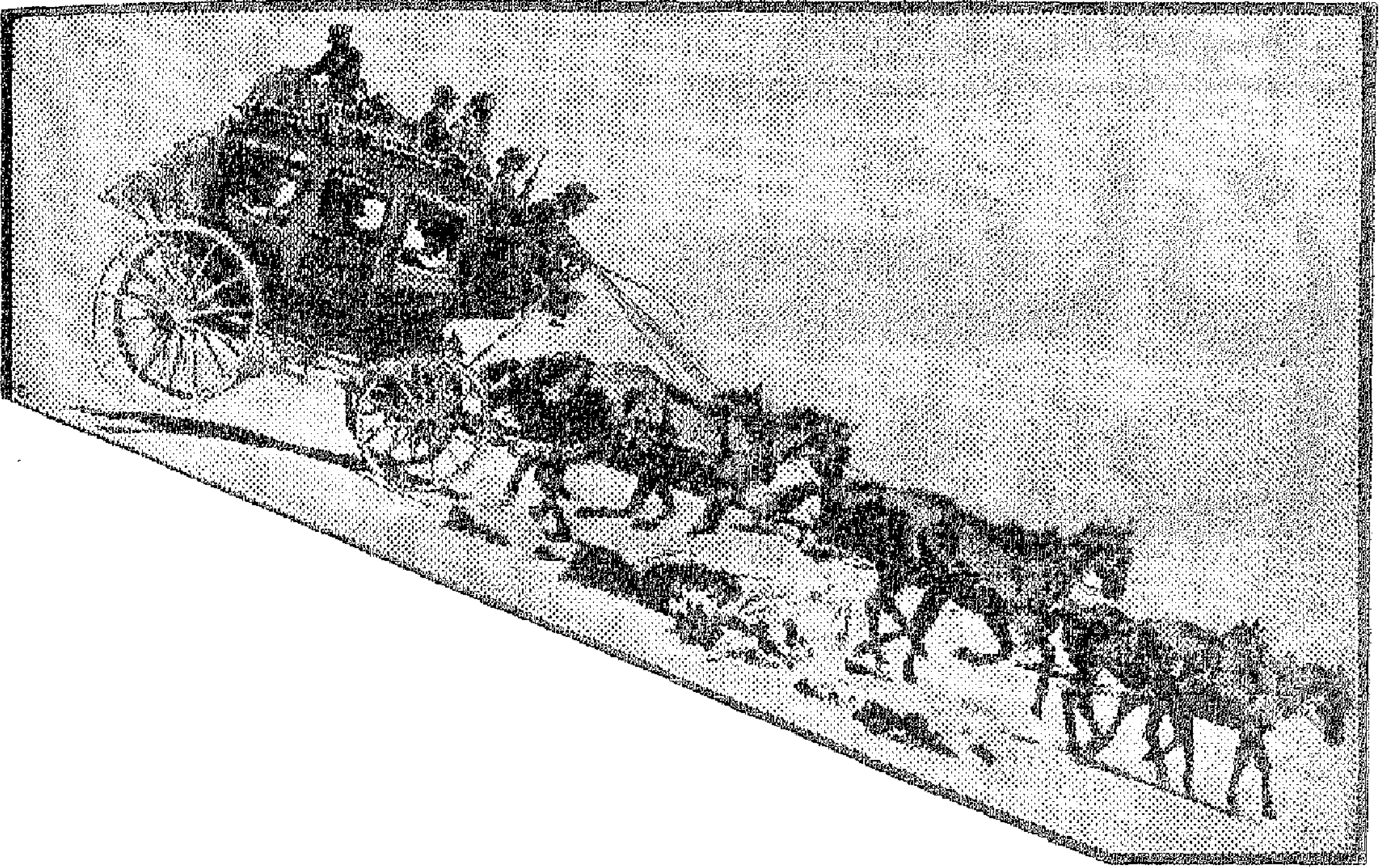
كتاب الشهر

لا مكان لسيدة هنا



عن كتـــاب No Place For A Lady

بقلم مابل باربى لى



كان كريبـــل كريك من اكبر معسكرات البحث عن الـــذهب فى قفـــار الغرب همجية وكآبة . . وكان لدى (مابل باربى لى) افضل الاســباب التى تدعوها الى تذكره ، فقد كان ابوها باحثا عن الذهب ، وهناك نشأت وترعرعت . . وقد نال كتابها الذى يفيض حيــوية استحسانا حماسيا من النقاد .

لا مكان لسيدة هنا

كتب ابى من معسكر التعـــدين الذى افتتـــح حـــديثا فى « كريبل كريك » بولاية كولورادو يقول : « ان الاحوال هنا مروعة » .. كان ذلك فى خريف ١٨٩٢ ، وقــد اكتشف الذهب هنـــاك فى الخريف والصيف السابقين ، وتدفق الباحثون عن الذهب ، ذوو الخبرة فى العمــل تحت الارض ، والهواة الذين لم يسبق لهم هذه التجربة .. كان الطعـــام والمأوى غاليين نادرين ، وقال ابى : « فى كل ليلة يشاهد الرجال نائمين على موائد البلياردو ، وارض الحانات والمقاهى » ثم قال لامى فى تأكيــد : « سوف ابعث فى طلبك حالما استطيع ، اما فى الوقت الحالى فان هذه الحفرة التى نبذها الله ليست بالمكان الذى يصلح لك انت ومابس »

وقرأت امى الرسالة التى طــال انتظارها لها دون ان تفتح شفتيها .. وكان ابى عندما ذهب الى « كريبل كريك » قد دبر لنا البقاء مع اخيــه « جراهام باربى » فى كانساس سيتى ريثما يتمكن من العثور لنا على مكان على مقربة من الارض التى وضع يده عليها للتنقيب فيها عن الذهب ..

وقد رحب بنا عمى بحرارة فى بداية الامر ، ولكن وجود امراة اخرى وطفلة فى الثامنة من عمرها امر لا ينـــاسب كل بيت بسهولة ..

وراحت الاسابيع تمر دون ان تصل كلمة من ابى ، ومع ان العم جراهام قد ظل وديا حيالنا ، فان زوجتــه ايللا بدأت توجه الينا اسئلة تزداد حدة عن خططنا ..

وقالت بعد وصــول الرســالة : « الم يذكر شـــيئا عن العثور على منزل ؟ »

كانت الاسرة كلها قد تجمعت حولنا لتسمع انباء عن ابى بينما كانت امى تطالع رسالتـــه .. واجابت امى : « كلا .. » ثم ظهرت على وجنتيها بقعتان حمراوان ملتهبتان ، واضافت قائلة لزوجة عمى :

— ولكن لا يساورك القلق ، فنحن ذاهبتان اليه مهما قال .. انى قررت ان اتولى الامر بنفسى .

واندفعت خارجة من الغرفة ... وصعدت الى الطابق العلوى وراسها مرفوع الى اعلى .. وعندما لحقت بها فى غرفة نومنا راحت تحــدثنى وكانى فتاة كبيرة ، وقالت : « ليس

لجونس الحق فى أن يرهننا هكذاعند أقاربه .. لقد استهلكنا الترحيب بنا وانا أكره البقاء هنا فلم أعدأحتمل أكثر من ذلك » .

واخرجت حقائبنا فى تحد ، وبدأت تحزم حاجاتنا ، وفى الصباح ابرقت الى أبى تخبره بقدومنا الى كريبل كريك سواء رضى أو لم يرض .

زلة واحدة و ..

كانت الرحلة شاقة ... يومان بالقطار ، ثم قطعنا الخمسين كيلومترا الاخيرة فى عربة السفر التى تجرها الجياد . وكان مخزن انتظار العربة مزدحما بالرجال ذوى الذقون غير الحليقة والمظهر الخشن من الباحثين عن الذهب ، وكانت أمى — المرأة الوحيدة فى المكان — تجتذب نظرات فضول واعجاب منهم ، فعلى الرغم من الرحلة الطويلة المرهقة ظلت تبدو جميلة غضة الاهاب ، بسترتها الرشيقة من الكشمير وقبعتها ذات الريش التى تتفق معها ، وهو مشهد يكفل تناقضا عجيبا مع الثياب الخشنة والاحذية الطويلة الثقيلة التى يرتديها الرجال .. وكنت أنا الاخرى أحس بأناقة بالغة فى معطفى الاحمر الجديد وقبعتى التى صنعت أطرافها من الفراء ..

وعندما أقبلت عربة السفر الكبيرة حدث تدافع همجى للركوب فيها ، وقبل ان نتمكن أنا وامى من جمع حقائبنا كانت قد امتلأت ، واستبد بنا القنوط ، الى أن جاء السائق ورآنا نقف وحيدتين فسأل أمى :

— كنت تريدين الذهاب الى كريبل كريك يا سيدتى ؟

وعندما اجابت أمى بالايجاب ، جذب بيده رجلين من رجال المناجم الملتحين وطلب منهما أن يوسعا لنا مكانا .. وقال للرجال الذين ارتفعت زمجرتهم :

— يعلم الله أن المعسكر المجنون الكريه الرائحة فى حاجة الى سيدات محترمات أكثر مما يحتاج الى كثير من النصابين والمشاغبين والغشاشين ، وهواة البحث عن الذهب .. أما أنتما أيها الوحشان فيمكنكما الركوب فوق العربة معى .

وبعد أن اطمأن السائق الى جلوسنا فى راحة ، أغلق الباب وصعد الى مقعده ، وطرقع بسوطه الطويل ولعن جياده التى انطلقت بشحنتها الثقيلة .. وكانت العربة تحمل فى داخلها ستة من الركاب ومثلهم فوقها ومع ذلك راحت الجياد تركض بسرعة ، وكأنما تحاول الفرار ، حتى اختفت وراء غبارنا ..

كان الجو فى باكورة المساء دافئا بالنسبة لمنتصف أكتوبر ، ولكننا ما كدنا نصل الى سفوح التلال حتى هبت رياح شديدة البرودة وازدادت الظلال عمقا فى الغسق ، ورحنا نصعد بسرعة ، بينما قبعت أنا فى أحد الاركان محاولة الا أنظر من النافذة الى يسارى ، ولكننى كنت أدير رأسى مرة بعد اخرى مفتونة رغم ارادتى بما يكمن تحتنا من الرعب ، فقد كنا ننطلق بسرعة على طول طريق ضيق اقتطع من جانب الجبل ، وعلى مسافة سنتيمترات قليلة من العجلات المسرعة تختفى الارض لتسقط رأسا فى ممر ضيق عمقه حوالى ٣٠٠ متر

وقال رجل يجلس أمامنا : « يقولون أن هناك منحنى زفيما جدا أمامنا ، يفكون عنده الخيول لكى تدور حوله بسلام ... زلة واحدة و .... » ..

ثم هز رأسه واخذ رشفة من زجاجة ويسكى صغيرة فى جيبه ..

وقال رجل آخر :

ــ يقال أن الفرامل تعطلت فى احدى العربات منذ شهرين ، فسقطت العربة كلها فى الممر ..

وقال ثالث :

ــ هناك قطاع طرق ايضا فى هذه الجبال ..

وسرت الرعدة فى بدنى حتى استغرقت فى النوم بفضل مغناطيس العجلات المدوى ، ولم احس بشىء الى أن هزتنى أمى لاستيقظ عندما بلغنا منزلا فى منتصف الطريق لتغيير الجياد . وقالت لى أمى :

ــ هيا لنشرب قدحا من القهوة ..

كانت الدار عبارة عن كوخ كبير مغطى بأوراق القار أقيم على جانب من الطريق وقد ازدحم بالناس الذين يركبون عربات السفر العامة اويقودون عرباتهم الخاصة ، وارتفعت فى ارجائه رائحة التبغ الثقيلة ، والخمر والثياب التى تفوح عرقا .. واتجه اكثر الزبائن نحو البار ، بينما وجدت امى مائدة فى أحد الاركان ، وهناك كان رجل ضخم احمر الوجه يجلس الى جوارنا قدم لنا نفسه قائلا انه يدعى أوسكار بيرنسايد ، وأنه يعمل فى كريبل كريك ..

وسألته أمى :

ــ اتعرف زوجى جونسون باربى ؟

فأجاب :

ــ ان كل من فى المنطقة يعرفونه .. انه رجل رقيق وانا اعتبره صديقى وأفضل زبائنى ..

وبدا السرور على أمى لسماع ذلك ،

ولكنها لم تلبث بعد قليل أن عـرفت أن بيرنسايد صاحب حانة !

وظلت أمي ساكتة تفكر بعد أن عدنا الى العربة ، وبدت المرحلة الاخيرة من الطريق أكثر وعورة وقد امتلأت بحفر عميقة من الطين ، وكانت الجياد تنخر من أنوفها وهي تشق طريقها خلالها ، ومع كثرة تمـايل العربة ، فقـد استغرقت مرة اخرى في النوم !

لصوص !

ان ما حدث بعد ذلك يبدو أشبه بحلم سيىء ... لقد تنبهت أولا الى فوضى في الاصوات وصهيل الخيول في عصبية ، ثم احسست بأمي تهز ذراعي وتحاول اخراجي من العربة ثم همست تقول :

ـ هدئي روعك وامسكي بي فقط .. هناك لصوص !

وتعلقت بثوبها خوفا على حياتي ونحن نتحرك في ضوء المصباح ... كان هناك لصان مقنعان وضعا مناديلين على وجهيهما فاختفت كل ملامحهما عدا العيون ، وقد أوقفـا الركاب جميعا في صف واحد ، ومع أنهما حدثا أمي في أدب فانهما أوقفانا مع الآخرين في الصف .. وكان أحدهما يصوب مسدسه الى الضحايا بينما يقوم الآخر بتفتيشهم بحثا عما معهم من نقود أو حلى ، والصوت الوحيد المسموع هو رنين الذهب والفضـة أثناء القائهما في الكيس .

كنت احمـل معي دولارا فضيا أعطاني اياه عمي جراهام قبل رحيلنا عن كانساس سيتي ، ولما كان هـذا أكبر مبلغ ملكتـه في حياتي ، فقد امسكت به طوال الرحلة .. وعنـدما اقترب مني اللصـان زادت قبضتي احكاما حول الدولار ورحت افكر في خوف في مكان اكثر امنـا لاخفائه ، وفجـأة خطر ببالي خاطر مفاجيء ، فزعمت انني احك انفي بيـدى ، ودسست الدولار في فمي .

واحسست يدا ثقـيلة على كتفي وصوتا فظا يقول :

ـ قفي هنـاك في الصف .. ان هذا المسدس مصوب اليك ايضا ..

واخرج اللص الذى كان يجمـع الغنائم مسدسه هو الآخر لكي يثبت لي أنه يعني مايقـول .. وتوقفت انفـاسي وتساقط اللعاب من زوايا شفتي ، وقالت امي متوسلة :

ـ أرجوك ياسيدى .. اتركها ولا تخيفها الى حد الموت .

وزمجر اللص في وجهها لحظة ، ثم انحنى نحوى وغمز بعينه .. وقال :

« أليس من المدهش أن تحاول هذه الطفلة ذات الوجه الذى انعدم فيه الحياء خداعنا ؟ .. »

وقال الآخر فى رزانة وهو يحنى راسه : اظن انه ينبغى أن نلقنها درسا بمثابة انذار لها .

وبدا الموقف مضحكا جدا .. واشار اللصان الى بقية الركاب ليأتوا ويروا ... وراحوا هم أيضا يضحكون بل ان امى نفسها حاولت ان تكتم ابتسامتها ، وادركت فجأة انهم يضحكون على منظر الدلاور الذى كان يبدو فى فمى بجلاء .. واختلطت دموع الخجل والفزع باللعاب الذى يسيل على ذقنى ، وعندئذ مد أحد اللصين يده وربت بها على رأسى ، دون ان يقول كلمة ، ثم أخرج دولارا آخر من كيسهما الممتلىء بالغنائم ووضعه فوق الدولار الموجود فى فمى الفاغر ... ثم قال :

ـ لاتحاولى خداعنا فى المرة القادمة ياذات الانف الافطس ..

وعندما اختفى اللصان عن الانظار ، بدأ الركاب يقارنون خسائرهم ويتباهون بمهارتهم فى اخفاء اكياس نقودهم ، ولكن الجميع اتفقوا على انني كنت اسعدهم حظا .. وقال السائق :

ـ اراهن ان هذه هى اول مرة يضاعف فيها اى شخص راسماله قبل ان يضع قدمه فى معسكر البحث عن الذهب .

وكان الوقت قد قرب من منتصف الليل عندما هبطنا آخر منحدر جبلى وعبرنا الحاجز القارى حيث بدت امامنا أضواء كريبل كريك وهى تتألق من تحتنا .. وتوقف السائق ليتيح للخيل ان تسترد انفاسها بعد صعودها الطويل .. ثم ضربها بالسوط برشاقة ، فانطلقت هابطة الى البلدة فى عجلة حتى توقفت اخيرا امام فندق « كونتيننتال » بصوت عال ، وهناك كان جمهور كبير يقف فى استقبالنا وارتفعت الصيحات والهتافات :

« مرحى ياضحايا الآمال الزائفة ! »

ودوت اصوات طلقات المسدسات بكثرة .. وكانت تلك تقدمة مناسبة لمعسكر الذهب الصاخب الملتهب الذى قدر له ان يكون مستقرا لى طوال سنوات نشأتى .

خيمة ذات ملحق !

فيما عدا الجلبة والضجيج والعربدة لم تؤثر كريبل كريك كثيرا فى نفسى تلك الليلة .. كان ابى ينتظرنا وسط الحشد ، وكان جسمه الفارع الطول وشعره الاشقر بارزا

بينهم ، وقد صحبنا على الفور الى فندق صغير ، وسرعان مااستغرقت هناك فى نوم عميق ..

وفى الصباح التالى القينا أول نظرة جلية على المعسكر .. كانت قذارته تكاد تماثل حيويته الدافقة ، وقد أقيم المعسكر فى فوهة بركان خامد على ارتفاع ٣٠٠٠ متر مما يجعل الهواء هناك بهيجا رغم صعوبة التنفس ، وكانت هناك بعض ارصفة صنعت من ألواح خشبية ، ومجموعتان أو ثلاث من مبانى الاعمال ذات الواجهات العالية المهتزة ، ووراء هذه المنطقة التى تعج بحركة المزود فى الصباح الباكر تمتد الخيام والاكواخ التى صنعت من ورق القار ، وبين مسافة واخرى كوخ خشبى انيق .. لقد كانت كريبل كريك تزدهر حقا ، وكانت تباهى فعلا بمصابيحها ذات الاقواس ، وتعدادها الذى ارتفع منذ الصيف من ٦٠٠ الى الفين .

وقد وجد أبى لنا مكانا نعيش فيه عبارة عن خيمة قذرة مليئة بالرقع ذات ملحق صغير ، وقال وهو يدافع عنها : « لقد كنت سعيد الحظ اذ وجدتها » والواقع انه لم يتلق برقية أمى الا فى الصباح السابق . وكان المستأجرون السابقون قد رحلوا عنها قبل وصولنا مباشرة ، فقد كان الرماد لايزال يتوهج فى موقد الفحم ، وهناك بعض علب اللبن المركز الفارغة واطباق لم تغسل بعد على المائدة ، وحشية فراش مليئة بالنتوءات تتهدل فوق فراش خشبى عتيق فى أحد الاركان ، وأخرى رفيعة فوق سرير صغير فى الجزء الملحق بالخيمة والذى تقرر ان يكون « غرفتى »

لقد كان لنا بيت جميل له سور أبيض فى القرية الصغيرة التى كنا نعيش فيها بولاية يوتاه ، وقد عارضت امى فى تركنا اياه ، ولكن منجم الفضة الذى كان أبى يعمل فيه هناك نضب معينه فى النهاية ، فقال لامى فى حزم ان الشخص الذى يشتغل بالتعدين يجب أن يذهب حيث توجد المناجم .

وشرعت أمى ــ كزوجة رجل مناجم حقيقى ــ تنظف وترتب منزلنا الجديد .. فقامت بتهوية أغطية الفراش ، ونظفت الموقد وصقلته ، ودعكت ألواح الارضية بماء ساخن ، وكنت أنا وأبى نحمل لها ماء الغسيل من بئر المنطقة اما ماء الشرب فكنا نشتريه من عربات الماء بسعر خمسة سنتات للدلو الواحد . ولم يكن هناك مجال كبير للاختيار فى الاطعمة

التى تباع بمتجر البقالة ، ولكن امى كانت قادرة على ان تصـــنع من الاشياء البســيطة شيئا طيب المذاق وعند العشـــاء كانت الرائحة التى تنبعث فى الخيـمة من اناء القهوة والكعك الساخن واللحم المحمر مثيرة للشهية .

وقال أبى وهو يمد يده ليربت على يد أمى : « لقـد جعلت هذا المكان اشـبه حقا بالمنزل .. اننى سعيد لانكأصررت على الحضور أنتومابس الى المعسكر » .

وبدلا من انتوبخه امى كما هددت فى كانساس سيتى ، ابتسمت واحمر وجهها فى سعادة وتألقت عيناها .

منجـم مايو الصغير

بعـــد ظهر احد الايام ، صحبنى أبى الى الارض التى وضع يده عليها للتنقيب فيها وكانت تقع على مسافة بعيدة وقد سرنا خلالها عبر المعسكر ثم صـعدنا (تل بيكون) الذى يقع على الجـــانب الآخر ، وقد ظل أبى يواصـــل تعليقاته التى تضفى سحرا على كل لحظـة ، كعادته عندما نكون معا . وكان يبـــدو انه يعرف كل شخص التقينا به ..

لقد حيا رجلا قصيرا سمينا كئيب المنظر وقال له :

ـ مرحى يابيت .. كيف حـال ويلى ؟ .

فابتســـم الرجل بسمة مشرقة وأجاب على الفور بأنه على ما يرام ..

وعندما ابتعدنا عنهقال أبى «هذا هو بيت جينودسكى وهو يعمل فى رفع الانقاض بمنجم « التفاحة الذهبية » وقد حدث أمس انهيار فيه واصيب زميله ويلى »

وتوقف أبى امام مدخـــل منجم ينهمـك الرجال بالعمل فيه وقال : « هـذه ارض مايك كافانو الذى قد يصيبثروةضخمة . لقد دلالفحص الذى أجرى على عينات الذهبالتى اكتشفها فى الاسبوع الماضى على انه يساوى ٢٠٠ دولار للطن »

وعندما وصلنا فىالنهاية اشار أبى الى حفرة واسعة الفوهة اقيم فوقها مثلث من الكتل الخشبية وقال :

ـ هذا هو «مايو الصغير » الذى قد يسـفر عن حظ سعيد يرسلك الى الجامعة »

وحدقت الى الفوهة التى فغرت فاها واحسست بتـأثر بالغ بينما ســـألنى أبى : « اتودين الهبوط اليه ؟ » .

وازدردت ريقى وترددت برهة ثم حنيت راسى فى ارتياب .. كانت تلك

اول مرة اسمع فيها مثل هذا العرض .. وعندئذ قال :

ـ حسنا .. هيا بنا .

ورفعني واجلسني فى دلو معدني كبير ثم راح يدير يد الرافعة ، ودق قلبي بشدة وانا اتمايل الى اسفل وسط الظلام وراح الضوء المربع من فوقي يزداد صغرا .. وزكمت انفي رائحة الرطوبة الحادة وكأنها رائحة عش الغراب .. وعلى مسافة بعيدة من تحتي سمعت صوت الحصى المتساقط فى بركة من ماء الصرف تجمعت من الجليد فوق قمة بايك التي تقع الى الشمال مباشرة .. كانت بئر المنجم مدعمة بكتل خشبية ، وتخترقها على مسافات متساوية انفاق جانبية أو ممرات حيث اقتفى أبي عروق المعدن التي يتوسم فيها الامل .. وقد فعل كل هذا العمل الذي يحطم الظهور بمفرده لانه لم يكن يملك مالا يستأجر به من يساعده .. وفجاة توقف الدلو امام نفق ، وسمعت صوت أبي ينادي من أعلى :

ـ اخرجي من هنا وسأهبط لاريك شيئا ..

ونزلت من الدلو المهتز ، وسرت فوق المنصة الخشبية ، ثم راقبت أبي وهو يهبط فوق مجموعة من السلالم الخشبية التي صنعها بيده لكي يلحق بي .. ثم اشار لى ان اتبعه داخل النفق الذي كانت تنيره شمعة مهتزة فوق القبعة المعدنية التي يضعها على رأسه .

وبدأت اسعل فقد كان الهواء كثيفا لاسعا بسبب الديناميت المحترق الذي نسف به أبي النفق حديثا ، ولكن أبي اندفع الى الامام لا يتوقف الا لكي يضيء الشموع التي وضعت فوق علاقات غرست فى الحائط : وقال لى أبي ان الشموع تستخدم كذلك كتحذير من الخطر الى جانب الاضاءة اذ لو انطفأت شمعة فجاة فان معنى ذلك هو ان الغاز القاتل يتجمع فى النفق .

واخيرا خرجنا الى غرفة صغيرة تكاد تكفي لوقوف أبي منتصبا .. ثم صاح فى لهفة انتصار :

« انظري » .. ولم استطع لاول وهلة ان ارى غير صخر اسود متساقط ، ولكنه عندما امسك شمعة قرب الحائط ، استطعت ان ارى اخيرا خطوطا قليلة من معدن رمادي اللون .

وسألته فى خيبة أمل :

ـ أهذا ذهب ؟ .. كنت اظن انه اصفر اللون ؟

فضحك ابى وقال :

ـ انه ليس فى الصخر الصلب يامابس ... ولكنه من فوق فى اعماق الخام وهو يبدو دائما كئيبا الى أن يسخن ويصهر وعندئذ يصبح لونه أصفر .

وفحصت الجدار بمزيد من الاحترام ثم سألته :

ـ أهذا هو حظنا السعيد ؟ أنحن أغنياء ؟ .

فهز ابى كتفيه وقال :

ـ لسنا أغنياء تماما .. ولكن قد يكون لدينا عرق جيد جدا .

وكان أبى قد أخذ فى اليوم السابق بعض العينات الى الموظف الذى يقوم بالفحص والتحليل . وما كدنا نخرج من المنجم حتى هرعنا الى مكتبه لكى نأخذ التقرير .. وكان هذا المكتب من أكثر الاماكن ازدحاما فى كريبل كريك واكثرها اهمية ، فهنا يعرف الانسان ما اذا كان هناك ذهب فى الخام الذى اكتشفه أم لا وما مقداره ، وكان هناك ستة رجال قبلنا فى المبنى الخشبى الكئيب ، وقد ساد الصمت وتكهرب الجو وهم يأخذون التقارير الخاصة بهم ، أو يدفعون اكياسا صغيرة من القماش الخشن مليئة بالخام فوق المكتب المرتفع ليقوم الموظف المختص بطحنها وفصل مافيها من ذهب بالمواد الكيميائية ، ثم يصهره فى سبائك صغيرة يزنها . .

وهمس أبى قائلا لى :

ـ هناك ميزان فى الغرفة الخلفية يبلغ من دقته انه يزن العلامة التى يتركها القلم الرصاص فوق ورقة .

وانتظرت بأعصاب متوترة حتى خرج رجل من الغرفة الخلفية ونادى أبى على انفراد ، ثم تحدث معه فى لهجة منخفضة وسلمه قطعة من الورق ، فقطب حاجبيه وهو يدرسها ، واسرعت اليه قائلة :

ـ هل أصبنا حظا سعيدا ؟

فأجاب ببطء :

ـ كلا يامابس .

ثم التفت نحوى وقال :

ـ ان خامنا من رتبة منخفضة ، ولكن هونى عليك ، فسوف يصيبنا الحظ السعيد يوما ما .

تعليم على اسلوب معسكر الذهب !

فى أواخر ذلك الخريف فتحت فى كريبل كريك مدرسة صغيرة ، كانت الفصول تعقد فى كوخ خشبى ذى غرفة واحدة ، وعندما التحقت هناك لاول مرة ، لم يكن هناك غير ١٤ تلميذا ، ولكن الحضور مالبث ان ازداد بسرعة، حتى اضطررنا للانتقال

الى الطابق الثـــانى من مبنى مقام بألواح حديدية فى شارع مايرز ، وهى منطقة بدأت تتحول الى حى للبغاء .

وكانت أمى تبـــدو سقيمة خلال شهور الربيع وكثيرا ماكانت تبقى فى الفراش اياما فى كل مرة وتبـــين انها كانت على وشك ان ترزق طفلا آخر، ووفقا للتقاليد السائدة يومئذ ، اخفى عنى ذلك النبـأ بعناية ، ولكن عندما اقترب موعد الوضع ، سمعتها تطلب من ابى ارســـالى بعيدا فترة من الوقت .

وولد أخى بيلى فى ذلك الصـيف ـ بينما اقمت انا لدى سيدة فى احدى المزارع خلال ذلك الحدث ـ وقد زاد حضوره صعوبة الحيــاة فى الخيمة ، وعندما عثر ابى على جيب صغير من خام الذهب ، استطاع ان يبيع منجم «مايو الصــغير» بألف دولار نقدا وانتقلنا الى بيت ذى أربع غـرف فى شارع « وست جولدن » وكان هذا الشارع الشــديد الانحدار يخترق السفوح السفلى لتل «منيرال هيل» وهو جبل ضخـم ، ولم تكن العربات أو دواب الجر لتجرؤ على السير فى طريق وست جولدن الجبلى الخطر الذى نعيش فيه ، وازداد عدد سكان المعسكر الآن حتى بلغ عشرة آلاف نسـمة، واصبح الذهب يتدفق من ١٥٠ منجمـــا كانت مداخلهـــا الكريهة ومداخنهـــا ومخلفاتها تكشف عن الثروات التى اكتسبها البعض فجأة وقد أصاب الحظ كثيرا من الهواة حتى لقد اطلق على كريبـــل كريك اسم « معسكر الغشيم » وفى حانة بيرنســايد التى كان أبى لايزال يكثر من التردد عليهـا ، سمع كثيرا من القصص المثيرة للدهشــة .. وقد حدثنا ذات مســاء على العشاء عن اثنين من الصيـــادلة كانا لايعرفان شيئـــا عن التنقيب ولا يدريان اين يحفران فى ارضهما ، وقد حلا المشكلة بالقاء قبعــة فى الهواء ، ثم حفرا بئر المنجم حيث سقطت فكشفا عن عرق غنى من المعدن يســاوى الطن منه ٦٠٠ دولار ، واصـــبح لديهما الآن ثروة ضخمة تقدر بالملايين !

وهناك شقيقان آخران هما سام وجورج البقالان فى بلدة مجــاورة ، كانت لديهما فاتورة لم تحصل بمبلغ ٣٦ دولارا ، وســـمعا ان الزبون المــاطل فى الدفع انضم الى الركب الـــزاحف للبحث عن الذهب فى كريبل كريك فتابعاه الى هناك وطالباه بالسداد ، فعرض عليهما نصف حقه فى منطقــة تنقيب لاتبشر بالامل فى

« اريكوجالشي » تسمى (الكتون) ، وقبل الشقيقان برنارد العرض المبهم في تردد ثم شرعا في الحفر ، وكم كانت دهشتهما بالغة عندما كشفا منجما كبيرا للذهب .. وبعد سنوات قلائل أصبحا من اصحاب الملايين !

المليونير الاول

في عام ١٨٩٣ فازت كريبل كريك باول مليونير ، ولم يكن « غشيما » بل كان من رجال التعدين المحنكين ، وهو صديق لابي يسمى « ونفيلد ستراتون » ولولا حسن حظه لضاع منه هذا الطالع السعيد .. ففي ذلك الصيف قبل عرضا لشراء حقه في منجمه الذي اطلق عليه اسم « منجم اندبندانس » بعد أن أصابه القنوط بسبب الكميات الضئيلة التي عثر عليها ، وكان راغب الشراء الذي احتفظ لنفسه بحق الخيار لمدة ٣٠ يوما مقامرا من سان فرنسيسكو يسمى «بيرلمان » ، واذا قبل الشراء بعد هذه الفترة دفع ١٥٠ الف دولار. وبينما كان ستراتون ينقل أدوات التعدين من ممر مجهول ، اذ اكتشف فجأة عرقا غنيا بالذهب ، ودل فحص عيناته على أن الطن منه يساوي ٤٠٠ دولار ، وخشي ان يعرف بيرلمان الامر فيصر على الشراء ، فأخفى العرق وراء الصخور ..

وبينما كان رجال بيرلمان يعملون في المنجم كان العرق يتصبب بغزارة على جبين « ستراتون » الذي يدعو الله الا يكتشفوا كنزه .

وعندما انتقلت مهلة الخيار ، قال بيرلمان انه لن يشتري المنجم لانه لم يعثر فيه على شيء ..

وابتلع ستراتون ريقه في ارتياح ، وعاد اليه حظه الحسن ، فقد تبين ان منجمه من اغنى مناجم كريبل كريك .. وفي ديسمبر كان قد انتج من الذهب مايكفي لحصوله على اول مليون دولار ، ثم أصبح بعد ذلك اغنى واشهر ملوك الذهب في كريبل كريك .

وكان ابي يستخدم في اعمال التنقيب « عصا التكهنات » ومع ان قلائل من المعدنين كانوا يعتقدون انه سيجد الكثير في منطقته ، فقد ظل ابي مخلصا لتل « بيكون هيل » ، وراح ستراتون يحثه على التنقيب في منطقتي «راقين هيل» أو«بول كليف» التي تبعد الى الشرق قائلا له انه اذا كان موظفان في صيدلية استطاعا العثور على عرق من الذهب بالقاء قبعة في الهواء ، فانه وعصاه ذات الشعب كفيلان بالكشف عن مصدر

ثروة لاينضب ..

ولكن ابى لم يستمع الى النصيحة، فقد كان عنيدا .. وقال لامى : « فى يوم ما سوف اجعل كل من يدعى العلم فى هذا المعسكر ينكر كلماته ».

وكان ابى يؤمن ولا شك فى عصاه كوسيلة لاكتشاف الذهب ، وبعد ظهر احد الايام بينما كنت اقطف الزهور فى الخارج ، نادانى ابى فى تأثر وقال :

ـ تعالى يامابس .. تعالى بسرعة ..

وقفزت على قدمى وهرعت لارى هل قتل حية ذات اجراس .. كان يسير فوق مرتفع صغير من الارض وهو يحمل عصا التكهن فى يده ، ويهتز اثناء سيره بطريقة مؤثرة ..

وقال ابى :

ـ انظرى الى العصا .. انها تكاد تلتوى بين يدى .. اننى واثق ان الذهب كان تحت هذا المكان .

ونظرت اليه فى شك وقلت :

ـ دعنى اجربها بنفسى .

واعطانى العصا ، وشرح لى كيفية استخدامها .. ولكن لم يحدث شىء، بل ظلت العصا ساكنة فى يدى . .

وقال ابى :

ـ ان جسمك ليست فيه كهرباء كافية .

واخذ العصا وشرع يسير فوق الارض مرة أخرى ثم قال لى :

ـ انظرى الى .. كلما امسكتها بقوة زادت مقاومتها لى . هاهى تسير .. اننى لااستطيع ان اظل ممسكا بها . .

وارتعشت العصا السحرية لحظة، ثم انحنت الى أسفل بسرعة .. وسألته فى حيرة :

ـ ما الذى يجذبها نحو الارض ؟

فقال فى أسلوب الخبراء :

ـ انها قوة المغناطيسية .. انها تتدفق من جسمى الى العصا ، فتسحبها المادة الصفراء التى تغفى فى الارض كحورية البحر .

وجمع أدواته استعدادا للعودة الى البيت ثم قال لى :

ـ عاجلا أو آجلا سوف اكشف عن واحد من اغنى مناجم المنطقة على مسافة حوالى ١٢٠ مترا تحت البقعة التى تقفين فوقها الآن تماما .. فاذكرى كلماتى هذه ..

أب جدير بالفخر

كان ادمان ابى على الشراب والمقامرة مع تلك الحثالة من الناس فى حانة بيرنسايد محنة دائمة لامى ، وقد احست بالفضيحة عندما التقت به فى البلدة يوما وهو يحمل اخى الصغير

بين ذراعيه ويبتسم فى بلاهة .. لقد قدمه لزملائه فى احتســـاء الخمر ، وكانت جيوب بيلى تطن بما فيها من عملات ذهبية وفضية ..

وقال فى فخر :

ـ لقد هزم الصبى كثيرين فى لعب الورق .

فقالت امى مؤنبة اياه :

ـ الم اطلب اليــك الا تأخذه الى الحان ؟ .. سوف يذهب الى هناك سريعا دون مساعدتك !

ولكن امى ازدادت قلة اكتــراثها وشرود ذهنها وهى توجه اللوم الى أبى ، واحسست ان هنـــاك شيئا يزعجها اخطر كثيرا من مجرد شرب أبى .. ففى خلال العام الماضى أصيب أبى بسعال جاف مستمر عزته امى الى التهـــاب فى الشعب الهوائية ، ولكنه رفض فى عناد ان يذهب لرؤية الدكتـــور هويتنج .. وفى احدى امسيات فبراير أصيب ابى بانهيــار وهو عائد الى البيت ، وقد وجدته وهو يسقط بقوة مستندا الى سقيفة خشبية وقد فغر فاه يحاول التنفس بصـــعوبة .. كان وجهه شاحبا وامسكت بذراعه محـاولة مساعدته على السير فقال لى « اننى الآن بخير » ثم دفعنى جانبـــا وسار يبط وقد شبـــك يديه وراء ظهره وعيناه الى الارض .

وهرعت امى تهـــبط الدرجات لمقابلته وقالت فى قلق :

ـ لماذا اسرعت فى صعود التل ؟. انه يجعلك دائما تصاب بنوبة سعال ؟

ولكنه دخل المنزل دون ان يتكلم .

وكانت جارتنا مولى ليتسى تنشر غسيلها ، فاقتربت من السور وقالت :

ـ لو كان زوجى لجننت من القلق . لماذا لاتجعلينه يزور الدكتور هويتنج ؟ اراهن انه مصاب بسل عمال المناجم .

فقالت امى فى غضب :

ـ لاتقولى ذلك .. ليس من حقك ان تقولى ذلك .

فقد كان من الشائن ان يكون اى شخص مصابا بمرض فى الرئة ـ كما كانوا يسمون السل يومئذ ـ وكانت الأسر تبقى ذلك سرا حتى الوفاة .. ولهذا أصرت امى على ان أبى مصاب ببرد شديد فقط

ورقد أبى فى غرفة النوم ، وبسطت امى الغطاء فوقــه ، وجلست امام مائدة المطبخ لتقشـــير بعض التفاح وفجــأة دفعت الاناء جانبا ، ودفنت وجهها فى ثوبها .. لم تحدث أى صوت ، ولكننى ادركت انها كانت تبكى !

وكانت مولى ليتسى هى التى ارسلت

فى طلب الدكتـور هويتنج ، وعندما جاء زعم لابى آنه انما جاء ليسـأله رأيه فى منجم كان يفكر فى شرائه ، وظل فترة طويلةيتحدثاليه ويفحص صدره ثم اعطاه بعض الدواء وحذره بوجوب البقاء فى الفراش عدة أيام ، وبعد ان انصرف ، قال أبى وهو شبه نائم :

ــ هذا مضحك ... انه لم يذكر لى قط شيئا عن الموضوع الذى أراد سؤالى عنه ...

كنت أعرف دائما انه لابد ان يكون لابى كثير من الاصدقاء فى البلدة على الرغـم من قلة اشارته اليهم أما بعد ان طالت ايام مرضـه وامتدت الى اسـابيع ، ازدحم الزوار فى غرفة الجلوس ، وكان اكثـرهم ممن لم اسمع عنهم اكثر من اسمائهم الاولى: سبيك ، وسيت ، وبرت ، وجريف .. وكهل يسـمى «توم الاعمى » . وقال جيم ليتسى لامى :

ــ اعتقد انه ليس فى المعسكر من هو اكثر احتراما من زوجك جون .. فهـو لم يحنث بكلمة قط . وهو مستعد للمشاطرة بآخر لقمة عنده .. انظرى مثـلا الى توم الاعمى ، لقد كان جون يمدة بالمال من قبل ان يفقـد بصره فى حادث انفجار .. مع أننى كنت اعرف انه ليس لديه طعام كاف لك وللاولاد .

وقالت امى وهى تحاول التذكر :

ــ اننى لم اسمعه قط يتحدث عن مساعـدته لاحد .. ولكن جون هو آخر من يتحدث عن اشياء كهذه ..

وذات مرةخلالمرض أبى ، انفردت امى بى وحدثتنى عن بعض ماضى أبى .. وقالت : « يجب ان تعـدينى يا مابس انه مهمـا حدث، فانك لن تحتقريه أبدا ... انه قد لا يكون سيدا مهـذبا كبعض الرجال ولكنه من عنصر طيب ، لقـد سمعت جيم يتحدث عنه وعن احترام الجميع له لشرفه ، وتلك علامة حقيقية للاصل والتربيـة الطيبة ، واهم كثيرا من السلوك .. فلا تنسى ذلك أبدا ..

ومضت تقول : « لقد جاء ابوك من كنتكى .. كان أهله ارستقراطيين ، ولو شاء لذكر قرابته لعدد من أفضل عائلات الجنوب » .

ثم تنهدت وقالت :

ــ وددت لو آنه كان آكثر فخـرا بأسرته .. فمـن أجلك انت وبيللى يجب ألا يزعـم انه شخصية تافهة جاهلة ، ولكنه تحدى آباه ليأتى الى الغرب ، واعتقد انه لايريد ان يسمع شيئا يذكره بالماضى ، بل انهليفخرانه

ولد فى الغرب من جـــديد حيث لايسألك احد من أين أتيت .

وهو يقول انه مهمـا تكن انت أو مهما تكن عراقة أسرتك ، فان نزاهة الانسان هى الشىء المهم .

وفى ذلك اليوم احسست انني اكثر قربا الى امي .. عرفت انها ارادت مني ان اعرف وافهم ابي مثلها ، حتى لاأخجل اذا اكتشفت انه اصيب حقا بسل عمال المناجم .

وتحت رعايتهـا وبفضل الراحة الطويلة تحسنت حالة أبى ، واسترد قواه ، وفى الربيع استطاع ان يعود للعمل فى مناجمه ، ولكن الامور لم تعد قط كما كانت بالنسبة اليه . . .

أبى يفقد حظه الحسن

شاهدت السنوات القليلة التالية نموا مســتمرا فى كريبل كريك ، فاصبح فيها خطان حديديان يكفلان نقلا رخيصا ، حتى أصبح فى الامكان شحن ادنأ الخـامات مرتبة الى المصـانع بربح ، وكان الجو مليئا بالشعور بالرخاء والحيوية التى لاتخمد .. وفى ١٨٩٧ بلغ عـدد السكان ٣٢.٠٠٠ نسمة ، وفى ١٨٩٩ كان هناك ٤٧٥ منجما تشحن الذهب ، وبلغ انتاج الذهب فى العـام اكثر من ١٦ مليـون دولار ، كانت البلدة تتمتع ببعض الامتيـازات كفندق فاخر ، وحلبة للسباق ، ودار كبيرة للاوبرا ، وملاكمات للبطولة .

وكان فيها ٣٠ من اصحاب الملايين ، واصبح ستراتون ملكا عليهم جميعا عندما باع منجمه « اندبندانس » لشركة انجليزية بمبلغ عشرة ملايين دولار ، وهو ثمن لم يســمع به من قبل .

ولكن آل باربى لم يشتركوا فى هذا الرخاء الكبير ، فان الجيوب الصغيرة القليلة التى كشـفها أبى كانت بالكاد تفي بأودنا ، وكان غـيرنا من ذوى الحظوظ القليـلة المـماثلة كثيرا ما يتخلون عن مناجمهم ويبحثون عن عمل فى احد المناجم الكبيرة ، أما ابي فقد ظل كما هو لايتزحزح ، رئيسا لنفسه .

وفى عـام ١٨٩٩ اصاب ابى فى مغامرة غير عادية عندما أجر صديقا له يسمى جوشـيا ونشستر منجما يسمى « منجـم الطبيب » ، وكان فيما مضى منجما غنيا بالذهب ، ولكن عرقه نضب ، ولم يسـتطع صاحبه العثور على باقيه فتخلى عن المنجم ، اما ونشستر فقد كان على ثقة من انه سيستطيع العثور على العرق المفقود ، ولكن احـدا لم يرض ان يغامر بتمليم

واحـــد فى اقراضـه لشراء الآلات والادوات والعمال . وأخيرا عرض عـلى أبى نصـيبا جـوهريا فى المنجم اذا قام ببعض أعمال التوسيع عند المسطح الثانى عشر وقال لابى ـ اراهن انك لن تندم على ذلك ، واننا سنصبح أغنيـاء بعد فترة قصيرة .

ولكن ابى رفض قائلا انه لايستطيع ان يجد وقتا للعمل بعيدا عن منجمه المسمى « أوريزابا » حيث يتـوقع ظهور الذهب فى أى يوم .

وبعـد أسبوع عاد ابى الى المنزل مبكرا وقد بدا عليه تأثر شديد . . وقال ان ونشستر وجـد مالا يكفى لاستئجار عدد من العمال للبدء فى قطع ممرات عرضية عند المسطح الثانى عشر . . ثم قال أبى :

« لقد عثروا على عرق عريض من الذهب الخام الذى يبرق وكأنه ألف مرآة فى ضـوء الشموع ، حتى لقد اضطرت ثلاث نوبات من عمال الفرز للعمل لملاحقة الذهب المتدفق »

وارتعشت يد ابى وهو يملأ لنفسه كوبا من دلو المـاء ثم قال فى تأمل ان جو سيجمع مليونا أو اثنين فى العام الاول أو الثانى فقط . .

وهكذا أضـاع أبى حظه الحسن برفض هذا العرض .

العصا تقوم بعمل طبيب

فى صيف ١٩٠١ وانا فى السابعة عشرة من عمرى ، ازدادت صحة ابى سوءا ، وبدا أضعف من أن يستمر شتاء آخر فى كريبل كريك . وقد ظلت امى يساورها القلق باستمرار لما قد يحدث لنا اذا توفى أبى وكنت أنا قد انهيت السنة الثالثة الثانوية ، وبدأت تفكر فى وجوب زواجى . . وقد قالت لى يوما :

« سوف يستريح بالى اذا استقر بك المقام مع زوج طيب يرعاك » . ولكن أبى كانت له آمال عنيدة فى أن يرسلنى الى الجامعة .

وواصـــل أبى عمله فى منجمه بحماسة لاتخمد متجاهلا مرضه . . كان يؤمن بالخرافات بعد ان استمع كثيرا الى الاســاطير السوداء من مربيته خـلال طفولته فى كنتكى ، وكثيرا ماأعلن عن اعتقـاده بأن الجن الاشرار يعيشون فى الفجوات المظلمة تحت الارض لتعـذيب البشر الذين يعكرون صـفوهم فى مخابئهم وكان يلقى عليهم لوم حظه السيىء المستمر، وخطر له انه لو غير اســم منجمه « أوريزابا رقم ٢ » الى اسم وطنى آخر كاسم « انديندانس » الذى يملكه ستراتون فانه سيحطم نحســه ،

وبعـــــد ان فكر فى اسمى لنكولن وواشنطون ، قرر اخيرا ان يسميه « كولومبيا ». واقسم ان يكتم ذلك حتى لاتدخله العفاريت ...

وبعد يومين عاد ابى الى البيت وقد ازدادت روحه المعنوية قوة ، واعلن انه كان فى مكتب فحص الذهب وانه كشف عرقا قدر مافيـــه من الذهب بحوالى ٧٢٠ دولارا للطن .

ولم تصدق امى ذلك وقالت له : ولماذا لم تكشفه من قبل ؟

فقال ابى : « لقد تغلبت اخيرا على الارواح الشريرة »

ومضى يذكر لنا كيف قرر تغيير اسم المنجم الى « كولومبيا » ثم قال :

ــ وفى اليوم التالى وجدت اجمل عرق ذهب رأيته فى حياتى

ثم التفت نحوى مباشرة وقال فى لهجة انتصـــار : « لقد كان فى ممر بدات الحفر فيـه لتوى على مسافة حوالى ٩٠ مترا من السطح ، فى البقعة التى انحنت فيها العصا فى اليوم الذى كنت فيه معى ياماىس.

وقد اثار نبأ الكشف عن الذهب فى منجم كولومبيا جوا من الاثارة فى المنطقة ، ولكن الخبـراء ظلوا يقللون من شـأن الـكشف اذ كانت عروق المعدن الكبيرة كلها موجودة فى الشمال الشرقى حيث منطقـة (بول كليف) و « باتل ماونيتس » ، واكدوا جميعا ان منطقـة ابى ليس فيها الا جيب آخر سرعان ماينضب كماحدث لغيره .

وقد أدى مثل هذا التشكيك من جانب خبراء المناجم الى انه من العسير جمع المال اللازم للاستغلال ، واخيرا قدم رجل واحـــد بضع مئات من الدولارات مقـابل نصف الفائدة ، فى حين ان ابى هو الذى قام وحـده بالعمل المرهق فى المنجم ثم فرز المعدن وشحنه الى المصنع .

وبدلا من ان يضيق العرق ، اتسع حتى اصبح شريانا رئيسـيا متعدد الفروع ، ولم يمض وقت طويل حتى راح الباحثون عن الذهب ينقبون فى منطقة « بيكون هيل » بحثا عن عروق اخرى مماثلة ، وبدا بعض المستثمرين الآخرين يقـــدمون عروضا سخية لشراء المنجـم ، ولكن ابى رفضها فى ثبات .. لقد وعد ابى منذ زمن بعيد انه سيتمسك بحظه السعيد التالى .

وذات يوم جاء سام وجورج برنارد تاجرا البقـالة اللـذان امتلكا منجم « الكتون » مقابل دين ميئوس منـه قدره ٣٦ دولارا فأصبحا من أصحاب الملايين ، وقالا انهما قدما لتهنئة ابى ، وطلبا السماح لهما بمشاهدة العرق

الذي اكتشفه ، وصحبهما أبي الى منجمه في سرور حيث عرض عليهما المعدن البراق ، فأبديا بعض الاهتمام ولكنهما قالا ان العمل في المنجم سيتطلب مبلغا ضخما ... وقال جورج انه مع ذلك يساوى مغامرة صغيرة ثم عرض على أبى مبلغ عشرة آلاف دولار مقابل نصيبه في المنجم ..

كان مبلغا كبيرا ، ولكن ابى وعد أمى الا يبيع ... وعندئذ انبرى سام برنارد ـ الذي يبدو انه كان يتوقع هذا الرفض ـ فرفع المبلغ الى ١٢ ألف دولار نقدا وقال وهو يخرج دفتر شيكاته :

ـ هذا بالاضافة الى اننى سوف أقبل دفع كل ديونك ، وستصبح غدا رجلا حرا لاديون عليه .

ورغم ذلك فقد كان ابى ينوى ان يرفض خوفا مما تقوله امى ، ولكن سنوات المتاعب والفقر الطاحن ومرضه المتزايد ، والديون ، جعلته ضحية لاحول لها ولا قوة ، فضلا عن لهفته الى تعليمي انا وبيللى وتناول الشيك بلا ارادة ... وقال :

ـ اتفقنا !

وعندما سمعت أمى ماحدث حزنت كثيرا ، ولكنها غفرت له بيعه لما ثبت انه كان الحظ الحقيقي الوحيد الذي أصابه ... ولم تنس ذلك قط !

سأكون بخير ..

في خريف ١٩٠١ الحقنى أبى بأكاديمية « كلورادو سبرنجز » في سنتى الثانوية الاخيرة ، وسافر أبواى مع اخى بيللى الى « يوتاه » حيث الجو اكثر دفئا ، وهناك استطاع ابى خلال سنة تقريبا من العطلة ان يستريح ويسترد صحته ، وعندما عادا في الخريف التالى ، التحقت بكلية كلورادو ، وهكذا حققت حلم أبى القديم .

وفي ابريل التالى أبرق لى للعودة فورا الى البيت ... كانت أمى مريضة جدا ، وعندما وصلت كانت قد رحلت عن الدنيا ، متأثرة بالتهاب رئوى اصابها ضمن وباء اجتاح المنطقة .

وبدا العالم غريبا خاليا بدونها ، فقد كنت اتوقع موت أبى ... أما أمى فلم يكن موتها متوقعا قط ومن ثم فقد خلفنى في ارتباك بالغ ، وادركت اننى اصبحت لازمة للبيت ، فقررت الانسحاب فورا من الكلية .

وعندما اعلنت قرارى هذا قال أبى في حدة :

ـ لن تفعلى شيئا من ذلك ... اننى لااريدك هنا . ولدينا مايكفى من

المال لابقـــائك فى الكليـــة ، فلا يساورك القلق .

قلت :

ـ ولكن أخى . . . انه مازال فى التاسعة .

قال :

ـ لقـــد عرض اقارب امك فى « سولت‌ليك » ان يأخذوه معهم حتى اتمكن من النهـوض على قدمى مرة اخرى ... وسـأؤجر غرفة فوق مخزن الحديد فى شارع بنيت لدى السيدة بارى العجوز حتى أكون على مقربة من السيـــارة التى تصل بين المدن وتمر قرب منجمى الجـــديد (روزباد) .. ولن أجد هناك فرصة للاحساس بالعزلة ، كما ان الرجال‌فى حانة بيرنســـايد سوف يشملوننى بالرعاية ، واذا حدثت اية متاعب فان أحدهم سوف يتصل بك .

وفى خلال العــامين التاليين بالكلية اتيحت لى‌فرصة القيام‌ببعض الاعمال المختلفة مقابل اجـر صغير كتسليم دعوات حفلات الاستقبال التى تقام فى بيت عميد الكلية، وتدريس‌الرقص للاطفـال ، ورفو الثياب واصلاحها لزوجات المدرسين ، وتعليم الطالبات الراسبات فى اللغـة الاسبانية ... وفى الصيف عملت كاتبـــة فى متجر الحلوى .

وكنت أزور أبى كلما استطعت ، وكانت صحتـــه قد تحسنت بعض الوقت وبدا فى حال طيبة ، ولكنه ما لبث ان اصابه ضعف شديد فى‌صيف عامى الثـــالث بالكلية ، وتوقف عن العمـــل فى المنجم ، وعزا ذلك الى عواصف مايو الثلجية قائلا انه ينوى العودة للعثور على الذهب قريبا .

واقترحت عليه التخلى عن عملى فى متجر الحلوى‌لامضى الصيف معه ، ولكنه رفض فى حزم قائلا اننا انتهينا من بحث ذلك ، وقال : « لااظن ان معسكر التعدين مكان يصلح لفتاة بلا أم .. تستطيعين الحضور فى ايام الآحاد بين حين وآخر ، ولكن لاتبقى هنا ، ولا تعودى مرة أخـرى لاثارة هذا الموضوع » .

كنت اعرف انه لافائدة من الجدل معـــه ، ولكنى لم استطع ان ابعد شعور الانقباض الذى ساورنى طوال الاسابيع التالية ، وعشت فى خوف من سماع رنين التليفـون أو دقات ســـاعى البريد .. وفى احد ايام اغسطس جاءت الرسالة التى كنت اخشاها .

لقد مات ابى خلال نومه فى الليلة السابقة ...

وذهبت الى غرفتـــه بعد الصلاة لاجمع حاجـاته .. لم يكن هنـاك الكثير منهـا .. قيثارته في حقيبتها الجلدية القديمة ، وغليونه ، وبضع رسائل احتفظ بها ، اما اقراط امي الماسية التي كان يعتز بها فقد ذهبت

وسـألت صاحبـــة البيت عنها فقالت :

ـ لقـد باعها منذ شهور لسداد بعض الفـــواتير .. لقد كان رجلا مستقيمـــا رقيقا لايقبل اقتراض اية نقود ...

ودست يدها في جيبها ثم اخرجتها قائلة :

ـ هـــذا كل مابقي .. وقد طلب مني اعطاءه لك في الاسـبوع الماضي اذا حدث أن ....

وسلمتني ساعـة جميلة وقطعة ذهبية بمبلغ ٢٠ دولارا .. وكان هـــذا هو كل شيء .. لقد اخذت كريبل كريك كل حياته ولم تترك له سوى هذا !

العرق غير المنتظر

عدت الى الكليـــة قبل بدء دورة الخريف بيوم لاجمع كتبي وصوري ومذكراتي ، وكنت أشــعر بثقل في قلبي ، فقد كنت اكره الرحيل عنها ، ولكنني لن استطيع ان ادبر امري على الرغم من فوزي بمنحة دراسية ..

وكنت على وشـــك البكاء عندما احضرت لي خادم عنبر النوم رسالة، قالت انها وصلت مساء أمس .

وفتحت الرسالة في عصبية خوفا من ان تحمل لي انباء سيئة عن اخي بيللي ، ولكنها كانت من جريف لويس الصيدلي في كريبل كريك ، وكان من أفضل اصدقاء أبي ..

كتب يقول : « لقد ازعج نبأ عزمك على ترك الكليـــة كل أصدقاء ابيك ، فهم يعرفون كم كان يرجو ان تتمي دراستك ، وان بعضهم ليتساءل عما اذا كان مبلغ ١٥٠ دولارا ترســـل بمعـــــدل ١٥ كل شهر يمكن ان يساعدك على اتمام هذه السنة ؟ »

وتراقصت الكلمات امام عيني .. لقد سـقط هذا المبلغ الذي احتاج اليه بالضبط من السماء ..

واجبت على الرسالة بقلب عادت اليه البهجة وقلت انني اقبل العرض بشرط واحد ، وهو أن يكون قرضا اسدده بعد عملي كمدرسة ..

واتممت دراســتي ، وعينت بعد تخرجي لتدريس الاسبانية والتاريخ بمدرســـــة فيكتـور الثانوية في كريبل كريك بمرتب قدره ١٠٨٠ دولارا في السنـــة ، وبمجرد عودتي الى

كريبل كريك توجهت الى صيدلية جريف لويس وحدثته عن القرض الذى أتاح لى اتمام دراستى وقلت له :

– لقد جئت لترتيب طريقة السداد

فأمسك قلما وراح يرسم بعض العلامات على نوتة صغيرة ثم قال فى اضطراب :

– وهل كان قرضا ؟

ثم نهض فجأة واخرج من بين زجاجات الدواء فوق احد الارفف ، حوضا زجاجيا كبيرا لاسماك الزينة وضعه امامى .. وكان مكتوبا عليه « من اجل ابنته جون » بحروف ذهبية .

ثم قال :

– لقد عرف رجال شارع بنيت ان جون لم يترك مليما ، وانك ستضطرين للتخلى عن الدراسة ولما كانوا يعرفون ان امله الوحيد هو ان تتمى تعليمك الجامعى ، فقد اقترح البعض فكرة وضع هذا الاناء الزجاجى فى واجهة الصيدلية حتى يستطيع كل منهم ان يضع فيه بين حين وآخر النقود التى يمكن الاستغناء عنها وبدات الحقيقة تبدو امامى ... وقلت :

– لم يكن اذن قرضا حقا منك ؟

فحنى جريف راسه وقال :

– ان كل مليم منه جاء بهذه الوسيلة .. من اصدقاء ابيك : عمال المناجم ، وعمال رفع الانقاض ، واللاكمين .. كلهم اسهموا فيه .

وابتلعت ريقى بشدة وانا احدق فى الاناء الزجاجى .

وابتسم جريف وقال :

– ذات يوم جاء توم الاعمى وراح يتلمس طريقه نحو واجهة المحل فسألته عما يبحث عنه فقال :

– أين هذا الاناء المخصص « من أجل ابنة جون »

ووضعته امامه ، فوضع فيه ربع دولار .. يعلم الله انه كان هو نفسه فى حاجة اليه ..

وقلت وانا اجاهد للسيطرة على نفسى :

– اود ان اشكر كلا منهم .. هل يمكنك ان تذكر لى اسماءهم ؟

– لايمكننى .. فانا فى الحقيقة لااعرفهم جميعا ، ومن المستحيل متابعة كل شخص يأتى الى المحل .

ثم وضع يده على ذراعى وقال :

– ان احدا منهم لم يكن يتوقع كلمة شكر .. لقد ارادوا ان يحققوا حلم ابيك .

وعرفت ان ابى قد كشف حقا عن

عرق ذهبى فى كريبـل كريك .. فى مكان لم يكن يتوقعه قط !

المطلب الاخير

سرعان ماحملتنى حياة التدريس الى كل مكان .. الى سـاحل الباسيفيكى ، ثم الى الساحل الشرقى، كما ملأ الزواج وابنتى حياتى بهجة وسعادة .. وبعد اكثر من ٤٠ عاما استطعت العـودة مرة أخرى الى كريبل كريك .

وعندما نزلت من سيارة الاتوبيس، وجدت ان المعسكر الذى كان ينبض بالقوة والحياة خلال طفولتى أصبح مدينة للاشباح .. لقد كانت يوما ما من أغنى منتجى الـذهب فى تاريخ أمريكا ، أما الآن فقد اغلقت كل المناجم عدا اثنـين ، وتهدمت اكثر مبانى الاعمال فى شارع بنيت ، وأصبحت البلدة كلهـا تدار فى صورة متحف لايام الاندفاع فى البحث عن الذهب .

وزرت مقبرة ابوى بعد ظهر ذات يوم فى (مونت بيسنبا) وبينما كنت عائدة الى البلدة اذ قابلت كهلا ملتحيا يرتدى معطفا عتيقا من قماش خشن وهو يحمل كيسا من التبر فسألته:

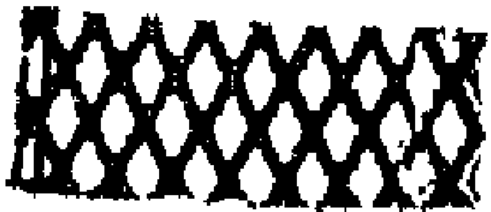
ـ هـل كنت تبحث عن الذهب ؟

فقال فى بهجة :

ـ أجل .. هناك فى «منيرال هيل» ان هذا المعسكر القديم لم يمت بعد .. وفى يوم ما سوف اكشف اكبر عرق من الذهب فى المنطقة !

وظل بريق الامل فى عينيه يلازمنى فترة طويلة بعد ان اختفى عن الانظار .. وخطر لى انه مثل كثيرين من نوعه لم يكن يريد الذهب حقا .. وانه لو عثر عليه لأفلته من خلال أصـابعه أو ألقاه بعيدا ، كما فعل أبى من قبل عنـدما باع حظه الحقيقى فى منجم كولومبيا بمبلغ ١٢ الف دولار .. وقد ثبت فيما بعد انه أغنى مناجم المنطقـة حيث انتج من الذهب مايساوى ١١ مليون دولار ، بعد ان اسماه صاحبـه الجديد « البازو »

كـلا .. لم يكن الذهب الحقيقى هو الذى أراده أبى أو هذا الكهل .. بل ان ماكانا يريدانه حقا هو الحلم به .. البحث عنـه ، والرؤية المذهلة لتلك « المادة الصفراء وهى تغنى فى الارض » !



فى مدينـة ديربى بانجلترا الغت احـدى الفتيات حفل زفافها قبـل موعده المقرر بساعات قليلة ، لان خطيبها فقد كل نقوده فى المراهنة على حصان اسـمه (نفقات الزفاف) !

كتاب الشهر



لورنس الحقيقي

كتاب الشهر ملخص عن :

The Real Lawrence of Arabia

كان ت . ا . لورنس رجلا متعدد المواهب .. كان اديبا وعالم آثار ، وجنديا ، ودبلوماسيا ، وصانع ملوك . وقد اصبح اسمه اسطورة بفضل كتابه عن قصص مغامراته في الصحراء العربية ، كما ساعد على تشكيل مصير الشرق الاوسط . وظهر عن لورنس أكثر من ٣٠ كتابا ومسرحية عنوانها « روس » وفيلم سينمائي « لورنس والعرب »

وكان لويل توماس الذي عرف لورنس في الصحراء هو اول من عرض على العالم قصة هذا الرجل اللغز ، الذي كان يبدو رفيقا ساحرا انيسا .

وهذه هي الصورة الحية التي كتبها توماس للمغامر الكبير عن تجربة صادقة .

لورنس الحقيقي

بقلم لويل توماس

كانت أول مرة وقعت فيها عيناى عليه في شارع مزدحم بالقدس خلال الحرب العالمية الاولى . كان الطريق المترب يعج بالتجار العرب بعماماتهم وثيابهم الزاهية ، والقسس اليونانيين بقبعاتهم الطويلة السوداء ، والاتراك ذوى اللحى بسراويلهم المتنفخة كالبالونات .. وبين هؤلاء جميعا كان هناك رجل ضئيل الحجم ، يبرز بينهم في تناقض حي ، على الرغم من ان طوله لم يكن يتجاوز ١٦٥ سنتيمترا .. كان يرتدي ثوبا فضفاضا لشيخ بدوى يحمل الخنجر القصير المقوس لامير من مكة ، ولكنه مع ذلك كان ابيض البشرة حليق اللحية ، ازرق العينين .

وأثار هذا الشاب حيرتي الى حد انني سألت عن شخصيته ، وبدا لي أن احدا لا يعرفه .. وعندما سألت سير رونالد ستورز حاكم القدس

البريطاني عنه فيما بعد ، فتح باب مكتب ملحق بغرفته .. وهناك كان الشاب الغريب الغامض يجلس منهمكا في مطالعة كتاب عن الآثار .. وقال لي الحاكم : اود ان تقابل الكولونيل ت . ا . لورنس ، ملك بلاد العرب غير المتوج

وعلمت ان الرجلين كانا صديقين منذ الدراسة في اكسفورد .. وصافحني لورنس في رزانة وقد احاط نفسه بجو من التعالي ..

هذا هو لورنس الاسطوري !

كنت قد سمعت عنه منذ اسابيع ، يوم ان طرت عبر صحراء سيناء لاغطي أنباء الحملة البريطانية على الاتراك في فلسطين ، كان ذلك في عام ١٩١٧ وقد تحالف الاتراك مع الالمان لدعم امبراطوريتهم الفسيحة التي كانت تضم الارض التي تصنع اليوم كلا من سوريا ولبنان والعراق والاردن واليمن واسرائيل والمملكة السعودية .. ولكن العرب الذين كانوا يكرهون السيطرة التركية كرها مريرا ثاروا على تركيا ، وتزعم ثورتهم على الاتراك — كما تقول الشائعات — في الصحارى العربية الخالية من الطرق ، ضابط انجليزي شاب كان العرب يسمونه « الاورانس » او « اورانس » فقط .

وبدا عجيبا أن هذا الرجل الهزيل الخجول هو زعيم حرب العصابات الغامض ، ولكن عندما رأيته فيما بعد وهو يمتطي صهوة جمله وينطلق به مسرعا يحيط به حرسه القوى ، استطعت ان اصدق ذلك ..

البحث عن زعيم

لحقت بلورنس بعد لقائنا الاول بوقت قصير ، لارى شيئا من الثورة العربية .. وهناك .. — وفي لندن بعد ذلك — عرفت هذا الشاب العجيب حقا ، فعلى الرغم من انه كان ابنا غير شرعي لبارونة ايرلندية ، فقد كان يبدو في معسكره بالصحراء عربيا قحا كأي شيخ عربي آخر .. كان يتسربل في رداء عربي ، ويتحدث بالعربية ، ويستطيع ان يمتطي الجمل ويطلق النار كأي بدوي تماما .

وكان لورنس قد جاء الى الشرق الاوسط وهو لم يزل طالبا في اكسفورد ، وراح يطوف بالصحراء لدراسة هندسة البناء عند الصليبيين ، وبعد تخرجه في اكسفورد ، انضم الى بعثة كانت تقوم بالتنقيب في اطلال الحيثيين على ضفاف الفرات . .

وحاول لورنس ان يلتحق بالجيش البريطاني ، ولكنه رفض لانه كان قصيرا جدا ، ثم عين ملازما في

المخابرات البريطانية بعد أن دخلت تركيا الحرب الى جانب الالمان .

ونظرا لدراسته شبه‌جزيرة سيناء قبل الحرب ، وفهمه للشعب العربى ، فقد عين فى القيادة بالقاهرة ، وهناك اثار الكثيرين من رؤسائه عليه لعدم اكتراثه بالبروتوكول العسكرى ، اذ كان يؤدى التحية بالتلويح بيده فى فتور ، ولا يظهر احتراما كثيرا لرؤسائه ، كما اثار عداءبعض الضباط عندما قال انالعرب يمكن ان يصبحوا قوة مقاتلة اذا تحمسوا لفكرة الاستقلال .

وفى صيف ١٩١٦ ثار العرب بزعامة الشريف حسين على سادتهم الاتراك واحتلوا مدينة مكة المقدسة ، ولكن هجومهم سرعان ماخبت جذوته .. وفى تلك المرحلة ، سمحت المخابرات البريطانية فى القاهرة للملازم الشاب الوقح أن ينضم الى العرب .. وانطلق لورنس الى الصحراء حتى بلغ فى النهاية معسكر الامير فيصل ، أحد أبناء الشريف حسين .

واستقبله الامير ذو اللحية قائلا :

ـ اتحب مكاننا هنا فى وادى الصفراء ؟

فقال لورنس :

ـ أجل .. ولكنه بعيد جدا عن دمشق .

وكانت تلك اشارة الى المدينة التى كانت يوما ما مركزا لقوة العرب ... وعندئذ جدق الامير فى اتباعه الذين تنقصهم المعدات ... وقال :

ـ أخشى أن تكون أبواب دمشق ابعد من ان نصل اليها .

وعلى الرغم من مسحة الحزن التى كانت تبدو على الامير فيصل ، فقد أدرك لورنس انه قائد بارع يمكن أن يلتف العرب حوله .. وراح لورنس يتنقل من مخيم عربى الى آخر بفضل مساعدة فيصل ، يحثهم على الانضمام معا للقتال ..

وعلى ضوء النيران المتراقصة فى المعسكرات العربية ، راح الملازم الذى لم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره يتحدث عن استقلال العرب ، مذكرا البدو بأمجاد العرب القديمة ، حاثا اياهم على ان يوجهوا ضربتهم فى الوقت الذى ينشغل فيه الاتراك بمحاربة بريطانيا وحليفاتها ..

وتخلت القبائل رويدا رويدا عن أحقادها القديمة ، وتوحدت كلها تحت لواء فيصل ، وكان بين زعماء الصحراء الشهيرين يومئذ شخص يدعى عودة أبو طايع ، وهو محارب

باسل ، ذو انف كالصـقر ، جرح فى القتال حوالى ١٣ مرة ، وكان يترفع عن ذكر عـدد الاتراك الذين قتلهم بيده ... وكان عودة الكهل هو احب الشخصيات بين العرب الذين قابلتهم مع لورنس ، اذ كان يبـدو اشبه بشـخصية من شخصيات الف ليلة وليلة .

انتصار فى ميناء الملك سليمان !

بعد شهور من التدريب اصبح لورنس على استعـداد لتوجيه ضربة كبرى بجيشه العربى المختلف الالوان .. وفى يونيو ١٩١٧ واجه العرب قوة تضم اكثر من ٥٠٠ تركى فى واد على مقربة من ميناء العقبة ، بلدة « عزيون جبير » القـديمة التى كانت القاعدة البحرية الرئيسـية لاسطول الملك سليمان . وقاد لورنس جيشه العربى المنتصر الى العقبة بعد ان هزم الاتراك بهجومه الذى استخدم فيه الجمال !

كان الميناء الذى استولوا عليـه انقاضا .. ولم يكن هناك طعام يأكله العرب والاسرى الذين وقعـوا فى ايديهم غير الجمـال النافقة . وكان لورنس ذاته مرهقا ، فقد قطع خلال أربعة شهور ١٩٠٠ كيلومتر ، لايأكل غير التمر ولحم الجمل . وكان جسمه لايزن اكثر من ٤٤ كيلو جراما ومع ذلك فقد انطلق عبر شبـه جزيرة سيناء القاحلة مع عـدد من رفاقه ، وقطعوا حوالى ٢٥٠ كيلو مترا فى ٤٩ ساعة للوصول الى قناة السويس .

وفى القـاهرة توجه لورنس الى الجـنرال اللنبى الذى كان قد تولى لتوه منصب القـائد العام للقوات البريطانية فى مصر .. وسرعان ماقرر اللنبى ان يسـاعد الثورة العربية مساعدة كاملة واعاد لورنس اليهم مع وعد بامداده بالمدافع والذهب والمؤن

عالم فى الصحراء

لحقت بلورنس فى الميـدان بعد بضعة شهور ، وهناك ازداد اعجابى به الى حد بعيـد ، اذ على الرغم مما قيل عنه انه رجل لاتسهل معرفته ، فقد وجدته رفيقـا جذابا انيسا فى عشرته بعد ان يتغلب على تحفظه .. كان يتحدث ست لغات حديثـة الى جانب اللاتينيـة واليونانية وكان يستطيع ان يتحـدث بذكاء عن اى موضـوع تحت الشمس تقريبا . ما عدا موضوعا واحـدا .. هو نفسه كان كلما سألتـه عن نفسه ، اتجه بالحديث الى موضوع آخر كعلم الآثار ، والاديان المقارنة ، والادب الاغريقى ، وسياسة الشرق الاوسط ، أوالرجال الذين معه ، وكان ينسب دائما فضل

انتصاراته للزعماء العرب أمثال فيصل وعودة ، واذا امتدحه أحد ، احمر وجهه كتلميذة صغيرة .

وكان لورنس يحب العزلة ؛ وكثيرا ماكنت أجده في خيمته يطالع أو يكتب في الوقت الذى يعج فيه المعسكر بالحركة استعدادا لشن احدى الغارات ، وكان يحمل معه ثلاثة كتب : كتاب اكسفورد عن الشعر الانجليزى ، وكتاب مالورى عن «موت أرثر » ونسخة من أرسطو بلغتها اليونانية الاصلية .

وعلى الرغم من أنه كان عالما وصاحب نظريات ،فقد كان أيضا رجل حرب ، يسير حافى القدمين فوق الرمال المحرقة أو الصخور ليزيد نفسه صلابة استعدادا لغاراته الصحراوية ، وكان يعمل على ان يصبح جسده الهزيل أكثر احتمالا من أى بدوى .

ضربات استراتيجية بارعة

سرعان ماادرك لورنس ان العرب سيكتب عليهم الفناء اذا اشتبكوا فى القتال مع الاتراك وجها لوجه .. ولكنه أدرك انه اذا قصر رجاله جهودهم على شن غارات مفاجئة بجمالهم السريعة ، فانهم يستطيعون ان يكونوا اكثر من ند للعدو .

وكان اسلوبه المفضل في شن الغارات هو نسف قطارات السكة الحديد ، فكان يبث ألغامه عادة ، ثم يقبع مع رجاله وراء الكثبان أو الصخور الى ان يظهر قطار تركى ؛ فيضغط على يد جهاز التفجير ، وعندئذ يمزق سكون الصحراء صوت هدير قوى ، ويخرج القطار عن قضبانه ، ويحتشد البدو حول الحطام الذى يتصاعد منه الدخان ..

وخلال ١٨ شهرا شن العرب حملاتهم فيها مع لورانس ، نسفوا ٧٩ قطارا وجسرا .

وانقض فرسانه يوما على ميناء على البحر الميت لا يبعد كثيرا عن « سودوم وعمورة » ، فوجدوا سفنا تركية صغيرة مشحونة بالغلال ، فصعدوا الى سطحها كالقراصنة واعتقلوا ٦٠ تركيا وهربوا بالسفن .. ولعل هذه اول مرة فى التاريخ ينتصر فيها الفرسان فى موقعة بحرية !

ومن أروع معارك لورنس ، تلك التى حدثت فى المنطقة التى تسمى الآن « الاردن » عند بلدة « بترا » القديمة التى وصفها احد الشعراء يوما بأن « عمرها نصف عمر الزمن » .. بترا التى تحدت الاسكندر الاكبر قبل الميلاد بثلاثمائة عام ، ثم فقدها

التاريخ الى أن ظهرت قبل أن يزورها لورنس بقرن وأحد فى جولته الاثرية قبل الحرب .. كان يعرف كل شبر فى اطلال المدينـــة التى تقف وسط الجبـــال ذات الصخور الجيرية ، وأدرك انه فى أستطاعته بلوغها بطريقة افضــل عن طريق واد ضيق ملتو ، وهكذا احتل المنطقة بقوة صغيرة من العرب ، وارســـل الاتراك ضده ٧٠٠ رجل .

وانتظر لورنس الى ان ازدحـــم الاتراك المتقدمون فى الوادى الضيق ، ثم أعطى اشـــارة الهجوم ، ومن بين المعابد القديمة والمقابر ، راح العرب يصبون نيرانا حامية على القوات التى وقعت فى الشرك ، بينمـــا كانت نساء العرب من فوق الصـــخور العالية يلقون الاحجار على العدو ، واندفع العرب الى أسفل للقضاء على الاتراك وهم يصـــيحون : « الله أكبر .. الله أكبر » .

عذاب وانتقام

بعد سلسلة من الانتصـــارات ، استدعى الملازم الشاب الى القاهرة ، ورقى الى رتبـــة كولونيل وعرضت عليه الاوسمة والتكريم فحاول تفاديها .. وعندما سمع يوما وهو فى القاهرة عن خطة لمنحه وساما ، أسرع بركوب الطائرة عائدا الى الصحراء ، وأراد الكابتن بيســـانى قائد وحدة فرنسية كانت تساعد لورنس ان يمنحه صليب الحرب ، ولكن لورنس ظل يتهـــرب منه ، واخيرا حاصر بيسانى الخيمة التى كان لورنس يتناول افطاره فيها ، وقلده الوسام بالقوة .

وكان لورنس يرى أن هناك مقياسا أصدق لقيمته الحقيقية ، وهو الثمن الذى وضـــعه الاتراك لرأسه ، فقد عرضوا مبلغ ٢٠ الف جنيه لمن يأتى بلورنس حيا ، أو ١٠ آلاف جنيه لمن يأتى به ميتا ، ومع ذلك فكثيرا ما غامر بالقيام برحلات بعيدة بمفرده أو مع رفيق أو اثنين فقط .



لويل توماس (الى اليمين)
اثناء احدى زياراته للورانس

وفى احـــدى المهام قام بها خلال خطوط الاتراك للاستطلاع توغل فى اراضى العدو ليعرف خطط الاتراك العسكرية ، وعقـد اجتماعات سرية مع الذين يعطفون على العرب ، وفى رحلة اخرى نسف بمفـــرده جسرا فولاذيا على الخط الحديدى التركى بين دمشق وحلب .

وبينما كان يسير ذات يوم فى مدينة درعا ، وهى قلعة حصينة للاتراك ، اذ اعتقل ، ولكن الاتراك لم يخطـر ببالهم قط ان هـذا الرجل الضئيل الحجم الذى يرتدى ثيابا عربية رثة هو زعيم الثورة ، واقنعتهـم آثار الرصـاص فى جسمه بانه جندى هارب من الجيش التركى ، وقـدم لورنس للقـائد التركى ، وفى خلال استجوابه ، اضطر ان يركل الرجل فى مكان حساس دفاعا عن نفسه ..

واستولى الغضب على التـركى ، فطعنه بالسـونكى ثم جلده وعذبه بوحشية ، وخشى لورنس أن يكشفوا حقيقته اذا صاح بالانجليزية ، ولكن الالم أفقده وعيه اخيرا ، وحملوه بين الموت والحيـاة الى غرفة خالية ، وهناك استطاع ان يتسلل هاربا دون ان يراه احد .

وقد احدث تعذيب الاتراك تغييرا ملموسا فى لورنس ، فأصبح فظا كثير الصمت ، يقتحم المعارك فى طيش يكاد يقـرب من الانتحار ، ولكنه ثأر من أتراك « درعا » عندما بدأ اللنبى يوجه ضربته من فلسطين فى عام ١٩١٨ ، اذ شن لورنس مع ألف من العـرب ومائتـين من الجنود البريطانيين والفرنسيين هجوما على درعا ، بعد أن تزود بالبنـادق ومدافع الميدان والسيارات المدرعـة ، كما وضعت طائرات بريطانية تحت تصرفه ... واخيرا أخلى الاتراك المدينة المحاصرة ، وشـدد لورنس ضغـطه عليهم مما أزعج الحامية التركية وهى تتراجع شمالا صوب دمشق .

كان لورنس الشـاحب المرهق ، اشبه بالشـبح المنتقم ، وقد قال للعرب : « أفضلكم من يقتـل من الاتراك أكبر عدد » .. كان يبدو فى كـل مكان ، فوق جمله السريع ، أو فى برج سيارته المدرعة .. أو محلقا فوق الصـحراء فى طائرة ، وكثيرا ماكان يبقى عدة أيام بلا نوم ، ليمزق طوابير الاتراك الهاربة ..

انتصـار فى دمشق

وفى فجر يوم رائق انطلق لورنس فى الصحراء نحو دمشـق .. كانت المدينة القديمة تعج بالالوف من العرب

الذين يرددون الاناشيد والهتافات ، وانهالت على لورنس وزعماء العرب الورود والروائح واغطية الرؤس الحريرية من أهل المدينة ، وكانت لحظة نشوة للشاب الانجليزى الذى بلغ لتوه الثلاثين من عمره ..

ولكن لورنس كلى على وشك الانهيار .. فبعد حوالى عامين من متاعب ومشقات لايصدقها العقل ، استنفد قواه ، بدنيا وعاطفيا ، وبدأ يشعر بالسقام من الصحراء ، وسفك الدماء .. ثم حدث الانهيار اخيرا فى أحد المستشفيات العسكرية التى كان يزورها يوما ، وراح يضحك فى جنون ، حتى لطمه ضابط بريطانى .

ووصل الامير فيصل والجنرال اللنبى للاستيلاء على المدينة ، ورحل لورنس فجأة الى لندن حيث قال لاحد اصدقائه : « لقد أوشكت هذه الحرب القديمة على الانتهاء ، ولم تعد لى فائدة هناك » .

***

ولكن قصة لورنس مع العالم العربى لم تنته بعد ..

كانت الهدنة قد أعلنت عقب وصوله الى لندن مباشرة وبدأ مؤتمر الصلح فى باريس فى يناير ١٩١٩ .. وكان لورنس أثناء القتال فى الصحراء قد وعد العرب بالاستقلال التام ولكن الانجليز أرادوا أن تكون لهم مناطق نفوذ فى الاراضى التى تحررت حديثا .

وعندما وصل الامير فيصل الى باريس ، انضم اليه لورنس كمستشار ومترجم .

ورفض الدبلوماسيون البريطانيون والفرنسيون أن يجيبوا العرب الى مطالبهم ، فرحل لورنس الى انجلترا ، وقد أثار قلقه مااعتبره غدرا بالعرب .. وعندما عرض عليه الملك جورج الخامس وسام الحمام البريطانى ، رفضه بازدراء ، وعاد الى بيته القديم فى اكسفورد .. لقد كان يبغى السلام والعزلة فحسب بعد سنوات من القتال والمتاعب وقال لى يومئذ : « أرجو أن أجد ركنا منعزلا فى مكان ما استطيع ان اقرأ فيه قليلا من الادب اليونانى دون ان يزعجنى أحد »

ثم اختفى عن الانظار فى هدوء ..

لورنس تحت الاضواء

وكنت أنا - دون ان ادرى - سببا فى قطع هذه العزلة .. فقد بدأت اقوم بالقاء سلسلة من المحاضرات المشروحة بالصور بعد الحرب فى مدينة نيويورك ، عن لورنس وحرب الصحراء ، ثم دعيت للظهور فى لندن ، وقد ادهشنى ان اجد ان لورنس يكاد

يكون مجهـــولا فى وطنه .. لم يكن الجمهور البريطانى يعرف غير القليل من الحرب فى فلســطين ، ولا سيما حملة الصحراء العربية والدور الذى لعبه فيها ذلك الكولونيــل الشاب العالم .

وعندما سمع الانجليز القصة لاول مرة فى عرض مشمـــول بالصور ، اصبح لورنس شخصـــية وطنية شهيرة بين عشية وضحاها .

وكان أول شيء قمت به بمجـــرد وصـــولى الى انجلترا ، ان احاول العثور على لورنس .. ولكنى لم أجد من يعرف أين يوجد ! واتصلت بوزارة الحربية ووزارة الخارجية دون جدوى فقد بدا انه اختفى تماما .. وذات يوم تلقيت رســـالة غير متوقعة جاء فيها :

« عزيزى لويل توماس .

لقد شاهدت عرضك ليلة أمس ، واشكر الله أن الانوار كانت مطفأة . »

((ت . لورنس))

وبعـد بضعة ايام زارنى لورنس .. كان يعيش بمفرده فى اكسفورد، فى غرفة متواضعة الاثاث بعد ان منح زمالة كلية « كل النفوس » وقال انه كان من نتيجة العرض الذى قمت به عنه ، انه اصبح مطاردا فجأة بالساعين للحصـــول على توقيعـــه ، ومخبرى الصحف والناشرين والفتيات اللواتى يعرضن عليه الزواج ، بل لقد تردد الحديث عن الانعـــام عليـــه برتبة الفروسية ، وهى فكرة اثارت الرعدة فى أوصاله .

وقال لى لورنس : « لو اننى منحت هـذه الرتبة ، لضاعف حائك الثياب فواتيرى ، وانا أواجه الآن مايكفى من متاعب لسداد فواتيره . »

لقد كان الرجـل الذى حمل يوما الوف الجنيهـــات الذهبية فى كيس بسرج جمله ، معـــــدما لايملك شروى نقير ..

ولكن هـذا الظلام النسبى الذى احاط به فى اكســـفورد لم يستمر طويلا ... فقـد كانت نتائج مؤتمر الصلح الذى عقـد فى باريس مأساة واضحـــة ولا سيما للعرب الذين اغضبهم وجود البريطانيين والفرنسيين فى بلادهم ، فهددوا باشعال النيران فى الشرق الاوسط . واستطاع ونستون تشرشل - وزير المستعمرات يومئذ - ان يقنع لورنس بالاشتراك فى مؤتمر عقـد فى القاهرة حيث كان يأمل فى الوصول الى تسوية عادلة للمشكلة .

وصدرت الاوامر لقوات الجيش البريطانى بالعودة الى بلادها ، واصبح

الامير فيصل ملكا على العراق بينما سيطر شقيقه عبد الله على شرق الاردن .

اعمدة الحكمة السبعة

عندما عاد لورنس الى بريطانيا ، شرع فى كتابة الجزء الاخير من قصته عن الثورة العربية التى كان قد بدأ كتابتها فى مؤتمر الصلح بباريس ، ثم واصلها فى القاهرة ... وفى لندن اغلق على نفسه باب غرفة علوية كئيبة فى بيت احد اصدقائه ، وراح يعمل فى مثابرة وكد شديدين .

كان الوقت شتاء ، والغرفة خالية من التدفئة ... وكان لورنس يرتدى حلة طيار مبطنة بالفراء وهو يكتب ، وكثيرا ماكان يواصل العمل حتى الساعات الاولى من الصباح ، حيث يخرج اخيرا لتناول « العشاء » .. وكانت الاماكن الوحيدة المفتوحة للطعام فى تلك الفترة ، هى مطاعم محطات السكك الحديدية ، حيث يستطيع ان يطلب مايشاء ..

وقد تحمل لورنس جهدا ومشقة فى اعداد كتابه الذى اطلق عليه اسم « اعمدة الحكمة السبعة » فقد حدث يوما وهو يقوم بالرحلة من اكسفورد الى لندن أنه حمل معه مسودة اولية للقصة فى حقيبة سوداء . ووضع الحقيبة على الارض لحظة لشراء صحيفة ، وعندما عاد كانت الحقيبة قد اختفت ! وكانت تحتوى على الجزء الاكبر من مخطوطه الذى يضم حوالى ٤٠٠ الف كلمة ، ثمرة شهور من العمل الحماسى ، فضلا عن يومياته التى كتبها خلال حملته .

وكان يساعدنى فى نفس الوقت فى اعداد الكتاب الذى اضعه بعنوان : «مع لورنس فى بلاد العرب » للرد على الاسئلة الخاصة بالتفاصيل وما فعله الآخرون فى حرب الصحراء ، اذ أنه قل ان كان يتحدث عن نفسه .

وبناء على الحاح من أصدقائه ، شرع فى اعادة كتابة مؤلفه من الذاكرة . وظل يعمل شهرا بعد آخر حتى غلبه الارهاق وكتب لصديق له يقول : « لقد منحته كل أيامى وليالى حتى أوشكت على أن أصبح أعمى مجنونا »

وأدى ضغط العمل وسوء الحظ الى بلوغه حافة اليأس ، حتى أنه كان يفكر احيانا فى القاء الكتاب فى نهر التيمس !

وفى أغسطس ١٩٢٢ حاول أن يخفى نفسه بالتطوع فى السلاح الجوى البريطانى تحت اسم « جون هيوم روس » وكان يامل ان يجد هناك السلام والبعد عن الاضواء ، ومع أنه

كان لايزال يكره الحياة العسكرية ، فانه استطاع أن يجد وقتا للكتابة ..

وعندما أتم كتابه الضخم « أعمدة الحكمة السبعة » * لم يطبع منه غير ثماني نسخ خاصة ، ارسل لورنس احداها الى جورج برناردشو ، وكتب يقول له : « انه أشبه بأكداس من قطع الاحجار التي تلقى في البحر بعد أن ينتهي البناءون من بناء الهرم الكبير نفسه ولكن برنارد شو اشاد بالكتاب واعتبره عملا عبقريا ، وحث لورنس على اصداره .

وبينما كان يفكر في اتخاذ هذا القرار ، اذ اضطربت حياته مرة أخرى بسبب حادث غير متوقع ، اذ كشفت احدى صحف لندن عن شخصية لورنس وهو يعمل في السلاح الجوي تحت اسم « جندي الطيران روس » .. ومرة أخرى عادت متاعب الشهرة ومضايقاتها ، ووجد السلاح الجوي في ذلك مشكلة فاضطر الى فصل لورنس من الخدمة !

وغير لورنس اسمه للمرة الثانية سعيا وراء الظلام ، فأصبح يعرف باسم «ت . أ . شو» والتحق بسلاح الدبابات ، ووجد ملاذا من حياة الثكنات بالقيام بجولات طويلة على قدميه ، والاصغاء الى الموسيقى . واشترى دراجة بخارية كان ينطلق بها في انحاء الريف ، وعلى مقربة من المعسكر وجد كوخا عتيقا يسمى « كلاودز هيل » فاتخذ منه منزلا ، وكتب على الباب باللغة اليونانية هذه الكلمات : « ماذا يهمني ؟ »

وثابر لورنس على بذل جهوده في سبيل العودة الى السلاح الجوي البريطاني . وفي عام ١٩٢٥ أعيد الى الخدمة في هدوء تحت اسم النفر ت.أ. شو ، وقد نشر كتابه وهو هناك ، ولكنه لم يطبع منه غير ٢١٢ نسخة ، وقد صب لورنس في هذا الكتاب الذي امضى سبع سنوات في كتابته ومراجعته ، كل آلام وانتصارات حملته الصحراوية ، وذلك في اسلوب عنيف يتدفق حيوية كشف فيه عن روحه المعذبة ، ورسم صورة لاهوال الحرب التي لاتعرف الرحمة .. ولكنه ظل يرفض السماح بنشر الكتاب على الجمهور .

وقوبل الكتاب مقابلة رائعة واعتبره الكثيرون تحفة في الادب ، ووصفه هـ . ج . ويلز بأنه « وثيقة انسانية عظيمة » .. اما تشرشل فقد قال عنه

* لقي الكتاب رواجا عظيما حتى لقد اعيد طبعه اكثر من ١٠٠ مرة ، واعيد نشره اخيرا في اوربا وامريكا .

أنه « ملحمة ، واعجوبة ، وحكاية عذاب فى قلبها .. انسان » .

واخيرا قبل لورنس نشر طبعة شعبية مختصرة من كتابه تحت عنوان «ثورة فى الصحراء» نال نجاحا جارفا، ودر ربحا قدره ١٥ ألف جنيه استرلينى ، وعندئذ سحب لورنس الكتاب من التوزيع ، وتبرع بنصيبه من الارباح للجمعيات الخيرية !

اسطورة خالدة

كان لورنس يعمل فى السلاح الجوى البريطانى فى الهند ، حيث يبدو انه وجد أخيرا الهدوء الذى كان يبحث عنه منذ زمن بعيد ، فقد كان يقيم فى موقع منعزل على مقربة من الحدود الافغانية ، وشغل نفسه فى الكتابة ، وترجمة « أوديسة » هوميروس .

ولكن الهدوء هرب منه حتى فى ذلك الموقع النائى .. فقد شبت ثورة فى افغانستان المجاورة ، واتهمت الصحف السوفيتية لورنس بانه هو الذى اشعلها ، وقالوا انه فى الحقيقة جاسوس بريطانى يتخفى تحت ستار جندى فى سلاح الطيران ، وعندئذ استدعاه سلاح الطيران الى انجلترا حيث نقل الى بلايموث .

وفى مارس ١٩٣٥ سرح لورنس من خدمة السلاح ، واعتكف فى كوخه فى بلدة (كلاودز هيل) وبعد شهرين فقط ، كان يمتطى دراجته البخارية وينطلق بها فى أحد الطرق الريفية عندما انحرف فجأة ليتفادى غلامين يركبان دراجتين ، وحاول ايقاف الموتوسيكل ، ولكنه انزلق به وسقط على الارض بعد ان قذف به بعيدا ، واصيب اصابة قاتلة .

وفى يوم قاتم معتم من أيام مايو ١٩٣٥ دفن فى مقبرة صغيرة فى ريف « دور سيت » ، وكان حملة بساط الرحمة من الشخصيات العسكرية الشهيرة التى اشتركت معه فى القتال خلال حملة الصحراء ، وجنود سلاح الدبابات والسلاح الجوى الذين عرفوه كزميل لهم باسم «روس» أو اسم « شو » .

ورثاه الكبار والمجهولون .. ووضعت فتاة صغيرة باقة من زهور الزنبق على القبر مع بطاقة كتب عليها : « الى : ت.ا.ل الذى ينبغى أن يرقد مع الملوك » .

وقال ونستون تشرشل « لقد فقدنا بموت الكولونيل لورنس واحدا من اعظم المخلوقات فى عصرنا الحاضر ، وسيخلد اسمه فى الادب الانجليزى ، ويعيش فى اساطير بلاد العرب » .

وظلت اسطورة لورنس تنمو على

مر السنين ، الى أن ظهر أخيرا اتجاه بين بعض المتلقين للحط من شأن لورنس والقول بأنه كان خرافة كبرى خلقتها أنا وبعض المؤلفين الآخرين ..

والغريب أن هذه المحاولات للحط من شأن لورنس جاءت كلها من أناس لم يعرفوه قط ، بينما ظل على العكس من ذلك يحتل مكانة عالية في نفوس الرجال الذين قاتلوا معه وعرفوه عن كثب أمثال تشرشل واللنبي ، ولورد هاليفاكس والفيكونت ويفل وقد أسماه الكولونيل سترلنج الذي صاحبه طوال حملة الصحراء « أعظم عبقري أنجبته بريطانيا في القرنين الاخيرين » وقال لورد هاليفاكس « كان يتمتع ببعض صفات لعل أفضل وصف لها هو السيطرة على الحياة »



لورانس على ظهر دراجة بخارية

ولكن لورنس ليس في حاجة الى دفاع أحد ، فان سمعته تعتمد على ما حققه من أعمال ، وكتابة « أعمدة الحكمة السبعة » تحفة عالية ، كما أن كل أعماله كفيلة بأن تجعل منه اسطورة ..



دليل قوي !

- لقد سمعت حكاية جديدة منذ أيام ، واني اتساءل عما اذا كنت قد حكيتها لك ..
- أهي قصة مضحكة !
- أجل
- اذن فأنت لم تحكها لي !



تعويض ..

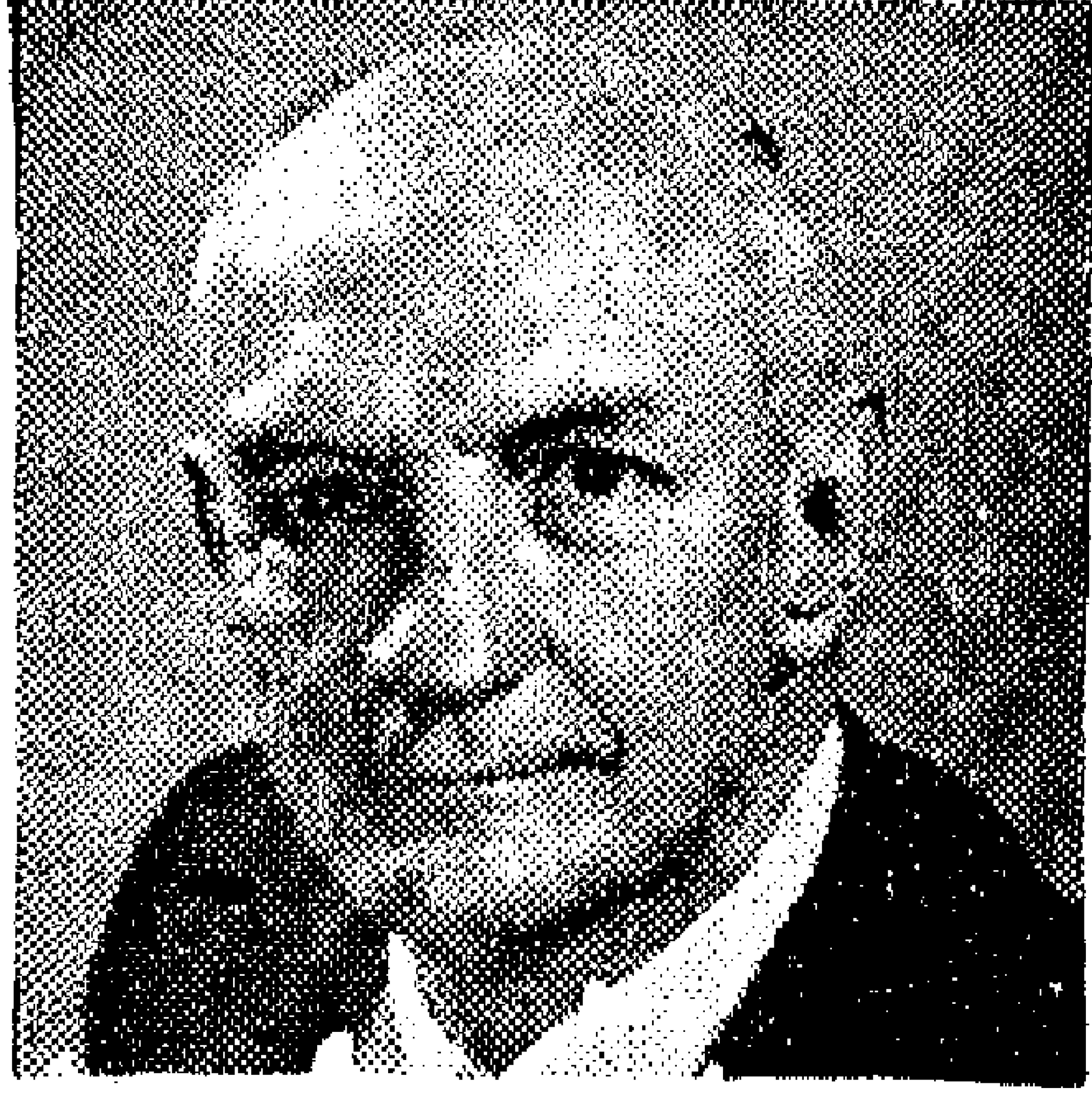
نشرت احدى المجلات الانجليزية اعلانا تعرض فيه ارسال بطاقات بريد مصورة من الخارج للاشخاص الذين قرروا أن يقضوا عطلاتهم في بلدهم هذا العام !

كتاب الشهر

أسرار الغزو الفاشل لخليج الخنازير



لماذا فشل غزو كوبا عام ١٩٦١ ؟ .. هذه هي الحقائق والاسرار التي استغرق جمعها ٣ سنوات من التحقيق والبحث المستمر عن خفايا أكبر قصة شائنة في تاريخ أمريكا ! ..



د . ماريو لاتزو .

حول المؤلف : فى صبيحة ١٧ ابريل ١٩٦١ كان الدكتور ماريو لاتزو - الذى يعد من ابرز رجال القانون الدوليين فى كوبا - جالسا ينتظر فى بيته الذى يقع ببلدة « فاراديرو » على الشاطىء وتبعد مسافة ١٣٠ كيلو مترا شرق هافانا ..كان يدرك ان غزو كوبا قد بدأ ، ويعرف كذلك انه لم يتبق له وقت كثير فى عالم الحرية وكان لاتزو - الكوبى المولد - قد تلقى تعليمه فى الولايات المتحـــدة وامضى ٣٥ عاما كشريك فى مكتب من ابرز مكاتب المحامين فى امريكا اللاتينية يمثل كثيرا من الشركات الاجنبية فضلا عن الحكومة الامريكية .. وكان مثـل الكثيرين غيره من الكوبيين قد تعاون مع الحركة السرية المعادية فاعتقل والقى به فى السجن .

وبعد بضعة اســابيع جاهدت زوجته كارمن لاطلاق سراحه ثم هربا معـــا من كوبا وعندما بلغ الولايات المتحدة اقسم على ان يعرف اسباب فشل غزو كوبا ولو قضى بقية عمره فى ذلك ..

والقصـــة التالية هى نتـاج ثلاث سنوات من التحرى والاستقصاء الذى قام به الدكتور لاتزو ، الذى ذهب اولا الى اسبانيا - لكى يقـابل الكوبيين الذين نجوا بحياتهم بعد الحملة الفاشلة ، ثم طاف بارجاء البحر الكاريبى ، واخيرا عاد الى امريكا .. وبعـد ان عرف الوقائع الجوهرية من هؤلاء الرجال استطاع ان ينجز مهمة اكثر صـعوبة بالاتصـــال بالجهات العليا فى واشنطون ، وقد كان لاتصالات الدكتور لاتزو الدولية كرجل قانون فائدة طيبة فى انجاز مهمته اذ استطاع ان يتحدث راسـا فى ثقة مع الذين يعرفون ماذا حدث فى واشنطون خلال تلك الايام الخطيرة من شهر ابريل ١٩٦١ ..

أسرار الغزو الفاشل لخليج الخنازير

تلخيص كتاب DECISON FOR DISASTER

بقلم : ماريو لانزو

ثلاث سنوات ونصف سنة تقريبا مرت منذ صدمت مأساة خليج الخنازير الشعب الامريكى فى ابريل ١٩٦١ واصابت هيبة امريكا وزعامتها للعالم الحر بالضرر . . ومع ذلك فما زالت الظروف التى تكمن وراء الفشل تختفى وراء ستار من السرية الرسمية ، ولم تسفر المحاولات التى بذلت اخيرا للحصول على الحقائق الا عن قصص زادت المسألة ارتباكا . . ولا يزال الناس فى كل مكان يحسون بالحيرة وعدم الرضاء لان الاسئلة الجوهرية ما زالت بلا ردود . . وهى :

- لماذا ارسل ١٥٠٠ رجل « لغزو » جزيرة يدافع عنها اكثر من ٢٠٠ الف جندى وميليشيا يستخدمون اسلحة ومهمات حديثة من الكتلة السوفيتية ؟
- لماذا تركت عملية الانزال مكشوفة امام خطر قوات كوبا الجوية الصغيرة ولكنها مزودة بنفاثات اهلكت الطائرات المهاجمة واغرقت السفن المحملة بالاسلحة والذخائر والوقود والطعام والاجهزة الالكترونية وغيرها من المهمات الضرورية ؟
- ما هو الدور الذى اسند الى السرب الجوى للكوبيين الاحرار الذى يتكون من طائرات امريكية عتيقة يقودها طيارون كوبيون ، ولايعتبر كله ندا لنفاثات كاسترو من طراز (ت ــ ٣٣) ؟
- ماذا حدث للضربات الجوية التى كان مفروضا ان يقوم بها سرب الكوبيين الاحرار الجوى لتدمير قوات كاسترو الجوية قبل الانزال ؟
- لماذا اختيرت شواطىء خليج الخنازير المعزولة للنزول فى حين انها لا تكفل اية وسيلة للفرار اذا فشل الغزو ؟
- هل اعيد النظر فى خطة الغزو ــ التى كانت تبدو مخاطرة ــ واقرها كبار الخبراء الامريكيين العسكريين ورؤساء اركان الحرب

المشتركة ؟

***

ان الرأى السائد ـ واعترف بأننى كنت اعتنقه يوما ما ـ هو ان غزو خليج الخنازير انما فشل لان العملية وضعت دون عناية بمعرفة وكالة المخابرات المركزية الامريكية ، او لان خطة الغزو كانت غير كافية .. وكلا الافتراضين خاطىء :

فقد اديرت العملية بذكاء ونفذت ببطولة ، وكانت الخطة تتسم بالبراعة كما اعترف كاسترو نفسه فيما بعد، ولو انها نفذت كما وضعت لكان من الواجب ان تنجح ..

وقد اقر رؤساء اركان الحرب المشتركة الخطة العسكرية ، ولكن حدثت فيها تغييرات بعد ذلك بناءعلى اصرار مستشارى الرئيس كنيدى السياسيين ـ دون استشارة رؤساء اركان الحرب المشتركة ووكالة المخابرات المركزية ـ وعندما سمع هؤلاء عن التغييرات وجدوا انها ضد ما كانوا يرغبون فيه . .

ان هذه التغييرات هى التى حكمت على الغزو بالكارثة حتى قبل ان يبدأ !

***

ان قرار مساعدة الكوبيين المعادين لكاسترو على تحرير بلدهم اتخذه الرئيس دوايت ايزنهاور فى مطلع عام ١٩٦٠ ، وعهد بالمهمة الى وكالة المخابرات المركزية ، واسند العملية الى نائب مديرها ريتشارد بيل ، وكان على وزارة الدفاع ان تقدم الامدادات العسكرية والمساعدات ، وعلى رؤساء الاركان المشتركة ان يعيدوا النظر فى الخطط ، واخيرا ينبغى ان يقر الرئيس الامريكى العملية كلها ..

وعندما حان نوفمبر ١٩٦٠ وجاءت معه انتخابات الرئاسة ، كان هناك عدد من الخطط الاولية تقوم وكالة المخابرات بدراستها ، ولكن لم تصل اى منها بعد الى المرحلة التى تجعلها جاهزة للبحث بمعرفة اركان الحرب المشتركة . . واجريت محاولات للاسقاط من الجو للمحاربين فى جبال اسكامبرى من اعداء كاسترو فى كوبا .. وكان المتطوعون الكوبيون يتلقون تدريبات على القتال البرى فى معسكرات منعزلة فى لويزيانا وفلوريدا وامريكا الوسطى ، بينما كان الطيارون الكوبيون يتدربون على طائرات قدمتها الحكومة الامريكية ..

كانت الروح المعنوية للمقاتلين من اجل الحرية عالية ، وكان المدربون الامريكيون يفيضون ثقة تقوم اساسا

على اقتناعهم بأن اية عمليــة يقرها الرئيس ايزنهــاور لن يسمح لها ان تفشـــل ، ولو تطلب احراز النصر النهــائى تأييدا سافرا من القــوات والطائرات والســفن الامريكية .. وقال ضابط امريكى . « اننا نعرف جيدا ان ايك لن يتولى عملية عسكرية الا وهو عازم على كسبها »

كان هذا هو الموقف الذى واجه الرئيس الراحل جون كنيدى عندما دخل البيت الابيض فى يناير ١٩٦١ وقبل حفل التنصيب بفترة قصيرة حــذره الرئيس ايزنهــاور ــ وهو يستعرض معخلفه المسائل الدولية ــ بأن الموقف فى كوبا كئيب وانه يزداد خطرا ولاسيما بسبب المســاعدات العسكرية الروسية المتزايدة ، وقيل انه قال لكنيدى : « ليس هناك وقت نضيعه .. وقد تضطر الى ارســال جنود الى هناك » .

***

ان مكان الغزو فى الخطــة الاولى الذى عرض على الرئيس كنيدى لم يكن هو « خليج الخنــازير » ، بل « ترينداد » ــ وهى بلدة ســكانها ٢٠ الفا تقع على مسافة حوالى ١٦٠ كيلو مترا نحو الشرق على الشاطىء الجنوبى لكوبا عند سفوح جبــال اسكامبرى ، وقد اختيرت تريــنداد لانها تتمتع بعدد من المزايا ، فهى على مســـافة بعيدة من هافانا ــ حيث تتركز قوات كاســترو واسلحته ــ كما ان الاهالى هناك يكنون عداء قويا لكاسترو ، وبها مطــار مناسب . . ولكن الشىء الاكثر اهميــة ، هو ان هذا الموقع يكفل بديلا اذا ســـاءت الامور ، اذ يستطيع الغزاة الهــرب الىالجبال القريبة ليشنوا منها حرب عصابات .

وعندما عرضت هذه الخطة الاولى على الرئيس كنيدى لبحثها ، ذكره مستشاروه بوزارة الخارجية والبيت الابيض ان اشتراك امريــكا فى الغزو يجب ان يظل سرا وتحت ستار ، وان عملية الانزال البرمائية التى تحمل اى دليل يكشف عن عملية امريكية امامدينة ساحلية كبيرة مثل ترينداد ستؤدى الى فشل المسألة برمتها ، وكانت النتيجة ان الرئيس ــ خضوعا لمستشاريه ــ اصــدر امرا لوكالة المخابرات المركزية بالبحث عن مكان للانزال يكون اقل ظهورا .

وتخلى رجال المخابرات ورؤســاء اركان الحــرب المشتركة عن موقع ترينداد ، ولكن بعــد احتجاج عنيف .. وبعد البحث عن عدد من الاماكن

البديلة ، اختاروا اخيرا «بلاياجيرون» على مقربة من خليج الخنازير ، ولهذا الشاطىء مزايا عديدة فى صالحه ، فقد اظهرت احدث الصور التى التقطتها طائرات (ى-٢ و ف-١٠١) الاستطلاعية الامريكية انه لا توجد اية حشود لقوات كاسترو فى تلك المنطقة . كما ان المطار الصغير فى جيرون اكثر مناسبة لعمليات ب - ٢٦ والمنطقة بين الشاطىء وداخل البلاد كبيرة ، كما يوجد مستنقع ملىء بالتماسيح يتصل بأربعة طرق عامة يمكن قطعها او السيطرة عليها من الجو .

ولكن العسكريين راوا ان جيرون لها جانب سيىء ، فالمنطقة لا تناسب عمليات حرب العصابات الطويلة ، واذا ساءت الامور ، فلن يكون هناك مناص من التراجع ، وفى تلك المرحلة، كانت رغبة المخابرات والاركان المشتركة فى قبول « جيرون » تعتبر فى حد ذاتها دليلا على أن العملية كما وضعت خطتها يومئذ كان نجاحها يكاد يكون مؤكدا .

كان العنصر الجوهرى فى الخطة التى اطلق عليها اسم « عمليةبلوتو » هو استخدام القوة الجوية اذ لابد من تدمير قوة كاسترو الجوية الصغيرة وهى على الارض وذلك بثلاث ضربات جوية يقوم بها السرب الجوى للكوبيين الاحرار من قاعدته فى (بيورتوكابتزاس) بنيكاراجوا على أن تتم ضربتان قبل الغزو ، والثالثة أثناء عمليه الانزال فى خليج الخنازير .. **ولن تصل قوات الغزو الى الشواطىء الا بعد أن تدمر كل طائرة لكاسترو** .. ويكون هدف الغزاة الرئيسى بعد ذلك هو احتلال المطار القريب من راس الجسر ، والاحتفاظ به الى ان يتمكن السرب الجوى للكوبيين الاحرار من الانتقال اليه من نيكاراجوا ، وبعدئذ يستطيع الغزاة ان يتوقعوا انهيار كاسترو خلال أيام بعد ان تصبح لهم السيطرة التامة على الجو فوق الجزيرة بأسرها .

كان سرب الكوبيين الاحرار الجوى يتكون من ١٦ قاذفة متوسطة طراز ب - ٢٦ واربع طائرات ذات محركات اربعة من طراز س - ٥٤ وخمس طائرات ذات محركين طراز س - ٤٦ (والنوعان الاخيران من طائرات النقل وهى غير مسلحة ومخصصة لنقل جنود المظلات والامدادات) وكانت هناك طائرات اخرى من نفس الانواع ستتقدم لكى تحل محل الخسائر .. وهذه الطائرات من مخلفات الحرب

العالمية الثانية وحرب كوريا ، وقاذفات ب ــ ٢٦ نزعت منها مدافع المؤخرة لتمكينها من حمل الوقود اللازم لقطع المسافة من نيكاراجوا الى كوبا وبالعكس وطولها ٢٠٠٠ كيلومتر تستغرق سبع ساعات ، مع البقاء حوالى ٤٥ دقيقة فوق الهدف .

ومع ذلك فان المستشارين العسكريين الامريكيين كانوا يعتبرونها كافية تماما للمقتضيات الجوية لعملية بلوتو ..

وكانت قوة كاسترو الجوية تتكون من ١٦ طائرة صالحة للعمل : ست نفاثات من طراز ت ــ ٣٣ وست مقاتلات بريطانية سريعة من طراز « سى فيورى » ذات المحركات وأربع



ريتشارد • بيسل

قاذفات متوسطة من طراز ب ــ ٢٦

وأخيرا كانت هناك مجموعة منتقاة من المدنيين الكوبيين سيتم نقلها جوا لاقامة حكومة مؤقتة فى بلدة «جيرون» والدعوة للاعتراف بها وطلب المساعدة العسكرية ، وكان المعروف أن أغلب دول منطقة الكاريبى مستعدة للاستجابة لمثل هذا النداء .. وفى مثل هذه الظروف كان الشعب الكوبى سيثور وينهى حكم كاسترو مع أقل قدر ممكن من سفك الدماء .

ولكن كان كل شىء متعلقا بالضربات الجوية الثلاث المقررة .. الضربة الاولى رقم (١) فى صباح السبت ١٥ ابريل وستكون هجوما مفاجئا يقضى على الجزء الاكبر من طائرات



سناتور وليام فولبرايت

كاسترو على الارض ، ولا سيما فى معسكر كولومبيا فى هافانا ، وفى سان انطونيو دى لوس بانوس على مسافة حوالى ٣٠ كيلومترا ، والضربة رقم (٢) يوم الاحد لتقضى على ما بقى من طائرات كاسترو والمدافع المضادة وغيرها من المنشآت .

والضربة رقم (٣) فى صباح الاثنين ١٧ ابريل (يوم الغزو) بالاسترشاد بصور طائرات الاستطلاع ، وستكفل التأكد النهائى بأن كل طائرة لكاسترو قد دمرت على الارض ، مع ضرب تجمعات الدبابات والمدافع المتحركة ، وسيارات النقل ، واغراق سفينة حربية راسية قرب « سينفيوجيس » وستقوم قاذفات أخرى بانشاء رأس جسر على الشاطىء .

ان أول فرقة ستنزل الى البر سوف تقوم بتطهير ممرات « جيرون » بينما تقوم سفينة شحن ضمن أسطول الغزو بتفريغ البنزين والقنابل والذخائر والامدادات وفريق من ميكانيكيي الطائرات ، وبعدئذ تصبح جيرون قاعدة العمليات للسرب الجوى الكوبيين الاحرار .

وبالسيطرة على الجو تستطيع قاذفات السرب من طراز (ب ــ ٢٦) أن تقفل الطرق العامة الرئيسية المؤدية صوب رأس الجسر وتنسف دبابات كاسترو وسيارات النقل والمدفعية المحمولة على جرارات .. وثمة هدف اساسى آخر هو محطة كهرباء هافانا ، وربما محطات اخرى فرعية قليلة .. التى تولد ٩٠٪ من كهرباء كوبا .. ان ضرب المحطة بالقنابل سيؤدى الى اظلام الجزيرة واسكات كل وسائل الاتصال (التليفون والتلغراف والاذاعة والتليفزيون) ، وشل كل الصناعات الكبرى ، وسوف تقل امدادات الماء فى كوبا التى تعتمد على المضخات الكهربائية الى قطرات قليلة ..

ولم تكن هنالك اية نية لمهاجمة قوات كاسترو المدججة بالسلاح ، بالاى يضم ١٥٠٠ رجل ، ولا كان مقصودا بهذا الآلاى الصغير أن يغزو كوبا بأسرها ويحتلها . **ان « عملية بلوتو » كان المقصود بها أساسا أن تكون عملية جوية .**

كان هذا فى ايجاز هو المشروع الذى عدلته المخابرات الامريكية ، وأقره رؤساء الاركان المشتركة .

وفى ٤ ابريل عرض المشروع للمراجعة النهائية فى اجتماع مثير بوزارة الخارجية تزعمه الرئيس كنيدى وكان بين الحاضرين دين **راسك وزير**

الخارجية ودوجلاس ديللون وزير الخزانة ،والسناتور وليم فولبرايت رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ ، والجنرال ليمان ليمنتزر رئيس الاركان المشتركة ، والاميرال آرلى بيرك رئيس العمليات البحرية ، والن دلاس مدير المخابرات، والجنرال تشارلس كابل نائب مدير المخابرات ، وبول نيتز مساعد وزير الدفاع ، وتوماس مان مساعد وزير الخارجية لشئون أمريكا اللاتينية ، ومعهم مساعدو الرئيس : ماكجورج بندى ، وارثر شلزينجر وريتشارد جوردون ، وأدولف بيرل مستشار الرئيس ، وريتشارد بيسل من المخابرات المكلف بالاشراف على عملية بلوتو يوما بيوم ..

وتحدث بيسل بقوة ووضوح شارحا أن العنصر الاساسى للعملية المقترحة هو تدمير قوة كاسترو الجوية الصغيرة على الارض بضربات جوية تسبق الغزو ، وقال ان هذا يمكن انجازه بسهولة بوساطة القاذفات التى يقودها طيارون كوبيون مسترشدين بصور طائرات الاستطلاع الامريكية ، وأصغى المجتمعون فى غرفة المؤتمر المزدحمة بامعان واحترام لبيسل .. لقد كان الرجل المسئول اساسا عن نصيب المخابرات فى برنامج الاستكشاف الامريكى الناجح الذى فتح أخيرا فى منتصف ١٩٦٠ مجتمع الاتحاد السوفيتى المغلق أمام المخابرات الامريكية ، ونتيجة لنشاط سرب طائرات التجسس (ى - ٢) يكمله بعض الفنون الامريكية العلمية العظيمة .. وكان بيسل مسئولا عن كليهما الى حد كبير .. عرفت أمريكا على وجه التعيين ان أى تهديد سوفيتى بمساعدة كاسترو بالصواريخ عابرة القارات خلال غزو خليج الخنازير سيكون تهديدا أجوف ، فلم تكن هناك غير قاعدة واحدة لاطلاق هذه الصواريخ على وشك الاتمام فى ذلك الحين !

وكان الصوت الوحيد الذى ارتفع ضد «عملية بلوتو» فى الاجتماع هو صوت السناتور فولبرايت الذى استنكر المشروع على أساس انه غير اخلاقى ، وسنرى على ضوء ما حدث فى الايام القليلة التالية انه من الاشياء ذات المغزى ان راسك وزير الخارجية لم يعارض المشروع **فى ذلك الحين**

وفى اليوم التالى - يوم ٥ ابريل - اتخذ الرئيس كنيدى قراره بالسير فى مشروع بلوتو وتحدد يوم الاثنين ١٧ ابريل للغزو .

ارسلت اشارة البدء الى القاعدة الجوية للكوبيين الاحرار المسماة « هابى فالى » ـ أو الوادى السعيد ـ فى بيورتو كابتزاس ، وسارت الاستعدادات بسرعة لاعداد الضربات الجوية الثلاث . . كانت الروح المعنوية عالية ، على الرغم من ان ازالة مدافع المؤخرة من القاذفات ب ـ ٢٦ أثارت بعض القلق . وسأل الطيارون الكوبيون رؤساءهم الامريكيين عما اذا كانت الطائرات الخالية من السلاح الخلفى لن تكون فريسة سهلة لنفاثات كاسترو . . وكان رد الضابط الامريكى الذى يتولى القيادة مطمئنا . . قال : « لا يساورنكم القلق من مقاتلات كاسترو النفاثة . . فهى لن ترتفع فى الجو » وكان يردد صدى ما يقوله واضعو الاستراتيجية فى واشنطون الذين كانوا يعتمدون على تدمير قوة كاسترو الجوية على الارض تماما .

وفى ١١ ابريل اشارت انباء الصحف الى أن هناك خلافا خطيرا داخل حكومة كنيدى حول مدى المساعدة التى يجب أن تقدمها امريكا للاجئين الكوبيين لقلب حكومة كاسترو . وقد كشفت هذه الانباء أن بعض الذين اشتركوا فى اجتماع ٤ ابريل ـ ولا سيما راسك وزير الخارجية ـ انحرفوا عن موقفهم الاول ولكن ادولف بيرل مستشار الرئيس وتوماس مان مساعد وزير الخارجية وقفا ثابتين فى حزم ، وتنبأ بأن القرارات السياسية البحتة يمكن ان تقضى على اى عملية عسكرية بارعة .

وتأرجح الرئيس الجديد الشاب كنيدى فى موقفه بعد ان اصبح نهبا مقسما بين العناصر المتعارضة : المخابرات الامريكية ، ورؤساء اركان الحرب المشتركة ومن يؤيدهما من ناحية ، والسياسيين من الناحية الاخرى ، واخيرا وافق على حلول وسطى اخرى اقترحها مستشاروه السياسيون . وهذه الحلول غيرت المشروع الاصلى تغييرا جذريا ، كما انها وضعت دون استشارة المخابرات ورؤساء الاركان المشتركة الذين ـ بعد ان سمعوا بها ـ استخدموا كل وسيلة ممكنة لكى ينقضها الرئيس .

وكان الحل الوسط يتعلق بالضربة الجوية الاولى المقرر القيام بها على مطارات كاسترو فى فجر السبت ١٥ ابريل ، فقد كان المشروع يقضى بأن تكون الضربة بكامل القوة ، تشترك فيها كل القاذفات الست عشرة من طراز ب ـ ٢٦ التى كانت فى حوزة

الكوبيين الاحرار يومئذ .. وجادلت وزارة الخارجيـــة قائلة أن الفرقة المهاجمــة سوف تعتبر اكبر من أن تتفق مع الزعم بأن هذه الغارة قام بها طيارون هاربون من كاسترو .. ومن ثم صدر أمــر من البيت الابيض بان تقوم بالضربة الجوية الاولى ثماني طائرات فقط !

وفي ٧ أبريل تقرر الغاء الغــــارة الجوية الثانية كلية ــ وهي التي كان مقررا لها الاحــد ١٦ ابريل ــ وكان السبب الذي ذكر لذلك هــو اصرار وزارة الخارجية (وبعض مستشاري كنيدي) على الاحتفاظ بصورة «عدم اشتراك » الولايات المتحدةفي المسألة .. كمـــا قرر مستشارو الرئيس السياسيون كذلك ان تكون الضربتان الجويتان ــ وهما واحــــدة ونصف فقط في الحقيقة ــ كافيتين لتــدمير طائرات كاسترو على الارض .

وعندما سمعت المخابرات ورؤساء الاركان المشتركة بهذه التغييرات ، فكروا في التوصية بالغاء خطة الغزو كليـــة ، ولكنهم بعد اعادة النظر ، قرروا انه يمكن الاعتماد على الضربة الثالثة المحــــدد لها يوم الاثنين ١٧ ابريل في القضاء على ما قد يتبقى من قوات كاسترو الجوية .



ماكجورج باندي

وفي ١٢ ابريل زاد القلق في وكالة المخابرات ووزارة الدفاع عنــدما صرح كنيدي في مؤتمـــره الصحفي بأنه : «لن يكون هناك أي تدخل في كوبا في أية ظروف بوساطة القــوات الامريكية المسلحة» وقال ان الحكومة تؤكد انه لن يشـــترك أحـــد من الامريكيين في هذا العمل . عنــدما كرر راسك هذا التصريح بعد خمسة أيام ، كان عــاملا ســاهم في الكارثة كمــا سنرى ..

وتحدد ظهر الاحــــد ١٦ ابريل كنقطة اللاعــودة التي لا يمكن بهــا تأجيل العملية ..

***

في فجر السبت ١٥ ابريل وصلت

الطائرات الثمانى المكلفة بشن الغارة الاولى الى الساحل الجنوبى لكوبا من ثلاث طرق مختلفة ، وعبرت الجزيرة من الشمال على ارتفاع منخفض دون ان يلتقطها رادار كاسترو البدائى . وحقق الهجوم مفاجأة تامة ، وقامت ثلاث طائرات بضرب مطار سان انطونيو دى لوس بانوس ، بينما ضربت ثلاث أخرى معسكر كولومبيا فى هافانا ، وهاجمت اثنتان مطار سانتياجو دى كوبا ، وكانت خسائر السرب الكوبى فقد ثلاث طائرات : واحدة من طراز ب ـ ٢٦ اصابتها المدفعية المضادة فسقطت فى البحر وفقد طياراها ، واخرى عادت صوب نيكاراجوا ونزلت اضطراريا فوق (جراند كايمان) وهى جزيرة بريطانية صغيرة ، وثالثة تحطمت بمجرد وصولها الى قاعدة امريكية قرب « كى وست »

واعتبر الكوبيون والمشرفون الامريكيون الضربة المحدودة نجاحا ، فقد هبطت قوات كاسترو الجويةالى النصف ، ولكن بقيت لديه ثلاث نفاثات من طراز ب ـ ٣٣ وثلاث من طراز (سى فيورى) وقاذفتان من طراز ب ـ ٢٦

لقد تحدثت الى بعض الطيارين الذين قادوا الضربة الاولى فقالوا لى ان أكثر شىء كان يثير قلقهم عند ما عادوا الى قاعدة (هابى فالى) هو الخطر الذى تمثله نفاثات كاسترو الباقية وطائرات سى فيورى عليهم .. وكان قلقهم لا يقارن بالالام الذىاحس به الطيارون الذين لم يشتركوا فى المهمة لان طائراتهم بقيتعلى الارض فىنيكاراجوا .. ومعذلك فقداقتنعت بأن الفريقين كانا على ثقة من أن الضربة رقم ٣ (التى لا يزال مقررا أن تنطلق فى الساعة ١ر٤٠ صباح الاثنين) يمكن أن تمحو ما بقى من طائرات كاسترو وأن تقوم أيضا بالمهام المكلفة بها فوقرؤوسالجسور على الشواطىء .. ولكن كان هناك تطور جديد مفاجىء على وشك أن يحدث ..

***

فى الساعة الثالثة بعد ظهر الاحد دعى الطيارون فى قاعدة (هابىفالى) للاجتماع فى مؤخرة كشك العمليات، وظل ضباط المخابرات الامريكية طوالالساعات الاربع التاليةيشرحون المهمة الخاصة بصباح الاثنين بالتفصيل ، وعرضوا صورا جوية رائعة التقطتها طائرات الاستطلاع الامريكية ، وكانت تظهر مكان كل

طائرة وكل بطارية مضادة للطائرات لدى كاسترو ، كما اظهرت ايضا مواقع كل دبابة وكل مدفع ، وتجمعات السيارات ، وسفينة حربيه تقف في ميناء «سينفيوجس» .. ومرة اخرى اتجه الاهتمام للهدف ذي الاولوية : تدمير ما بقي من طائرات كاسترو .

وفى السابعة والنصف صباحا ـ بعد الانتهاء من اصدار التعليمات للطيارين الكوبيين ـ دخل الغرفة مستشار امريكى يدعى جريجورى بل يعمل مدربا لطيارى القاذفات س ـ ٢٦ ، وبعد ان نظر الى ورقة فى يده ، ابلغ الكوبيين انه قد لايكون من الضرورى ان يطيروا فى المهمة المقرر لها يوم الاثنين .. وبدا أن طائرات اخرى ستتولى مهمة القضاء على بقية طائرات كاسترو ، ومع ذلك فقد صدر الامر للطيارين والملاحين بالبقاء حتى تتأكد القاعدة من حقيقة امر واشنطون ... وفى منتصف الليل عاد « بل » يؤكد أن الغارة الثالثة الغيت فعلا بصفة رسمية

وافترض الطيارون الكوبيون ان قرارا مهما اتخذ فى واشنطون ... ولكنهم اعتقدوا انه قرار فى صالح قضيتهم ، ولما لم تكن هناك قاعدة جوية اخرى للكوبيين الاحرار ، فقد ظنوا ان تغيير الاوامر لا يمكن أن يعنى الا شيئا واحدا : أن الطائرات الامريكية ستتولى القضاء على طائرات كاسترو ...

وفى تلك الليلة ، كان الجميع اكثر ثقة من أى وقت مضى ، بنجاح الغزو !

***

ولكن ثقتهم لم يكن لها مايبررها .. ففي اليوم السابق ـ وهو السبت ١٥ ابريل ـ كان لانباء الضربة الجوية الاولى على مطارات كوبا عواقب وضجيج فى الامم المتحدة ... لقد ظهر راؤول كاسترو وزير خارجية كوبا امام اللجنة السياسية للجمعية



ادميرال بيرك

العامة وقال ان الغارات الجوية ليست الا مقدمة لغزو مدبر تموله وتديره الولايات المتحدة . ونفى ادلاى ستيفنسون المندوب الامريكى هذه الاتهامات بشدة وبلاغة .. وهكذا وقع فى شرك محرج !

كانت احدى القاذفات من طراز ب - ٢٦ - كجزء من عملية بلوتو - قد طليت بحيث تبدو كاحدى طائرات كاسترو من نفس الطراز ، واتجهت من نيكاراجوا مباشرة الى ميامى حيث اعلن قائدها الكوبى أن غارة الصباح انما قام بها طيارو كاسترو انفسهم الذين تمردوا مثله على النظام الشيوعى ، والتقطت صور الطيار والطائرة ، وتولت وكالات الانباء توزيع الصور .. والظاهر أن ستيفنسون قد قبل هذه القصة على علاتها - دون أن يدرى أن فى الامر خدعة - فذكر فى دحضه لاتهامات روا أن الطائرات المغيرة هى من طائرات كاسترو ، وأن طياريها هاربون من كوبا ، واشار الى الصور التى التقطت فى ميامى كدليل على ذلك !

ولم يتعب راؤول روا فى نسف القصة ، فان الطائرة التى قادها الطيار « الهارب » الى ميامى كانت تبدو مختلفة بوضوح عن طائرات كاسترو من طراز ب - ٢٦ ، واتهم المندوب الكوبى امريكا باستخدام جنود مرتزقة وقال انهم على وشك الاغارة على كوبا مرة اخرى . ولم يستطع ستيفنسون أن يرد عليه الا بقوله ان خطوات قد اتخذت لحجز الطائرات الكوبية التى هبطت فى فلوريدا ، ولن يسمح لها بالتحليق فوق كوبا .

وفى غمرة الفوضى التى تلت ذلك كان هناك شيء واحد مؤكد ... فعندما علم ستيفنسون بالخدعة التى وضعته فى مثل هذا الموقف المحرج امام الامم المتحدة ، ثار غاضبا ، وكان على حق .. وضاعت حقائق اخرى وسط المتناقضات والانكارات .

ومع ذلك فان الاعمال التى كانت ذروة نهاية الاسبوع المحمومة لا يمكن انكارها ، ففى مساء يوم الاحد ، صدر امر من البيت الابيض يلغى الضربة الاخيرة المهمة المقررة لفجر اليوم التالى - يوم الانزال - وارسل الامر الى كابل وبيسل - رجلى المخابرات - عن طريق ماك جورج بندى مساعد الرئيس الذى قام عندئذ برحلة سريعة الى نيويورك للتباحث مع ستيفنسون . وقد قال

هانسون بلدوين المحرر العسكرى للنيويورك تايمز بعد الغزو بثلاثة شهور : « كان الالغاء كما يبدو نتيجة احتجاجات دين راسك وزير الخارجية ، وادلاى ستيفنسون » .

هذا القرار كتب نهاية الغزو ، واصدر عليه حكما بالكارثة !

***

كان أمر الالغاء ضربة مذهلة لكابل نائب مدير المخابرات ، وهو جنرال سابق فى السلاح الجوى الامريكى له سجل ناصع فى ميادين القتال ، وقد رأى نذر الكارثة بوضوح ، فانطلق مع بيسل الى وزارة الخارجية رأسا .

وأصغى راسك الى التماساتهما وحججهما ، ولكنه لم يتأثر بها ... كانت قوة الغزو فى البحر على مسافة ساعات قليلة من خليج الخنازير .. وذكرا لراسك أن قاذفات الكوبيين الاحرار البطيئة ليست ندا لقاذفات كاسترو التى لا تزال صالحة للعمل ، والتى تستطيع أن تسيطر على الجو وتغرق السفن بالصواريخ .. ومع ذلك فان الوزير لم يتأثر ، وقال ان المخابرات تبالغ فى تصوير خطر طائرات العدو ، وان الاعتبارات السياسية أهم من غيرها .

ومع ذلك وافق راسك أخيرا على الاتصال تليفونيا بالرئيس كنيدى ـ وكان فى بيته الريفى (جلين أورا) بميدلبرج بولاية فيرجينيا ـ وأعاد على مسمعه حجج ممثلى وكالة المخابرات ، معربا عن معارضته هو لها ، فأجاب الرئيس قائلا : « تبقى أوامر الالغاء » .. وعاد كابل وبيسل فى ذهول الى ادارة المخابرات وامتثلا لامر الرئيس .

وكان هذا الامر الذى تحقق منه جريجورى بل واكده للطيارين فى « هابى فالى » فى منتصف الاحد ، ولم يكن لدى هؤلاء الرجال عندئذ وسيلة تمكنهم من معرفة أنه فى تلك اللحظة انهار حلم كوبا فى التحرر ، واحرز كاسترو نصرا ساحقا قبل ساعات من سفك أول نقطة دم على أرض خليج الخنازير .

***

وفى الرابعة من صباح الاثنين بينما كانت الضفادع البشرية تقوم بتعليم الطريق لسفن الانزال بين الصخور قرب خليج الخنازير ، ومع وجود بعض قوات الهجوم على الشاطىء فعلا ، عاد كابل الى راسك يرجو ارسال غطاء جوى من حاملات

الطائرات الامريكيـة التى تقف على مرمى الافق ولما كان الوزير لا يزال معارضا ، فقد اتصل بل بنفسه تليفونيا بالرئيس فى فيرجينيا ، فأيد كنيدى راسك ، وقال ان الرد لايزال: لا ! ..

وهكذا خلال الليلة المشئومة وفى الصباح الباكر اتجه اسطول الغزو ببطء نحوالكارثة ، وكانت هناك خمس سفن شحن صغيرة تحرسها المدمرات الامريكية وسفينتان لانزال المشاة مزودتان برادار من مخلفات الحرب الثانية ، وعلى مقربة كانت حاملتا الطائرات الامريكيتان « اسكس » و « بوكسر » تسيران فى حراسة المدمرات ، وكانت الاخيرة تحمل فصيلة من مشاة الاسطول .

وفى العاشرة مساء تقدمت احدى سفن الانزال سفينة شحن نحو الشاطىء عند جيرون ، وعلى مسافة ٣٠ كيلو مترا الى الغرب قامت سفينة الانزال الثانية بمصاحبة سفينة شحن اخرى الى خليج الخنازير .. ووسط ضجيج محركات الديزل فى سفينتى الانزال، بدأت الاضواء تطفأ فى جيرون، وانطلقت النيران من احد أوكار المدافع الرشاشة ، فانطلقت مدافع احدى سفينتى الانزال فورا من عيار ٥٠ مليمترا واسكتته .. كان الغزو يسير قدما ..

وسرعان ما وثبت فرق الهجوم الاولى الى الشاطىء واندفعت صوب أهدافها ، وقبل الفجر كان كثيرون من الغزاة قد بلغوا بلدة جيرون حيث راحوا يتنقلون من بيت الى آخر مطمئنين الاهالى قائلين : « نحن كوبيون جئنا لتحرير كوبا » ولم يمض وقت طويل حتى سيطروا على المطار وكانوا يعتقدون أن قاذفاتهم ستصل فى ذلك الصباح !

وبعد نزول الغزاة الاول الى الشاطىء ، اقترب غيرهم فى قوارب صغيرة ، وراح آخرون يكافحون لتفريغ سفن الشحن .. وعندئذ اقبلت طائرات كاسترو تزأر، وانطلقت مدافعها وصواريخها .. وكان الرجال على الشواطىء بلا دفاع كلية !

وفى الثامنة صباحا أصيبت احدى سفن الشحن بصاروخ وجنحت على صخرة قرب الساحل ، وسبح رجالها الى الشاطىء بلا مدافع ولا ذخيرة ، وانقضت بعد ذلك طائرات « سى فيورى » فأصابت سفينة شحن أخرى بصاروخ مباشر ، وكانت السفينة تحمل شحنة ثمينة من الالغام الارضية المضادة للدبابات ،

وذخيرة وطعـــام وبنزينا واجهـــزة لاسلكى، فانفجرت بقوة هائلةوغرقت سريعا وضاعت معها مؤونة أسبوع.. وسيطرت طائرات كاسترو على السماء وكانت ثلاث نفاثات ت ــ ٣٣ ومثلها من طراز « سى فيورى » وقاذفتين ب ــ ٢٦ .

***

فى الساعة الثالثة بعد الظهر صدر الامر للســفن الثلاث الباقيــة بترك منطقة الغزو .. وقد جاء الامر من الضابط الامريكى الذى يدير عمليات الانزال من السفينة « بلاجار » التى تقف على مسافة ١٩ كيلو مترا من الساحل ، وكانت هـــذه السفينة المسلحة قــد أفرغت خمس دبابات متوسطة ، وعددا قليلا من سيارات النقل ، ثم رحلت .. وادى الانسحاب الى ترك القوات التى نزلت حبيسة على الشواطىء وليس معها الا اقل من ١٠ ٪ من ذخيرتها وعتادها الذى هى فى أشد الحاجة اليه .. ولــكن فى الوقت الذى كانت قوات كاسترو تطبق فيــــه عليها من الطرق غــير المسدودة ، أخذت تقاتلها وأنزلت بها خســــائر جســـيمة ، كما انضم كثيرون من رجال الميليشيا والاهلين فى منطقة جيرون الى قوات التحرير رغم هذه الظروف التى تثير اليأس .

وطالب قائد الكوبيين الاحرار على الشاطىء مرارا بارسال المســـاعدة الجوية التى وعده بها المستشـــارون الامريكيون فى معســـكر التدريب . وراح يتوسل باللاسلكى قائلا « اين الغطاء الجوى الذى وعدتمونا به ؟.. هل تؤيدوننا أم تتخلون عنا ؟ » .. وقيل له مرارا ان التأييد الجوى فى الطريق ، بل وقالوا له مرة ان الغطاء الجوى ســـيكون فوق راس الجسر خلال دقائق ! .

لقد حلقت نفاثات الاسطول الامريكى فعلا فوق منطقــة الغزو فى عـــدة مناسبات ، وكانت تأتى عادة أزواجا، وجاءت مرة فى تشــكيل من ست طائرات ، وعنـــدما ظهرت أول مرة اختفت نفاثات كوبا من الجو ونظر الغزاة اليها وهم على الشاطىء وهتفوا للطائرات الامريكية وهى تميل بأجنحتها تحية لهم ثم اتجهت للداخـــل ... وتأكدوا عندئذ أن نقطة التحول قد جاءت ، ولكن سرعان ما عادت نفاثات الاسطول نحو البحــر مرة أخرى ، وبعدئذ عادت طائرات كوبا وظلت فى مكانها فوق رأس الجسر على الشاطىء خلال المرات الاخرى التى حلقت فيها الطائرات الامريكية .

وقد علمت فيما بعد ما حدث .. فعندما اعاد راسك في مؤتمره الصحفي يوم الاثنين تصريح كنيدى السابق عن عدم تدخل اية قوات امريكية بأية طريقة ، اكد كاسترو لطياريه ان نفاثات الاسطول الامريكى لا تشكل اى خطر عليهم ، وهكذا جددت نفاثات كاسترو هجماتها المدمرة متجاهلة ظهور النفاثات الامريكية القوية بين حين وآخر لانها لم تشترك فى القتال فى اى وقت .

ومع ان سرب الكوبيين الاحرار لم يكن ندا لنفاثات كاسترو وطائراته الاخرى ، فقد خاض معركة غير متكافئة وفقد نصف طائراته فى اليوم الاول . وواصل الطيارون - وبعضهم جريح - الطيران بين نيكاراجوا ورؤوس الجسور على شواطىء كوبا وهى رحلة تستغرق سبع ساعات ، وحتى بعد ان بدا بوضوح انه لم يعد هناك أمل فى الحملة كانوا يضربون طوابير كاسترو بمدافعهم الرشاشة وصواريخهم وينسفون الدبابات وسيارات النقل المحملة بالميليشيا واغرقوا زورق مدفعية وسفينة خفر سواحل كانت تقترب من شاطىء جيرون .

ولم يبق بعد المعركة الا ثلاث طائرات من الست عشرة طائرة الاصلية ، وفى ليلة الثلاثاء قاد الطيارون الامريكيون عشر قاذفات اخرى الى قاعدة نيكاراجوا لتحل محل الطائرات المفقودة والمعطوبة ، ولكن الشىء الذى نفد فى النهاية هو رجال السرب .

***

كانت الانباء الاولى التى وردت من خليج الخنازير الى واشنطون عن طريق لاسلكى البحرية تؤكد اسوأ المخاوف التى ساورت المخابرات الامريكية ورؤساء الاركان المشتركة .. وعندما علم الرئيس عن هلاك السرب الجوى بوساطة نفاثات كاسترو ، وفقد سفينتى شحن احس بانزعاج ، وبعد ظهر الاثنين اصدر امرا مضادا للامر الذى اصدره مساء الاحد بمنع الغارات على المطارات ؛ وادى ذلك الى ارسال حملة لضرب قاعدة سان انطونيو دى لوس بانوس قرب هافانا فى ليلة الاثنين ، ولكن هذه الضربة المزعومة - كما سنرى فيما بعد - لم تكن ضربة على الاطلاق !

وفى يوم الثلاثاء اخذت كآبة واشنطون التى خاب املها ، تزداد ساعة بعد اخرى .. وفى تلك الليلة ادرك بيسل ان تحذيراته لم يعد ممكنا

تجاهلها دون حدوث خطر .. كان مقتنعا أن الانهيار الوشيك قد سلحه بمحاولة أخيرة لانقاذ (عملية بلوتو) .. وبعث يطلب مقابلة الرئيس كنيدى على عجل .

كان كنيدى يقيم حفل استقبال فى البيت الابيض للوزراء وأعضاء الكونجرس وزوجاتهم ، ولكن الرئيس ترك الحفل ولحق ببيسل فى اجتماع مثير دعى اليه راسك وماكنامارا وليمنتزر والاميرال بيرك وغيرهم ... وقد اتيح لى ان اسمع قصصا متعددة عن هذا الاجتماع كل منها يساند الآخر .

وتوسل بيسل ـ يؤيده بيرك وليمنتزر بتسدة ـ تحقيق الشيء الوحيد الذى يمكن أن ينقذ الغزو ، استخدام قوة أمريكا العسكرية الموجودة على السفن التى تقف على مرمى الافق من كوبا ، ولكن راسك تمسك بمعارضته ..

وعندئذ طلب بيسل وبيرك السماح لفصيلة من مشاة الاسطول الامريكى بالاشتراك فى القتال ، ولكن هذا رفض أيضا ، وقيل لهم ان كل هذه المقترحات تعادل « اشتراك » أمريكا .

وكان آخر طلب قدمه الاميرال بيرك هو استخدام احدث المدمرات الامريكية باطلاق نيرانها على قوات كاسترو ، فسأله الرئيس : « وماذا اذا ردت قوات كاسترو على النار فأصابت المدمرة ؟ »

فرد بيرك قائلا بلهجة قاطعة :

« عندئذ سوف نصليهم نارا حامية » ..

فقال كنيدى : ان هذا يجعل أمريكا مشتركة فى القتال .. وتقول مصادرى ان بيرك رد قائلا :

« اننا مشتركون فعلا يا سيدى .. لقد دربنا وسلحنا هؤلاء الكوبيين ، وساعدنا على انزالهم على الشواطىء .. ولا يمكننا أن نترك هؤلاء الفتيان للذبح هناك .. »

ولعل نتيجة هذا الاجتماع كانت اكثر التسويات جبنا : لقد وافق الرئيس على أن تقوم طائرات الاسطول ـ بعد اخفاء علاماتها الامريكية ـ برحلات « استطلاع » فوق رأس الجسر ، على الا تكون هناك اكثر من طائرتين كل مرة ، وان تحلقا لمدة ساعة واحدة فقط من ٦ر٣٠ الى ٧ر٣٠ صباحا ، وهذا هو مدى التأييد الذى سمح به ... ان الولايات المتحدة لا تستطيع أن تعرض صورتها أمام بقية العالم للخطر ! ..

***

ولقد زعمت قصص كثيرة ان كنيدى اجابة للالتماس الاخير للمخابرات وأركان الحرب المشتركة أمر بارسال مظلة جوية فوق منطقة الغزو ليستطيع سرب الكوبيين الاحرار الهجوم بكامل قوته ، والواقع انه فى صباح الاربعاء ١٩ ابريل كان العدد الباقى من الكوبيين الاحرار القادر على الطيران صغيرا الى حد يرثى له ، ولقد امكن جمع شتات حملة جوية أخيرة فى نيكاراجوا تتكون من طائرة نقل غير مسلحة طراز س - ٤٦ يقودها كوبيان .. وقاذفتين (ب - ٢٦) يقود كلا منهما مدربان أمريكيان ، وقد تطوع الامريكيون لكفالة حراسة الطائرة (س - ٤٦) وكان هدف الحملة هو ان تقوم الطائرة (س - ٤٦) بترك امدادات فى مطار جيرون ، وتعود بطيار كوبى شاب يدعى « ماتياس فارياس » لعله يستطيع تأييد بيسل فى المعركة التى يخوضها فى واشنطون بما يحمل من خرائط وتقارير ارضية عن محنة الغزاة ..

وخلال المعارك الجوية الاولى فوق الشواطىء يوم الاثنين ، كان فارياس يقود قاذفة (ب - ٢٦) فاصاب طائرة (سى فيورى) ودمر اخرى من طراز ب - ٢٦ تابعة لكوبا قبل ان يقتل مساعده ادى جونزاليس وتضطر طائرته للهبوط اضطراريا قرب جيرون ، واستطاع فارياس ان يشق طريقه الى قيادة الميدان بذراع فى جبيرة ووجه مزقه الرصاص وتقرر الآن اعادته الى قاعدة نيكاراجوا ولكن القاذفتين اسقطتا وقتل الامريكيون الاربعة الذين كانوا يقودونها ، وهبطت الطائرة س - ٤٦ فى جيرون ، وهى طائرة الغزو الوحيدة التى استخدمت المطار .. ثم عادت ثانية الى (هابى فالى) وبها فارياس .. وسجل فارياس قصة حية عن الكارثة التى تقع على الشاطىء على شريط مسجل ارسل بالطائرة النفاثة الى واشنطون ولكن الوقت كان قد فات .. لقد ضاعت معركة واشنطون .

***

وعند حلول ليلة الاربعاء ١٩ ابريل انتهى القتال على كل الشواطىء ، بعد ان ظل الرجال ثلاثة أيام يقاتلون دون راحة وبقليل من الماء والطعام . ولم تصل قط الامدادات التى ظلوا يوعدون بها ، ونفدت ذخائرهم وطعامهم ، فسقطوا جميعا تقريبا فى الاسر أو قتلوا ، وهرب قلائل الى البحر فى قوارب صيد صغيرة وجدوها على طول الشاطىء ، وجرفت الامواج

احدها طوال ١٥ يوما وعلى ظهره ٢٢ رجلا حتى التقطتهم سفينة شحن امريكية ولم يبق به غير ١٢ من الاحياء .

وكان قائد الكوبيين الاحرار على الشاطىء قد بعث قبل الخامسة مساء بقليل رسالته الاخيرة الى السفن الامريكية التى تقف على مقربة من خليج الخنازير قال فيها « اننى أدمر كل معداتى . لم يبق لدينا شىء نقاتل به . دبابات العدو وصلت فعلا الى مواقعنا . وداعا ايها الاصدقاء » .

وزحف الرجال فى المستنقعات بما بقى لهم من قسوة ، وعاش البعض اسبوعين قبل ان يموت او يؤسر .

وكانت طائرات كاسترو التى بقيت بفضل الغاء الضربات الجوية تحلق فى الجو باستمرار كل اثنتين معا وجعلت النفاثات الباقية التى تبلغ سرعتها ضعف سرعة قاذفات الكوبيين الاحرار ، تيار المعركة يتحول كما تنبأ بيسل وكابل وبيرك وليمنتزر تماما .

وانتهى الغزو ... ويتردد فى انحاء العالم الآن صدى مباهاة كاسترو بان كوبا الصغيرة رغم قلة ما لديها هزمت العم سام القوى ، وهبطت هيبة الولايات المتحدة فى امريكا اللاتينية والشرق الاقصى وجنوب شرق آسيا ، بل وبين حلفاء اوربا الى الحضيض مرة اخرى ، بينما ارتفعت هيبة كاسترو الى الذروة .. ولم يكن هناك شك فى اى مكان حول « اشتراك » امريكا فى المسألة ، ولكنه كان اشتراكا فى الفشل !

فهل كانت هناك عملية بديلة للغارة الجوية الثالثة التى الغيت ؟

ان روبرت كنيدى المدعى الامريكى العام قال فى حديث غريب مع مجلة « انباء امريكا والعالم » فى ٢٨ يناير ١٩٦٣ انه كان مفترضا أن يحدث هجوم آخر على المطارات صباح الاثنين ، وقد ثارت ضجة عنيفة فى الامم المتحدة وكل مكان آخر ، فسئل الرئيس عما اذا كان الهجوم يجب ان يتم بعد هذه الضجة ، فأصدر تعليماته بانه يجب الا يحدث فى ذلك الحين .. والواقع أن الهجوم على المطارات قد وقع فى وقت تالى فى ذلك اليوم نفسه .

أى هجوم هذا الذى قال روبرت كنيدى انه وقع فى ذلك اليوم فيما بعد ؟..

لقد سمح فى يوم الاثنين لقاذفتين تابعتين للكوبيين الاحرار ان تضربا

مطار سان انطونيو دى لوس بانوس حيث توجد طائرات كاسترو ، ولكن طياريها حذروا بوجوب تفادى أى خطر على ارواح المدنيين او الممتلكات .. وانطلقت الطائرتان من نيكاراجوا فى السابعة والنصف مساء ، ووصلتا الى الهدف بعد ٤ ساعات فى ليل مظلم ، وكانت القاعدة الجوية والبلدة القريبة منها مطفأتى الانوار تختفيان وراء سحب منخفضة ، ولما لم يستطع الطياران تمييز الاهداف اطاعا الاوامر الصادرة لهما وعادا الى نيكاراجوا دون أن يطلقا رصاصة أو يلقيا قنبلة .

وتسمية هذه الرحلة الجوية ليلة الاثنين « هجوما على المطارات » .. ومساواتها بالضربة الاصلية التى كانت مقررة لفجر الاثنين ثم الغيت تسمية لا تتسم بالصدق تماما ، فان الضربة الاصلية كان تنفيذها سيتم بثمانى قاذفات يقودها طياورن مرتاحون امضوا ساعات فى الاطلاع على الصور التى التقطتها طائرات الاستطلاع (يو - ٢) للهدف .

وكان روبرت كنيدى عضوا فى اللجنة التى شكلها الرئيس للتحقيق فى الغزو الفاشل ، واشترك فى كتابة تقرير اللجنة السرى الذى لم ينشر قط ، ولا شك انه كانت امامه كل الوقائع ، بما فيها تلك المتعلقة بالضربات الجوية التى رسمت ثم الغيت ، ولابد انه عرف ان الهجوم الاصلى ليوم الاثنين لم يحدث قط فى ذلك اليوم أو اى يوم آخر .

كما ان تصوير روبرت كنيدى للضجة التى سادت الامم المتحدة وبقية العالم يثير بعض الاسئلة ايضا فنحن نعرف ان جزءا من هذه الضجة كان مبعثه الخوف من خروشوف وتهديده بمساعدة كاسترو وما يتضمنه ذلك من استخدام الصواريخ عابرة القارات اذا لزم الامر ، ولعل هذا التحذير الخطير بالانتقام الذرى قد اثار قلق الاشخاص الذين لم يكونوا مطلعين تماما على الحقيقة ، ولكن ليس من المتصور ان راسك وستيفنسون وبعض مستشارى البيت الابيض كانوا لايعرفون الدليل القوى الذى كان فى حوذة الرئيس كنيدى عندئذ ، وهو انه لم يكن هناك اى صاروخ روسى عابر للقارات فى وضع يسمح باطلاقه فى ذلك الحين !

***

لقد وضعت مجلدات عن اسباب فشل « عملية بلوتو » ويبدو ان بعض القصص قد ابتكرت لتبرئة

المستشارين الذين اثروا على قرارات كنيـدى ، والافتراء فى نفس الوقت على الذين حاولوا باخلاص تخطيط وتنفيذ غزو كوبى لكوبا بحيث يجب أن ينجح .

وانى اعتقد أن النتائج التى توصلت اليهـا تدحض الافتـراءات على المخابرات الامريكية ، وهو السوط المفضل للذين يعتذرون عن حكومة كنيـدى ، ومع ذلك فسيكون من السخف أن يقال ان وكالة المخابرات كانت مبرأة من العيوب .. والا فلماذا مثلاً لم تخطر الحركة السرية المعادية لكاسترو فى كوبا ؟ لقد ذكرت اسباب كثيرة منها ان وحدات هذه الحركة تمت تصفيتها بوساطة عملاء كاسترو كما أعـدم بعض زعمائها المدربين فى أمريكا ، وكذلك الخلاف بين المبعدين الاول مما حال بالتالى دون اندماج الجماعات السرية داخل كوبا . بل لقد قيل انه عندما اقتنعت المخابرات بأن الغزو كتب عليـه الفشل نتيجة لاوامر البيت الابيض بالغاء الضربات الجوية ، فضلت الا تخطر الحركات السرية فى كوبا للاشتراك فى مغامرة سوف تزيد من حصيلة الضحايا .. وقال الن دلاس ان الحركة السرية لم تخطر لاسـباب تتعلق بالامن ، وهذا عذر لا يمكن قبـوله .



تدريب !

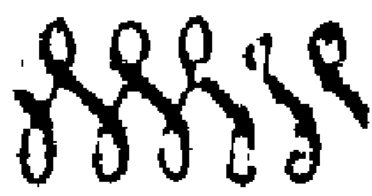
لقد قيل الكثير عن أطباء الجيش ، ولكننى لم أكن أهتم كثيرا بهذه القصص لاننى كنت أعمل فى قسم الاشعة بمستشفى الجيش .. الى أن أصبحت أنا نفسى المريض ..

فبينما كنت انتظر بدء العملية بعد أن اعطيت مخدرا موضعيا ، سمعت أحد الاطباء يلتفت الى زميله ويساله :

ـ من الذى سيجرى هذه العملية ؟

فاجاب الآخر :

ـ أعتقد أننى ساقوم بها .. فاننى فى حاجة الى تمرين !



حق محفوظ !

فى احدى الحانات الامريكية وضعت لافتة كبيرة كتب عليها : « ان ساقى حانتنا يحتفظ لنفسه بالحق فى تجاهل مشكلاتك ! »



٤ ضد بنك انجلترا

تلخيص كتاب

Four Against The Bank of England.

بقلم آن هكسلى كنجز

فى العقد السابع من القرن الماضى استطاع اربعة من المحتالين ان يجعلوا بنك انجلترا فى حالة تنويم مغناطيسى ويسلبوه بسهولة مائة ألف جنيه ظلت معهم بعض الوقت ، وكانت تلك ضربة لم يسبق لها مثيل اذ أن القيمة الشرائية لهذا المبلغ تعادل اليوم حوالى ثلاثة ملايين دولار .

وقد صورت آن هكسلى كنجز هذه الجريمة غير العادية فى كتابها « اربعة ضد بنك انجلترا » بأسلوب ممتع يفيض حيوية وتتابعا سريعا ..

فى تمام العاشرة صباحا ، وبينما أول العملاء يدخل البنك ، أغلق الكولونيل بيرجريت مدجويك فرنسيس بابه فى وجه هذه الحركة الصامتة ، وبدأ عمله اليومى بفتح بريده . كانت الرسائل التى تكدست أمامه على مكتبه الكبير بنظام تحمل عنوان « بنك انجلترا - الفرع الغربى »

« حدائق بيرلنجتون - ماى فير - لندن » .

وكان بين الرسائل حزمة مسجلة من برمنجهام تحمل خاتم بريد اليوم السابق ٢٧ فبراير ١٨٧٣ ، وعرف الكولونيل الخط المألوف لواحد من عملائه الممتازين ، وفتح الحزمة فوجد معها رسالة تطلب اليه خصم الكمبيالات المرفقة بها لحساب العميل الشخصى .. وكانت الرسالة بتوقيع « فردريك البرت وارين »

كانت الحزمة تحوى ٢٤ كمبيالة تبلغ جملة مبالغها ٢٦ الف جنيه استرلينى ، ومع أن هذه المبالغ كانت كبيرة الى حد غير عادى ، فان العملية كانت روتينية فقد سبق أن انجز الكولونيل فرنسيس كمبيالات كثيرة مماثلة لحساب مستر وارين ، ودق الجرس لكاتب الخصم وسلمه الكمبيالات لارسالها الى المركز الرئيسى لبنك انجلترا فى « ثريدنيدل ستريت » .. وبعد دقائق قليلة عاد الكاتب ودق الباب فى أدب وقال :

- أعتقد أنه ينبغى أن ألفت نظركم

الى هذا يا سيدى ..

وسلم الكولونيل كمبيالتين قيمة كل منهما الف جنيه وقال :

ــ يبدو أن تاريخ الاصدار ناقص منهما ..

وفحص الكولونيل الكمبيالتين ثم قال :

ــ يبدو حقا انه حدث سهو هنا .

كانت الكمبيالتان مسحوبتين على ب . و . بلندنشتين وشركاه فى ٢٠ جريت سانت هيلينز ، وهو مصرف ذو سمعة لا يرقى اليها الشك ، ولم يساور الكولونيل فرنسيس اى قلق حيال هذا الشذوذ ، بل طلب الى الكاتب اعادة الكمبيالتين الى بلندنشتين لتصحيح الخطأ وذلك خلال الجولة العادية التى يقوم بها ساعى البنك بعد الظهر .

وقبل نهاية اليوم جاء الرد مع رسول خاص يؤكد ان هاتين الكمبيالتين لم تصدرا عن مصرف بلندنشتين ، وانه يفترض انهما مزورتان !

واثارت هذه الكلمة الرهيبة ــ التى تكاد تكون غريبة على القاموس المصرفى ــ الكولونيل فرنسيس فطلب موافاته بملف مستر وارين ، ثم حمل قبعته وأسرع ليستقل عربته الى المركز الرئيسى للبنك ، وقد تطلب ذلك حوالى ٣٠ دقيقة نظرا لازدحام الشوارع بالمستخدمين العائدين الى بيوتهم فى تلك الساعة ، على الاقدام وفى العربات ، وعند ما وصل فرنسيس الى « ثريد نيدل ستريت » بحث فورا عن فرانك ماى نائب رئيس صيارفة بنك انجلترا

وكانت المقابلة التى تلت ذلك ، والتحقيق المروع الذى اسفرت عنه ، سببا جعل من هذا اليوم ــ ٢٨ فبراير ١٨٧٣ ــ اسود يوم جمعة فى تاريخ بنك انجلترا ، اذ سرعان ما ثبت أن فردريك البرت وارين ، استطاع أن يسلب أقوى منظمة مالية فى العالم مبلغ ١٠٠٠٠٠ الف جنيه بطريقة منظمة ، ويمثل هذا المبلغ ما تعادل قيمته الشرائية اليوم ثلاثة ملايين دولار .

كان الامر غريبا لا يصدق .. أن بنك انجلترا ، قلب الامبراطورية البريطانية المالى فى أقوى فترة من تاريخها كان ضحية خداع احد عملائه ، ولم يصب البنك خلال ١٨٠ عاما بمثل هذا الاذلال ، وكان أسوأ ما فى هذه الاهانة ان مرتكب الحادث اجنبى .. أمريكى من نيويورك !

ولا يزال بنك انجلترا حتى اليوم ــ وبعد ٩١ عاما من الحادث ــ يشعر بالالم من هذه الاهانة التى مست سمعته ، وفى ذلك الحين لم يكن يعادل الالم والاستياء الذى اصاب المسئولين فى البنك غير الفزع الذى استولى عليهم

.. فمن المحافظ ، حتى أصغر موظف في البنك ، راحوا جميعا يسائلون أنفسهم :

« كيف يمكن ان يحدث ذلك بحق السماء ؟ » ..

تعليم محتال

ان الشاب الامريكي ذا المظهر المقبول الذى أطلق على نفسه اسم « فردريك البرت وارين » لم يكن مجرما محنكا ، فقد كان في السابعة والعشرين من عمره فقط ، ولم يكن هناك أي سجل لدى البوليس عنه .. كان اسمه الحقيقي أوستن بايرون بيدويل ، وهو ابن بدال من جنوب بروكلين ..

وقد بدأ عمله مع مؤسسة لسماسرة السكر ، وكانت الاعمال تتسع في امريكا بسرعة مذهلة خلال تلك السنوات التي تلت الحرب الاهلية ، وسيطرت على الشاب أوستن الروح التي كانت تسيطر على الكثيرين يومئذ ، روح الرغبة في الاثراء السريع ، وقد أتاح له عمله في بورصة السكر الاتصال بفريق من رجال الاعمال ذوى المراس الشديد في وال ستريت وتعلم وسائلهم .. وعندما انتقل الى بيت آخر للسمسرة بمرتب ١٠ دولارات أسبوعيا - وكان يومئذ مرتبا طيبا جدا - التقى بشاب يماثله في الرغبة السريعة في الاثراء يسمى « اد ويدز » وسرعان ما اقترح عليه أن يبدآ معا عملا خاصا بهما ، وتأسست الشركة الجديدة بمساندة والد ويدز الثرى ، وكانت السنوات التالية سنوات ذهبية في (وال ستريت) ، مما ادى الى حصول السمسارين الناشئين على عمولات كثيرة ودخل كبير ..

ولكن أوستن وويدز كانا من هواة اللهو ، وكان اهتمامهما بنشاط الليل أكثر من اهتمامهما بنشاط النهار اذ كانا يترددان كثيرا على المسارح ودور اللهو ويصاحبان فتيات الكورس ، ويقيمان المآدب الفاخرة في اعظم مطاعم نيويورك ، ويقامران بمبالغ ضخمة على موائد الروليت .. وفي ايجاز اهمل الشريكان عملهما سعيا وراء المتعة ، ولم تكن أرباحهما تكفي للانفاق على ذلك حتى فقدا في النهاية كل رأسمالهما ، وعندئذ انسحب ويدز من الشركة وسافر الى أوربا .

وفي تلك الفترة المروعة ، تلقى اوستن بيدويل عرضا مغريا من العالم السفلى الذى اتصل به بعض رجاله ذات ليلة بعد ان خسر كثيرا على مائدة القمار ، وكان العرض يتضمن تصريف كمية كبيرة من السندات المسروقة في أوربا مقابل عمولة مغرية .

كانت جريمة سافرة تتطلب دقة تامة وأعصابا من حديد ، ولكنها كانت أيضا منفذا للخروج من متاعبه وقبل وستن القيام بها وسافر الى أوربا حيث نفذ العملية بنجاح ، وعاد الى أمريكا بعد بضعة شهور بعد أن حصل على عمولة قدرها ١٣ الف دولار . ومنذ تلك اللحظة لم يقم قط باى عمل مشروع .

وقد ظل أوستن طموحا حتى فى الجريمة ، لا يستهدف غير القمة ..

وفى عام ١٨٧٢ وهو فى السادسة والعشرين ، كان يمارس نشاطه فى لندن ، مستغلا مواهبه فى تدبير مؤامرة ضد بنك انجلترا .. وكان أوستن فى ذلك الحين قد أصبح شخصية قوية التأثير ، فقد كان شابا وسيما طويل القامة له خصلة من الشعر تتهدل على جبهة عالية ، يحيط به جو من العجرفة الهادئة ، ويحلى أصابعه بخواتم ماسية ضخمة ، وكانت له سوالفه على جانبى وجهه ، وشارب صغير .. واصبح يجارى فى ملبسه وحديثه وسلوكه اشهر شباب المجتمع فى لندن ، وكانت أعظم صفة يتمتع بها أوستن هى قدرته على أن يغرس الثقة فى النفوس !

الهدف : السرقة !

لم يكن أوستن يعمل بمفرده ، اذ كان يعمل فى دوره كفردريك البرت وارين كواجهة لشقيقه الاكبر جورج ، فقد كان جورج بيدويل هو العقل المفكر للمؤامرة ، والمنظم الذى يديرها ..

وكان جورج الذى يكبر أوستن بسبع سنوات قد جمع ثروة متواضعة بالاحتيال على بيوت البيع بالجملة ، باستخدام مراجع صورية للحصول على سلع بالاجل ، وبعد أن طاف بالساحل الغربى لامريكا ، حكم عليه بالسجن عامين فى فيرجينيا .. وبعد اربعة شهور ، هرب جورج يوم عيد الميلاد سنة ١٨٧١ مع اربعة آخرين من السجن .

وعاد جورج الى نيويورك حيث بحث عن أوستن ، وقرر الاخوان أن يجربا حظهما معا فى انجلترا بعد أن اصبح الطريق مسدودا أمامهما فى امريكا ، وكان مع الاثنين بعض الاموال فى ذلك الحين ، كما كانت لديهما ثقة لا حد لها فى قدرتهما على جمع ثروات ضخمة باستخدام ذكائهما .. وصحبا معهما جورج مكدونل خبير التزييف وصديق أوستن المقرب .

وفى أوائل ابريل ١٨٧٢ وصل المغامرون الثلاثة الى انجلترا وكانوا جميعا فى سن الشباب ، فمكدونل فى السابعة والعشرين ، واوستن فى

السادسة والعشرين ، اما جورج ففى الثالثة والثلاثين ، وكانوا يمتلكون فيما بينهم ٤٠ ألف دولار ، واتخذوا لأنفسهم أسماء مستعارة ومسكنا متواضعا فى « هاجرستون » من ضواحى شمال لندن وقضوا ايامهم الاولى كأى سائحين آخرين فى القيام بجولات سياحية .. وعادوا ذات ليلة من رحلة بالباخرة فى نهر التيمس ونزلوا فى منطقة « بلاك فراير » وبينما كانوا يسيرون خلال الجزء الخالى من حى المال بحثا عن مكان للعشاء ، مروا بالمركز الرئيسى لبنك انجلترا فى ثريدنيدل ستريت .. واشار اوستن الى المبنى الضخم الكثير الدهاليز وقال بابتسامة ساخرة:

« اراهن اننا نستطيع الحصول على مليون دولار من هذا المكان بسهولة .. ولن يفتقدوا هذا المبلغ ابدا » .

ورد جورج بأن بنك انجلترا مكان حصين كما يعلم الجميع .. وفى اليوم التالى توجه الثلاثة لزيارة قصر (وندسور كاسل) وانضموا الى فريق من السائحين فى المرور خلال الاجنحة الملكية والاصغاء الى شرح الدليل .. ثم انتحى مكدونل جانبا بزميليه جورج واوستن وتمتم يقول: « ان كل ما نحتاج اليه هو مائة الف دولار لكل منا ، ثم نعود جميعا الى وطننا سعداء ! » .

وانتظر حتى أصبح فريق السائحين بعيدين عن سماع حديثهم ، وأردف يقول : « ان لدى البنك فائضا كثيرا من الاموال .. انني أوافق على أن نحاول » .

وسخر جورج من حديثه ، فقد كان بحكم طباعه منظما فى عمله ، واكثر رزانة من زميليه ، وقد بدت الفكرة امامه لا تطاق ، فقال وهو يخطو مسرعا ليلحق بجماعة السياح :

ـ كفى هراء يا مكدونل ..

ولكن هذا الاقتراح المتهور الذى ساقه اوستن اولا ، ثم كرره مكدونل الآن بدأ يحدث تأثيره فعلا وفى ذلك المساء ، جلس الامريكيون الثلاثة فى استرخاء حول نيران المدفأة فى فندق « كراون » العتيق ، وراح أوستن ومكدونل يناقشان خططهما المستقبلة، بينما أخذ جورج بيدويل القصير العريض الكتفين يحدق فى الرماد بكآبة ... وفجأة مال نحو الآخرين وقال :

ـ اصغيا الآن فى هدوء ... ان الطريقة الوحيدة التى يحتمل توجيه مثل هذه الضربة بها هى من الداخل، كعملاء ممتازين ، ومن ثم فان اول شىء يجب أن ندبره هو فتح حساب لأوستن فى البنك . وفى الوقت الذى

نقوم نحن فيه بالاستطلاع ، يجب ان يستمر هذا الحساب بطريقة سليمة ومبالغ نقدية كبيرة حتى ندعم الثقة ، وفى غضون ذلك نستطيع ان نبحث عن ثغرة ننفذ منها » .

واصغى مكدونل راوستن اليه بأفواه فاغرة ، وكل منهما يحدق فى الآخر فى دهشة وأخيرا ربت اوستن على كتف اخيه فى اعجاب وقال : « اعتقد مخلصا انك تظن اننا قادرون على القيام بهذا العمل »

عمل منظم

قرر جورج أن الفرع الغربى لبنك انجلترا فى بيرلنجتون جاردنز يحى ماى فير قد يكون بصفة عامة أقل ضخامة من المركز الرئيسى فى ثريدنيدل ستريت ، ولكن حتى فى ذلك الفرع من المستحيل فتح حساب بدون ضمانات مناسبة ، ومن ثم فعلى أوستن أن يجد شخصا يوصى به .

وبعد بضعة أيام من مراقبة خفية للقادمين والذاهبين من عملاء البنك، ضاق الاختيار على ثلاثة تجار محليين، هم : صانع نظارات ، ومستورد من جزر الهند الشرقية ، وحائك ثياب .

وانطلق اوستن للتحرى عن هؤلاء المرشحين الثلاثة وقد ارتدى ثيابا تليق بزائر أمريكى غنى .

ودخل اوستن حانوت صانع النظارات أولا ، وطلب رؤية بعض الاشياء ، ثم اختار فى النهاية منظارا غاليا للاوبرا وطلب ان ينقش عليه « الى ليدى مارى من صديقها » وقدم للبائع ورقة مالية من فئة مائة جنيه وقال انه سيعود لاخذ المنظار فى اليوم التالى .. وفى غضون ذلك كانت حاسته السادسة قد أنبأته أن هذا الرجل لا يصلح للدور المطلوب منه .

وتوجه بعد ذلك الى محل المستورد من الهند الشرقية ، واختار شالا ثمينا من الحرير الابيض وسجادة من وبر الجمل الناعم وقدم أيضا ورقة من فئة المائة جنيه ، وراح يدرس صاحب المتجر خفية ... وللمرة الثانية قالت غريزته : كلا !

واخيرا زار اوستن حائك الثياب ادوارد هاملتون جرين فى « سافيل رو » رقم ٣٥ ، فأحس على الفور انه وجد ضالته المنشودة فى هذا الرجل الضئيل الحجم البادى الاحترام .

وراح يتطلع الى الاقمشة العديدة التى تملأ جدران المتجر ثم احذ يطلب تفصيل عدد من أفخم الحلل والمعاطف حتى بلغ عددها سبع حلل ومعطفين، وثوبا للنوم من ارقى الانواع .

وبينما كان الترزى يأخذ مقاييس

عميله الجديد ، راح أوستن يتحدث في مرح عن زيارته الاخيرة لانجلترا وغبطته بزيارة الاماكن التاريخية ، وتحمس جرين لهذا الشاب الامريكي الساحر الحديث ـ الذي يبدو شديد الثراء ـ ثم سأله في حذر عن ضامن حتى يستطيع أن يفتح له حسابا ، وقدم له دفتره ليكتب اسمه .

فأمسك الامريكي الدفتر وكتب : « فردريك البرت وارين » ـ فندق جولدن كروس ـ لندن . ثم قال :

ـ سوف ادفع ثمن كل شيء نقدا، ولا حاجة لفتح حساب لي لانني لست من اهل البلد .

وعند مغادرة المتجر استقل أوستن عربة الى جولدن كروس حيث استأجر غرفة باسمه الجديد ، وفي خلال الاسبوعين التاليين ، عاد أوستن لاجراء بروفتين ؛ وكان في كل مرة يوثق معرفته بجرين .. وفي المرة الثانية طلب مزيدا من الثياب ، وبعد بضعة ايام توجه الى المتجر في عربة مليئة بالحقائب التي تعلوها حقيبة جلدية جديدة غالية الثمن كتب عليها حروف « ف . ا . و » .. وقال مشيرا الى هذه الحقيبة : هل تتكرم بحزم ثيابي في هذه الحقيبة يا مستر جرين وارسالها الى رقم ٢١ انفيلدرود في هاجرستون اذ انني سوف أقضي أياما قليلة في ايرلندا مع لورد كلانكابرتي .. وسوف أسدد حسابي الآن .

وقدم ورقة جديدة من فئة ٥٠٠ جنيه لسداد المطلوب منه وقدره ١٥٠ جنيها ، وعندما أعطاه جرين الباقي دسه في جيبه في اهمال وصافح الترزي بحرارة وانصرف.. ولكنه توقف عند الباب وسأل عما اذا كان يستطيع أن يطلب معروفا .. ثم قال : « ان معي من النقود أكثر مما ينبغي أن أحمله معي في هذه الزيارة .. فهل يمكنك أن تحتفظ لي بمبلغ نقدي صغير حتى أعود ؟ » .

ـ أستطيع بكل تأكيد ياسيدي.. يسعدني جدا أن أساعدكم .

ولكن عندما عرض أوستن رزمة من أوراق النقد مجموعها أكثر من الف جنيه ، شحب وجه الترزي وقال انه لا يستطيع احتمال مسئولية كل هذا القدر الذي ينبغي اعادته الى البنك .

وهنا حانت اللحظة التي ينتظرها اوستن .. فأسرع يقول : ولكن ليس لي حساب في اى بنك هنا انني مجرد زائر لبلادكم .

وفعلت الحيلة فعلها الساحر اذ قال جرين :

ـ انني واثق انني استطيع تدبير

هذا فى لحظات .. يسعدنى تقديمك الى البنك الذى اتعامل معه . انه يقع فى نفس هذا الشارع .

وكان الباقى روتينيا ، فقد قدم جرين عميله أوستن الى مستر فنويك نائب مدير الفرع بحرارة بالغة - اذ كان المدير غائبا لان اليوم سبت - وقام فنويك بأقل قدر مستطاع من الشكليات لفتح الحساب وكتب أوستن اسمه على انه فردريك البرت وارين ، ووصف نفسه بأنه «وكيل» لاحدى الشركات يزور أوروبا لبعض الاعمال ، وأودع الف جنيه من أوراق النقد وحوالة على بنك كونتننتال ثم سأل بسذاجة عما اذا كان يجب ان يصحبه جرين كلما رغب فى ايداع مبلغ آخر ، فقال فنويك :

- كلا يا سيدى .. لقد أصبح لك الآن حساب خاص لدينا ، ويمكنك ان تقوم بايداع او سحب اى مبلغ كلما شئت ..

وقدم لمستر وارين دفتر شيكات يحوى ٥٠ شيكا .

وفى ذلك المساء ، شرب فردريك البرت وارين والكابتن برادشو (جورج بيدويل) ومستر مابلسون (ماكدونل) نخب نجاحهم فى حفل عشاء بفندق جروفنر الانيق بحى فيكتوريا الذى قرروا الانتقال اليه من هاجرستون .

اعداد الصفقة

رأى جورج أن الخطوة التالية هى اظهار المودع الامريكى الجديد كرجل اعمال كثير المعاملات ، ومن ثم بدا « مستر وارين » ينقل المبالغ داخل وخارج حسابه بنشاط كبير حتى عرفه صرافو البنك بسرعة ولم يعد اسمه أو شخصيته يثيران أدنى فضول ، ومع ان مجموع رأس مال الثلاثة كان يستخدم فى هذه المناورات ، فقد قرر جورج بعد قليل انه لا يكفى ، ومن ثم بدأ سلسلة من الغزوات السريعة فى الخارج .

كانت الطريقة بسيطة .. لقد ذهب جورج أولا الى ليفربول حيث حصل على خطاب اعتماد بمبلغ ٣٠٠ جنيه من بنك جنوب وشمال ويلز باعتباره رجل اعمال أمريكيا يوشك على القيام برحلة الى أوروبا ، كما حصل على خطاب توصية من مدير البنك ليقدمه معه ، واستغل مكدونل مهارته فى التزييف فقام بصنع عدة نسخ من خطاب الاعتماد بعد تغيير المبلغ فى كل واحدة ، وجعل كلا منها باسم وهمى ، كما اخرج نسخا من خطاب التوصية ووجهها الى عدد من البيوت المصرفية الكبرى فى أوروبا .

وسافر مكدونل وأوستن الى برلين ودرسدن مزودين بهذه الاوراق بينما

ذهب جورج الى بوردو ومارسيليا وبون ، وحرصوا على أن تكون كل عملية بمبلغ صغير حتى لا يثيروا شكوك المصارف ، وعادوا جميعا الى لندن فى سلام وقد زادت ثروتهم حوالى ٨٠٠٠ جنيه .

ولكن ذلك المبلغ لم يكن كافيا أيضا كما رأى جورج ، وقال انه ينبغى جمع المزيد من المال على أن يتخذوا هذه المرة مزيدا من الاحتياط لسلامتهم بالعمل فى جنوب أمريكا ، اذ لو أن أى مصرف ساوره الشك فى أوراقهم فى أوربا فانه يستطيع الابراق الى البنك الذى أصدرها للتأكد منها ، أما فى البرازيل فان الطريق الوحيد للاتصال بانجلترا هو البريد الذى يستغرق ٤٠ يوما للحصول على رد . ومن ثم قرر جورج الذهاب الى ريودى جانيرو .

وللمرة الثانية كان مكدونل هو العنصر الذى لا غنى عنه فى هذه العملية ، فقد كان شابا ذا مواهب غير عادية ، يتحدث خمس لغات بطلاقة ، كما انه محدث ذكى له شخصية مغناطيسية ساحرة ، وكان على عكس الاخوين بيدويل نشأ نشأة راقية ، اذ كان سليل أسرة غنية من بوسطن وقد تلقى تعليمه على أيدى مربين خاصين ثم دخل جامعة هارفارد ، ولكنه ترك الكلية بعد عامه التالى وبدد العشرة آلاف دولار التى تركها له أبوه فى محاولة العمل كسمسار للاوراق المالية بنيويورك ، وانحرف بعد ذلك الى عالم الجريمة .

وفى سن الثانية والعشرين ، حكم عليه بالسجن عامين فى سنج سنج لتزويره شيكا ، وفى السجن التقى بالمزور الكبير جورج انجلز المعروف باسم «مرعب وال ستريت» فأصبح مكدونل تلميذا لهذا الاستاذ ، وعاد الثلاثى المتخصص الى لندن فى منتصف اغسطس وقد زادت ثروتهم حوالى ١٠٠ ألف دولار من حصاد عملياتهم فى أوربا وجنوب أمريكا ، ليستعدوا للهجوم على فريستهم الرئيسية : بنك انجلترا ! .

ماك يجد المنفذ

أصر جورج بعد ذلك على اتخاذ أدق الاحتياطات ، فقرر الا ينزل الثلاثة معا فى فندق واحد ، وأن يتنقل كل منهم كثيرا مستخدما فى كل مرة اسما جديدا ، وكانوا لا يتقابلون خلال النهار الا فى مقهى بحارة ضيقة تقع فى مكان منعزل قرب (فينسبري سيركس) ، وكانت تحوى غرفة خلفية صغيرة اتخذوا منها مكتبا خلال الاشهر التالية .

ولكنهم كانوا يقضون أغلب وقتهم

في أوربا لزيارة مختلف المدن لتنشيط حساب وارين الذى بلغ متوسـطه حوالى ٦٧ ألف دولار ، وكانت معاملاته على نطاق واسع ، اذ كانت الشيكات والحوالات تسحب على ١٢ بنكا مختلفة في باريس وفينا وفرنكفورت وامستردام وهمبورج وروتردام ، وكانت تودع في الحساب ثم تسحب مرة اخرى لتكون هناك دورة مستمرة لصفقات أعمـال . ولم يكن الذى المسئولين في البنك مايثير ريبتهم في أن المبلغ نفسه يدور مرة بعد اخرى ، ومع ذلك فقد رأى جورج أن الوقت حان الان يقوم « مستر وارين » بزيارة لمدير الفرع الغربى للبنك .... وفي ٣ سبتمبر اضطلع أوستن بهـذه المهمة .

كان الكولونيل فرنسيس قد عين مديرا للفرع منذ ٣ شهور فقط ، ومن حسن حظ أوستن أن الكولونيل كان يعتمد كثيرا على النصيحة تأتيه فتولك الذى قدم له وارين بحماسة ظاهرة ، وتحدث وارين عن طبيعـة اعماله النامية ، فقال انه يهتم اساسا بادخال عربات البولمان الامريكيـة الحديثة الى اوربا في الوقت المناسب للمعرض الكبير الذى سيقام في فينا في العام التالى . وقال انه يبحث عن تسهيلات صناعية في انجلترا ، كما يدرس نظم السكك الحديدية في أوربا .. ثم أضاف قائلا : « ولما كانت كل واحدة من هذه العربات الفـاخرة تتكلف ....٤ جنيه ، فانني سأتعامل بمبالغ ضخمة قبل نهاية العام لتحويل المقاولين وغير ذلك وقـد يكون من الضرورى الحصول على تسهيـلات للقروض من حين لآخر »

فقـال الكولونيـل فرنسيس دون تردد : انه يمكنه تدبير ذلك بطريقـة مرضية .

وختم وارين حديثه قائلا : « وفي نفس الوقت أود ايداع هذه السندات البرتغالية لحفظها في خزائنكم ومجموع قيمتها ....٨ جنيه فقط » .

وكانت السندات حقيقية ، وقـد دعمت ثقة الكولونيل بأوستن كمـا كان يبغى .

وبدأ الشركاء الثلاثة يدرسون الآن باهتمام متزايد كل التفصيلات الخاصة باجراءات الاعمال في أوربا للبحث عن أية نقطة ضعف ممكنة ، وأخيرا وجد مكدونل الشرخ الذى يبحث عنـه في الدرع ، فأبرق من لندن في أواخـر اكتوبر الى جورج في فرنكفورت يقول : « اكتشفت شيئا عظيما ، تعال فورا ـ ماك »

وعاد جورج فورا .. وبينما كانوا يتناولون طعام الافطار معا في فندقهم

بحي فيــــكتوريا ، شرح مكـدونل الاكتشاف الذى توصل اليه بطريقة مثيرة ..

كان قد اشترى فى روتردام كمبيالة تستحق بعد ثلاثة شهور كالمعتـاد ، وكانت مسـحوبة على بنـك لنـدن وستمنستر باسـم اخـوان بارنج ، وهو بيت مالى تجارى فى لندن لا يرقى الشك الى سمعته . وعندما قـدم الكمبيالة الى بنك لندن وستمنستر خصموها فورا ودفعوا له قيمتهـا نقدا دون اعادتهـا الى اخوان بارنج للتأكد منها .

وذهـل مكدونل .. ففى امريكا تعاد هذه الكمبيالات للاشـخاص المصـدرين لها لتذيلها قبل الوفاء بها . أما هنا فى لندن - مركز العالم المالى - فلا يوجد مثل هذا الاجراء الوقائى .. ولا يقوم البنك بأية مراجعة خلال الفترة الباقية على موعد الوفاء بالكمبيالة ، بل يعتمد على سمعـة العميل الذى قدم الكمبيالة للخصم !

واثبتت التحريات أن هذا الاجراء متبع فى كل بنوك انجلترا .. اى انه يعنى أن الكمبيالات الزائفة التى تودع باسم مستر وارين يدفع بنك انجلترا قيمتها ، ولا يكتشف تزييفها الا بعد ثلاثة شهور ..

وابتهج الامريكيون الثلاثة .. فقد كانت تلك هى الثغرة التى يبحثـون عنها ! ...

التمهيد للضربة

قرر الثلاثة أنه لنجـاح خطتهم الطموح ضد بنـك انجلترا لابد من وجود حساب فى بنك آخر لتحـويل ما يحصلون من بنك انجلترا اليه .. وبناء على طلب جورج قام أوستن فى ٢ ديسمبر بايداع ١٣٠٠ جنيه فى بنك كونتننتال فى لومبارد ستريت ، بعد ان فتح حسابا باسم (تشارلس جونسون هورتون) رجـل الاعمـال الامريكى ، وسيكون من الضرورى بعد هذه الخطوة أن يقوم أحد الاشخاص بسحب المبالغ شخصيا من الفـرع الغربى لبنك انجلترا ..

كما رأى جورج أيضا أنهم فى حاجة الى رجل أخر يكون عمله الوحيـد القيـام بعمليات السحب والايداع وغيرها من المعاملات حتى يصبح من العسير اقتفاء أثر النقود ، وسيستخدم هذا الشخص باعتباره كاتبا خاصـا لمستر هورتون وتكون له حرية تامة فى العمل باسم رئيسه حتى يتيح لهورتون - أى أوستن - ان يكون فى مكان آخر عندما تتم الخبطة الاخيرة .

ووقع الاختيـار على أدوين نويز بهذه المهمة ، وهو صـديق قـديم لاوستن من هارتفورد بولاية كونكيتيكت

وكان مزيف شيكات صغيرا أفرج عنه أخيرا من سجن نيوجرسي بعد ان قضى فيه ٧ سنوات .. وفي ٨ نوفمبر كتب له أوستن من لندن يطلب اليه الحضور عبر الاطلنطي ، وبعث له الف دولار كهدية !

كان جورج قد اكتسب عادة جديدة منذ شهور ، اذ كان اينما ذهب ، راح يطوف بمتاجر الادوات الكتابية ويجمع منها كمية كبيرة من الاوراق المختلفة والاحبار الملونة ؛ وأنواعا من الاقلام وريش الكتابة وشموع الاختام ، والاختام المطاطية وغيرها من الادوات التي تفيد في تزييف الوثائق ، وبدأ يجمع أخيرا صورا بيضاء للكمبيالات ، كما حصل خلال رحلاته على صور من كمبيالات مطبوعة بالفرنسية والالمانية والهولندية والايطالية والروسية والتركية والعربية .

ولكن ... هل كان بنك انجلترا على استعداد لقبول الكمبيالات المقدمة من وارين في معاملات روتينية؟ وفي ٢٩ نوفمبر ، تولى أوستن مهمة اكتشاف ذلك بناء على طلب جورج ، فاشترى كمبيالتين كل منهما بمبلغ ٥٠٠ جنيه على مؤسسة سوس وسيبث ذات السمعة المحترمة في لندن ، وقدمهما الى الكولونيل فرنسيس قائلا : « سوف اتعامل بكثير من الكمبيالات المماثلة ياكولونيل خلال المفاوضات المالية الخاصة بعقود عربات البولمان ، ولكن قبل التعامل في أوراق من هذا النوع اريد أن أحصل على تأكيد منكم بأنكم على استعداد لخصمها بالطريقة المعتادة ! » .

فقال الكولونيل فرنسيس ان المكتب الرئيسي في ثريد نيدل ستريت يجب أن يراجع الكمبيالات أولا . ثم قال : ولكنك اذا عدت بعد ظهر اليوم يا مستر وارين فسوف أحصل لك التصديق اللازم دون شك .

وتم خصم الكمبيالتين بعد الظهر ، مما يعني أن وارين اصبح في الحقيقة معتمدا كعميل لخصم الكمبيالات لحسابه ، ولم يكن هذا الامتياز ليمنح عادة الا عن طريق المركز الرئيسي للبنك وللافراد المعروفين شخصيا لاحد مديري البنك فقط .. ولكن أوستن حقق هذا المستحيل بالظهور بمظهر السذاجة والصراحة !

وابتهاجا بنجاح شقيقه ، أبرق جورج الى نويز يوم الاثنين ٢ ديسمبر يقول : « تعال يوم الاربعاء على الباخرة اتلانتيك ولا تتأخر » .

وهكذا لم يتح لنويز غير يومين فقط للاستعداد للرحلة ...

ولكن جورج كان قد اطبق الآن على فريسته ! .

عيد ميلاد سعيد يا كولونيل !

عنـدما وصلت السفينة أتلانتيك الى ليفربول في ١٧ ديسمبر وعلى ظهرها نويز ، كان جورج وأوستن في انتظار القطار الذي حمل ركابها الى لندن ، ونقلا نويز الى فندق جـروفنر . وكان نويز الذي يبلغ التاسعة والعشرين صغير الحجم ، هادئا ، تنم ملامحـه عن احترام متواضع ، وقد استولى عليه الانزعاج في البداية عندما علم انهم يعملون ضد بنك انجلترا ، ولكن جورج وعـده بخمسة في المائة من الغنيمة اذا اتبع التعليمات التي سـيتلقاها فورا ، وهكذا اضطر الى الموافقة في النهاية .

وكانت احدى الخطوات الاولى التي قام بها جورج ، الذهاب بنويز الى حائك للثياب في « هانوفر سكوير » وأمر له بمجموعة كاملة من الثياب من قماش رخيص والوان قاتمـة ، ثم اشـترى له قبعة ديربي ومظلة وطلب اليه أن يحملها مطوية في احكام في الايام الصافية السماء ، وكل هذه تدابير تجعل منه شخصا لا يمـكن تمييزه عن أي كاتب آخر في المدينة .

ولاثبات أن نويز شـخص غريب تماما على مستر هورتون ، طلب منه جورج أن ينشر اعلانات في صحيفة الديلي تلغراف لمدة ستة أيام متوالية ، يعلن فيها عن رغبته في العمل لدى شخص من رجال الاعمال ، وأعطى عنوانه على فنـدق دورانت بميدان مانشستر . وقد تلقى بين ٥٠ و ٦٠ ردا كان بينها رد من هورتون وبعد بضعة أيام توجه أوستن ، الذي يقوم بدور هورتون ـ لمقابلة نويز بالفندق واتفق على العمل معه على مسمع من موظفي الفنـدق ، بعد أن أعلن رضاءه عن مؤهلاته ، وطلب اليه ان يصحبه الى محاميه لتوقيع الاتفاق بينهما .

وفي مكتب المحامي ديفيد هاول تم اعداد العقد بين تشارلس جونسون هورتون من أصحاب المصانع ، وبين ادوين نويز الكاتب التجـاري المقيم بفندق دورانت . ووافق نويز في العقد على أن يعمـل كاتبا ومديرا لأعمال مستر هورتون مقابل ١٥٠ جنيها سنويا ، بعد ايداع ٣٠٠ جنيه كتأمين يعاد اليه مع الفوائد عنـد تخليه عن العمل .

وكانت تعليمـات جورج تقضي بوجوب حمل نويز للاتفاق ونسخة من الديلي تلغراف بصفة دائمة اثباتا لبراءته اذا لزم الحال .

وصحب أوستن ـ متنكرا باسم

هورتون – كاتبه الجديد نويز الى بنك كونتيننتال وقال لهم انه سيعمل باسمه في كل مجال وطلب اليهم معاملة نويز كما يعاملونه هو شخصيا .. وقبل عيد الميلاد بيومين عاد اوستن الى شخصية وارين ، وزار الفرع الغربي لبنك انجلترا حيث هنأ الكولونيل فرنسيس بالعيد وابلغه انه سيرحل عن لندن في اوائل العام الجديد ليقضي بضعة اسابيع في برمنجهام لاختيار مكان لمصنع عربات البولمان . وطلب اوستن ارسال اية مكاتبات اليه عن طريق مكتب البريد العام في برمنجهام ، ثم قال انه سوف يرسل الكمبيالات الى البنك بطريق البريد المسجل .

وقبل الكولونيل فرنسيس هذه التصرفات الجديدة ببساطة ، وهكذا اتاح لاوستن فرصة للهرب من البلاد في الوقت الذي يمكن ان يكتشف فيه البنك الكمبيالات الزائفة . وقد ابتكر جورج هذا الترتيب كوسيلة لحماية أوستن ، أما جورج نفسه فسوف يعمل باعتباره وارين في برمنجهام ، لان اتصاله الوحيد بالبنك سيكون بطريق البريد من مصدر لا يمكن اقتفاء أثره .

وفي ٢٨ ديسمبر – اى بعد خمسة أيام – توجه جورج الى برمنجهام لاختبار دقة الاداة التي صنعها ، وهناك قلد خط اوستن ، وبعث برسالة مسجلة الى الكولونيل تحوي عشر كمبيالات لخصمها لحسابه ، وكانت كلها صحيحة ومسحوبة على اكبر البيوت المالية في اوربا وتبلغ جملة مبالغها ٤٣٠٧ جنيهات و٤ شلنات و٦ بنسات وقد تم خصمها على الفور في الفرع الغربي دون اى شك مما دل على أن الأداة تعمل بنجاح .

نهر الذهب

وفي ٢١ يناير قام جورج باول اختبار للكمبيالات التي زورها مكدونل ، بعد أن حذر ماك ونويز بالاستعداد للهرب فورا اذا وقع شيء .. ثم ارسل ثلاث كمبيالات للكولونيل فرنسيس من برمنجهام تبلغ جملة قيمتها ٤٢٥٠ جنيها ومعها رسالة باسم وارين يرجوه خصمها واضافة قيمتها لحسابه .

وظل جورج فريسة للرعب طوال الثماني والاربعين ساعة التالية حتى تلقى ردا من الكولونيل يقول :

« سيدي العزيز ..

« تلقيت طلبكم المؤرخ ٢١ الجاري ومعه كمبيالات بمبلغ ٤٢٥٠ جنيها لضمها لحسابكم وقد تمت الاجراءات لتحويلها لحسابكم .. المخلص دائما .

ب . م . فرنسيس .

وابتهج جورج ، فقد كانت لهجة الرسالة تكشف عن ثقة تامة بين المدير والعميل .. وعاد جورج فورا للاشراف على تحصيل النقود ..

كانت تلك المهمة من شأن نويز ، وهى مهمة دقيقة .. وكان أوستن قد ترك وراءه دفتر شيكات على الفرع الغربى بعد أن وقع الشيكات باسم ف.١٠وارين ، واستخدم نويز هذه الشيكات لنقل الاموال الى حساب هورتون ببنك كونتننتال ، وكانت هناك شيكات بيضاء أيضا على هذا البنك موقعة باسم هورتون ، فبدأ نويز يسحب النقود بهذه الشيكات. وكانت المبالغ التى يسحبها كبيرة الى حد يمكن أن يثير حرجا ، وحتى لا يمكن تتبعها ، لجأ نويز الى كل وسيلة ، فقام بتغيير الاوراق النقدية الى جنيهات ذهبية من قسم الاصدار ببنك انجلترا الرئيسى ، ثم بدل الذهب بأوراق نقدية ، واخيراأشترى بها سندات أمريكية وعملات أجنبية.

سار كل شيءوفقا للخطةالموضوعة، وعاد جورج الى برمنجهام فى ٢٤ يناير ، وفى هذه المرة زاد عدد الكمبيالات المزورة الى ثمان مجموع مبالغها ٩٨٥٠ جنيها وقد خصصت كلها فى الفرع الغربى دون ريبة .

وفى الايام الخمسة الاولى ، حصل الامريكيون على ١٤ ألف جنيه ، وقد توسل نويز الى جورج للتوقف بضعة أيام ريثما يحول النقود من عملة لاخرى ، وكان نويز يساوره قلق بالغ حيال الموقف بعد ان امتلأت كل حقيبة فى مسكنه بشارع شارلوت رقم ٥ بالذهب او الاوراق المالية،كما كان لديه ما يساوى ٥٠٠٠ جنيه من السندات الامريكية الموضوعة تحت حشية فراشه .

وانتظر جورج حتى ٣ فبراير قبل ان يبعث بالدفعة التاليةمن الكمبيالات الزائفة بالبريد ومجموع مبالغها ١١٠٧٢ جنيها .. ولم يبق من الكمبيالات الاصليةالتىزيفها مكدونل وعددها ٢٤ غيركمبيالتين ، واضطر ماك الى العودة للعمل مرة أخرى .. وتفاديا لاكتشاف الامر اضطر الى الاستمرار فى العمل ، وقد وجد له جورج غرفتين فى طابق أرضى بفندق صغير تديره السيدة اجنس بلندا جرين بميدان سانت جيمس رقم ١٧ وفى تلك الورشة المرتجلة التى أسدلت مصاريع نوافذها بصفة دائمة عكف مكدونل على أحباره وأوراقه وكليشيهاته ساعة بعد أخرى .

وبعد ارسال الدفعة الثالثة من الكمبيالات بالبريد من برمنجهام ، حصل الامريكيون على٢٥ ألف جنيه ..

تساوى قوتها الشرائيــة الآن ٧٥٠ ألف دولار - وفى تلك المرحلة ظهرت مشكلة غير منتظرة ، فقد كتب أوستن من باريس الى جورج يقول انه تزوج! وكان اوستن قد التقى فى لندن باحدى فتيات المجتمع فى باريس وهى حسناء فى الثامنة عشرة تسمى جين ديفرو فأحبها ولكن جورج منعه من الزواج بها حتى لا يعرض العملية للخطر .. أما وقد سارت الامور على ما يرام فان اوستن يعتقد ان جورج سيكون أكثر تسامحا .

وفى ٧ فبراير سافر جورج ومكدونل ليلا الى كاليه حيث التقيا بأوستن على رصيف الميناء فى منتصف الليل ، وبعد تهنئته بالزفاف قدما اليه هدية الزواج وهى حقيبة سوداء جـديدة تحوى ١١٠٧٢ جنيهـا من الاوراق المالية والسندات - عبارة عن حصيلة الاسبوع السابق - ثم عاد الاثنان الى انجلترا وبعد ظهر اليوم التالى تزوج أوستن فى السفــارة الامريكيــة بباريس .

وبعودة اوستن استأنف الثـلاثة روتينهم المعهود فى لندن ، فانهمك مكدونل فى التزييف بينما قام جورج بارسال الكمبيـالات المزورة بالبريد من برمنجهام ، وكانت مبالغها تزداد باستمرار حتى بلغت قيمة الدفعــة الاخيرة منها حوالى ١٩٢٥٣ جنيها ، وكان نويز يسحب الاموال ويحولها الى ذهب وسنـدات .. وظلت الآلة تدور دون خلل ، بينما كانت الرسائل مستمرة بين وارين والكولونيـل فرنسيس بلهجة ودية وثيقة .

وفى ٢٠ فبراير بعث وارين رسالة للكولونيل يقول فيهـا انه كان قد أصيب فى حادث سقوط من على ظهر جواد ، ولكنـه تحسن ويحتمل أن يستأنف حيـاته النشيطة مرة أخرى خلال أيام قلائل .

وكانت الحياة النشيطة التى يعنيها جورج هى الاستعداد للهرب .. كان يريد ان يرحل عن البلاد فى بداية الاسبوع الاول من مارس ، تاركا أمامه ثلاثة أسابيع قبـل أن يحـل موعد سداد أولى الكمبيالات الزائفة فى ٢٥ مارس وتكتشف الجريمة .

لقد أصبـح لدى الامريكيين الآن ٧٨٤٠٠ جنيه مخبأة فى أمان مقابل ٧٠ قطعة من الورق لاقيمة لها ، بينما كان بنك انجلترا لايزال يغط فى نومه ... رأى جـورج ان وقت التسلل والهرب قد حان !

الدفعة الاخيرة

فى ٢٦ فبراير ، بعـد أن سحب نويز كل حصيلة الضربة الاخـيرة ؛

استعد جورج للانسحاب ٠٠ وتناول مع ماك ونويز غداء شهيا على سبيل الاحتفـــال ، ثم اعتكفوا فى مسكن مكدونل بميـدان ســـانت جيمس وأغلقوا الباب على أنفسهم ، وراحوا يحرقون كل أدوات التزييف والادلة التى تثبت جرائمهم وجمع جـــورج اكداس الورق والبروفات والكمبيالات الزائفة التالفة وألقى بها جميعـا فى النار ، بينما احتفظ مكدونل بمجموعة من أحسن العينـــات التى زورها ، لاستخدامها فى المرة الاخيرة ٠

وراح يتحسسها بأصابعـــه فى صبر ثم غمغم يقول : انها قطع فنية رائعة ، وسيكون احراقها أمرا يرثى له

وقلب جورج الكمبيالات بين يديه وهو يدرسهـا فى تأمل ٠٠٠ كانت مقنعة الى حد مذهل ٠٠٠ ثم ســأل مكدونل :

ـ هل تصلح لارسالها يا ماك ؟

فأجاب ماك : أجل ٠٠ بعد ملء بعض التفاصيل الصغيرة

فقال جورج : حسنا ٠٠ فلنعملها ٠٠ مرة أخرى فقط ٠

واختاروا منها ٢٤ واحـدة ـ هى أكبر دفعة تقرر ارسالها ـ وبعد ان ملأ مكدونل التفاصيل التى وجدها ناقصة ، بعث بها جورج الى الكولونيل فرنسيس مع رسالة باسم وارين ، وقد ذهب الثلاثة معـــا الى برمنجهام لارسالها بالبريد بعد أن تخلوا عن كل حذر سابق ٠٠ وكانت جملة هذه الكمبيالات ٢٦٢٦٥ جنيها ٠

ولكن ماك ـ كما سبق أن رأينا ـ نسى تفصيلا جوهريا عنـدما أهمل كتابة تاريخ كمبيالتين كل منهما بمبلغ ألف جنيه ٠ وافترض الكولونيل فى البداية انه سهو كتابى بسيط وخصم بقية الكمبيالات دون أية ريبة ،ولكن عنـــدما أعادت شركة بلندنشتين الـكمبيالتين بعد ظهر يوم الجمعـة وقالت انهما مزورتان ، بدأ جهـــاز الكشف عن المحتالين عمله ٠

وهرع الكولونيـــل فرنسيس الى المقر الرئيسى للبنك لاستشارة مستر ماى نائب كبـــير الصرافين ، الذى لاحظت عينه الخبيرة على الفور ما فى ملف وارين من شذوذ فلم يكن به أى عنوان كما لم يكن هناك مراجـــع تضمنه ، ولم يقم أحد المديرين بتقديمه كالعادة ، ولكن كانت هناك مجموعة كبيرة غير عادية من دفعـات لشخص يدعى مستر هورتون نقلت لحسـابه ببنك كونتننتال بشارع لومبارد ٠٠ وكان الوقت متأخرا جدا بعـــد ظهر ذلك اليوم للقيام بأية تحريات فى بنك كونتننتال ٠

وفى صباح السبت أول مارس ،

كان نويز من أوائل العمـــلاء الذين يقفون أمام بنك كونتننتال وهو يفتح ابوابه ، فقد كانت تلك آخر زيارة يقوم بها لتصفية حساب هورتون ٠٠ وقد طلب عملات انجليزية وأجنبيـة فطلبوا اليه العودة بعد قليل للحصول على العملة الاجنبية ، وعنـد عودته إعتقله البوليس بعد أن تبين أنه هو كاتب مستر هورتون !

وكان جورج ومكدونل ينتظرانه فى مقهى صغير فى زقاق ، اكستيشنج آلى ، وعنــدما تأخر فى العودة بدآ يتساءلان عن سبب تأخيره ، وأخيرا انطلقا للبحث عنه ٠٠٠ وبعد مسافة قصيرة سمعا ضجيجا شديدا من ناحية شارع لومبارد فأسرعا الى هنـــاك للتحرى ، وتدافعـا وسـط الجموع المائجة ، وشاهدا نويز وسط الجموع يعتقله البوليس ، وقد نظر نحوهما فى يأس وان لم يظهر أية دلالة على معرفته لهما ٠٠٠

وسمع جـورج ومكدونل البعض يقول : « تزييف » و ٠٠٠ « انهم يقولون انهـا الوف والوف » ٠٠٠ و « بنك انجلترا » ٠٠ « كيف يحدث ذلك ؟ » وأسرعا بالانحراف نحـو شارع جانبى ٠٠

وهمس مـاك : يا الهى ! مـاذا نفعل الآن ياجورج ؟

فأجاب جورج : لن نفعل شيئا : ان نويز يستطيع ان يبرىء نفســه بالدليل الذى معه ، وليس هنـاك ما يدل البوليس علينا ٠

ولكن جورج بيدويل لم يقدر بنك انجلترا حق قدره لاول مرة ٠٠ انه لا يقف عند حد للعثور على المزيفين مهما أنفق من أموال ٠٠

وهكذا عبأت سكوتلانديارد قوتها الكاملة ٠٠

المطاردة

فى خلال ساعتين اذيع اعلان عن طلب القبض عـلى ف٠ا٠وارين ، أو س٠هورتون ، وقد عرض الاعـلان مكافأة قدرها ٥٠٠ جنيه ، ووصف موظفو الفرع الغربى الرجل المطلوب اعتقاله بأنه :

« فى حوالى الاربعين من عمره ، يبلغ طوله خمسة أقدام وتسـع أو عشر بوصات ، رفيع ، أسمر البشرة شاحب الوجه ، أســود العينيـن والشعر ، يتحدث بلكنة أمريكيـة واضحة ، ويرتدى ثيابا لا بأس بها » ولعل التنـاقص فى زيادة أكثر من عشر سنوات الى سن أوستن يعزى الى تضجيه ورزانتـــه ، ومع ان كل التفاصيل الاخرى كانت مقاربة ، فان هذه الجريمة اثارت ضجيجا كبيرا بين الرأى العام حتى أن أى وصـف

كان كفيلا بخدمة الغرض ، اذ أصبح كل أمريكى فى لندن موضع شك •

وفى ليلة الاثنين ، عرف رجال البوليس ـ عن طريق سؤال حائك الثياب جرين ، والتحرى فى العنوان الاصلى للامريكيين ـ ٢١ انفيلدورد ـ هاجرستون ـ عرفوا أن هناك شخصين على الاقل يشتركان فى المؤامرة مع نويز • وفى يوم الثلاثاء ٤ مارس تأكد هذا الافتراض عندما أبلغ مدير فندق ميدان سانت جيمس عن شكوكه فى شخص أمريكى يدعى الكابتن مكدونل كثيرا ما يزوره أمريكى آخر غامض •• وهرع البوليس الى هذا العنوان ولكنه وجد ان مكدونل رحل بسرعة منذ بضع ساعات وبالبحث فى رماد الموقد ، أكتشفوا قطعة من الورق النشاف بها عبارات لاتزال مقروءة ، تدل على انها أجزاء من كمبيالات ممزقة ، وكلمات وتوقيعات تدل على محاولات للتزييف •• وعلى الفور أعلن عن مكافأة قدرها ٥٠٠ جنيه لاعتقال مكدونل •

وعندما هرب ماك من فندق سانت جيمس توجه الى مسكن صديقته ديزى جراى ـ وهى ساقية فى احدى الحانات ، يبدو انه قرر أخذها معه الى أمريكا اذ اشترى تذكرتين على السفينة « بيروفيان » التى ستقلع الى نيويورك يوم ٦ مارس ، وبعث ديزى الى ليفربول لانتظاره هناك • وفى نفس الوقت قام بشحن حقيبته الى عنوان : الميجور جورج مائيوز بشركة اتلانتيك اكسبريس فى برودواى بنيويورك ، وذكر ان محتوياتها هى ملابس مستعملة ، وطلب حفظ الحقيبة الى أن يطلبها المرسل الذى زعم ان اسمه تشارلس بوسنج المقيم فى تيرنبريدج ويلز ـ مقاطعة كنت بانجلترا •

وبين الثياب التى يكسوها التراب ، وضع ببراعة حوالى ٢٢٥ ألف دولار من السندات الامريكية ••

وحاول مكدونل اللحاق بعشيقته فى ليفربول ولكنه عندما وصل الى هناك أدرك أن هناك من يتبعه فأسرع بركوب قطار آخر الى ساوثمبتون وهناك استقل سفينة عبر القناة الى الهافر حيث ركب الباخرة «تورنيجيا» الى نيويورك •

ولكن هذا الفرار لم يفده شيئا ، فان ديزى وقد تبين لها انها خدعت فى حبها ، عادت الى لندن فاعتقلها البوليس لسؤالها عندما توجهت للسؤال عن مكدونل فى فندق ميدان سانت جيمس •• ولم تتردد الفتاة الغاضبة فى أن تذكر كل ما تعرفه للبوليس •

لقد استخدم اوستن وجورج معا

حوالى ٤٠ إسما مستعارا خلال هذه العملية ، أما مكدونل فكان يسخر عادة من هذه الوسائل ، وقد أدى هذا الغرور الذى كان طابعا له الى إعتقاله ، فعندما فحص رجال سكوتلانديارد إسماء الركاب فى السفن المسافرة ، وجدوا اسم مكدونل بين ركاب السفينة تورنيجيا فابرقوا الى بوليس نيويورك الذى اعتقله فى ٢٠ مارس قبل هبوطه الى الشاطىء •

وكان أوستن بيدويل يستخدم هو الآخر اسمه الحقيقى بعد زواجه وذهابه الى هافانا مع عروسه لقضاء شهر العسل ، وهناك أقام كثيرا من المآدب الكبرى مع زوجته حتى اشتهر أسمه فى عاصمة كوبا • وعندما أرسلت سكوتلانديارد نشرة دورية للسفارات والقنصليات البريطانية فى الدول الاجنبية لمراقبة اوستن ، أستطاع القنصل البريطانى فى هافانا معرفته على الفور ، فاعتقل فى ٢٠ مارس اثناء مأدبة عشاء فاخرة كان هو الداعى اليها !

وهكذا ـ فى خلال ثلاثة أسابيع فقط من اكتشاف التزييف ـ كان ثلاثة من مرتكبيها الاربعة قد إعتقلوا ولم يبق غير جورج بيدويل •• وقد مهدت سكوتلانديارد الى ٧٥ من رجالها بالبحث عنه فى أكبر مطاردة فى تاريخها ! •

وقد حاول جورج بيدويل الهرب الى أمريكا عن طريق ايرلندا ، ولكن يقظة البوليس اضطرته الى عبور البحر الى سكوتلندا متنكرا فى زى شخص فرنسى ، وأقام فى أدنبره بعض الوقت تحت إسم مسيو كوتون ولم يكن يبارح غرفته الا للحصول على الصحف ، وقد أدى اهتمامه البالغ بالحصول على الانباء الى اثارة الشك فيه ، واستطاع البوليس فى النهاية اعتقاله يوم ٣ أبريل ! •

المحاكمة

عندما قدم المتهمون الاربعة للمحاكمة امام محكمة الجنايات المركزية فى أولدبيلى ، تقدم أكثر من ١٠٠ شاهد من أوربا وأمريكا للشهادة ضدهم ، واستغرقت الاجراءات التمهيدية ٢٣ يوما ، بينما استمرت المحاكمة الكاملة تسعة أيام ، ذكرت خلالها القصة بأكملها •

وحاول جورج واوستن ومكدونل أن يقللوا دور نويز الى أقل حد مستطاع ، كما حاول كل منهم أن يلقى لوم المؤامرة كله على كاهله هو ، ولكن المحلفين لم يستغرقوا أكثر من ٣٠ دقيقة للوصول الى حكم بادانة الاربعة

وقد قالت صحيفة التايمز اللندنية : « ان الذاكرة لا تعى مثل هذه القضية !

... وكذلك لاتعى الذاكرة حكما أقسى مما أصدره القاضى ارشيبالد على المتهمين فيها ، فقد قال لهم انهم وجهوا ضربة عنيفة للثقة التى ظلت سائدة فى بنك انجلترا فى تلك البلاد ، ولابد لهم من مواجهة عقاب رهيب ، ومن ثم فانه لم يتردد فى ان يصدر عليهم حكما بالسجن مع الاشغال الشاقة مدى الحياة ...

ولم يكن بنك انجلترا ليطمع فى الحصول على انتقام أكثر وحشية من ذلك .. وقد أنفق البنك فى سبيل الوصول اليه ٢٣٤٢٠ جنيها بين مكافآت واجور للبوليس الخاص ، والبحث عن الشهود واحضارهم .. ولكن البنك استرد مبلغ ٧٣٤٢٠ جنيها من المال المسروق ، وشفى كبرياءه الجريح الى حد ما ..

ولعل مكدونل وجورج واوستن ونوين كان لديهم ما يدعو للزهو والفخر ، فقد أجبروا بنك انجلترا على اصلاح تنظيمات الامن الخاصة باجراءات الكمبيالات (وتغييرها بوسيلة لم تعرف وان كان المفترض انها وافية) ، ولا بد أن هذا العمل وحده كان كفيلا بأن يثير البسمة على شفاه كل منهم قليلا خلال السنوات الطويلة التى قضوها بسجن دارتمور !

بعد ١٤ عاما فى السجن ، اطلق سراح جورج بيدويل نظرا لسوء صحته الشديد ، وعلى أقل انه لن يعيش أكثر من بضعة شهور ، ولكنه شفى وبدأ يعمل دون هوادة لاطلاق سراح الباقين من زملائه .. وأخيرا قدم الى الحكومة البريطانية التماسا كبيرا تضمن توقيعات الكثيرين وكان بينهم مارك توين وهاريت بيتشر ستو .. فأطلق سراح اوستن بعد ١٧ سنة أمضاها خلف القضبان ثم افرج عن مكدونل ونويز بعده بعام واحد ، وقد أمضى جورج بقية حياته بعد ذلك فى القاء محاضرات على طلبة الجامعات الامريكية عن شرور الجريمة و « أحابيل حياة اللهو »



جهد ضائع !

احست الطفلة الصغيرة بحزن بالغ لانتهاء شهر سبتمبر ، وعندما سئلت عن سبب حزنها قالت فى أسى :

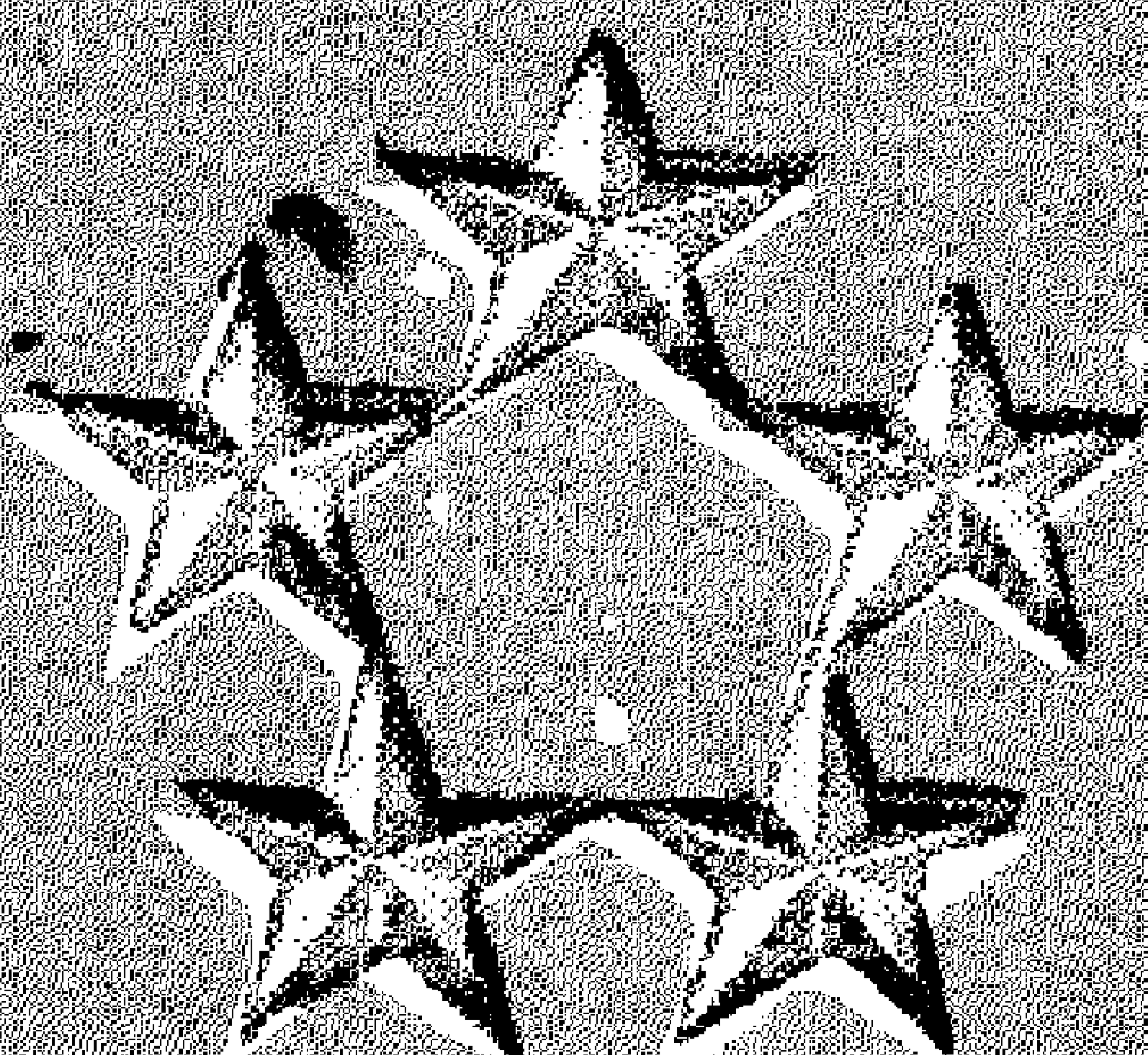
— لقد تعلمت لتوى هجاء اسم هذا الشهر وها هو قد مضى !

كتاب الشهر

قصة الحرب الكورية

بقلم الجنرال ماك آرثر!

عن كتاب



REMINISCENCES

THE MEMOIRS OF
GENERAL DOUGLAS MACARTHUR

THE REAL STORY OF THE KOREAN WAR

بقلم : الجنرال دوجلاس ماك آرثر



لقد امتدت حياة دوجـلاس ماك ارثر العملية لتشمل تاريخ امريكا الحـديث .. وكانت آخر مهمة أسندت اليه ـ بعد .. تاريخية كثيرة ـ قيادة قوات الامم المتحدة خلال حرب كوريا ..

وهذا الكتاب الذى يحوى الخواطر المؤلمة التى ساورت جنـديا اجبر على التراجع عن النصر ، اخذت مادته من المذكرات التى كتبها ماك ارثر ضمن ترجمة حياته ، واتمها قبل وفاته فى ابريل ١٩٦٤ بوقت قصير .

***

ان الجنرال ماك آرثر يكشف لنا فى هذا الجزء من مذكراته الاحـداث العجيبة التى أحاطت بقيادته خـلال الحرب الـكورية .. انه حـديث ذو أهمية تاريخية ، وله مغزى كبير فى هـذا العصر الذى يسوده التحدى وهى فى جوهرها أيضا قصة مأسـاة شـخصية ، وتأملات تنسم بالالم لجنـدى ، اضطر الى التراجـع بعد أن أقترب من النصر ..

قصة الحرب الكورية

في ساعة مبكرة من صباح الاحد ٢٥ يونيو ١٩٥٠ دق جرس التليفون بغرفة نومى فى السفارة الامريكية بطوكيو . كان الضابط النوبتجى بمقر القيادة هو المتحدث .. وقال لى : « تلقينا الآن برقية من سيول يا جنرال تخطرنا بأن الكوريين الشماليين هجموا بقوات كبيرة جنوبا عبر خط ٣٨ فى الساعة الرابعة صباحا * » .

كان يساورنى احساس غامض أشبه بالكابوس .. فقبل ذلك بتسع سنوات ، وفى نفس تلك الساعة من صباح ٧ ديسمبر ١٩٤١ أيقظتنى محادثة تليفونية من نومى فى شقتى بالطابق العلوى بأحد فنادق مانيلا .. وها هى نغمة الحرب القاسية تتردد فى أذنى مرة أخرى .. وقلت لنفسى : « لا يمكن أن يحدث ذلك .. لن تتكرر المأساة »

كيف يمكن أن تسمح أمريكا بقيام مثل هذا الموقف المؤسف ؟ .. لقد كانت قبل وقت قصير أقوى دولة على ظهر الارض ، ولكن فى خلال فترة لا تتعدى خمس سنوات ، تبددت هذه القوة شيئا فشيئا بافلاس الزعامة الحاسمة حيال أية أهداف بعيدة المدى .. ورحت أسائل نفسى : « ترى ما هى سياسة أمريكا حيال آسيا ؟ » .. وجالت بخاطرى فكرة مرعبة .. وهى انه ليس لأمريكا أية سياسة محددة فى آسيا !

كان لكوريا الجنوبية اربع فرق على طول خط ٣٨ ، وكانوا يتمتعون بالشجاعة والوطنية ، ولكنهم لايملكون غير أسلحة خفيفة .. وليس لديهم قوات جوية أو بحرية ، تنقصهم الدبابات والمدفعية وكثير من الاشياء الجوهرية الاخرى .. وكانت وزارة الخارجية الامريكية قد أصدرت قرارا يقضى بتسليحهم وتنظيمهم على هذا الاساس ، وحجتها فى ذلك منع الكوريين الجنوبيين من مهاجمة كوريا الشمالية ، وهو تفكير عجيب يتسم بقصر النظر ، وهو الذى مهد

*** اختار العسكريون الامريكيون والروس خط عرض ٣٨ كخط تقسيم بين عملياتهم خلال قبول استسلام القوات اليابانية فى كوريا .**

ولا شك للهجوم الذى شنته كوريا الشمالية .

ولايمكن أن يغفل الدبلوماسى هذه الغلطة الجوهرية وهو يحاول اجراء تقدير عسكرى، وكانت نتيجة ذلك فى كوريا ، ان القوات البوليسية التى دربتها أمريكا بأسلحة قليلة الى بنادقها ، تواجه جيشا كوريا فى الشمال دربته روسيا وزودته بكل وسيلة حديثة للحرب .

ولقد أظهر الشيوعيون دهاء عظيما فىاخفاء استعدادهم للهجوم ، فلم ينشروا على طول خط العرض ٣٨ غير قوات تحمل أسلحة خفيفة تماثلمالدى جيرانهمفى الجنوب، ولكنهم وراء ذلكحشدوا جيشا قويا ضاربا مدججا بأسلحة ثقيلة تتضمن أحدث الدبابات الروسية ، وكانالخط الاول المسلح بأسلحة خفيفة هو الذى قام بالاندفاع عبر الحدود ، ولكنه مالبث ان دار يمينا ، بينما قامت القوة الرئيسية الثقيلة بالهجوم من خلال الثغرة فاكتسحت أمامها خطوط دفاع كوريا الجنوبية .

نظرة الى الكارثة

كانت هناك قرارات كثيرة تتخذ فىواشنطون «وليك سكسس» . فقد طالبت الامم المتحدة بوقف أعمال القتال فورا . ودعت كل الاعضاء الى تقديم كل معونة للامم المتحدة لتنفيذ هذا القرار ، وعلى الفور فسر الرئيس ترومان الدعوة الى « تقديم كل مساعدة » على انها تفويض لمساعدة كوريا الجنوبية عسكريا . ولم يكن فى واشنطون من هو على استعدادلان يشرك أمريكا كلية فى هذا العمل ..

وهكذا صدر لى الامر بالتليفون اللاسلكى باستخدام القوة البحرية والجوية لمساعدة قوات الدفاع فى كوريا الجنوبية ، بكل مايمكنني عمله بهذين السلاحين ، كما صدر لى أمر آخر بان أقوم بعزل جزيرة فورموزا التى يحتلها الصينيون الوطنيون عن الصين ذاتها ، ووضع الاسطول الامريكىالسابع تحتسيطرتى العملية وطلب منى ان أحول دون اية هجمات من الصينالوطنيةعلى الصينالشيوعية والدفاع عن الجزيرة ضد اية هجمات شيوعية .

وفى ٢٧ يونيو أوصى مجلس الامن بأن « يقدم أعضاء الامم المتحدةالمعونة اللازمة لكوريا الجنوبية لصد الهجوم المسلح . . »

كانت مشكلاتى المباشرة عاجلة ملحة .. ترى هل تكفى القوات البحرية والجوية الامريكية ، وهل

يستطيع الكوريون الجنوبيون - بمساعدة هذه القوات والاسلحة - ان يصمدوا بنجاح أمام آلة الحرب القوية المندفعة نحوهم ؟ .. أم انه سوف ينبغي انزال القوات البرية الامريكية الى المعركة بعد ان تضيع كوريا الجنوبية كلها ؟ . .

وقررت الذهاب الى كوريا الجنوبية لارى الامر بنفسي .

كان صباح ٢٩ يونيو ممطرا تملؤه الغيوم وانا أصعد الى الطائرة «باتان» .. وكانت الانباء الواردة من كوريا تبدو اكثر كارثة ، فقدكانت العاصمة سيول تواجه هجوما عنيفا ، واضطرت حكومة كوريا الجنوبية الى نقل مقرها مؤقتا الى « تايجون » .

وهبطت بى الطائرة « باتان » فى (سووان) على مسافة ٣٠ كيلو مترا جنوب سيول خلال سحب من دخان كثيف يتصاعد من بعض سفن النقل التى أصابتها قنابل الطائرات ومدافعها الرشاشة ، وركبت سيارة جيب وانطلقت شمالا صوب نهر (هان) تحت غارات جوية مستمرة ، بين تقهقر مروع لجيش مهزوم .. كانت قوات كوريا الجنوبية فى حالة فرار كامل ..

وبلغنا ضفاف نهر هان فى وقت أتاح لنا اللحاق بآخر قتال يقوم به حرس المؤخرة للدفاع عن جسوره .

كان المشهد مأساة .. فعبر نهر هان ، كانت سيول - التي سقطت فى ايدى الاعداء - تحترق ويتصاعد الدخان من أطلالها المدمرة ، وكانت هناك قذائف مستمرة من مدافع المورتار الشيوعية بينما يندفع العدو جنوبا نحو الجسور ، وكانت طوابير من القوات المتقهقرة تمر الى جوارنا وهى تلهث وقد اضطرب نظامها ،

وظللت ساعة كاملة ارقب آثار الكارثة المثيرة للاسى التى ورثتها .. وفى تلك الفترة القصيرة وضعت خططى . .وكانت خططاً تتسم باليأس حقا ، ولكننى لم أجد طريقا آخر الا تقبل الهزيمة التى تسلم للشيوعية لا كوريا فحسب ، بل وآسيا بأسرها .

كان المشهد الذى رأيته على طول نهر « هان » كافيا لاقناعى بأنه ليس هناك شىء يمكن أن يوقف الشيوعيين عن ارسال طوابير دباباتهم خلال الطرق القليلة الصالحة من سيول الى بوزان عند نهاية شبه الجزيرة وان كوريا كلها ستصبح بين أيديهم بعد ذلك .. ولم يكن فى استطاعة الكوريين الجنوبيين - حتى مع التأييد الجوى والبحرى - ان يوقفوا اندفاع العدو قدما ، ولكن إشتراك القوات

البرية السريع هو وحـــده الذى يستطيع ان يفعل ذلك ، ونظرا لانها ستواجه عدوا يفوقها عـددا ، فانني سأعتمد على المناورة الاســتراتيجية للتغلب على الاحتمالات الكبرى التى تقف ضدى .

وأبرقت فورا الى واشنطون بان انزال القوات البرية المقاتلة الى منطقة المعركة فى كوريا هو الضمان الوحيد للتمسك بالخط الحالى ، والقـــدرة على استعادة الارض المفقودة بعد ذلك وخلال ٢٤ ســـاعة خولنى الرئيس ترومان سلطة استخدام القـــوات البرية .

لقد كانت التقاليد الامريكية دائما تقضى بأنه بمجرد اشتراك القوات الامريكية فى المعركة تعبأ كل قوى الامة ووسائلها ، وتكرس للقتال من أجل النصر ، لا من اجـــل الركود أو الحلول الوسطى .. وشرعت فى تخطيط الطريق الاستراتيجى الكفيل بتحقيق هذا النصر ، ولم يخطر ببالى قط ان هذا التقليد قد يتحطم ، ولو امتد بى الخيال الى أبعد الحدود .

مقـامرة من أجل الوقت

كانت لدى أربع فرق احتلال فى اليابان تشكل الجيش الثامن ،وكانت قوات المشاه تقل بمقدارالثلث ، ولدى الالوية كتيبتـــان بدلا من ثلاث ، ودبابات خفيفة بدلا من الثقيـلة ، ومدافــع هاويتزر ١٠٥ مليمتر بدلا من مدافع عيار ١٥٥ مليمترا ، ولكن الحرب الكورية كانت تعنى خـوض القتال « كما هو » فليس هناك وقت لحشد القوات والتأهب .. بل زحف واطلاق نار .

كان الكوريون الشماليون قـــد تقدموا عبر الخط ٣٨ بقوة تقـــدر بست فرق للمشـــــاه وثلاث فرق بوليسية تتقدمها حوالى ١٥٠ دبابة روسية مع وحدات مســـاعدة من المدفعية الثقيلة ، وكلها مشـــمولة بحماية مظلة جوية وكانت الحـــاجة العاجلة تدعـــو الى ابطاء الزحف الشيوعى قبل ان يكتنف كوريا كلها وكانت فرصتى الوحيدة للقيام بذلك هى ان اشرك قواتى فى القتال فى الجبهة شيئا فشيئابأسرع ما استطيع وانا على ثقة من ان وجود القـــوات البرية الامريكية سيثير الرعشة فى قيادة العدو ويضطره الى اتخاذوسائل واقية تضييع الوقت ، ومن ثم أكسب وقتا لحشد قوة فى بوزان التى قد تستخدم كقاعدة للعمليـــــات فى المستقبل .

وأيدت النتائج ماكنت أرجوه ،فقد

اوقفت قيادة العدو زحفها لكي تتيح للمدفعية ان تباشر عملها ولم يكن لديها وسيلة لمعرفة قوة القـــوات الامريكية ، ومن ثم فقد قررت ـ كما توقعت ـ الا تقدم على اية مغامرة ، على أن تواصـــل بدلا من ذلك دفع طوابير دباباتها للامام • وتوزيـــع قواتها عبر الارض الوعرة فى خط معركة تقليدى •• وكانت تلك هى غلطتها الكبرى •

لقد كسبنا بهذه العملية عدة أيام قبل ان يوزع العدو قواته على جبهة طولها ٢٥٠ كيلو مترا • وفى ذلك الوقت كنت قد ألقيت فى المعـــركة بالفرقة ٢٤ بقيادة الجنرال وليـــم فريش دين ، وأصدرت اليـــه الامر لتأخير العدو حتى يمكننى أن أستحضر فرقة الفرسان الاولى والفرقة ٢٥ ، وقد خاض دين سلسلة من المعـــارك اليائسة المنعزلة التى حشر فيها جزءا كبيرا من فرقته •

وأخيرا أدرك قائد العدو غلطته ، فقد أبطأ حركته لا أمام قوة دفاعية امريكية كبيرة ، بل بمجرد ظهـــور القوة الامريكية ، وعاد الآن يتحرك بسرعة ، ولكن الوقت كان متـــأخرا جدا ، اذ كنت قد انزلت فى ذلك الحين كل الجيش الثامن فى كوريا ، ومع ذلك فان العدو كان لايزال يتفوق علينا كثيرا فى العدد والثقل ونوع الاسلحة •

واتصلت بواشنطون يوم ٩ يوليو اطلب اليها ارسال تعزيزات ، ودهشت عندما رفضت هذه الرسالة اليائسة ، وكان السبب الذى ذكروه هو انه : (١) ـ لم يصدر أى تفويض بزيادة أى جزء من القوات المسلحة • (٢) ـ انه يجب الاحتفـــاظ بالوضـــع العسكرى الامريكى فى أجزاء أخـــرى من العالم • (٣) ـ ان هناك عجزا فى السـفن !

وهذا كله يعادل فى الواقع مبدأ « الاولوية » القديم المعيب الذى عاد الشرق الاقصى بمقتضاه الى نهـــاية القائمة مرة أخرى •• وكررت طلبى الاصلى ولكنه رفض مرة ثانية •

وفى ١٨ يوليو خولت لليابان الحق فى زيادة قوتها الدفاعية بحوالى ١٠٠ ألف رجل (وكان هنـــاك امر من واشنطون يقول ان اى عمل اتخـــذ لحماية كوريا الجنوبية ، يجب ألا يؤثر على حماية اليابان) • وفى كوريا أصبحت وحداتنا فى كامل قوتهـــا بادماج الكوريين فى صفوفها ، وهذا هو النظام الذى أطلق عليه اســـم « نظام الصداقة » الذى أحرز نجاحا

عظيما •• وبينما فشلت فى الحصول الا على النزر اليسير من الجنود من واشنطون ، فقد ايدت الحكومات المحلية جهودى بكل حماسة كما فعلت فى حرب الباسيفيك .

وشهد شهر أغسطس هجمات وحشية متكررة على قواتنا ، ولكن الكوريين الجنوبيين كانوا قد أعادوا تنظيمهم الان ، وأصبح لدى الجنرال والتون ووكر خمس فرق صغيرة من جمهورية كوريا ، كما انضم آلاى من الفرقة الامريكية الاولى لمشاة الاسطول الى الجيش الثامن ، وانسحبت قواتنا من « تايجون » وقبلت المعركة على طول نهر ناكتونج وفى يونج دونج اجتاح العدو مواقعنا بعد كفاح مرير استمر ثلاثة أيام ، واضطررنا للانسحاب جنوبا الى منطقة تشبه رأس جسر ممتد حول « بوزان » •

كان لدى كوريا الشمالية الآن ١٣ فرقة فى الجبهة ولم يكن القتال يدور فى خط مستمر من التوزيع ، بل بين سلسلة من الطوابير فى حجم الكتائب والالوية ، تقوم بعمليات استطلاع وجس نبض للطرق العامة والجبلية فى محاولات متصلة لاختراق مواقعنا وتطويق جناحنا ، وتكهن نقاد العالم بوقوع « دنكرك » آسيوية كئيبة على نطاق واسع •

لقد أظهرت طريقة وضخامة حركة امدادات العدو وتعزيزاته أن هنالك كميات ضخمة كانت تأتيه من منشوريا الصينية وسيبيريا الروسية عن طريق « سيول » على الرغم من قنابل طائراتنا ومدافعها الرشاشة وكانت هذه الامدادات تتحرك عادة فى الليل كما كانت البراعة والمثابرة فى اصلاح الطرق والجسور على اعظم جانب من النظام ، وكانت الفرق الجديدة وألوية الدبابات تصل من كوريا الشمالية باستمرار ، وكانت الامدادات والاغذية والذخائر ترسل الى الامام بلا هوادة بالقطارات والسيارات النقل والسيارات الصغيرة والعربات التى تجرها الثيران •• ولكن الجنرال ووكر استطاع ببراعة •• وظهره الى البحر ـ ان يبطىء حركة العدو ، وفى نهاية الشهر كان قد أقام خطا دفاعيا ثابتا الى حد ما ، وكان الامر الصادر لهم هو « الصمود او الموت » •

وأصبحت أخيرا على استعداد لتوجيه الضربة الكبرى حتى تؤتى خطتى ثمارها .. وبدأ حلمى الخاص بنهر « هان » يتمثل فى الواقع بالقيام بدورة عميقة فى جانب العدو ومؤخرته

تقطع خطوط امداداته وتطوق قواته جنوب سيول .. وكنت قد اتخذت قرارات مماثلة فى حملات ماضية ، ولكن لم يكن بينها قرار يحيط به الخطر اكثر من هذا القرار ، اويبشر بنتائج حيوية حاسمة اذا نجح اكثر منه .

مؤتمر ستراتيجى

كان الهدف الذى وقع عليه اختيارى هو « انشون » التى تقع على مسافة ٣٠ كيلو مترا غرب سيول - ثانى ميناء فى كوريا الجنوبية - وكان الموعد المحدد هو منتصف سبتمبر - بسبب حركة المد والجزر الكبرى فى « انشون » وهذا يعنى ان الاستعداد لعملية الانزال يجبانجازه بسرعة اكبر مما حدث فى أية عملية برمائية كبيرة اخرى فى الحرب الحديثة .

ولكن بعض الجهات العسكرية القوية ذات النفوذ فى واشنطون عارضت خطتى ، فكان من رأى الجنرال عمر برادلى رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة ان مثل هذه العمليات البرمائية أصبحت شيئا عتيقا ، وانه لن يتسنى القيام بحركة اخرى ناجحة من هذا النوع ، وكذلك كان الرئيس ترومان لايحبذ استخدام مشاة الاسطول كوحدة عسكرية مهمة من قواتنا المسلحة . وقال فى رسالة للنائب بورج ليوماك دونوه بكاليفورنيا « ان مشاة الاسطول هم قوة بوليسية للبحرية وستبقى كذلك مادمت رئيسا للجمهورية انهم أداة دعاية تكاد تعادل اداة ستالين » .

وبعث رؤساء أركان الحرب المشتركة برقية لى قالوا فيها أن الجنرال لوتون كولنز رئيس أركان حرب الجيش والاميرال فورست شيرمان رئيس العمليات البحرية قادمان الى طوكيو لمناقشة هذه المناورة معى ، وما أن وصلا حتى بدا بوضوح أن الهدف الحقيقى من رحلتهما ليس المناقشة بقدر ما هو محاولة اقناعى للرجوع من عزمى .. ودعوت الى عقد مؤتمر ستراتيجى لمناقشة المشكلة .

وقامت البحرية اولا بعرض قضيتها فقال أحد أركان حربها ان هناك عنصرين يجعلان النزول فى انشون على أعظم جانب من الخطورة ، هما حركة المد والجزر ، وطبيعة الارض .. فقد أثبتت الدراسات المائية البحرية أن متوسط ارتفاع وهبوط حركة المد والجزر عند انشون يصل الى ستة امتار ، وهى أكبر نسبة فى

العالم وفى الموعد الذى تحدد مبدئيا للغزو سيكون هذا المتوسط ٩ امتار بسبب وضع القمر ، وعندما تصل حركة المد والجزر الى ذروتهـــا في انشون فان الضفاف الطينية سوف تبرز في بعض الاماكن على الشاطىء حتى يصل طول بعضها الى ثلاثة كيلو مترات فى الميناء ، وخلال فترة المد والجزر هذه ، سوف تصل سرعة المياه الى ست عقد خلال قناة (فلاينج فيش) وهى أفضل مكان للوصول الى الميناء •• وحتى فى ظل أفضـــل الظروف ، فان القناة ضيقة متعرجة ، وهى ليست مكانا ممتازا لبث الغـام العدو فحسب ، بل ان أى سـفينة تغرق فى نقطة معينة منها يمكن ان تسد القناة تماما •

ومضى خبراء البحرية يقولون انه فى الموعد المحدد للانزال ستحدث اول موجة مد عالية فى الساعة السادسة و٥٩ دقيقة صباحاً ، بينما يرتفع المد بعد الظهر فى الساعة ١٩ر٧ قبـل الغروب بسبع وعشرين دقيقة • وفى خلال ساعتين من المد المرتفع سوف تغوص أغلب سفن الهجوم فى أوحال ضفاف انشون وتصبح فريسة سهلة لبطاريات الساحل الشيوعية ، الى ان تأتى موجة المد التالية لتجعلها تطفو مرة أخرى •• اى ان القوات البرمائية سيكون امامها حوالى ساعتين فقـــط فى الصباح للقيام بالعملية المعقـــدة التى تتضمن تخفيض قوات جـزيرة « وولمى ــ دو » أو تجـــريدها من الاثر ، وهذه الجزيرة ترتفع ١٠٠ متر وهى محصـــنة تحصـــينا قـويا وتسيطر تماما على الميناء •

وعلى فرض ان فى الامكان القيـام بهذا العمل ، فان المد المرتفع الذى يحدث بعد الظهيرة واقتراب الظلام لن يسمحا الا بساعتين ونصف ساعة فقط لانزال الجنود واحتلال رأس جسر ، واحضـــار كل الامدادات الضرورية لتمكين القوات من الصمود للهجمات المضادة حتى الصباح •

وبعد ان تم عرض كل الحجــج المعارضة ، انتظرت لحظة لاجمــع شتات أفكارى وكنت أشعر بالتوتر المتزايد فى الغرفة ، ولو كان هناك صمت مفحم لكان هذا الصمت •• وتردد فى ذهنى صوت أبى وهو يقول لى منذ سنوات بعيدة : « دوجلاس •• ان مجالس الحرب تولد الجبن وروح الهزيمة • »

وقلت لهم ان الحجج التى سردتموها عن عدم امكان تنفيذ الخطة بطريقة عملية ، هى نفسها تضمن لى عنصر

المفاجأة ، فسوف يعتقد قائد العدو انه ليس هناك من يبلغ به الطيش حدا يجعله يقدم على مثل هذه المحاولة والمفاجأة هي اكثر عناصر النجاح في الحرب حيوية .

أما اعتراضات البحرية التي تتعلق بحركة المدوالجزر وطبيعة الماءوالارض والعقبات الطبيعية فانها مسائل جوهرية ومناسبةحقاً ،ولكنها ليست مما لايمكن التغلب عليه ، فان ثقتي في البحرية تامة .. وكنت كما يبدو أثق في البحرية اكثر مما تثق في نفسها !..

وقلت ان البديل الوحيد الذي اقترحه للانزال في انشون ، هو استمرار التضحيةالوحشية التي نقوم بها عند بوزان دون ان يبدو اى أمل في الافق .. فهل يرضيكم ترك قواتنا وسط ذلك المحيط الدموي وكأنها ماشية في المذبح ؟ ومن الذي سيتحمل مسئولية هذه المأساة ؟ انني لن اتحملها بكل تأكيد ..

اما اذا كان تقديري غير دقيق ، واضطررت لمواجهة دفاع لا استطيع مجاراته ، فانني سأكون هناك شخصيا وسأسحب قواتنا فورا قبل ان تصاب بانتكاسة دموية ، وستكون الخسارة الوحيدة عندئذ هي سمعتي في المهنة ، ولكن انشون لن تفشل .. سوف تنجح انشون وسوف تنقذ مائة الف روح .

وعندما انتهيت ، كان الصمت تاما .. ثم نهض الاميرال شيرمان ـ رفيق الحرب القديم في الباسيفيك ـ وقال :

ـ شكرا لك .. انه صوت عظيم في قضية عظيمة .

وفي ٢٩ أغسطس تلقيت برقية من رؤساء أركان الحرب المشتركة تقول:



« بعد استعراض المعلومات التى عاد بها الجنرال كولنز والاميرال شيرمان اتفقنا على تنفيذ حركة انزال بقوات برمائية عند أنشون »

مدافع على وولمى ـ دو

فى ١٢ سبتمبر ، ركبتت السفينة « ماونت ماكنلى » •• كان هناك اعصار عنيف اجتاحنا بكل قوته ، وفى اليوم الثـانى فى البحر هـدأت الامواج ، وانطلقنا الى موعدنا مع بقية أسطول الهجوم •• وفى تلك الامسـية وقفت أمام حاجز السـفينة وأخذت أرقب الشـمس وهى تغرب فى الافق وراء الصين •• سيكون علينا فى الصباح أن نشق طريقنا فوق السدود المتحركة فى قناة « فلاينج فيش » تحت مدافع « وولمى ـ دو » ونحن نتـاخم أطراف الضفاف الطينية القاتلة ، وفى خلال ساعات قليلة سوف يعمل ٤٠ ألف رجل بشجاعة على أمل ألا يموت ١٠٠ ألف آخرون وراء خطوط الدفاع فى كوريا الجنوبية ، وكنت وحدى مسئولا عن الغـد ، واذا فشلت فان النتائج الرهيبة سوف تلقى مسـئوليتها على روحى فى يوم الدينونة

ولاحظت بعد ذلك وميضا •• كان هناك ضوء يظهر ويختفى عبر المـاء ، وأضيئت أنوار الملاحة فى القناة • كان كل شئ يسير كما هو مقرر ، وذهبت الى مقصورتى ورقدت فى فراشى •

لم أكن قد نمت أكثر من ساعتين عندما أيقظنى صوت مفاجئ كالرعد •• كانت مدافعنا قد فتحت أفواهها على (وولمى ـ دو) •• وصـعدت الى الجسر • كانت الجزيرة ومينائها يهتزان تحت قذائف مدافع البحـرية •• والغارات الجوية اذ كانت الطائرات من طراز (بلو ـ كورسير) تنقض عليها من بين السحب لتزيد مدافع الرشاشات من الدمار الذى يصيبها ، وكانت هناك أعمدة من دخان رمادى قذر ترتفع فى الجو •• واستطعنا أن نرى آثار آلاف من القذائف النارية التى تنهـال فى حركة مقوسة على شواطئ أنشون ، بينما كانت سـفن الانزال الصغيرة التى لانهاية لهـا تدور حول سفن الهجوم الكبيرة •

وسكتت المدافع المنصوبة على « وولمى دو » •• كانت موجات الهجوم الاولى قد اندفعت الآن ، فاذا هزم مشـاة الاسـطول الذين يتقدمونهـا أو حتى ثبتوا فى أماكنهم فترة طويلة ، فسيعنى هذا أن العدو فى مركز مسيطر ، ولن يتطلب الامر غير عدد قليل من المدافعين لنربح الموجة الاولى من الغزاة بينمـا تشل حركة الباقين فى الضفاف الطينية

الكبيرة . وفى الساعة الثامنة صباحا صعد أحد الجنود الى الجسر وسلمني قطعة ورق جاء فيها : « نزلت الوجة الاولى من مشاة الاسطول واحتلت رأس جسر دون أية خسائر فى الارواح »

والتفت نحو الاميرال جيمس دويل وقلت له « أرجو ارسال هذه البرقية الى الاسطول : « لم تكن البحرية ومشاة الاسطول أكثر لمعانا مما كانا هـذا الصباح » .. ثم أضفت قائلا : « هيا بنا لتناول الافطار »

وعندما انحسر المد فى ميناء أنشون بعد ذلك بساعة واحدة فقط تاركا بعض سفن الانزال قابعة فوق الضفاف الموحلة ، كانت (وولمى ـ دو) قد سقطت تماما ، وما أن عاد المد بعد ظهر ذلك اليوم حتى صعدت الى سفينة الاميرال آرثر ديوى شرابل وعكفنا معا على مراقبة العملية

وأصدرت أمرا بالزحف السريع على سيول ومنها الى الجنوب ، فان هذا سيضع الجزء الاكبر من جيش العدو بين شعبتين جبارتين من قواتى : الفيلق العاشر من الشمال ، والجيش الثامن من الجنوب وبهذا تغلق الكماشة لابادة جيوش كوريا الشمالية .

وتحرك الفيلق العاشر الى الداخل بسرعة ، بينما انطلق طابور الى سيول ليقوم بقطع المواصلات الى الجنوب واحتلال مطار « كيمبو » ـ أكبر المطارات فى كوريا ـ وسيقطع هذا شريان عنق العدو ، ومضى طابور ثان الى « سوون » لاعادة احتلال القاعدة الجوية هناك ، وأن يكون بمثابة الجزء الشمالى لحركة الكماشة ... ووقعت الاحداث بسرعة بالغة ..

تم احتلال مطار كيمبو ، وبدات علامات الضعف تبدو فى جبهة الجنرال ووكر ، وأصدرت له أمرا بالهجوم ، فعبر نهر ناكتونج فورا فى هجوم وحشى ، وقاوم العدو فى يأس ولكن بعد أن فقد امداداته وسقط بين فكى الكماشة دون أن يجد طريقا للتراجع فأسرع بالفرار بسرعة بالغة ، وحمله الانسحاب السريع الطائش أكثر من ١١٠ كيلومترات الى الشمال، وسرعان ماتفككت وحداته ، اذ انفصل العدو عن امداداته وقيادته ومواصلاته ، ولم تعد للالوية الشيوعية وجود كوحدات منظمة ، فهجروا دباباتهم ومدافعهم وأسلحتهم الصغيرة التى كانت تملأ الطرق العامة والطرق الريفية .. واستسلم الاسرى بالالوف حتى بلغ عددهم خلال شهر ١٣٠ ألفا ، وقاتل العدو بعنف من أجل سيول ، ولكنها سقطت فى ٢٨ سبتمبر .

وشرعت في العمـــل فورا لاعادة توطيد حكومة كوريا في سيول

زيارة مع رئيس الجمهورية

في ١٢ أكتوبر تلقيت رسالة تقول أن الرئيس ترومان يود الاجتماع بي، واقترح أن يتم ذلك في هونولولو يوم ١٥ ثم أضافت الرسالة قائلة : « اذا كان الموقف في كوريا يحول دون تغيبك في رحلة طويلة كهذه ، فان الرئيس سوف يسعده مقابلتك في جزيرة ويك»

وبعثت ردي وقلت فيه : « سوف تسعدني مقـــابلة الرئيس في صباح اليوم الخامس عشر بجزيرة ويك »

وجاء الرئيس وجمـاعته الى جزيرة ويك في ثلاث طائرات • وبينما كنت أصافح ترومان قال لي :

« لقد مضى وقت طويل منذ التقينا يا جنرال » •• فقلت : « آمل ألا تتم مقابلتنا القادمة بعد وقت طويل »

ولكننا لم نلتق بعد ذلك قط ••

لقد حذروني من مزاج مستر ترومان السريع العنيف ومن أهوائه ، ولكنه كان خلال اجتماعنا مشرق الوجه •• كثير المجـــاملة والمرح ، فهـــو يتمتع بشخصية جذابة ولسان طلق سريع البديهة ، وقد أحببته منـــذ اللحظة الاولى ، وفي هـــذا المؤتمر تبين أنه فخور جدا بمعلوماته التاريخية ،ولكن يبـــدو لي أنه رغم كثرة ما قرأ ، فان قراراته كانت ذات طابع سطحي اذ لم يكن يعرف الا القليل عن الشرق الاقصى وكان يعرض مزيجا عجيبـا من تاريخ مشوه وآمال غامضـــة عندما قال أننا سوف نفعل شيئا بطريقة ما لمساعدة أولئك الذين يكافحون الشيوعية

كان يصحبه عدد كبير من المستشارين المشـــهورين : الاميرال آرثر رادفورد قائد أسطول الباسفيك وفرنك بيس وزير الجيش ، وتشـــــــارلس روس المستشار الصحفي ، وفيليب جيسب السفير المتجول والجنرال عمر برادلي رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة ، ودين راسك الوكيل المساعد لوزير الخارجيـــة وافريل هاريمان المســـاعد الخاص للرئيس ، كما كان هنـــاك عدد آخر من مساعدي ترومان ومساعدي مســـاعديه • أما أنا فلم يكن معي غير سكرتيري العســـــكري وياوري وقائد طائرتي ••

كان المؤتمر نفسه عقيمـــا •• فلا سياسة جـــديدة ، ولا ســـتراتيجية جديدة للحرب أو سياسة دولية اقترحت أو طرحت للمناقشة ، وقرب نهـــاية الاجتماع ، تناولنا بطريقة شبه عابرة موضوع احتمال تدخل الصين ، وكان الرأي السائد هو أن الصين الشيوعية

لا تنوى التدخل ، وهذا الرأى سبق أن قدمته وزارة الخارجيـــة ووكالة المخابرات •

وعندما سئلت عن رأيى ، قلت ان الرد لا يمكن أن يكون غير تكهنات ، فان وزارة الخارجية أو وكالةالمخابرات وهما الجهتان اللتان يلتمس منهماقائد الميدان الارشاد والتوجيه ـ لم تذكرا أى دليل على نية التدخل بقوات كبيرة لدى حكومة الصين ، كما أن مخابراتى المحلية التى أثق فيها ذكرت أن هناك تجمعات كثيفة قرب حدود يالو فى منشوريا • وأرى من الناحيةالعسكرية أن أى قائد صينى لن يخاطر بالقاء قوات كبرى فى شبه جزيرة كوريا المخربة بعد أن يرى قواتنـــا الجوية الكبرى التى لا يمكن التغلب عليها وقدرتهاالكبرى على تدمير قواعدالهجوم وخطوط الامدادات شمال وجنوب نهر يالو ••

ولكن هذه القصة أسىء عرضها تماما على الرأى العام فيمـا بعد فى محاولة تضليل عن الموقف الذى آتخـــذته • وكان الرأى الذى نشروه بدهاء ، هو أننى أتنبأ بأن الصين الشيوعية لن تدخل حرب كوريا فى أى ظروف ، وهذه مراوغة !

ولم يدم الاجتماع كله غير ســاعة واحدة و٣٦ دقيقة انطلقت بعـــدها بالسيارة مع الرئيس الى المطار لكى أودعه ••

لقـــد جعلنى مؤتمر جزيرة ويك أدرك أن تعبيرا عجيبا منحوسا يجرى فى واشنطون لقد ذهبت شخصية فرنكلين روزفلت التى اتسمت بالتحدى وجمع الصفوف ، وأصبح هناك بدلا من ذلك اتجاه نحو المداورة أكثر من القتال

أرض الحيرة والتردد

وصل الجيش النــامن الى « بيونج يانج» فى ١٩ أكتوبر ، فهاجمت القوات البرية من الجنوب بينمـا وقع هجوم بجنود المظلات على مسافه ٤ كيلومترا شمال المدينة فأكمل حصارها ، وقد شهدت الاستيلاء على المدينة من طائرتى التى أنزلتنى بعـــد ذلك فى مطارها الفسيح •

كانت بيونج بانج هى عاصمة العدو وســـقوطها يرمز الى الهزيمة التامة لكوريا الشـــمالية • لقد انتهت كل مقاومة منظمة ، تاركة مجرد نوع من حرب العصـــابات مكانها وهزمت الشيوعية الدولية هزيمة حاسمة •

ولكن قلقا بالغا استولى على أنا والجنرال ووكر فى بيونج يانج بسبب الموقف الذى واجهه الجيش الثامن فى

الامدادات ، فقد أصيبت خطوط السكك الحديدية من « بوزان » قاعدتنا البحرية لتفريغ الشحنات الواردة من الخارج - بينما كان ميناء « أنتشون » مقيد النشاط بسبب ظروف المد والجزر التى أثارت الاعتراض على هجومنا البرمائى هناك ، وكانت طاقة « شينامبو » ميناء بيونج يانج محدودة جدا ، وقد أسفرت كل هذه العوامل المتضاربة عن بطء الزحف شمالا ، كما ساورنا القلق أيضا بسبب الدلائل المتزايدة لوجود حشد مذهل للقوات الصينية فى منشوريا شمال نهر يالو مباشرة ..

وزاد قلقى بسبب أوامر واشنطون التى كانت تقلل من أثر قواتى الجوية الى حد كبير ، فقد حظرت علينا أولا مطاردة طائرات العدو التى تهاجم طائراتنا ، وكانت سيبيريا ومنشوريا ملاذا لكل قوات العدو ، ثم أنكروا علينا حق ضرب محطات الكهرباء على طول نهر يالو . واتسع الامر ليشمل كل محطة فى كوريا الشمالية قادرة على تزويد منشوريا وسيبيريا بالكهرباء

وكان الشىء الذى لا يمكن فهمه أكثر من غيره ، رفضهم السماح لى بضرب مركز الامدادات الهام فى « راشين » فهو لا يقع فى سيبيريا أو منشوريا ، بل على مسافة كيلومترات عديدة من الحدود فى شمال شرق كوريا ، وكانت راشين مستودعا يرسل اليه الروس الامدادات من فلاديفوستك لجيش كوريا الشمالية .. وقد أحسست أن أسلحتى تنتزع منى شيئا فشيئا .

بلغت طلائع الفيلق العاشر نهر يالو فى ٢١ نوفمبر ، ولكن الجنرال ووكر وجيشه الثامن كانا قد بدآ فى مواجهة الصعاب قبل ذلك ، وكانت أكثر نواحى الموقف اثارة للقلق ، هى الاشارة الى أن حوالى ثلاث فرق جديدة انضمت الى المعركة ، ويبدو أنها تتكون من جنود صينيين .

وبدأ السؤال يظهر بوضوح ذى مغزى .. ترى أهذه قوة استطلاع صينية عبر نهر يالو كمناورة دفاعية للحصول على معلومات عن نوايا الجيش الثامن ؟ أم أنها مجرد خدمة شيوعية .. أو هو هجوم صينى شيوعى على نطاق واسع .

وكان لدى حكومة الصين الشيوعية تفسير للموقف أعلنته للعالم كله .. قالت أن الصينيين الموجودين فى كوريا الشمالية مجرد أفراد « متطوعين » ذهبوا لمساعدة رفاقهم الكوريين .. ولكننى طرحت جانبا هذه الحجة وأبلغت واشنطون أن المعلومات

المستمدة من استجواب الاسرى الصينيين الذين وقعوا أخيرا فيأيدينا بالاضافة الى زيادة المقاومة التيتلقاها قوات الاممالمتحدة تبعدمشكلة التدخل الصينى عن النطاق الاكاديمى وتجعل منها تهديدا خطيرا مباشرا •

ورأيت اننى لا أستطيع أن أتجاهل افتراض أن الصين الشيوعية قررت الاشتراك بطريقة ما فيالحرب ولكننى لم أستطع فى نفس الوقت الحصول على دليل بأن بكين اتخذت قرارابحرب شاملة فيكوريا ، وكان المصدرالمنطقى للمعلومات الخاصة بأية قرارات تتعلق بسياسة الصين هو واشنطون ولاشك ، وليس جبهة القتال فى كوريا •• ولكن لم تكن هناك أية معلومات موثوقبها أو تفيد فيالموضوع فى أى مكان بوزارةالخارجية أو وكالة المخابرات المركزية ، أو حتى بين المحايدين فى الامم المتحدة الذين يعتبرون عادة خبراء بما يجرى داخل الصين ••

وهكذا تركونى أتخبط فى أرض حرام من التردد والحيرة !

« اجلوا كل الغارات ! »

فى ٣ نوفمبر أرسلت اليواشنطون أمرا شيوعيا خاصا بالقتال يذكر بالتفصيل قوة وأماكن ٥٦ فرقةنظامية من الجيش الصينى فى منشوريا ينتظمها ١٦ فيلقا يبلغ مجموعها ٤٩٨ ألف رجل ، فضلا عن قوات الخدمة الاقليمية وعددها ٣٧٠ألفا ، والمجموع الكلى ٨٦٨ ألف رجل ، وما تزال هناك قوات أخرى تتجه شمالا من وسط الصين •

ولم يقدم هذا النبأ الذى حصلت عليه المخابرات الى واشنطون فحسب بل والى الامم المتحدة أيضا • وكان الامر الذى تلقيته يقول : « فى حالة توزيع وحدات صينية كبرى علنا أو بطريقة مستترة فى أى مكان منكوريا دون اعلان سابق ، فلابد من مواصلة القتال ، مادمت ترى أن القتال بالقوات التى تحت سيطرتك الآن تكفل فرصة معقولة للنجاح •• وعلى أية حال فانك لابد أن تحصل على ترخيص من واشنطون قبل اتخاذ أى عمل عسكرى ضد أهداف داخل الارض الصينية •• »

وعلى الرغم من شدة القيود التى فرضتها علينا واشنطون ، فقد رأيت انه بقى سلاحواحد أستطيعاستخدامه ضد أى تدخل صينى كبير ، وأمرت الجنرال جورج ستراتماير أن يستخدم ٩٠ قاذفة من طراز ب-٢٩ فيالصباح التالى لتدمير جسور نهر يالو ، وقطع

طريق المواصلات السهل بين كوريا الشمالية ومنشوريا الذى يستخدم فى تدفق جيوش كبيرة من الصين الشعبية وكنت قد تفاديت هذا العمل حتى الآن خوفا من خطر الوقوع فى خطأ اذا ألقيت القنابل فى منشوريا وهو ماكان محرما علينا .

وتلقيت برقية سريعة من جورج مارشال وزير الدفاع بأمر مضاد لامرى ، يأمرنى بتأجيل ضرب أية أهداف تقع على مسافة ٨ كيلومترات من حدود منشوريا . وبدا لى أنه من غير المعقول أن تمتد حماية العدو لاالى الجسور فحسب، بل والى مسافة ٨ كيلو مترات على الجانب الكورى لنهر يالو حيث يمكن اقامة رأس جسر .. واحتججت فورا على هذا الامر ، ولفت النظر الى تحذيراتى السابقة التى قلت فيها أن هناك تحركات كبرى تقع عبر الجسور وقلت أن الطريق الوحيد لوقف تعزيزات العدو هو تدمير الجسور بهجوم جوى ، وتدمير المنشآت فى كوريا الشمالية من الجو، وأننى أعتقد أن هذه العملية تقع فى نطاق قواعد الحرب والقرارات والتوجيهات التى تلقيتها من قبل ، وانني لا أستطيع أن أقبل تعليمات تلغى أوامرى الا بعد أن أحتج عليها أعظم احتجاج ، وقلت (اننى أعتقد أن تعليماتكم يمكن أن تؤدى الى كارثة كبرى لا أستطيع تحمل مسئوليتها ، وأنا أطلب اعادة النظر فى قراركم بسرعة ، أوعرض المشكلة على الرئيس لاعادة النظر فيها)

وأدى هذا كله الى تعديل الامر والسماح لى بضرب الجانب الكورى من جسور نهر يالو

وطلبت الى ستراتماير أن يدرس الظروف التى يمكن أن يسمح فيها بضرب الجسور فقال (لا يمكن عمل ذلك ، ولابد أن واشنطون تعلم ذلك)

وقد وصف الجنرال ايميت دونيل رئيس قيادة القاذفات فى الشرق الاقصى عملية القاء القنابل كما يلى: (غير مسموح لنا بانتهاك أرض منشوريا ، وأعنى بذلك أنه غير مسموح لنا بالتحليق فوق أى جزء منها .. ولنهر يالو كأغلب الانهار عدة انحناءات بارزة ، وحتى لانعتدى على أرض منشوريا فاننا نستطيع أن نهاجم الجسور الرئيسية عند آنتونج بطريقة واحدة ، هى الطريق الذى يتبعه العدو نحو انحناءة فى أقصى جنوب النهر ، وقد وضع العدو على الجانب الآخر من النهر بطارياته وراح ينهال علينا بقذائفه على طول

الطريق أسفل هذا الخط تماما ، ولابد من أن نستولى عليها بطبيعة الحال ولكننا لا نستطيع أن نرد على القتال . وبالاضافة الى ذلك فقد أرسلوا مقاتلاتهم لكى تلحق بتشكيلاتنا وتتقدمها الى الشمال حوالى ثلاثة كيلومترات وتحلق بنفس السرعة على الجانب الآخر من النهر ، وبينما كنا نحن نتخذ مواقعنا ، كانت هى تميل شمالا وترتفع الى حوالى ٩٠٠ متر ثم تقوم بهجوم مواجه على القاذفات من هناك ، وكانت تأتى من منشوريا لكى تنقض على قواتنا وتطلق مدافعها عليها ثم تواصل عودتها الى بلادها .

وقد أصيب أحد طيارى قاذفاتنا بجراح قاتلة ، وعندما عاد كانت بقايا ذراع تتدلى الى جواره ، ومن خلال فقاقيع الدم المنبثقة من دمه قال :

— فى أى جانب ياجنرال تقف واشنطون والامم المتحدة ؟

لقد أحرقت هذه الكلمات روحى . وفى ذلك اليوم كتبت برقية أطلب فيها اعفائى فورا من عمل فى الشرق الاقصى ، وفى غمرة مرارتى قلت لرئيس أركان حربى الكفء الجنرال دويل هيكى : « لأول مرة فى التاريخ العسكرى ينكرون على قائد استخدام قواته العسكرية لحماية أرواح جنوده وسلامة جيشه .. ان هذا بالنسبة لى نذير بموقف فاجع فى الشرق الاقصى » ..

واحتج هيكى بأن الجيش لن يفهم رحيلى فى مثل تلك اللحظة الحرجة ، وقد تتدهور روحه المعنوية ، وأن الواجب يدعونى ألا أثير مثل تلك الازمة ... وعندئذ مزقت برقيتى وبعد عدة سنوات قيل أن الجنرال ايزنهاور قال أنه لو كان مكانى وتلقى مثل هذا الامر لتجاهله ، فان هذا على الاقل سيضمن اعفاءه فورا من قيادته .

تسرب فى المخابرات

لم يكن أمامى الآن غير ثلاث طرق ممكنة ... ففى استطاعتى أن أمضى قدما ، أو أن أبقى بلا حراك ، أو انسحب .. فاذا مضيت قدما فهناك احتمال بأن الصين لن تتدخل بقواتها وأن الحرب قد تنتهى ، واذا بقيت بلا حراك ، فسيكون من الضرورى أن أختار لى خطا للدفاع وأن أحفر الخنادق ، وقدرت أن قواتنا يجب أن تزداد الى ثلاثة أمثالها على الاقل لمواجهة مثل هذا الموقف ، ولكن لم يكن هناك أى وعد من واشنطون بارسال تعزيزات ، ولم تكن هناك أية أرض ذات عقبات طبيعية يمكن الانتفاع بها ، وسيكون مستحيلا على

قواتى القليلة اقامة دفاع قوى ضد أعداد ساحقة من الصينيين ... أما اذا انسحبت . فسيكون ذلك على عكس أوامرى وسيقضى على كل فرصة لانهاء الحرب الكورية بنجاح .

وانتهيت الى أن أفضل وضع بالنسبة للامن هو المضى قدما ، فان هذا سيحرم العدو من اختيار الوقت والمكان للهجوم وحشد قوات أخرى من منشوريا ، وسيكون فى نفس الوقت محوا لقوات كوريا الشمالية واستطلاعا لنوايا الصينيين .

واذا كان زحفنا الى الامام سيكشف اشراك الصينيين مقدما ، فان قواتنا ستكون لديها الحرية الضرورية لكى تعمل للنجاة بنفسها ، وستكون خطتى أن أنسحب بسرعة حتى أطيل خطوط تموين العدو وأكشفها مما يؤدى الى زيادة صعوبات التموين للجيش الشيوعى ، وزيادة هائلة فى قوة التدمير لقواتنا الجوية ، ومع كل خطوة للامام سوف تقل قوة العدو بالنسبة لقوتنا حتى تصل الى درجة من المساواة بين الخطين المتضادين ، وفى انتظار مثل هذا الموقف طلبت الى الجنرال ووكر أن يعد خططا لعمليات الانسحاب فى حالة دخول الصين الحرب بقوة وتصميم ، ووافق كل قادة الميدان وأركان الحرب على خطتى الاساسية ، وعرضت الخطة على رؤساء أركان الحرب المشتركة فأقروها ..

وفى غضون ذلك كان الشيوعيون الصينيون يتدفقون خلسة على جسور نهر يالو ليكونوا فى وضع استعداد للهجوم ... وتحت ستار من الظلام ، وبفضل القيود التى وضعت على دفاعنا المضاد للطائرات ، قذفوا بأكثر من ٢٠٠ ألف جندى فى كوريا الشمالية فى المدة بين ٦ و٢٦ نوفمبر وكان الامر بألا أضرب جسور نهر يالو هو أكثر القرارات التى فرضت على قائد ميدان فى تاريخ أمريكا اثارة للدهشة

وفى نهاية نوفمبر ألقى القواد الشيوعيون بقواتهم كلها عبر نهر يالو الى المعركة ... وهكذا دخلت الصين الشيوعية الحرب علنا ضد قوات الامم المتحدة ، وكانت هناك مجموعتان من جيوش الصين : المجموعة الرابعة وتعمل ضد الجنرال ووكر ، والثالثة وتعمل ضد الجنرال ألموند ، وتهاجم بقوات ساحقة

لقد كشفت ضربة مجموعة الجيش الصينى الرابع جناح الجيش الامريكى الثامن فأمر الجنرال ووكر على الفور بالانسحاب سريعا ، بينما واجه

الفيلق العاشر ظروفا أشد من الجيش الثامن فانسحب الجنرال الموند وفقا للتعليمات صوب « هانجنام »

وتم انسحاب القوتين ببراعة تامة، وقد ارتحت تماما الى طريقة تنفيذ العملية كلها واحسست أن القرارات الصعبة التى اضطررت الى اصدارها والبراعة التى أبداها قوادى أنقذت القوات ، وقد أحدث التحرك شمالا اضطرابا فى جدول مواعيد العدو وجعله يتحرك قبل الوقت المقرر ، ويكشف تجمعات الجيوش التى تتم سرا ، وكان يأمل أن يحشد فى هدوء قوة كبيرة ثم يقضى علينا بضربة واحدة •• ولو لم أتصرف كما فعلت لكنا فريسة سهلة له •

وكانت خسائرنا فى كل عمليات نهر يالو طفيفة نسبيا اذ بلغ عدد القتلى والجرحى والمفقودين فى الجيش الثامن ٧٣٣٧ وفى الفيلق العاشر ٥٦٣٨ •

وبدا للجميع بوضوح أن هناك تسربا فى المعلومات ، فقد كان الجنرال ووكر يشكو لى دائما بأن عملياته يعرفها العدو مقدما عن طريق بعض المصادر فى واشنطون ، وسأظل أعتقد دائما أنه لو أصدرت أمريكا تحذيرا بما معناه أن أى اشتراك للصين الشيوعية فى حرب كوريا سيعد عملا من أعمال الحرب الدولية ضد الولايات المتحدة لانتهت الحرب الكورية بزحفنا الى الشمال ، وأعتقد أن الشيوعيين كانوا سيلزمون مكانهم على نهر يالو، ولكن بدلا من ذلك نقلت اليهم معلومات تؤكد أن جسور يالو ستبقى وأن قواعدهم ستظل دون مساس •

وقد جاء فى منشور رسمى أذاعه الجنرال (لين بياو) باللغة الصينية: « لم أكن لأقوم بالهجوم وأعرض رجالى وسمعتى العسكرية للخطر لو لم أكن واثقا بأن واشنطون سوف تكبح جماح الجنرال ماك آرثر من اتخاذ اجراءات انتقامية مناسبة ضد خطوط امداداتى ومواصلاتى »

وأبلغت ذلك لرؤساء أركان الحرب المشتركة وقلت أن القوات الصينية تشترك فى كوريا الشمالية بقوات متزايدة ، فبالاضافة الى عناصر كوريا الشمالية ، فان الجيوش الصينية العشرين والسادس والعشرين والسابع والعشرين، والثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين والاربعين والرابع والاربعين والخمسين والسادس والستين تشترك الآن فى القتال • ولا صحة لأية حجة بأنها تكتفى بتقديم بعض المتطوعين •

لقد كنا نواجه حربا جديدة تماما.

تبادل الرسائل

كانت قواتنا الراهنة غير كافية لمواجهة هذه الحرب غير المعلنة ، وأبرقت سريعا الى واشنطون للتوصية باحضار وحدات صينية من فورموزا، ولكن الامم المتحدة رفضت استخدام القوات التى عرضها الجنرال شيانج كاى تشيك ، ولم تكن هناك أية تعزيزات كبيرة قادمة من أى مصدر آخر .

وفى ليلة رأس سنة ١٩٥١ شن الشيوعيون هجوما عاما بقوة هائلة، واحتلوا سيول مرة أخرى وتراجع الجيش الثامن الى مواقع جديدة على مسافة ١١٠ كيلومترات جنوب خط ٣٨ ولكن الضعف كان قد بدأ يظهر على العدو ، وكان التيفوس وغيره من الاوبئة تقضى على الجنود الصينيين. وأصدرت أمرى للجنرال ماثيوريدجواى - الذى حل محل الجنرال ووكر بعد مصرعه فى حادث سيارة - بان يشرع فى الزحف شمالا مرة أخرى ... وفى مارس كنا قد أعدنا احتلال سيول وبلغنا الخط ٣٨ .

وأوصى رؤساء أركان الحرب بخطة طويلة الاجل قدمت لوزير الدفاع ، يقترحون فيها فرض حصار بحرى على الصين ، مع ازالة القيود عن الغارات الاستكشافية فوق مناطق الصين الساحلية ومنشوريا ، وأن يستخدم الحلفاء قوات الصين الوطنية ، ودعوا الى منح العمليات ضد الشيوعيين تأييدا قويا

وتجددت المناقشات القديمة عما اذا كان لقوات الامم المتحدة أن تعبر خط ٣٨ أم لا ، وركز الباحثون عن كبش الفداء فى أمريكا وخارجها هجومهم على، فاتهمتنى دعاياتهم بأننى كنت السبب فى دخول الصين الشيوعية الحرب بعبورى خط ٣٨ بطريقة تعسفية ... كان هذا ليس مجرد شائعة ... كان حملة رسمت بعناية تستغلها عناصر مجهولة فى أعلى دوائر الحكومة ، وتنشرها عناصر معينة فى الصحف الامريكية والحقيقة بطبيعة الحال ، هى أن قرار عبور خط ٣٨ إتخذ فى واشنطون .

وفى ٨ مارس كتب النائب جو مارتين زعيم الاقلية الجمهورية بمجلس النواب رسالة لى قال فيها : « أعتقد أنه من الضرورى لأمن دولتنا وسلامة العالم أن تتضمن سياسة أمريكا أوسع استراتيجية ممكنة ، والا نضعف مركزنا فى آسيا بسبب رغبتنا القوية فى حماية أوربا »

« ومرفق مع هذا نسخة من خطاب ألقيته أخيرا أؤكد فيه هذه النقطة

الحيوية وأقترح أن تستخدم قوات كاى تشيك من فورموزا فى فتح جبهة آسيوية ثانية لتخفيف الضغط على قواتنا فى كوريا • وأرى أنه من المفيد أن نعرف رأيك حيال هذه النقطة سواء بطريقة سرية أو بغير ذلك •

***

ولما كنت أرى دائما أنه من واجبى أن أرد صراحة على كل سؤال برلمانى عن مسائل تتعلق بمسئولياتى الرسمية فقد رددت على النائب مارتين قائلا :

« أن آرائى وتوصياتى عن الموقف الذى خلقه دخول الصين الحرب ضدنا فى كوريا قدمت الى واشنطون بكل تفصيل ، وهذه الآراء معروفة جيدا بصفة عامة ومفهومة بكل جلاء اذ أنها تسير وفقا للطريقة التقليدية التى تقضى بمواجهة القوة بأقصى ما يمكن من القوة المضادة ، وهو مالم نفشل قط فى عمله فى الماضى ».

***

لم أعلق أهمية كبرى على تبادل هذه الرسائل ، فقد كان مقصودا به من ناحيتى مجرد رد مؤدب يحمل رغبة وطنية طبيعية فى الانتصار ، ولكن نقادى استغلوا بصفة خاصة قولى « انه ليس هناك بديل للانتصار » وتلك شكوى سخيفة • فقد أظهرت الاحداث التالية بوضوح أن البديل الوحيد للانتصار هو المهادنة ، وأن أية دولة عظيمة تخوض الحرب ولا تتمها حتى النصر سوف تعانى فى النهاية كل عواقب الهزيمة !

عزل من القيادة

أصدرت بعد ذلك تصريحا قلت فيه : (أن العمليات مستمرة وفقا للمقرر • لقد طهرنا الآن كوريا الجنوبية من القوات الشيوعية المنظمة الى حد كبير ، وفشلت تكتيكات القاء الموجات البشرية التى اتبعها العدو بطريقة حاسمة ، فانه يظهر احتمالا أقل مما تظهره قواتنا رغم قسوة الطقس والارض والمعركة •

ورغم القيود التى تحد من نشاط قوات الامم المتحدة الآن ، والمزايا العسكرية التى تتمتع بها الصين الشعبية فقد أظهر العدو عجزا تاما عن تحقيق غزو كوريا)

وفى مساء ٢٤ مارس أدليت بالتعليقات التالية : « ان كل شئ يسير على مايرام فى الجبهة • وقد بدأت « سيول » تستأنف بعض مظاهر الحياة • ويبدو أنه لا ضرورة لاى تعقيب آخر يتعلق بالخط ٣٨ الذى بحث وضعه بطريقة شاملة فى تصريحات أخيرة صدرت فى واشنطون ولندن وغيرهما من العواصم ، والواقع أنه لم يكن له قط أى مغزى عسكرى ، فقواتنا

البحرية والجوية تعبيره كلما شاءت ، كمافعلت القوات البرية ذلك في الماضي .

وكان هذا هو آخر تصريح أدليت به كقائد ، وان كنت لم أعرف ذلك في حينه ..

وثارت حملة سب ونقد على بلاغاتي الاخيرة ، وكان الجزء الذي أمسكوا به هو أنني عرضت على قائد العدو في الميدان التحدث في الشروط العسكرية وكانت حجتهم في ذلك أنني قضيت على صيغة سحرية للصلح كانت أمريكا قد حصلت فعلا بمقتضاها على اتفاق دولي ، وأنها كانت على وشك اعلانها .

وكان هذا هراء تماما ، فلم تكن هناك مثل هذه الخطوة حتى في صورة مسودة ، وكان ما قلته يؤيد تماما أي سعي يبذل للصلح .. كان مجرد صوت محلي لقائد ميدان يحدد مسئولياته بدقة اذ يقول أن المسائل الجوهرية سياسية وأنها يجب أن تجد الرد عليها في الميدان الدبلوماسي .

وكنت قد دعوت قائد العدو مرتين قبل ذلك للاستسلام ووقف سفك المزيد من الدماء ، مرة بعد انتصارنا في أنشون ، ومرة بعد احتلالنا بيونج يانج .. وفي كلتا المناسبتين لم يظهر أدنى همس من اللوم من أي مصدر ، بل العكس هو الصحيح ، فمنذ بداية الحروب ، لقائد الميدان حق اتخاذ أية خطوات في سلطته لتقليل سفك دماء الجنود الى أدنى حد ، بل ان ذلك لعمل يعتبر من واجبه ..

كما ترددت شكاوى عن تأكيدي لضعف الصين ، ولم يكن تصريحي واقعيا فحسب ، بل لقد كان يهدف الى أن يقدم العدو الاسباب الاساسية التي تدعوه للموافقة على وقف الحرب .. والواقع أنه بعد أقل من أربعة شهور قبل الاقتراح الذي قدمته روسيا لوضع الترتيبات الخاصة بعقد هدنة

وفي تلك الفترة الحرجة أذاع النائب مارتين رسالتي اليه ـ لسبب لم يفسر بعد ـ ودون استشارتي . وعلى الفور ترددت الصيحات والضجات بأنني أردت أن أوسع نطاق الحرب .

وفي الساعة الواحدة من صباح ١١ ابريل استدعى الرئيس ترومان الصحفيين الى البيت الابيض وأعلن اعفائي من قيادتي في الشرق الاقصى

الثمن الفاجع

منذ بداية الزمن ، تغير كثيرون من القواد ـ البعض بسبب نزوة ، والبعض بسبب قضية ، ولكن لم يحدث قط أعنف من الطريقة التي استخدمت في اعفائي دون استماع لاقوالي ، ودون منحي فرصة للدفاع ، أو أي اعتبار للماضي ..

لقد سمعت الكثير عن مزاج ترومان

العنيف ، ونوبات الغضب التى لايمكن السيطرة عليهـا ، كما لاحظت بقلق متزايد طريقة معـالجته غير الحـازمة للموقف فى كوريا •• كان باديا تماما أن أعصابه بلغت مرحلة الانهيار ، ولم تكن أعصابه وحدها ، بل كان هنـاك ما هو أكثر خطرا بالنسـبة لرئيس تنفيـذى لدولة فى حرب وهو جلده وقوة احتماله •

وكان الامر الذى تلقيتـه باعفائى عنيفا حتى أنه لم يتضـمن شيئا من العبارات الرقيقة المعهودة التى تذكر عند نقل قائد ما ، بل انه وضـعنى تحت اكراه فعلى ، ولم يكن هناك ساع أو خادم من أى نوع يمكن أن يفصل من عمله بمثل هـذا التجاهل الفظ لقواعد الادب واللياقة العادية ، فقـد علمت بالامر أولا عن طريق برقيـة صحفية أذيعت بالراديو !

كان اعفائى من القيـادة أمرا مهما لا للسبب ما تضمنـته من مسـائل شخصية ، بل لانه كان رمزا لتغيير أساسى فى الموقف حيـال آسيا منذ دخولنـا حرب كوريا ، وكان الشىء الاكثر مغزى تلك الاحـداث الفاجعة التى نتجت بعد ذلك ، فان سلسلة من رد الفعل التى بدأت أضرت بأسـس الكفاح بين الغرب والشيوعيين •وكان من الممـكن أن يكون قرار مواجهـة العـدوان الشـيوعى فى محاولته العسكرية للاستيلاء على كوريا قرارا نبيلا حقا لو أنه نفذ بشجاعة وعزيمة لاتهن ، ولكن الامم المتحدة أثبتت أنها ليست كفئا لهذه المهمة ، فبعد دخول الصـين الحرب ، أذعنت الامم المتحدة للنصائح التى اتسمت بالخوف وتخلت عن التزامات تعهـدت بها بأن تعيد لشعب كوريا دولة كانت موحدةوحرة

ان التخلى عن سياسة تسير مباشرة نحو النصر ، انما هو نكوص عن مبدأ الولايات المتحـدة العسكرى منذ قرن ونصف قرن •• من الهجوم الى الدفاع •• مع أن تاريخ الحروب يظهـر أن السياسة الدفاعية لا تحقق غير ركود حائر متردد • وقد قبلت سـياسة التردد والحيرة بثمن فاجع ••

ولا يمكن فى الحرب أن يكون هناك بديل للانتصار •



اول السلم :

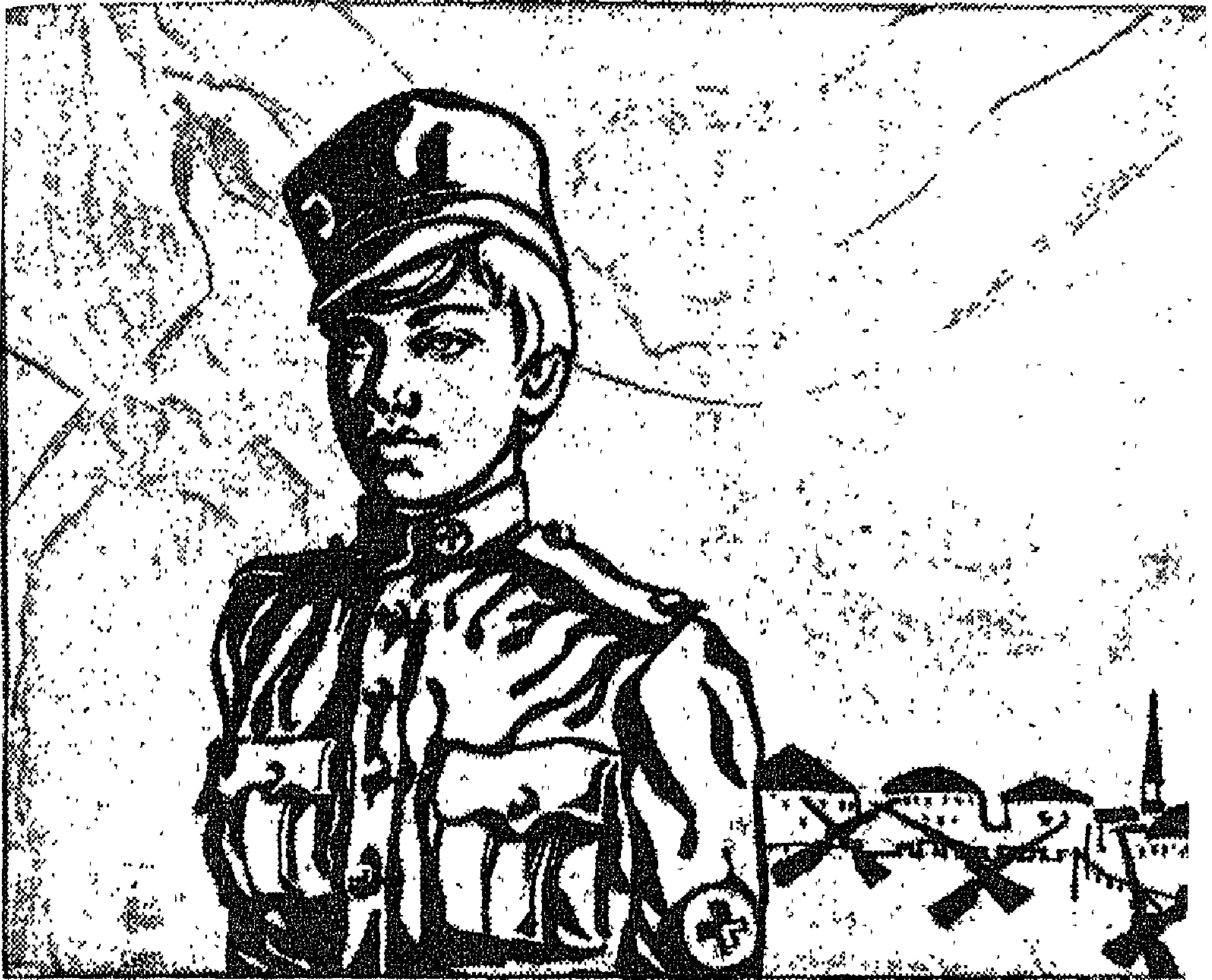
قال الموظف وهو يقدم الشاب المعين حديثا لزملائه فى الشركة :

ــ هذا هو هوبرت ابن المدير ••• وسيبدأ العمل من اول السلم •• بضعة ايام !

كتاب الشهر

الجاويش الجميل

بقلم آلان بيرجس



مغامرات غير عادية لفتاة إنجليزية
باسلة خلال الحرب العالمية الأولى

« قصة الفتاةالانجليزية الجميلة فلورا
سـانديس التى خـــدمت فى الجيش
الصربى خلال الحرب العالمية الاولى ..
لقد جرحت ونالت الاوســمة وأحبها
رفاقها فى السلاح الى حد العبادة ،
انها قصة أعجب من أن تكون حقيقة
وقد سردها بعبـــاراته الحماســـية
المرحــة الدافئـــة ألان بيرجـــس »



الجاويش الجميل

تلخيص كتاب

The Lovely Sergeant

في الفندق الريفي الصغير الذى يقع على جانب جبلى وعر ، والذى استخدم كمقر مؤقت لقيادة الآلاى الصربى الثانى ، راح الكولونيل اندريه ميليتش قائد الآلاى ينظر فى قلق الى الشابة الانجليزية الشقراء ... وقال بالالمانية التى يفهمها كلاهما جيدا :

- عندى لك نبأ سيىء يا مس سانديس ، قد يؤدى الى رحيلك عنا .

ونظرت اليه فلورا سانديس فى ثبات دون أن ترد .. كانت قد انضمت قبل ذلك بأيام قلائل فقط الى وحدة اسعاف الميدان كممرضة متطوعة بالآلاى ، وكانت ترجو أن تبقى فيه ..

ومضى الكولونيل يقول : وهذا هو النبأ .. لا أمل هناك فى وقف زحف العدو ، ولا بد من استمرار تقهقرنا ..

كان ذلك فى عام ١٩١٥ ، ونصف العالم فى حالة حرب ، ولكن الحرب لم تكن أكثر مرارة أو يأسا مما كانت فى جبال الصرب التى يكسوها الجليد حيث الدولة البلقانية الصغيرة التى بدأت الحرب فيها . كان الجنود الصربيون يتراجعون منذ أسابيع أمام القوة المشتركة للجيوش البلغارية والنمسوية - المجرية وكانت القوات الصربية تشن هجمات مضادة كلما استطاعت ، ولكن الكولونيل كان يعرف انهم على حافة الهزيمة التامة.

وسألته فلورا : هل يستسلم الجيش ؟

فأجاب الكولونيل بهدوء : كلا .. لن نستسلم أبدا .

ثم قال ان الالمان عرضوا عليهم فعلا عقد صلح منفرد ولكنهم رفضوا ذلك فى ازدراء ، وسوف يواصلون القتال حتى الحدود الصربية وما وراءها خلال ألبانيا حتى البحر اذا لزم الحال ، ثم يقاتلون بعد ذلك بمساعدة فرنسا وبريطانيا ليشقوا طريق العودة الى بلدهم ..

ثم قال محذرا : ولكننا اذا تقهقرنا خلال ألبانيا ، فسيكون عبور الجبال فى منتصف الشتاء محنة رهيبة ، لن يبقى حيا بعدها الا أقوى الرجال .

وأخطأ الكولونيل تفسير نظرة

القنوط التى بدت فى عينى فلورا ، فقال :

ــ مس سـانديس .. انك من رعايا بريطانيا ، ولك الحق فى الرحيل عنا اذا شئت ..

وأدهشته صرامة ردها عندما قالت : لقد جئت الى هنا ياكولونيل ميليتش لاساعد الصرب ، ومهما حدث فاننى أود البقاء مع الآلاى الثانى .

وراح الكولونيل ــ فى تعاسة ــ يتمعن فى تلك المرأة الطويلة القامة التى تثير الحيرة ، والتى اختارت الاشتراك فى معركة وطنه .. كانت ترتدى قميصا وسترة خاكية اللون ، وكانت لهجتها مباشرة بلا تحفظ ، ولكنها ما زالت تتسم بالانوثة .. كانت تعمل لمساعدة الجرحى دون كلل تركب الخيل فى براعة الضباط ، وتتقبل المتاعب والمشاق كأى جندى، ولكن السماح لها بالاستمرار معهم الآن قد يكون بمثابة اصدار قرار بموتها .

وظل الكولونيل صامتا فترة طويلة ، ثم قال بعد تأمل : أعتقد ان فى استطاعتك الالتحاق بالجيش

وحدقت فيه فلورا بدهشة .. ثم سألته : كجندى حقيقى ؟

فأجاب ميليتش : هناك نساء كثيرات يعملن الآن كجنود .. انهن من بنات الصرب بطبيعة الحال ، ولا أعرف بالضبط ما اذا كانت سيدة أجنبية تستطيع الانضمام ..

فقالت مذكرة اياه : ولكننا حلفاء ؟

وفكر الكولونيل ميليتش فى كآبة وهو يوازن المخاطر التى ستواجهها فلورا باعتبارها جندية ، مقابل قيمتها الكبرى باعتبارها رمزا .. فقد كانت الصرب قد تلقت حتى ذلك الحين مجرد مساعدة قليلة من حلفائها البعيدين ، الانجليز والفرنسيين ، ووجود فلورا مع جنود الصرب سيكون بمثابة وعد بأن حلفاءهم لم ينسوهم .. وأخيرا وبعد تردد مؤلم انتهى الكولونيل الى قرار .

وانتزع الكولونيل رقم (٢) الغصن الصغير رمز الآلاى من كتفه ، وقال :

ــ سانديس .. قفى فى انتباه

ثم قام بتثبيت الرقم فوق سترتها الخاكية ، وخطا الى الوراء خطوة مؤديا التحية .. وقال :

ــ أيتها النفر فلورا سانديس .. اننى أرحب بك كمجندة جديدة فى الآلاى الصربى الثانى من الجيش الصربى الاول .

كان هذا الحفل المختصر بداية حياة من أعجب وأزهى ما شهدته الحرب العالمية الاولى فى السلك العسكرى

اعطنا شيئا نقاتل به

كانت فلورا سانديس ابنة قسيس من ريف « سافولك » وقد تلقت دراستها الاخيرة فى سويسرا حيث تعلمت أيضا التحدث بالفرنسية والالمانية بطلاقة تامة ، وعندما بدأت الحرب فى عام ١٩١٤ كانت تعمل فى لندن كسكرتيرة ، ولكن حمى الوطنية التى اجتاحت انجلترا كلها ما لبثت أن أصابتها ، فانضمت الى فريق متطوعات الصليب الاحمر ، وبعد تدريب ضئيل فى التمريض استغرق أسابيع قلائل ، أرسلت الى الصرب ٠

ورحب الصربيون بمساعدتها فى مستشفياتهم العسكرية القليلة المزدحمة ، وكان اعجابها يتزايد كل يوم بهذا الشعب الباسل ذى الكبرياء والعيون ذات الوميض ، وشاهدت كيف استطاع الجيش الصربى فى الشهور الاولى من الحرب ـ دون اى مساعدة من الحلفاء البعيدين ـ أن يتحمل الهجمات ويرد بما يشبه المعجزة جيشا مجريا نمسويا قويا ، مع ان ترسانته لم يكن فيها الا القليل ٠٠ ثم ما لبث أن تفشى فى أنحاء البلاد عدو أكثر خبثا ، هو وباء التيفوس ، فأصاب الجنود والمدنيين على السواء ، ليقتل أربعة من كل خمسة من ضحاياه ، وأصيبت فلورا ذاتها به وهى تعمل فى مستشفى « فالجيتو » ، فأرسلت الى وطنها انجلترا ٠٠

وشفيت من التيفوس ، ولكنها كانت قد أصيبت بمرض آخر لا علاج له : لقد أحبت الصرب وشعبها ٠٠ وهكذا عادت الى الصرب ، واستطاعت هذه المرة ـ رغم اعتراضات القنصل البريطانى ـ أن تصل الى الجبهة ، حيث انضمت الى الجيش الصربى فعلا ٠٠

ولم تلحق فلورا باحدى الفصائل فى خط القتال ، ولكنها عينت بدلا من ذلك بمقر قيادة الآلاى ومنحت امتيازان لم يكن يعرفهما الجندى الصربى العادى ، فقد كانت تركب فرسا أبيض أهداه اليها الكولونيل ميليتش ، كما خصص لها قزما يدعى « دراجوتين » للعمل كمراسلة لها ، وأظهر دراجوتين على الفور دهاء لاحد له وسعة فى الحيلة فى الحصول لها على ما تريد ٠

وجاء القنصل البريطانى مستر جريج ليودعها ، ثم ناشدها للمرة

الاخيرة أن تبتعد عن منطقة المعارك ، ثم تمنى لها حظا سعيدا بعد أن يئس من اقناعها •

وقال : لقد أحضرت لك قليلا من الاشـــياء التى آمل أن تتمكنى من استخدامها •

وأشـــار الى صـــندوق من علب السجائر وآخر من المربى ، وثالث يمتلىء بالخوذات الصوفية •

وعندما استشارت فلورا الميجور بسيتش حول توزيع هذه الاشياء ، قال ان الفصيلة الرابعة سوف ترحب بها ، فقد ســـحبت لتوها من خـط القتال لقضاء فترة راحة قصيرة بعد أن مرت بوقت عصيب جدا ، وقال لها انه ذاهب فى جولة تفتيشية ، وسوف يصحبها الى معسكر الفصيلة

وبعد مسيرة حوالى ثلاثة أميـــال بجوادهما ، وصلا الى صفوف من خيام يكسوها الجليد ، وكانت هناك نيران كثيرة تشتعل بأغصان شجر الصنوبر بين خطوط الفصيلة ، وأوقف الميجور بسيتش جواده بجوار احدى النيران التى جلس أمامهـــا ثلاثة ضـــباط يصطلون ، وترجل بسيتش ثم قدم فلورا الى رئيسهم الملازم جاناشكو جوفيتش الذى يقود الفصيلة الرابعة

كان جوفيتش عريض المنكبين ، خشن المظهر ، طويل القامـــة ، له شعر خشن قصير وشارب معقوف الى الوراء •• وحدق بنظرات غير ودية نحو فلورا ثم دق عقبيه وصافحها •• وشرح له الميجور بسيتش الغرض من الزيارة ، فحنى جوفيتش رأســه ثم قدم لهما زميليه اللذين أبديا حيالها شعورا وديا على عكس رئيسهما ••

ولمست فلورا نظـــرة ازدراء فى عينى جـــوفيتش وهو ينظر الى رقم الآلاى الثانى المثبت على كتفها ، وعندما جاء « دراجوتين » يقود العربة المحملة بالسجائر والمربى والخوذات الصوفية قال جوفيتش فى سخرية انه كرم منها حقا أن تحضر مثل هذه الاشياء الطريفة ••

ثم سألها فى لهجة جافة : ألا يحتمل ن تصل أيضا بنـــادق وذخائر ؟ من الصعب قتل العدو بقذفه بعلب المربى!

ولكن بعد أن قام مساعداه بتوزيع عدايا فلورا ، خرج الملازم جوفيتش من خيمته وشكرها بطريقة رسمية ، ولم تقل فلورا أكثر من أنهم حلفاء !

وأصابت كلمتها وترا حساسا فى قلبه •• لقد كان المفترض حقا انهم حلفاء ، ولكنه سألها بلهجة عدوانية

ـ ولكن لـــماذا يرفض الانجليز والفرنسيون تركنا لنهاجم بلغاريا ،

في حين أن أي صربي على قدر ضئيل من الذكاء يستطيع أن يرى ان البلغار كانوا يدبرون غزو بلادنا ؟ لعلك تستطيعين تفسير هذا لملازم صربي بسيط ؟

فأجابت فلورا : ان على الحكومات أحيانا أن تتخذ قرارات قاسية غير محبوبة .. لماذا تورط بريطانيا نفسها وحلفاءها في نزاع مع عدو آخر ، في حين ان هناك فرصة بأن تتمكن الدبلوماسية مع ابقاء بلغاريا محايدة ؟ انني أعترف أن دبلوماسية الحلفاء لم تكن بارعة تماما ولا شك في أن الامر كان يتحسن كثيرا لو كانت هناك نساء دبلوماسيات ، لكن النوايا كانت نبيلة تماما .

فأجاب جوفيتش بسرعة : ان النوايا النبيلة لا تطعم ولا تسلح رجالي .. ان مائة بندقية تساوى كل نوايا بريطانيا وفرنسا الطيبة معا .

وثارت فلورا غضبا ، وقالت ان الفرق البريطانية والفرنسية قد نزلت فعلا في « سالونيك » ، وانها تقاتل منذ أسبوعين للاتصال بالجيش الاول .

وزاد هذا من غضب الملازم جوفيتش فنهض واقفا ولوح بذراعيه بعنف قائلا :

ـ نحن لا نريد من يقاتل بدلا منا .. كل ما نريد هو البنادق والذخيرة ولو كان لدينا شيء نقاتل به لاندفعنا الى الامام بدلا من أن نطارد حتى نخرج من بلدنا .

ومضى يقول في غضب : لقد هزمنا البلغار مرة ، وهم سينتقمون منا الآن بالحرق والنهب والقتل وينتهكون حرمة زوجاتنا وأمهاتنا وحبيباتنا بينما نجلس نحن حول هذه النار ، وسيعدمون آباءنا وأبناءنا

وكانت الفكرة شديدة القسوة عليه ، فتوقف فجأة وجلس ، وتاقت فلورا الى تهدئته ومواساته وفي تلك اللحظة عاد الميجور بسيتش ليصحبها في العودة الى مقر قيادة الآلاى ، وأحس بالتوتر السائد وبعد أن ابتعدا بجواديهما عن المعسكر سألها عن السبب فأخبرته بما ثار بينها وبين جوفيتش من جدل فقال :

ـ ان الملازم جوفيتش ثائر يؤمن في تعصب بمستقبل الصرب ، وعندما بدأت الحرب التركية تطوع جنديا وفي خلال ثلاث سنوات رقي الى رتبة ملازم أول مما يعني انه جندي ممتاز ... ومع أننا نفقد حماستنا بمرور الزمن فان جوفيتش تزداد حماسته لهيبا وتوهجا كلما ازدادت الامور سوءا .

وأدركت فلورا من حديث بسيتش ونظرته اليها انه يحاول الاعتذار اليها بطريقة أبوية عن تهور واحد من ضباطه الشبان ..

فارس فى الليل

بعد أيام قلائل من مقابلتها مع الملازم جوفيتش ، وجدت فلورا نفسها فجأة وسط فاجعة لا مثيل لها فى تاريخ الحرب العالمية الاولى ، فقد بات قرار اختراق حدود ألبانيا أمرا لاشك فيه ، وبينما كان زحف العدو يزداد قوة ، كان ألوف من اللاجئين يتجهون نحو الممرات الجبلية وقد قرروا الفرار بدلا من العيش فى ظل الطغيان .

ولم يفلح كثير من الضعفاء فى اتمام ذلك ، وراح الآلايان الثانى والرابع عشر يتناوبان التضحية فى حراسة المؤخرة طوال فترة التقهقر ، وبينما كانت فلورا تقترب من حدود الصرب مع الآلاى الثانى ، شاهدت جوانب الطرق وقد غصت بجثث الشيوخ والاطفال الذين تبددت قواهم ، وكانت وجوههم مغطاة بالخرق أو أهيل بعض التراب أو الجليد فوق أجسادهم ، وكانت هذه المشاهدة القاسية مجرد اشارة الى الرعب البالغ الذى سيأتى بعد ذلك ، فقد مات مائة ألف من بين ربع المليون جندى الذين بدأوا الرحلة الى الادرياتيك ، بينما مات ٢٠٠ ألف من نصف المليون لاجىء الذين حاولوا الفرار .

وبعد ظهر يوم شديد البرودة فى ديسمبر ، بلغ الكولونيل وأركان حربه كومة من الاحجار وضعت كعلامة لحدود الصرب، وعندما أوقفوا خيولهم راحت فلورا تختلس النظرات نحو أصدقائها .. كانت لحظة مرارة عميقة ، فقد كان الكولونيل ميليتش يحدق بعيون شاحبة خالية من التعبير .

وبعد ظهر اليوم التالى جاء ضابط يعدو فوق جواده يحمل أنباء مذهلة .. لقد قام العدو بحركة تطويق سريعة ، وقد كشف الكولونيل المعنى الكامل لفلورا فقال وهو يشير الى أخدود مرتفع على مسافة بضعة كيلومترات الى اليمين : ان البلغار يتجهون نحو قمة جبل « تشوكاس » واذا لم نبلغ القمة قبلهم ، فسوف يقطعون علينا خط الرجعة .

وظلوا يواصلون السير بجيادهم طوال الليل وأغلب النهار التالى حتى عسكروا عند سفح الجبل ، ورقدت فلورا فى حفرة نبشتها تحت شجرة وأحكمت معطفها حول جسمها وحاولت النوم ولكن الدنيا بدأت تمطر ، وقد

سرت عنـــدما جاء الامر فى الثالثة صباحا بمواصلة السير •

لن تتركونى وراءكم !

ومع أول خيــوط الفجر ، أوقفت فلورا جوادها لتكتشف أنها انفصلت عن الكولونيل ميليتش وأركان حرب قيــادة الآلاى ، وأصبحت الآن بين رجال الفصيلة الرابعة الذين تذكرها الكثيرون منهم فى سرور •

كان المطر قد توقف ، ووجــــدت فلورا الملازم جوفيتش يستعد لتناول افطاره مع اثنين من ضباطه الى جوار نار مشتعلة ، وبدا انه لم يرها ، ولكن الضابطين الآخرين طلبا اليها مشاركتهم فى الطعام ، وجلسوا يأكلون بعض الوقت فى ســكون ، ونظرت فلورا الى جوفيتش ، وحـــاولت أن تفكر فى كلمات تشكره بها ، ولكنه كان يحدق ببصره بعيدا ، ثم التفت فجأة ونظر اليها فى ضيق واضح •

هذه المرأة الشابة الطويلة لاتزال قادرة بعينيهـــا الزرقاوين المتعبتـــين ووجهها القذر أن تبدو أنثى جميلة ! لقد كان جوفيتش يعتقد ان النساء ينبغى ألا تكون لهن أية صلة بالحرب وكان من الطبيعى أن يســـاعدها فى الليلة السابقة وسط البرد والمطر ، ولكن لم تكن لديه نيـــة تركها مع فصيلته حتى لا تلهى رجاله وتستنفد مئونتهم الضئيلة •• وقال لها بفظاظة :

ـ سنبدأ تسلق جبل تشوكاس فورا ، ولكننى سأرسل عداء أمامنا للبحث عن الــكولونيل ميليتش من أجلك ، وتستطيعين البقاء فى غضون ذلك مع دواب الحمل •

واتسعت عينا فلورا غضبا وقذفت طبقها بشـــدة وقالت ان لهـا الحق باعتبارها من جنود الآلاى الثـــانى المعتمدين أن تصـــعد الى قمة الجبل كأى جندى آخر •• ثم قالت بسرعة :

ـ لن أبقى فى المؤخرة مع خيول الحمل !

واســـتبد الغضب بجوفيتش • كان ارتفـــاع الجبل يزيد على ١٥٠٠ متر ولابد من تسلقه بأسرع مايستطاع اذا أرادوا سبق البلغار الى القمة ، ووجود امرأة معهم سيعرقل جهودهم

واقبل ضابط شاب فارع الطول غائر الوجنتين يسمى أكيسكا فوكوى •• وانتحى بجوفيتش جانبا وذكر له بصـــوت منخفض ان فلورا ضيفة الكولونيل ولا ينبغى ان يكونوا اجلافا معها ، وابتلع جوفيتش سخطه وحتى رأسه فى قبول بعد تردد ثم التفت الى جنـــدى من وحـــدة فوكوى وقال بحـــدة :

ـ جاويش ميلادين . ستصعد معنا الانجليزية الى قمة جبل تشوكاس فعليك بمهمة العناية بها.

وكان اختيارا موفقا ، فقد كان الجاويش ميلادين عملاقا لا يكل ولا يتعب ، وقد حرص على الا يبتعد عن فلورا اكثر من امتار قلائل خلال صعودها فوق الصخور والاحجار ،

وقبل ان ينتهى تسلق القمة ، كانت فلورا قد عرفت الكثير عن جوفيتش ، وادركت من حديث فوكوى ان الفصيلة الرابعة ليست فصيلة عادية، فان رجالها الذين يبلغ عددهم ٢٢٠ يجمع بينهم شعور واحد من الولاء لقائدهم جانا شكو جوفيتش ، وكل منهم على استعداد للموت فى سبيله .

وفى الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم ، بلغوا الاخدود الطويل الذى يعد علامة على قمة جبل تشوكاس واحسوا بالارتياح عندما وجدوا انهم سبقوا البلغار الى هناك ، ونصبوا استراحة للجنود ، وسرعان ما استغرقت فلورا فى النوم بعد وجبة من العيش والجبن .

تقرير طبيب

ظلوا فى مواقعهم طوال النهار وهم يطلقون سيلامن النيران بين حين وآخر للدفاع عن القمة ، وعندما حل الظلام جاء الفريق الذى سيتولى الحراسة بدلا منهم ، وهبطوا المنحدر نحو نيران معسكر الفصيلة الرابعة ووهجها الدافىء ، وجلست فلورا فوق كوم من الاغصان التى كدسها جنود المعسكر ، ونادى الملازم جوفيتش الجاويش ميلادين وسأله :

ـ كيف تتصرف الفتاة الانجليزية تحت النيران .

فأجاب ميلادين : انها اثبتت وجودها كمحاربة قديمة .

ـ وكيف ينظر اليها الرجال ؟

لقد كانوا فخورين بوجودها معهم بل انهم يزهون على الفصائل الاخرى على اساس أن وجود الانجليزية معهم دليل على ان فصيلتهم هى أفضل فصائل الجيش .

وادرك جوفيتش على الفور انه ارتكب خطأ بحكمه المتسرع على هذه الشابة العجيبة ، وعرف الآن أن قيمتها فى رفع الروح المعنوية تفوق كثيرا كل ماقد تثيره من متاعب ، واضطر الى الاعتراف بأنها استطاعت تسلق الجبل كأى واحد منهم بمساعدة قليلة .

وعندما أتم ميلادين تقريره ، اتجه

جوفيتش نحــو المكان الذى تجلس فيه فلورا ، التى رأت ملامحه الصارمة المتأملة على وهج النــيران الاحمــر ، وكأنها صــورة رسمت بخطوط من الفحم والظلال .. وقال فى لهجـــة جادة : لقــد تلقيت الآن تقريرا طيبا عنك .. هل تحبين الانخـــراط فى سلك الفصيلة الرابعة بسرية الجاويش ميــلادين ؟

وجلست فلورا وقد بدت عليهـــا الدهشــة ، وظنت فى بادىء الامر انه يمزح ، ولكنه عندما واصل حديثه بدا لها أنه كان جادا حقا ، فقد قال : « سنسمح لك بالاحتفاظ بالمراسلة والجواد ، وفيما عدا ذلك ستكونين نفرا عاديا ، تشاطرين الباقين منــا نفس المتـــاعب والاخطار فهـــل تقبلين ؟ »

وقالت فلورا ان هـــذا العرض فخر لم تكن تحلم به ، فان هـــذا هو افضــل لواء فى الجيش الصربى

فقــال جوفيتش : حســنا . . اتفقنا ..

استؤنف التقهقر فى اليوم التالى عندما احضر البلغار مدفعيتهم وبدأت القذائف تسمع على مقربة من الخطوط الصربية فى دقة مزعجة ، وقبل الليل مباشرة ، قامت الفصيلة الرابعــة بالهبوط من جبــل تشوكاس حتى انضمت من جديد للفــرقة واتجهت نحو بلدة (الباسان) الالبانية وبعــد قليل صدر لهم الامــر بالذهاب الى موقع فى سفوح التلال القريبة لمراقبة دوريات العــدو .

لم يكن هناك خطأ فى الطريق الى الشــاطىء .. انه يؤدى الى القمم الجليدية لذرى الجبال المقفرة ، ومنها الى الوديان ذات المستنقعات الغارقة فى الاوحال ، وقد ترك الالوف الذين مروا من قبلهم علامات فى كل ميــل من الطريق .. كانوا يسيرون وسط طريق لا نهاية له من الانقاض البشرية والحيوانات النافقه ومروا بكثير من اجسام منتفخة للثيران والجيـــاد ، واللاجئين الذين فقدوا حياتهم .

كان البلغار قد اوقفوا تقدمهم ، واصبح الزحف الآن سباقا ضـــد الجوع . لقد تركت الفصيلة الرابعة « الباسان » وليس معها الا تموين من الخبز ، ولكن بعد خمسة ايــام كان الكثير من الرجال قد اوشكوا على الموت جــوعا ، وعنـــدما كانوا يعســكرون فى ظل ليــــلة ، كان يبدو على جوفيتش انه يجد راحــة من الارهاق ومأساة الزحف بالحديث مع فلورا .. وسرعان ما عرفت منه

القدر الذى تعرفه اغلب النساء عن الرجل طوال حياتهن .

لقد جاء من بلغراد ، بعد ان ربته امة الارملة الشديدة الفقر ، وترك المدرسة فى سن مبكرة ليعمل فى دار صحفية واحب هذا العمل الذى يجعله قريبا من سياسة البلقان المضطربة ، وعندما زحف الجيش الصربى ليطرد الاتراك من بقايا امبراطوريتهم البلقانية ، كان جوفيتش قد ذهب الى الحرب ، ولم يعد الى بيته منذ ذلك الحين .

كان جوفيتش ـ مثل الكثيرين من ابناء الصرب ـ يسيطر عليه حلم عاش فى قلوبهم جميعا منذ الف عام ، حلم اتحاد كل الشعوب السلافية فى انحاء البلقان ، اتحاد يجمع ابناء البوسنة وكرواتيا والصرب ومقدونيا والهرسك ودلماسيا فى دولة واحدة .

وفى عشية راس السنة ، بلغت الفصيلة الرابعة الشاطىء أخيرا وقد شحبت الوجوه وتقرحت الاقدام وسرعان ما أقاموا خيامهم فى بلدة « دوراتزو » قرب مقر قيادة الوحدات الايطالية والبريطانية ، وعرفوا نعمة الراحة والطعام الجيد بضعة أيام فى مطلع سنة ١٩١٦ .

وبعد اسبوع توجه جوفيتش الى خيمة فلورا وابلغها انها رقيت الى رتبة « أونباشى » فأدت فلورا التحية العسكرية وتوردت وجنتاها واحست بالسعادة تغمرها ، وبعد ان انتشر النبأ فى المعسكر ، هنأها اصدقاؤها

وبعد بضعة أيام ايقظها دراجوتين ليذكر لها ان الملازم جوفيتش مريض وانه فى حاجة الى ممرضة ! ووجدته يرقد تحت كومة من الاغطية الصوفية يرتعش من الحمى ، ولكنه قال انها حالة بسيطة وانه سينهض بعد لحظة . ولكنها منعته من ذلك .

وكانت فلورا تعرف كيف يتحول هذا المرض بسرعة الى التهاب رئوى ولا سيما ان الارهاق والجوع كانا يقضيان على العشرات من أفراد الفصائل كل يوم .

وقالت له ان مرضه هذا يستلزم قيامها بدورها السابق كممرضة ، وان عليه اطاعة أمرها بهذه الصفة الا اذا أراد ان يعاقب بالتدريب .. أو الحجز فى المعسكر ! .. وحاول ان يحتج ويثور ، ولكنها قاطعته وهددته بابلاغ طبيب الآلاى بالرصاصة التى لم تستخرج من جسمه مما يجعل من المحتمل اعادته للمستشفى ، وعندئذ استسلم جوفيتش .

وظل فى فراشه خلال الايام التالية

يتناول الاسبرين واقراص الكينا ، مع طبق من الحساء الخفيف فى كل وجبة ، وبينما كانت تقدم له العشاء من المساء فى اليوم التالى تمتم قائلا : «انك تفعلين ذلك انتقاما منى» . ولكن فى صباح اليوم الثالث ، بدأ ان نظام الغداء الذى وضعته له فلورا قد نجح ، وعندما دخلت خيمته وجدته يأكل طبقا من « اليخنى » وقد تبدد الشحوب من وجهه ، وارتسمت البسمة على شفتيه وأحس انه أصبح على ما يرام وشكرها على جهودها فى تمريضه ، ثم منحها اجازة ثلاثة أيام اظهارا لشكره !

كولونيل فرنسى يستسلم

انتقل الآلاى الثانى بعد فترة قليلة من شفاء جوفيتش الى جزيرة (كورفو) حيث تعسكر بعض وحدات الحلفاء وكان رجال الفصيلة الرابعة يتطلعون الى جنة من بساتين الزيتون والفاكهة والخمر والبحار الزرقاء ، ولكنهم عندما ذهبوا الى المعسكر المخصص لهم فوق سفح تل منعزل على مسافة كيلومترات من أقرب قرية ، سرعان ما اكتشفوا انهم يواجهون معركة اخرى فى سبيل البقاء !

لم يكن لديهم غير الخيام والبنادق والامتعة .. لا حطب ولا خبز ولا لحوم ولا دقيق ، والعلامة الوحيدة على الحياة فى المنطقة ، سيارة نقل بريطانية تمر احيانا امامهم وهى تهدر حاملة الاحطاب الى بلدة كورفو !

وفى الصباح التالى طلبت فلورا الى جوفيتش ان يأذن لها بالتوجه الى البلدة لتذكر السلطات المسئولة بوصولهم فتمنى لها حظا سعيدا ، وعندما ظهرت أول سيارة نقل اشارت اليها وبعد نصف ساعة انزلها السائق امام البعثة البريطانية فى (كورفو) ، ولكن فلورا واجهت الروتين والتعقيدات البيروقراطية خلال الساعات التالية فقد احالها الانجليز الى مقر القيادة الصربية ، التى احالتها بدورها الى السلطات الفرنسية التى كانت تسيطر على الجانب الاكبر من الطعام فى الجزيرة ولكن الكولونيل الفرنسى الفظ الذى قابلها حدثها ببرود عن التراخيص المناسبة التى يجب الحصول عليها أولا ، وعادت الى البريطانيين وقد بللها المطر المنهمر ، ولكنهم لم يمنحوها غير العطف واقترح عليها ملازم شاب أن تذهب الى الفرنسيين راسا ، فهى امرأة على أية حال !

كان الظلام قد أوشك على الحلول

عندما عادت فلورا الى مقر البعثة الفرنسية ووقفت مرة اخرى امام الكولونيل الفرنسي الذى بدا عليه الضيق من الحاح هذا « الاونباشى » الصربى والفتاة الانجليزية الغريبة التى بلغ من وقاحتها ان تزعجه مرتين بشأن تموين غير مصرح به . وحاول ان يوبخها ولكن فلورا انفجرت تحكى له بصوت مرتعش كل ما أصاب الجنود خلال الاسابيع السابقة من جوع ومرض وارهاق ، وهاهم الآن يتركونهم ليموتوا جوعا بعد ان ظنوا انهم أصبحوا فى امان وفجأة انهمرت الدموع من عينيها ، وحاولت أن توقف عبراتها دون جدوى، ثم أخذت تنتحب وقد شعرت باذلال تام .

وكان هذا اكثر مما يحتمله الكولونيل الفرنسي العجوز الذى أحاط فلورا بذراعه وقدم لها منديله الابيض الكبير لتجفف دموعها ، ثم طلب لها القهوة وبعض الكونياك ، وقال برقة :

ــ ان اهتمامك هذا يثير اعجابى بك . سوف أوقع أمرا بصرف مواد التموين اللازمة فورا .

وفى تلك الليلة ، عادت فلورا الى معسكرها فى عربة امتلأت بأرغفة الخبز وصناديق اللحم المحفوظ وبرميل كبير من النبيذ .. وفى اليوم التالى ، ادرج اسم الفصيلة فى قائمة التموينات المنتظمة .

معركة مع البيروقراطية

كانت تلك هى بداية الحملة التى عقدت فلورا عزمها على شنها ضد القوى الكبيرة للعبث الادارى التى كانت تهدد فصيلتها كما تهددها مدافع العدو سواء بسواء . وكان معدل الوفيات فى الجيش الصربى قد بلغ ١٥٠٠ حالة كل يوم ووسط رياح الشتاء المتجمدة ، لم يكن لدى الجنود غير ثياب رفيعة وقمصان ممزقة ، وحللهم العسكرية القذرة التى يملؤها القمل .. وبعد أن ضمنت الطعام لرجالها ، شرعت فلورا فى السعى للحصول لهم على أحطاب الوقود والثياب الدافئة .

وكان الحصول على الاحطاب بسيطا نسبيا ، فقد عقدت صداقة مع الجنود البريطانيين الذين يقودون سيارات النقل المحملة بالاخشاب امام معسكرهم ، وبمقتضى ذلك أصبحت كتل الاحطاب تتساقط « مصادفة » قرب المعسكر الصربى فى فترات منتظمة .. أما الحصول على ثياب عسكرية فكان اكثر صعوبة ، ولكن سعيها لقى مساعدة كبرى عندما

طلب صندوق الاغاثة الصربى المكلف بتوزيع المعونات الفرنسية والانجليزية خدماتها للعمل كمترجمة ، وسرعان ماعرفت فلورا ان اغلب السلع تحفظ فى مخازن على أرصفة الميناء حيث تقوم فرق من الجنود بتفريغ سفن الامدادات .

وهكذا زارت فلورا ارصفة الميناء وقابلت هناك أونباشيا انجليزيا طويل القامة ، كان يشكو لان الفريق الذى يعمل معه من الاجانب لايفهم أوامره ، فتطوعت فلورا للعمل كمترجمة له اذا استطاع مساعدتها بدوره . وتحت ارشاد الانجليزي الخبير ، تعلمت فلورا كيف تضع صناديق السترات الصوفية بحيث تسقط الى الارض لدى أول هزة وتفتح ويتساقط مابها وعندئذ تقترح فلورا استخدامها فورا حتى لا تتسخ .. ويوافق الاونباشى ! وخلال عملها على الارصفة علمت فلورا ان هناك ٣٥٠٠ ثوب عسكرى جديد موجود تحت يد الفرنسيين ، وعندما استعلمت عنها ابلغها الفرنسيون انهم مستعدون لاعطائها هذه الاثواب اذا كانت هناك ملابس داخلية تتفق معها ، فاتجهت فورا الى الانجليز الذين عرفت ان لديهم كميات وفيرة من الملابس الداخلية ولكن ليس هناك ثياب عسكرية يمكن الحصول عليها .

كانت فلورا قد تعلمت الآن كيف تعالج مثل هذا الجنون العسكرى ، فقالت بلهجة حلوة ان كل ما تريده هو وثيقة يعلن فيها انه سيصرف لها الثياب الداخلية اذا ظهرت ٣٥٠٠ حلة عسكرية تتمشى معها بمعجزة ما ووقع الكابتن التصريح دون تردد وهو لا يدرك ان فلورا حصلت على وثيقة مماثلة من الفرنسيين ثم اسرعت الى وزير الحرب الصربى الذى وضع توقيعة على هذه الاوراق ، وعادت بها منتصرة الى السلطات الفرنسية والبريطانية .

وبدا على المسئولين انهم على وشك التسليم بعد أن واجهتهم بتوقيع وزير الحربية ، ولكنهم قالوا انها لاتستطيع الحصول على الثياب الا اذا دبرت وسيلة النقل العسكرية المناسبة ، وعلى الفور اتجهت فلورا الى الضابط المنوط بالسيارات الذى طلب معرفة وزن وحجم الثياب التى ستنقل بالضبط حتى يمكنه اصدار امر النقل .

وبعد ظهر ذلك اليوم ، انطلقت فلورا عائدة الى المعسكر على رأس قافلة من سيارات النقل ، حيث اشرفت على تفريغ بالات الثياب تحت

انظار الملازم جوفيتش المليئة بالدهشة .. وفى نهاية اليوم كانت الفرقة الثانية كلها قد ارتدت ثيابا جديدة .

وبعد وقت غير طويل تلقت الفرقة امرا بالاتجاه الى سالونيك ، ولكن بعد ان احتفلت بيوم « سلافا » عيد ميلادها الرسمى ، فوضعت الزينات على الخيام وصدحت الموسيقى وقامت الفرقة باستعراض ثيابها الجديدة أمام الامير الكسندر ولى العهد وكبار ضباط القوات المتحالفة .. وخلال الاحتفالات القى الكولونيل ميليتش خطابا فى الفصيلة الرابعة أعلن فيه ترقية الاونباشى سانديس الى رتبة جاويش .

وكتبت فلورا رسالة الى بيتها فى انجلترا قالت فيها بتواضع : « لقد هتفوا جميعا بحياتى ثلاث مرات . ومع اننى أحسست بخجل شديد فقد سررت كثيرا ، وقال ميركو اننى سأكون جاويشا جميلا » .

مصرع جندى

فى أغسطس ١٩١٦ — بعد صيف طويل من التدريب فى سالونيك — رحلت الفرقة الثانية الى الجبهة ، وكانت تسرى بين الجنود عزيمة قوية وروح عالية رغم ان عدد الجيش الصربى الذى بدأ الحرب وتعداده ٦٥٠ الفا قد اصبح ١٢٠ الفا فقط .. ولكن الجنود كانوا قد عقدوا العزم على شق طريقهم عائدين الى الصرب .. الى الوطن .

وبدأ منذ بداية الهجوم ان كل كيلومتر من الارض سوف يكتسب بمرارة ، وعرفت فلورا ان خطوط الجبهة التى تمتد على طول الحدود الشمالية لليونان تحافظ عليها خمس فرق من بريطانيا واربع من فرنسا وتولى الجنود الصربيون الجناح الباقى واسندت الى فرقة فلورا مهمة طرد البلغار من قمة جبل الى قمة أخرى حتى أعادت احتلال « موناستير » .

وفى اليوم التالى للزحف واجه رجال الفصيلة الرابعة سيلا من مدفعية البلغار ، ومنذ ذلك الحين وطوال الاسابيع التالية ، كانت حياة فلورا مليئة بكابوس الحرب .. كان الرجال يقاتلون باستمرار تقريبا ، يصدون الهجمات المضادة يحصون مكاسبهم بالامتار مع خسائر فادحة فى الارواح .

كان أقرب رفيق لفلورا خلال هذه الاسابيع الرهيبة هو جاناشكو جوفيتش .. فى كل يوم تقريبا كانت تكتب فى مفكرتها ملاحظة عن علاقتهما الوثيقة .

ولكن الحب النـــامى بينهما كان يثـير احساســا بالخيبة لادراكهما حقيقة العلاقة بينهما .. ان جاويشا وملازما لا يستطيع كل منهما ان يحب الآخر رسميا ، ولـكن ما ان اقترب الخريف وازدادت الليـالى برودة ، حتى احسا بحـاجة الى أن يزدادا قربا حول نيران المعسكر ، وبحث كل منهما عن الطمأنينة لدى الآخر .. وأدركا أن هناك فى مكان ما خلف زئير المدافع وانفجار القنابل ، يكمن أمل فى حياة جديدة .

وذات ليلة أعلن جوفيتش انهما سينفصلان بعض الوقت ، فقد فقدت الفصيلة الثالثة قائدها لثـانى مرة خلال يومين ، وطلب منـه أن يتولى أمـرها الى أن يتسنى تعيين رجـل آخر محله ، وحاولت فلورا ان تتقبل هذا التغيير بهـدوء ، ولكن تعليق ميلادين على النبأ جعلها ترتجف فقد قال لها فى كآبة ان الفصيلة الثالثـة تعسة الحظ ، وان جنودها لا يعرفون كيف يعنون بضباطهم .

وفكرت فلورا فى كلمات ميـلادين عندما أشرق الفجر يوم ١٧ اكتوبر . كانت مع ميلادين ودراجوتين وميركو يحرسون موقعا فى الخطوط الامامية عندما جاءت الانبـاء بان الفصيلة الثالثة ستمر بهم فى طريقها الى موقع متقدم وفجأة سمعت فلورا صـوتا يهمس خلفهـا .. كانت اشـارة جوفيتش المحببة . وبعد لحظة كان يزحف بجوارها وهمست تقـول : يجب أن تكون حريصا ، فقـال انه أحرص الناس على نفسه ، ثم ضغط على ذراعها وابتسم لها بسمة أخـيرة وانصرف ...

وبعد ساعتين سمعت فلورا صوتا جعل الرعب يسرى فى كل جسمها . كان فى البداية صوت غناء بعيد ولكنه سرعان ما ازداد ارتفاعا : « هورا ... هورا .. » انهـا صيحة المعـركة الوحشية للبلغار .

وتحت وطأة الهجوم خرج رجال الفصيلة الثالثة من جحورهم وراحوا يجرون امام فلورا فى تقهقر متواصل وبينما كانت صيحات القتال تقترب لحقت بهم الفصيلة الرابعة ، وانتظرت فلورا حتى أصبح البلغـاريون على مقربة منها وسمعت دقات أقدامهم ثم أمرها ضابط صربى أن تجرى .

وانتهى التراجع بعـد ان تسلق الرجال منحدرا طويلا على سفح الجبل ولجأوا الى خندق كبير وهناك أعادوا تجميع انفسـهم ولـكنهم سرعان ما انسحبوا من القتال ، ووضـعوا فى

الاحتياط ليرتاحوا اياما قلائل وبينما كانوا يسيرون الى معسكر الراحة ، نادى الميجور بسيتش فلورا وقال لها بهدوء وايجاز :

لقد مات جوفيتش ! لقد كان فى موقع متقدم جدا خلال الهجوم ، وعندما انهارت الفصيلة الثالثة لم يهرب مثلهم ، فقتلته رصاصة على الفور ..

وصحبها بسيتش الى القرية الصغيرة « دوبروفينى » - أى الزهرة الحلوة - حيث دفن جوفيتش على مقربة من كنيسة القرية .. كان قبره يقف بمفرده على سفح تل ، وقدم القسيس لفلورا شمعتين وضعتهما بين الصخور ، واضاءتهما فاهتز اللهب واشتعلت الشمعتان فى ثبات .

وبينما كانت فلورا تحدق فى اللهب ، فكرت فى آخر عشاء شاركت فيه جوفيتش قبل رحيله الى الجبهة وكانت قد سألته عما اذا كانت هناك نساء فى حياته ، فانفجر ضاحكا وقال : « ليس عندى وقت للغرام ، الا بعد الحرب » .. ثم سألها : وماذا بشأنك انت ؟

قالت : لا وقت الا بعد الحرب .

وعندئذ اعاد جوفيتش ملء كاسها بالنبيذ وشربا معا نخب « بعد الحرب » !

فتاة صربية ملتهبة

أصبح الجبل الذى قتل فوقه جوفيتش مقبرة للفرقة الثانية .. وكان هذا الجبل الذى عرف باسم التل ١٢١٢ هو آخر عقبة تقف بين الثلاثة آلاف صربى وموناستير ، ولكن البلغاريين استطاعوا ان يحبطوا هجوما بعد آخر حتى لم يبق فى الهجوم الاخير غير ٥٠٠ رجل .. وفلورا سانديس .

وخلال التقدم الاخير اليائس ، اصيبت فلورا بقنبلة يدوية سحقت ذراعها اليمنى ، ونفذت عشرات من شظايا شرانبل الى الجانب الايمن من جسدها ، وسحبها الملازم دوديتش تحت نار العدو الى مخبأ وراء الصخور .. ثم حملها هو وميلوش الى اسفل الجبل حيث حملها اثنان من الجنود على نقالة .. وكان آخر مشهد تذكره عندما نقلت الى عربة الاسعاف هو وجه ميلوش .. كانت الدموع تنساب على وجنتيه ، وادركت فلورا انه يعتقد انها تحتضر واحسب انه على حق بسبب تخدير جروحها واثر الصدمة من وفاة جوفيتش المفاجئة .

وبعد أربعة أيام ، وصلت فلورا الى مستشفى ميدان انجليزى فى سالونيك ، وبينما كانوا يرفعونها من

سيارة الاسعاف سمعت السـائق يقول لمرضة ان مريضتها الجديدة جندية صربية .

وصاحت المرضة تقول : يا الهى .. واحـدة اخرى .. يستحسن وضعها مع ميلوسكا فى خيمة واحدة .

وهكذا قابلت فلورا ميلوسكا، وهى فلاحة ثائرة حارة الدماء ، وقد ظلت تذكرها حتى آخر أيامهـا وكانت ميلوسكا قد انضمت للجيش الصربى وهى فى الثامنة عشرة وعرفت فلورا انها جرحت خمس مرات آخرهـا الجرح الذى اصابها وهى تحمـل الذخائر لفصيلتها عبر حقل تنهال فوقه الرصاصات . ومنـذ وصـلت الى سالونيك ، كانت تدبر الخطط للعودة الى الجبهة والقتال مرة أخرى .

وفعلت حماسـة ميلوسكا التى لا تتزعزع الـكثير لرفع روح فلورا المعنوية خـلال فترة شفائها الطويلة وسرعان ما اصبحت الاثنتان صديقتين حميمتين ، وذات يوم خـلال فترة نقاهتهما ، فوجئتا بزيارة من ياور ولى العهد الامير الكسندر .. كان الكولونيل البريطانى وبعض اركان حربه قـد دعوا الى الخيمة بينما كان مندوب الامير يلقى خطابا قصيرا يمتدح فيه اخـلاص فلورا لقضـية الصرب وشجاعتها فى القتال ، ثم أخرج علبة جلدية قدم منها ميدالية ثبتها على سترة بيجاما فلورا ، وكانت نجمة (قره جورج) أكبر وسام فى الجيش الصربى ، وتحمل معها ترقية الى رتبة ضابط صف .

الانتصـار

فى ينـاير ١٩١٧ نقلت فلورا الى مستشـفى بحرى فرنسى فى شرق افريقيا ، وكانت لا تزال هناك كمية من شظايا شرانبل فى جانبها وبعـد بضع عمليات صغيرة شفيت وسمح لها أخيرا بالعودة الى جبهة القتال فى شهر يونيو . وعندما بلغت الخطوط الامامية وجدت أن الفصيلة الرابعة لم يعد لها وجود .. لقد ابيدت خلال الهجـوم النهـائى على التل ١٢١٢ واحتلال موناستير ، ولم يبق أحياء غير ١٦ رجلا بينهم ميلادين وميلوش وفوكون ودوديتش ونقلوا جميعا الى الفصيلة الاولى التى التحقت بهـا فلورا الآن .

وكانت الحـرب قد تغـيرت هى الاخرى ، فانتقل الرجـال الى خط طويل من الخنادق على طول الجوانب الصخرية للجبال وظلوا هنـاك فى ركود لاكثر من سنة ، وشـاطرتهم فلورا حيـاتهم ، وكانت تشترك بين حين وآخر فى غارات ليلية على خنادق العدو حتى ثارت جروحها القديمة ،

وأعيدت الى انجلترا للنقاهة ، وهناك بدأت تجمع تبرعات للصرب لتزويد جنودهم بالثياب وغيرها من الاشياء التى يتلقاها بقية جنود الحلفاء .

وفى اواخر صيف ١٩١٨ عادت فلورا الى الصرب قبل شن الهجوم النهائى الكبير مباشرة ، وبدأ الثمانون ألف محارب الباقون فى جيش الصرب كالاشباح الهزيلة ، يهاجمون العدو عبر الجبال بسرعة لم تعرف فى التاريخ العسكرى ، وهى سرعة فاقت كثيرا الفرنسيين والانجليز والايطاليين واليونانيين ، وتحطمت أخيرا خطوط دفاع البلغار ، وبينما كان الصربيون يواصلون زحفهم شمالا ، كانت الاهالى تقف هاتفة لهم على جوانب شوارع القرى ..

واذ أحس الجميع باقتراب النصر الاخير ، انتهت خدمة فلورا العاملة فى الحرب الاولى ، فقد تفشى وباء الانفلونزا الشديد ، وأصابها بحمى عنيفة على مقربة من بلدة «شوبريجا» ، وكان هناك مستشفى مؤقت فى البلدة ولكن فلورا ما كادت تدخله حتى كاد يغمى عليها من الروائح والقذارة .. كان مئات من الجنود يرقدون على الارض الباردة فى صفوف طويلة ، البعض مات فعلا ، والبعض يحتضر دون أن يجد من يفعل له شيئا .

وأدركت فلورا التى أنهكتها الحمى انها ستكون أكثر أمانا خارج المستشفى ، ولحسن الحظ وجدت بيتا بالبلدة أمضت فيه أسبوعا تستعيد صحتها ببطء تحت رعاية سيدتين صربيتين رقيقتين .. وفى خلال ذلك كانت تتلقى أنباء عن مستشفى الطوارىء حيث يموت المرضى كالذباب ، والطبيب اليونانى لا يوجه أية عناية للمرضى ، وأخيرا لم تستطع احتمال أكثر من ذلك فنهضت من فراشها وارتدت ثوبها العسكرى وأسرعت للمستشفى .

وصارحت الطبيب اليونانى برأيها فى عمله وشناعة حال المستشفى وقالت انها ستقدم تقريرا للمسئولين فى بلغراد عن ذلك ، وثار الطبيب زاعما انه مريض ولا يجد مساعدة أو ادوية للمستشفى ثم قال لها انها اذا ظنت أنها تستطيع ادارة المستشفى بطريقة أفضل فلتفعل ذلك .. ثم خرج وصفق الباب خلفه !.

وبدأت فلورا فى هدوء تعيد تنظيم العمل فى المستشفى الذى ورثته وبه ٥٠٠ مريض ، وبمساعدة عدد قليل من المرضين وجماعة من النساء جمعتهن لاعمال الطهى والتمريض

والتنظيف ، نظفت المبنى وطهرته ، وحصلت على أغطية نظيفة للأسرة من أهل البلدة وطعام من المزارع البعيدة ،

وبعد ظهر أحد الايام جاءها زائر غير منتظر .. انه صديقها القديم ضابط الصف ميلوش ، كان شاربه لا يزال رشيقا ثابتا فى مكانه كالعهد به ولكن فلورا لاحظت شحوبه وهزاله وقال لها ميلوش انه مصاب بالانفلونزا .. وبعد أن اضطرته فلورا الى البقاء فى الفراش زمجر قائلا : وداعا يا ساندیس انتى أعرف انتى سأموت

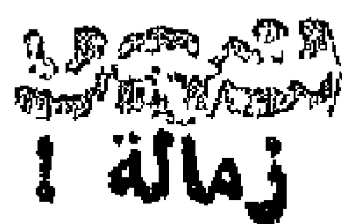
كان وجود فلورا فى الجيش الصربى يدهش ميلوش دائما ، وقد ضاعف من حيرته ان هذه المرأة الانجليزية التى انتهكت كل مبادىء قانونه العسكرى ، استطاعت تمريضه واعادة صحته الكاملة فى أربعة أيام . وكانت فلورا سعيدة بحيرته ، كما أسعدها بصفة خاصة انه كان مريضها فى ليلة ١١ نوفمبر ، عندما أذيعت أنباء الهدنة ..

خاتمة ..

بعد الحرب بفترة قصيرة ، تلقت فلورا تكريما آخر اعترافا بخدماتها للصرب .. ففى يونيو ١٩١٩ رقيت الى رتبة الملازم الثانى ، ولم يسبق قط فى تاريخ الجيش الصربى أن رقيت امرأة الى رتبة ضابط فيه ، وقد تطلب ذلك قانونا خاصا من البرلمان وقعه الملك الكسندر نفسه .

وخلال خدماتها وقت السلم ، عينت فلورا فى مركز على الحدود ، حيث قابلت الجاويش (يورى يودنيتش) وهو روسى كان قبل ذلك كولونيلا فى الجيش الامبراطورى ، وعندما حدثها عن كفاحه الطويل ضد البلاشفة تذكرت فلوراجوفيتش .. لقد كان جوفيتش حزينا من أجل بلد لم يولد بعد ، ويورى حزينا لبلد لم يعد له وجود ! .

وتزوجت فلورا الجاويش يودنيتش ، وعاشا معا حوالى ٢٠ عاما حياة سعيدة هانئة أمضيا أكثرها فى باريس ، وبعد وفاته عادت فلورا الى انجلترا لتعيش فى كوخ بسافولك ، ولكنها لم تنس قط حبها للارض الصربية .



زمالة !

أوقف احد مقاولى البناء فى مدينة سانت لويس عملية بناء عمارة تتكلف نصف مليون دولار ، حتى يستطيع عصفور بنى عشه فى مكانها ان يفقس بيضه .. ولما سئل المقاول عن السبب فى هذا السلوك قال :

ـ انني لست من عشاق الطيور ، ولكننى أحترم فقط زميلا يشتغل بالبناء !

كتاب الشهر

أصبحت رجلا في الحادية عشرة من عمري

بقلم رالف مودى

عن كتاب
Little Britches





أصبحت رجلا فى الحادية عشرة من عمـرى

حقا اننى لم أعـرف أبى على حقيقته الا بعد ان انتقلنا الى المزرعة فى كولورادو .. كان ذلك بعد عيد ميلادى الثـامن مباشرة فى اواخر عام ١٩٠٦ ، وعندما كنا نعيش فى نيوانجلند ، كان أبى يعمـل فى مصنع للصوف ، ولم يكن ذلك مناسبا لرئتيه ، وقد مرض ولازم الفـراش فى الشـتاء السابق على انتقالنا الى هنـاك .

وبعد عيد الميلاد ، ركبنا القطـار الى دنيفر عاصـمة كولورادو واكبر مدنها . كنا سبعة : أبى وأمى واخوتى جريس وموريل وفيليب وهال .. وأنا وكانت جريس تكبرنى سـنا أما الباقون فكانوا أصغر منى ، وقد ظللت طوال الوقت الذى قضيناه فى القطار افكر فى مدى ضخامة البيت ومخازن الحبوب التى سأجدها فى مزرعتنا ، وكم من مئات الجياد والابقار ستكون هنـاك ..

وفى اليوم التالى لوصولنـا الى دنيفر ، سمح لى أبى أن أصحبه مع أمى لرؤية المزرعـة .. كان البيت يبدو لنا من بعيد اشبه ببيوت الدمى والعرائس ، ولكننا كلما اقتربنا منه بدأ أقرب الى مظهـره الحقيقى .. بيتا خلويا صغيرا به ثلاث غرف ، وقد قبع فى أحد اركان قطعة أرض قفراء لا اسـوار لها تبلغ مساحتها ١٦٠ فدانا ، وقد تحطمت المدخنة فـوق سطحه وتكسرت أغلب نوافذه .

لم ينبس أبى وامى بنبت شفة .. ولكننى عندما تطلعت اليـه ، رأيت العضلات على جانبى فكه تتحـركان الى الداخل والخـارج ، وبدت أمى وكأنها على وشك البـكاء ولكنها لم تفعل .. وبعـد ان ساعدها أبى على الترجل من العربة ، رفعنى بيـده لاتمكن من النظر من احدى النـوافذ .. لم يكن هناك كثير يمكن أن يرى عـدا الارضية التى كانت مغطاة بقطع من الزجاج المكسور والطلاء المتساقط من الجدران والسقف .

وقالت أمى : شـارلى .. لست أدرى كيف سـنتمكن مـن العيش هنا ..

وبدا أن صـوتها يأتى من اعماق حنجرتها ..

وأحاطها أبى بذراعه ثم ضـمها الى صدره وقال :

ـ هناك شىء واحـد يجب أن

نفعله .. وهو أن نشـــترى تذاكر العودة قبل أن ينفد ما معنا من نقود انني لن أتركك تعيشين فى مثل هــذا المكان المهجور .

ووقفنا حـوالى دقيقتين أو ثلاث صامتين ، لا يعكر صفو الصمت غير صوت السعال الجــاف الذى كان ينبعث من أبى ، وعنــدما رفعت أمى رأسها ، رأيت شفتيها مضمومتين فى عزم وتصميم ولم يعد صوتها يرتعش .. ثم قالت :

ـ لقد قادنا الله الى هنا .. وقد بدأنا مشروعا ولن ننكص على أعقابنا .

وبقينا طوال الاســبوعين التاليين فى أحد فنــادق دنيفر ، ولكنى كنت استيقظ مع أبى قبل بزوغ الفجر كل صباح وننطلق معــا الى المزرعة .. حتى فى أيام الاحاد .. وحصلنا على جوادين وعربة وطقم للخيل ، وكانت كلها قديمة مستعملة ، ولكنها كانت ملكا لنا ، وكنت فخورا بها ، وسمح لى أبى أن أطلق عليهما أسماء ، فأسميت الابيض « بيل » والاسود « سماره » وفى الطريق الى المزرعة اشترينا بعض الاخشـــاب والمصيص والزجــاج المستعمل وبعض الاشياء الاخرى التى نحتاج اليها .. ولم يكن ابى يتوقف عن العمل الا بعد أن تظلم الدنيــا ولا يستطيع ان يدق مسمارا ..

وفى ليـــلة الخميس الثانى ، كان قد انتهى تماما من اعداد مخـــزن الحبوب ، وبنى مدخنة جديدة ورمم الاجزاء التى تساقط منها المصيص ، وركب الزجــاج فى كل النـــوافذ ، وصنع درجات امامية وخلفية للمنزل .. وكــان آخر شىء عملنـــاه يوم الجمعة هو ايداع بيل وســـماره فى مخزنهما الجديد .. وكان « فيل » ابن عمنا الذى يعيش فى دنيفر .. والذى وجد لنا هـــذه المزرعة .. يقوم بمساعدتنا فى اعداد دور المياه فى العراء .. وفى تلك الليلة صحبنا فى عربته الى دنيفر ..

ونظرت الى مزرعتنا ، وعنــدئذ احسست اننى لن أقبل بديلا لهــا اى شىء على وجه الارض !

***

وانتقلنا من الفندق الى مزرعتنا فى صـــبيحة يوم السبت ، ولم نكد نصل الى بيتنا الجديد حتى أقبل الى ساحتنا رجل يقــود عربة يجــرها جوادان سريعان ، وترجل من العربة دون ان يترك الزمام من يده ، ومــد يده اليمنى لابى قائلا :

ـ اننى فريد اولنــلاند ، جارك المباشر على مسافة ميل من الطريق ،

وقد فكرت فى الحضور لارى ان كان فى استطاعتى مساعدتكم .

فقال ابى : شكرا يا مستر اولتلاند . ولكننى اعتقد اننا سنكون على ما يرام .

فقال : لا تنادنى « بمستر » يا شارلى .. اننى ادعى فريد فقط

وبعد ان طاف أولتلاند بمزرعتنا قال لابى :

ــ اننى لا ارى هنا أبقارا .. فمن اين ستأتى باللبن لهؤلاء الاولاد ؟

فاحمر وجه امى وقالت :

ــ ان لدينا صندوقا كاملا من اللبن المجفف .

ــ هذا النوع لايصلح الا لعربات الرعاة فى الرحلات البعيدة .

ثم قال لى بصوت عال :

ــ رالف .. ارتد سترتك وتعال معى ..

وعندما صعدت الى جواره فى العربة ذات العجلات الاربع ، مد يده وضربنى على ساقى بقوة .. كانت ضربة شديدة ولكننى اخفيتها ، وبينما كنا ننطلق بسرعة خارجين من فنائنا ، سألنى عما اذا كنت قد قدت زوجا من الخيول من قبل ، فقلت له ان ابى يتركنى امسك زمامها عندما نحضر الاخشاب ، فقدم لى زمام خيوله وقال :

ــ هاهو .. امسكه ..

وشرح لى كيف الف الزمام حول يدى حتى لا ينزلق منها ، وطلب منى أن امسكه باحكام ثم قال :

ــ اننى أراهن بحياتى على انك سوف تصبح فارسا .

واصبحت فى كل ليلة بعد ذلك احصل على لبننا من آل أولتلاند ، وبينما كنت على وشك العودة ذات ليلة حاملا اللبن ، اذ سمعت جيادا تعدو من خلفى ، فاستدرت على اعقابى فرأيت أمامى أربعة من رعاة البقر الحقيقيين قادمين من الطريق .. كانوا يرتدون قبعات كبيرة عريضة الاطراف ، وبنطلونات من الجلود مزركشة باقراص فضية لامعة وعندما اقتربوا استطعت أن أرى جرابات مسدساتهم تتدلى من اوساطهم ..

ولم يبطئوا فى السير حتى اصبحوا فى محاذاتى تماما ثم أوقفوا جيادهم، وانحنى احدهم قائلا لى :

ــ أتريد الركوب يا بنى ؟

وكدت أعض لسانى قبل أن اتمكن من ان اقول له :

ــ اريد بكل تأكيد ..

وانحنى راعى البقر من فوق

سرجه حتى استطاع ان يأخذ دلو اللبن من يدى ، ثم طوح بى وراءه على السرج بذراع واحدة وقال لى :

ـ امسك جيدا اذا اردت ان ننطلق بسرعة .

ودسست اصابعى تحت حزام الخراطيش ، ثم أطلق أحدهم صيحة الرعاة التقليدية ، وسرعان ما انطلقت الجياد كلها وكأنها ارانب مذعورة .

وانزلونى امام درجات بيتنا الخلفية تماما ، وانصرفوا سريعا دون أن تنسكب قطرة واحدة من اللبن !

وبينما كنت أنا وابى نعمل ذات مساء فى دعم اساس البيت ، اذ جاء فريد اولتلاند بعربته ، وتحدث مع ابى قليلا ، ثم قال له :

ـ يبدو انك بارع جدا يا شارلى فى استخدام الادوات .. هل تعلم ان فى مزرعتى كوخا لنوم العمال لم يستخدم منذ عشر سنوات أو أكثر ، وقد فكرت فى هدمه ، ولكننى لم استطع الحصول منه الا على خشب للوقود .. وسأعقد صفقة معك . فاذا أشتريت لى طنا من الفحم ونقلته من دنيفر فاننى سأعطيك الكوخ مقابله .

وكان نقل الكوخ أمرا ممتعا ، وقد قمنا بهذا العمل يوم السبت ، وكان اكبر من منزلنا كله ، ولكن فريد واثنين من رجاله ساعدوا أبى على رفعه بالعتلة ووضعه فوق أربعة أعمده طويلة من أعمدة السور استخدمناها كمحور بين عجلات عربتين حتى أصبحتا كأنهما عربة واحدة ذات ثمانى عجلات ، ربطنا اليها أربعة خيول ، وجررنا الكوخ عبر البرارى ثم وضعناه فى مؤخرة بيتنا على هيئة جناح قائم الزاوية .

وظل أبى يقيم أعمدة السور حوالى اسبوع ، وفجأة هبت رياح شديدة ذات يوم . وقد استيقظنا فى الصباح على صوتها ، وعندما حل وقت الذهاب للمدرسة ، كانت الرياح أقوى من ان استطيع مقاومتها أنا وجريس وفى الظهر كان البيت كله يهتز بشدة ثم سمعنا صوت تمزق حاد فوق السطح ، بينما كان جزء من اخشابه ينتزع ويطير بعيدا .

وزحف أبى الى غرفة النوم حيث كانت أمى تجثم فوقنا كما تفعل الدجاجة مع كتاكيتها ، وكان ابى يحمل معه لفة من الحبال عقدها حول صدورنا واكتافنا جميعا عدا « هال » وترك بين كل منا والآخر حوالى خمسة أقدام ، ثم ربط طرف الحبل من ناحية فيليب حول وسط أمى ،

وربط طرفه من ناحية موريل حول وسطه هو ، ثم ربط « هال » فوق ظهره كأطفال الهنود ، وتسلق خارجا من النافذة ، وهنـــاك راحت أمى تخرجنا واحـدا بعد الآخر ليتسلمنا هو ، ثم حملها هى الاخرى وانزلها ، وطلب الينـــا ابى أن نزحف على بطوننا كالسحالى وقال ان الغبـــار سيتسلل الى عيوننا ولكننا يجب أن نبقيها مفتوحة حتى لا نزحف داخل احواض نبات الصبار .

وراح أبى يزحف شرقـا ونحـن خلفه ، وبعد أن قطعنا حوالى ١٠٠ ياردة ، توقف لكى نستريح وعندما درت ببصرى الى الخـلف ، رأيت سقف مخزن حبوبنا الجديد وهو يطير فى الهـــواء وكأنه ورقة من صحيفة يومية .. وعدنا نواصـل الزحف ، وعندما توقفنا مرة اخـرى للراحة ، نظرت الى الوراء ثانية فوجـدت ان المخزن قد اختفى تماما !

كانت عيناى تدمعان من القـذى الذى لحق بهمـــا ، والتهب انفى واحسست كأن الغبار الذى دخـله فلفل ، ورحت أسعل وانا اتنفس من فمى ، وفى وقفة الاستراحة التالية ، رفعت رأسى مرة أخرى ، ونظرت على جانبى الحبل .. كان أبى يعمل بشدة بينما كان هال الصـــغير يهتز على ظهره الى أعلى واسفل ، وكان فيليب يبكى ويلهث محاولا التنفس فى مواجهة جذب الرياح ، اما وجه أمى فقد كان اسود وقد امتزج الغبار فيه بالدم .

ومرق الى جـوارى على الارض شىء يشبه ظل طائر كبير ، ورفعت راسى ، وفجـأة سقطت عربة المزرعة على مسافة اقدام قليلة خلف ابى ، وراحت تتواثب فى جنون كأنها الكرة ، ومالبثت ان تحطمت اربا .

وبدا لى أن ساعات قد مرت قبل أن نزحف داخل واد ضـيق عميق يؤدى الى خور الدب « بير كويك » وهناك لم نجد اية رياح عنيفة ، ولم اعد أشعر بالفزع ، كما اننى لم اكن اشعر بأى الم ، ومع ذلك فقد بدات ابكى ، ولست ادرى سبب بكائى ، ولكننى لم استطع التوقف عن البكاء . وكان الجميع يبكون ، عدا أبى وأمى .

واختفت الرياح مـع الشمس ، وعدنا نزحف من ملجئنا تحت ضـفة الجدول ونحن نشعر ببرد وتصلب فى أطرافنا ، وتمزقت ثيابنا ، وخيل لى اننا زحفنا أميالا .. ولكننا عندما بلغنا طرف الوادى الضيق ، كان منزلنا يقف على مسافة تزيد قليلا على نصف ميل ، وكان هو وكوخ العمـال يقفان

وحدهما هناك .. اما مخزن الحبوب والعربة فقد أختفيا !

وفي داخـــل البيت ، كان الملاط والزجاج المحطم والغبار يغمـــر كل شيء ، وراح أبي يسعل بشدة بعد أن فتح الباب ، ومسح فمه بمنديل به بقــع حمراء .

وسمعت وقع اقدام خيول تقبل بسرعة ، وسرعان ما جاء فريد وبيسى أولتـلاند الى ســاحة بيتنا ودارا ثم توقفا امام الدرجات الامامية ، وقفز فريد والزمام ما زال في يده وهتف :

ــ شـــارلى .. ماذا حـدث لك يا رجل ؟ انك لا تبدو كالاشباح .

وبعد ان حدثتـــه أمي عن البيت الذي كاد ينفجر ، وزحفنا الى الوادي الضيق ، قالت بيسى أولتـــلاند ان القلق ظل يساورهما علينا طوال اليوم لانهما يعرفان انه ليس لدينا قبـــو للعاصفة ، وصحبنا آل أولتـلاند الى بيتهما حيث بقينا هنـــاك ثلاثة أيام ريثما ســاعد فريد وبيسى أمي على ترميم منزلنا .. ولم تتركا ابي يبارح فراشه طوال هذه الايام الثلاثة .

ووجد احد عمال أولتلاند جوادينا وعندما اقبل الربيع كنت اساعد أمي في زراعة حديقة الخضر ذات يوم ، وعندما رفعت بصرى رأيت ستة من رعاة البقر يمتطون جيادهم في طريق العــربات ولوحت لهم بيدى ، فأدار احدهم جــواده وعاد يجــرى عبر البراري .. وعرفته بمجرد اقترابه فقد كان هو نفس راعى البقر الذي اركبني خلفه ..

وقفز من الجواد بمجرد وقوفه ، ورفع قبعته تحيـــة لامي مع نصف انحناءة .. وقال :

ــ أرى انكم استقررتم هنا حقا

وبينما كان يتكلم مع أمي ، كنت انا اتطلع الى جواده .. كان لونه أزرق مشربا بســمرة ، وهو اول جــواد اراه بهذه الصورة .. وقالت أمي :

ــ أجل .. لقد جئنا الى هنـــا لنبقى ..

كان شعر الجواد الازرق يتموج كالماء المشبع بالزيت عندما يحـرك عضلاته تحت الشـــعر ، وكان لذلك فعل المغناطيس بالنسبة لي . واردت أن المسه بيـــدى ، فدنوت من كتفه وماكدت اقترب حتى أمسك بي راعى البقر والقى بي فوق السرج وقال :

ــ ما رايــك في نزهة صـــغيرة يا بني ؟

وماكاد يريني كيف اضــع قدمى داخل انشوطة الرباط الذي يمســك الركاب حتى سلمني الزمام وصــفر

بفمه للجواد ، فانطلق يركض بى فى نعومة وسلاسة .. بينما صاحت أمى تقول :

ـ كلا .. كلا .. انه سيسقط

وضحك صديقى راعى البقر وسمعته يقول :

ـ لو سقط فان الارض سوف تحمله .

ولم أشعر قط اننى على وشك السقوط ، ومن ثم فقد تركت طرف السرج من يدى ، ولوحت لامى ولراعى البقر ، وعندما عدت بالجواد الراكض قال لى :

ـ لم تلق أية متاعب معه . اليس كذلك يا ذا « البنطلون القصير » ؟

قلت : كلا . . ولكنه لا يدور جيداً .. لقد جذبت الزمام لاجعله يتجه فى طريق فذهب فى الطريق الآخر .

فضحك قائلا : انه يألف الزمام ولكنك لم تألفه بعد . والان انظر وقفز فوق السرج كأنه يطير دون ان يلمس الركاب ، واطلق صفيرا من بين اسنانه فأنطلق به الجواد الازرق الداكن ، وحوافره تنثر فى اعقابه قطعا من الغبار ، وراحا يدوران فى حلقة مستديرة ، ويميلان من جانب الى آخر حتى بدا كأنه يرقص

ثم رفع قبعته التى لم تسقط عن رأسه عند شقلبته وقال لامى :

ـ اننى هاى بيكمان ..

وبينما كان يعدو بجواده عائدا نحو الطريق ، استدار ولوح بقبعته ، فردت أمى تحيته واحسست اننى لا أكاد أقوى على انتظار عودة أبى من الحقل لاحدثه عن هاى وحصانه الازرق الداكن ، وكان أبى يقوم بحرث طريق يقع عبر الخط الحديدى ، ولا اظن انه رآنا لانه لم يتوقف قط ليرى متى أستطيع أن أراه ، ورحت أعدو لاقابله عندما عاد ، وأحسست بارتباك بالغ وأنا أحاول أن أحدثه بسرعة ، فمد يده وداعب رأسى بأنامله وقال :

ـ ان والدك فخور بك يا بنى ..

وكانت تلك أول مرة يقول لى فيها ذلك .. فأحسست بغصة فى حلقى !

***

كنت قد التحقت أنا وجريس بالمدرسة منذ أول يوم انتقلنا فيه الى المزرعة ، وفى اليوم التالى لاغلاق المدرسة فى الصيف ، جاءت مسز « كور كوران » لمقابلة أمى لتطلب السماح لى بالعمل عندها وكانت تقيم مع زوجها فى نفس شارعنا وراء مزرعة فريد اولتلاند ، ولديهما حوالى ٣٠ بقرة حلوبا يرعيانها .. ولما لم تكن

هناك أية أسوار ، فقد كانا فى حاجة الى شخص يرعاها ويبعدها عن حقول الحبوب ، وقالت انها ستدفع لى ربع دولار فى اليوم ، واننى لن أعمل الا من السابعة صباحا حتى السادسة مساء ... وكان المبلغ كبيرا بالنسبة لى ، وهو أول مبلغ نربحـه نحن الاطفال ، ولكننى احببت العمل لانه أتاح لى فرصة للتـدريب على بعض الحيل التى يقوم بها هاى ، وذلك مع فرستنا الجديدة « فانى » التى حصل عليها أبى مقابل مسـاعدته أحـد الجيران فى اصلاح مبانى مزرعته .

وفى ذلك الشهر ، تعلمت كيف أقع من على ظهـر « فانى » فوق أرض رملية دون أن يصيبنى أذى ، وكنت انهض على قـدمى بسرعة كما فعـل هاى ...

وفى كل ليلة ، كانت مسز كوركوران تعطينى ربع دولار ، ولكنها بدلا من أن تضعه فى يدى ، كانت تضعه فى جيب القميص وتشبكه لى بدبوس ، فأتركه فى مكانه حتى أصـل الى الطريق ، وهناك أخرجه واضعه فى جيب حلة العمل « الاوفراول » حتى أستطيع أن أحس بأننى أصبحت رجلا !

***

عملت أنا وأبى أسبوعين فى جمع الدريس بمزرعة فريد أولتلاند ... كان أبى يقوم بكل شىء تقريبا ، بينما امتطى أنا الجواد المستخدم فى تكويم الدريس ، وفى مسـاء اليوم الاخير ، صحبنا فريد الى بيته وأحضر زجاجة حبر وقلم .. ثم سألنى عما اذا كنت أريد الحصول على شيك مستقل أم يعطينا أنا وأبى شيكا واحدا ، وكنت أرغب فى أن يكون الشيك كبيرا يكفى لشراء بقرة لنا ، كما اننى كنت فخورا للحصول على أجرى مع أبى ، ومن ثم فقد قلت له انه يكفى شيك واحد .

ونظر الى أبى ثم قال :

ــ حسنا يا شارلى .. سـوف يجعله هذا مبلغا صحيحا ... اننى أعتقد أن الصبى يساوى ضعف ما كانت تعطيه اياه مسز كوركـوران ، وقد وفرت أنت على أجر رجلين .

ــ هل يكفى ٥٠ دولارا ؟

وبلغ بى التأثر اننى لم أسـمع ما قاله أبى ، وقد اضطر الى أن يربت على ذراعى حتى أتذكر أن أشـكر مستر فريد .

كان أبى متلهفا مثلى للعودة للمنزل وعرض الشيك على أمى ، ولهذا راح يسير بسرعة اضـطرتنى الى العـدو أحيانا لكى ألحق به ، وبعد قليل لاحظ أبى اضطرارى للجرى خلفه ، فانحنى

حتى استطيع أن أركب فوق ظهره ، وكنت احب دائما أن يحملنى أبى على ظهره من قبل ، كما أننا كنا بعيدين من بيت آل أولتلاند بحيث لاأخشى ان يرانا أحد ، ولكننى لسبب ما لم ارغب فى أن يحملنى ليلتئذ ، فقد بدا لى انه ليس من الصواب أن أعود الى البيت محمولا فى اليوم الذى حصلنا فيه على الشيك الذي اشتركت فى كسبه

وادرك أبى مشاعرى ، فسار ببطء لكىأستطيع السير بجواره دون عدو ، كما سمح لى أن أحمل الشيك فى جيبى .

***

فى خلال سنتنا الثالثة بالمزرعة، جاء شخص يدعى مستر كوبر الى منزلنا ذات مساء فى أواخر العام الدراسى ، وقال انه سمع اننى أبحث عن عمل للصيف ، وكان مستر كوبر يعيش على مسافة خمسة أميال من بيتنا فى واحدة من أكبر المزارع التى حولنا ، وكان يستأجر دائما ١٢رجلا أو أكثر خلال الصيف ، وقال لى انه سيدفع ٢٠ دولارا فى الشهر من مايو حتى سبتمبر ، وظللت ألح على أبى وأمى حتى سمحا لى بقبول هذا العمل ، وجاء كوبر لأخذى فى ليلة الاحد بعد أن أقفلت المدرسة ابوابها

كان أول شخص اراه فى مزرعته هو صديقى راعى البقر القديم «هاى» الذى كان يعمل رئيسا لعمال مستر كوبر ، وكان يقف بجوار سور الحظيرة مع بعض رعاة البقر الآخرين عندما وصلنا بالعربة ، فصاح قائلا: مرحى يا « ليتل بريتشز » (ذا البنطلون القصير)

ثم سألنى أين وضعت سرجى وغطائى ، ولم يكن عندى سرج أو غطاء بطبيعة الحال ، ولكنى لم اقل ذلك ، بل قلت له اننى أحب ركوب الجياد بلا سرج ، وهنا قهقه كل الرجال عدا « هاى » وصاح أحدهم: سوف يعلمك هذا يا هاى ألا تضيع أسبوعا فى اعداد السرج .

وبدا على وجه هاى تعبير غريب لمدة دقيقة ، ثم شرع هو الآخر يضحك وقال :

ـ عليك اللعنة يا ليتل بريتشز . سوف تركب فوق هذا السرج الصغير القديم الذى صنعته لك والا علقته فوق عنقك الهزيل .

وحملنى تحت ابطه نحو مكان نوم الرعاة كما يحمل خنزيرا صغيرا ، وكان هاى قد أعد لى سريرا صغيرا بجوار سريره مباشرة ، ونشر

اللحاف فوق السرج والزمام والغطاء، وكانت أجمل ما رأيت من أشياء فى حياتى ، وقد عضضت لسانى حتى أمنعه من الصراخ فرحا .

وفى الطريق الى الحظائر فى الصباح التالى ، قال لى هاى ان أول ما يجب أن أفعله ، هو أن اختار جوادى . وكان جواد هاى الازرق الداكن مربوطا فى الحظيرة الكبيرة مع حوالى ٢٤ جوادا آخر وكان هناك جواد أزرق يبدو مشابها له . . كان جوادا صغيرا له رأس أسود جميل وسيقان قصيرة قوية ، وأرداف نحيلة مرنة كأرداف القطة، ولم أستطع أن أبعد عينى عنه ..

وظل الرجال طوال الصباح مشغولين بربط الجياد بالحبال وتسريجها وركوبها فى حظائر الترويض بينما أخذت أرقبهم ، ولكن أحدا منهم لم يضع أى حبل على الجواد الازرق الصغير ، واظن أن مستر كوبر وهاى أدركا أننى أرقبه ، اذ قال هاى فيما بعد لمستر كوبر خلال العشاء :

ـ لماذا لا تترك الفتى يجربه يا لين بحق السماء ؟

وبدا أن مستر كوبر قد غضب وقال له :

ـ اسمع ايها الاحمق اللعين .. من المسئول عن هذا الفتى : انت أم أنا ؟ .. انك لن تضع « ليتل بريتشز » فوق اى جواد هائج عنيد .

ولم يضحك احد ، ولكننى رايت الرجال يتبادلون النظرات من زوايا عيونهم ، ولابد أن مستر كوبر قد رآها أيضا .. وعلى أية حال فانه فى خلال دقيقة أو اثنتين ، نظر الى هاى وابتسم قائلا : حسنا .. أعتقد أن الامر سيكون أكثر أمنا هنا حيث توجد لدينا حظيرة جياد طيبة ، ولكننى أريد أن أراك تستهلك بعض طاقة هذا الجواد الهائج قبل أن تترك هذا الشيطان الصغير يركبه .

وصاح هاى مبتهجا ، ثم أسرع نحو الحظيرة ووراءه بقية الرجال ، ووقفت أنا لأقول : « عذرا » ثم نهضت من أمام المائدة ، وكنت ثانى من بلغ الحظيرة .

ودخل هاى الى الحظيرة ممتطيا صهوة جواده الازرق الداكن ، وسار ببطء نحو المكان الذى تجمعت فيه الجياد فى أحد الاركان . وعندما تفرقت ، أدار حبله حتى استقر حول عنق الجواد الصغير .

ووقف المهر لحظة يرتعش ، ثم بدا وكأنه قد انفجر ، وراح يضرب الحبل المشــــدود بحوافره الامامية ويضرب رأسه .. وكانت أظـافر أصابعى تمسك أعمدة الحظيرة بشدة وانا اهتز بكل جسمى ، ولكن «هاى» بدا هادئا وكأنه يربط قطة صغيرة بقطعة دوبارة ، ولابد أن هاى قد أبقى المهر الازرق فى وسط الحظيرة حوالى عشر دقائق .

وظل يتحـدث اليه بلطف طوال الوقت ، بينما كان جواده الازرق يرقص فى دائرة ، واخــذ المهر يدق بحوافره حولهما ، وبدا صوته أشبه بماء يجــرى فوق الصــخور فى جدول ماء .

كان المهر يتفصد عرقا ، ولـكنه توقف عن دق حوافره عندما أشار هاى الى « تيد ايبريت » لكى يفتح البوابة المؤدية الى حظيرة الترويض ، وسـاعد جواد هـاى الازرق على تسهيل المرور خلال البوابة ثم اغلقها تيد .

وعندما بدأ تيد يتجه نحوه والسرج فى يده ، استبد الجنون بالمهر مرة اخرى ، ونادى كوبر « هاى » قائلا :

ـــ الا يكفى ما رأيته لكى تعرف ان « مافريك » لن يصلح ابدا جوادا لغلام ؟

ولم يرفع هاى صوته ، بل قال بهدوء : كلا لم أر ذلك ، كما انك لم تر هذا الغلام وهو يركب الجياد .. هناك مفاجأتان مقبلتان .

وسررت لسماع ذلك من هاى ، وقد عقدت العزم على ركوب هـذا الجواد الازرق ولو قتلنى ولكننى كنت أشعر برعب شديد حقا ، وأمسكت الســور بقوة حتى لا يرى أحــد اهتزاز يدى وحاولت أن أفكر فى الاشــياء التى ذكرها لى أبى حتى اجعلهما تثبتان .

وداخل حظـيرة الترويض انزلق « هاى » عن جواده ، فوقف الجواد ثابتا كالجماد فى اللحظة التى القى فيها « هاى » زمامه ، وجاء المهر الازرق أمامه ووقف يرتعش ، بينما جاء هاى نحوه ببطء وقد رفع السرج فوق صدره . كان لا يزال يتحدث اليه بلطف عندما وضع السرج على ظهر المهر .

وتحسس « هـاى » عنق المهر الازرق بيديه ، ثم وضع على وجهه الرسن المستخدم فى تدريب الجياد ، وبدا البياض حـول عينى الجواد الازرق ، وتوترت كل عضلة تحت جلده الذى يتفصد عرقا وبدا وكأنه على وشك أن ينفجر فى أية لحظة ..

واحسست بصدرى يؤلمنى، وأدركت اننى كنت ممسكا بأنفاسى !

وشد هاى حزامه ، ثم لف حبل الرسن حول يده ، وجلس فوق السرج ، وعندما حنى رأسه ، تركت تيد البوابة ، وقفز بعيدا .. وقفز المهر حوالى عشر ثوان وكأنه ينطح الصخر ، وقد جلس هاى ساكنا فوقه ، وانطلق المهر وكأن زنادا انطلق داخله فى مكان ما ، ودفعته وثبته الاولى بحوافره الامامية عشرة أقدام فوق الارض ، ثم هبط وراح يقفز الى اليمين والى اليسار ، ثم قفز مرة أخرى الى أعلى وكأنه نافورة ماء حار ..

وبدا كأن كل دمائى قد فرت وتركتنى جافا كغبار البرارى ... والتهبت عيناى والتصق لسانى بسقف حلقى ، واندفع الجواد نحو الاعمدة فى الطرف البعيد من الحظيرة، ثم دار على عقبيه واندفع عبر الحلقة

كان رأس « هاى » يهتز وكأنه كرة فوق دوبارة ، وكان المهر منقضا نحوى ، ورآنى هاى وأنا على وشك القفز ، فلوح بذراعه الخالية ، بينما كان المهر الازرق يمرق الى الوراء نحو وسط الحلقة .

لم يكن هناك شىء حتى يمكن أن يتحمل هذه الحركة طويلا ، ومن ثم فلربما مضت دقيقة فقط قبل أن يندفع الجواد كالصاروخ ثم يتوقف مرتعشا .. ولم يصدر أى صوت من أحد من الملتفين حول السور ، بينما بدا أن الجواد يفكر : هل يبدأ الامر كله من جديد أم يسترخى ؟ .. وراقبت الرعشة وهى تهدأ قليلا قليلا ، ثم حرك قدمه للامام وتبعها بخطوة أخرى وقام بدورة عصبية حول الحظيرة .

وبعد دورتين ، أشار « هاى » لمستر كوبر أن يفتح البوابة الخارجية. فاندفع المهر من خلال الفتحة ودار حول الحظيرة الكبيرة ، ثم انطلق بعيدا عبر حقل الدريس ، وربما مرت عشر دقائق قبل أن يعودا ، وكان من السهل أن نرى أن هناك تفاهما بين هاى والمهر .

وعندما أغلقت البوابة ، ترجل هاى ، وحل الاربطة المحكمة ، ولابد انه كان قد أعد كل شىء قبل ذلك ، فقد أخذ سرجه الى مخزن الحبوب وعاد يحمل سرجى ، وكنت أنا لاأزال خائفا ، ولكنى كنت أعرف أن وقت الركوب قد حان .

وسألنى مستر كوبر عما اذا كنت خائفا ، فكذبت عليه وقلت : كلا البتة ..

ولكنني كنت ارتجف في أعماقي ، فانني لم أر قط جوادا يستطيع أن يقفز كهذا الجواد الازرق .

وتحدث هاي الى المهر برقة ثم ربت على راسه بيده ، بينما قام تيد ومستر كوبر بربط سرجي الصغير فوقه ، وقال لي هاي ان المهر سيقفز من جديد مع أي راكب آخر ، ولكنه لن يقفز بشدة كما فعل من قبل ، كما قال لي الا اخاف بل أظل ملتصقا بالرمانة جاذبا حبل الرسن بشدة ، واضع عيني على اذني المهر لأعرف أين يستعد للقفز .

وأحضر جواده بعد ذلك ، وسار الى جانب المهر بحذاء السور ، ولاحظت أن كل الرجال الآخرين قد وزعوا أنفسهم حول الحظيرة وكانت حبالهم تهتز ، وجعلني هذا أشعر بكثير من الاطمئنان وأنا اتربع فوق سرجي الجديد .

وبعد أن اصبحت مستعدا ، ابتعد هاي بجواده ، واصبحت معتمدا على نفسي ، ودفع الجواد براسه الى أسفل ثم قفز الى اعلى واستقر بقوة على الارض ، ومنذ ذلك الحين لم اعد أعرف عما حدث أكثر مما قالوه لي فيما بعد !

وعندما انتهى الامر ، اقبل هاي بجواده لانزالي ، ولكنني لم اكن اريده أن يفعل ذلك ، فقد كنت اشعر بدوار شديد في راسي ، وباتت الصور مطموسة أمام عيني ، ولم أستطع اخراج الكلمات من فمي .

وكان هاي يعرف ماذا اريد .. وقال لي : انك على ما يرام . وسوف تركب المهر . افتح البوابة .

ولم يبتعد جواده قط عن جانبي أكثر من ثلاثه اقدام طوال الطريق عبر الحقول حتى خرجنا الى قطعة أرض من البراري ، وعدنا الى الحظيرة وفي طريق العودة لم يعد المهر يكافح ، واستطعت أن أشعر بقوة عضلاته الهادئة تحت السرج ، وادركت انه اصبح جوادي .

وفي ذلك المساء ، عندما تذكرت مدى ارتفاع قفزاته ، قررت أن أسمي المهر « سكاي هاي » ـ أو السماء العالية ـ وسألت هاي عما اذا كان يرى هذا الاسم مناسبا فقال انه يناسبه تماما ، وقال انه سيسمي جواده باسم « السماء الزرقاء » (سكاي بلو) ..

***

انطلقنا الى مزرعة الجبل في ساعة مبكرة من الصباح التالي ، وقد شعرت ببعض الضيق عندما اخبرني

مستر كوب اننى لن أفعل شيئا غير جلب الماء ومساعدة الطاهى جوان ، ولكن تبين أن المسألة احسن بكثير مما توقعت ، فان جوان لم يكن فى حاجة الى مساعدة ، وكان كل ما يتركنى أفعله ، هو أن أحمل الماء للرجال ، وأحضر بعض الاحطاب الجافة للنار .

وطوال الاسبوع الاول ، كان هاى يقوم بتدريب « سكاى هاى » كل صباح قبل ان يتوجه للعمل

وواصلت تدريبى على ركوبه كل صباح ، حتى استطعت أن أركبه وعيناى معصوبتان . وعلمت الكثير خلال الاسابيع التى أمضيناها فى مزرعة الجبل ، وتركنى هاى أعمل مع الماشية بعد أن أحضرت للطاهى جوان ما يكفى من الاحطاب لبقية اليوم ، ولم يكن ذلك يتطلب أكثر من ساعة . وكنت أقضى بقية اليوم مع قطعان الماشية مع هاى والرجال وكنت أتنقل من قطيع الى آخر صباحا ومساء لكى أحمل الماء للرجال حتى أجد فسحة من الوقت للتدريب على الاشياء التى علمنى اياها « هاى » وادرب جوادى « سكاى هاى » .

وكان هاى كثيرا ما يتنقل من قطيع لآخر مثلى باعتباره رئيسا لرعاة الماشية ، وكنا نتدرب معا على بعض الحيل ، وقد علمنى كيف أدرب سكاى هاى حتى أصبح فى امكاننا ركوب جوادينا الزرقاوين جنبا الى جنب ونجعلهما يقومان بنفس الاشياء بالضبط دون أن نجذب الزمام ، كما دربنا الجوادين على أن يقفا ويدوران معا فى مساحة صغيرة جدا ، وأعتقد أن جوادى الازرق الصغير ، أحب جواد « هاى » اسوة بحبى أنا له ..

***

لم ألاحظ أن جوادنا « بيلى » قد ذهب .. وكذلك « بريندل » احدى أبقارنا ..

وعندما توجهت الى مخزن الحبوب كان أبى يضع رأسه على جانب البقرة « هولشتين » ، وقال دون أن يرفع بصره : ان هولشتين تعطى لبنا جيدا هذا الخريف بحيث أن الاحتفاظ ببقرتين سيكون تبديدا للعلف ، ولهذا سأعطى مستر كاش البقرة بريندل .

قلت : وهل اخذ بيلى أيضا ؟

ولم يقل أبى شيئا حتى حلب كل اللبن من هولشتين ، وكانت العضلات تهتز على جانب فكه ، ثم رفع دلو

اللبن واستدار نحو مقعد الحلب بحيث نظر الى مباشرة وقال :

ـ يجب أن نكون صرحاء مع انفسنا يا شريكى .. اننا لن نستطيع أن نحل مشكلاتنا الاقتصادية هنا ، فليس لدينا ما يكفى من الطعام لابقاء بقرتين خلال الشتاء ، ولم أقض أكثر من خمسة أيام بعيدا عن العمل طوال الصيف ، كما انه ليس هناك ماء كاف لانقاذ الحاصلات ، ولن تزيد قيمة الحصاد على ما كسبته أنت من مستر كوبر .

وأردت أن أقول شيئا ، ولكننى لم أستطع أن أفكر فى أى شىء أقوله فوقفت ساكتا ، وبعد دقيقة رفع أبى المقعد الصغير ، وداعب شعر رأسى ثم قال :

ـ لا تقلق يا بنى ، ولا تثر قلق أمك ، فهناك دائما عيش فى هذا العالم للشخص الراغب فى أن يعمل للحصول عليه .. وأعتقد أننا راغبون فى ذلك .. أليس كذلك ؟

ومنذ ذلك الحين ، وحتى عيد الميلاد كان أبى يعود فى ليلة السبت كل أسبوع ثم يرحل قبل فجر الاثنين ، كان يساعد فى بناء بيت قرب دنيفر ، وعند ما انتهى منه ، حصل على عمل آخر للمساعدة فى بناء منزل ببلدة « ليلتون » القريبة . ولم أعرف قط من الذى اشترى جوادنا الثانى أو أطقم الخيل ... ولم أسأل أبى قط لاننى كنت أعرف انه لا يريد الحديث عن ذلك ..

***

وانتقلنا الى « ليلتون » بين عيد الميلاد ورأس السنة ، حيث وجد أبى بيتا يحوى سبع غرف فى الطرف الجنوبى من البلدة ، وعشنا هناك فترة من الوقت فى هدوء .

كنت قد ذهبت الى المدرسة فى « ليلتون » حوالى ستة أسابيع قبل أن أواجه أية متاعب كبرى . كانت المدرسة التى تشرف على فصلنا أرملة لا تنطق بكلمة طيبة اذا أمكنها أن تجد طريقة لقولها بطريقة حقيرة .. وكانت الاوقات الوحيدة التى تبدو فيها لطيفة ، عند ما يحضر لها مستر « بيردى » الارمل زبدا وبيضا ، وكانا يقفان أحيانا أمام باب الفصل يتهامسان ويضحكان حوالى نصف ساعة ..

وذات مرة قضى مستر بيردى حوالى ربع ساعة يتحدث مع مسز آبسون المدرسة ، وعندئذ بدأ أحد الاولاد يحك الارض بقدميه ، وفى خلال دقيقة كان كل من فى الفصل يحك

الارض بقدميه ، حتى بدا كأن هناك ٤٠ قاطرة تنفث دخانها فى وقت واحد، وعندئذ أسرع مستر بيردى بالرحيل وطارت خلفه المدرسة .

وعادت فى خلال دقيقتين ومعها الناظر ، ولكن الفصل كان هادئا وكأنه خال ... وكان الناظر رجلا ضخما وسيما أحمر الوجنتين . يبدو أصغر كثيرا من أبى ... وواجه الفصل ثم صفق بيديه وقال :

ـ أريد أن يقف كل الاطفال الذين حكوا الارض بأقدامهم ...

وكان « داتش جانتر » أول من وقف وتلاه أخوه بيل، وعندما نظرت حولى ، كان هناك سبعة من الاولاد قد وقفوا ولم تقف بنت واحدة مع انه كان هناك ٣٠ ولدا وبنتا فى الفصل .. ولو حاول الناظر أن يبحث فعلا لاستطاع أن يرى علامات الخدش على الارضية تحت كل تختة ، ولكنه عقد ذراعيه على صدره ، ووقف يحدق فينا حوالى دقيقتين ثم قال :

ـ كان لابد أن أعرف انكم أسوأ من فى الفصل كله .. اتبعونى

وخرج من الفصل ، وسرنا خلفه، وفى الردهة ، همس داتش يقول لى : « لا تجعله يضطرك للصياح يا ليتل بريتشز »

وقادنا الناظر الى غرفة فى البدروم وأمسك سوطا كريه الشكل كان معلقا على الحائط ، طوله حوالى نصف متر وبه ثلاث عقد فى طرفه ، وقد تحمل بيل ١٤ ضربة قبل أن يصيح ولم افعل مثله ، اذ كنت قد أصبت بشرخين فى ضلوعى وأنا أتدرب على حيل « هال » ، وقد أصابت عقد السوط اماكن الشروخ عند أول ضربة، وأحسست وكأن شخصا طعننى بعشر زجاجات مكسورة .

***

وقد جنت أمى غضبا عندما عدت الى البيت ، وأرادت أن تعود فورا الى المدرسة لولا اننى قلت لها ان عملها سيزيد الامر سوءا بالنسبة لى، وراحت تمسح الاماكن التى مزق فيها السوط جلدى ، ووضعت بعض المرهم فوقها ثم قادتنى الى الفراش.

ولا بد انها ذكرت الامر لابى بمجرد عودته من العمل ، وعرفت انه ثار غضبا لان عضلات فكه راحت تدخل وتخرج ، وبعد أن فحص كل جروحى قال لى :

ـ لقد ضربك ضربا جيدا بالسوط أليس كذلك ؟ حسنا .. لقد أصابك اذى أكثر من ذلك من قبل .. واعتقد انك سوف تعيش .

وبينما كنت أرتدى ثيابى، جلس على حافة الفراش ثم قال لى :

ـ هل تعرف يا بنى أن المرء قد يضطر أحيانا لاحتمال السياط لانه عمل الشيء الصواب ؟

ان آثار الضرب لن تبقى الا فترة قصيرة ولو كانت قاسية ، ولكن عدم اداء الشيء الصواب سيترك فى الغالب علامة تبقى الى الابد .. هيا بنا الى اسفل لنأكل .

ولم أستطع النوم فى تلك الليلة .. وسمعت ابى يخرج من الباب الامامى، ثم سمعته يعود بعد ساعة ، وبينما كنا نتناول الافطار فى الصباح ، لاحظت ان يديه متورمتان وقد بدا لون داكن على ظهريهما .

وساءلت نفسى : ترى ماذا كان يفعل وأين ذهب فى الليلة السابقة ؟. وسألته عن ذلك وهو يمسح طبقه بقطعة من الخبز الساخن فقال :

ـ لقد اضطررت للخروج لمقابلة رجل بشأن كلب ..

فنظرت اليه أمى وقالت بسرعة :

ـ أظن أنك اضطررت للخروج لمقابلة كلب بشأن رجل ..

وكانت تقصد الناظر ، ولكن ابى لم ينطق بكلمة بل استمر فى تناول طعامه ..

ولم تذكر امى شيئا عن عدم ذهابى للمدرسة ، ومن ثم فقد ذهبت ، واعتقد اننى مررت أمام باب مكتب الناظر المفتوح سبع أو ثمانى مرات فى ذلك اليوم دون أن اراه ، ولم يحضر عدة أيام تالية ، وقال الاولاد ان « شخصا » ما ضربه ضربا مؤلما ، واعتقد اننى كنت الشخص الوحيد الذى يعرف من يكون هذا «الشخص»

***

فى آخر صيف لنا فى المزرعة ، لم يكن هناك أية حاصلات ، كما اننا لم نقض غير أيام قلائل فى جمع الدريس، وكان ذلك مفيدا لرئتى أبى ، وحتى فى ذلك اليوم البارد الممطر من شهر مارس عندما وفى ابي بوعده للحانوتى لمساعدته فى حفر أحد القبور، لاأظن اننى سمعته يسعل منذ شهور، ولم ترتح أمى للعمل ، ولكن ابى قال انه لن يستغرق اكثر من نصف يوم وسينال منه أجرا طيبا .

ولكن العمل استغرق أكثر من نصف يوم، وكنت قد عدت من المدرسة قبل عودة أبى بساعة ، وطلبت أمى منه أن يرتدى ثيابا جافة على الفور، وجعلته يحتسى بعض الخمر والماء الساخن ، ولا ادرى هل كان الخمر هو الذى جعل ابى يتحدث الينا فى

تلك الليلة ، أم أنه أحس بدنو أجله . . فلم يكن قد حدثنا قط عن طفولته أو عن الاشياء التى عملها ، وفى تلك الليلة جلسنا أمام مائدة العشاء حوالى ساعتين ، بينما راح أبى يحدثنا عن المزرعة الصغيرة الثانية التى نشأ فيها ، وحدثنا عن تطعيم أغصان التفاح فى اشجار البتولا ، وعن نزوله الى البئر حتى يستطيع أن يرى النجوم فى وضح النهار . .

وكلما استيقظت فى تلك الليلة كنت أسمعه يسعل ، وفى الصباح التالى بقى فى الفراش ، وجاء الطبيب فى المساء ، وقال ان أبى مصاب بالتهاب رئوى ، وكان مريضا الى حد أن الطبيب لم يسمح لنا برؤيته الا مرة واحدة خلال الاسبوع التالى ، وذهبت اليه جزيس أولا ، ثم جاء دورى . . .

كان يبدو فى حالة سيئة جدا أفزعتنى عند ما دخلت الغرفة . . ولم أستطع أن أفكر فى شيء أقوله ، وكنت قد وجدت لفة من الحبال ملقاة فى الطريق أثناء عودتى ، فحدثته عنها ، وعندئذ رفع يده قليلا فأمسكت بها ، وكان صوته أقرب الى الهمس وهو يقول :

ــ احرص عليها يا شريكى ، فقد تحتاج اليها . .

وكانت تلك آخر كلمات سمعتها منه . . .

كنت فى بيت مسز روبرتس فى اليوم التالى عندما جاءت الممرضة التى ترعى أبى ، ولم تقل شيئا بل عبرت قاعة الجلوس مباشرة وأدارت يد التليفون وطلبت رقما ما ، وبعد برهة تحدثت مع شخص ما وقالت انها تتحدث باسم أمى ، و « أن زوجها مات منذ حوالى ٢٠ دقيقة » !

كان الامر أكبر من أن أفهمه على الفور . . ولم أشعر برغبة فى البكاء ، بل لم أشعر برغبة فى أى شيء . . كان عقلى قد توقف عن العمل دقيقة أو دقيقتين ، وعند ما بدأ يعمل ثانية ، راح يدور ويدور كأنه اسطوانة تقول مرة بعد أخرى . . « وداعا ياشريكى . . . وداعا يا شريكى . . »

وسار كل جيراننا القدماء فى جنازة أبى ، ولم أكن أعرف قط قبل ذلك كم كانوا يحبونه حقا . .

وبعد الصلاة على الجثمان ، نظر الدكتور براون الى يد أمى التى اصيبت بطريقة ما خلال الايام الاخيرة وبعد أن فحص اليد ذات العروق الحمراء ، قال لها :

ــ مسز مودى . . . هذا تسمم دموى يحتاج الى جراح . . . اذا كنت

تريدين تربية أولاد شارلى فلا بد من رجوعك معى فورا الى المنزل .

وصعق الجميع عدا أمى ، التى نظرت الى وجه الطبيب وقالت :

ـ أجل أعرف يا دكتور ، وأعتقد انه لا خيار لى فى هذه المسألة ..

وتم تدبير الامر بحيث نقيم مع بعض الجيران ، ثم قبلتنا أمى جميعا ، وكنت آخرهم ، وما زلت أذكر كيف ارتعشت شفتاى وهى تضع يدها على رأسى وتقول :

ـ انك رجل الآن .. انني أعتمد عليك ، وسأعود الى البيت فى خلال أسبوعين ..

ولم تعد بعد أسبوعين ، بل بعد أربعة ، وقد جاءوا بها محمولة ووضعوها على الفراش فى غرفة الاستقبال بالطابق الارضى ، ونظمت أول اجتماع للاسرة وقالت لنا :

ـ يجب الا نشعر بالاسى على أنفسنا بعد الآن . ان لدينا كثيرا من الاشياء التى يجب عملها ، فعلينا الآن ان نعمل لشفاء يدى ، وكل ما تحتاج اليه هو طعام طيب ورعاية جيدة ، ولا أظن ان هناك الآن ما هو أفضل من الدجاج المحمر اللذيذ ..

والتفتت نحوى قائلة :

ـ رالف .. أقترح أن تعد لنا تلك الدجاجة السمينة التى لم تضع بيضا فى الشتاء الماضى .

كان هذا العشاء هو الذ وجبة اذكرها فى حياتى .. كان الطبق الكبير الاصفر الذى يحتل وسط المائدة يمتلىء حتى حافته بقطع الدجاج المحمرة والبطاطس والجزر وقطع كبيرة من الخبز على سطحه ..

لقد كان أبى يردد دائما صلاة قبل الطعام .. نفس الكلمات والطقوس دائما ، وكانت أمى تنظر حول المائدة لترى أن كل شىء فى موضعه ثم تشير الى أبى ليبدأ الصلاة ..

وفى تلك الليلة أشارت لى برأسها وأصبحت رجلا ! ..



علاج !

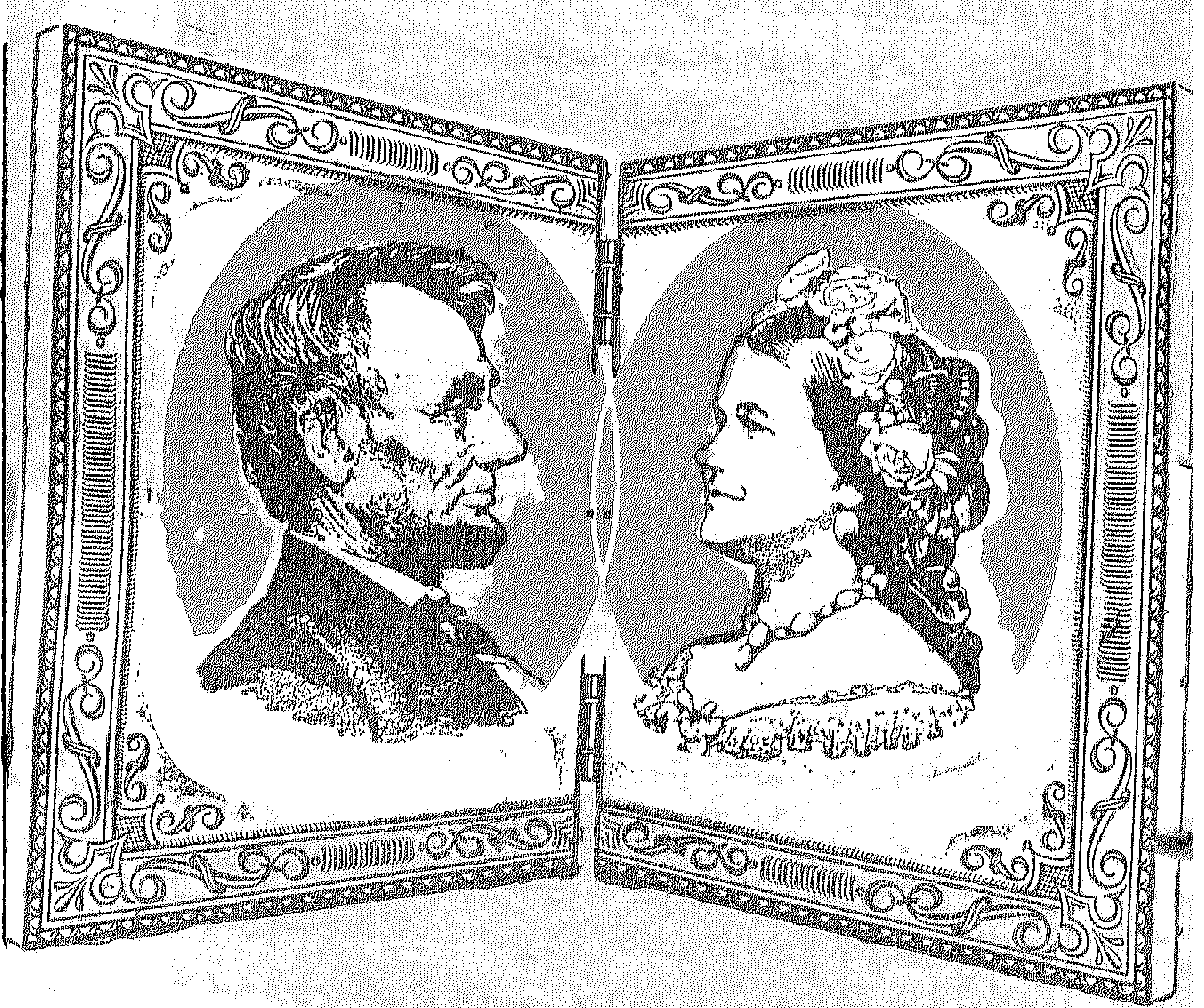
اعطى الطبيب للمريض المصاب بالبدانة زجاجة ضخمة من الاقراص وقال له :

ـ هذه ليست للابتلاع .. يكفى أن تسكبها على الارض ثلاث مرات كل يوم ، ثم تلتقطها واحدة واحدة !

كتاب الشهر

ماري لنكولن

أتعس من دخلت البيت الأبيض



ماري لنكولن أتعس من دخلت البيت الابيض

ملخصة عن كتاب

Mary Lincoln : Biography of a Marriage

بقلم روث بينتر راندال

« انها فتاة صغيرة متوردة الخدين زرقاء العينين ، تفيض حيوية ٠٠ ذات بشرة بيضاء وشعر كستنائي خفيف » ٠٠٠ « فتاة رائعة الجمال ، تتدفق نشاطا ورشاقة » ٠٠ « انها ذات روح مرحة وقلب ودود ، تمنح بسمتها للجميع ٠٠ »

هكذا كانت ماري تود وهي في ربيعها الحادي والعشرين ، كما وصفتها الرسائل التي لم تزل باقية للآن ، يوم عرفها زوج المستقبل ابراهام لنكولن لأول مرة في شتاء ١٨٣٩ ـ ١٨٤٠ ، والتي قدر لها أن تصبح في السنوات التي تلت ذلك من أكثر النساء فواجع في كل التاريخ الامريكي ٠

كانت ماري قد جاءت الى «سبرنجفيلد» بولاية الينوي من بلدتها «لكسنجتون» بولاية كنتكي في خريف ذلك العام لتقيم مع أختها المتزوجة مسز ادواردز ، وكان هذا الترتيب معقولا في ذلك الحين ، يوم كان الزواج هو الطريق الوحيد المفتوح أمام النساء ، وكانت الفتيات غير المتزوجات يتسابقن للوصول الى عاصمة الينوي التي بنيت حديثا ، حتى شاعت « الزيارات » الطويلة الامد من الفتيات اللواتي يتصلن بصلة القرابة لأهل المدينة ، وكثيرا ما كانت هذه الزيارات تنجح في تحقيق هدفها ، وقد سبق أن « زارت » الاخت الكبرى لماري آل ادواردز ، فأصبحت زوجة لطبيب ناجح ٠

كانت دار آل ادواردز موقعا ستراتيجيا عظيما لعقد هذه المحالفات الزوجية ، فقد كان ادواردز نفسه ابنا لحاكم الولاية ، وهو شخصية بارزة ذات نفوذ ، يفد الى ضيافته الكريمة كل زائر بارز للبلدة ، وكانت الدار تتألق بالشموع والنيران التي تبعث الدفء خلال الليل ، وتمتلىء بالفتيات الحسان في أبهى الازياء ، فيبعثن المتعة في الحياة بدلالهن ، كما كانت المراقص والحفلات والنزهات الخلوية شيئا يجري بانتظام ، وكانت

ماري تود تبدى بها اهتماما كبيرا يشوبه المرح

ولما كانت تتمتع بمظهر جميل وقلب دافىء واتصالات عائلية كبيرة، فقد وجدت كثيرين من المعجبين ذوى المراكز الطيبة .

وفى ابريل ١٨٣٧ أقبل المحامى الطويل القامة ابراهام لنكولن الى سبرنجفيلد على ظهر الجواد الذى استعاره ، وهو يحمل كل ممتلكاته فى كيسين من القماش ، وكان يومئذ فى الثامنة والعشرين من عمره غارقا فى الديون الى أذنيه ، ولم يكن معه نقود يستأجر بها مسكنا ، فعرض عليه صاحب متجر فى البلدة أن يشاركه فى غرفة نومه فوق الحانوت بعد أن أحس بميل اليه .

كان لنكولن قد انتخب عضوا بالمجلس التشريعى للولاية ، وكان مسئولا الى حد كبير عن نقل عاصمة الولاية من « فانداليا » الى سبرنجفيلد وراح الناس يتحدثون عن هذا الشاب الصغير ، ولا سيما بعد أن أصبح على الفور شريكا أصغر لأحد المحامين الكبار ، وحتى فى ذلك الحين ، كان لنكولن يتمتع بتلك المغناطيسية التى ظلت تجتذب اليه الناس طوال حياته ، بفضل سجيته التى تجمع بين المرح الساخر والرقة ، والاهتمام بالناس وقوة الذهن .

***

كان التعرف الى الناس فى سبرنجفيلد شاقا فى بداية الامر ، وقد كتب لصديق له خلال تلك الشهور الاولى يقول : « اننى وحيد هنا كما كنت دائما فى كل أوقات حياتى » .

وهناك ما يدل على أن لنكولن كان يحس بشدة بافتقاره الى الميزات التى يكفلها الانتساب الى أسرة عريقة والاختلاط بالمجتمع ، والتعليم فى المدارس ، وكان دائما يتمتع بحب الرجال لصاحبته ، أما حيال سيدات سبرنجفيلد المتعلمات، فقد كان خجولا لا يثق فى نفسه .. ومع ذلك فما كاد يحل عام ١٨٣٩ حتى كان قد اقتحم مجتمع سبرنجفيلد كما يتبين من دعوة مطبوعة تحمل تاريخ ١٦ ديسمبر ، وكانت دعوة لحفل راقص نظمه « ١٦ مديرا » وتحمل توقيعاتهم جميعا وفى آخرها اسم ا . لنكولن .

وأثرت هذه المناسبات الاجتماعية فى نفس الشاب القادم من الارياف كما اجتذبت الفتيات الرقيقات الانيقات انتباهه اذ كن مختلفات عن نساء الاكواخ الريفية فى المناطق التى شب فيها .. وفى احدى هذه الحفلات،

اجتذبت ماري تود بصره بجسمها الصغير الرشيق وثيابها الانيقة التي صنعت وفق أحدث الازياء ، وعندما قدموه اليها ، طلب اليها مراقصته •

وسرعان ما أخذ لنكولن يتردد على دار آل ادواردز لزيارة مس تود ، وانضم الى ركب الشباب الذى كان يأمل فى الزواج منها، وكانوا يجلسون على أرائك آل ادواردز التى اكتست بشعر الخيول ، يتنزهون فى شوارع سبرنجفيلد الموحلة مع السيدة الصغيرة فى ضوء الغسق •

كان لنكولن يحدق فى وجه مارى وكأنما تجتذبه اليهاقوة فائقة لايستطيع مقاومتها ، وكان يصغى اليها دون أن ينطق بكلمة واحدة ، ولاحظت شقيقة مارى « مسز ادواردز » هذا الاهتمام الذى يبديه « شاب بطىء الكلام تسيطر عليه أحيانا حالات من الكآبة » بحديث مارى الودى ومرحها ، ولم يكن اهتمام المحامى الشاب المفلس بشقيقة زوجة أكبر ارستقراطى فى سبرنجفيلد يعتبر اختيارا منطقيا ولكن لنكولن كتب لصديق له يومئذ يقول « ان المنطق لادخل له فى مسائل التودد والغرام »

أما مارى — التى كان تعليمها وثقافتها وروحها المستقلة تفوق كثيرا مالدى أمثالها يومئذ — فقد وجدت فى لنكولن « أكثر العقول التى التقيت بها فى حياتى ملاءمة لعقلى » وكان للاثنين آراء سياسية متماثلة ، كما كانا يشتركان فى حب الادب، وموهبة اكتساب الصداقات ، وقد عقدت مارى العزم على الزواج من الرجل الذى أحبته رغم فقره وأصله المتواضع ، وكان كما قالت احدى شقيقاتها « أقل الرجال وسامة فى سبرنجفيلد »

وكان هذا الوجه الخشن والعينين اللتين تفيضان حماسة ، والفم الرقيق، أصبحت شيئا عزيزا على قلب مارى، بينما أصبحت هى بالنسبة للنكولن الفتاة التى يكفى وجودها لحظة لكى يملأ حياته بهجة وسرورا •• وفى أواخر ١٨٤٠ شرعا فى وضع خطط الزواج ، ولكن هذا الحب لم يخل من أزمات عاطفية ، ورغم التجانس والاخلاص المتبادل بين الشابين، فاننا ندهش عندما نعرف أن خطبتهما قد فسخت !

ويشوب هذا الجزء من تاريخ لنكولن غموض كثير ، واعادة تصويره أشبه بمحاولة اعادة ترتيب صورة مقطوعة تنقص أجزاء كثيرة منها ، فضلا عن القصص المختلفة الكثيرة التى زعمت أن حفل الزفاف أقيم وأن

لنكولن لم يحضره ، ولابد من ازاحة هذا وغيره من الانقاض قبل أن نتمكن من الوصول الى حقيقة ماحدث .

فلماذا فسخ لنكولن خطبته لماري تود ؟

لقد ذكرت ابنة شقيقتها بعد بضع سنوات أن السبب هو معارضة والديها لهذا الزواج ، فقد رحب آل ادواردز الارستقراطيون بلنكولن في دارهم كصديق ، ولكنهم لم يرحبوا به كطالب زواج ، وقد فعلت مسز ادواردز كل ماتستطيع لتحطيم هذه الفكرة ، وقال زوجها عن لنكولن أنه « رجل جلف » وأن ماري يجب ألا تتزوج بشخص أقل منها مركزا .

وأحس لنكولن بأذى عميق في مشاعره لرفض آل ادواردز ، وزاد ذلك من شكوكه وعدم ثقته بنفسه ، وشعوره بنقصه الاجتماعي ، والفقر الذي ستتحمله ماري اذا تزوجته . . وكتب لصديق له يقول : « انني فقير جدا ، لم أشق طريقي بعد في العالم ، حتى انني أفقد في شهر من الخمول ما أكسبه في سنة من الكد والتعب »

وقد دفعت الحساسية المرهفة وعزة النفس هذا المحامي الشاب الى طلب فسخ الخطبة وأن ينأى بنفسه عن حياة ماري لنكولن ، ويقول أفضل أصدقائه في تلك الفترة أنه عندما التقى الحبيبان أعرب لنكولن لماري عن شكوكه في الحكمة من زواجهما ، وعندما انفجرت الفتاة باكية ، أخذها بين ذراعيه وقبلها وراح يواسيها ، ولم يذهب لنكولن بعد ذلك لرؤيتها عدة شهور ، وكتبت ماري رسالة بعثت بها اليه ، تحرره فيها من الخطبة وتقول أن حبها له لن يتغير .

وثمة أنباء كثيرة تقول أن لنكولن انتابته بعد ذلك حالة جنون شديد ، كما أن ماري كانت في حالة معنوية سيئة ، وبعد فسخ الخطبة بخمسة شهور ، كتبت لصديقة لها تطلب اليها أن ترسل لها الخطابات لتدخل البهجة الى نفسها الحزينة ، وأبدت أسفها على الماضي . . ورغم اعتراضات أسرتها ، ظل اخلاصها لابراهام لنكولن ثابتا لايتزعزع ، ولم تكن تحفل بالكبرياء لكي تجعله يعرف أنها مازالت تحبه ، وهو تنازل واضح من عذراء في ذلك العصر .

وأخيرا دبر أصدقاء الطرفين لقاء بين العاشقين التعسين في أحد بيوت سبرنجفيلد دون أن يتوقع أحدهما ذلك ، وتلا ذلك اجتماعات سرية أخرى ، ونشأت قصة غرام في تلك الفترة من المواعيد المختلسة ، تضمنت

لحظات من التأثر ، ووضع الخطط ، والاهتمام بتكتم كل شيء عن الاسرة غير الراضية ، وكانت مارى التى أعلنت أنها لن تتزوج الا عن حب تظهر أنها تعنى ذلك حقا ، وظلت الفتاة الارستقراطية مخلصة لعاشقها الفقير ..

وأخيرا أعد خاتم الزواج الذى حفرت عليه كلمتا « الحب الخالد » فقد قررا الزواج لأنهما لايستطيعان ابتعادا عن بعضهما البعض . وفى صباح ٤ نوفمبر ١٨٤٢ توجه لنكولن الى بيت القسيس وقال له : « أريد أن أتزوج هنا الليلة »

وفى غضون ذلك كانت مارى قد ساقت النبأ الى الاسرة ، وتلا ذلك عاصفة من الاحتجاج ، وانهالت مسز ادواردز على شقيقتها مارى بالتأنيب وقالت لها فى عنف « لا تنسى أنك من آل تود » ولكن مارى ظلت ثابتة فى موقفها ..

وبعد أن أدرك آل ادواردز فى النهاية انهم لن يستطيعوا منع الزواج ، قرروا أن يتم فى دارهم لا فى الابراشية ، ودعى حوالى ٣٠ شخصا على عجل لحضور عقد القران حيث وقف لنكولن ومارى تود جنبا الى جنب وقد تشابكت أياديهما ، ووعد كل منهما الآخر بأن يكون له « فى السراء والضراء حتى يفرق بينهما الموت »

ويقال أن المطر كان يدق على النوافذ عندما انتهت مراسم العقد ، ويقول المثل القديم « ان الامطار كانت تنهمر كدموع العروس » .. وقد تحقق ذلك بصورة فاجعة فى حالة مارى لنكولن!

***

فى خلال العام الاول من الزواج ، عاش آل لنكولن حياة اقتصادية جدا فى « جلوب تافيرن » ولا شك أن الزوجة الشابة قد افتقدت البحبوحة التى كانت تجدها فى بيت آل ادواردز ولا بد أن الحياة كانت شاقة فى الفقر الذى عاشت فيه مع زوجها دون الثياب الجميلة التى كانت تحبها ، فضلا عن تدهور مركزها الاجتماعى ..

ولكنها أصبحت الآن تمتلك الشيء الجوهرى فى سعادة المرأة وهو زواجها من الرجل الذى تحبه . وكتبت مارى بعد سنوات عديدة تقول : « لم يكن هناك زوج أكثر حبا واخلاصا منه » ، كما امتلك لنكولن شيئا جديدا على حياته وكيانه الظامىء للحب ، ووجد معه رفيقا محبا متحمسا ، يهتم بكل مايحدث له .

وقبل أن يستقر الزواج وترسخ أركانه ، كانت هناك تلك الهزات

المعهودة ، اذ كانت مارى عصـــبية سريعة الثـــورة ، معرضة للاصـــابة طفلة كتب ابن عم لها يقول « انهاذات طفلة كتب ابن عم لها يقول « انهاذات عصبية بالغة . تستثار بسرعة ، ذات مزاج متقلب كأيام ابريل » وكانت تندفع لعمل أشياء دون تفكير ثم تندم على تهورها ، وكثيرا ما اضطر لنكولن الى حمايتها من تصرفاتها الطائشة .

ولكن لنكولن أيضا كانت له عيوبه ، فقد كان يمر بنوبات من شرود الفكر لا يرى ولا يســمع خلالها شـيئا مما حوله ، وظل طوال حيـــاته فريسة لساعات من الحزن والانقباض النفسى يغرق خلالها فى ظـلام روحى ، وفى مثل تلك اللحظـات ، كانت طبيعـة مارى المبتهجة تنقذه بصورة رائعة .

كان احصاء القروش شيئا جديدا على مارى ، ولا سـيما أن زوجها لم يكن يهتم بالحصول على المال ، ولم يكن لنكولن يفتقر الى التدبير ، ولكن كانت هناك مسائل أخرى أكثر أهمية بالنسبة له ، وليس هناك من يدرى أية وسائل وتدبير اتبعتها مارى فى تلك السنوات العجاف الاولى للتخلص من عبء ديونه السابقة .

ومع مقدم ابريل ، انطلق لنكولن الى الدوائر القضائية ، وكان الاشتغال بالقانون يومئذ يتطلب انتقالا وجولات كبيرة ، فكان يقضى نصف وقته بعيدا عن بيته ، ولـكن لنكولن كان يحب هذا الاسلوب من الحياة ، والمرافعة فى القضـايا ، وكانت تلك الفرصة لتبادل الحديث مع أناس من كل أنحاء الولاية أفضل تدريب مستطاع لرجل ذى أطماع سياسية .. أما بالنسبة لمارى فان فترات غيابه الطويلة كانت مشقة كبرى ، ولا بد أن عصبيتها قد زادت من عبء وحدتها ، فقـد كانت تتوقع حادثا سعيدا فى تلك الفترة .

وولد طفلهما الاول روبرت تود فى أول أغســطس ١٨٤٣ فى « جلـوب تافيرن » ، وظلت مارى تذكـر وجه زوجها الحبيب وقد انحنى فوقها بحب ورقة بالغة ، وفى عينيه لهفة ووميض من السرور الأبوى بطفله الاول ... وكانت تلك تجربة انسانية جوهرية لا ل لنكولن لتربطهما معا ... ومنذ ذلك الحين ، أصـبح لنكولن ينادى مارى بقوله « أماه » وان كان يستخدم أحيانا بعض ألفـــاظ التدليل مثـل « باس » أو « الزوجة الطفـلة » أو « الســيدة الصغيرة » .. أما مارى فكانت تناديه دائمـا باسم « مستر لنكولن » أو « الاب »

***

وإذا كانت « جلوب تافيرن » مكانا غير مناسب لشهر العسل، فقد كانت أقل مناسبة لزوجين أنجبا طفلا ، وقيل أن بعض النزلاء الآخرين شكوا من بكاء الطفل .. وعلى أية حال فقد اشترى آل لنكولن بيتا فى العام التالى ، عبارة عن منزل متواضع من طابقين ونصف طابق (أصبح مزارا وطنيا اليوم) كان تدبير أعمال المنزل شاقا مؤلما فى تلك الايام التى تسود فيها المرافق البدائية ومصابيح الزيت ومضخات الماء ودورات المياه الخارجية والمواقد الخشبية ، ولم تكن مارى تتقاعس عن أداء أى عمل ، وعندما ذهبت أخيرا الى واشنطون باعتبارها السيدة الاولى ، كانت يداها قد اخشوشنتا من الكد والتعب .

وكانت مارى حائكة ثياب بارعة ولكن الطهى كان شاقا عليها ولاسيما أنه يتضمن أعداد الخبز للاسرة . وكانت تصنع ثيابها وثياب طفلهما بيديها ، وكان لنكولن فخورا بزوجته يحب أن يراها ترتدى ثيابها ، وقد تعلم على مر الايام أن يلاحظ كل شىء جديد ترتديه ويبدى استحسانه له وقال لها مرة « أن هذه الزهور المرسومة على ثوبك فى لون عينيك »

وقد زاد أعمال البيت مشقة أن لنكولن — كما وصفه صديق — كان فوضويا لايعرف النظام فى كل عاداته، ولم يكن لديه وقت محدد للطعام أو للنوم أو الاستيقاظ ، وكانت مارى لا تقدم أية وجبة الا بعد حضوره ، وكثيرا ما اضطر الضيوف للانتظار طويلا حتى يحضر لنكولن .

وعرف بيت لنكولن العناء والمرض وتبادل اللوم ، والكوارث الصغيرة ، ولكنه كان كذلك بيتا لرجل سبق أن عرف الوحدة .. بيتا يعود فيه الزوج بعد عمله ليحكى لزوجته أحداث اليوم ، ويحيط به أولئك الذين أحبهم وأحبوه .. كان هناك حب فى بيت لنكولن ، وكان هناك مرح وتدليل ، ولعب الاطفال ، وهو شىء كان يبدو فى رسائل مارى التى تقول بعد سنوات « منزل جميل به زوج محب وطفل بديع ... انها أسعد مراحل حياتى »

وفى عام ١٨٤٦ وهى نفس السنة التى ولد فيها ابنهما الثانى ادواردز، عرف منزل لنكولن اثارة النجاح السياسى ، فقد انتخب لنكولن فى شهر نوفمبر عضوا فى الكونجرس، وهو حدث كان يخطط له منذ سنوات، وعندما سمعت مارى من أحد الاصدقاء أن زوجها كان المرشح المحبوب فى

شرق الينوى ، قالت : « أجل.. انه محبوب فى كل مكان وسيكون رئيسا لامريكا فى يوم ما ، ولو لم أكن أومن بذلك لما تزوجته ، فهو غير وسيم كما ترى ، ولكن انظر اليه ..: ألا يبدو انه سيكون رئيسا عظيما ؟ »

وقد استغل بعض من كتبوا حياة لنكولن هذه العبارة وحدها للايحاء بأن زواج مارى من لنكولن كان نتيجة تقدير دقيق ، مع أن العبارة كانت مجرد تعبير مرح من زوجة تفخر بزوجها .

***

لم يعرف الكثير عن الشهور التى أمضاها لنكولن وزوجته فى أحد المنازل المؤثثة بواشنطون ولكن فى ابريل ١٨٤٨ كانت مسز لنكولن تزور أقاربها فى كنتكى وقد تبادلا الرسائل خلال تلك الفترة ، وكان كل منهما يحكى للآخر كل شىء وكأنهما يجلسان معا فى نهاية كل يوم وقد شكا لنكولن من أن الحياة أصبحت لاطعم لها ومارى بعيدة عنه ، وكتب يقول :

« اننى أكره البقاء فى هذه الغرفة العتيقة بمفردى » وكانت رسائل مارى تعرب عن حنينها اليه وحزنها الشديد لابتعادها عنه .

وعندما زارت اميلى تود ــ أخت مارى غير الشقيقة ــ آل لنكولن وظلت فى دارهم ستة شهور ، شاهدت كيف كانت مارى تترقب عودته الى البيت ، وكيف كانت تقابله احيانا عند البوابة حيث تتشابك ايديهما ، ويقبلان معا وهما يطوحان أيديهما..

ولكن انجاب الاطفال وعمل المنزل المرهق والصداع المؤلم ، بالاضافة الى غياب لنكولن الطويل ، بدأ يتعب أعصابها ، اذ كانت على الرغم من تهورها وجرأتها ، تعتمد كالطفل على قوة وهدوء الآخرين ، وكان زوجها يكفل لها هذه الصفات عندما يكون الى جانبها ... كان من السهل أن ينتابها الذعر الشديد عندما يدوى صوت الرعد مثلا ، وكان لنكولن عندما تبدو أول علامة على العاصفة يترك مكتبه ويسرع الى بيته ليهدىء أعصابها ، فقد كانت مارى سريعة الثورة وبدأت الآن تكشف عن اهتزاز عاطفى ، ولكن لنكولن كان يتقبل نوباتها الهستيرية بمرح وفلسفة هادئة ..

وقرب منتصف القرن ، تجمعت احداث مظلمة فى سماء آل لنكولن ، وهى احداث ساهمت ولا شك فى زيادة حالة مارى العصبية ، فقد توفى أبوها ، وتوفيت جدتها لامها وكانا من

اقرب الناس اليها ، وأصيب ابنهما الثاني الصغير « ادواردز » بمرض دام ٥٢ يوما مرهقا ، ومع ان ماري كانت ممرضة رقيقة مخلصة ، فانها كانت ايضا أما شديدة القلق ، لاتكاد تستطيع اخفاء عجزها عن السيطرة على عواطفها ... وأخيرا أغلقت عينا الطفل الى الابد فى صباح اول فبراير سنة ١٨٥٠

وتدفقت دموع ماري تملأ البيت، واصابها الذهول ، واخذت تشيح بوجهها عن الطعام ، اما زوجها المحطم فقد انتابته حالة انقباض حزين ، وكان ينحنى فوقها مناشدا اياها أن تأكل لتعيش ... لقد ترك موت الطفل جرحا لم يندمل فى قلبها ، وكان علامة بارزة على اهتزازها النفسى ..

وسرعان ما اصبح لبيت لنكولن المثكل طفلان آخران هما ، وليم ولاس لنكولن الذى ولد فى ١٨٥٠ وقد اكتسب صفات أبيه وشخصيته ، وأحب الوالدان ويلى الصغير حبا جما لانه جاء بعد موت أدى وكان ويلى ذا طبيعة هادئة محبوبة ، أما رابع الاطفال وآخرهم فقد ولد بعد ذلك بثلاث سنوات وقد ورث سجايا ماري من الاندفاع وحب المسرح ، وسمى « توماس» تيمنا باسم والد لنكولن وكان يطلق عليه دائما اسم « تاد » .

وكان للطفل رأس كبير لعل سببه اصابة الام خلال الولادة ، ولم يكن ثم علاج لمثل هذه الاصابات فى ذلك الحين .

ولعل العقد الخامس من القرن الماضى كان اسعد فترة فى حياة لنكولن وزوجته ، فقد استطاعا شراء عربة ، واستطاعت ماري استئجار خادم لمساعدتها فى اعمال البيت ، وكانت مشكلة العثور على الخدم عسيرة كما هى الآن ، ولم يكن آل لنكولن يتركان حفلة فى مسرح سبرنجفيلد الوحيد فقد كان الاثنان يحبان المسرحيات ، كما كان هناك الكثير من المآدب وحفلات العشاء الصغيرة التى يستضيفان خلالها بعض الضيوف فى كرم وود حماسي .

لقد انقضت أيام الفقر الاولى ، ولكن لم يكن معنى هذا ان المتاعب المالية قد انقضت ، فقد كان على لنكولن أن يسهم فى مساعدة أبيه وزوجة أبيه ، وكانت نفقاته السياسية فى ازدياد مستمر .. ولم تكن الثياب والاثاث والمظاهر تهمه ، ولكنها كانت شيئا مهما جدا بالنسبة لماري ، وقد أدى هذا الى اغراق لنكولن فى الديون .

وبعد عدة سنوات من انتهاء فترة عضوية لنكولن فى الكونجرس ، لم يكن هناك مايدعم تأكيد مارى المرح بأنها ستكون زوجة رئيس الجمهورية ، فان زوجها فى خلال السنوات الاولى من العقد الخامس كرس نفسه بهدوء للاشتغال بالقانون فى سبرنجفليد ، ولكن لنكولن كتب لصديق له فى ١٨٥٤ يقول :

« لقد عزمت على أن أحاول الحصول على عضوية مجلس الشيوخ » .

كانت مسألة الرق - الموضوع الذى مس شغاف قلبه - قد ازدادت حدة ، وقد اقتنع بالانضمام للحزب الجمهورى الذى يعارض امتداد الرق الى الاقاليم التى لم تصبح ولايات أمريكية بعد ، وقد لقى فى ذلك تأييدا من زوجته ، وكانت أسرة تود تملك بعض العبيد ، ولكن مارى كانت تشعر بعطف بالغ على كل الملونين المضطهدين ، وهناك دليل حاسم على انها كانت تشاطر زوجها موقفه حيال الرق طوال السنين .

واصبح لنكولن اكثر شهرة فى الحزب الجديد ، وفى يونيو ١٨٥٨ اختاره مؤتمر الحزب كمرشح لعضوية الشيوخ ، وفى خلال تلك الحملة ، نطق بالكلمات التى ذاع صيتها وهى :

« أن بيتا ينقسم على نفسه لا يستطيع البقاء . ولا أظن أن الحكومة تستطيع أن تتحمل بصفة دائمة نصف عبودية ونصف حرية » .

وفشل لنكولن فى انتخابات الشيوخ ، ولكن الامة التى تابعت الخطب المنطقية الفصيحة التى القاها محامى البرارى ، أصبحت تدرك أن هناك شخصا يسمى ابراهام لنكولن فى الينوى ، وسرعان ما ذاعت شهرته بسرعة تبهر الانفاس ، وفى مؤتمر الحزب الجمهورى القومى الذى عقد فى شيكاغو فى ١٨ مايو ١٨٦٠ ، انتخب لنكولن فى الاقتراع الثالث مرشحا لانتخابات رئاسة الجمهورية .

وقدر لمارى « المخلوقة المثيرة » أن تجد اثارة بعد ذلك فى حياتها اليومية ، فقد امتلأت الاسابيع التالية باجتماعات ضخمة كثيرة ، وطلقات مدافع الجمهورية تحية ، وكان على البيت البسيط فى سبرنجفيلد ان يواجه كثيرا من الحشود ، واصوات فرق الموسيقى والخطب والهتافات . .

كان الصحفيون يأتون الى سبرنجفيلد للحصول على احاديث ، والفنانون يسعون لتصويره وعندما سأله مخبر صحفى عما اذا كان لا يتبرم

لكثرة الزيارات والخطب ، أجاب لنكولن انه يحب أن يرى أصـــدقاءه ، أما بشأن الرسائل فانه يهتم بالرد عليها بعناية ، أما ضيقه الاكبر فانه يحس به تجاه الفنـــانين الذين يحاول عبثا أن يتعرف على نفسه من الصور التى ينشرونها له فى الصـــحف على انها لابراهام لنكولن !

وفى ليلة الانتخابات انتظر لنكولن مع فريق من أصدقائه بمكتب التلغراف ، وعندما وردت الانباء بأنه فاز فى ولاية نيـــويورك مؤكدا انتخابه ، تفادى الجماهير الحاشدة التى راحت تحتفل فى جنون متأثرة بالخطب التى القاها الخطباء المحليون ... لقد كان لديه شيء يجب أن يقوم به أولا : وقال وهو يتجه الى بيته : «اعتقد أننى يجب ان أذهب واخبر مارى بذلك ! »

***

كانت مارى الآن قد تمتعت بأكثر من ١٥ عاما من الحيـــاة مع لنكولن ببلدة صـــغيرة هادئة ، ولكن اسعد مراحل سنواتهما معا انتهت .. فلم تمر بعـــد ذلك فترة لم تواجه خلالها مارى الانتقادات والتهديدات، والقلق، والمرض والحـــزن ... كانت الامة منقسمة على نفسها ، وخلال التوتر غير العـــادى السائد يومئذ ، تحمل الرئيس المنتخب اهـــانات تفوق المعقـــول .. حتى الابتهاج بالنصر الذى تلا الانتخاب ، ساده الاكتئاب بعد الانباء التى وردت عن شنق دمية على صورة لنكولن فى بلدة «بنساكولا» بولاية فلوريدا ، وبعد بضعة أسابيع ، تلقت مارى من كارولينـــا الجنوبية صورة لزوجهـــا وحول عنقه حبل ، وفى قدميه الســـلاسل ، وقد لوث جسمه بالزفت والريش ، فـــكانت بمثابة كابوس للزوجة العصبية .

وعنـــدما اقترب وقت الرحيل عن سبرنجفيلد ، ازداد التوتر العاطفى ، فقـــد كانت مارى تحب صديقاتها وجيرانها القـــدامى حبا جما ، وكانت تعتز بحبهـــم اعتزازا شديدا ، وزاد انزعاجهـــا شائعات عن هجوم مدبر ضد لنكولن خلال رحلته الواشنطون ، وأصرت رغم اعتراضات لنكولن على مصاحبته فى هذه الرحلة سواء أكان هناك خطر أم لا ..

وفى صباح ١١ فبراير المطير ، وقف لنكولن على منصة القطار والقى آخر كلماته الخالدة على اصدقائه وجيرانه ، وعندما ختمها لم تكن هناك عين خالية من الدموع فى كل الجمع الحاشد ...

كانت الرحلة شرقا جولة انتصار ، فقد اصطفت الجمـــاهير الهاتفة على

جانبى الخط الحديدى الذى يمر به القطار .. وخلال فترات وقوف طويلة،كانت هناك خطب واستعراضات وحفلات استقبال ، ومصافحات لانهاية لها .

وفى واشنطون ، نزل آل لنكولن بفندق ويلارد حتى يوم التنصيب ، ومضت الايام المزدحمة المضطربة بسرعة حتى حان يوم ٤ مارس ، وفى ذلك الصباح قرأ لنكولن خطابه على الاسرة ، وتقول مارى فيما بعد انها سمعت صوت زوجها من غرفة مجاورة يرتفع مصليا .

كانت المدينة فى حالة توتر شديد، تخشى وقوع أعمال عنف، فقد وصلت أكثر من ٣٠٠ رسالة تهديد ، وقد اتخذ الجيش كل احتياط ، ووضعت أركان الشوارع تحت حراسة مسلحة واصطفت القوات على جانبى الشوارع أثناء مرور عربة الرئيس ، وصاح خصوم الغاء الرق قائلين : « هاهو قرد الينوى » فقال أحد الجماهير معقبا : « ولكنه لن يعود حيا » وتقول ابنة عم مارى ان بحر الوجوه المضطربة كان يمثل كل ألوان المشاعر : حقدا وعدم رضاء ، وقلقا ، واعجابا ، فى الوقت الذى كان لنكولن يلقى فيه خطابه .

وفى تلك الامسية أقيمت حفلة راقصة ودخل موكب الرئيس المرقص فى الساعة العاشرة والدقيقة ٤٥ مساء ، وانصرف لنكولن قبل الثانية عشرة والنصف بقليل ، وهكذا انتهى اليوم الخطير ، ولعل آل لنكولن استطاعا الراحة فى أول ليلة لهما فى البيت الابيض ، ولعلهما لم يتمكنا من ذلك ، ولكنهما ناما فترات قليلة فقط بلا انزعاج خلال السنوات التالية

***

وسرعان ما بدا أن العاصفة لم ترحب بالقادمين الجدد ، وأصبح من المعتاد أن يسمع المرء قصصا عن فظاظتهما المزعومة ، ونقص تعليمهما، وقوبلت مارى لنكولن بعداء من كل جانب ، ومع ان ثقافتها وتدريبها الاجتماعى كان عظيما ، فقد كانت ريفية لاتحب الحذلقة ، وكان هناك فرق فعلى فى العادات الاجتماعية بين ولايات امريكا الشرقية والغربية ، وكان مجتمع واشنطون الراسخ يستغل ذلك كثيرا وينظر اليها باحتقار ، فقد كان أبناء الجنوب يحتقرون زوجة الرئيس باعتبارها خائنة لقومها ،بينما كرهها كثيرون من ابناء الشمال لانها من الجنوب !

وقد تصدرت مارى مكانها برشاقة

وعزة باعتبـــــارها السيدة الاولى الجـــــديدة ، وكانت تتمتع بالجلد اللازم للوقوف والترحيب بصفوف لانهاية لها من الناس ، مبدية اهتماما رقيقا بكل منهم . وكان في استطاعتها أن تجلس خلال مأدبة عشاء رسمية لمدة أربع ساعات ، وتبقى على حيوية الحديث دون أن تهمل أي ضيف .

ولكن عيونا كثيرة غير صديقة كانت تتلمس لهـــا الاخطاء ... كان هناك ولا شـــك شعور بالغيرة من مركزها السـامي ، ووقفت ماري — التي اعتادت الاعتماد على جيرانها في البلدة الصغيرة — بلا دفاع كأنها طفلة بين نساء العاصمة المتآمرات عليها ، ذوات الأطمـاع الاجتماعية ، وكانت ماري نفســها تغار من النســـاء الاخريات اللواتي يتحدثن مع زوجها ، فقد كان حبها من النوع التملكي ، وكـانت رؤية سيـدة حسناء تداعب زوجها أمرا لاتستطيع تحمله ، وقالت لزوجها بعنف أنهـــا لا تستحسن تودده الى نساء حمقاوات كأنه فتى ترك المدرسة لتوه ! .

وقال لهـــا : ولكن يا أماه .. انني يجب أن اتحدث الى أي شخص . . فأنا لااســـتطيع ان أقف كالابله ، ولا أقول شيئا .

وهنـــاك أدلة قوية على أن لنكولن كان فخورا بزوجته في البيت الابيض ، وقد حــدث يوما ان كان يتحدث مع احدى السيدات خلال حفلة عنــدما لاحظت السيدة أن عينيه تتابعان مسز لنكولن في اهتمـــام ، وعندما ضبطته متلبســـا بذلك ، ضحك قائلا : «ان زوجتي لاتزال وسيمة كما كانت وهي فتــــاة وكنت يومها فقيرا لايعرفني أحد » .

***

وبعـــد تنصيب لنكولن ببضعة أســـابيع ، نشبت الحرب الاهلية . وخيمت على العاصـــمة كآبة تامة . لقد حاول لنكولن — الذي كان مصرا على انقاذ الاتحاد — أن يتفادى الحرب بكل وسيلة « كان يحمل احزان الامة كلها في قلبه » .. ولاحظت ماري التي تعرف لياليه المؤرقة ، تلك الخطوط العميقة التي تحفر نفسها حول فمه ، وحاولت أن تحمي صـــحة زوجها وترفع روحه المعنوية ، واصرت على أن يصحبها في نزهاتها اليومية بالعربة حتى تبعده عن العمل وتخرج به الى الهواء الطلق ، كمـــا كانت تدعو الى المائدة بعض الاصـــدقاء المرحين من محبي الضحـــك والتهريج وحكاية النوادر ، وساعدته بذلك على مكافحة

حالات الانقباض التى كانت تمر به ، وأصبح مثلها يتمتع بالخفة والنشاط ... كان يلجأ اليها دائما ليستريح، ويسعى الى غرفتهـــا للجلوس أو التمدد على الاريكة ، يقرأ أو يتحدث معها بضع لحظات .

وحاولت مارى أن تخفى عن لنكولن أيامها المظلمـة وصحتها التى تزداد سقما ، ولكن بعد ان ازدادت حالتها العصبية سـوءا ، وازداد احساسها بعدم الاطمئنـان ، توسل لنكولن الى احدى شقيقـاتها للبقاء معها للعناية بها .. كمـا كانت مارى ضـحية قشعريرة وحمى الملاريا التى أصابت الكثيرات فى تلك الايام، وكثيرا ما أصر لنكولن على ارسـالها شمالا خـلال الجو الحار ، وقد أظهرت البرقيات التى كانا يتبادلانها ان كلا منهما كان يحن للآخر عندما يفترقان ..

ولكن مارى لم تترك واشـنطون فى أوقات الخطرعندما كانت العاصمة مهددة بالسقوط بعـد هزيمة قوات الشمال فى « بول ران » ، وقد أصر جنرال من المقربين للرئيس على ارسال مسز لنكولن والاطفال شمالا وعندئذ التفتت مارى لزوجهـا قائلة : « هل ستذهب معنا ؟ »

فأجاب بسرعة : « لن أرحل بكل تأكيد خلال هذه المرحلة » فردت عليه فورا بقولها :

« لن أتركك اذن فى هذه المرحلة »

.. ولاحظ الحـاضرون كيف بدا الفخـر على لنكولن بقرار زوجته ، ولم يستطع الجنرال قط اقنـاعها بالرحيل بسبب الخطر .

كانت اقامة الولائم فى البيت الابيض عملية شاقة ، وكانت السيدة الاولى تنتقـد اذا أقامت حفلات اجتماعية عادية خـلال الحرب ، واذا لم تقمها لم تسلم أيضـا من الانتقاد ، وقد بدأ ذلك تمـاما عندما استبدلت مآدب العشاء الرسـمية الغالية بحفلات استقبال مراعاة للتوفير فى وقت الحرب وكانت حفـلات استقبال آل لنكولن تجمع بين الاناقة والازياء البسـيطة لمناطق الحدود ، وكانت هذه الحفلات أكثر ديموقراطية مما كانت فى العهود السابقـة ، تضم كل طبقة تمثل كل قطاع فى الدولة ، وكانت مسز لنكولن كزوجها رقيقة مع الكل على حد سواء

ولكن فى غمرة الحزبية المريرة خلال الحرب ، لم تستطع أن تحقق نجاحا تاما فى عملها ، ولو كان هناك نموذج من كل الفضـائل النسائيـة لما استطاعت أن تفعل ذلك ... وكانت شخصية مارى لنكولن تتضمن قائمة

من الديون ، والتهور ، وعدم الحرص ، والرغبة في التملق ، وعدم التعقل في مسائل المال والملتكات ، والضعف الذي أدى بها الى موقف من أحرج المواقف التي واجهتها امرأة ..

***

وتدخلت في المسائل السياسية دون تبصر ظنا منها أنها تساعد زوجها بذلك ، وكانت تعلم أن طيبة لنكولن كثيرا ما أدت الى فرض بعض الامور عليه ، كما كانت تستاء من المناورات السياسية التي تحيط به ، وكان وزير المالية تشيز ووزير الخارجية سيوارد موضع شبهاتها بصفة خاصة لان كليهما كان يطمع في رئاسة الجمهورية ... ولكن لم يكن لمقترحاتها أو مناقشاتها تأثير كبير على لنكولن ، وقالت فيما بعد : « كان رجلا حازما بصورة رهيبة ، لايستطيع رجل أو امرأة أن يؤثر فيه اذا عقد عزمه على شيء » .

ولكن اهتمام ماري بالسياسة أدى الى كثير من الكلام والانتقاد المؤذي ، وكان لعبا بالنار أن تكتب رسائل سياسية الى محررين ذوي خبث سياسيين ، كما كانت تفعل أحيانا ، وكان هذا السلوك من جانب سيدة في العقد السادس من القرن الماضي يعتبر أمرا يثير الذهول .

وثمة مصدر آخر أثار كثيرا من اللوم ، وذلك هو اعادة تأثيث البيت الابيض بمعرفة ماري . وكان آل لنكولن قد وجدا البيت الابيض في حالة يرثى لها ، حتى لقد وافق الكونجرس على اعتماد ٢٠ ألف دولار لتجديده ، وقررت ماري ان تجعل منه مثلا للجمال والبهاء ، ولا سيما أنها كانت متهمة بأنها من أبناء الولايات الغربية غير المتحضرين !

وتشير كثير من انباء الصحف الى الرحلات التي قامت بها الى فيلادلفيا ونيويورك في العام الاول لشراء ماتريده ولاشك أن التجار كانوا يطلبون أغلى الاسعار من السيدة الاولى التي تنفق أموال الحكومة وتدل الايصالات القديمة على انها اشترت أثاثا جديدا من خشب الورد ، وستائر ارجوانية وذهبية فاخرة لغرفة الاستقبال الرسمية ، وخزف هافيلاند الفاخر ، وتشكيلة كبيرة من أثاث آخر واقمشة غالية وسجاجيد من المخمل الخ .. وكانت عملية التجديد الشامل تكشف عن ذوق رفيع حقا ، ولكنها تجاوزت الاعتماد بحوالي ٦٧٠٠ دولار

وخشيت ماري ــ مثل كثير من الزوجات ــ أن تحدث زوجها عن

حماقتهـــا ، ومن ثم فقد استدعت بنيـامين براون فرنش مدير المبانى العامة ، وتوسلت اليه باكية أن يقنع الرئيس بأنه من العادى جدا تجاوز مثل هـــذه الاعتمادات لانه لايمكن ...ة كم تتكلف اعادة تأثيث المنزل بالضبط .. ويقـــول لنكولن فى مذكراته انه ثار غضبا على زخرفة هـــذا المنزل العتيـــق اللعـــين فى الوقت الذى لايستطيع فيه الجنود الحصـــول على أغطية . واقسم أنه لن يقر أى قانون لاعتمادات اضافية كذلك .. ولكن الكونجرس وافق فى النهاية على قانونين لسد هذا العجز .

***

كانت أسرة مارى هى أساس حياتها كلها ، وكان أهـم أدوارها فى البيت الابيض ــ كما كان فى سبرنجفيلد ــ هو دورالزوجة والام الوفية المحبة .

كان الابن الاكبر روبرت بعيـــدا فى جامعة هارفارد خلال أغلب سنوات رئاسة أبيه للجمهورية ، بينما ردد ذكر «ويلى» و «تاد» كثـــــــيرا فى السجلات عندما جاءا الى واشنطون، وكان الاول فى العـــاشرة والثانى فى السابعـــة .. ولكى تكفل لهما مارى طفولة طبيعية سعيدة، شجعت ابنى القـــــاضى هوراشيو نافت « باد » و « هولى » على التردد على البيت الابيض للعب مع طفليها ، فكان هذا الرباعى من الاولاد يهيمون فى البيت من اعلاه الى أسفله دون رادع ، وقد جعلوا منه ميدانا للقتال واللعب ..

كان أطفال لنكولن مدللين الى حد أفسدهم ، وكانوا يؤخذون الى أماكن كثيرة غير مناسبة لسنهم .

كان «تاد» غلاما بهى الطلعة يفيض مرحا . يشـــبه أمه فى حدة ذهنه واندفاعـــه ، وكانت مارى تحبه حبا جما وقد كتبت تقول انه كان «شعاع شمسها الصغير المثير للمتاعب » ، أما ويلى فقد وصفته بأنه كان «ذكيا، مرهف الحس ، حلو الشمائل ، رقيق الطباع » وكان ابنها المفضل وموضع سلواها ، وقد وهبت كل قلبها لهـــذا الابن الذى كان يشبه أباه كثيرا .

وفى فبـــراير ١٨٦٢ أصيب ويلى بمرض خطير ، وظن الطبيب فى البداية أنه يتقدم بصورة مريحة ولكن حالة الولد ازدادت سوءا ذات ليلة ، خلال حفلة اجتماعية مهمة ، كانت الدعوات قد وجهت اليها منذ وقت بعيد .. وأخذ الرئيس وزوجتـــه يستقبلان ضيوفهما بوجوه قلقة ، وكل افكارهما فى الطابق الاعلى مع « ويلى » الذى يحترق بالحمى ، وفى مرات كثيرة ،

كانت مسز لنكولن تترك الحفـــل وتصعـــد الى أعلى لتمسك يد الغلام الملتهبـــة برهة من الوقت ، وترقب أنفاسه المجهـــدة بقلب مثقل بالالم ، فاذا عادت الى الحفل ، التقت عيناها بعيني الاب في سؤال صامت قلق ..

ومضت الايام ثقيلة متبـــاطئة ، وتقول الصحف أن ويلي كان مصـــابا بالحمى الصفراء ، وفي ١٧ فبراير ، قالت الصـــحف أنه « مريض بمرض ميئوس منه » ، ومنذ ذلك الحين لم تغادر مسز لنـــكولن فراش ابنها ، واصيب « تاد » بنفس المـــرض ، فتضاعف قلق الابوين .. وفي منتصف ليلة ٢٠ فبراير مات ويلي .. ونظر الاب الذي شوه الالم ملامح وجهـــه الى وجه ابنـــه المسجى على فراش الموت ، وحاول أن يعرب عن قبوله لارادة الله ولكن صـــوته انطلق بهذه الصيحـــة المثيرة للرثاء صيحة الاب المثكل خلال العصور .. : « لقد كنا نحبه كثيرا » .

وكانت الأم المرهفة الاعصاب ، عنيفة في ألمها ، فقد أدت رؤية وجه الطفل الابيض الى اصابتها بنوبات تشـــنج رهيبة ، كانت تظل خلالها راقدة في ذهول منبطحـــة على فراشـــها ... وشيعت جنازة ويلي في يوم هبت فيه عاصفة عنيفة اقتلعت الاشجار وأطارت السقوف وأسقطت الابراج وبدا كأن الطبيعة تشارك الام - التي لم تستطع حضور الجنازة - في حزنها ..

ولزمت ماري الفراش عشرة أيام ، كما اعتكفت بعد ذلك أياما عديدة في غرفتها وقد هدها الحزن العنيف .. لم تستطع أن تواجه المأساة أو تسيطر على نفســـها لتقـــوم بمطالب « تاد » (الذي تحسن حاله لحسن الحظ وتجاوز مرحلة الخطر) .. أما لنكولن الذي كان يتقبل نوبات زوجته الهستيرية بفلسفة باعتبارها « نوبات عصبية » فيبـــدو أنه أدرك الآن أنهـــا نوبات يشـــوبها مرض عقـــلي وخلال احـــدى نوباتها الشديدة طلب اليها أن تسيطر على أعصابها والا اضطر الى ارسالها الى مستشفى للمجانين !

وكان لنكولن نفسه يصاب بحالات لا تطاق من الانقباض النفسي جعلت ماري تنزعج بدورها على زوجهـــا ، ولكن الرئيس بايمـــانه العميق وقوة شخصيته استطاع أن يتغلب على حزنه ويمضي في أداء واجباته التي لا تنتهي ، أما ماري فانها لم تشف قط من هذه اللطمة ، وكانت تبكي بعد ذلك على أشياء تتعلق بويلي ، ولم تدخل غرفة الضيوف ذات الستائر الارجوانيـــة

التي مات فيها أو الغرفة الخضراء التي حنطوا جثمانه فيها ...

***

وكما أن الحـرب زادت سرعة ، زادت حملة الاهانات والشـائعات ، وكـانت تزداد مرارة كلمـا توالت المعارك وزاد عدد القتلى والجرحى ... ولم تشفق الألسن المعادية والصحف على السـيدة العليلة التى تبكى فى البيت الابيض ، وانتقـدت الصحف الحفلة الكبرى التى أقيمت فى فبراير خـلال مرض « ويـلى » واعتبرتهـا استهتارا ، وفرحا غير لائق خـلال مأساة الحرب وحرمانها ، وزاد الامر سـوءا أنه أشـيع أن مسز لنكولن كانت ترسل معلومات سرية لأخيها الذى يعمل فى صفوف الثوار ..

ووسط كل هذه الاهانات العلنية، كانت مارى تغضب بسرعة من النقد وتراكم السخط والحزن على قلبها .. وازدادت آلامها عندما جاءت الانباءفى ابريل عن مصرع أخويها غيرالشقيقين فى معركة حربية كانا يقاتلان خلالها فى صفوف الجنوب ، واضطرت مارى الى البكاء سرا فى فراشها كل ليلة ، حتى لا يعتبر حزنها عليهمـا خيانة للشمال !

وكان هناك شيئان يساعدانها فى محنتها : حاجة لنكولن اليها ، وعملها بين جرحى الجنود ، ففى يونيو من عام ١٨٦٢ الكئيب ، كانت مارى تقوم بجولات يومية تقريبا فى المستشفيات كلما سمحت الظروف ، توزع الفاكهة والزهور والحلوى التى أعـدت فى مطبخ البيت الابيض ، وكانت تتحدث مع المرضى برقة وتغمرهم بعطفهـا وحنـانها .. ولم تكن تلك مهمـة سهلة ، فقد كانت ترى مشاهد تمزق قلبها الرقيق المثخن بالآلام ، كمـا كانت زياراتهـا تتضمن المخـاطرة بالاصابة بالعـدوى والاوبئة ، وقد واصلت خدماتها للجرحى طوال الحرب وقالت احـدى الصحف أنهـا كانت تساهم من جيبهـا الخاص للتخفيف من آلام الجرحى .. ولـكن هـذا التعقيب كان استثناء ، فان بقيـة الصحف كانت تلومهـا على اهمـال الجرحى ، بسبب تجنبها الظهور علنا أمام الجمهور بعد موت ويلى

وأصبحت حفـلات البيت الابيض التى كانت تفيض بهجة ، موضـع ازدراء مارى ، وقد أوقفت اقامتهـا لمدة عشر شـهور بعد موت ويلى

***

وفى يوليـو ١٨٦٣ اصيبت مارى بحادث خطير عندما سقطت من العربة

على الارض بشدة ، فارتطمت مؤخرة رأسها بصخرة حادة ، ولزمت الفراش ثلاثة أسابيع ، كما قضت أغلب الصيف مريضة بسبب اشتداد الحرارة ، والانباء العسكرية السيئة، وفى الخريف تحول البيت الابيض الى مستشفى للجدرى، حتى الرئيس نفسه أصيب بعدوى المرض .. وقال يومئذ : « دعوا الراغبين فى أن يعملوا ضباطا يأتون الى ، فان عندى الآن شيئا أستطيع أن أعطيه لهم جميعا»

وفى ديسمبر، زارت أميلى- شقيقة مارى الصغرى - البيت الابيض ، وكان زوجها الضابط فى جيش الجنوب قد قتل حديثا فى معركة ، وكان هناك حب عميق متبادل بين الاختين ، رغم انتماء كل منهما لقوات مختلفة .. وقد جاء فى مذكرات أميلى أن مارى فى خلال حزنها العميق كانت تحتضنها وتقول لها : « قبلينى يا أميلى وقولى انك تحبيننى !.. يبدو أننى كبش الفداء للطرفين : الشمال والجنوب» وفى مناسبة أخرى هتفت تقول : « أواه يا اميلى .. لن نستيقظ أبدا من هذا الكابوس الشرير !»

وقد رحب لنكولن أيضا بزيارة اميلى رغم أنه كان يعلم أن وجود أرملة ضابط جنوبى « عدو » فى البيت الابيض غير مناسب من الناحية السياسية .. قال لها : « انك ومارى تحبان بعضكما البعض، ومن مصلحتها بقاؤك معها » .. وعندما رحلت قال لها : « أرجو ألا تشعرى بأية مرارة أو أننى مسئول عن كل هذا الحزن بأية صورة ، وطوقها بذراعيه وبكيا معا .

وكان عام ١٨٦٤ أشق الاعوام على مارى لأن لنكولن كان يحمل على كاهله عبء آلاف الاشياء القاسية المحيرة ، فقد كان عليه أن يعيد ترشيح نفسه للرئاسة ، وكانت الحرب لا تسير كما يجب وفى يوليو كان جيش الجنوب قد اقترب كثيرا حتى أصبحت مدافعهم التى تطلق على فورت ستيفنس تسمع بوضوح فى البيت الابيض ، وباتت العاصمة فى خطر السقوط لمدة ثلاثة أيام ..

وعندما ذهبت مارى مع لنكولن الى فورت ستيفنس ، كاد الرئيس يصاب عندما فتح الجنوبيون نيرانهم الحامية عليها فأصابوا الرجل المجاور للرئيس فى فخذه ، وأثار ذلك الرعدة فى قلب مارى

وبدت احتمالات اعادة انتخاب لنكولن كئيبة جدا مما زاد عصبية مارى وعدم ثباتها ، وقد زاد تهورها

المالى منذ وفاة ويلى ، حتى ازدادت غرقا فى الديون ، ولم يكن لنكولن يعرف شيئا عن ديونها ، ولكنه اذا هزم فى الانتخابات فان الفواتير سترسل اليه وسيعرف كل شىء .. كما قالت هى لصديقة موضع ثقتها .

وقد جعلها احساسها المستمر بعدم الاطمئنان تعتقد أن الاشياء الغالية قد تصلح كنوع من التأمين اذا أصبحت فى حاجة ، ومن ثم استخدمت اسمها كزوجة للرئيس فى شراء الثياب والحلى والفراء حتى تراكمت الديون عليها ، وباتت مهددة بأن يعرف الحزب المعارض نبأ هذه الديون ويستخدمها ضد زوجها ، وقد زادها هذا الاحتمال خوفا وقلقا ، ومن هذا الجنون تسلطت عليها فكرة أسفرت فيما بعد عن ثمرة مريرة ، فقد قالت أن السياسيين الجمهوريين يجب أن يدفعوا ديونها فان المئات منهم أصبحوا أغنياء بفضل زوجها ومن العدل أن يساعدوها فى الخروج من هذا المأزق ... ورسخ هذا المنطق المنحرف فى ذهنها ، وورطها فى موقف تعس ، وهنالك دلائل على أن السياسيين دفعوا فعلا بعض ديونها دون أن يعرف لنكولن .

وحتى بعد أن انتهت حملة التوتر والمرارة وأعيد انتخاب لنكولن ، ظلت مارى يساورها القلق دائما ، خوفا على زوجها وقالت لصديقة لها أنها كانت تتمنى لو انه لم يفز بالرئاسة لانها تخشى ألا يبقى خلال السنوات الاربع التالية ، وشاطرها لنكولن تساؤلها وقال لمسز هارييت بيتشرستو مؤلفة قصة « كوخ العم سام » « لن أعيش أبدا لأرى السلام .. ان هذه الحرب ستقتلنى » .

وفى مارس ١٨٦٥ كشف حفل التنصيب عن بشير بالامل ، فقد بدأ فجر اليوم مظلما مطيرا ولكن ما أن تقدم لنكولن لالقاء خطاب الافتتاح حتى تبددت الغيوم وأضاء شعاع الشمس وجهه فجأة وفسر كثيرون من الجمهور هذه الظاهرة على أنها بشير بالسلام

وتلقى لنكولن فى نهاية الشهر دعوة من الجنرال جرانت لزيارة مقر قيادته فى « سيتى بوينت » بولاية فرجينيا ، ورحب لنكولن بالدعوة اذ كان النصر يبدو فى الافق ، كما أن ابنه روبرت كان ضابطا فى أركان حرب الجنرال جرانت ، ولكن الرحلة تميزت بحادثة مؤلمة كشفت حالة مارى العقلية ففى خلال استعراض لنكولن للقوات التى يقودها الجنرال ادوارد أورد ، وصلت مارى متأخرة

بعد بدء الاستعراض ، فشاهدت زوجة الجنرال أورد الجميلة تركب جوادها الى جوار الرئيس فى الموكب وظنها بعض الجنود قرينته ، فاستولت الغيرة العنيفة على قلب مارى ، وحاولت زوجة الجنرال جرانت تهدئتها عبثا. وعندما جاءت زوجة الجنرال أورد لتقدم اليها تحياتها ، انهالت عليها مارى بسيل من الاهانات التى جعلت السيدة المسكينة تنفجر باكية، وظلت مارى كذلك طوال اليوم، وقد تخيلت أشياء لا وجود لها وأحرجت لنكولن فى حضور الآخرين ، وحاول الرئيس وعيناه تفيضان ألما أن يهدىء روعها متحدثا اليها برفق ، وعندما سئل فى اليوم التالى عن صحتها ، اكتفى بقوله أنها ليست على مايرام ••• وكانت كذلك حقا ••

وقبل أن يعود لنكولن الى واشنطون، كانت ريتشموند قد سقطت فى أيدى قوات الشمال ، وبدا واضحا أن الحرب الطويلة تقترب من نهايتها ، وبينما كان عائدا مع مارى الى واشنطون على طول نهر جيمس مرا بمدافن ريفية قديمة يسودها الهدوء وتنمو فيها زهور الربيع مبكرة ، واجتذبهما هدوؤها ، فترجلا من العربة وسارا معا بين القبور ، وقال لنكولن :

« مارى •• انك أصغر منى سنا ، وسوف تعيشين بعدى ، وعندما أرحل أرجو أن تدفنى جثمانى فى مكان هادىء كهذا •• » ولابد أن هذه الكلمات قد نفذت فى قلبها وظلت تخاف دائما على حياة الرئيس •

وفى احدى الليالى عكرت صفو نوم لنكولن أحلام غريبة، جعله أحدها فى حالة انقباض عميق ، وقد تحدث عنه فقال أنه حلم أنه سمع بكاء فى أنحاء البيت الابيض فهبط الى الطابق الاسفل وسار حتى بلغ الغرفة الشرقية الكبرى، وهناك رأى نعشا يحوى جثة ترتدى ثياب الجنازة بينما وقف بعض الجنود لحراستها والناس يبكون •• وسأل لنكولن عمن يكون الميت ، فقيل له : « انه الرئيس فقد اغتاله قاتل » •• وأدت الصدمة التى أحس بها الى استيقاظه ولم ينم بعد ذلك فى تلك الليلة »

وذكر لنكولن الحلم لزوجته وصديقه « وارد هيل لامون » فسرت الرعدة فى قلب مارى ، ومع أن لنكولن حاول أن يهزأ من هذا الحلم ، فان مارى لم تنسه قط ••

***

وفى يوم الاربعاء ١٢ ابريل ١٨٦٥، بعث لنكولن رسالة حب الى زوجته،

يذكرها بالساعة التى سيتنزه فيها معها بالعربة يوم الجمعة ١٤ ابريل .. وفى ليلة الخميس شاهد لنكولن حلما آخر ، رآه عدة مرات ، وكان يراه قبل بعض المعارك الخطيرة مباشرة ، وفي اليوم التالى قال لوزرائه أنه يعتقد أنه مقدمة لحدث هام ، وقد رأى نفسه في هذا الحلم يركب سفينة فريدة فى نوعها وأنها تسير بسرعة بالغة نحو شاطىء غير محدود .

وفى يوم الجمعة كان لنكولن سعيدا فى العربة التى أقلته مع مارى وراح يحدثها عن مستقبلهما ، فقال أنه عندما تنتهى مدة الرئاسة سوف يأخذ الاسرة الى أوربا ، ومنها الى كاليفورنيا ثم يعود ليشتغل بالمحاماة ، وعادا الى البيت لتناول العشاء قبل توجههما الى مسرح فورد فى تلك الليلة .

وأرادت مارى الاعتذار لألم فى رأسها كالعادة ، ولكن لنكولن أقنعها بالذهاب معه .

وفى المقصورة التى يكسوها العلم الامريكى بمسرح فورد ، جلس لنكولن فى مقعد كبير هزاز ، وكانت مارى ترقبه مسرورة وهى تراه متمتعا بالرواية ، وفى الفصل الثالث وجدت مارى نفسها تلتصق بزوجها وتتطلع الى وجهه ، وعندما لاحظت أن ذلك قد يلفت نظر الآخرين قالت له برقة : « ماذا تظن مس هاريس من تعلقى بك هكذا ؟ » (وكانت مس هاريس ضيفة فى مقصورتهما) فقال لنكولن : « لن تظن شيئا » .. وابتسم لها فى حب .. وكانت تلك آخر كلماته !

كانت يد مارى فى يده عندما انطلق صوت رصاصة مسدس، وبعد لحظة كشفت صرخاتها المؤلمة للناس عما حدث .. ثم أغمى عليها !

لقد وقعت أخيرا الواقعة التى ظلت تخشاها منذ أمد بعيد .. وفى المنزل عبر الشارع ، حيث رقد الرئيس المحتضر ، انحنت مارى المخبولة فوقه وغطت وجهه بقبلاتها وأخذت تناديه بأعز الاسماء ، متوسلة اليه أن يأخذها معه .

لقد انتاب الحزن العالم كله لوفاة لنكولن ، ولكن خلاصة هذا الحزن كله كان فى قلب هذه الارملة المريضة المحطمة التى أصيبت هى الاخرى بجرح قاتل ..

هكذا انتهى كفاح لنكولن وبلغت سفينته الغامضة بر الامان، وعلى مارى أن تخوض العباب وحدها وسط الظلام والعاصفة .. ومنذ موته ظلت رغبتها الوحيدة أن « تستريح الى جوار زوجها العزيز » ..

ولكن الوصول الى هـذا الاتجـاه تطلب ١٧ عاما أخرى.. أعواما مليئة بأنواع قديمة وجديدة من العذاب . ومنذ غادرت الارملة المسكينة المتشحة بالسواد البيت الابيض فى ذلك اليوم من مايو ١٨٦٥ ، لم تعـد قط الى سبرنجفيلد خوفا من أن تعود اليهـا ذكرياتها القـديمة ، وأمضت فترة قليـلة فى شـيكاغو فى عزلة تامة ، ومع ذلك فان هذه العزلة لم تحمهـا من الاهانات التى ظلت تنهـال على رأس أرملة لنكولن طوال حياتها .

وقد ترك لنكولن ثروة تزيد على ١١٠ آلاف دولار ، وزعت بالتساوى بين مارى وولديها روبرت وتاد وبعد حوالى خمس سـنوات من موته وافق الكونجرس بأغلبية مهينـة على منحها معاشا سنويا قدره ٣٠٠٠دولار ولكن ذهنها الذى أصابه الذهول والخبـل جعلها تقدم على أعمال غير معقولة لم يفهمها الجمهور أو يغفر لها ..

وفى مايو ١٨٧١ مرض « تاد » ، وتوفى فى الاسبوع الثانى من يوليو .. وللمرة الرابعة فى حياتها ، رقدت مارى لنكولن وقد استولى عليها الحزن لخسارتها التى لاتعوض فى « تاد » .. ولم يبق لها من تحب غير « روبرت » الذى لم تكن علاقتها وثيقة به قط..

وبلغت مأساتها الذروة بعـد أربع سنوات ، عنـدما أقام عليهـا روبرت دعوى اثبات جنون بسبب تصرفاتها المالية التى أضاعت ثروتهـا ، وصدر قرار المحلفـين بايداعهـا مستشفى المجانين ..

وبعد عام رفع القـرار ، وأمضت أغلب الوقت الباقى لها فى أوربا ، مع ذكرياتها وآلامهـا وعنـدما عادت أخيرا الى سبرنجفيلد ، حيث دار آل ادواردز التى خلفتهـا منـذ ٤٠ سنة كزوجة لابراهام لنكولن ، قبعت فى مقعدها عاجزة وراء أستار مسدلة ..

وفى ١٦ يوليو ١٨٨٢ توفيت مارى لنكولن ودفنت الى جوار زوجها

وهكذا انتهت سـنوات الشـقاء ، وارتاحت مارى لنكولن أخيرا ..

قاعدة ذهبية !

القاعدة الذهبية عندما تقرأ قائمة الطعام التى تقدم لك فى المطعم : ((اذا لم تستطع نطق اسم الصنف .. فانك لن تستطيع احتمال ثمنه !)) .

فاذا كانت هناك رسالة ، أشرق وجهه .. وذات يوم جاءت رسالة من ايللا ماى تقول أنهـا قادمة لحضور مرقص الربيع ، وفى أول ساعة بعد وصول الرسالة ، كان مارك يتصرف وكأنه صبى يركب دراجة لاول مرة دون أن يمسك ذراعيها بيديه ، ولكنه ما لبث أن تراخى لغير ما سبب ظاهر .

وقلت له :

ـ انك تبدو منقبضا كمن سمع شيئا لا يحب سماعه .

فقال فى يأس يجب ان ابرق لها حتى لا تحضر يا مسز (ف) .

وظننت انه سيكون مشغولا فى دراسته بسبب نجاح احدى تجاربه العلمية فى زراعة الجراثيم ولكنه قال :

ـ اننى لا أستطيع ان ارقص .

فقلت وانا اتذكر حديثها فى ضوء القمر :

ـ ان ايللا لن تهتم بذلك ابدا .

ـ بل انها ستهتم دون شك .. ان فتاة مثلها لا تريد الحضـور للجلوس فقط .

فقلت : هون عليك يا مارك .. ان بو سيحل هذه المشكلة .

قال : هذا ما اخشاه .

ـ أعنى انه سيعلمك الرقص .

وفعلا كرس « بو » كل اهتمامه لتعليم مارك الرقص ، ولكنه بعد ثلاث ساعات جاءنى والقلق باد على محياه وقال :

ـ سيدتى .. لقد جربت كل شىء أعرفه ، ولكن لا امل فى مارك .. انه متصلب كالخرسانة من عنقه الى قدمه

قلت : لا أعتقد أن المسألة بهذا السوء يا بو

ـ بل انها لكذلك .. ولكن لعل السبب هو اننى شاب مثله .. فهل تعتقدين يا مسز (ف) انك تستطيعين المحاولة بنفسك ؟

ـ أننى مشغولة يا بو ، كما ان رقصاتى عبارة عن الفالس والفوكس تروت ..

وظل يلح على بعد أن أفهمنى بطريقة ما اننى لست عجوزا الى هذا الحد ، حتى وافقت على القيام بالمحاولة .. واستطاع جو أن يعثر على بعض نوت الموسيقى بقسم الموسيقى بالكلية ..

ومضينا جميعا الى البدروم .. وهناك قال ديفيد :

ـ لم أكن أعرف انك تستطيعين الرقص !

كانت أصابع جو تتعثر على مفاتيح البيانو وهو يعزف الاغنية ، ولكن

صوتى كان يبدو رغم اضطرابى وكأنه صوت مطربة محترفة ..

وقلت لمارك : عندما ترقص ، انظر من فوق كتف زميلتك اليمنى .

فسألنى ديفيد : وكيف يستطيعان التحدث معا اذن ؟

فقال جو : انهم فى الايام الخوالى كانوا يرقصون فقط يا دبفيد .

واستأنفت حديثى قائلة :

ـ يجب أن تسير قدماك فى اتجاه عينيك ، واذا نظرت أمامك راسا فان قدميك سوف تبقيان فى اتجاه صحيح مع قدمى شريكتك فى الرقص

فقال مارك فى تواضع : سأحاول تذكر ذلك يا مسز (ف) .

وأخذ بو وديك ودبفيد ينظرون بلب مخلوب وكأنهم يشهدون رقصة قبائلية قديمة ..

اما مارك فكان يمنحنى كل انتباهه وكأنه منوم مغناطيسيا وقد تصلب جسمه ..

ثم قال فى تعاسة :

ـ اننى لا استطيع اداءها .

قلت : دعنا نحاول من جديد

ـ ربما نجحت لواننى سرت وحدى

وسرعان ما أدرك الجميع انه لن يستطيع تعلم الرقص .. وأخيرا اختفى « بو » ثم عاد بسرعة ومعه فتاة قال انها تستعد للعمل راقصة محترفة .. كانت ترتدى بنطلونا ضيقا أسود اللون وسترة صوفية سوداء ، وكان فمها الاحمر كثمرة الشليك وفى عينيها نظرة من تعرف كل شىء ، ولكن شعرها الذى يشبه المشمش والذى ينسدل على ظهرها هو الذى جعل كل العيون مثبتة عليها

واذا كان مارك مترددا من قبل ، فقد اصبح الآن فى حالة رعب بعد أن اتجهت نحوه وهى تتمايل وكأنها تدربت اساسا فى مزرعة لتربية الافاعى ..

كان جو لا يزال يعزف على البيانو .. وفى صوت كالمخمل المتموج قالت الفتاة :

ـ الا تستطيع أن تعزف غير هذه النغمة التى تحتك فيها البطون ؟

فتحول جو فى ابتهاج الى نغمة ساخنة جديدة .. وقال « بو » :

ـ انتظرى يا « آمى » .. ان كل ما يريده هو أن يتعلم كيف يسير بفتاة الى الوراء ..

فقالت وهى تغمز بعينها فى اغراء !

ـ حسنا .. سر بى الى الخلف يا فتى .

وحدق فيها مارك وكأنه نائم ، ولكنها سرعان ما جعلته يسير معها

الى الوراء ، والى الجانبين ، ولا يؤدى بنفسه غير خطوات التفاف قليلة ، وكان أى شىء يفعله تتبعه هى دون جهد .. وقال مارك فى تعجب :

ـ انظرى يا مسز (ف) .. اننى أرقص !

وجاء طلبــة آخرون اجتذبتهم الموسيقى وبدوا فى الرقص أيضـا ، وأصر فتى منهم أحمر الشعر على أن يعلمنى رقصة التويست !

زهرة الماجنوليا

بدا من العار بعد كل هذا الجهدان ترسل ايللا ماى برقية تقول فيهـا انها لن تسـتطيع الحضور ، وفى أعقاب البرقية ، وردت رسالة مـع رسول خاص ، ولـكن وجـه مارك الشاحب لم يشجعنى على توجيـه أسئلة اليه عن محتوياتها .

وفى الليلة التى رحل فيها ديك ، وجو ، وبو ، جاء مارك الى غرفة الجلوس والقى بنفسه على الاريكة ، بينما انهمكت أنا فى حبك الصوف الذى فى يدى .. وأخيرا انفجر قائلا :

ـ الا ترين انها خدعة قذرة من أسرتها ، أن تنتظر حتى آخر لحظة لكى تقول انها لن تستطيع الحضور لمجرد انها تدين بدين آخر ؟

فقلت له :

ـ اننى آسفة يا مارك ، ولـكن لعلهم يفعلون ما يعتقـدون انه فى مصلحتها .

فقال فى ألم : انها فتاة رائعة يامسز (ف) ، وهى لا تسـتطيع أن تعصى أوامر أسرتها ، ولكننى على استعداد للذهاب من أجلها الى الصين .. بل اننى مستعد لان أعصى والدى .

قلت : مارك .. قـد يكون من الافضل أحيانا أن نوقف هذه الاشياء فى البداية

ـ لن تقف أبدا فيما يتعلق بى

ـ ما رأيك فى بعض القهوة والكعك ؟

وأحسست اننى أعامل مارك كأنه ابنى ديفيد ، ولكن لم تكن عنـدى ، فلسفة جاهزة تناسب هذا الموقف ..

وعاد يقول فى قلق :

ـ اننى لست جائعا .

وفى تلك اللحظـة ، دق جرس التليفون ، وأسرع مارك اليه .. ثم هتف غير مصدق :

ـ انها ايللا ماى !

وقالت الفتاة : لقد غير ابى رأيه ، ولم يكن هنـاك وقت لكى أخبرك بذلك ..

ودون أية كلمة ، أنزلت أنا ودبفيد حشية القطن من غرفة السـطح ، ووضعتها فى غرفتى ..

وقالت ايللا : شكرا جزيلا لك .. أرجو أن تبقى معى وأنا أبدل ثيابى .

وبقيت معها .. واخذت ايللا تتحدث معى وتقول :

ـ عندما قال ابى اننى لا أستطيع الحضور ، قلت له انه لا حق له فى معاملة هذا الفتى كأنه اجنبى دخيل، فهو امريكى ظريف وان اختلف دينه عنا .. واخيرا قال ابى انه يسمح لى بالحضور للرقص فقط ، ولكنه لن يسمح لى بالزواج منه ، فقلت له ان مارك لم يطلب ذلك منى بعد .. ولم تذكر شيئا امى عن ذلك ، ولكن ابى كان يقف فى صفى .

ولابد انه ظل فى صفها ، فان المال الذى أرسله اليها خلال السنة الدراسية كان كافيا لان يجعلهاتدور مرتين حول العالم .. وذكرت ذلك لبو فقال :

ـ ان والد هذه الفتاة غنى جدا .

ـ ولماذا تركتها تفلت منك يا بو ؟

ـ هذا شىء مكتوب على .. ان الناس يتصرفون خلال الازمات بوحى الغريزة كما تعرفين .. واذا لم يكن عقلى الباطن قد خدعنى ، لكنت لاازال ازعم لنفسى اننى احب « ايللاماى » ومالها .. وعلى اية حال فان مارك يناسبها اكثر منى .. هل تعرفين يامسز (ف) أن هذه الفتاة الرقيقة التى تبدو وكأن هبة ريح كفيلة باطارتها صلبة كأسلاك البيانو :

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ من أشياء صغيرة .. فهى ترتدى دائما ساعات ذات ميناء مضيئة ، حتى تستطيع أن تعرف الوقت مهما كانت الدنيا ظلاما ، وقد لاحظت أن وجهها يزداد اخضرارا اذا ذكر احد أمامها نكتة مكشوفة ... ولكن مارك سيعاملها وكأنها زهرة ماجنوليا .

لمسة شرقية

فى اواخر ابريل ، احضر «بو» الى البيت صديقا يابانيا، وبعد أن أجلسه فى غرفة الجلوس تبعنى الى المطبخ وهمس يقول : انه عبقرى :

فقلت : لماذا لا تقدم له قدحا من القهوة !

ـ انه لا يشرب غير الشاى يامسز (ف) .. فهو اينشتين يابانى .

فقلت شاردة الذهن : حسنا ..

وشعرت بالاسف لأننى القيت فى اليوم السابق بعلبة شاى شرقى كانت عندى منذ ثلاثة أعوام ، ولم استطع أن أقدم له الا نوعا محليا من الشاى .

وعاد بو يقول : انه اقرب الى

البرت شفايتزر فعلا منه الى اينشتين .. ولعلك لا تمانعين فى بقائه هنا بعض الوقت يا مسز (ف) .

فصحت قائلة : هذا العبقرى ؟.. ليست لدينا الآن اية غرفة .

فقال متوسلا : الليلة فقط سيبقى فى البدروم .. انه يمر بوقت عصيب، اذ ان صاحبة البيت الذى يقيم فيه ترفض السماح له بالطهى ، مع انه لا يطيق الا الطعام اليابانى .

قلت : مستحيل .. هذا شىء لا يمكن بحثه .

فاستمر بو يقول : سيقيم الآن فى البدروم ، ولن يعترض احد منا على طهيه .

قلت : أنا التى سأعترض .. فاننى أعتزم اعداد غرفة خاصة لى أعتكف فيها فى يوم ما عندما يمكننى ذلك .. فضلا عن أن أحدا لا يستطيع أن يعيش فى هذا المكان المنخفض ، فالدنيا ما زالت باردة ليلا ، وليس فيها أى أثاث أو تدفئة .

— ان لديه « فاتون » خاصة به للنوم ، كما أن لديه وسائد وموقدا للفحم ، ولن يثير لك أية متاعب

فقال ديفيد :

— ان كلمة « فاتون » معناها حشية باليابانية . أننا ندرس اليابانية فى المدرسة .

وأعددت الشاى ، وذهبت الى قاعة الجلوس للانضمام الى العبقرى وقلت له فى أدب :

— مساء الخير

فقال وهو يحنى راسه :

اننى أدعى توكوجاوا ياسوموتو

وقال ديفيد :

— وأنا ديفيد .. وهذه امى .

وعاد ياسوموتو الى الانحناء ، ثم جلس فى مقعده ، وما كاد يستقر فيه حتى جاء ديك يتواثب الى الغرفة ؛ ووقف ياسوموتو مرة أخرى ، وكذلك وقف ديفيد وبو مما اثار دهشة ديك

وقدم بو ديك الى اليابانى الذى انحنى مرة أخرى .. وعدنا للجلوس فقال ياسوموتو :

— هذه بلاد جميلة

فقال ديفيد :

— ولكنك لا تحب طعامها

فابتسم بسمة عريضة وقال :

— اننى لم اتعلم بعد كيف أحبه .. لا سجق ولا خردل ، فهى تسبب عسر الهضم ، أما « الاسباجيتى » فانها ليست سيئة .

وقال ديفيد :

— اننا نتعلم اليابانية فى المدرسة .

فقال بو وهو يشير للياباني :

— سوف تحرز درجات عالية فيها اذا ساعدك توكوجاوا

وبين رشفات الشاى الرقيقة قال ياسوموتو : ان التعليم شيء رائع .
فقال ديفيد !
ــ وسيكون شيئا عظيما اذا ساعدتني
وبعد أن صحب بو صديقه الى البدروم ، قلت له :
ــ ديفيد .. انني لا أريد أن أبدو فى صورة سيدة غير كريمة ، ولكن ياسوموتو لن يبقى غير هذه الليلة .
وفى نهاية الفصل الدراسى ، كان ياسوموتو لايزال فى البدروم ، ولكنه ظل كعادته مؤدبا جدا ، لا يحدث أى اضطراب فى مطبخى أو يأتى على رائحة البسكويت الذى أخبزه كالباقين .
وقلت لنفسى : « لا بأس من نزيل جديد فى البيت ... »
ولكن حدث أننى نزلت يوما مصادفة الى البدروم للبحث عن شيء ما ، فوجدت ثلاثة شبان شرقيين آخرين ينحنون أمامى ، وأدهشنى ما أراهم يفعلونه ببعض الالواح الخشبية المنزلقة وأشجار الصفصاف التى رسمت على الحائط ، حتى اننى لم أستطع الكلام ! ولكننى عندما صعدت الى الطابق العلوى ، أحسست بشيء ينقصم فى داخلى ...
وقال ابنى فى قلق :
ــ أماه ... لماذا تصرخين ؟
كنت مضطرة للصياح حتى يسمع صوتى فوق صوت الحاكى والراديو المرتفعين كالعادة ..
وصحت قائلة :
ــ ماذا يحدث فى بدرومى ؟
وكان بو فى المطبخ يعد بعض الطعام فقال فى براءة :
ــ ماذا يا سيدتى ؟
قلت :
ــ هؤلاء الناس الذين فى البدروم !
فدارت عيناه العسليتان قليلا وكأنه يحاول أن يتذكر ... ثم قال :
ــ آه ... هؤلاء .. اننى اذكر انك قلت يوما انك تودين انشاء غرفة تعتكفين فيها يوما ما ..
ــ أجل قلت ذلك .. ولكنى افضل أن تكون فى ولاية أخرى .
ــ حسنا يا سيدتى .. وقد قلت أيضا انه ليس عندك نقود لاعدادها ، وقد عرض هؤلاء الشبان الثلاثة أن يقوموا باعدادها بلا مقابل ... اى مقابل البقاء فقط فى البدروم بعض الوقت ... لقد أردنا مفاجأتك ياسيدتى ..
وقال ديفيد :
ــ أجل .. انها أفضل طريقة
ووجدت البدروم تحتله حشيات النوم من الحائط الى الحائط ، فرفعت عقيرتى مرة أخرى :

ـ ديك .. جـو .. مارك ..
قالوا جميعا
وعندما تجمعوا قلت لهم :
ـ والآن اصغوا لى .. اننى أريدكم ان تخرجوا جميعا من البيت خـلال ٤٥ دقيقـة ، وخذوا أصـدقاءكم اليابانيين معكم
فقال ابنى ديفيد بحرارة :
ـ ساذهب انا ايضا ..
وفى تلك اللحظة لم يكن يهمنى اى شىء ..
وقال مارك :
ـ لقد كنت عازما على اية حال ان اقول لك اننى لن أبقى بعد هـذا الاسـبوع ..
وتنهد بعمق .. ثم أضاف قائلا
ـ لقد تزوجت أنا وايللا فى الشهر المـاضى .
ـ ماذا تقول ؟
ـ تزوجنا يا سيدتى
ـ وهل عرف أهلكهما ؟
فهز راسه بحزن وقال :
ـ كلا ... ولكننا بلغنا سن الرشد
وقال بو :
ـ لقد كان هذا يوما عصيبا عليك يا مسز (ف) فلماذا لا تذهبـين تستريحين .
قلت :
ـ لن أستريح الا بعد ان ترحـلوا جميعا .. واذا اتصـل بى والداك يا مارك فاننى سأقول اننى لا اعرف شيئا ..

فقال بتعاسة .
ـ بكل تأكيد يا سيدتى .. فنحن لا نريد توريطك
قلت :
ـ لست أنا التى كان ينبغى أن تهتم بهـا
ثم وجدت نفسى أضيف : آمل أن تسعد معها يا مارك
ولو لم يدق جرس التليفون فى تلك اللحظة ، لتخلصت منهـم جميعـا الى الابد ..
ورفعت سماعة التليفون ... ثم انتابنى الذهول بينما كان الرجل الذى يتحدث من الطرف الآخر يذكر لى أنه محرر احدى الصحف ... انه الشخص الذى أرسلت له مخطوطات كتابى منذ أسابيع . وقال لى انه أعجب بكتابى ، ثم سألنى عما اذا كان يستطيع الحضور والتحدث معى بعد نصف ساعة لان الكتاب فى حاجة الى بعض تعديلات طفيفة ..
وفجـأة أحسست أننى اريد أن أضحك بأعلى صوتى ...
كان المنزل الآن هادئا كالكنيسة .. وفى الطابق العلوى كان هناك مؤتمـر عاجل ، وسمعت ديك يقول لبو :

ـ لقد قلت لك انها لن تتحمل ذلك .. والآن الى أين سنذهب ؟

فقال جو :

ـ اجل .. لقد كانت اكثر حنانا على من امى ..

وذهبت الى المطبخ فى ذهول ... لقد رايت البيت فجأة وقد اصبح انقاضا .. ماذا يقول الرجل القادم ؟ .. يا الهى .. كيف استطيع ان انظف ذلك فى نصف ساعة ؟

وناديت بو ، وعندما جاء قلت له :

ـ سيحضر احد المحررين لمقابلتى بشأن كتابى ... انظر الى البيت .. ماذا أفعل ؟

فقال :

ـ سيدتى .. اذهبى وخذى حماما لطيفا معطرا واتركى كل شىء لنا .

وبينما كنت فى الحمام ، استطعت ان أسمع صوت المكنسة الكهربائية ، وبعد أن خرجت اتجول فى البيت ، وجدت كل شىء يتألق .. كان اليابانيون قد خرجوا لجمع الزهور البرية ، ورتبوا غرفة الجلوس بطريقة جميلة ، بينما راح ديك يشذب حشائش الحديقة ، واخذ ديفيد يرش ابواب حظيرة السيارة بالمياه ومارك يقوم بتلميع الاثاث ... ا بو فكان يتولى تنظيم العملية كلها وهو جالس على مقعده قرب النافذة .. بينما وقف جو يغسل الاطباق

وقال بو وهو يقدم لى زجاجة شمبانيا مثلجة :

ـ سيدتى .. لقد اهدانى جدى هذه الزجاجة التى كنت احتفظ بها ليوم التخرج ، ولكنك سوف تحتاجين اليها اليوم

وتطلع من النافذة ، ثم قال

ـ ها هو قادم

وفى تلك اللحظة اسرع كل الشبان الى التفرق ، وكأنهم فئران تسرع الى جحورها ..

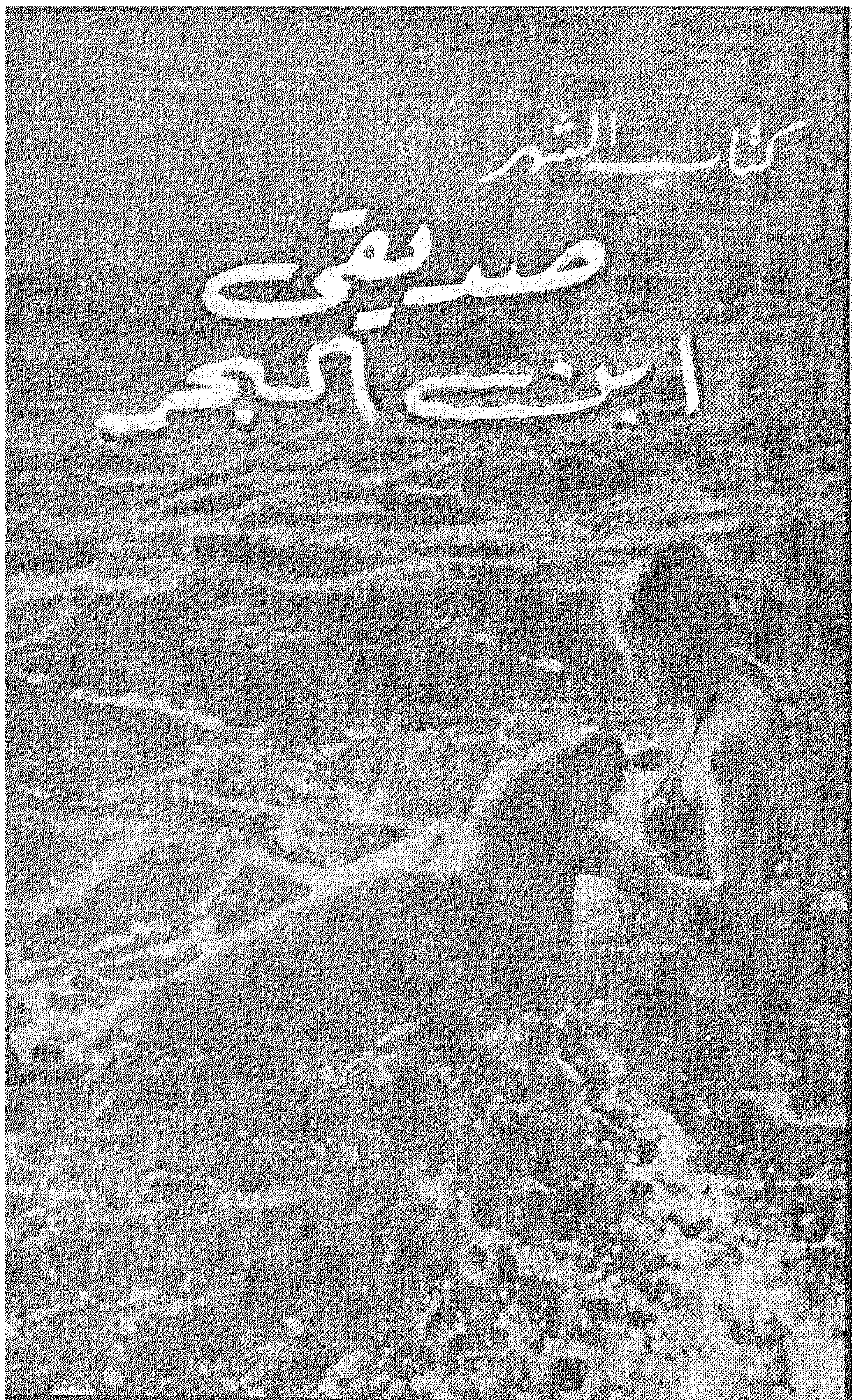
وجاء المحرر ... ولن انسى ابدا كلماته الاولى .. عندما قال :

« الآن عرفت سر كتاباتك الجميلة .. ان هذا البيت يفيض هدوءا !»



صفر كبير

ان الاخلاق تشبه الصفر فى علم الحساب ... قد لا تكون شيئا فى حد ذاتها ، ولكنها تستطيع ان تزيد قيمة اى شىء آخر زيادة كبرى ..


كتاب الشهر
صديقي
ابن البحر

صديقي ابن البحر

ملخصة عن كتاب : THE SEAL SUMMER

بقلم : نينا وارنر هوك

كان مخلوقا بريا عندما ظهر فجأة على الشاطيء الجنوبي لانجلترا في ربيع ١٩٦١ ... وفي الخريف اختفى مرة أخرى بنفس الغموض الذي أقبل به .. ولكنه في خلال صيف لا ينسى ، كشف عن تفضيل ملموس لصاحبة الجنس البشري ، يطرب لاعجابهم وتصفيقهم ، يسبح بينهم ويلهو معهم ، ويفوز بحبهم الوفير ..

ومن حسن الحظ أن أقرب اصحابه من البشر كان نينا وارنر هوك القصصية والكاتبة المسرحية البريطانية ، التي سجلت هذه المغامرة العجيبة في كتابها ((صيف عجل البحر)) في حب وروعة ، واحساس عميق بالجمال الطبيعي ..

على ساحل « دورسيت » الجنوبي ، وعلى مسافة غير بعيدة من قريتي ، يوجد خليج صغير أطلق عليه أسم « حوض تشابمان » ، وهو مكان قفر يؤمه صيادو الاسماك في الصيف ، والذين يقضون عطلاتهم .. ويخلو بقية العام ..

ولا يزيد أتساع الحوض في اوسع بقاعه على ٤٠٠ متر ، ويقع في نصف دائرة من صخور طفلية ، وفي سبيل الوصول اليه ، يجب أن تبدأ من الارض التي تمتد داخل البحر وترتفع حوالي ١٢٠ مترا فوقه ، ثم تشق طريقك الى أسفل خلال واد ضيق يخترقه طريق منزلق .. ويتكون الشاطيء من رمال خشنة ، وحصى يتناثر فوق أطراف من الاردواز ، وقطع من الاحجار ، والاخشاب التي تقذف بها تيارات المد ..

وفي جو الشتاء ، يكون المشهد كئيبا موحشا ، اما في ايام الصيف المشرقة فان الحوض يصبح مكانا جذابا ، مياهه زرقاء داكنة ، كأنها جوهرة ترصع حلية من الفضة ... انه مكان هادىء لاتشعر بمرور الزمن فيه ، لاشيء يتحرك سوى سمكة تقفز في الماء ، أو طائر يغوص .. لا صوت غير حديث صيادي الاسماك

وهم يعملون فى جلبة لاعداد شباكهم او صرخة صـقر تنبعث من فوق التـل ..

وكان هذا المكان فى يوم ما أعز مكان الى قلبى .. أما الآن ، فاننى أتردد فى الذهاب اليه ، بعد أن افتقدت أعز صديق كان لى هناك..مخلوقا بحريا اعتاد أن يندفق فى الماء كالسهم عندما أنادى عليه ، فمنذ اربعة اعوام ، كان هذا الخليج الصغير مسرحا لاجمل وأعجب صداقة فى حياتى .. فقد كان صديقى عجل بحر بريا ..

ان أول من رآه هو « سيد لاندر » صياد السمك ، عندما كان هو وابنه ألين يعملان فى اوائل مايو ١٩٦١ فى وضع شباك الكابوريا على مسافة ٧٥٠ مترا من الشاطىء ، اذ برز عجـل البحر على مقـربة من قاربهما ، وبدأ عليـه الانزعاج ، فسبح الى مسافة آمنة ، ثم قبـع على ذيله وقد برز بعض جسمه من الماء ، وأخـذ يرقب الرجلين ..

ولو ان أيهما صاح او لوح باشارة تهديد ، لما قدر لهذه القصة أن تكتب ، ولكنهما لم يفعلا ذلك ، بل ألقى ألين « سمكة بياض » من الاسـماك التى يسـتخدمها كطعم الى المتفرج الذى وقف بعيدا ، وعلى الفور غاص عجل البحر للحصول عليها .

وبعد يومين ، شاهد الرجـلان عجل البحر مرة اخرى ، وكان فى هذه المرة متمددا على حافة صخرية قريبة من الشاطىء ، ولما كان بعض الاصدقاء يعرف مدى اهتمامى بالحيـوانات البرية ، فقد اتصل بى على الفـور بالتليفون ، فأسرعت نحو الحوض فى عصر يوم اشهب من أيام الربيـع ، وكانت قطع متناثرة من الضباب معلقة فى السماء فوق التـلال ، وقد وقفت مجموعة صـغيرة من النـاس على الشاطىء تنظـر فى قشعريرة وخيبة امـل ..

فلم تكن هناك اية علامة تدل على وجود عجل البحر ..

وصاح بيرسى والاس ــ وهو من حراس السواحل ، ويصـيد السمك احيانا فى وقت فراغه ــ . قائلا :

لقد جـاء هـذا الصـباح ثم اختفى ثانية .. اننى أشـك فى أنه بعيد عن هنا .. جربى المناداة عليه بالصـياح ..

ولكن صدى صيحاتنا ارتد الينا من الصخور ، وحلقت فى الجو بعض الطيور البحرية التى ازعجها الصوت .. ولم يحدث اى شىء آخر ..

وعدنا نحاول الصياح . . وفجأة

أشار أحدهم بيده قائلا :

ـ انظـروا ..

وعلى مسافة بعيـــدة داخـــل الحوض ، ظهر جسم مستدير لامع على سطح الماء . . كان فى البداية ثابتا لا يتحرك ، ثم أخذ يتحرك ببطء متجها نحونا ، حتى توقف على مسافة أربعة أو خمسة امتار من المكان الذى نقف فيـــه .. كان الجسم الثقيل يبرز نصفه خارج الماء ، مستندا الى زعانفه الامامية ، بينما بدت عينــاه الكبيرتان هادئتين رقيقتين ، والانف الخشن ، اســود حالكا وسط رأسه الرمادى الاملس .

واكتنفتنى غرابة المنظر ، فنسيت كل شىء عدا المخلوق الذى أراه امامى .. كان يبلغ فى طوله حــوالى متر وثلث متر ، من طرف أنفه حتى طرف الذيل الصغير الذى يوجد بين زعانفه الخلفيــة ، بينما كانت خياشــيمه الواسعة تفتح وتغلق ، وشـــواربه البيضـــاء الطـويلة بارزة كالاوتار المشدودة ، اما الاذنان فكانتا فجوتين مستديرتين ليستا لهما اجزاء خارجية وبدت مقلتـــاه مسطحتين ، فيهما انسان عين كبير وعدسات سميكة ، وعندما فتح فكيه ، رأيت مجمـوعة مروعة من الاسنان !

وكانت تحف بكل من زعانفه خمسة أظفار سوداء لامعة لا يمكنها التقلص ، تشبه مخـالب الدب وان كانت أكثر نظافة واقل حـدة . (وقد اكتشفت فيما بعــد كيف يســتخدمها ببراعة لامساك الاسماك ، وتنظيف جــلده ، والتعلق بالصخور الملساء) .

وقال بـــيرسى : انه لن يبقى بطبيعة الحال ، فعجول البحر تحب الاماكن الخالية ، وعندما يبدأ الموسم سوف يفزع من المصطافين فيبتعد .

ولكنه كان على خطأ تمــاما ، فان الشيء الذى أحضر عجـــل البحر الى الخليج ، والذى أبقاه هنــاك حوالى ستة أشهر تقريبا ، هو حبه لمصاحبة البشر .. أما سبب ذلك ، فهذا هو السر الذى لم نستطع قط الوصــول الى كنهه ، وحوادث اختلاط الحيوانات البحـــرية البرية بالمخلوقات البشرية نادرة حقــا .

ولا تجد أغلب عجول البحر حماية الا فى موسم التكاثر ، وحتى هــذه الفرصـــة الصغيرة من الرحمـــة كثيرا ما يتجاهلها صـــيادو السمك الذين ذبحوا منها عددا لاحصر له ، وهكذا فاننى لا أدرى ان كان صديقى قد وثق فينا الى حد غير عادى ، أم ان فضوله كان أقوى من خوفه من النـــاس ،

ولكننى أعرف أنه اضفى على أنا وكثيرين غيرى صحبة ممتعة فى ذلك الصيف ، واتاح لنا فرصة فريدة لمعرفة طبيعته ووسائله .

((كلب صغير)) طيب !

فى مطلع الاسبوع التالى ، قالت لى مارى هيكمان : ((لقد ظل عجل البحر طوال نهار أمس على الشاطىء .. جاء ورقد على مقربة منى .. أن فراءه يبدو كالمخمل الذى أكلته العثة عندما يكون جافا)) .

واستطردت تقول : ((عندما خرج بيرسى فى قاربه ، ألقى عجل البحر بنفسه فى الماء وراح يتبعه ، وظل يغطس تحت الزورق ثم يخرج عند الطرف الاخر ، وجاء شخصان آخران الى الشاطىء ، فعاد مسرعا .. وقد سألانى عما اذا كان يحس اذا ضربه أحد ، ولكننى نصحتهما ألا يفعلا ذلك ..

وأثارت هذه المشكلة قلقى أنا أيضا .. ان لعجل البحر سلاحا خطيرا عبارة عن أسنان حادة كشفرة الموسى، كما أن له انيابا طول كل منها حوالى بوصة ..

وقلت أنا أيضا : سوف يحاول بعض الحمقى ضربه .. فاذا عقرهم فأنت تعرفين ما يمكن أن يحدث .

قالت : سوف يطلق البعض رصاصة على راسه .

ــ تماما ..

وفى اليوم التالى ، عندما اتجهت مع مارى الى الحوض ، جاء عجل البحر يسبح حتى بلغ حافة الماء لمقابلتنا ، وبعد دقائق قليلة ، بسطنا سجادتينا على الارض ، وجلسنا ، فتبعنا الى الشاطىء فى تردد ، وقبع على مسافة مترين منا .. وبدا الامر طريفا اذ يستقبلنا هذا المخلوق البرى وكأننا ضيوف يقوم الخدم على خدمتهم .

وقلت له :

ــ مرحى .. اننا سعداء لرؤيتك .. أأنت على مايرام ؟

واهتز الذيل الصغير وكأنه يرد على سؤالى .. كان كل خط من جسمه الاملس يعبر عن سروره ، وقد حرصت منذ البداية على ان اتحدث اليه بلهجة عادية بدلا من لغو القول الذى يستخدمه الناس عادة فى الحديث مع الحيوانات ، كما فعل اغلب من قابلوه مثلى ولعل السبب انه كان يبدو أكثر من نصف آدمى .

وبينما كان عجل البحر يرقد على مقربة منا فى هدوء ، رفعت يدى فى ايماءة بطيئة مستطلعة ولكن رأسه

اهتز ، واتسعت عيناه فى انزعاج.

وقالت مارى : لو كنت مكانك لما فعلت ذلك .. دون أن أضع قفازا سميكا فى يدى .

كنت أعلم أنها على صواب ، فان هذين الفكين يمكن أن يعقرا بشدة ، كما أن رأسه يستطيع أن يتحرك كلمح البرق.. وتخليت عن محاولتى وسرعان ما تركنا العجل الى بقعة صخرية ملساء اكثر راحة على مسافة حوالى ٢٥ مترا منا .

وبعد فترة قصيرة ، اقبل « آل رايت » وهما من أصدقاء مارى ، وكانت ابنتهما الصغيرة التى تبلغ الرابعة من عمرها أول من ظهر وهى تعدو امام والديها متجهة مباشرة نحو عجل البحر ، وقفزت انا ومارى نطلق صيحات التحذير ، ولكن شيئا لم يستطع ايقافها .. وأخذنا نرقب الطفلة فى هلع وهى تلقى بنفسها الى جوار الحيوان ، وتحتضنه وتقبله ولعلها ظنت ولا شك انه نوع من الكلاب الضخمة ، لانها بعد أن لحقنا بها قالت :

« كلبى العزيز .. انه كلب طيب »

واستجاب العجل لقبلاتها بكل مظهر من مظاهر البهجة وطوقها بزعانفه وضم جسم الطفلة اليه باحكام ، وراح يصدر صوتا كالانين ، وعندما حاولنا ابعادها عنه ، أظهر عجل البحر استياءه بسرعة ، وبدأ انه من الاسلم تركهما معا دون ازعاج . ولعب الاثنان معا طيلة بعد الظهيرة دون أن يفترقا !

لهو ولعب

فى الاسبوع الثالث من مايو ، أصبح صديقنا مشهدا مألوفا فى الحوض ، يسبح معنا جنبا الى جنب ، أو يقبع فى المياه الضحلة تحت أشعة الشمس ، أو يرقد على حافة مفضلة فى المد المنخفض ، وقد عرفت الآن أنه كان ذكرا رمادى اللون ، يتراوح عمره بين ١٨ و ١٩ شهرا ، ولاشك انه كان بريا فقد كان هناك آثار لجروح على كتفه اليسرى ، لعلها من عجل بحر آخر ، فقد سمعت انها تتقاتل كالشياطين ، بل أن لعبها معا يمكن أن يكون خشنا جدا ..

ومع ذلك فقد كان سلوكه وديا جدا حتى ان القلائل اصبحوا يترددون الآن فى مداعبته ، وكان يحب أن تدعك بطنه أو تدغدغه تحت زعانفه الامامية وكان لا يفشل قط فى جعلنا نفهم كل ما يطلبه .. كان يتقلب على ظهره ، أو يرفع زعانفه الى أن يمتثل الانسان لما يريد ، ولكى يجتذب الاهتمام ،

كان يدور حـــول نفسه ، واطـراف مقلوبة حتى يبدو وكأنه راقصة باليه ترقص على بطنها .. واذا شعر بالملل كان يقرض أظافره أو يتثاءب ثم يغطى فمـه بأدب ..

كان سلوكه الودى على الشاطىء أمرا لاشك فيه .. ولكن كيف يكون رد فعله عندما يغزو المستحمون منطقته الخاصـة ؟ ..

لقد ناقشت مجموعة منا هـذه المسألة ذات صباح ملىء بالرياح، بينما كان عجل البحر يرقد تحت اقدامنا ، وقررنا أن الطريقة الوحيدة لمعـرفة الحقيقة ، هى أن نخرج للاستحمام ونرى ماذا يحدث ، وسحبنا القرعة بالحصى الملون ، فجاءت القـرعة على

وارتديت ثوب الاســتحمام ، وانطلقت حتى حافة صخرية يبلغ الماء فيها حتى الوسط ، وعلى الفـور قفز عجل البحر الى المـاء ، وانتظر هناك وكأنه كان يتوقع منى أن القى اليه بقطعة من أعشاب البحـر أو الاخشاب ليعيـدها الى ، ولم يكن احدنا قد علمه ذلك ، ولكنـه كان يفعله متطوعا ..

ولما لم اقذف اليه شيئا ، نظر الى فى استفهام ، فنزلت الى الماء ووقفت الى جواره كان رد الفعل الاول دهشة بالغة، فقد بدا بوضوح أنه كان يعتبرنا حيوانات ارضـية فقط ، وتحولت نظرته التى تشبه البومة الى ابتهاج ، وسبح قريبا منى ، ووضع زعانفـه حول خصرى ، ودفع خيشومه نحو عنقى .. ثم انبعث منه صوت كالانين يفجر المشاعر ودفعته برقة بعيـدا على ، وشرعت فى الغوص ، وطرطشه المـاء حتى أريه اننى قادرة على ان أمرح معه فى الماء كما أفعل على الارض وعندما ادرك ذلك ، كان تأثره بالغا . لقـد غاص ثم صـعد الى السطح ، وتقلب وكأنه خنزير البحـر ، وراح يدور من حولى ثم جذبنى من ذراعى بفمه الى أسفل حتى تلاقى وجهانا تحت المـاء ..

وأثارت هـذه الحركات المضحكة تسلية من على الشاطىء ، حتى بدأ الآخرون واحدا بعد الآخر بالمغامرة فى الانضمام الى لهونا .. وفى غمرة التأثر أخذ عجل البحر ينطلق من أحـدهم الى الآخـر ، يحتضننا وينطحنا ، ويغوص زاعما انه سيعقر اصـابع اقدامنا ، ثم يهبط من تحتنا ويرفعنا فى الهـواء .

وراح لاعب الاكروبات الماهر يتلوى كالثعبان وهو ينزلق ويتقلب ، وكانت شواربه القوية تدغدغنا حتى نصرخ،

وزعانفه تمسك فجأة بكواحل أقدامنا او سمانتها ، وبعد دقائق قليلة ، اكتشف ان دفعة بارعة فى ظهر الركبتين تجعلنا نسقط .. وبينما كنا نغوص فى الماء ، كان يلقى بنفسه فوق اكتافنا ويتقلب وهو يحدق الينا من أعلى الى أسفل وقد برقت عيناه السوداوان فى بهجة وسرور .

استعراض لا يهدأ

كان صيف ذلك العام قائظ الحرارة ، كما أدت دعاية الصحف الى جلب اعداد متزايدة من الزوار الى الخليج الصغير ، ليروا عجل البحر الذى سحرهم ورحب بهم باكبر قدر من البهجة ..

وبعد أن أصبح مرتاحا بين جماهير الغرباء وزال قلقه ، أصبح يطرب لاعجابهم ومداعباتهم بل انه أصيب بالغرور ، وكان يتصرف احيانا وكأنه طفل مدلل ، يندفع فجأة فيوقع صغار الاطفال ، ويخرج من الماء مبللا ليلقى بنفسه وسط جماعات المتنزهين ، مفزعا العجائز من النساء ..

وسألنا زائر ذات يوم ، وكأن عجل البحر كلب شقى :

ــ لماذا لا تطردونه بعيدا ؟

والواقع أن صديقنا كان مثيرا التعب الى حد ما فى تلك الفترة .. كان يتطلب الالتفات اليه طوال الوقت ، وقد استخدم كل السبل لتحقيق ذلك .. كان ينتزع كتلا من اعشاب البحر ويطوح بها فى الهواء ، او يتدحرج على ظهره ، ويضم زعانفه معا كما يفعل زميله فى السيرك عندما يصفق له الناس .. فاذا لم يفلح ذلك فى اجتذاب الاهتمام ، جذب بفمه أقرب فستان أو ساق بنطلون حتى يمتثل صاحبه لرغباته ، والا تمزق النسيج .. واذا فشلت الطريقتان كان يطلق صياحا كالنباح الشديد حتى يسرع الشخص للاستجابة لطلباته !

وقد سمعت ان مدربى الحيوانات البارعين لا يوبخونها أو يعاقبونها أبدا فهم يكافئونها على مسلكها الطيب ، ويتغاضون عن الردىء .. وكان العقاب البدنى لصديقنا عجل البحر امرا لا فائدة منه بسبب طبقته الشحمية الكثيفة ، كما يجعله يشعر بالضربة العنيفة وكأنها مجرد ربتة رقيقة تبهجة .. ومن ثم فاننا كنا اذا رأينا أشخاصا تضايقهم أفعاله ، طلبنا منهم أن يديروا ظهورهم له ، وكانت هذه الطريقة فعالة فى كثير من الاحيان ، اذ كان مرهف الحس للتوبيخ والاهمال ويبدو

انه أوذى فى شعوره ..

ولحسن الحظ انه كان قد هدأ فى منتصف يونيو ولم يعد يثير أية متاعب فيما عدا عقر الكلاب الصغيرة، واصبح أكثر اهتماما باختيار من يصاحبه ، اذ كان يفضل اولئك الذين ينزلون معه الى الماء ، ويفضل اولئك الذين لايخافونه فى الماء ، على الذين يشعرون بالوجل منه ، وكان هؤلاء اكثر عددا فانك عندما تكون جديدا على التجربة، فانه من العسير ان تتأكد ان حيوانا بريا غريبا له أسنان ضخمة لن يؤذيك عندما يداعبك بفمه فوق زراعـيك وساقيك وقد شرد ذهنه... ومع ذلك فأن المرة الوحيدة التى عقر فيهـا انسانا كانت عندما انزعج وترك فكيه دون ارادة يغلقان على رسـغ رجل (وكان الرجل لحسن الحظ من اكبر المعجبين به المحبين له)

ومالبث أن اكتسب تدريجا طريقة متحذلقة فى التصرف كانت تظهر فى سلوكه مع المصورين ، وبعد فترة من الوقت، بدا أنه فهم أن ظهور الاشياء المعدنية الصغيرة ذات الطنين هى اشارة الى أن يجىء حيث هو فى سكون ، وكان يفعـل ذلك دون أخطـاء ، وقد بدا فى صـورة الشـخص الذى أصابه الملل ولـكن على درجة عالية من التربية ، وتلك النظرة التى تبدو غالبا على وجوه عارضات الازياء

كما كشـف أيضا عن ولع بالغ بالموسـيقى ، وقد احضرت احدى التلميذات يوما نايا وبدأت تعزف له وما كاد يسمع النغمات الاولى ، حتى رقد امامها على الفور ووضع رأسه على حجرها وعيناه نصف مغلقتين وكأنه يحلم.. ولكنها ما ان توقفت عن العزف حتى راح يصيح صاخبا وانطلق يمرح متوسلا من اجل الالعاب التى لم يكن يتعب منها قط

وفى ذلك الحين ، كان عجل البحر ــ عن طريق الصحف المحلية ــ اصبح معروفا فى منطقه واسعة باسم «سامى» ولم نعرف قط من هـو اول شخص منحه هذا اللقب ولكنه اصبح معروفا باسم «سامى عجل البحر» وظل كذلك

لمحة من جنة عدن

لم يكن احدنا يحب ان يبقى محصورا فى المياه الضحلة عندما نلهو مع «سامى» ولكن لم تكن لدينا أية فكرة عن كيفية تصرفه مع المستحمين فى المياه العميقة وبدا من الحـكمة أن نختبره أولا . ولتفادى أية مخاطرة ، كنا فى حاجة الى حزام للنجاة ، وحبل طويل وأن نستخدم زورقا ، وجماعة من خمسة أشخاص، ثلاثة منهم فى الزورق واثنان

فى الماء وتم تدبير كل شىء ، ولكننا عندما تجمعنا فى الحوض فى نهاية الاسبوع الثالث من يونيو ، لم يظهر سامى .

كان غيابه يثير انزعاجنا دائما ، فقد كانت هناك شركة لصيد الاسماك تعمل فى تلك المياه بمركب بخارى وشباك للصيد، ولم تكن من محبى عجل البحر، ومن ثم فقد احسست بالارتياح قرب الصخور التى تحجب الرياح على الجانب البعيد من الخليج ، وناديته ، فى اليوم التالى عندما رأيته يسبح فاقبل نحو الشاطىء

كان الخليج خاليا الا منا نحن الاثنين وكنا فى ساعة مبكرة جدا من صباح مشرق وقد تألقت مياه الحوض وكأنها صفحة من زجاج تحت سماء صافية .

وجلست الى جواره على حافة الماء ، ووضع رأسه فى حجرى ، وبدا شبه نائم من فرط الحرارة فأخذت ادفعه بيدى حتى رفع رأسه والتوت زعانفه وانتفشت شواربه وكأنه كان يصيد ثعبانا بحريا فى احلامه ..

وخالجنى اذ ذاك احساس بأن أبدأ التجربة فورا دون استعداد . وبمفردى .. لقد خيل لى ان الطريقة الاخرى التى تحوطها الضمانات والاحتياطات كانت خطأ لانها تقوم على اساس من انعدام الثقه ... وقلت لنفسى انه يعرف أن أسنانه تستطيع أن تؤذينى اذا لم يسيطر على نفسه أذ أن جلدى أرفع من جلده ، وجسمى ، أكثر عرضة للايذاء من جسمه ، ولابد أنه عرف ذلك عن طريق اشارات التحذير منى وسيعرف بنفس الطريقة اننا عندما نسبح معا فأنه ينبغى الا يتعلق بساقى .

وابعدته عن حجرى برفق ، ثم فتحت حقيبة الشاطىء، وأخرجت ثوب الاستحمام وارتديته كما وضعت فى قدمى زعانف مطاطية حتى أستطيع أن ارتفع بسرعة الى سطح الماء لو أنه حاول ان يجذبنى الى مكان عميق تحت الماء

وكان لايزال نائما وانا اخوض الماء وسبحت حوالى ٥٠ مترا قبل ان يستيقظ ويأتى ورائى ، وفى خلال ثوان قليلة يبرز فى مواجهتى وقد بدت عليه الحيرة ، بينما مضيت أسبح فى ثبات ، فانطلق يسبقنى مرة اخرى ثم توقفت فى الماء وكانت زعانفه ممتدة امام بطنه وقد اخذت عيناه تدوران فى حيرة وكأنه كان يسألنى دون ان يتكلم : « .. هل هذا من الصواب ؟ .. أكان ينبغى أن تصل الى هذا البعد ؟»

وفجأة .. كما حدث من قبل .. ظهرت على وجهه دلائل الوعى بأن هناك علاقة متغيرة فنبح فى ابتهاج وراح يسبح حولى فى دوائر سريعة، ثم تقلب على ظهره وغاص فى المــاء وقام بسلسلة جـديدة من الالعاب البهلوانية فى الماء

وسبحت حتى وسط الحوض ،حيث يصل عمق الماء الى اكثر من تسعة امتار ، فتبعنى وهو يسبح خلفى على مسافة حوالى ثلاثة امتار ، وكان فى اســتطاعتى فى المـــاء الرائق أن أراه يحــدق فى وقد بدت عيناه وأنفه كالنقط الســـوداء فى مثلث وسط هالة من الشوارب البيضاء ، ثم اندفع فجـأة الى الامام حيث قام بدورة جانبية حتى اصبح تحتى مباشرة ولكنه كان مقلوبا رأسا على عقب فى هذا الوضع ، ثم انطلق الى اسفل بعيدا عن ناظرى

وعندما عاد الى الظهور كنت اسبح على ظهرى لارتاح ، فلحق بى وعمل نفس الشىء واصبحنا نرقد فى الماء الساكن الرائق جنبا الى جنب ، وبدت صخور الشاطىء صغيرة على مبعدة ، بينما كان الشاطىء يبدو من بعيد فى لون نحاس شــاحب .. لم يكن هناك غير البحر الفسيح والسماء، ونحن الاثنين تجمع بيننا ســعادة مشتركة .. وبينما كان المد يهزنا ويقرب بيننــا ، مددت يدى نحــو زعانفه وأمسكت بها ، فأدار رأســه وحدق فى وجهى

واحسست بقوة مغناطيسية غامضة تنبعث من أعماق غير مرئيــة حتى وصلت الى ومست وترا مستجيبا فى نفسى ، وكنت قد أحسست بنفس هذه المغناطيسية فى اول مرة رأيت فيها سامى ، اما الان فقد اصبحت أدركها . فى تلك اللحظة أزحت الســـتار الذى كان يفصـــل بيننــــا ، وعـــدت أتطلـــع الى فجر العالم ، قبل ان تقوم اشياء حية أخرى بتحاشى الانسان .

انها لمحة من جنة عدن ! .

ورأيت وميضـــا معدنيـــا على اللســـان الارضى الذى يعـــلو الخليـــج ، فأدركـت أن زائـــرين آخرين قد وصـــلوا ، واستطعت أن ارى سيارة تقف بجوار سيارتى ، وعندما بلغت الشاطىء كان اصحاب السيارة فى طريقهم الى الخليج ،فأسرعت بارتداء ملابسى وجمعت حقيبـــتى وهرعت بعيدا ، تاركة سامى يستقبل القادمين الجدد، فاننى لم أستطع أن يكون لى شركاء غرباء فيه فى ذلك الحين

ضحكات ودموع

كان سامى يتمتع ولاشك بروح من المرح ، وان كانت فجة بعض الشىء، ولم يتطلب الامر وقتا طويلا لكى نكتشفها ،وكانت المزحة التى يمارسها كثيرا ، أن يغوص تحت أحد المستحمين دون أن يشعر به ، وفجأة يجد الرجل نفسه وقد ارتفع فى الهواء وكأنه فوق نافورة ماء ، كما كان من الالعاب المفضلة لديه ، أن يقرص أحد الاشخاص فى عجزه ، ثم يدور حوله سريعا .

وكان يجب احيانا ان يندفع نحو احد المستحمين كالطوربيد، ثم يتوقف ، فجأة على مسافة نصف متر منه ، وكأنه يضغط على فرامل وسط موجة من الزبد ، ويزيد من تأثير هذه الحركة بالقاء رأسه وكتفيه الى الوراء ودفع زعانفه الى الوراء ، ثم يتبعها بضحكة مجلجلة ، كاشفا عن أسنانه الامامية ، وقد انفرجت شواربه على جانبى وجهه .كما كان يحب السباحة خلف المستحمين ، ثم يمسك بأسنانه مؤخرة ثيابهم أو بنطلوناتهم القصيرة، ومن هنا نبتت لديه فكرة خلع هذه البنطلونات التى كانت تثير فرحه من قطعتين ذات يوم مع حزام مطاطى يمسك الجزء الاسفل من الوسط ، وبينما كنت أسبح ووجهى الى أسفل مبتعدة عن الشاطىء، على عمق حوالى متر ونصف متر من الماء ، أبحث فى القاع عن حذاء طفل مفقود وفجأة أحسست بشواربه تلمس مؤخرة فخذى ، ثم جذبهما وفى اللحظة التالية سمعت ضحكات عالية ، فقد انكشفت مؤخرتى فجأة لكل من على الشاطىء .

وكان نجاح اية مزحة تقاس فى ذهن سامى بما تثيره من التصفيق، وقد أدركنا أن تكرار هذا العمل كان أمرا لا مفر منه ، وسرعان ما أصبح من الامور الشائعة أن تسمع مستحما يصيح محذرا زميله : « احترس .. امسك بنطلونك جيدا » وكنت أحيانا أرقب « سامى » من داخل حصن خشبى مهجور وهو يعتقد انه ليس هناك من يراه ، ولم أره فى تلك المرات يتصرف كما يفعل أمام الجمهور، فقد كانت أعماله المضحكة تستهدف تسلية الآخرين لا تسلية نفسه .

كانت لديه مجموعة كبيرة من الاصوات .. فاذا اثير اونفد صبره ،

مجموعة مختلفة من النباح والضحكات اظهارا لارتياحه ، ومجموعة أخرى من العويل والولولة والعواء لكي ينفث عن أحزانه .. كان عاطفيا الى حد اننا كنا فى كثير من الاحيان نمتنع عن عمل معين خوفا من أن يتهور هو بعمل خطير .. فقد كان يحب مثلا أن يرقد منبطحا على سيقاننا عندما نجلس على الشاطىء ، وحتى فى الايام الشديدة البرودة ، كنا نتحمل جلده الرطب البارد بدلا من أن ندفعه بعيدا عنا ، وعندما يحين موعد عودتنا الى البيت ، كنا نذهب الى مسافات بعيدة لاخفاء رحيلنا عنه ، بسبب العبرات والولولة التى كان يتابعنا بها على طول الوادى الضيق .

ان عجل البحر ليست لديه قنوات دمعية ، ومن ثم فان سامى عندما كان يبكى ، كانت عبراته تتدفق على وجنتيه مباشرة ، وكان منظرها مؤثرا الى حد أن قلائل هم الذين كانوا يستطيعون البقاء غير مكترثين بها .

وتقول الان لاندر التى كانت تراقبه غالبا من كوخ القوارب ، أن سامى بعد أن يرحل آخر الزائرين ، كان يدور بعينيه الدامعتين بأنحاء الشاطىء الخالى ، ثم يتجه الى الحافة التى اعتاد الرقاد فوقها .. وبعد فترة يتوقف عن البكاء ويتنهد بشدة ، ثم يلقى بنفسه الى البحر ليصيد الاسماك ، وكأنما يقول لنفسه « حسنا .. هناك طعام دائما » ..

« جسم بلا روح »

كان سامى يهب ميله دون تمييز ، أما حبه فكان يحتفظ به للقلة من الخاصة الذين يسبحون معه فى المياه العميقة ، وربما لاننى كنت اول من فعل ذلك ، كنت أبدو انثى الاولى بين من يمنحهم عطفه .

وأصبح لاجتماعاتنا الآن مغزى جديد ، فقد كان يرتعش من الفرحة ، وعندما أدخل الماء معه ، كان يبدى تلهفه بالنباح والانين ، كان يغوص دائما أمامى ، وينتظر منى أن أقرر أى الطرق نتجه اليه ، وغالبا ما كنا نسبح نحو فتحة الخليج الصغير وفيما وراءها ، وحول الصخور الشرقية نحو الخليج المنعزل تحت راس « سانت الدهيلم » حيث لا يوجد غير أشخاص قلائل لانه ليس هناك شاطىء للاستحمام .

وهناك .. بعد سباحة طويلة ذات يوم ، صعدت الى الشاطىء لأستريح بينما اخذ سامى يسبح فى الماء وسط الاعشاب البحرية الكبيرة وشقوقا الصخور .. كان الماء رائقا كالزجاج

الشفاف ، وكان فى استطاعتى وأنافى موقعى على صخرة عاليـــة ان اراه وأعجب برشاقته وهو يتموج فى الماء، وسرعته فى مطاردة الاسماك دون جهد وكان يبتلع الاسماك الصغيرة تحت الماء ، كما كان فى استطاعته أن يختزن من الاوكسيجين فى دمائه ما يتيح له أن يبقى غائصا فترة تصل الى عشر دقائق .

وبعد فترة من الوقت رقدت على ظهرى لأنام ، وبعد قليل ، أيقظتنى حرارة الشمس المحرقة على الصخور العارية . وبحثت عن سامى ولكنه لم يظهر فى أى مكان .. لقـد كان ولاشك حرا فى أن يأتى ويروح كما يشاء، ولكنه لم يكن يرحل عادة عندما نخرج معا فى رحلات .

ورأيت قناة عميقة تشق طريقها تحت الصخرة التى أقف عليها ، وكان طرفها القريب يغوص فى منطقـــة ضحلة تشبه الكأس يبلغ عمقها حوالى مترين ونصـف متر .. وفى قاع هذه المياه الضحلة ، كان هناك جسم رمادى اللون طمس سطح الماء العكر حدوده .

وأحسســت بقـلبى يتواثب بين ضلوعى .. كانت زعانفه ساكنة دون حركة ، ومع كل هزة ماء من ناحية البحر ، كان جسمه يميل على جانبه، ثم يرتد الى مكانه ، وصحت أنادى باسمه مرة بعد اخرى ، دون أن يكون لدى اى امل فى سماع رده ، فقـد أيقنت انه مات ..

وساءلت نفسى : ماذا حدث وأنا نائمة ؟ . . ترى هل انطلقت رصاصة من زورق مر من هذه المنطقة ؟.. ولكن لم يكن هنالك أى دم أو علامة على اصابة .. فهل تناول سـمكا مسمما ؟.. انه شىء غير محتمل .

وبينما كنت على وشك الغوص، لاحظت أن مكان الجسم قد تغير، فقد ارتفع الرأس والجذع ، وظلا يرتفعان ببطء وكأن هنـــاك شيئا غير مرئى يدفعهما الى أعلى .. وعندما برزت مقدمة أنفه على السـطح ، توقفت الحركة وظل الجسم معلقا فى الماء .

وبعد أن تأكـدت من انه مات ، وقفت على استعداد للغوص واخراجه، ولكننى توقفت مرة أخرى . . أوقفتنى حركة طفيفة .. فعلى الرغم من ان عينيه كانتا مغلقتين ، فقـد تفتحت خياشيمه وبدت حركة تمدد وانقباض ضئيلة فى منطقة مرئية ..

لقد كان نائما .! وارتفع دون ارادة واعية الى السطح لكى يجدد تموينه من الاوكسيجين . كان يتنفس فى

شهيق وزفير بسرعة لمدة عشر ثوان ثم هبط الى القاع مرة اخرى ، دون أن يفتح عينيه أو يظهر أية علامة أخرى على الحياة .

ونزلت فى الماء وغصت الى أسفل ، ولمست عنقه بخفة ، فاستيقظ على الفور ، ثم تقلب ودار ليرحب بى .. كانت عيناه صافيتين تبرقان بلونهما الاسود ووضعت ذراعى تحته ثم حملته معى الى السطح ، ورقد فى سكون وكان رأسه وزعانفه الخلفية تتأرجح ، وهو مسرور من حمله فى الماء بهذه الطريقة .. ودفعته أمامى ورحت ادفعه بساقى حتى خرجت به الى البحر الفسيح ، ورحنا نسبح معا عائدين الى الحوض .

كهف عروس البحر

كنت أقوم بزيارة خليج (سيكومت) احيانا خلال الصيف ، وهو بوغاز آخر من المناطق التى يمكن الوصول اليها من بيتى ، وفى أحد ايام سبتمبر التى لا تنسى ، رأيت هناك رأسا مألوفا يدور حول صخرة فى الماء .. انه سامى ، ولعله كان يصطاد السمك أو جاء للبحث عنى ، وكنت قد شغلت ببعض الامور فلم أره فى حوض تشابمان منذ ثلاثة أسابيع ... وغطست فى الماء لاقابله ، فحك أنفه بجسمى فى حب ، ثم ابتعد قليلا ، وبدا بوضوح أن هناك شيئا يريد أن يريه لى ، وانه شىء مهم .

واتجه أمامى نحو شاطىء صغير يمتلىء بالحصى الابيض ، يقع على مسافة بضع مئات الامتار الى الغرب من الخليج الصغير الذى لا يمكن الوصول اليه الا سباحة أو بالقارب ، وكنت قد ذهبت الى هناك عدة مرات .. كان هناك كهف يمتد على الشاطىء الى أعماق الصخور ، ويمكن رؤيته من أعلى لبروزه ، وكان يبدو دائما انه مكان مثالى لعجل البحر .

وخرج سامى ثم استلقى منبطحا على الحصى ، وزعمت اننى فوجئت به واظهرت سرورى بذلك ، ورحت اتجول داخل الكهف ، والتقطت بعض القطع المختلفة مما يقذفه البحر ، وكنت اتحدث طوال الوقت وانا ابدى اعجابى بالمكان وبراعته فى اكتشافه .

واخذ ينظر الى فى سرور واشراق .. واخيرا قفزت الى البحر وانا أقول :

ــ لقد أريتنى مكانك السرى ... تعال الآن لكى أريك مكانى .

وانطلق أمامى كما كان يفعل دائما ، منتظرا منى أن الحق به ، وكان فى بعض الفترات يسبقنى كثيرا ، ثم

يغوص فى الماء وينظر وراءه ، فاذاكان الماء صافيا كنت أراه على مسافة بعيدة الى أسفل ، وهو يسير بسهولة أو يتلوى وينحنى برشاقة .. وكان فى بعض الاحيان ينطلق كالطير أو كالصقر وهو يميل وسط الرياح ثم يزيد السرعة ، ويختفى كالسهم الفضى وسط الاعشاب المتموجة التى كنا نسميها « شعر عروس البحر » .. وفى تلك اللحظات ، كنت أتمنى لو كانت لى رئة كرئته حتى أستطيع أن الحق به فى طيرانه خلال هذه البيئة الخضراء المشوبة بالزرقة وكأنه انعدم وزنه

وثمة مغارة أخرى على الجانب الشرقى لخليج « سيكومب » داخلها من البازلت الاملس الرمادى اللون ، يتخلله الماء الشفاف ، ووسط هذا الكهف الوردى تقف صخرة أشبه بالاسفين ، لعل حورية البحر ذاتها كانت تجلس فوقها لتمشط شعرها البحرى الاخضر .. انه مكان مناسب لحورية ، وهو يصلح أيضا لقناة ماء تنحدر من احدى النواحى برقة تتيح موطئا للقدم ، أما الجانب الوعر فكان شديد الانزلاق .

وسبحت على ظهرى ، وصعدت الى سطح الماء ، ثم مددت قدمى أولا وانا اطرطش الماء بقوة ، وفتح سامى عينيه فى دهشة .. كان قد حاول أن يتسلق الواجهة ولكنه لم يستطع الامساك بها . وجذبته الى اعلى ، وجعلته يدور الى الجانب الآخر .. كان يزمجر وقد نفد صبره ، فلم يكن من السهل عليه الصعود نظرا لان الصخر كان مغطى بالطحالب ، واضطررت الى مساعدته ، فدفعته من الخلف أولا ، ثم وقفت على الحافة وجذبته من زعانفه .. كان يلهث من شدة الجهد ، وما كدت أضعه فى مكانه حتى زفر فى وجهى بشدة فسقطت على ظهرى ، وسقط معى وقد تشابكت الاذرع والسيقان والزعانف .. واضطررنا للبدء من جديد .

ولم يتطلب الامر وقتا طويلا لكى يتقن هذه الطريقة .. وفى المحاولة الثالثة ، صعد سامى دون مساعدة ، ثم هبط المنحدر وقد بدت على وجهه مظاهر الفرحة البالغة .

ولم يعد هناك ما يشغله بعد ذلك لحظة عن هذه اللعبة العظيمة ، ولم أكن أستطيع أن آخذ دورى الا اذا أمكننى أن أنهض فى الوقت الذى يهبط هو فيه ، ولكن هذا لم يكن يحدث الا نادرا ، لانه كان ينطلق بسرعة بالغة ، فلا يكاد يسقط فى الماء

حتى يتلوى كالثعبان المائى حول قاعدة الصخرة ، ثم يبدأ فى تسلقها من جديد .

وعندما ذهبت أخيرا نحو البوغاز، تجاهل ندائى وألقى على نظرة وكأنه يقول : « اذهبى أنت كما تشائين ، أما أنا فاننى سعيد هنا » .. وناديته عدة مرات أخرى ، فجاء فى المرة الاخيرة ينظر خلفه فى حنين للصخرة العجيبة ، ولكن كان يبدو بوضوح أنه لا يريد أن يتركنى أرحل بدونه .

كانت تلك هى المرة الوحيدة التى قابلته فيها بعيدا عن الحوض، وقد قل ميله لمغادرتها تدريجا ، وكان الاطفال قد عادوا الى المدارس ، وتناقص فيض الزائرين حتى أصبح نزرا يسيرا ، وبدأ «سامى» بطريقة ما أنه يعرف أنه ينبغى أن يستغل اكبر قدر ممكن من الوقت الباقى ..

وداع عاشق

ان اكتوبر بالنسبة لنا هو أفضل شهور السنة .. الشمس تسطع ، والبحر لا يزال دافئا ونحن نتمتع بالهدوء فى خلجاننا وشواطئنا بعد رحيل جموع المصيفين .. ومع ذلك ففى اكتوبر ١٩٦١ هبت العواصف البحرية مبكرة ، وقبل أن ينتهى الشهر ، كانت حدائقنا قد اصبحت مغطاة بالصقيع ، وأدركت أن سامى قد أصبح يشعر بالوحدة ولا شك، ولم أكن أستطيع الذهاب الى الحوض الا نادرا .

وذات يوم ، وجده « آن لاندر » على قمة المنزلق ، وفى اليوم التالى وجده فوق أرض خضراء على مسافة ١٠٠ متر من البحر ، ولابد انه ذهب الى هناك بحثا عن رفاق يلعب معهم، اختفوا دون أن يعمل حسابا لذلك ..

ولاحظ بيرسى والاس تغييرا فى مزاج عجل البحر . لقد اصبح يصاب بنوبات من الحزن ، وفى أحد الايام تجمع كثيرون منا عند الحوض ، وناديناه فأقبل نحونا ، ولعبنا معه بعض الوقت ، وكانت الرياح تهب بقوة ، وما لبث الباقون أن انصرفوا بعد قليل .

وسرعان ما حدث تغيير من تلك التغييرات المفاجئة التى كثيرا ما تحدث فى جو تلك المنطقة ، فقد برزت الشمس فجأة من حافة السحب ، وتحول الحوض من اللون الاشهب الرمادى الى لون أزرق ذهبى ، وتألقت حصى الشاطىء ، وقد أدى هذا التحول الجميل الى جعل سامى فى حالة نفسية طيبة ، فأقبل نحوى ،

وتدحرج تحت قدمى وهو يتلوى فى مرح ، ويقوم بحركات رشيقة ... وعندما توقفت لكى أدلله وأداعبه ، جذب كم سترتى وبدأ يجذبنى فى الاتجاه المعهود نحو الماء ، وقد بدا ما يريده واضحا على كل خط من خطوط جسمه .

ونظرت الى عينيه المتوسلتين ، ثم أدرت بصرى نحو البحر الشديد البرودة وقلت : « كلا » ، ثم قلت لنفسى انها ستكون المرة الاخيرة ، ومن ثم فقد نزعت ثيابى ونزلت فى بركة بين الصخور ... كان الماء باردا ، ولكننى بقيت حوالى خمس دقائق .. ولعبنا معا أفضل الالعاب المألوفة لنا ونحن نضحك ونصخب، ولكننى كنت أعرف كما يعرف هو أنها المرة الاخيرة .

وفى اليوم التالى ازدادالجوسوءا ، كانت العواصف البحرية والرعود تقصف وتزمجر طوال أسبوع ، واتصلت ببيرسى مرتين تليفونيا خلال الايام الاولى من نوفمبر .. وفىالمرة الثانية قال لى : « أجل انعجلالبحر مازال هناك .. ولكن اذا أردت أن تريه مرة أخرى ، فالافضلأن تذهبى بسرعة » .

وانطلقت الى الحوض بالسيارة كان الجو مكفهرا شديد البرودة ، والسماء تمتلىء بسحب تنذربالشر، وبدأ الخليج مهجورا ، ولكننى رأيت سامى جالسا فوق صخرة يحدق فى الافق وكان المد عاليا وهناك موجة مرتفعة مقبلة بسرعة ، واضطررتأن ادور حول الصخرة لكى أصل الى الطريق المنزلق ، فاستقبلنىبترحيب ملىء بالحب ، ولكن القلق كان يبدو فى عينيه ، وظل يهز رأسه ويطلق أناته ، فجلست وأخذت رأسه بين يدى وربت عليه حتى هدأ .. وكنتاحدثه برقة طوالالوقتقائلة : « أبق معنا .. سينتهى الشتاء ، ويأتى الصيف ، لا تذهب ، بل ابق معنا هنا » .

كان جسمه ثقيلا جدا ، فتقلصت ساقاى ، وكانت الاحجار المبتلةبالماء باردة كالثلج ، فنهضت واقفة ، وما أن فعلت ذلك حتى ابتعد عنىقليلا ، ثم اتجه نحو الماء وهو يفحصنى بنظراته وانا اتبعه .

وبينما كنت أقف مترددة ، جاءت موجة الى أعلى المنحدر ، فجاءمحمولا على الماء ، ولكنه امسكبأحدالمواقع ، وظل ينظر الى بعينين سوداوين معذبتين ، ووصلت الموجة التالية الى قدمي ، فاستدرت على اعقابى

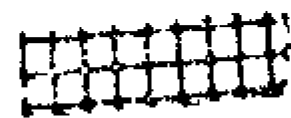
وانطلقت أعدو ، قافزة من صخرة الى أخرى بين الامواج المرتطمة بالصخور ، حتى بلغت الوادي الضيق

وعندما اقتربت من القمة نظرت الى أسفل ... كان الوحل يلوثني وأنفاسي تتلاهث ، ورأيت الجسم الرمادي يبدو صغيرا من بعيد ، وهو يسبح خلال الامواج ، يبدو رأسه حينا ويختفي حينا آخر ، وهو يسير وسط ضباب من السحب ورشاش الماء .

وهناك توقف واستدار ، وأحسست نظراته التي لا تهدأ تتجه نحوي وأنا أواصل تسلقي للارض الداخلة في البحر ، وعندما نظرت في المرة التالية كان البحر قد طواه .. ولم يعد بعد ذلك قط .

***

من أين جاء « سامي » والى أين ذهب ؟ .. هذا ما لم أستطع قط أن أكتشف حقيقته . ولو انه لا يزال حيا حتى الآن ، فانه يكون قد بلغ عامه الخامس ، ذكرا قويا يقترب من مرحلة النضج ، يتحدى سادة الارض التي اختارها للتكاثر ، في كبرياء واعتزاز بقوته ، وسينسى شهورا قضاها ، وألعابا لعبها على شاطىء بعيد في « دورسيت » ، ولكننا لن ننسى أبدا انه جاء كرسول من عالم بعيد أكثر سعادة ، وعندما رحل تركنا أكثر غنى لاننا عرفناه وأحببناه .



اسراف !

مقابل كل ١٠ آلاف شخص في أمريكا يوجد ١٢ طبيبا و١١ محاميا وقاضيا و٤٠ عاملا بمحطات البنزين ، و٣٧ عامل تليفون ، ومجموع هؤلاء جميعا ١٠٠ .

ولكن مقابل كل ١٠ آلاف أمريكي ، يوجد ١٣٠ موظفا مدنيا فيدراليا ـ بخلاف المدرسين ورجال البوليس والاطفاء وغيرهم ممن يعملون للولاية أو الحكومات المحلية .



طريقة مؤكدة !

اذا اردت ان تعرف حقيقة انسان ما .. فاساله عن انسان آخر !

كتاب الشهر

برقية زيمرمان

التي غيّرت مجرى التاريخ

تلخيص كتاب

THE ZIMMERMANN

TELEGRAM

بقلم بربارا تاكمان

في السنة الثالثة من الحرب العالمية الاولي ، تحطم الركود الذي يشوبه اليأس بين ألمانيا والحلفاء ، بفضل ضربة حظ غير عادية وقعت في يد المخابرات ، عندما التقطت الغرفة رقم ٤٠ التابعة لادارة المخابرات بوزارة البحرية البريطانية رسالة بالشيفرة أرسلها وزير خارجية ألمانيا الي سفيره في واشنطون ، وتمكنت من حل رموزها ، فقد كشفت هذه الرسالة عن خدعة ألمانية ضخمة ،وأكدت دخول أمريكا المترددة في الحرب•• وتعتبر الطريقة التي حققت بها بريطانيا هذه الضربة الموفقة واستغلالها من قصص المؤامرات الدولية التي لا مثيل لها علي الارجح في التاريخ الحديث ••

برقية زيمرمان

اولى الرسائل التي التقطت خلال نوبة الصباح ، رسالة ألمانية لاسلكية طويلة الي حد غير عادي ، ولم يجذب نظر الضابط المنوب بالعمل في مخابرات البحرية البريطانية يومئذ في هذه الرسالة غير طولها الزائد ، وذلك عندما بعث بها الي الغرفة الداخلية لحل رموزها •• وكان ذلك في يوم ١٦ يناير ١٩١٧ ، بعد مرور أكثر من النصف علي حرب مضي عليها ٣٠ شهرا من مذابح لا جدوي منها ••

كان يقوم بالعمل عندئذ في الغرفة الداخلية التي تحمل اسما بريئا هو «الغرفة رقم ٤٠» اثنان من الموظفين المدنيين ، كشفا عن موهبة فذة في فنون الشفرة ، أحدهما الاب وليم مونتجومري وهو أديب طويل القامة أشيب الشعر في السادسة والاربعين من عمره ، والثاني نيجل دي جراي وهو مساعد ناشر شاب في الحادية والثلاثين من عمره ، ولم يكن أي منهما يعلم أن بين أيديهما مفتاح الركود الذي ساد الحرب •

وكانت الغرفة رقم ٤٠ رغم اسمها البريء تعتبر أكثر غرف هوايتهول احاطة بالسرية •

وفي ذلك الشتاء الثالث من الحرب، كانت أقدار بريطانيا في تدهور بسبب الخسائر المذهلة التي لحقتها في جبهة « السوم » حيث فقدت اكثر من ٦٠ ألف جندي بريطاني في يوم واحد ، وزاد عدد قتلي الحلفاء والاعداء علي مليون شخص في تلك المعركة التي

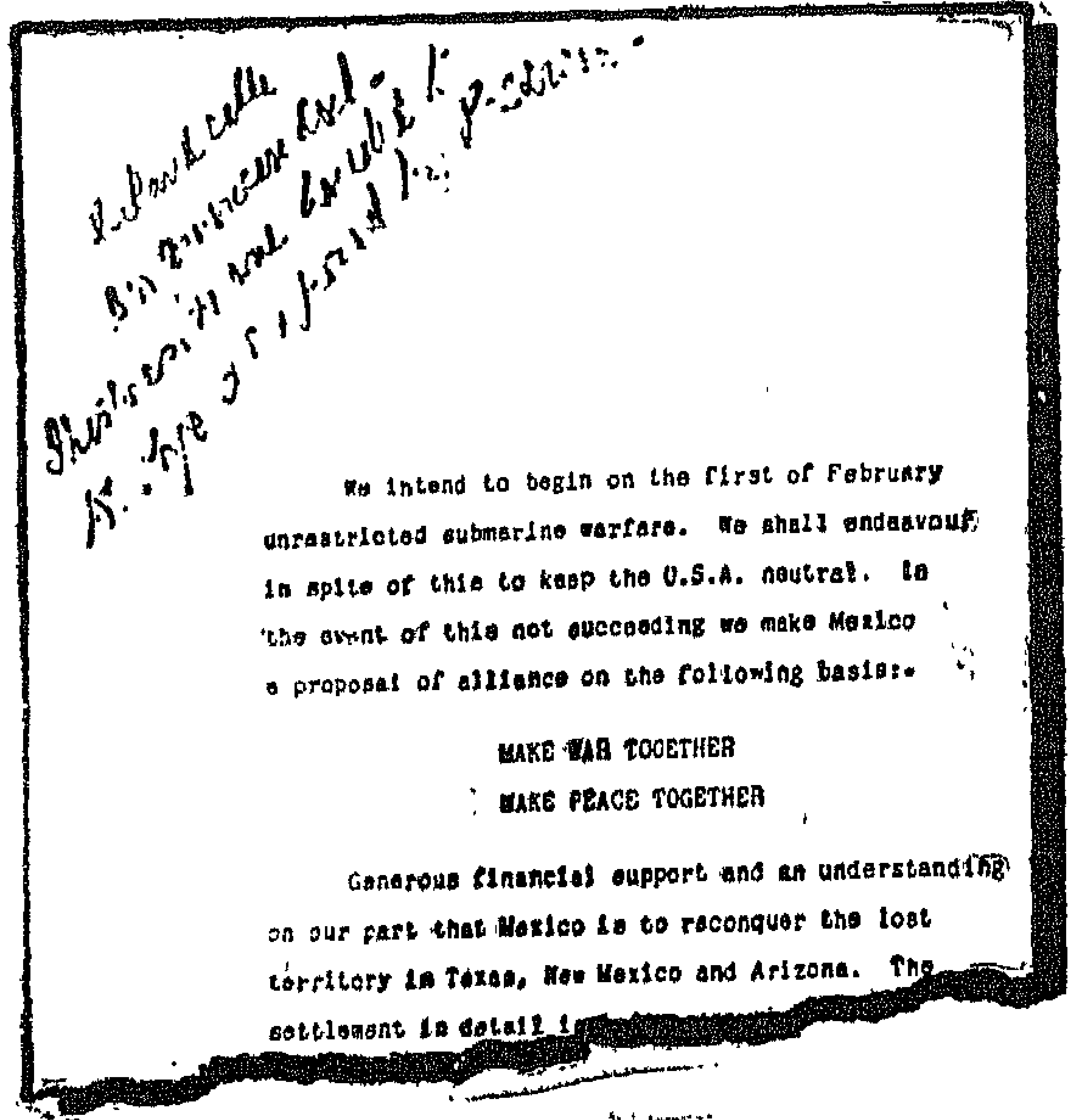
استمرت خمسة أشـــهر دون جدوي فقد ظل خط هندبرج صامدا لم يستطع الحلفاء اخـتراقه ، وأصبحت الارواح تسيل دماؤها كالمـاء دون أن يكسب أي الطرفين تقـــدما ستراتيجيا ، واسـتنفد الفرنسيون قواهم ، وبات الروس يحتضرون . أما رومانيـــا التي دخلت الحرب في صفوف الحلفاء في وقت متأخر ، فقد دمرت وهزمت.

ولم يكن العدل افضـــل حالا .. فعلي الرغم من أن الالمان كانوا يحتلون اغلب اوربا .. فانهم كانوا يعيشـون علي غذاء من البطاطس ، ويجندون الفتيان الذين لم يتجاوزوا الخامسـة عشرة ، ويلجأون الي تدابير تزداد خشونة لاعتصار الجبهة الوطنيـة ، واضعاف النمســا التي كانت لاتزال أكثر احتمالا وضحايا ..

وعكف مونتجومري ودي جــراي علي الرسالة التي التقطت ، وكانت ارقامها تنتظم في مجموعات من رقم ٣ و ٤ و ٩ ، وكانا يتوقعان الكشف عن رسالة طويلة أخـري بين برلين وواشنطون عن التفاوض من أجــل الصلح ـ هـــدف الرئيس وودرو ويلسون العزيز ـ الذي أراد ايقاف الحرب ، متجاهلا اسـتعداد الطرفين للوصول الي حــل وسط ، وكانت برلين تجعله يواصل الحديث في هذا الامر لضمان حيـــاده ، بينما كان الحلفاء ساخطين علي هذه المحادثات، اذ لم تكن وساطة أمريكا هي مطلبهم، بل قواتها غـــير المتعبة ، التي لم تستخدم بعـــد ، وكانت الاسلحة والاموال والســفن والرجـــال وكل ما يحتاج اليه الحلفاء في انتظـــارهم بأمريكا .

واسترعى نظر دي جراي المجموعة العليا من الارقام في الرســـالة رقم ١٣٠٤٢ اذ كانت مغايرة للشـــفرة الدبلوماسية الالمانية رقم ١٣٠٤٠ . وفتح مونتجومري الخـــزانة وأخرج منها نسخة من كتاب الشفرةالالمانية، وكتابا ثانيا يحوي كل المعلومات التي جمعتها الغرفة رقم ٤٠ لتغييرات في الشفرة عن طريق المقارنة بين مئات الرسائل التي التقطت .. وسـرعان ما تأكد الاثنان أن الرســـالة كانت تحمل توقيع زيمرمان وزير خارجيـة ألمانيا وأنها موجهة الي الســـفير الالماني فيواشنطون الكونتبيرنستروف

كانا يتوقعان رســـالة روتينية ، عندما ظهرت أمامهما كلمـــة غير منتظرة .. هي «المكســـيك» .. وتساءل الاثنان : ماذا يمكن أنيقول الالمان عن المكسيك ؟.. وراحايعملان



We intend to begin on the first of February unrestricted submarine warfare. We shall endeavour in spite of this to keep the U.S.A. neutral. In the event of this not succeeding we make Mexico a proposal of alliance on the following basis:-

MAKE WAR TOGETHER

MAKE PEACE TOGETHER

Generous financial support and an understanding on our part that Mexico is to reconquer the lost territory in Texas, New Mexico and Arizona. The settlement in detail i

نص الاقتراح الالماني الوارد في برقية زيمرمان

باهتمام بالغ ، فوجدا كلمة «تحالف» .. ثم دهشا عندما وجدا كلمة «اليابان» وتكررت في عبارة اخري تبين أنها «نحن واليابان» .. فهل يمكن أن تبدل اليابان الجانب الذي تقف فيه ، وهي الان من دول الحلفاء ؟

وعاد موظفا الشفرة يجددان بذل الجهود علي عجل ، وبعد ساعتين، ورغم الكثير من الفجوات في النتيجة .. ظهرت أمامهما صورة يمكن فهمها بوضوح !

كانت الرسالة الملتقطة تحوي برقيتين منفصلتين: الاولى موجهة الى بيرنستروف،لابلاغه أن الالمان يعتزمون استئناف حرب الغواصات دون قيود ، وهو قرار كان الحلفاء يتوقعونه ويخشونه منذ شهور، وكان معنى كلمة « دون قيود» أن الغواصات الالمانية ستغرق كل سفن العدو والسفن المحايدة التي توجد في المناطق الحربية ، بلاانذار ..وسيقدم هذا الاعلان الي الحكومة الامريكية يوم ٣١ يناير ، وهو اليوم السابق لليوم الذي يبدأ فيه اطلاق الطوربيدات!

أما البرقية الثانية فكانت أطول بكثير، اذ تحوي ١٥٥ مجموعة من الرموز ، وكتب عليها (سرية جدا) وهي خاصة بابلاغ بيرنستروف انباء لعلوماته الخاصة ، علي أن يسلمها بعد ذلك الي فون ايكارت وزير ألمانيا المفوض في المكسيك بوسيلة مأمونة .

وكان أغلب البرقية يتحدي الحـل السريــــع للرموز ، ومع ذلك فان الصورة الناقصة لها كانت تكفي لاثارة الذهول •• اذ جاء فيها :

«نقترح بدء حرب غواصـــات في اول فبراير بلا قيود • سوف نسـعى لشـــل حركة الامريكيين ، فاذا لم يحدث هذا ، فسوف نقترح تحالفـــا علي الاسس التاليــة : الاشتراك في ادارة الحرب ، وعقد معاهدة صلح مشتركة ، والتفاوض في نفس الوقت بين أمريكا واليابان • أرجو أن تذكر رئيس المكسيك بأن غواصاتنا سوف تجبر بريطانيا علي الصلح في خـلال شهور قلائل • اخطرونا بالاستلام » •

(زيمرمان)

ولم يعد هناك شك لدي القائمين بحل رموز الرســالة في أهميتها •• فقد كان واضحا أنها تكشف عن خطة تجعل أمريكا معرضـــة للهجوم من جانب المكســـيك المخدوعة ، بينما تدخل اليابان الحرب في صف الالمان •• واسرع مونتجومري الي الاميرال هول مدير المخابرات البحرية ، وعاد مصحوبا برجل صغير الجسم أحمر الوجه •• وسلمه دي جراي الورقة المكتوبة في صمت !

وراحت عينا هول تجريان بسرعة بين الصفحات •• فأدرك علي الفور أن حيازة هذه الرسالة الملتقطة من الجو قد يكون الاداة التي يمكن أن تدفع أمريكا لدخول الحرب ••فليس هناك الان شيء يمكن أن يواجه خطر الغواصات الوشيك الا معجزة التدخل الامريكي •• وقد يكون ذلك بعــد فوات الاوان ، اذ لو حقق الالمـــان ما يرجونه من غواصـــاتهم ، فسوف يموت الحلفـــاء جوعا قبل أن تتمكن أمريكا من تعبئة وتدريب ونقــــل جيشها لمساعدتهم •

كان هول يعلم منذ شـــهور أن الحرب البحـــرية غير المقيدة قادمة في الطريق ، فان الغواصات لم توضع تصميماتها من أجـــل الدور المهذب الذي كان الرئيس ويلســــون يراه مناسبا لها عندما طلب وجوب ظهورها علي سطح الماء والانذار قبل الهجوم، اذ أن هذا يجعلها كالبطة القابعة فوق الماء ، معرضة لنيران فريســتها اذا أطلقت أولا وهكذا تصبح وظيفتهـــا لغوا لا قيمة له •• وأدرك الاميرال هول أن الالمان لم يقبلوا القيود التي عرضها ويلســــون الا لانهم كانوا يفتقرون الي العدد الكافي من الغواصات لاستخدام القوة ، ومنــذ ذلك الحين راحت ورش كييل تصنع الغواصات

ليلا ونهارا ، وكانت برقية اليوم تشير الي أن الالمان قد جمعوا ولاشـك حوالي ٢٠٠ غواصة ، هي العـدد الذي تقدر أنها ستحتاج اليه لتجعل بريطانيا تركع علي ركبتيها ٠

وكان هول يعلم أن الخطر سيكون قاتلا اذا لم تدخل أمريكا الحـرب ، فان العبارات الواردة في برقيـة زيمرمان التي قال فيهـا «اجبار انجلترا علي الصلح خـلال شهور قلائل» لم تكن مجرد زهو فارغ ولكن البرقية تتضمن وسيلة تكفل لبريطانيا تحقيق هذه الغـاية وذلك باخراج الامريكيين من حيادهم ٠

لقد كان الالمان يعتزمون شـغل امريكا علي جانبهـا من المحيط الاطلنطي ، وذلك بتحريض المكسيك واليابان علي مهاجمتها ، وبهذا تصبح منهمكة في القتـال ، حتي اذا ردت علي خطر الغواصات باعلان الحـرب علي ألمانيا ، وكانت تلك خطوة بارعة، لولا أن الالمان لم يقدروا قيمة مخابرات الحلفاء قدرها الحقيقي ، فقـد كان الالمان يفترضون أن الشـفرة التي ابتكرتها العقول الالمانية لايمكن حلها، ولهذا استخدموها دون تغيير منـذ اليوم الاول للحرب ، بينما كانت كل رسالة لاسـلكية يرسلونها تلتقط من الجو وتحل رموزها في الغرفة رقم ٤٠

وكان مثل هذا العمل غير يسير، ففي برقية زيمرمان كانت هناك فقرة صعبة تحوي ٣٠ مجموعة لم يسـتطع القائمون بحل الشفرة الخروج منهـا بأية معـلومات علي الاطلاق ، ولم يستطيعوا التخمين بأنها تحوي أخطر أجزاء البرقيه ٠٠ ولكنهم بعد أسابيع من المحاولات والصبر والعمـل دون هوادة ، عرفوا أن ألمانيا وعدت في هذه الفقرة بمساعدة المكسـيك علي استعادة أراضـيها التي فقدتها في تكسـاس ، واريزونا ونيومكسيكو وذلك بطريق الغزو ٠

ولكن حتي هذا الجزء المحدود الذي أمكن حل شفرته في أول يوم ، كان يحوي من الخطورة ما يكفي لجعـل هول يأسف لاضطراره الي ابلاغ وزارة الخارجية ، فقد كان يكره أن يشاطره أحد في أنباء الضربات الموفقـة التي تصل اليها الغـرفة رقم ٤٠ ، حتي لا تتسرب أية همسـة الي الخارج فتحذر الالمان ٠٠ وهاهو ذا يواجـه الآن المشكلة المؤلمة التي تواجه خبراء الشفرة دائما ٠٠ مشكلة كيفيـة الاستفادة من المعلومات دون الكشف عن معرفة الشفرة ؟

والمعروف أن الجيوش اذا واجهتها

هذه المشكلة ، تفادت تحذير رجالها بتحركات العدو ، اذا كان مثل هذا التحذير كفيلا بكشف معلومات لا يمكن الحصول عليها الا عن طريق معرفة سر شفرة العدو . وسائل هول نفسه : كيف يمكن أن يكشف للامريكيين برقية زيمرمان ، دون أن يكشف لهم أيضا كيفية حصولي عليها ؟. انهم لن يصدقوا مطلقا هذه الرسالة لمجرد أن وزارة الخارجية البريطانية قالت ذلك ، بل سوف يوجهون أسئلة محرجة ، ولو عرف الالمان أن الغرفة رقم ٤٠ حلت شفرتهم فانهم لن يعودوا الي استخدامها ابدا.ويموت جهازالاستماع الدقيق الذي أنشيء بكل عناية طوال عامين ونصف عام !

***

يوم بدأت الحرب ، كان أول عمل هجومي قامت به بريطانيا ، هو اسكات أسلاك الاتصالات البرقية والتليفونية التي لألمانيا عبر الاطلنطي، فرفعت «الكابلات» الخمسة التي تمر بقاع المانش ، وقطعتها سفينةالاسلاك البريطانية «تلكونيا» واحدا بعد الاخر ، وعندما تم قطع الخطالواصل بين البرازيل وغرب أفريقيا أيضا ، عزلت ألمانيا عن الاتصال المباشر بالعالم عبر البحار ، ومنذ ذلكالحين وقع عبء اجراءالاتصالات علي محطة «نون» اللاسلكية الالمانية القوية قرب برلين ، ولكن شيئا لم يكن يستطيع أن يمنع العدو من التقاط الرسائل اللاسلكية من الهواء ، ومن أجل هذه المهمة ، أنشئت الغرفة رقم ٤٠ .

وسرعان ما أعد لهذه الغرفة مكان مؤقت في بدروم وزارة البحرية تحت ادارة الاميرال هـ. أوليفر باعتباره مديرا لمخابرات البحرية ، واقيمت محطات للاستماع تتصل أسلاكها مباشرة بوزارة البحرية علي الساحل الانجليزي ، كما شجع هواة اللاسلكي علي التقاط الاشارات الالمانية والابلاغ عنها وجندت الحكومة خبراء الشفرة من مختلف البيئات ، وشرعوا في محاولة حل الشفرة في الرسائل الالمانية التي تلتقط ، فوجدوا أن الالمان عندما يستخدمون شفرة ما ، فانهم يلفونها عادة داخل غلاف اضافي من شفرة أخري ، أي أنهم كانوا يضعون الشفرة داخل شفرة ، وقد وضعت الشفرة علي أساس «استبدالات» ، اختيرت بطريقة تحكمية ، ففى عام ١٩٤٤ مثلا كانت عبارة «أوفر لورد» هي كلمة الشفرة لغزو نورمانديا ، كما كانت

الشفرة تستخدم حروفا او ارقاما وفقا لنموذج مرتب بطريقة خاصة.

وكان الالمان يغيرون « المفتاح » لشفرتهم مرة كل ٢٤ ساعة ، ولكن نظرا للطباع الالمانية الغالبة ، كانوا يغيرونها وفقا لترتيب منتظم، فلايكاد خبراء الغرفة رقم ٤٠ يحلونها مرة حتي يستطيعوا حلها في كل مرة بوساطة السير وفقا لاسلوب مطرد.

وفي ١٣ أكتوبر ١٩١٤ وفق الحلفاء الي «لقطة» غير عادية .. فقد قدمت السفارة الروسية لفافة صغيرة ثقيلة عثر عليها أحد ضباط أركان حرب الاسطول الروسى ، تبين أنها عبارة عن كتاب للشفرة البحرية الالمانية مبطن بالرصاص ، وكان موجودا في الطرادة الالمانية الخفيفة « ماجدبرج » التي أغرقها طرادان روسيان في خليج فنلندا ، وبينما كان الروس يقومون بانتشال البحارة الالمان من الماء . انتشلوا ايضا جثة احد جنود الاشارة وقد تصلبت ذراعاه علي كتاب الشفرة ، اذ أصيب في اللحظة التي حاول فيها التخلص منه.. وقرر الروس بادراك سليم ، أن هذه الشفرة قد تتمكن وزارة البحرية البريطانية من استخدامها بطريقة أفضل ، فأرسلوها الي لندن .. وقد أدي هذا الكتاب المشبع بملح البحر الي معرفة أعمدة الكلمات التي تقوم عليها شفرة البحرية الالمانية ، كما كفلت أيضا مفتاحا لنظام الشفرة الذي كانت الشفرة تتغير بموجبه دوريا ، وكفلا معا دليلا جوهريا لأسلوب الشفرة الالماني .

وفي نوفمبر رقي الاميرال أوليفر الي رئيس أركان حرب ، وتولي منصب المدير الجديد للمخابرات الكابتن وليم ريجنالد هول القادم لتوه من قيادة طرادة مقاتلة ، والذي اشتهر منذ زمن بعيد بعدم تقيده بالاجراءات الروتينية ، وكان أول عمل قام به ، هو نقل رجال المخابرات من المبني الرئيسى لوزارة البحرية الي مبني آخر هاديء مجاور كان يعرف باسم «المبني القديم» ..وهناك بعيدا عن الضجيج والزائرين كان ثمة جناح معزول من الغرف يفتح علي المنزل رقم ٤٠ ، ورغم أن الرجال قد انتقلوا مرة أخري الي مكان أكبر ، فقد ظل اسم الغرفة رقم ٤٠ ملتصقا بالعملية طوال الحرب ، واشتهر منذ ذلك الحين في أعمال الشفرة ، وفي الوقت الذي التقطت فيه برقية زيمرمان ، كانت الغرفة ٤٠ تستخدم حوالي ٨٠٠ عامل لاسلكي وحوالي


The New York Times.

"All the News That's Fit to Print."

GERMANY SEEKS AN ALLIANCE AGAINST US;
ASKS JAPAN AND MEXICO TO JOIN HER;
FULL TEXT OF HER PROPOSAL MADE PUBLIC

CONGRESS TO BACK WILSON

JAPAN CALLS IT MONSTROUS

WASHINGTON EXPOSES PLOT

العناوين الرئيسية بصحيفة « النيويورك تايمز » وتشير الى سعى المانيا للتحالف مع اليابان والمكسيك ضد امريكا

٧٠ من الكتبة وخبراء الشفرة ..

لم يكن هول يعرف شيئا عن فن الشفرة ، ولكنه رأى الفرص المتاحة لاحباط خطط الالمان التي كانت تكشف بمعرفة محطمي الشفرة في الغرفة رقم ٤٠ ، وسرعان ما عمل على توسيع الافق الاصلي للمخابرات البحرية وتولي عملية تدبير مؤامرات مضادة للمؤامرات الالمانية في كل مكان في العالم ، وتغلغل في كل وكر للجاسوسية ..

وقد وجدت سكوتلنديارد في مطاردتها للجواسيس الالمان مساعدة من هول .. وأينما كان رجال المخابرات يتجمعون للتحول ضد العدو ، كنت تجد هول ، وفي كل بقعة يحتمل أن تكون مصدرا للمتاعب ، كان يضع أحد رجاله أو ينشىء اتصالا مع شخص يعطف على الحلفاء ..

وكان هذا النشاط كله يختفي خلف ستار دقيق من مظهر عادي ، بحيث يعتقد الجميع أن مخابرات البحرية ليست الا هيئة تقوم بما يفترض أن تقوم به ، وهو متابعة حركات الاسطول الالماني وتحديد مواقع الغواصات بالتقاط اشاراتها اللاسلكية ، ورسم حقول الالغام وهو ما كان يقوم به في الواقع فريق الغرفة رقم ٤٠ الخارجى ، الذي كفل اكمل غطاء لنواحى النشاط الاخرى التي كانت تقوم بها المجموعة الداخلية .

وقد توجت جهود الغرفة بالنجاح بحصولها علي مختلف الشــــفرات الالمانية بتوجيــــه من هول ، ففي ديسمبر ١٩١٤ أخرجت سفينة صيد انجليزية في شباكها صـــندوقا من الحديد كان في مدمرة ألمانية غارقة ، كان يحوي كتـــاب الشـــفرة التي تستخدمها برلين في الاتصالبضباطها البحريين في الخارج ، وثمة نجـاح آخر حدث عنــدما علمت مخابرات الحلفاء ان هنـــاك كاتب شفرة خبيرا يعمل في المحطة اللاسلكية الالمانيـــة القوية ببروكســل ، وكان يعتبر من الناحية الفنية من رعايا بريطانيـــا علي الرغم من أنه ينحـــدر من أب نمسوي وأم مجــرية ، اذ ولد في كرويدون ، وعرف هول كيف يستغل هذه المعلومات عن طريق رسالة من أحد أقارب الرجـــل في بريطانيا ، واستخدام وسائل ضغط اخــري حتي اقنع كاتب الشفرة المتردد في النهـاية بسرقة أسرار الشفرة ونسخها جزءا جزءا ليمكن تسليمهـــــا لجاسوس بلجيكي ٠

وتحققت «خبطة» أخـــري في عام ١٩١٥ عندما ذهب «ويلهلمواسموس» الالماني المرح الذي كان قنصـــلا في بوشير علي الخليج العـــربي بضع سنوات ، في مهمــة خطيرة لادخال ايران الحرب الي جانب ألمانيا ،وكان هدفه الاول هو قبـائل بختياري التي تجري أنابيب البترول الانجــــلو ـ ايرانية في أراضيها ٠ ومر في سـفره ببلدتي «ديزفول» و«شوشتار» وتحدث مع زعماء القبـــائل ووزع منشورات تحضهم علي شن حرب مقدسة ضد الانجليز ٠٠ ولكن الحاكم المحلي في (بهبهان) اعتقــــل واسموس وأبلغ الانجليز في بوشير للحضور وتسلمه، ولكن القوة الانجليزية وصلت بعـــد فوات الاوان ، فقد فر الاسير تاركا حقائبه خلفه ، فأرسلت الي لندن ٠

وحاول واسموس بعد ذلكاستعادة متاعه ، وأثار ضجة كبري لضياعه أثارت الشك في أنه لابد يحوي شيئا ذا قيمة غير عادية ، وتبينت صحـــة ذلك ، اذ وجد هول حقيبة منها في قبو المكتب الهندي علي مسيرة ثلاث دقائق من الغرفة رقم ٤٠ ، ووجــد بين محتوياتها كتـــــاب الشــــفرة الدبلوماسية الالماني رقم ١٣٠٤٠ ٠ وتبين انهذا الرقم هو احدي شفرتين تستخدمان للاتصــــالات بين برلين وواشنطون ٠

وبهذه الشفرة اســتطاع الاميرال هول الاطلاع علي التقارير التي يبعثبها بيرنستروف منواشنطون٠ ومنذنوفمبر ١٩١٦ تركزت هذه التقــــارير حول

جهود الرئيس ويلسون للتوفيق بين المتحاربين ، وكان واضحا أن الالمان لايعتزمون النظر جديا الي دورأمريكا كوسيط ، بل كانوا يدخرون لها أدوارا أخري !

واضطرب جدول مواعيد ألمانيا لتحقيق انتصار سريع عندما أوقف الدفاع في «المارن» جيشها عليمسافة خطوات من باريس ، وزاد الركود في نوفمبر عندما أدي الدفاعالمستميت في «الايبر» الي سد الطريق اليموانئ فرنسا علي بحر المانش ، وضاعت بعد ذلك كل الآمال في «المعركة الحاسمة» التي كان يدعو اليها كلاوزفيتز ، وسط الطمي الغارق بالدماء في «الفلاندرز» ، وركدتالحرب علي طولخط من الخنادق يمتد منالالب الي بحر المانش •

في ذلك الحين ازدادت أهمية الولايات المتحدة في الخطة الالمانية ، وكان من الضروري وقف الامدادات الحربية عبر البحار لاضعافالحلفاء، وليست هناك طريقة أفضل لتحقيق ذلك من جعل الولاياتالمتحدة تنشغل في حرب مع المكسيك أو اليابان او كلتيهما معا تمتص كل قواها •

كانت اليابان قد أعلنت الحرب حقا عليألمانيا في ٢٣ أغسطس١٩١٤، وانتزعت بذلك القاعدة البحرية الالمانية في «تسينجتاو» وجزر الباسيفيك الالمانية ، «ياب» و «تروك» ،وجزر مارشال وكارولين التي اشتهرت في الحرب الثانية •

ولكن نشاط اليابان الحربي توقف عند تلك النقطة ، وظنت ألمانيا الان انها تستطيع اغراءها لتغيير موقفها ، وشجعت اليابان هذا الاعتقاد ، ولم تكن راغبة في كتمان عروض ألمانيا عن آذان الحلفاء فكلما زاد الشك في ولائها ، زاد الثمن الذي يدفعه الحلفاء للابقاء علي هذا الولاء !

وكان الصدام بين أمريكا واليابان يعتبر في أوربا أمرا لا مفر منه ، وهو رأيكان يزيده تأكيدا احتجاجات اليابان الغاضبة علي ابعاد أمريكا للعمال اليابانيين ، والانباء المتواترة عن نشاط اليابان الخفي في امداد المكسيك بالاسلحة والرجال ، وكان المفروض أن المكسيك ستكون قاعدة للغزو الياباني اذا نشبت مثل هذه الحرب ، فان سواحل المكسيك البحرية الممتدة علي الباسيفيكي بطول ٤٦٠٠ كيلومتر كانت تغري بالاعمال البحرية • كما كانت حدودها الشمالية وطولها ١٩٠٠ كيلومتر تمس الاراضى التي كانت ملكا

لها يوما ما ، وكان أهل المكسيك يكنون سخطا على جارتهم القوية في الشمال •• وفي ايجاز كانت المكسيك نقطة الضعف للولايات المتحدة •

وكانت المكسيك كذلك مكانا طبيعيا للمتاعب •• فلم يكد الرئيس ويلسون يدخل البيت الابيض حتي واجه ازمة كبري في المكسيك ، اذ كانت الثورة قد أشعلت في البلاد نار حرب أهلية ، تهدد العناصر المتنافسة فيها بتحويلها الي «بلقان» أخري في أمريكا اللاتينية •• وبدأت ألمانيا تقدم الاسلحة والاموال لاحدي الجماعات ثم للاخري لمحاولة استفزاز أمريكا للدخول في حرب فعلية معها •

وكان هناك ما يثير سرور ألمانيا بنتائج تدخلها •• ففي ليلة ٩ مارس ١٩١٦ أغار «بانشوفيلا» ـ الثائر الامي الذي كان يسيطر علي شمال المكسيك كله ـ بتحريض من ألمانيا علي بلدة (كولومبس) بنيومكسيكو ، وكان هذا الهجوم الذي قتل فيه الكثيرون من الرعايا الامريكيين استفزازا طائشا الي حد أن الرأي العام لم يترك للرئيس ويلسون خيارا الا أن يرسل الجنرال بيرشنج الي الحدود علي رأس حملة تأديبية ، ولكن غاراتها المحدودة الحذرة في المكسيك فشلت في القبض علي بانشوفيلا المراوغ ، وان كانت قد حققت نتائج أخري سريعة اذ أصبح وجود قوات أمريكية علي الارض المكسيكية مصدرا مستمرا للتوتر في العلاقات بين أمريكا والمكسيك •

كان الاميرال هول يعرف هذه المعلومات العامة ، ويعرف أيضا القلق الذي ينظر به كثير من الامريكيين الي أهداف ألمانيا الحربية ، ورأي أن برقية زيمرمان تجعله يمسك الاداة التي تمكنه اذا استطاع استخدامها من القضاء علي حياد الولايات المتحدة •• وكانت « اذا » هذه هي مشكلته •• فانه اذا أعطي أرثر بلفور وزير خارجية بريطانيا البرقية لاستخدامها حسبما يري في واشنطون ، فسيكون معني ذلك أنه يقامر بكل شيء علي أنها ستؤدي الي ادخال أمريكا الحرب •• ولكن اذا فرض انها لم تفعل ذلك ، فسيكون قد قامر بالشفرة دون أن يكسب شيئا •••

كان هول في ورطة مؤلمة يتساءل : تري هل من حقه ان يخفي هذه المعلومات عن حكومته ؟ •• وأصابته الحيرة ، ولكن السنوات التي امضاها في قيادة السفن البحرية علمته



ان يتخذ القرارات بمفرده .. وقرر ان يغلق خزانتـه الخاصة علىالبرقية مؤقتا ، اذ ربمـا دخلتامريكا الحرب تلقائيا عندما تعلم نبأ حرب الغواصات غير المقيدة التي ستشنها المانيا ، فان لم تفعل ذلك فسوف يكـــون من المستطاع استخدام البرقية .. ولكن اول ... كان لايزال باقيـا عليه أسبوعان ، وقد يتمكن في غضون ذلك من تغطيه اثار ... رقم (٤٠) .

***

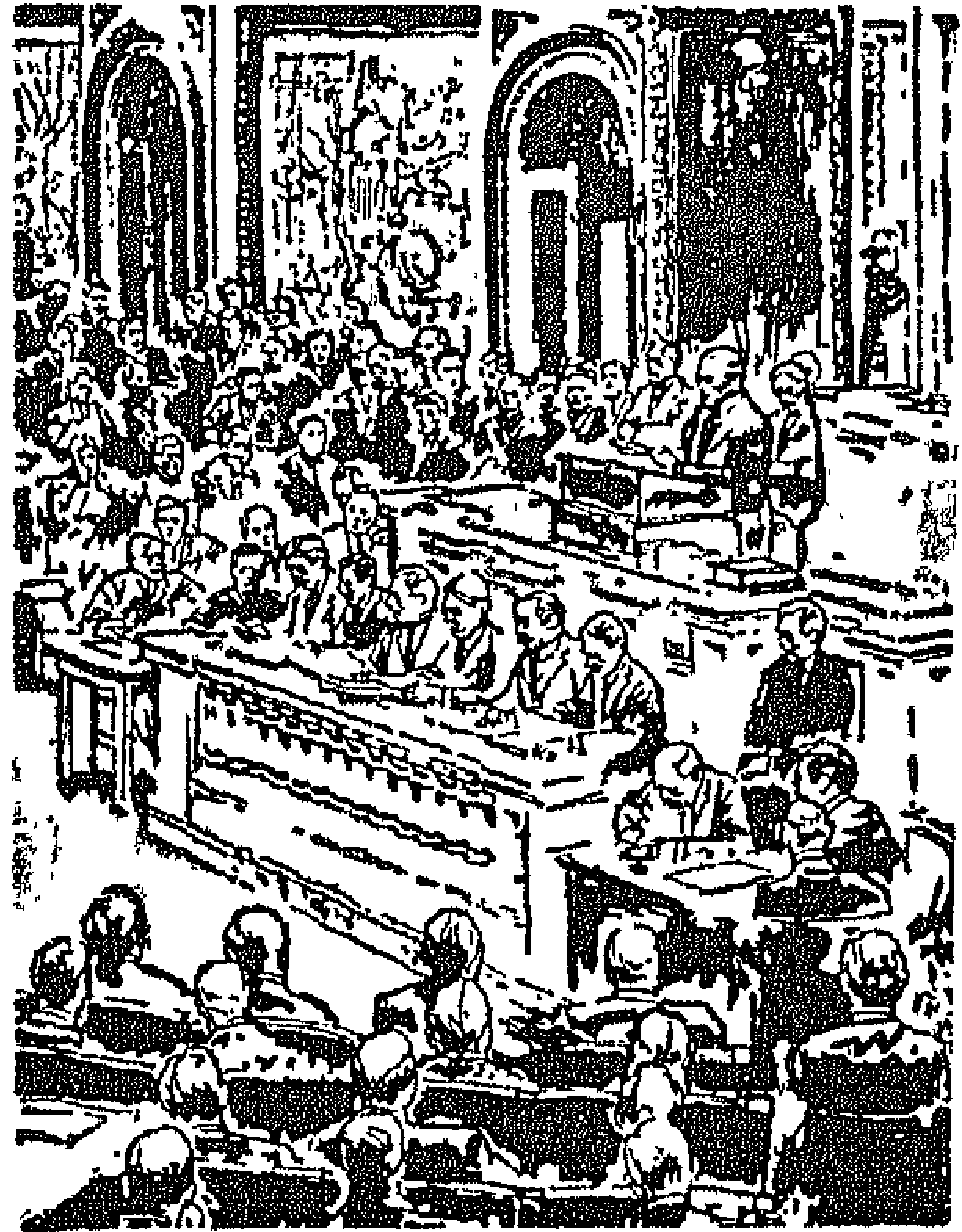
في ٢٢ يناير ... وودرو ويلسون نداء الاخير المؤثر للسلام ، فقد القى امام مجلس الشيوخ الامريكي خطابه الشهير عن « السلام بلا نصر » .. ولكنه كان يقصد توجيهه الي شعوب العـالم من فوق رؤوس حكوماتهم ، واستجاب بيرنستروف للنداء بصـورة مشجعة فناشد برلين ان تمنح السفن المحايدة علي الاقل مهلة قبل اغراقها قائلا انه يعتقد ان ويلسون سيضاعف جهوده في هذه الحرب من اجل الصلح وتلقى المستشار فون بيتمان هولويج في برلين هذه الفكرة بعطف ، ولكن اسطوله ابلغه في اقتضاب ان الوقت متأخر ، فان كثيرا من الغواصـات الالمانية كانت في البحر فعلا .. (وقد كرس بيرنستروف كل نشاطه بعـــد الحرب في عصبة الامم وهجر المانيا بعد استيلاء هتلر علي الحكم ولم يعد اليها قط)

وفي ٣١ يناير – في آخر لحظـة ممكنة – سلمت المانيـــا للحكومة الامريكية اعلانها الخاص بحـــرب الغواصات .. وفي الرابعة مساء ، عند نهـــاية العمـــل الرسمي . قدم بيرنستروف الاعلان لوزير الخارجيـة الامريكية لانسنج رسميا .

كان تحـــدي القوة الالمانية الذي دافعت عنـــه مذكرات ويلســـون ومحادثاته للصلح قد انهي الآن فى وجه امريكا .. وعقبت صحيفـــة امريكية بقولها : « ان حرية البحـار لن تتمتع بها بعد الان غير الاسماك وجبال الثلج » . وظل العالم ينتظـر في قلق لمدة ثلاثة ايام ما سوف تفعله امريكـــا .. وفي ٣ فبراير ، اعلن ويلسون قراره ، وهو قطع العـلاقات

الديبلوماسية مع ألمانيا ومطالبة بيرنستروف بالرحيل ، ولكن ويلسون أكد انه لن يسمح للاستفزاز الالماني ان يدفعه الي الحرب ــ اذا كان من الممكن تفادي الحرب ــ الي ان يرتكب الالمان اعمالا حربية صريحة . وقال للكونجرس : « انني ارفض ان اعتقد أن السلطات الالمانية تنوي حقا ان تفعل ما انذرتنا به بأنها ستكون حرة فيما ستفعل » .

وفي لندن ، وجد الاميرال هول خطاب ويلسون مخيبا لآماله ، وان الامريكيين لن يدخلوا الحرب بعد كل ذلك ، ولم يعد هناك مفر من استخدام



برقية زيمرمان . وفي ٥ فبراير فتح هول خزانته ، واخرج الوثيقة المحفوظة فيها بعناية ، واتجه الي وزارة الخارجية .. كانت الرسالة لاتزال ناقصة ، ومبهمة في بعض المواضع ، ولكن فيها الان ما يكفي لاظهار ان الغرفة رقم ٤٠ حصلت علي اكبر « خبطة » في الحرب ، وعندما علم بلفور بها ، احس بالغبطة والسرور .

ولكن بقيت مشكلة : كيف يسلم البرقية ؟ .. لقد اصر هول على انه يجب حل الاجزاء الناقصة منها قبل استخدامها ، وان تكون خططه لاخفاء حصول الغرفة ٤٠ علي الشفرة تامة

وكان هول قد ابتكر حيلة فعلا لخداع الالمان ، فقد رأى انه اذا استطاع ان يضع يده علي صورة البرقية التي ارسلها بيرنستروف الي المكسيك ، فانه لن تكون هناك الا اختلافات قليلة مهمة في المصدر والعنوان بينها وبين البرقية الاصلية المرسلة من زيمرمان الي بيرنستروف واذا نشرت مثل هذه النسخة فسوف يعرف الالمان الاختلافات ، ويستنتجون ان الالتقاط تم في مكان ما في القارة الامريكية . ولما كانوا علي ثقة من حصانة شفرتهم واستحالة حلها ، فانهم سيقنعون انفسهم بأن النسخة

التي حلت رموزها قد افشيت او سرقت بعد وصولها الي وجهتها ، وسيلقون اللوم على الاهمال او خيانة جواسيس داخل سفاراتهم فيواشنطون او المكسيك ، وهكذا يبقى دور الغرفة ٤٠ بعيدا عن الشكوك •• وقد تصرف الالمان كما تنبأ هول تماما •.

ففى ١٠ فبراير نجح هول في الحصول علي نسخة من برقية زيمرمان كما وصلت الي مدينة المكسيك من بيرنستروف وذلك بالاستعانة بعميل يستطيع دخول مكتب البرقيات المكسيكي ، وكانت لا تحوي غير خلافات صغيرة في النصوص كما كان يرجو هول ، وبهذا كنت حماية كاملة للغرفة رقم ٤٠ •.

وفي ١٩ فبراير ، اتم مونتجومري ودي جراي حل رموز الفقرات الناقصة ، فتبين انها أكثر اثباتا للتهمة علي الالمان ، اذ كشفت عن وعد ألمانيا بمساعدة المكسيك علي استعادة اراضيها المفقودة في تكساس واريزونا ونيومكسيكو بطريق الغزو ، وعندما تم اعداد كل شيء ابلغ هول وزير الخارجية بلفور ان اللحظة قد حانت لكشف البرقية للسفارة الامريكية في لندن •.

***

وارسلت برقية زيمرمان كما ينبغي لويلسون بوساطة السفير ولتر فيلندن والى لانسنج وزير الخارجية الامريكية في واشنطون ، وكانت تلك وثيقة لا يستطيع ويلسون تجاهلها ، فضلا عن انها وصلت في لحظة دقيقة بصورة خاصة ، فمنذ اصدرت ألمانيا اعلانها عن حرب الغواصات بلا قيود ، أصبحت السفن الامريكية غير الراغبة في الاقلاع تسد المواني ، وتكدست شحنات من القمح والقطن وكل المؤن الاخري ، واصبح حق الملاحة فيأعالي البحار المقدس معرضا للضياع مع ما يترتب على ذلك من عواقب اقتصادية خطيرة ، اذا لم يسمح بوضع مدافع في السفن التجارية ، مع اصدار الامر لها باطلاق النار بمجرد الرؤية •.

واراد ويلسون تسليح السفن ــ لا كخطوة نحو الحرب ــ بل باعتبار هذا آخر محاولة لتفاديها ، وكان يأمل انه بهذا سيردع الالمان عن ارتكاب « عمل صريح » يجعل الحرب أمرا لا مفر منه ، وكان هو نفسه يستطيع بسلطته التنفيذية ان يأمر بتسليح السفن ، ولكن استخدام الاسلحة كان خطوة مهيبة تنذر بالسوء تتطلب مصادقة الكونجرس ، وكان هناك عناصر

ضخمة من انصار السلام تعارض هذه الخطوة ، وبينما كان يدرس برقيــة زيمرمان ، رأى فيها وسيلة للحصول على تصديق الكونجرس على تسليح السفن اذا اذاعها .

ولتفادي الظهور بمظهر الراغب في التأثير على الكونجرس ، اخر نشــر البرقية الى ما بعد تقديمها بثلاثة ايام ثم أذيع نبؤها بطريقة غير رسمية عن طريق وكالة الاسوشيتد برس ، وكانت الوكالة قد عرفت الظروف التي أحاطت بالحصول عليها ، وتعهدت بكتمانها . واصبحت الاســتفهامات التي تلت اذاعتها من الصحافة ، يرد عليهــا بتلميحات غامضة توحى بأنهــا حصلت عليها في المكسيك او واشنطون او ربما في ألمانيا نفسها ، وان الالحاح في الحصول على مزيد من المعلومات قد يعرض حياة العميل الذي حصــل عليها للخطر .

ونشرت القصــة في الصفحات الاولى في صحف الخميس اول مارس .. وقالت « النيــويورك تايمز » : « ألمانيا تسعى لعقد تحالف ضد امريكا ، وتســأل اليابان والمكسيك الانضمام اليها ... اذاعة النص الكامل لاقتراحها » .

وشملت الاثارة امريكا كلهــا ، وعندما جاء اعضاء الكونجرس الى الكابيتول في الصباح ، كانوا يحملون في أيديهم الصحف التي تضج بأنباء المؤامرة الالمانيــة ، ورددت جوانب مجلس النواب اصداء الخطب الوطنية الجارفة ، ووافق المجلس على قانون تسليح الســفن بأغلبية ٤٠٣ أصوات ضد ١٣ ، ومع ذلك فقد شــــهد مجلس الشــيوخ خطبــا مستفيضة تتحدى صحة برقية زيمرمان ، بينما عمــل السناتور هنري كابوت لودج الذي يمثل الشعور الموالي للحلفاء على توريط الحكومة ، اذ عندما قرأ لودج صحف الصباح ، توقع على الفــور ان ويلسون والحرب اصبحا بين يديه .. وقال لودج يومئـــذ لتيودور روزفلت ان الرئيس قدم « اداة ذات فائدة لا حد لها » في دفع الموقف ، وانه اذا امكن جعل ويلسون يقول ان البرقية صحيحة ، فانه ســوف يصبح مقيدا ، اذ لاشك ان البــلاد كلها ستثور غضبا على الالمان وسيعجز ويلسون عن تخليص نفســـه من النتيجة .

وما كاد لودج يصــل الى مجلس الشيوخ ، حتى قدم مشروع قرار يطلب فيه بيانا من رئيس الجمهورية بشأن برقيــة زيمرمان ، ثم جلس

يرقب التمثيلية وهي تسير وفقا لما يهوي ، حيث ردد كل انصار السلام من الشيوخ كل الشكوك التي تحوم حول أصل البرقية ، وكان كلما زاد جدلهم ، كثر الضغط على ويلسون بضرورة اذاعة تصريح عنها .

***

وكان الاميرال هول قد توقع الشكوك الامريكية حول البرقية واستعد لمواجهتها ، وكان قد طلب الي وزارة الخارجية الامريكية الحصول علي صورة منها من محفوظات شركة « ويسترن يونيون » (اذ أرسل بيرنستروف البرقية الى المكسيك عن طريق التلغراف التجاري) وارسل هذه الصورة الي لندن ، وعندئذ حمل « دي جراي » معه كتب الشفرة الالمانية الي السفارة الامريكية بلندن ، حيث قام بحل رموزها من جديد تحت انظار دبلوماسي امريكي .

وفي غضون ذلك ، وجد في ملفات وزارة الخارجية الامريكية ما يؤيد برقية زيمرمان ، وكان الدليل عبارة عن رسالة بالشفرة طويلة الي حد غير عادي ، اذ تضم حوالي ١٠٠٠ مجموعة ، وقد تلقاها بيرنستروف عن طريق الخط التلغرافي الخاص بوزارة الخارجية في ١٧ يناير، وكان طولها وتاريخها اقوي من ان يكون مجرد مصادفة ، كما كانت الظروف شائنة بصورة خاصة ، اذ كان ويلسون في حماسته للابقاء علي محادثات الصلح مستمرة قد منح بيرنستروف امتيازا غير عادي وغير حيادي ، وهو ارسال وتلقى الرسائل بالشفرة الالمانية عن طريق الخط الخاص بوزارة الخارجية الامريكية ذاتها ، علي ان يكون مفهوما انتقتصر هذه الرسائل علي موضوع الصلح ، ولكن زيمرمان بوقاحة وبرود بعث نسخة من برقيته المكسيكية عن طريق هذا الخط ، كما ارسلها باللاسلكي .

وغضب ويلسون لهذا الدليل على الغدر الالماني ، ونظرا للمعارضة المستمرة في مجلس الشيوخ لقانون تسليح السفن ، فانه لم ينتظر التأكد من السفارة في لندن ، بل وقع بيانا أعده وزير الخارجية لانسنج وأرسله الي مجلس الشيوخ ، وقد اكد ان الحكومة لديها دليل يثبت صحة البرقية التي « حصل عليها خلال الاسبوع الحالي » وانه لا يستطيع اذاعة معلومات اكثر من ذلك .. وهكذا اطبق فخ لودج علي ويلسون

ويقول لودج معقبا علي ورطة

ويلسون المروعة : « انه لم يكن يقصد دخول الحرب ، ولكنني اعتقد انه وقع في قبضة الاحداث ».

ومع ذلك ، فان الاحداث لم تكن تتحـــرك بسرعة .. فقـــد انكر اليابانيون والمكسيكيون اي علم ببرقية زيمرمان وقالوا انهم لم يتلقوا مثـل هذه الرسالة .. وعلي الرغم من بيان الرئيس ويلسون ، فقد ظل عـــدد كبير من الامريكيين يشك في صحـة البرقية ، وذهل الالمان لاذاعة الرسالة فالتزموا الصمت في البداية ، وان كان متوقعا ان زيمرمان سوف يتحـــدي امريكا في اثبات صحة البرقية ، وكان المســـئولون يفكرون في يأس ماذا يقولون عنـــدئذ . بعد ان تعهدوا لبريطانيا بكتمان سريتها .. وفجأة أحس الجميع بارتياح مذهل ، عندما اعترف زيمرمان ـ لاسباب لا يمكن تفسيرها ـ بأنه ارسل البرقية !

ولم يعرف قط ما الذي جعـــــل زيمرمان المعـــروف بسعة الحيلة والدهاء ، يرتكب هذه الغلطة التاريخية وراحت الصحف الالمانية تدافع عنه قائلة ان الاقتراح الوارد في البرقيـة كان اقتراحا مبدئيا ولكنه لم يرســـل قط للحكومة المكســـيكية . وقالت الصحف : ان المكسيك لم تكن لتسمع قط عن هذا التحالف لو لم تحصـــل الولايات المتحدة علي البرقية بطريق الخيانة وتقـــوم بافشائها للتأثير على الكونجرس بالطريقة التي اتسم بهـا ويلسون المنافق !

وكان اثر اعتراف زيمرمان بالبرقية سريعا ومتفجرا في الولايات المتحدة ، فقد كان حوالي ثلاثة ارباع الشعب مازال حتي تلك اللحظـــة ينظر الي الحرب بلا اكتراث ، وان كان اغراق الباخرة لوزيتانيا قد هز البـــلاد بشدة ، الا ان الامريكيين باتوا منذ ذلك الحين لا يتأثرون بالانباء المتكررة عن ضرب الســـفن التجـــارية بالطوربيدات ، ولم يهتموا بمصـــير الاشخاص الذين اختاروا عبـــور المحيط علي سفن مقاتلة في زمن الحرب .. اما هذا الموضـــوع فهو شيء مختلف تماما .. فهذه هي ألمانيا تتآمر مع دولة من جيران امريكا علي انتزاع ارض امريكية ، والاسوأ من ذلك انها تتآمر لوضع عدو من الشرق الاقصى في ظهر امريكا .. وادي ادراك ذلك الي اخماد آخر ذبالة من الدعـــوة للسلام ، واقنـــاع الامريكيين بأنهم مشتركون في الحرب ، سواء شاءوا أو لم يشاءوا !

***

كان زيمرمان يحـــاول في برلين بجنـــون ان يعرف كيف افشى سر البرقية ، ومع ذلك ، فان احدا لم يبحث فكرة ان سر الشفرة قد عرف ، وبدلا من ذلك قرر الالمان انه لابد ان صورة من البرقية قد سقطت في يد العدو عن طريق الاهمال وحلت شفرتها ، وكان لابد من كبش للفـــداء : اما بيرنستروف أو ايكارت •

وانهال زيمرمان ببرقيـــات علي ايكارت يطلب تفاصـــيل عن كيفية التصرف في البرقيات ، واصدر اليه التعليمات بحرق كل التعليمات المثيرة للشبهات •• ونفى ايكارت بحماسة احتمال حدوث الخيانة في المكســـيك وألمح الى أن بيرنستروف اعتـــاد في واشنطون أن يصنع صورا اضافيـة حتي من اكثر التلغرافات سرية ،وقد ظلت الغرفة رقم ٤٠ تستمع - وفقا لنفس الشفرة الديبلوماسية التي لم تتغير - الي الحوار الدائر ، وقد قال ايكارت:«انه تفاديا لاحتمال سرقة صور البرقيات في المكسيك ، فانه لا يصنع نسخا أصلية الا من البرقيات السرية فقط ،وان سكرتيره يقوم بتلاوتها عليه ليلا وبصوت خافت » !

وكان بيرنستروف الذي طلب اليه مغادرة واشنطون بعد اعلان ويلسون قطع العلاقات الديبلوماسية مع ألمانيا قد استقل السفينة الدنمركية فردريك الثامن ، عائدا الي وطنـه ، فأصبح بذلك بعيدا عن متناول اســـئلة زيمرمان ، ولكنه لم يكن في مأمن من ذراع الاميرال هول الطويلة •

وكان الانجليز قد منحوا رجـــال السفارة الالمانية ترخيصا بالمرور اذا توقفت الســـفينة في هاليفـاكس لتفتيشها ، وعند وصولها الي هناك في ١٥ فبراير ، صعد اليها لفيف من موظفي مكافحـــة التهريب الكنديين وقاموا بتفتيش دقيـــق للحقـــائب والمقاصير والثياب وكل الركاب ، حتي لقـــد بقيت الســـفينة ١٢ يوما في هاليفاكس •

والحقيقة ان الاميرال هول ، الذي كان يتابع محـــاولات بيرنســـتروف الحماسية لمنع حكومته من اســـتفزاز امريكا لدخول الحـــرب ، خشى ان يترك السفير المشهور بقوة الاقنـــاع يعود الي وطنه بسرعة خوفا من انه بمجرد اتصـــاله الشخصى بالزعماء الالمان قد يقنعهم بقبول وساطة ويلسون للصلح •• وكان هول يريد ان تقوم برقية زيمرمان باتمام تاثيرها اولا ••

وكان الاميرال يخفى في جعبتـــه شيئا آخر يدخره لبيرنستروف التعس

•• فقد قوبلت عودة السفير ببرود في ألمانيا بسبب قصة صحفية مثيرة شاعت يومئذ ، اذ جاء في نبأ من لندن ان وزارة الخارجية البريطانية فتشت محتويات حقيبة كان الوزير السويدي المفوض في واشنطون قد وضعها مع متاع الكونت بيرنستروف علي ظهر السفينة فردريك الثامن ، وكانت هذه الحقيبة تحوي اكثر اوراق بيرنستروف سرية وقد دست بين وثائق سويدية ، واغلقت الحقيبة بخاتم دولة السويد ، واستولي البريطانيون علي الحقيبة بحجة الانتهاك المزعوم للحياد ، واخذوا يفحصون محتوياتها •

وقد تعمد البريطانيون قبل استيلائهم علي الحقيبة اذاعة ان اختامها كسرت في مكان ما بين نيويورك وهاليفاكس بين يومي ١٤ و١٦ فبراير ، وهما تاريخان مناسبان وقد ابتلعت الصحف هذا الطعم وقالت ان هنا يكمن الرد علي سؤال الساعة وهو كيف امكن الحصول علي البرقية ؟ •• وقالت انه لابد ان بعض العلماء الامريكيين البارعين قدحصلوا عليها من الحقيبة في ميناء نيويورك ، وانهم حصلوا علي اصلها من اوراق بيرنستروف !

وكانت هناك حقيبة سويدية حقا ، استولي عليها المسئولون البريطانيون الذين كانوا يشكون في حياد السويد ولكن التلميح بأن الاختام كسرت كان مدسوسا من الاميرال هول لتشجيع الظن بأن البرقية كشفت في أمريكا !

***

كانت الاحداث تسرع فيامريكا الان نحو حالة الحرب •• ففى ٤ مارس تأجل اجتماع الكونجرس دون ان يوافق علي قانون تسليح السفن ، وغضب ويلسون علي هذه « العصبة الصغيرة من الرجال العنيدين الذين لا يمثلون غير رأيهم وحدهم » الذين اعتبرهم مسئولين عن ذلك ، ثم استخدم سلطته التنفيذية في ١٢مارس وأصدر قرارا بتسليح السفن •. وكانت الغواصات الالمانية يومئذ قد جعلت من المناطق المؤدية الي بريطانيا مقبرة بحرية •• وفي ١٨ مارس اغرقت الغواصات الالمانية ثلاث سفن امريكية دون انذار • وفي ٢٠ مارس اجتمع ويلسون بوزرائه ، وسمعهم جميعا يوافقون علي دخول الحرب ، وكما هي عادته ، ترك الغرفة دون ان يلزم نفسه ، ولابد انه في تلك الليلة عقد عزمه ، ففى اليوم التالي دعا الكونجرس للاجتماع لسماع رسالة

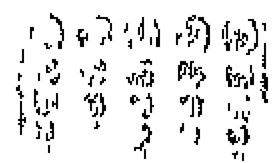
« تتعلق بمسائل خطيرة خاصة بالسياسة القومية » .

وفي عشية اليوم المحدد لالقاء الخطاب التاريخي ، طلب ويلسون الي صديقه فرانك كوب رئيس تحرير صحيفة (نيو ويرلد) بنيويورك ان يزوره بالبيت الابيض ، وهناك قال له « انه يعلم أن دخول أمريكا الحرب يعني ان المانيا سوف تهزم ، وانها سوف تغلب بطريقة تجعل الصلح الذي يملي عليها سلاما منتصرا ، دون ان يبقي هناك متفرجون لهم من النفوذ ما يكفى للتأثير علي شروطه » ولكنه لم يجد بديلاً من ذلك ..

وفي الساعة الثامنة والنصف من مساء اليوم التالي ، واجه ويلسون جلسة مشتركة للكونجرس وبعد ان اشار الي استخدام الغواصات وبرقية زيمرمان وغيرهما من الادلة التي تثبت نية حكومة ألمانيا للعمل ضد سلامة الولايات المتحدة ، ابلغ الكونجرس انه يعلن ان السلوك الاخير للحكومة الامبراطورية الالمانية يعد في الواقع حربا ضد حكومة الولايات المتحدة وشعبها .

وكان في قاعة الكونجرس يومئذ اعضاء المجلسين ، والمحكمة العليا ، والوزراء ، والسلك الديبلوماسي والصحافة والزوار الذين ملأوا الشرفات يستمعون بأعصاب مشدودة .. وبلغت المناقشات الذروة عندما قال ويلسون : « ان الكل يعلم ان الحكومة الالمانية عدو طبيعى للحرية ، وان العالم يجب ان يكون آمنا للديموقراطية ، وان الحق اثمن من السلام » .. وقال : ان امريكا يجب ان تقاتل من اجل المبادىء التي قام عليها مولدها ، وانها لا تستطيع ان تفعل غير ذلك وليساعدها الله .

ودوت الهتافات الهادرة كالعاصفة تحيي خطاب الرئيس - كما كتب الصحفيون - اما بالنسبة للحلفاء الذين حصلوا اخيرا علي وعد بالنصر فقد كانت تلك المناسبة كما قال مؤرخ بريطاني فيما بعد : « من اكثر المناسبات تأثيرا في التاريخ » .



الوقت من ذهب !

قام المقاولون الذين بنوا العمارة الفيدرالية الجديدة فى ممفيس بتركيب ٤١٨ ساعة كهربائية فى المبنى .. ولكنهم لم يعرفوا أين يجب أن توضع هذه الساعات ، ومن ثم فقد وضعوها كيفما اتفق ..

وتبين فيما بعد ان بعض الغرف بها ساعات أكثر من الموظفين .. فان غرفة بها ٨ ساعات وخمسة موظفين فقط !

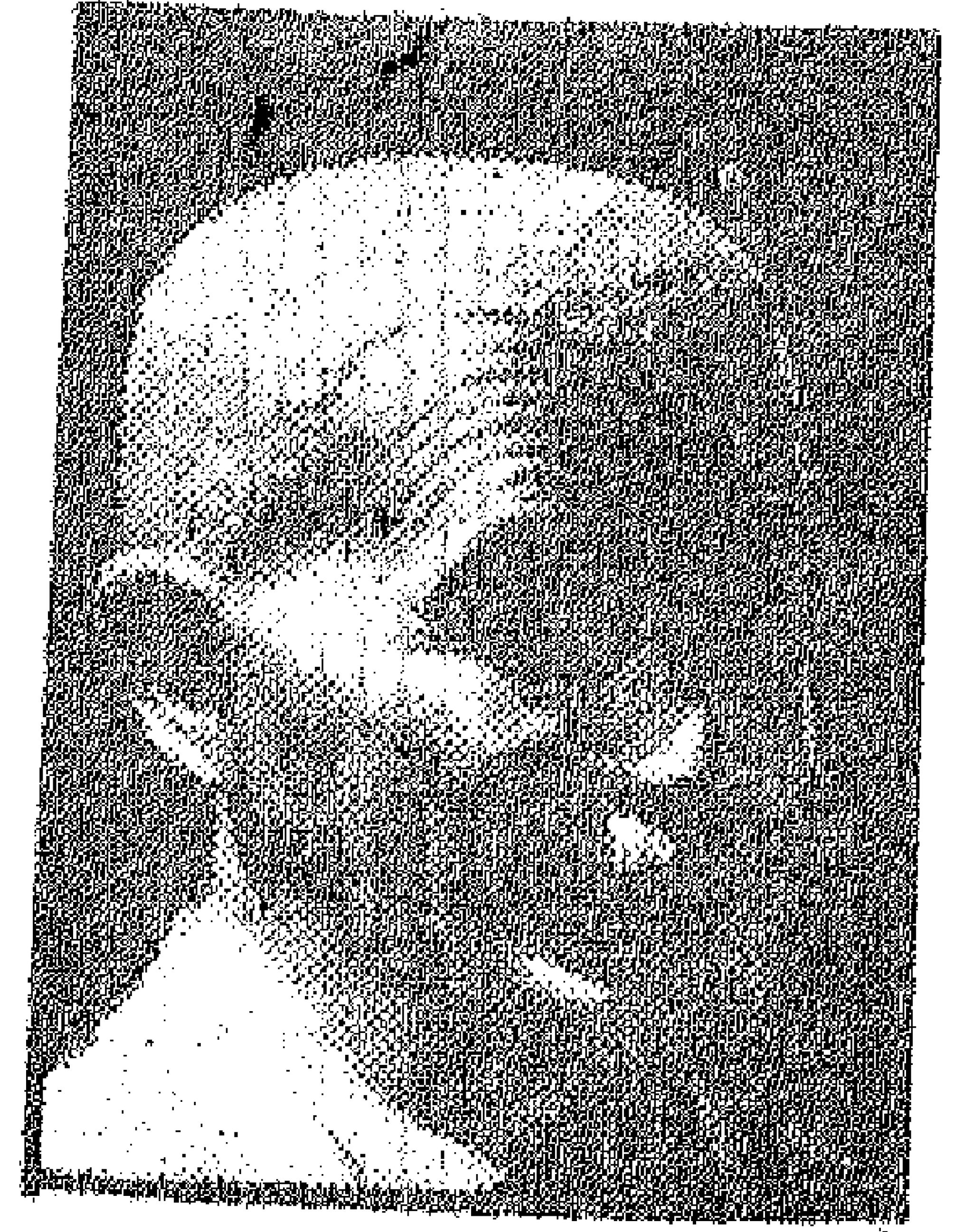


قصة العالم الزنجى جورج واشنطون كارفر

بقلم : لورنس اليوت

عن كتاب : BEYOND FAME or FORTUNE

أسمى من المال والشهرة


جورج و . كارفر

كان جورج واشنطون كارفر من ابرز الامريكيين الذين شهدتهم الولايات المتحدة ومع انه كان زنجيا ولد فى ظل الرق ، فقد اصبح عالما لاينازع احد فى عبقريته وفنانا تتنافس المتاحف على لوحاته .. لم يتطلع قط للشهرة ، ولكن رؤساء الجمهوريات والامراء كانوا يزورونه ، وكبار رجال الاعمال يلتمسون مشورته .. وكان فى استطاعته ان يجمع ثروة ضخمة ، ولكنه اختار بدلا من ذلك ان يعطى مخترعاته لكل من يطلبها .. وكان يحس جراح التفرقة العنصرية ، ولكنه لم يسمح لنفسه قط أن تغزوها الكراهية وكان ايمانه الاساسى هو ان العالم « حديقة الله »

ان قراءة هذه القصة الفذة كفيلة بتجديد ايمان المرء بالجنس البشرى .

جاءوا في ليلة كانت الريح تزمجر فيها وتجتاح المنطقة بعنف بالغ ، وسمع موسى كارفر وقع حوافر جيادهم ، فأدرك علي الفـــور انهم فرسان الليل ، اولئك اللصـــــوص المقنعون الذين اشـــاعوا الرعب في ميسوري في ذلك الشتاء المرير خلال الحرب الاهلية ، فسرقوا الماشية ، وساقوا العبيد جنوبا حيث يمكن ان يباعوا بأسعار الحرب المتضخمة •• وكانوا قبل ذلك بأسابيع قد أغاروا علي مزرعته ، وقيدوا يديه بالاسلاك ، ورفعوه الي احدي الاشجار بينمـــا كانت زوجته تنظر في ألم بلا حول ولا قوة وهددوه قائلين : « اين زنوجك؟ »

وضربوه بالسياط ، واحرقوا قدميه العاريتين بالفحم ، ولكنه لم يذكر لهم ان الزنجية الوحيدة التي عنده ، وهي ارملة شـــابة تدعى ماري ، كانت تختبيء مع اطفالها في كهف ••

وهاهم الان يعودون في تلك الليلة من ليالي شتاء ١٨٦٢ المريرة ! ••

وصاح كارفر بزوجته قائلا :

ــ اهربي الي الكهف •

وانطلق هو يحجـــل علي قدمين مقروحتين ، مترنحا وسط الظلام •• لم يكن الفرسان قد بلغوا المزرعة بعد •• ومرت لحظة ظن خلالها ان هناك وقتا تستطيع خلاله ماري ان تختبيء مرة اخري ، ولكنه عندما فتح باب كوخها ذي الغرفة الواحدة ، وجدها تقف الي جوار النار بلا حراك ، وقد ثبتها الخوف في مكانها بينما تعلقت ابنتها « مليسا » بثوب نومها ، اما ابنها الصغير جيم فكان نائمـــا في فراشه ، وقد حملت طفلها الرضيع بين ذراعيها ••

وصاح كارفر : تحركي يا امرأة بحق السماء •• سيكونون هنا بعد دقيقة •

واختطف جيممن فراشه ، وانطلق نحو الباب وهو ينادي : « احضري الطفـــل والطفلة وتعـــالي ورائى فورا •• »

ولكنها لم تبتعد ، فمنذ اليوم الذي ولد فيه طفلها الرضيع وهو مصاب بسعال خشن ، وبينما كانت الرياح تجتاح الغرفة بعنف ، اخذت ماري تبحث عن ثيـــاب دافئة لتغطيته •• وجرت نحو احد الاركان تبحث عن غطـــاء صوفي بينما كان وقع حوافر الجياد يزداد ارتفاعا ، وأخيرا اقتحم الرجال المقنعون كوخها ، وانتزعوا الطفل من بين ذراعيها ، واسرعوا يقيدون معصميها ، ثم سحبوها الي الخارج ، ووضعوها علي ظهر جواد

• فقالت في توسل وهي ترتعش من البرد :

ـ ارجوكم •• غطوا اطفالي ••

ولكن احدا لم يرد عليها ، ولم تسمع غير انفاس الرجال الخشنة وهم يندفعون لامتطاء جيادهم والانطلاق بها في الطريق المظلم ••

وهمس كارفر لزوجته :

ـ ليغفر الله لي •• لقد اخذوها •

وتعلقت به سوزان كارفر ، وشرعت تبكي وتنوح ••

كان موسى كارفر يعارض الرق دائما ، ولم يكن يملك عمالا للحقل كغيره من مزارعي ميسوري • وعندما بدأ اثر السنين الطويلة يظهر علي زوجته ، وتوسلت اليه ان يحضر لها فتاة لمساعدتها في اعمال البيت ، وتخفيف اثر الوحدة عليها وهو في الحقل ، عندئذ فقط رضى ان يشتري ماري من احد جيرانه بمبلغ ٧٠٠ دولار وعاشت معهم ست سنوات في سعادة ، في حين ان كارفر لم يشعر قط براحه الضمير •• وادرك الان انه لن يستطيع استعادة ماري ، وانه سيعيش معذبا بذنبه بقية ايامه •

وفي الصباح التالي انطلق بجواده الي « دياموند جروف » ، اقرب مستعمرة الي مزرعته ، وهو يجر خلفه احد جياد السباق ، ويبحث عن رجل يدعى جون بنتلي ذكرت الشائعات انه كان يشترك مع فرسان الليل في غاراتهم وأنه قد يستطيع ان يعرف كيف يلحق بهم ، ووجده كارفر امام المتجر الكبير • فقال له :

ـ لقد اخذوا ماري واثنين من صغارها • سأدفع لك اجرك اذا مضيت وراءهم • وهذا (بيسر) من افضل جيادي خذه وافتديها ، واذا اعدتها لي فسوف اعطيك ٤٠ فدانا من الارض المزروعة بأشجار الخشب

وانطلق بنتلي بجواده بعد ظهر ذلك اليوم ، وعاد كارفر الي بيته لينتظر مع زوجته سوزان والصغير جيم •• وبعد ستة ايام من مطر غزير بارد ، جاء بنتلي الي المزرعة وخلفه جواد السباق وكان يبدو انه بمفرده ولكنه عندما دخل البيت ، اخرج من تحت معطفه لفافة قذرة مبتلة وقال :

ـ هذا كل ما استطعت الحصول عليه • ولست ادري ان كان حيا ام ميتا •

وصاحت سوزان :

ـ انه الطفل الرضيع !

وامسكت اللفافة القذرة ، ودست اصابعها بين الخرق ، وحدقت في وجه ابن ماري الاسود •• كانت تسفقا

الطفل وجفناه زرقاء ، وقد استكن بين ذراعيها ساكنا كأنه عصفور ولد حديثا ومات في عشه • واسرعت تسخن بعض اللبن ، ثم ركعت مع الطفل بجوار النار ، ومزقت الكافولة الرطبة من حول جسم الطفل الضئيل واحضر لها زوجها اللبن مع حفنة من السكر ، فقربت ملعقة ممتلئة به من شفتي الطفل ، فتساقطت قطرات اللبن علي ذقنه في البداية ، ثم غص به حلقه وبكي في ضعف •• وما لبث ان رضع اللبن طالبا المزيد •

وقالت سوزان : « انه حى علي الاقل »

وهز بنتلي ابهامه مشيرا به نحو الطفل الباكي وقال :

ـ اعتقد انني لن استطيع ان آخذ ارضك من اجل هذا فقط ••

فقال كارفر :

لقد بذلت ما في وسعك ، فاحتفظ بالجواد •

وحني بنتلي رأسه في رضى ، ثم ذكر له كيف اقتفى اثر العصابة حتى جبال اركنساس الى آن فقد اثرها ، فقد كان الرجال ينطلقون بجيادهم بسرعة نحو المسيسبي ••• وقال : انه علي ثقة من انهم سوف يبيعون ماري وابنتها في حوض النهر الاسفل •

وسأله كارفر :

ـ وهذا ؟•• كيف عثرت عليه ؟

فقال بنتلي :

ـ لقد اعطوه لامرأة قرب كونواي •• انه لا يساوي شيئا •

العاب اطفال في الغابة

اطلق عليه أسم جورج •• جورج المملوك لكارفر ، وكانت كل سنواته الاولي صراعا من اجل البقاء ، فقد اصيب بكل مرض من امراض الطفولة وكان كل منها يهدد باجتذابه الي ابواب الفناء ، وكان السعال لا يكاد يفارقه حتي مزق حباله الصوتية ، وأصبح صوته أشبه بزقزقة العصافير المرتعشة ، وادت بعض الذكريات المؤلمة الي تعقيد لسانه ، وتركته مصابا بلعثمة تثير الاشفاق ، ولكنه عاش رغم ذلك بفضل حضانة سوزان له ، وصلابة غامضة في أعماقه ••

وانتهت الحرب ، واعيد بناء الاجران المحترقة ، وغرست البذور في الحقول •• وقال موسى لجيم وأخيه :

ـ انتما حران الآن •• كل العبيد أحرار ، تستطيعان الذهاب حيثما تشاءان ••

ولكن جورج لم يفهم ما سمع ، بينما اكتفى جيم بالابتسام •• وفي

تلك الليلة اتجها الي الكوخ وناما فوق الحشيات القطنية المحشوة بشواشي الذرة كما كانا يفعلان دائما .

كان جيم قد اصبح قويا يستطيع ان يجز اصواف الغنم ، ويساعد كارفر في حصد الدريس وحلب الابقار اما جورج فكان لايزال يكافح ليرسخ قدمه في الحياة ، ولم يكن يبتعد عن المطبخ الا قليلا . اذ كان يتابع العمة سوزان طوال النهار ، ويبدا يساعدها في اداء الاعمال المنزلية ، يكنس الارض ويغسل الاطباق ، وقبل ان يمضي وقت طويل ، تعلم كيف يدبغ الجلود ويغزل الكتان ، ويعالج الخنازير .. وقد دهشت سوزان ذات يوم عندما وجدت انه علم نفسه حبك الصوف مستخدما ريش ديكرومي من الحديقة وقفازا صوفيا قديما مفكوكا .

واعتاد جورج ان يتسلل الي الغابة متجها الي ممر سري اكتشفه في الغابة تبدو فيه الطبيعة في أجلي روائها ، وكان يخز بيده محار احدي الاشجار ، ويرقب الحشرات وهي تزحف منها . ودرس الزهور البرية : تلك التي تبحث عن الشمس والتي تعيش في الظلال ، وفحص الخنافس والصخور وديدان التبغ والسحالي . واحس برغبة طاغية ليفهم هذا العالم المعقد بصورة سحرية ليعرف كل شيء عنه .. وكان يتساءل لماذا تسقط الامطار ، ولماذا تكون بعض الزهور حمراء والبعض صفراء ؟

كان يحب ملمس التراب في يديه .. وقال بعد سنوات : « ان الناس يقتلون الطفل عندمايقولون له ابتعد عن التراب .. ففي التراب حياة ! .. وهكذا اصبحت اوراق الاشجار والسرخس والجذور هي الالعاب والاصدقاء ، الذين لم يكن لديه شيء منهم ، وسرعان ما تفتحت زهور كارفر بلمسة من يده ..

وبعد ظهر احد أيام الصيف ، عندما شكت الجارة مسز بانيهام من زهورها ، توجه جورج الي حديقتها وعرف اصل المشكلة علي الفور : كانت الزهور لا تحظي بشمس كافية وحركها ثم رواها .. ودخل البيت ليشرح للسيدة ما عمله ، وبينما كان يقف بجوار باب الردهة ، اذ فغر فاه فجأة بعد ان وقع بصره علي مشهد مذهل .. كانت هناك صور معلقة في انحاء الغرفة : لوحات جميلة للغابات والزهور ، وصور لرجال ملتحين .

وشكرته مسز بانيهام ، واعطته

قرشا ، ولكن جورج ظل يفكر في تلك اللوحات بعد ان عاد الي منزله •• وفي تلك الامسية ، اعتصر السائل الاسود من بعض ثمار التوت ، ثم غمس اصابعهفيها ، ورسم دائرة على صخرة منبسطة ، وراح يصنع بعد ذلك صورا ووجوها علي الصخور ، بقطعة من صفيح ، او يرسم صورة لزهرة في أى سطح ناعم علي الارض

وفي غضون ذلك ، تفتحت زهور مسز بانيهام ، واخذت السيدة الطيبة تكيل قصيد الثناء علي جورج كارفر اينما ذهبت ، وجاءه جيران آخرون يحملون متاعب حدائقهم ، ومع انه كان لايزال فتي صغيرا فقد اعتاد النـاس ان يسموه « طبيب النبات » ، وشاع في ارجاء المنطقة ان جورج كارفر يستطيع ان يشفى الامراض التي تصيب اي شيء ينمو

وعلى مسافة غير بعيدةمن المزرعة كان هناك كوخ ذو غرفة واحدة في « لوكاست جروف » يستخدم كبيت للعبادة ، ولكن الكوخ كان يستخدم في بقية أيام الاسبوع كمدرسة •• وفي ذات يوم اسرع جورج الي موسى كارفر في الحقل وسأله في تلعثم :

ـ متي استطيع ان اذهب الي المدرسة ؟

ومسح الرجل العجوز العرق عن جبهته ، وتطلع الي السماء باحثا عن كلمات يرد بها •• وعاد جورج يقول :

ـ هل استطيع الذهاب اليها غدا يا عمي موسى ؟

فأمسك كارفر بكتفى الفتي وقال له انه لايستطيع ذلك ، فانهم لايسمحون لابناء الزنوج بدخول تلك المدرسة •

وذهل جورج •• فهو لم يكن يعتقد ان للونه اي معني اكثر من ان بشرته اكثر اسمرارا من بشرة العمة سوزان ، ولكنه ادرك الآن انه يختلف عن الآخرين • واحس بالالم والضياع فأسرع يختبيء في ممره السري بالغابة واخذ عقله يصارع هذه الصاعقة التي انقضت عليه ، ثم لصق وجهه بالارض وبكي !

ولكنه رفض ان يتخلى عن حلمه •• واخرجت العمة سوزان من احدي حقائبها كتابا قديما للتهجئة وعلمته ما فيه من حروف ، وبعد اسابيع كان قد حفظ كل سطر في الكتاب ، واستطاع تهجئة كل كلمة •• وبمساعدة سوزان استطاع ان يكتب اسمه دون مساعدة •

وحدث ذات صباح ، بينما كان جورج يزور بلدة « نيوشو » التيتقع

على مسافة ١٢ كيلومترا ان اكتشف شيئا مذهلا ، وماكاد يجد شقيقهحتي قال في تلعثم مثير :

ـ هناك مدرسة في نيوشو ٠٠ مدرسة للملونين ، سنذهب اليها ٠

لم يكن جيم يفهم اخاه الاصغر قط ٠٠ لا ولعه الاحمق بالزهور ، ولا اهتمامه بكتاب التهجئة ولكنه كان يعرف انه لا فائدة من مجادلته ، فاذا كان جورج سيذهب ، فانه سيذهب هو الاخر ٠

وكان موسى كارفر يعرف ذلك ايضا ، فقال لجورج بهدوء :

ـ لا استطيع منعك ٠٠ ولكن ماذا ستفعل من اجل الطعام والمأوي ؟

ـ استطيع ان اطهو واكنس واشعل النار ٠

وحني موسى راسه في جد ٠٠ ومكذا تقرر الامر ٠ وضعت له العمة سوزان بعض الطعام وارغفة الخبز المصنوع من الذرة ٠٠ وفي صباح يوم من ايام الخريف ، وقفت مع موسى وجيم ينظرون في حزن وصمت الي الفتي النحيل وهو يخرج من خلال البوابة وينطلق الي العالم الفسيح ، وكان ذلك في عام ١٨٧٥ ، وجورج الملوك لكارفر في الرابعة عشرة من عمره !٠

هذا الفتي يريد ان يعرف الكثير

وفي نيوشو ، وجد جورج لنفسه مأوي فيبيت ماريا واتكنس وهي قابلة زنجية تعمل ايضا في غسل الملابس ، ولم ترزق هي وزوجها اندرو بأطفال وكان اندرو يمارس اعمالا بسيطة مختلفة ، وما ان وقع بصرها عليه لاول مرة ، وهو يجلس في صبر على سور الحديقة في انتظار فتح المدرسة حتي اقتنعت بأن الله ارسله اليها ٠

وقالت ماريا فيما بعد : « لقد ذكر لي هذا الفتي انه جاء الي نيوشو ليعرف ما الذي يصنع البرد والجليد وهل يستطيع الانسان ان يغير لون الزهرة اذا غير البذرة ٠ فقلت له لن يعرف هذا في نيوشو ولا في كانساس سيتي ، ولكنني كنت اعرف دائما انه سيعرفه منمكان ما »

وكانت ماريا هي التي غيرت اسمه عندما شرع في الذهاب الي المدرسة في اول صباح ، فقد نادته من الباب الخلفي وقالت له : « انك لا تستطيع ان تسمي نفسك « جورج الملوك لكارفر » فأنت شخص ٠٠ ومنذ الآن سيكون اسمك جورج كارفر ٠

ورغم غرابة الاسم علي لسانه ، فقد قدم نفسه للمدرس الزنجي

الشاب في الكوخ المهتز الذي اطلق عليه اسم « مدرسة لنكولن للاطفال الملونين » • وكان هناك حوالي ٣٠ تلميذا حشروا في المدرسة الصغيرة •• وسرعان ما اصبح الهواء كريها ، رغم الرياح التي تشق طريقها من خلال الجدران في الشتاء • وكان اغلب الاطفال يرتدون المعاطف والقفازات طوال اليوم •• ولكن شيئا من ذلك لم يكن يعني جورج ، فقد كانت الايام تمر امامه بسرعة ، وعندما يكون بعيدا عن المدرسة ، كان يخرج كتاب القراءة حتي وهو يساعد العمة ماريا علي الكي وغسل الاطباق ، والثياب •

وفي ذلك الشتاء اصيب بالبرد ثلاث مرات ، ولم يستطع الذهاب الي المدرسة ، وكان يعذب نفسه علي العمل الذي فاته ، وكانت ماريا تحدثه احيانا عن حياتها بين الرقيق عندما كانت تعيش في مزرعة كبري• ولم يكن بين الزنوج غير واحد فقط يعرف القراءة ، وحثته على ان يعلم الزنوج كل ما يتعلمه من كلمات وعبارات وقالت له : « هذا ما يجب ان تفعله • يجب ان تتعلم كل ما تستطيع ثم انطلق الي العالم ، واعط تعليمك لشعبنا • »

واقبل شتاء جديد ، واصيب جورج مرة اخري بالسعال الذي الزمه الفراش اياما ، ولكنه لم يعد يهتم بذلك ، فقد تعلم عندئذ كل ما كان يمكن تعلمه من المدرسة •• وتعلم من العمة ماريا كيف يؤمن بالله ولكنه لم يستطع قبول حقيقة ان الله كتب عليه المرض طوال حياته ، وقال لنفسه انه ربما اذا ذهب الي مكان اخر فقد ينمو ويتحسن ، ويتعلم مزيدا من الردود علي اسئلته •

وسمع عن اسرة تقطن في نفس الشارع علي وشك الانتقال الي (فورت سكوت) في كانساس وتقع على مسافة ١٢٠ كيلومترا تقريبا • فالتمس منهم اخذه معهم ، ووافقت الاسرة ، وكان قد حصل علي شهادة جدارة من مدرسة لنكولن في ٢٢ ديسمبر ١٨٧٦ •

وفي صباح يوم شديد البرودة ، ودع ماريا وزوجها اندرو واتكنس •

وقالت ماريا في همس وهي ترقبه يختفى عن بصرها : « امنحه اللهم مدرسة طيبة •• امنحه معلما يعرف الكثير ، فهناك يا الهي كثير جدا يريد هذا الغلام ان يعرفه » •

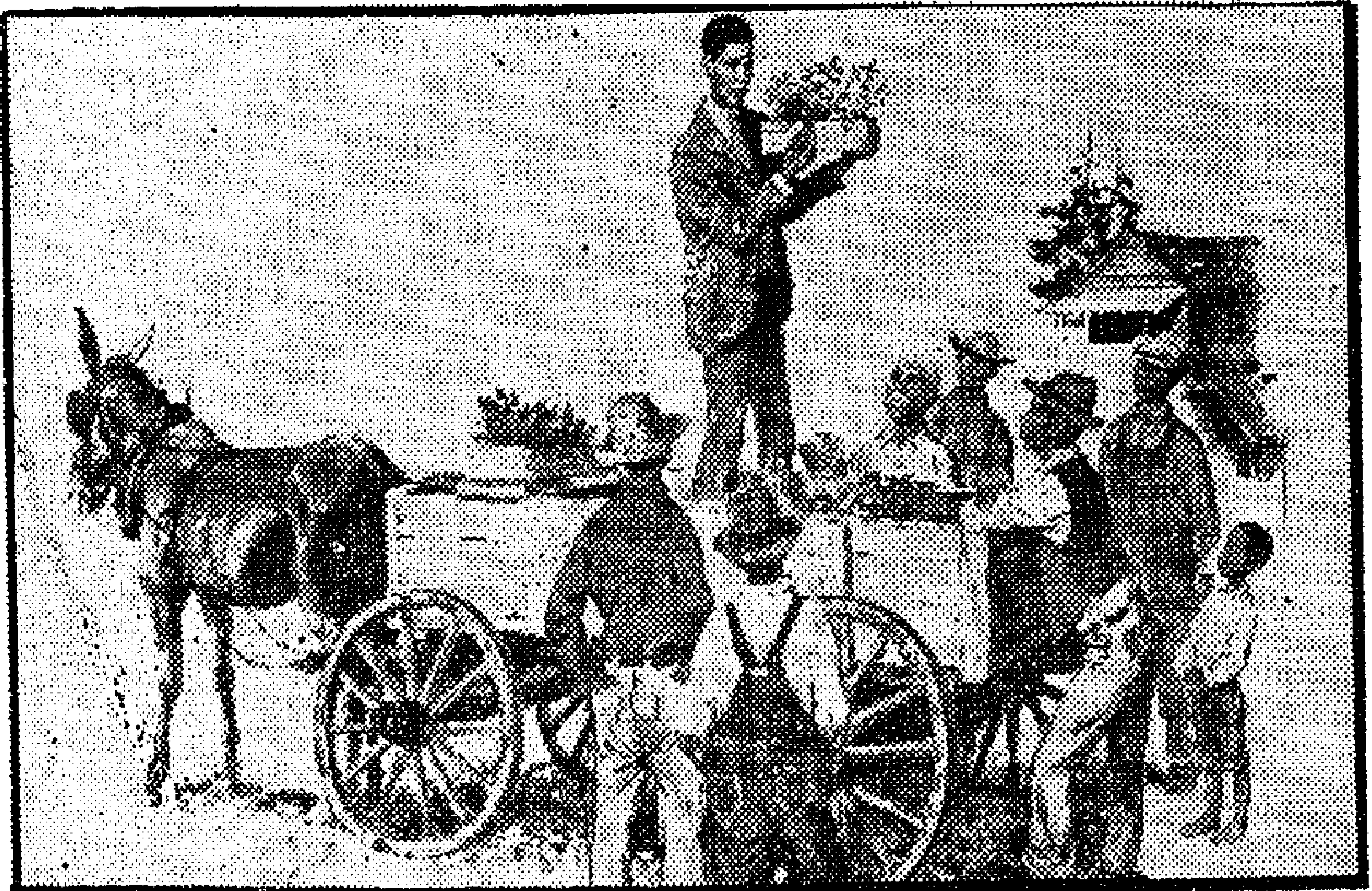
أعوام التجوال

ظل جورج يهيم متجولا في الغرب

حوالي عشر سنوات ،متنقلا من مكان الي آخر ، يقوم بمختلف الاعمال ، ويتجه نحو اقرب مدرسة ليبقى فيها الي ان تعجز عن تعليمه المزيد ، وكان يبدأ سنة دراسية في بلدة ما وينهيها في أخري •• واينما ذهب ، ذهبت معه ثلاثة احتياجات اساسية : اين ينام ؟ •• من سيقدم له الطعام ؟ •• وكيف يستطيع ان يدفع ثمن مجموعة كتبه الدراسية التالية ؟

كان يطهو طعامه ، ويقطع الاخشاب ويرعى الحدائق ، وينظف السجاجيد ويحفر الخنادق ، ويدق المسامير ويطلي الاسوار بالجير كلما اراد احد منه عمل ذلك ، وفي هورت سكوت وجد مكانا بجوار مخزن لعربات السفر ، كوخا حقيرا استطاع ان يستأجره بدولار واحد في الاسبوع ، ولم يكن ينفق اكثر من ذلك على الطعام ، او ينفق مليما علي اي شيء آخر ، وكان يذاكر دروسه التي تلقاها في المدرسة بعد ظهر كل يوم . وفي الليل يجلس بجوار شمعة واحدة ليقرأ كل ما يمكن ان يضع يده عليه من كتب ونشرات ، وصحف قديمة ومنشورات •

ولكنه شاهد في تلك البلدة منظرا أثار الهلع في نفسه ، فقد رأى مجموعة



كان كارفر يقوم بالتدريس داخل الفصل وخارجه ••

من الغوغاء تشســعل نارا كبري في ميدان القرية ، ثم سحبوا زنجيا من السجن ، وســكبوا عليه البترول ، والقوا به وسط النيران المشتعلة • وفي تلك الليلة جمع جورج حاجاته وهرب وهــو لايزال يرتعش . من « فورت سكوت » الي الابد •

وظل هائما فيانحاء غرب كانساس لا يثق في شيء الا ان هذه هي السنة التي سينتهي فيها من سنة دراسية اخري ، وحيثما وجد ، كان يستيقظ دائما قبل الفجر بساعة ، وينطلقالي حديقة الله ليسير وحده ، ومع اول شعاع من ضوء الشمس ، كان ينقب في الغابات والتلال ، مسحورا بكــل شيء ينمو فيها فدرس اللون الاسود في الغابة ، والاحمر في حقــل من الصلصال ، والازرق اللامع في سفح تل ، وظن انه اذا استطاع ان يأخذ هذه الالوان من الارض ، امكنه ان يصنع لوحات اعظم مما صنعهاالناس من قبل •

وفي خلال موسم الحصاد ، كان يؤجر نفسه من مزرعة لاخري ليدق القمح •• وفي مكان ما خلال جولته ، فقد اللعثمة الي الابد • وفي اولاث بولاية كانســاس ، ذهب الي بيت « كريستوفر ولوسي سيمور » وهما زوجان زنجيان • وكان كريستوفر رجلا عميق التقوي ، يذهب للصلاة في الكنيسة كل أحد وقد ابتهج عندما طلب منه جورج أن يصحبه معه الي هناك •

وفي ١٨٨٠ اتجه سيمور وزوجته غربا الي مينابوليس بولاية كانساس وكانت بلدة صغيرة تعج بالحــركة بوادي نهر سولومون ، وهناك دخل جورج اخيرا المدرسة الثانوية ، وفي خلال تلك الفترة ، اتخذ لنفسه لقبا اوسط ، فقد كان هنــاك « جورج كارفر » آخر في ميناپوليس ، وكانت رسائله لا تصل اليه أحيانا ، واخيرا التقط حرفا كيفما اتفق ليكون اسمه الاوسط ، وقد سئل يوما في مزاح عما اذا كان حرف «و» الذي اختاره هو اول حرف من كلمة واشنطون ، فابتسم قائلا : « ولم لا ؟ » ولكنــه أحس انه قد يكــون هناك بعض التعاظم في استخدامه لهذا الاسم ، ولهذا ظل توقيعه دائما « جورج و• كارفر » او جورج كارفر فقط •

وعندما اوشــك علي الانتهاء من تعليمه الثانوي تلقي رسالة مطبوعة موجزة من العمة ماريا ، قالت فيها ان شقيقه جيم مات متأثرا بالجدري في الصيف الســابق ، ودفن في

« سينيكا » بولايه ميسوري ، وقالت انها لم تعرف ذلك الا مؤخرا •

ويكى جـــورج ، وظل فترة من الوقتيشعر بالوحدة والياس ، وعرف الآن اكثر من اي وقت مضى انه يجب ان يجد نجمه الهادي •• ويومنـــذ وصلته رسالة اخرى ملأته املا ••

كان قد ارسل طلبا للقبول في كليه صـــغيرة تابعـــة للكنيسة تسمى « هايلاند » وتقع في الركن الشمالي الشرقى من كانساس ، وظل ينتظر الرد في لهفة بضعة اسابيع ••• وفي صباح يوم جميل من ايام شـــــهر يونيو جاء الرد . وتضمنت الرسالة ان درجاته مرضية ، وان الكليـــة يسعدها ان تقبله في الفصل الدراسى الذي يبدأ في ٢٠ سيتمبر ، وكانت الرســـاله بتوقيع الاب دنكان براون ناظر الكلية •

وظل جورج بقيـــــة هذا الصيف يعيش في دفء الوعد الذي تضمنتـه الرســـــالة ، وفي أواخر اغسطس استقل القطار الي « جوبلين » متجها نحو الجنوب في رحلة عاطفيه الي أماكن صباه ، وبعد ان زار قبر اخيه جيم في سينيكا ، سار حوالي ٢١ كيلومترا الي « نيوشـــــو » ليودع آل واتكنس ، ثم اتجه الي « دياموند جروف » في زيارة حنين لآل كارفر •

وكان العم موسى الذي تجـــــاوز السبعين مازال يعمل في الحقول ، اما العمه سوزان فقد اصبحت هزيله لا تكاد تغادر البيت الا قليلا • وحدثهما جورج عن الاماكن التي عاش فيها ، والاشياء التي راها ، وكانا يستمعان اليه في سحر وصمت •

ونام اربع ليال في كوخ امه ، وفي الليله الخامسه، وهي ليله ٢٠سبتمبر استقل القطار الي « هايلاند » وانطلق في لهفه الي حرم الجامعه ، وقـــدم نفسه في سكون الي مكتب العميــد قائلا :

ـ انا جورج و• كارفر ياسيدي

ـ ماذا تريد ؟

ـ لقد جئت لكي التحق بهايلاند •

ـ لقد حدث خطأ ••

واحس كارفر ببرودة تســـري في قلبه ، ونظر الي وجه الاب دنكـــان براون الضئيل •• ثم قال في تردد :

ـ ولكن رسالتكم ذكرت اذ •••

ـ لا يهمني ماذا قالت ••• انك لم تذكر لي انك زنجى ••• فكليه هايلاند لا تقبل الزنوج •

بدايه جديدة

عاد الي عزلته من جديد وتركته الرحله الي هايلاند مفلسا وفي تلك

الليلة نام في مخزن للحبوب ، وفي الصباح وجد عملا في مزرعة الفاكهة لدي اسرة تدعى آل بيلر ، وهناك ظل شهورا يقلم الاشجار ويصلح الاسوار ، ويجمع مالا جديدا يقيم به اوده •

كان يصغى بامعان عندما تقرا الاسرة بصوت عال رسائل ابنها الشاب فرنك بيلر الذي اتجه غربا ليضع يده علي ارض يصلحها ويزرعها في سهول كانساس ، وكانت هناك فرصة علي الحدود لكل من يريد ان يعمل ، وفي ١٨٨٦ تبع جورج كارفر فرنك بيلر

ووضع جورج يده على ١٦٠ فدانا وبني منزلا بعد ان اقتطع الحشائش البرية وصنع منها شرائح كالطوب اقام منها جدران البيت ، وانتظارا لزراعة محصول الربيع ، اشتغل في مزرعة ماشية مجاورة ، وهناك قضي اول شتاء رهيب ، وكانت الرياح المزمجرة تهب بعنف من الشمال وكان الجليد كثيفا الي حد ان الانسان كان عليه ان يتعلق بحبل خاص للانتقال من البيت الي الجرن وعندما جاء الصيف ، كانت نباتات الذرة تهتز امام الرياح الحارقة •

وظل جورج عامين تقريبا وهو يكافح الرياح الباردة والشمس المحرقة ولكنه استطاع في حديقة قرب بيته ان يزرع مجموعة من الزهور ، وان يحافظ عليها خلال الشتاء بحمايتها بغطاء مائل ، وكان الزائرون يتدفقون قادمين من البرد الذي يعمي الابصار ويفتحون جفونا تجمدت من البرد ، ليروا افريز نافذته والمائدة وقد تألقا بالزهور الرائعة ، وفي الامسيات الطويلة ، كان يشتغل بحبك الصوف او فرز احجار الآثار الهندية التي جمعها خلال جولاته •

ومالبثت المواسم المنقضية والوحدة ان شفت روحه تدريجا ، وعاد يقرا من جديد ، ويرسم واخيرا ادرك ان البراري اصبحت مكانا لا يصلح الا للاختباء ، وهو لم يعد يريد الاختباء ، وفي أوائل صيف ١٨٨٨ ، رهن ارضه مقابل ٣٠٠ دولار ، وانطلق شرقا •

واتجه الي « ايوا » حتي بلغ قرية « وينترست » حيث وجد عملا كطاه في أحد الفنادق • وفي صباح احد ايام الاحد ، سمعت سيدة بيضاء تسمي مسز جون ميلهو لاند صوته المرتفع خلال الصلاة في الكنيسة ، فطلبت الي زوجها ان يدعوه الي بيتها ، وكانت مسز ميلهولاند هي رئيسة فرقة المرتلين بالكنيسة ، فعرضت علي

جورج ان تعطيه دروسا في الغناء ، واصبح جورج بعد ذلك يتردد كثيرا علي بيت آل ميلهولاند • ولم تمض فترة طويلة ، حتي اصبح هـــذا البيت بمثابة بيت له •

وفي دفء تلك الصداقة الجديدة ، تخلص من آخر المخاوف التي حملها من فورت ســـــكوت وهايلاند وقال لنفسه : ان الجهل لا الصداقة هو عدوه الحقيقي ، وانه مادام هنـــاك بيض من امثال آل ميلهولاند فانه لن يكون وحيدا ، ومع ذلك فعنــــدما اقترحت مسز ميلهولاند أن يقدم طلبا للالتحاق بكليـــــة « سمبسون » في انديانيولا ، تردد جورج ، فقد كانت تلك الكلية مخصصة للبيض ، من الطلبة والمدرسين ، ولكن مســــز ميلهولاند الحت عليه ، وكانت هـــذه الكليـــة قد بنيت تبرعا من الاسقف ماثيو سمبسون • وقالت لجــــورج ان سمبسون كان صـــديقا لابراهام لنكولن ، وهو مؤمن متحمس بالمساواة بين كل الناس •

وهكذا وصل جورج كارفر في ٩ سبتمبر ١٨٨٠ الي كلية سمبسون ، وكان قبوله هناك علي الفور •• وقال فيما بعد : « لقد تعلمت في المدرســة الثـــانوية ما معني ان اكون مخلوقا بشريا لاول مرة •• وفي سمبسون تعلمت انني استطيع حقا ان اؤمن بأنني مخلوق بشري » •

وفي كلية سمبسون درس كارفر الانشاء والرياضـــيات ، وكان الفن موضوعه المفضل ، وليكسب عيشه ، أقام مغسلة في منزل صغير غير بعيد عن ارض الجامعة ، وكان الطلبـــة الذين يأتون ليتركوا ثيابهم ، يبقون للتحدث مع الشـــاب النحيل ، الذي يختلف تكوينه وتاريخه الخاص تماما عن تاريخهم ، وكانوا احيانا يصغون اليه وهو يقرأ بصـــوت عال كتابا بجوار صنابير البخار ، وأحيانا اخري شاطروه كعكه اللذيذ ، وكانت هناك دائما اسئلة : كيف عشت طوال هذا الوقت وانت تبحث عن المدارس ، واين ستذهب بعد ذلك يا جورج ؟

ولم تكن لديه اجابة علي ذلك ، ولكنه سرعان ما سمع نقبض السؤال من مدرسة الرسم مس «اتيا باد » وكان قد رسم ضمن دروسه المنزلية رسما لتجربة ابتكرها لتطعيم شجرة صبار ، ومع ان مس باد تأثرت بها كثيرا ، فانها ابقتها لديها فترة طويلة وعندما اعادتها ، صحبتها بتحـــد صريح كان له اكبر الاثر في توجيـــه حياة كارفر بعد ذلك ، فقد سألته :

« ما هي خططك للمستقبل ؟ »

فأجاب :

ـ اريد ان اكون فنانا .. اذا رأيت انني اصلح لذلك .

فقالت : انك ممتاز حقا ، فأنت تتمتع بموهبة عظيمة ، ولكنني عرضت صورتك علي ابي وهو استاذ بكليه « ايوا » الزراعية في « ايمز » وحدثته عن مهارتك في النبات ، فكان من رأيه انك يجب ان تدرس الزراعة في ايمز .

ولو ان مس « باد » لم تتكلم قط ، لظل يعيش في دفء كلية سمبسون ، مواصلا الرسم والتمتع بصحبة اصدقائه ، اما الآن فقد اخذ شبح الغد يطارده . كان قد تجاوز الثلاثين من عمره في عام ١٨٩١ وهو لا يستطيع ان يظل طالبا الي الابد .. فماذا يجب ان يكون ؟

وفي احدي ليالي الربيع ، وكان يجلس علي عتبة الباب يرقب النجوم برزت فجأة صورة العمة ماريا امام عينيه ، ودوي صوتها في اذنيه يقول: « يجب ان تنطلق في الدنيا ، وتعلم شعبنا ما تتعلمه » .. وادرك جورج انه يجب ان يذهب الي « ايمز » .

عيد الميلاد السعيد

كان الجو في ايمز مليئا بالاثارة ، فقد اوشكت الزراعة يومئذ علي ان تصبح علما ، وكان اساتذة التربية الذين تجمعوا بكلية الزراعة والفنون الميكانيكية بجامعة « ايوا » قد شرعوا في تحويل فنون الزراعة القديمة وفي السنوات التالية اصبح اثنسان من اساتذتها وزيرين للزراعة ، اولهما جيمس ويلسون الذي رحب بجورج كارفر في الكلية واظهر له ايماءة غير عادية من الصداقة .

كان جورج قد وصل في مايو ، وهو وقت منحوس ، اذ كان العام الدراسي في الكلية يتبع موسم الزراعة ـ من فبراير الي نوفمبر ـ ولما كان الفصل الدراسي قد بدأ منذ شهور ، فقد بدا انه ليس هناك من لديه مكان للطالب الجديد .

وقال البروفسور ويلسون : « ابعثوا به الي .. ان له غرفة عندي »

وحمل الاستاذ كتبه وانتقل الي الطابق الثاني ، وامر بوضع فراش صغير ودولاب في غرفة مكتبه القديم وكانت اوسع غرفة في « نورث هول » فأصبحت مستقرا للوافد الجديد .

ولكن هذه الرقة طغى عليها حادث وقع بعد ذلك بوقت قصير ، اذ كانوا قد قالوا لجورج انه لا يمكنه ان يتناول

طعامه في قاعة الطعام ، وان عليه ان يحمل طعامه الي البدروم ليتناوله مع خدم المطبخ وعمال الحقل • ومع انه اوذي في شعوره ، فانه قبل ذلك دون اعتراض ، قائلا لنفسه : انه اذا كان البيض الذين في الطابق الاعلي ليسوا أفضل منه ، فانه لن يكون افضل من الخدم الذين يأكلون في البدروم •

وكان من الممكن ان تظـل الامور هكذا ، لو لم يكتب البروفسور «باد» عنها الي ابنته في انديانولا ، وقـد ثارت اتيا غضـبا ، ولما لم يكن في استطاعتها ان تترك فصولها في وسط الفترة الدراسية ، فقد اوفدت بدلا عنها صديقتها مسز ارثر ليسـتون التي كانت قد عرفت جورج جيدا في كلية سمبسون ، واسرعت مسـز ليستون تستقل القطار الي « ايمز » ، وقد دهش جورج عنـدما رآها في الجامعة ، ولكنه امضى اليوم يطوف بها ارجاء الكلية ويقدمها لاساتذته•• وعندما حان وقت العشاء ، اصرت مسز ليستون علي انتأكل مع صديقها في البدروم !

وقال مدير قاعة الطعام متوسلا :

ـ ولكن يا سيدتي •• ماذا يقول العميد ؟

فردت عليه بسرعة :

ـ كان يجب ان تفكر في ذلك وانت تدبر مكان عشاء مستر كارفر •• وارجو ان تذكر انني اتوقع ان اعود الي زيارة هذا المكان •

وفي موعد الافطـار في الصباح التـالي . دعى جورج للانضمام الي الطلبة على المائدة رقم ٦ وفاز جورج بحب رفاقه منذ البداية . واستطاع في خلال اسبوع ان يبتكر لعبة على المائدة ، سرعان ما اجتـاحت قاعة الطعام كلها ، وأصبحت من الانظمة المتبعة في ايمز حتي اليوم •

وكانت قائمة العلوم التي يدرسها جورج مهيبة ، فقد قرر ان يسجل اسمه لدراسة علومالنبات ، والهندسة والكيمياء ، وعلم الحيـوان ، وعلم الجراثيم ، والحشرات ، وذلك بعد ان ادرك ان السـنوات تمر بسرعة ، وكان يعمل كالعادة ليعول نفسه ، فعمل بوابا في « نورث هول » وخادما في المطعم ، وملاحظا للمعمل وبيت الزهور الزجاجى ، ومع ذلك فانه كان يجـد وقتا لنشـاط زائد عن المناهج الدراسية • فحصل على مكان فى رباعى الكلية ، وعمل مدربا ومدلكا لفرقها الرياضية •

وعندما أقبلت عطلة الشـتاء ، اسرع عائدا الي سمبسون ليقضى

اياما في فصل الرسم الذي تدرســـه مس باد . ولم يكن قد لمس اية فرشاة بعد عام تقريبا ، وفي خلال هــــذه جازة . رسم بعض لوحات لاتنسى ت الصبار الذي تذكره من جولاته في الصحراء ، ورسم اناء جميـــــلا الزهور ، وبعض الزنوج •

وعندما عاد الي « ايمز » في فبراير انهمك مرة اخري في مباشرة جدول عماله المزدحم • ولكن هذا الارهاق كان له ثمنه ، فقد اصيب في الخريف بفقــر الدم ، وامره الطبيب بملازمة الفراش خلال عطلة عيد الميلاد لنتأكد من شفائه •

وبعد ظهر احـــد الايام ، التقى بالبروفســور باد ، الذي اخبره ان اتحاد معلمي ولاية ايوا سيجتمع في بلدة « سيدار رابيدز » بين عيد الميلاد وراس السنة الجـــديدة ، وسيقيم معرضا فنيا لولاية ايوا كلها يكــون جزءا مهما من البرنامج ، وســـأل جورج عما اذا كان ينـــوي عرض شيء من لوحاته هناك ؟

فقال جورج : اخشى الا استطيع دفع اجر الرحلة •.

فأجاب البروفسور : هــذا شيء مؤسف جدا ، فقد ذكرت لي ابنتي انك ابدع رسام في « ايوا » •

وفي اليوم التالي لعيد الميلاد ، كان جورج في غرفته ، وكان هنـــاك في نافــذته علامة علي موسم العطلة ، ولكنه كان يرتدي ثياب العمل الممزقة المتلئة بالرقع ، وكان مقــــررا ان يكسب بعض النقــود في عصر ذلك اليوم بالمساعدة في تنظيف بيت اعضاء هيئة التدريس ، وسرعان ما توقفت زحافة تعج بالطلبـــة امام « نورث هول » •

وصاح الســـائق قائلا لجورج : سنأخذك الي حيث تشاء •

واوسع له بعض الطلبـــه مكانا بينهم ، ولكنه لاحظ بعـــد قليل ان الزحافة قد تجاوزت مباني الكليـــة واتجهت صوب المدينة •

وصـــاح جورج قائلا : ارجو ان تتركوني ••

ولكن الطلبـــه تجاهلوا صياحه ، وراحوا يرددون الاناشيد حتي توقفت الزحافة امام متجر لبيع ثياب الرجال

وحملوا جـــورج الي الداخـــل ، وسرعان ما نزعوا بنطلونه والبسوه حلة رمادية وسيمة . وقبعـــــة وقميصا ، ورباط عنق وقفازا وحـذاء وجوربا •• واخيرا البسوه معطفـا اسـود جـديدا ثم انطلقت الزحافة بالجماعة كلها من جديد ، وضاعت

اســـئلة جـورج وســـط موجة من الاغاني •

وتوقفت الزحافة بعد ذلك امام بيت البروفسور ويلســون ، وحملوه مرة اخري الي الداخل ، وهناك في البهو وقف الاســتاذان ويلسون وباد ••
فقال جورج للاول :

ـ سيدي ، كان مفروضا ان اعمل بعد ظهر اليوم •

فأجاب البروفسور :

ـ هراء ، انك ذاهب الي ســيدار رابيدز • لقد قررنا ان تمثل كليــة زراعة ايوا فيالمعرض الفني • وهاهي تذكرتك الي هنـــاك • وها هي الرسومات التي اختارها البروفسور باد من غرفتك بمشورة ابنته •

وحمل جورج المظروف واللوحات وهو شبه نائم •• ثم قال :

ـ ولكن النقـــود •• كيف سأسددها ؟

فربت ويلسون علي كتفه النحيل برقة وقال :

ـ لقد سددتها فعلا • ان المبلغ الصـــغير الذي تبرع به زملاؤك ومدرسوك هو تكريم لصداقتك • اننا نثق بك جميعا •

ولم تكن ثقة كلية الزراعة في ايوا في غير موضعها ، فقد فازت لوحات جورج الاربع بجوائز في المعرض ، واختيرت احداها لعرضها في المعرض الكولومبي العالمي الذياقيم فيالصيف التالي بشيكاغو ، وهناك فازت بمركز مشرف امامنافسة لوحات المحترفين من انحاء العالم ، وكتبت الصحف في انحاء ايوا عن نصر جورج كارفر ، ولكن الجوائز والشـهرة المفاجئة لم تؤثرا فيه قدر تأثير تلك اللحظــة من الزمالة في بهو البروفسور ويلسون •

رسالة من بوكر ت• واشنطون

في عام١٨٩٤ تخرج جورج بدرجة بكالوريوس في العلوم التي كان يسعى اليها منذ زمن بعيد ، وكانت رسالته عن « النباتات التي غيرها الانسان » •• وجاءت مسز ليستون الي حفـل تخرجهقادمة منانديانولا ، واحضرت له باقة من زهور القرنفل الحمراء ، هدية من مس باد وزملائه السابقين في كلية سمبسون ، وتأثر جـورج كثيرا ، ووضـع احدي الزهور في عروة سترته ، وظل يضع زهرة أو غصنا صغيرا في سترته ، بل حتي قطعة من الحشائش ، كل يوم طوال حياته •

وبعد ايام قليلة ، استدعاه الدكتور لويس باميل الاستاذ بكلية ايوا ، ومن ابرز علماء النبات في أمريكا ، وكان

جورج قد طلب تعيينه في وظيفة مساعد عالم نبات في محطة تجارب الكلية ، ولم يكن يسمح لنفسه ان تؤمل في الحصول علي تلك الوظيفة اذ لم يسبق تعيين اي زنجي في هيئة التدريس ، ولكنه اسرع الي مكتب البروفسور باميل الذي استقبله قائلا :

- حسنا يا سيدي ، ما هي مشروعاتك ؟

فاعتبر جورج ذلك رفضا مؤدبا • وتمتم يقول :

- لم افكر بعد •• ربما اخذتني مدرسة صغيرة •

فزمجر باميلقائلا : تأخذك ؟••لقد اخذناك فعلا • انك مساعدي الجديد واريد ان اعرف ما هي مشروعاتك ؟ هل تحب ان تتولي امر بيت النبات الزجاجى ؟

وهكذا اصبح جورج في النهاية عالما ، وقد ركز جهوده علي العلم الذي يعالج الفطريات في النباتات وسرعان ما اصبحت لديه مجموعة تتكون من حوالي ٢٠ الف فصيلة ، وادت براعته في عملية التهجين الي جعل اسر كاملة من الفاكهة والخضر تقاوم كل الفطريات ، وبدأت التقارير العلمية تحمل اسم جورج كارفر باعتباره مؤلفا لها •

وفي ١٨٩٦ حصل جورج علي درجة الماجستير في الزراعة وبكتيريا النبات ، وعلي الرغم من ارتياحه التام فقد كان يشعر بالقلق علي سعادته •• لقد كان زنجيا ، وفي البلاد ملايين من شعبه جائعون ، مرهقون ، يتوقون الي مكان تحت الشمس ، فهل استطاع ان يخدمهم حقا كأفضل ما يستطيع الانسان ان يفعل بجهد لا نهاية له • ام انه ينتمي اليهم ويجب ان يشاطرهم المعرفة التي توصل اليها بهذا العلم والالم ؟

وظل يفكر كثيرا في تلك الاسئلة وهو يسير بمفرده في الصباح ••

في ذلك الحين ، كان هناك رجل يقيم على مسافة ١٣٠٠ كيلومتر فى بلدة تاسكجى بولاية الاباما هو المتحدث باسم الزنوج في امريكا ، ذلك هو بوكر ت• واشنطون الذيكان يكافح لتحقيق حلمه في انشاء معهد لتعليم الملونين ، وكانت تواجهه مشكلة جائحة •• لقد كتب يقول : « هؤلاء الناس لا يعرفون كيف يحرثون او كيف يحصدون • ولست بارعا في مثل تلك الاشياء ، ولكني اعلمهم كيف يقرأون ويكتبون ، وان ينتعلوا احذية جيدة •• ويبنوا جدارا

جيدا بطوب جيد ، ولا يمكنني ان أعطيهم الطعام • »

واقتنع واشنطون بأن الحاجة الملحة التي تلزمه في ذلك الوقت ، هي شخص يستطيع ان يعلم شعبه الزراعة ، وكان قد سمع ان هناك عالما شهيرا في الزراعة ، رجلا ملونا في كلية ايوا • وفي أول ابريل ١٨٩٦ جلس واشنطون وكتب اليه رسالة قال فيها :

« لست بقادر علي ان اعرض عليك المال ولا المركز ولا الشهرة • ولديك الاثنان الاولان ، اما الاخيرة فان المكان الذي تحتله الان كفيل ببلوغك اياها دون شك •• ولكنني اطلب اليك الان ان تتخلي عن هذه الاشياء ، واعرض عليك بدلها عملا شاقا مرهقا •• انها مهمة انتشال شعب من وهدة التدهور والفقر والضياع ، ومنحه الرجولة الكاملة »

وذات صباح بعد اربعة ايام ، قرأ العالم الشاب الطويل القامة تلك الرسالة ، فأحس بدمه يندفع في عروقه ، وضربات قلبه تزداد سرعة •:•

لقد كشف الله خطته التي اعدها لجورج كارفر •

مملكة القطن

لم ينس قط الرحلة الي تاسكجي •:• وبعد مأدبة وداع في « ايمز » قدم له خلالها البروفسور ويلسون مجهرا •• ركب القطار مسرعا نحو الجنوب ، وقد خلف وراءه سهول الغرب الاوسط وبراريه ، وسرعان ما بدأ يدخل مملكة صاحب الجلالة القطن ، ولم يكن بين ما درسه شيء اعده للمنظر المذهل الذي شاهده •

كان موسم الجني ، وقد تجمع في الحقول رجال ونساء واطفال يجنون القطن ، ورفعوا قاماتهم برهة ليروا القطار وهو يعدو امامهم ، وكانت وجوههم السوداء خالية من الامل ، ثم انحنوا من جديد ليجمعوا المزيد •• هؤلاء هم الناس الذين جاء ليساعدهم • واحس بقلبه يغوص بين جوانحه من ضخامة المهمة التي تنتظره ، فقد عرف مما رآه من نافذة القطار انه لا فرق بين هذا وبين ما سيراه اذا سافر مئات الكيلومترات شرقا او غربا او جنوبا •

كان القطن يزرع حتي ابواب اكواخهم الكئيبة الخالية من الطلاء ، لا تكاد تري شجرة او زهرة او حديقة للخضر ، فان كل بالة من القطن تجلب

نقـــودا ، ولا شيء آخر يهم المالك الابيض او الزنجي ـ فيما ندر ـ الذي يمتلك بضعة فدادين من الارض ٠٠ وهكذا كان القطن هو الحاكم بأمره في الجنوب طوال قرن من الزمان ، وقد راح يستنزف الخير من التربة عاما بعد عام ، ومحصوله يزداد ضآلة ، وكلمـــا زادت زراعة الارض ، زاد انتزاع الغابات لاخلاء مكان لمزيد من الحقول ، وكان سطح التربة بدون أشجار تجتـــاحه الامطار ، وتذروه الرياح حتي تآكلت ملايين لا تحصى من الاطنان وذهبت الي البحـــــــر لتضيع الي الابد ٠٠

ووصل جورج الي نشيهو ، وهي محطة للسكك الحـــديدية تقع علي مسافة حوالي ستة كيلومترات شمال تاسكجى ، في ساعة مبكرة من صباح يوم ٨ اكتوبر ١٨٩٦ ، وقابله طفل من المعهد في عربة صـــغيرة يجرها جواد ، وبينما كانت العربة تنطلق بهما بين المزارع الزاخـرة بالقطن ، والاكواخ البارزة ، اخذ كارفر يحدق بنظراته فوق كل مرتفـــــع ، تواقا لمشاهدة اول منظر يبدو من المدرسة وقد تخيلها واحدة في الارض القفراء بين الحقول الخضراء ٠

وعندما توقفت العـــربة أخيرا في اراضى المعهد الصناعى بتاسكجى ، لم يستطع ان يصدق انه بلغ غايته ، فقد كانت هناك رمال في كل مكــــان حوله ، وطفل صغير عار من الثياب وقد ترك المطر اثره في اخاديد عميقة يمكن ان يغوص فيهـــــا الرجل او الجواد ٠٠ وسار كالنائم في الطريق الرئيسى ، وسط غبار يكاد يصـــل الي الركبة ، وكانت الامطار قـــد صنعت نهرا من الطين وهنا وهناك لافتات كتبت بحروف انيقة تحـذر : « ابتعد عن الحشائش » ، ولكن لم تكن هناك اية حشائش بادية فوق الارض !

ومر بمجمـوعة من الاكواخ تثير الاشفاق ، وكان يبدو بين حين وآخر مبني اكبر حجما ، وشاهد مبني من الطـــوب يسمي « قاعة الاباما » ، والنسور تحوم في السماء من خلفه ، وقد راح كل منها ينقض بدوره على مخلفات المطابخ التي كانت تلقي في خنادق ، فلم يكن هناك اي شـــبكة للمجاري ٠

وأخذوا كارفر الي مكتب الناظر ، غرفة فسيحة قليلة الاثاث ٠٠ ونهض بوكر واشـــنطون للترحيب به ، ثم سأله :

ـ ما رأيك في مدرستنا ؟

فقال كارفر : يبدو ان هناك كثيرا ينبغي عمله •

وابلغه واشنطون انه تم اختيـار مكان لاقامة مبني الزراعة ، اما الان فانهم لن يستطيعوا اعطاءه غير غرفة واحدة ستستخدم ايضا كمقر لاقامته •• ثم قال له :

ـ ان مسكنك لن يوجد الا علي الورق ، ومعملك سيكون في رأسك •

فقال كارفر : سأدبر الامر •

وشرع في العمل علي الفور •

زيارة لمقلب النفايات

كان هناك ١٣ طالبا في اول فصل زراعي نظمه كارفر •• وفي ساعة مبكرة من صباح أحد الايام ، قادهم الي مقلب نفايات المدرسة ، وهنـاك تولي قيادتهم في عملية اصلاح عجيبة رفع خلالهـا صفا من الزجاجات والاواني الصدئة ، واغطية قـدور الفاكهة والاسلاك والقطع المعدنية، ولم يكن هناك من يدري ماذا ينوي هذا المدرس العجيب •.

وعندما استنفدوا الاحتمالات التي توجد في « مقلب » المدرسة ، انتقل الطلبة الي البلدة يجمعون المخلفات من الازقة والحـواري ، ويطرقون الابواب طالبين المطـاط والاباريق القديمة والقدور المصنوعة من الخزف وعندما احضروا المجموعة كلها اخيرا الي المعهد ، جلس ١٣ تلميذا يرقبون كارفر بعيون مليئة بالشك وهو يشير الي تلك الاشياء الغريبة ، ثم قال :

« قد تبدو هـذه نفايات بالنسبة لكم ، ولكننا سـوف نطبق ذكاءنا عليها •• فهيا الي العمل » •

وشاهد التلاميذ امام عيونهم قدحا للشاي مكسور اليد يصبح « هاونا » وزجاجة حبر تستخدم كمصباح بنزن بعد ان مرت قطعة من الحبل خلال غطائها المصنوع من الفلين ، وداخل اغطية اواني المربي ، وضعت تشكيلة المـواد الكيميائيـة ، اما الزجاجات المكسورة فقـد اصلحت لكي تصبح انابيق ، وتحولت قطع من الصفيح حفرت فيها ثقـوب بالمسامير الي مصفاة يمكن فرز عينات التربة من خلالها بدقة •.

وشهد الطلبة في ذهول هذا العمل المرتجل وهو يتخذ شكله التدريجي ، وكان هذا هو درسهم الاول ، ولعله اكثر دروسهم قيمة ، فعنـدما كان خريجو تاسكجي يذهبون في السنوات التالية الي المزارع الفقيرة ، كانوا يعملون وهم مسلحون بالمعرفة ولم تعد المعدات اللازمة مطلبا سابقا للنجاح •.

ولكن الطلبة لم يروا الا الجزء الاول

من العجائب التي قام بها مدرسهم الجديد فيما بعد • وفي السنة التي وصل فيها كارفر ، كانت حصيلة مزرعة المدرسة التي تبلغ مساحتها ٢٠ فدانا خمس بالات من القطن و ١٢٠ بوشلا من البطاطس ، وقدحا من الشليك كل يوم •• وقال جورج فيما بعد :

ـ لقد قالوا لي ان هذه هي اسوأ تربة في الاباما •• وصدقتهم !

كان كارفر ينطلق مع طلبته يوما بعد آخر ، مقسما العشرين فدانا الي قطع صغيرة ، مبرزا لهم اهمية القياس الدقيق ولم يكن يستخدم كلمة « تقريبا » قط ، وكان يقول لهم : ان القفز « حوالي » متر فوق خندق اتساعه متر ونصف متر سوف يغرقك في حمام من الطين • وجعل كل الطلبة يطالبون واشنطون بالاتصال باحدي شركات السماد في اتلانتا لكي تعطيهم ٢٠٠ كيلوجرام من الفوسفات • حتي يبدأ تجربة زراعية استمرت ثلاث سنوات وعندما وضع الفوسفات في الارض ، استعد الطلبة لزراعة محصول جديد ولكن المدرس لم يكن مستعدا لذلك ، بل قال انه لابد من مخصبات اخري وانهم يستطيعون الحصول عليها في اراضي الجامعة • وقادهم الي جبل آخر من المخلفات الخاصة بالمطبخ ، وعاد الطلبة بدلاء مليئة بقشور الخضر ، ونفايات الجرن وغيرها حتي صنعوا كوما ضخما ، وعندما تعطنت هذه المواد في الربيع وتحولت الي أكداس سوداء خصبة ، نشروها فوق العشرين فدانا •

كان الطلبة يتوقعون منذ البداية بطبيعة الحال زراعة القطن فوق كل رقعة من الارض بذلوا جهدهم لجعلها صالحة للزراعة ، ولهذا ذهلوا عندما اصدر جورج كارفر قرارا بأن يكون محصولهم الاول « اللوبية » •• وقالوا لانفسهم : هل قاموا بكل هذا العمل الذي يحطم الظهور ، لكي يزرعوا شيئا لا يصلح الا للخنازير ؟ •• ولكنهم زرعوا اللوبية كما أراد وقال مدرسهم يشرح لهم الامر في صبر ، ان اغلب النباتات تستنزف النيتروجين مانح الحياة ، من التربة ، والقطن هو أسوأ من يستهلك التربة ، اما الخضر امثال اللوبية فانها تمتص النيتروجين من الهواء ، وتعيده للتربة وهكذا يمكن اكتساب عنصر جوهري في التسميد ، يساوي الكيلوجرام منه ٣٧ سنتا ، دون اية نفقات •

وفي نهاية السنة الاولي ، احرزت

المزرعة ربحا بمعدل اربعه دولارات للفدان ، الي جانب امداد مطبخ المعهد بما يلزمه حتي نوفمبر ، وفي الربيع جعل كارفر تلاميذه يزرعون البطاطا ثم أجري تجارب علي انواع اخري من الخضر ، وكان انتاج السنة التالية ٢٦٥ بوشلا من البطاطاللفدان وهو ستة اضعاف المحصول المعتاد .

وعندما زرع كارفر القطن اخيرا جاء الزنوج من المزارعين الي محطة التجارب ، وراحوا يحدقون فيدهشة فقد كانت الغلة كبيرة الي حد لا يصدق ، حوالي ٥٠٠ رطل للفدان الواحد ، ولم يكن قد سبق الحصول على مثل هذا المحصول الكبير فيذلك الجزء من الارض .. وراحوا يتساءلون : كيف تسنى لشخص من الشمال ، ومدرس لم ير القطن قبل ذلك ان يتفوق على اولئك الذين كرسوا حياتهم كلها لزراعته ؟

وكان رد جورج دائما هو : « ان النبات يحتاج الياشياء معينة ، ولدي التربة اشياء معينة تستطيع انتعطيها وعلي المزارع ان يحدث بينهما توافقا مناسبا »

حلة الاستاذ الكاملة

كانت تلك هي اعظم سنوات الزراعي في تاسكجى .. وبعد وصول كارفر بقليل ، كانت الاسئلة تنهال عليه : « هل تستطيع العناية بهذا ؟ » .. ووجد كارفر نفسه يضع التصميمات للمبني الزراعي الجديد ، وكان يختبر بنفسه ماء الآبار ، ويقيس عمق المطر ، ويرسل اخبارا يومية الي مكتب الارصاد المحلي .

وكان لابد من تنظيم ساحة الجامعة ، فصنع درجات وشرفات وزرع اشجارا صغيرة تلقى ظلالها حولها ، وشجيرات وحشائش وزهورا ، حتي اذا حان الوقت المناسب ، بدت الارض التي كانت جرداء ، أشبه بحديقة جميلة .

وظل يواصل ابحاثه ، واحضر مجموعاتمن الحشائش المرتفعة التي تستذبتها وزارة الزراعة ، وعندما شاهد صديقه القديم البروفسور ويلسون ـ الذي اصبح وزيرا للزراعة ـ مبني كلية الزراعة الجديد في خريف عام ١٨٩٨ ، اقتنع بالحضور لافتتاحها .

وكان كارفر يقوم بالتدريس دائما داخل الفصل وخارجه ، وكان يقول للطلبة انه لميأت ليسهم فيزيادةربحهم المادي ، بل ليساعد شعبه على التقدم للامام ، وقال لهم : « ان هذه هي

علامة النجاح ، وليست الثيـــــاب التي ترتديها او النقود التي تودعها في البنك ، فالخدمة وحدها هي التي تهم ·· تعلموا كيف تؤدون الاعمال العادية ببراعة غير عادية » ·

وسرعان ما بدأ الطلبـة يتطلعون الي الامام ·· الي تقاليد مدرســـية جديدة ، وكان كارفر قد تعلم كيف يعزف علي البيانو ، فكان يجلس ليلة كل أحد امام المعزف القديم في قاعة الاباما ، بينما يقف الطلبة والمدرسون للاصغاء الي معزوفاته ، وفي يوم من ايام الربيع ، اقترح وارن لوجان امين صندوق المعهد ان يسافر كارفر فى جولة لاقامة حفلات موسيقية ·

وضحك كارفر وقال :

ـ انني مدرس ولست عـــازف بيـــانو ·

فأجاب لوجان :

ان الدكتور واشنطون ناظر وليس خطيبا ، ومع ذلك فانه يلقى خطبا في انحاء امريكا لجمع المال للمعهد ·

وفكر كارفر في انه بقليل من المال يستطيع ان يضيف ١٥ فدانا لمزرعة المدرسة ·· وسرعان ما ارســـلت اعلانات عن جولة سيقوم بها كارفر للعزف علي البيانو في مدن وقـــري ألاباما وجورجيا ولويزيانا وتكساس ·· واستطاع بطريقة ما ان يجـــد نقودا يشتري بها حلة استاذ كاملة ·· وفي ٦ يوليو ١٨٩٩ بدأ جولته ، وعزف في المدن الكبري والبلاد الصغيرة ·· عزف في الاجران والمباني العامة والبيوت الخاصة · وحدث ذات مرة في شرق تكساس ان حدث ســـوء تفاهم فأبعدوه من المسرح بســـبب لونه ، ولكنه عندما عزف في احـدي مدارس جورجيا ، قال له رجل ابيض وزوجته ودموعهما تنســـاب علي وجنتيهما انهما لم يعرفا قط ان كل هـــذا الجمـــال يمكن ان يوجد في الموسيقى ·· وكان يجلس كل ليلة في غرفة فندق قذرة او في مؤخـــرة القطار ، يحصى قطع العملة الصغيرة والدولارات التي جمعها ·· وعنـدما عاد الي تاسكجى بعد خمسة اسابيع كان قد جمع عدة مئات من الدولارات

وظلت الحلة ذات الذيل الطـويل موضوعة في دولاب ملابسه عـــدة سنوات بعد ذلك ، لم يلبسها قط ، وكلما سأله عنها أحد ، قهقه قائلا :

ـ انها عندي منذ الايام التي عملت فيها عازفا للبيانو !

(البقية في العدد القادم)

من المختار

الجزء الثاني والاخير من ملخص كتاب :



قصة العالم الزنجى جورج واشنطون كارفر

بقلم : لورنس اليوت

عن كتاب : BEYOND FAME or FORTUNE

أسمى من المال والشهرة

بدأ حيـــــاته بالافلات من الموت بمعجزة ... وكانت سنواته الاولي صراعا في سبيل البقاء فقد اصيب بكل مرض من أمراض الطفولة ، ولكنـه قاوم ، وعاش لكي يعشق الطبيعـــة ويتغلغل في أعماقهـــا ويكشف عن أسرارها ...

كان جورج واشـــــنطون كارفر يشعر برغبة طاغية لفهم هذا العالم المعقد ومعرفة كل شيء عنه ، وعلي الرغم من كل العقبات التي اعترضت طريقـــه ، والابواب التي أغلقت في وجهه من اجل لونه ، فقد اصبح أكبر علماء النبات في أمريكا ..

وقرر ان يضع كل مواهبه وخبراته في خدمة قومه الذين اذلهم الفقـــر وحطمتهم التفـــرقة العنصرية ... ورفض المال والشهرة والمنصب الكبير لكي يكرس نفسه لخدمتهم والنهوض بهم ..

في خلال الجولة التي قام بهـــا كارفر ، رأى من جديد البيوت قذرة والبؤس الذي يعيش فيه قومه، انت انظاره تقع حيثما ذهب علي نوّج نالوا حريتهم ولكن الجـــوع طاردهم ، وكثيرا ما كان يجد ان كل شرة او اكثر يقيمون في حجـــرة حدة قذرة كحظائر الخنازير ... كثر في المحنة التي يعانيها الجنوب . د احترقت الأرض واســـتهلكت ، كن كان من الممكن جعلها خصبة مرة خري ، وكان في الامكان انهاء سيطرة احب الجلالة القطن ، وزرع طعـام ب لقومه ، واتاحة الفرصة لابنائهم انهم رأوا المثل يضرب لهم .

كان معهد المزارعين مجرد بداية ، وفي يوم الثلاثاء الثالث من كل شهر ، كان المزارعون يتدفقون من الريف علي المبني الزراعي الجديد ، وكان عددهم قليلا في البداية ، حيث يتحدث اليهم الدكتور كارفر ساعتين او اكثر عن ارضـــهم ، حاثا اياهم علي زراعة حدائق المطبخ قائلا : ان الخضـــر الطازجة سوف تحطم طغيان اللحم والدقيق والعســـــل الاسود ، وهو الغذاء الذي جعل « البللاجرا » زائرا قاتلا في كل بيت تقريبا ، وكان يمسك ثمرة ناضـــجة من الطماطم ـ التي كانوا يعتبرونها سامة بصفة عامة ـ فيقطعها ، ثم يأكلها في تلذذ واضح

أمام العيون والافواه التي تبدو عليها الدهشة والهلع •

ويقول لهم بعد ذلك : « ارجو ان تلاحظوا أنني لم أمت » •• ثم يمضي ليشرح لهم كيف يستطيع الطماطم ان يعمل لوقايتهم ضد مرض الاسقربوط بصفة اساسية •

وزاد عـدد المزارعين الذين يأتون الي المعهد علي مر الوقت من ٢٥ الي ٥٠ او اكثر ، ولكن بقي الوف مـن الزنوج لم يسمعوا قط عن «تاسكجي» في الخارج حيث تنتهي الطـرق وسـط الادغال والمستنقعات وقرر كارفر ان يصل اليهم ••

كان يقود عربة يجرها بغل محملة بأدوات قليلة ، وحزم البـذور التي ارسلها اليه ويلسون وزير الزراعة ، وبعض النباتات الموضوعة في صناديق وينطلق في نهاية الاسبوع بعد انتهاء الفصول الدراسية ، وفي كل لحظـة يستطيع تدبيرها كان يركب عربتـه المترنحة وينطلق بها في انحاء الريف باحثـا عن المزارعين المعزولين ، محاضرا الجماعات التي يجدها فى المعارض وعلى نواصى الشوارع ••

كان بعض الرجال تسـاورهم الشكوك ويقولون له : « كيف تكون اكثر ذكاء منا وانت مجرد زنجي ؟ » ولكن غيرهم كانوا يصغون اليـه ويوجهون الاسئلة •• وحثهم علـي ادخار خمسة سنتات ـ حوالي ١٠ مليمات في ذلك الحين ـ في كل يوم يعملون فيه ، فيتوافر لديهم في نهاية العام ٦٥ر١٥ دولارا ، وهو ما يكفى لشراء ثلاثة فدادين من الارض ، وكان يقول لهم : انه ليست هناك وسيلة أخري غير هذه لتحطيم نفوذ صاحب الارض أو ناظر المزرعة • ولم يمض غير وقت قصير في انحاء المنطقة حتي كانت القروش تختزن في القـدور والصفائح وجذور الاشجار الجوفاء •

وفي بطء ومثابرة شرع يعمل لتغيير عادات الطعـام في الجنوب ، فعلم المزارعين كيف يعالجون لحم الخنزير لكيلا يفسد في أشد الاجواء حرارة ، وقبل ان يفهم الاطباء قيمة الخضر الطازجة كوقاية من امراض التغـذية بوقت طويل ، كان كارفر يدعـو المزارعين الي ان يجعلوا من البرقوق البري والتفـاح جزءا من طعامهم اليومي ، وكان يقـدم لهم البذور اللازمة ، ولكن اقناع الناس بزراعة الخضر كان نصف العملية فحسب ، اذ لم تكن لدي زوجاتهم غير اضأل فكرة عما يفعلن بالخضر بعد الحصاد ومن ثم فقد شمر عن أكمامه وذهب بنفسـه الي مواقدهن ليريهن كيف يطهين الخضر والبطاطس والبنجر ،

يكسبنها نكهة مستطابة .

كان الاسراف هو عدو كل حديقة مطبخ ، ومن ثم فقد اتجه كارفر بكل كائه لمكافحته وقال لهم انهم يلقون من شحم الخنزير ما يكفي لامداد كل اسرة بالصابون طوال العام ، وان البطاطا الرفيعة التي لا تؤكل يمكن نيها لتتحول الي نشاء ممتاز . كما ن ابر الصنوبر والخيش والشاش مكن تحويلها الي حصائر واغطية لفراش ، وقدم لهم بذور الاضاليا زهور البانسيه وقال لهم : « ازرعوا بذه في حدائقكم .. ان الزهرة هي رسالة الله الصامتة ..» ومضي في طريقه قدما ..

وعندما ذاعت انباء عربة تاسكجي دأ كارفر يجتذب حشودا بعد ظهر سبت الي ميادين البلدة . ولم يكن بيض مرتاحين في البداية الي مثل هذا الاجراء ، وكان بعضهم يسعى تفريق الاجتماعات ويقولون : « اننا نريد زنوجا أدعياء هنا ..» وكانوا تعنون في الحقيقة انهم لا يريدون زارعين سودا يتفوقون علي البيض في الانتاج .

كان كارفر — مثل واشنطون — ؤمن بشدة انك لا تستطيع ان تبقى نسانا في خندق الا اذا كنت مستعدا للنزول معه .. وثبت ان الامر كذلك حقا ، اذ لم تمض فترة طويلة حتي توقف البيض عن الزمجرة ، واقتربوا ليسمعوا ما يقوله هذا « المعلم الزنجي » وقد ابتهج كارفر لرؤيتهم ، فقد كانت للبيض والسود في الجنوب مشكلات واحدة ومطالب واحدة ... لقد كان يلقى حجرا في بحر فسيح من الظلمات ، وكلما زاد عدد البيض والسود الذين يستطيع مساعدتهم لتحسين حياتهم ، زادت موجات الماء حول الحجر ..

ولقد ظل كارفر حتي يوم وفاته يؤمن بأن « مدرسة العربة » كانت اهم اعماله ، فقد اطلقت ثورة للمحافظة علي التربة والقضاء علي لعنة مرض « البلاجرا » ومضت لكي تصبح نظاما عالميا ، اذ ان اول عربة كسيحة يجرها بغل تطورت بعد ذلك الي « عربة جيسباب الزراعية » وهي محطة تجارب متنقلة يجري تمويلها من تبرعات موريس جيسباب رجل البر في نيويورك ، وفي ١٩٤٨ قدمت ولاية الاباما سيارة نقل كبيرة ، كما جمع المزارعون فيما بعد مبلغ ٥٠٠٠ دولار لاعداد مدرسة اكبر علي عجلات .

وفي نفس الوقت تدفقت طلبات

اخري على تاسكجي من مناطق اخري لمساعدتها على انشاء مثل هــــذه المدارس المتنقلة ، وكان لابد من انتشار الفكرة عبر البحار ... وجاء زائرون الي المعهد من روسيا والصـــين واليابان والهنـــد وأفريقيا وامريكا الجنوبية ، وكانوا جميعا يتجهون الي الدكتـــور كارفر ويســتمعون الي البروفسور الضامر الجسد وهو يسرد تجاربه في المنـــاطق الريفية بولايات الجنوب الامريكي ، ويقترح اساليب جـــديدة لاستخدامها في الاراضي الاخري .

محادثة مع الله

ظل الدكتـــور كارفر طوال تلك السنين يواصـــل دعوة المزارعين لزراعة مجموعة متباينة من الحاصلات وكان يحثهم علي زراعة اللوبيـــا والبطاطا ولكنه لم يحرز نجاحا كثيرا وشرع في اجراء تجـــارب على فول الصويا لسهولة تحويله الي دقيـــق وطحين ، بل والي لبن ، وبفضل هذه الجهود الاولي اصبح فول الصويا في يوم ما القـــوت الرئيسي لولايات الجنوب ، وسرعان ما تبين له ان الوقت لم يحن بعد لاخـــلاء الارض الخاصة بالقطن لزراعة هذا النبـــات غير المألوف .

ومما يدعو الي السخرية ان وباء من اعظم الكوارث الزراعية في العصور الحديثـــة ، كان السبب الذي اجبر المزارعين علي الاصغاء الي دعـــوة كارفر ، فقد ظل عدة سنوات يحذرهم من خطر انتشار دودة القطن الشريرة التي لا يمكن ايقافها . وفي عام ١٩١٥ كانت الدودة قد اصبحت تعيث فسادا في الحقـــول عبر ولايات لويزيانا والمسيسبي والاباما وتجاوز خسائرها السنوية مائة مليون دولار ، ودفعت الوف الفلاحين الي اليأس والافلاس .

وفي ذلك الحين كان كارفر قد بدأ يدرس شجرة صغيرة تنتج « الفول السوداني » وكانت تعتبر شـــيئا لا قيمة له ، ولكن عددا قليـــلا من المزارعين علي الاقل كانت لديهم قطع من الارض مزروعة بالفول السوداني لان اطفالهم في الغالب كانوا يحبون كسر قشره المزدوج الســنام وأكل الفول الذي بداخله .

وقال كارفر يومئـــذ للمزارعين المنكوبين : « احرقوا قطنكم المصاب وازرعوا فولا ســـودانيا .. ولكي يضفي علي حملته طابعا مثيرا ، اقنع « بوكر واشنطون » بدعوة تســعة من رجال الاعمال المحليين ذوي النفـــوذ لتناول الغداء في المعهد ، وكانت الوجبة

التي اعدت تحت ارشاد كارفر تتكون من حساء ، ودجاج وهمي ، وخضر بالزبد ، وخبز ، وسلطة ، ومثلجات وحلوي ، وكعك وقهوة •• ولاحظ رجال الاعمال المدعوون أن لكل طبق منها طعما لذيذا فريدا في نوعه،وعندما ابلغهم كارفر انهم لم يتناولوا غير الفول السوداني بعد اعداده بتسع طرق مختلفة ، صفقوا له جميعا •

وبدأ الناس يفعلون ما طلبه منهم ببطء ، مدفوعين بدودة القطن ، ودعوة كارفر ، وبدأت حقول تتراوح مساحتها بين ٢٠ و٤٠ فدانا تتفتح فيها الزهور البيضاء للنبات المخملي ، بعد ان كانت اشجار الفول السوداني لا تزرع الا في قطع صغيرة حيثما اتفق ، وعلي مر الوقت تخلت مناطق بأكملها عن زراعة القطن ، وبدأالفول السوداني يصبح من اهم الحاصلات في حزام زراعي كبير يمتد من مونتجومري في ألاباما الي حدود ولاية فلوريدا •

ثم جاءت الكارثة ••• وكانت في هذه المرة في صورة سؤال بريء لسيدة عجوز ، طرقت باب كارفر بعد ظهر احد ايام اكتوبر ، وقالت للبروفسور انها ارملة اتبعت نصيحته وحولت مزرعتها الي الفول السوداني فحصلت علي محصول قياسي ، وبعد ان احتفظت بكل الفول الذي يمكنها استخدامه في العام التالي ، بقيت لديها مئات من الكيلوجرامات الفائضة •• ثم سألته : « من الذي سيشتريها ؟ »

ولم يجب كارفر •• كان قد انهمك في القضاء علي نظام المحصول الواحد ونجح في نشر زراعة الفول السوداني الي حد انه خلق وحده وحشا قاسيا كدودة القطن ذاتها ••• وقام برحلة سريعة للريف ، فرأى غلطته تحدق في وجهه من كل مزرعة ، فقد كانت مخازن الحبوب مليئة بالفائض والفول يتعطن في الحقول !

وعاد الي معمله مثقلا بالشعور بالذنب ، يلوم نفسه لانه لم يفكر الا في نصف المشكلة فقط •• فالناس يجب ألا يحرروا أنفسهم من القطن فحسب ، بل ويجب ان يكون لديهم ايضا محصول يعود عليهم بالنقود •• واذا لم يكن هناك سوق للفول السوداني فان عليه ان يوجد هذه السوق •

وبعد سنوات تحدث كارفر عن اخطر مشروعاته في الخطبة التي القاها بكلية ماكلستر بمدينة سانت بول في ولاية مينسوتا • فقال : انه كان يبحث عن العزاء في ذلك اليوم من ايام اكتوبر

فسار في الظلمة التي تسبق الفجر وسط أحراشه المحبوبة ، وبينما كان يتطلع الي اول بصيص من نورالصباح الجديد ، صاح قائلا : « ايا خالقى ·· لم صنعت هذا الكون ؟ » ·

ويقول كارفر : « واجابني الخالق انك تريد ان تعرف اكثر مما يسعه عقلك الصغير ·· اسألني شيئا يناسب حجمك ؟ ·· ومن ثم قلت : يا خالقى ·· اخبرني · لم خلق الانسان ؟ ··»

وعاد الله يقول لي : « ايها الانسان الصغير ، انك مازلت تسألني شيئا اكثر مما تستطيع معالجته ·· قلل من طلبك واهتمامك ··»

وعندئذ سألته سؤالي الاخير : «أيا خالقي ·· لماذا خلقت الفول السوداني ؟ » ·· فقال الله : « هذا أحسن » ·· واعطاني حفنة من الفول ، وعاد بي الي المعمل ، وهناك شرعنا في العمل

وعندما بلغ كارفر المعمل ، أغلق الباب ، وقام بتقشير حفنة من الفول السوداني وظل طوال الليل والنهار يمزق ثمار الفول اربا ، فعزل الدهون والاصباغ ، والراتنج ، والسكر ، وانواع النشاء ، حتي اصبح أمامه مادة « البنتوزان » والبنتوز ، والليسين ، والبقلين ، والاميدو والمحاليل ، وأحماض أمينية واختبر هذه الاشياء في انواع مختلفة من الخليط تحت درجات متفاوتة من الضغط والحرارة ، وسرعان ما بدأت تنمو مجموعته من الكنوز الصناعية : لبن ، وحبر ، واصباغ ، ودهان للاحذية ، و « الكريوزوت » ، ومرهم طبي ، وكريم للحلاقة ، وزبد الفول السوداني ، ومن القشور صنع مكيفات للتربة ، والواحا عازلة ، وقوالب فحم نباتي للوقود ، وربط كل مجموعة بشريط لاصق وحفظها ، مع كتابة التعليقات اللازمة عليها ··

وظل يعمل يومين متتاليين ليلا ونهارا ، وكان يعرف الطلبة الذين ساورهم القلق فجاءوا يطرقون باب غرفته للاطمئنان عليه ··· كان يشعر انه بين يدي الله بمثابة الاداة البشرية لكشف الهي ·· وقال فيما بعد : « لقد اعطانا الخالق العظيم ثلاث ممالك : الحيوانية ، والنباتية ، والمعدنية ، وقد اضاف الآن مملكة رابعة مملكة المنتجات الصناعية » ·

وبعد سنوات عندما عرف عالم ال الكيمياء الصناعية بأنه محاولة لخلق الثروة من القوي النائمة للتربة والهواء والشمس ، قال الناس ان جورج

واشنطون كارفر كان كيمائيا صناعيا قبل ان تخترع هذه الكلمة ..

ولكن شيئا من تلك الاعتبارات السامية لم يخطر لكارفر في تلك الليلة من ليالي اكتوبر ١٩١٥ عندما تهالك أخيرا على مكتبه وهو يرتعش من الارهاق ، كان يعرف فقط انه بتوفيق من الله جعل من الممكن للناس ان يستخدموا كل ثمرة فول يحصدونها وانه اذا تضاعف المحصول ثلاثة امثاله ـ وقد حدث ذلك في خلال ٤ سنوات فقط ـ فان كل مزارع سوف يجد مشتريا علي استعداد لشرائه في السوق ...

وخرج متعبا الي الفجر وبرودته ليقدم شكره لله ..

في أواخر ايام الحرب العالمية الاولي ، كانت صناعة الفول السوداني الامريكية الوليدة تساوي ٨٠ مليون دولار سنويا ، وفي الوقت الذي مات فيه كارفر ، كان هناك اكثر من ٣٠٠ مستحضر يصنع من الفول السوداني وعشرات من المصانع التي أقيمت لتصنيعها ، وكانت تشمل مدي يثير الذهول : المايونيز ، جبن ، صلصة، الشطة ، « الشامبو » مواد التبييض شحم لمحور العجلات ، مشمع ، ورنيش للمعادن ، بويات للاخشاب ، مواد لاصقة ، بلاستيك . واستمرت قيمة حاصلات الفول السوداني في النمو حتي اصبح اليوم يعتبر سادس انتاج زراعى في أمريكا ، وتساوي المساحات التي تحصد كل عام وقدرها ٩٠٠ الف كيلومتر مربع حوالي ٣٠٠ مليون دولار للمزارعين و٢٠٠ مليون أخري للصناعة !

أنا أملك كل الارض

يوم مات بروكر واشنطون في ١٤ نوفمبر ١٩١٥ ساد الحزن والاسى أنحاء البلاد ، وبدت الخسارة لكارفر أمرا لا يحتمل ، فقد كان هو وواشنطون صديقين لا يفترقان طوال ٤٠ عاما تقريبا .. ومن ثم فقد حاول ان يملأ الفراغ الذي لا يقدر ، بالعمل .. العزاء الوحيد الذي يعرفه .

كانت تجاربه يومئذ قد دخلت مرحلة جديدة مثيرة ، فمنذ خمس سنوات كان مجلس اوصياء معهد تاسكجى قد وافق علي انشاء قسم للابحاث الزراعية برئاسة كارفر . وبعد ان اعفى من اغلب فصوله عدا القليل ، أصبح حرا في تركيز اهتمامه علي ما كان يسميه «العلوم الخالقة» وواصل اسهامه في مجموعة واسعة من المعلومات والمعارف الانسانية : في الزراعة والتغذية والكيمياء ، وعلم

الوراثة ، وعلم الفطريات ، وعــلاج النبات •

وهناك من يري ان هذه الفكــرة ـ التي مازالت موضع ابحـــاث واسعة النطاق ـ هي اهم هدية قدمها كارفر للجنس البشري ، فلم يحدث قط من قبل ان دعا احد الي استخدام المنتجات الزراعيـــة في اي شيء الا الطعام والكساء . ولكن كارفر رأى انه في كل شيء ينمو يوجد سحـــر كيماوي يستطيع الناس استخـــدامه لفائدتهم ، لا لمجرد الطعام ، بل وكل مطالبهم الدنيوية الاخري •

ولقد اخذت بعض أفكاره عشرات السنين لكي تتجسد ، فقد صـــنع الورق من اشجار صنوبر الجنوب ، وبعد ٢٥ عاما ادي عمله الي ظهور صناعة ورق جديدة كبري ، وصـنع الرخام من قشور الفول الســوداني وفضلات الطعام ، وهذه الجهود كانت بشيرا بصناعات البلاستيك من كـل أنواع المواد النباتيـــة ، فاســتبدل بالصلب السلولوز ، واستطاع صانعو السيارات بعد ذلك ان يضعوا ١٦٠ كيلوجراما من المنتجات الزراعية فيكل سيارة •

وبأبحاثه التي أجراها علي البطاطا ابتكر ١١٨ انتاجا مختلفا منهـــا تتراوح بين دقيق الحرب ، والصمغ الرخيص لطوابع البريد ، وهكذا وضع الاسس لصناعة اخري • وفي خـلال الحرب العالمية الاولي اكتشف كارفر ان في استطاعته ان يحـــول ٤٥ كيلوجراما من البطاطا الي مسحوق يمكن وضعه في علبة محكمة منالورق المقـــوي تحفظ فيها الي اجل غـير مسمي ، ويمكن اعادتها الي شكلها الاصلي فورا باضافة الماء اليها ••• وأصبحت صناعة الاطعمة المجففـــة اليوم تســـاوي مئـــات الملايين من الدولارات ، وكذلك الاطعمة المجمدة ، وهي من أبناء عمومتها •

وبدا انه لا حد لاهتمامات كارفر ونشاطه ، فقــد استخرج من بعض ثمار البرتقال عصيرا يستخدم فيجعل اكثر انواع اللحوم خشونة رقيقـــة لينة ، وكانت تلك اول مادة لجعـل اللحوم طرية •

وكان كارفر يعتقــد ان الاعشاب نباتات يكمن فيهـــا امل ما ، وكان المزارعون يتحدثون عن نوع عمــلاق من الحسك ، ولكن كارفر اظهر انه يحوي خصائص طبية ، وكذلك فعل مع ٢٥٠ عشبا اخري قام باختبارها

وعندما كشف علماء الكيمياء كيفية صناعة الخيوط وغيرها من الالياف

الصـــــناعية ، بدا ان الوقت الذي يستطيع فيه مزارعو الجنوب بيع كل بالة قطن ينتجونها قد انتهي ، ولكن كارفر بدأ يبحث في نواح جـــديدة لاستخدام المحصول • وبعد سنوات قليلة عاد المزارعون الي رخائهم من جديد ، واتسعت أسواقهم باستخدام القطن في عمل البلاستيك ، واعــــداد كتل لتمهيـــد الطـــرق ، واطارات السيارات والاسمدة •

وعرف كارفر كيف يستخــــــدم البويات والالوان من طفل التلال ، كما ادت تجربة اخري لكارفر الياستخدام زيت فول الصويا كقاعدة لبـــويات الرش للسيارات التي اصبحت اليوم شيئا شائعا ••

لقد كان اى واحـــد من انجازاته كفيلا بأن يجعل من كارفر رجــلا ذا ثروة خيالية ، ولكنه ظل طوال حياته يرفض قبول اي مبلغ مقـــابل اي اكتشاف ، والواقع انه لم يكن يبدي اي اهتمام بالمال ولم يقبل قط ايةزيادة في راتبه • وقد قال يوما متسائلا : « ماذا افعل بالمزيد من المال ؟ •• ان عندي كل الارض فعلا •• » وبعـــد مرور ٤٠ عاما علي وصـــوله الي تاسكجي ، كان لايزال يتقاضى ١٢٥ دولارا في الشهر ، وهو نفس الراتب الذي عرضه عليه بروكر واشنطون في اول الامر •

وكان الصراف يتوســـل اليه ان يصرف شـــيكات راتبـــه التي كان يحشرها في جيوبه او ادراج مكتبه ، وذلك ليتسني للصراف موازنة دفاتر المدرسة • وعندما كان كارفر يصرفها كان ينفقها بسرعة فيالعادة • وليست هناك وسيلة لمعـــرفة عدد الطلبة ـ البيض والزنوج علي السـواء ـ الذين كان يســـدد فواتيرهم وقت الحاجة ، وكل من عرفه يذكر مثلا واحدا علي الاقل لهذا العمل •

وكان رجال الاعمـــال يحاصرونه دائما بعروض من أموالهم ، مستعدين لدفع اي مبلغ للحصول علي مشورته •• وقد بعثت جمـــاعة من منتجي الفول السوداني في فلوريدا شـــيكا بمبلغ ١٠٠ دولار وصندوقا به عينات من النبات المصاب بآفة ، قائلين انه اذا استطاع ان يعالج زراعاتهم فانهم سيدفعون له مبلغا آخر كل شهر • فرد عليهم كارفر مشخصـــا المرض واعاد الشيك مع رسالة قال فيها : « لما كان الله لا يتقاضى شيئا مقابل فولكم ، فانني لا اعتقد انه منالمناسب ان اتقاضى شيئا عن علاجه » •

وعندما سمعت احدى مؤسسات

مواد الصباغة انه ابتكر مجموعة من مواد الصـــــباغة النباتية البديلة ، عرضوا بناء معمل لكارفر ، وارسلوا له شيكا على بياض ، ولكنه اعـــاد اليهم الشيك ومعه طرق تركيب الـ٥٣٦ نوعا من الصبغات التي اكتشفها في ذلك الحين ، وعندما رفض مبلغـــا ضخما للالتحــــاق بشركة أخري ـ كانت تتبع طريقته في صناعة اثاث الحدائق من الرخام الصناعى ـ جاءت الشركة نفسها اليه ، ناقلة المصنع والآلات الي تاسكجى ، وحصلت على ميزة استشاراته المنتظمة بلا مقابل !

ودعاه توماس اديســـــون يوما للحضور والعمل معه في معـــــامل اديسون في منلو ـ بارك بنيوجيرسى بمرتب سنوي حده الادني ١٠٠ الف دولار ، فرفض كارفر العرض ، لانه لا يقبـــــل جزاء على المواهب التي أضفاها عليه الله .

وتحداه البعض يوما بقولهم : « لو انك حصلت علي كل هذه الاموال ، لاستطعت ان تساعد قومك »

فأجاب كارفر : « لو اصبح عندي كل هذا المال ، لنسيت كل شيء عن قومي »

حكيم تاسكجى

كانت سمعة كارفر في ذلك الحين قد ذاعت وملأت العالم كله ، واصبحت الرسائل تتدفق على كارفر بكميات ضخمة ، وكان جزء كبير منها لايحمل عنوانا غير عبارة : « الي رجل الفول الســــــوداني » وكان مكتب البريد الفرعى يفرغ كل يوم ١٥٠ رســالة علي مكتب كارفر ، وكان يرد علي كل منها بتفصيل دقيق كما كان سيل لا ينقطع من الزائرين يلتمس مقابلته وكان بابه مفتوحا لهم جميعا .. كان الفلاحون يأتون ملتمسين النصيحة عن بذورهم ، واهل البلدة عن حدائقهم وكان الطلبة في عنابر نومهم لا يفكرون الا في التماس مساعدته لاداء واجباتهم المدرسية .

وكان بطبيعة الحـــال شخصية جامعيـــة محترمة ، وكثيرا ما كان يرتدي الحلة التي قدمت له ذات يوم منذ ٤٠ عاما في أيمز ، وأربطة رقبة غزلها من قشور الاذرة ، وكانت دائما زاهية الالوان باستخدام اية صبغة يقوم بتجربتها ، ورغم ازدياد الضغط علي وقته ، فقد شرع في طلاء جدران الفصول ، وعلم الطلبة كيف يمزجون مجموعة مدهشة من الالوان من الطفل الموجود في بلدتهم وان يصنعوا اقمشة سميكة من قشور الفول السوداني .

وعلى الرغم من ان عبقريته كفنان

كان معترفا بها من معرض لوكسمبورج الشهير بباريس ، حيث عرضت بعض لوحاته ، فانه كان يسرع باعطاء لوحاته لكل من يعجب بها •

واعتاد فتيان « تاسكجى » ان يأتوا على مر السنين الي غرفة كارفر بعد ظهر كل أحد ليسمعوا حديثه عن العلاقة بين العلم والدين ، وظلت هذه الجماعة تتضخم حتي أصبحت تعتبر فصلا منتظما ، وانتقلت الي قاعة الاجتماعات بمكتبة كارنيجى ، وقل ان خلا أحد مقاعدها الثلاثمائة فى اسبوع ما •

كان كارفر يقف منتظرا والساعة في يده ، ويبدأ حديثه في السادسة بالضبط ، وكانت دروسه تفيض حياة واثارة مذهلة • حدث ذات مرة وهو يصف آثام « سدوم وعموره » انه انهي القصة بلمس بضع مواد كيماوية فجأة فأحالها الي سحابة ضخمة اللهب والدخان •• وقفز الطلبة علي اقدامهم هلعا وقد امتلأت افواههم بالادخنة والدهشة ، فلم يسبق ان رأوا الدين بمثل هذا القرب او الواقعية •

ومن اشهر الحكم التي القاها كارفر في «فصل الانجيل» الذي افتتحه هذه الحكم اللاذعة :

عن السجائر : لو ان الله اراد ان يستخدم الانسان انفه كمدخنة ، لادار خياشيمنا الي اعلي •

عن الطبيعة : « انني احب ان انظر الي الطبيعة كجهاز اذاعة غير ذي حدود ، يتحدث الله الينا عن طريقها كل ساعة اذا ضبطنا الجهاز عليه فقط »

عن الموت : « من اكثر الاشياء التى ساعدتني اكثر من غيرها ، انني لا اسأل متي سأموت ، بل كم استطيع ان افعل وانا حى ؟ »

ونظرا لثقتهم التي لا تتزعزع فيه ، كان الطلبة كثيرا ما يأتون الي كارفر كلما أوذي شعورهم والتهب احساسهم بسبب التفرقة والتحيز العنصري ، وكان يستمع اليهم دائما ويواسيهم قدر استطاعته ويقول لهم : « يجب ألا تسمحوا لاحقاد هذا العالم أن تحولكم عن طريق واجبكم ، فسيأتي الوقت الذي يأكل فيه الحاقدون حقدهم ، ويعرف الجهلة الحقيقة ، فان كنتم مستعدين يومئذ ، فانكم سوف تسيرون في الارض كرجال أحرار أندادا لاي انسان آخر »

وقال يوما لطلبة احد الفصول النهائية : « قد تضطرون للذهاب الي مناطق ترفع فيها لافتات غير منظورة

تقول : « غير مرغوب » ولكن تذكروا ان هذا حدث من قبل .. حـــدث لانسان يسمي يسوع عنـــدما ذهب الي بحيرة طبرية .

ولم يســـمح قط لتعصب الرجل الابيض الاعمي أن يستخدمه ذريعـة سهلة اولئك الذين يزمجرون قائلين « حسنا .. ما الفائدة .. ان الزنجي لا يستطيع .. » فكان يهـــدر قائلا دائما : « ان الزنجي يستطيع » .. وقال يوما لجماعة ما : « منذ فترة غير بعيدة قال لي احد رجال الاعمال المهمين أنه يود لو عرف رجلا يستطيع العثور علي البترول .. ولم يحدد ان كان رجلا أبيض أو أسود أو أصفر ، بل مجرد رجل »

ولم يكن كارفر نفسه يخلو مـــن مواجهة روح التعصب . حتي بعد ان ذاعت شهرته في انحاء العالم ، ومع ذلك فانه لم يكن يرفض السفر الي اي مكان مادام قادرا علي ذلك ، ليستطيع أن يلقي ضـــوءا علي الظـــــلام وكان يعتقد ان المتطرف في عنصريته جدير بالرثاء له بسبب قسوته العمياء وكان كثيرا ما يردد ما قاله بروكر واشنطون امامه وهو : « لن يستطيع أحد ان يجذبني الي اسفل ليجعلني اكرهه »

الحصاد الاخير

كان كارفر صديقا لرؤساء الولايات المتحدة .. وفي الاعوام الاخيرة من حياته جاء الملوك والامراء لمقابلته ودرس ولي عهد السويد ثلاثة اسابيع معه ليحصل علي معلومات عن كيفية استخدام الفـــائض الزراعي .. وفي رسالة مسهبة ارسلها لغاندي، وصف كارفر غذاء نباتيا لزعيم الهند سارد القيم الغذائية في النباتات التي يمكن لشعب الهنـــد الجائع ان يزرعها بسهولة .

كان اكثـــر زوار كارفر ترددا وأشهرهم صيتا هو « هنري فورد » وقد التقيا في ١٩٣٧ ، وسرعان ما اصبحا صديقين حميمين ، واتفقا علي الالتقاء مرة علي الاقل كل عام بعـد ذلك . وكان كارفر يذهب في البداية الي بيت فورد في « ديربورن » بولاية ميشيجان او الي مزرعته في جورجيا ولكن عندما بدأت صحة الاستاذ فى التدهور بعد ذلك ، اصبح فورد يأتي الي تاسكجى بانتظام وكان لهـــذه الزيارات الي « تاسكجى » نتــائج بعيدة المدي ، فقد اقبل عدد لا يحصى من البيض الي المعهد ، ولولا كارفر ما وطئت أقدامهم جامعـة للزنوج ، وتبرعوا بمبالغ كبيرة لها في حالات

غير قليلة ، وذات عـــام اعلن فورد لكارفر انه سينشيء برنامجا للتدريب العملي خلال الصيف فيمصانعه لطلبة تاسكجي • وسرعان ما جاء اثنان من مساعديه لجمع المرشحين لهـذا البرنامج ، وعندما ذاع نبأ استخدام فورد للزنوج ، حدثت هجرة للزنوج من الجنوب الي ديترويت ، وبني فورد كذلك مدرسة للاطفـــال الملونين في ديربورن اسماها مدرســة « جورج واشنطون كارفر »

وكان اعظم عمل قام به كارفر مع فورد هو المطاط الصناعي ، وكانت حقـول من العـــود الذهبي تمـــلأ مزرعة جورجيا ، فاستخرج كارفر من هذا المحصول سائلا لبنيا يمكن تحويله الي مادة ذات خواص تشبه المطاط ، وهكذا كانت البداية المثيرة للبحث الطويل عن بديل صــــناعي للمطاط •

وأقام فورد ايضا معملا في ديربورن وجهزه لكارفر ، كما انشأ صــــورة مطابقة تقريبا للكوخ القديم لام كارفر في (دياموند جروف) ، ولكن كارفر كان قد بلغ الثمانين من عمره ، وكان متعبا ، وعندما رأى الكوخ لاول مرة تأثر وتساقطت دموعه ، ولم يكتب له ان يراه مرة اخري ، هو او المعمل المجهز بالمعدات والتسهيلات التي لم يعرف مثلها من قبل •

ومع ان أحدا من رؤساء معهـــد تاسكجي الذين توالوا عليه خــلال الستة والاربعين عاما التي مكثهـا هناك كارفر لم يستطع اقناع كارفر بقبول زيادة راتبه ، فان آخــــرهم وهو الدكتور فردريك باترسون صمم على ان يكون للاستاذ المحترم مساعد •• واقبل موكب من الذين يأملون في هذا المنصب يدقون باب البروفسور كارفر ، وأخــــيرا فاز « اوســـتن كيرتس » خريج جامعة كورنيل به ••

ولم يتزوج كارفر قط وقال يوما : « كيف استطيع ان أفسر لزوجتي ، انني مضطر للخروج في الرابعة مـن صباح كل يوم للتحدث الي الزهور ؟» ولكن كيرتس اصبح بمثابة ابنه ••

وفي خلال العام الاربعين علي وصول كارفر الي تاسكجي ، اقترح كيرتس تخليد عمل كارفر في معرض خاص ، وهكذا جمعت انجازات حياته : الوف من المنتجات التي صنعت من الفـول السوداني والبطاطا والاعشاب ، في معرض أصبح دائما فيما بعد بمبني مستقل خصصه فورد واطلق عليـه اسم « متحف جورج واشـــنطون كارفر »

وفي أوائل عام ١٩٤٠ قال كارفر لكيرتس أنه يريد أن يهب مدخراته ـ التي بلغت اكثر من ٣٣ الف دولار ـ الي معهد تاسكجي فورا وليس بعد وفاته ، حتي يستطيع ان يشترك في كيفية استخدام المال ••• وسرعان ما ظهرت مؤسسة جورج كارفر للوجود لتقدم تسهيلات للزنوج من الشبان المشتغلين بالابحاث العلمية وفي السنوات التالية ، تبرع البعض بمبالغ اضافية ، وتوجد مؤسسة كارفر اليوم في مبني يساوي مليوني دولار وهي تعتبر مركزا للدراسات المتقدمة في علم النبات والكيمياء الخلاقة ، وعلم الفطريات ، وعلموراثة النبات ، والزراعة •

وعندما بدأت المؤسسة والمتحف عملهما في تلك السنوات ، بدا بوضوح أن صحة كارفر بدأت تضعف ، وفي عام ١٩٣٧ ادخل المستشفى مصابا بأنيميا خبيثة ، وعندما اصابه المرض مرة اخري في ١٩٤٢ ، رفض ان يراه الطبيب قائلا : « لم يعد هناك ما يمكن عمله »

وكان علي صواب كعادته ••• فقد تجاوز الثمانين ، واستهلك الجسم الذي يضم الروح العظيمة وبعد عيد الميلاد بأيام قلائل ، بعث في طلب اوستن كيرتس ، وقدم له مظروفا يحوي بعض سندات الادخار الامريكية •• وقال :

« اريد ان تعطي هذه للمؤسسة ، وان يفهم العالم بوضوح انني اشتريتها لان لون الانسان لا دخل له في الحب الذي يشعر به لوطنه »

وقد ظل كارفر في حالة يقظة حتي النهاية ••• ولكنهم عندما احضروا له العشاء يوم ٥ يناير ١٩٤٣ لم يأخذ غير رشفات قليلة من اللبن ، وهمس قائلا : « أعتقد أنني سأنام الان ••» وفي لحظة ما في الساعات التالية ، توقف القلب الباسل عن الخفقان •

واذيع النبأ الحزين في المساء ، وسرعان ما تدفقت رسائل عظماء العالم تعزي في وفاته ••• كتب الرئيس فرنكلين روزفلت يقول انه يعتبر معرفته لكارفر من اعظم الامتيازات التي نالها وكتب نائب الرئيس هنري والاس : « لقد فقدت امريكا واحدا من اعظم سادتها المهذبين »

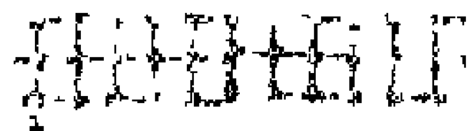
وظلت الصفوف الطويلة من المعزين تمر امامجثمانه بكنيسة تاسكجي عدة أيام •• جاءوا بالسيارة والاتوبيس ، وعلى الاقدام ليقدموا وداعهم الاخير ••• من التلال القريبة والمستنقعات

ومن الاصقاع البعيدة من الأرض • وفي اليوم الرابع دفن فوق الربوة التي استقر فيها صـديقه الدكتور بروكر واشنطون قبل ذلك بسبع وعشرين سنة ••

ولم تمر فترة طويلة حتي قـدم السناتور هاري ترومان مشروع قانون لاقامة نصب قومي باسم جورج كارفر في مكان مزرعة موسى كارفر الاصلية قـرب دياموند جـروف ، ووافق الكونجرس بالاجماع ، وعندما أقيم النصب كتبت صحيفة « النيـويورك تايمز » تقول : كان الدكتور كارفر كما يعرف الجميع زنجيا ، ولكنـه انتصر علي كل عقبة •• ولا يوجد في هذا القرن من فعل احسن ممـا فعله كارفر لنشر التفاهم بين الاجناس •• ان مثل هذه العظمة سـتظل خالدة دائما ••

وجاءت ألوف من المراثي من أنحاء العالم : من رجال اعمال وعلمـاء وفنانين ، وأشخاص متواضعين كان يعمل من أجلهم •• ولكن لم يكن هناك افصح في وصف حيـاة كارفر من الكلمات البسيطة التي نقشت علـي قبره وجاء فيها :

« كان في اسـتطاعته ان يضيف الثروة للشـهرة ، ولكنه لم يكترث لايهما ، فقد وجد السعادة والشرف في أن يكون نافعا للعالم » •



الانثى المثالية !

أجرى استفتاء بين طلبة من كل انحـاء العالم فى مدينة لوزان بسويسرا ، عن الاشياء التى تشكل أجمل فتاة فى الدنيا .. وقـد أعلن بول جيليس رئيس لجنـة جمع الاصوات ان الجمال المثالى يجب أن يتكون من :

عينين مصريتين وبشرة انجليزية وابتسامة ايرلندية ، وقوام فرنسى ، ومشية اسبانية ، وشعر ايطالى ، وأنف يونانى ، وأسـنان أمريكية ، وصوت نمسوى ، وضحكة يابانية وكتفين أرجنتينيتين ، وعنـق من تايلاند ويدين سويسريتين ، وساقين من سكندناوا ، وقدمين صينيتين ، ووسط استرالى .

ويجب أيضا أن تطهى كالمرأة الفرنسـية وتدبر المنزل كالالمانية ، وأن تكون رفيقـة كالفتاة الشرقية ، وترتدى برشاقة كالامريكية

أما من حيث سـلوكها فى الحب ، فان الطلبة لم يستطيعوا الاتفاق .. وقال جيليس : « ان الحب شىء لا يتقيد بالقـومية .. انه موضوع أكثر تعقيدا من ان تؤخذ عليـه الاصوات ! »

كتاب الشهر

الكرة السحرية



الكرة السحرية



تلخيص كتاب

THE CRYSTAL BALL

بلقم روث مونتجومرى

منذ اكثرمن ربع قرن ، اظهرت جين ديكســــون ، من سكان واشنطون ، قــدرة عجيبة على التنبؤ بالمستقبــل ، فقد تنبأت بتحول الصــين الى الشيوعية ،واطلاق القمر الصناعى الروسى الاول ، واغتيال الرئيس كنيدى .

ويقول جاك اندرسون وفريد بلومنتال بمجلة باربد : «يقترح بعض المتشــكين عدم الاهتمام بنبوءاتها قائلين انهــا غامضة الى حد يكفى لاتاحة الفرصـــة لها لانــكارها اذا لم تتحقــق كمــا يلاحظون انها تكون أكثر جرأة فى التنبؤ بالمستقبــــل البعيد منها بالمستقبـــل القريب » ومع ذلك فقد أثبتت انها كانت على صواب فى اغلب الاحـــوال ، حتى ان الصحفيـــة روث مونتجومرى تعترف انها تشعر بالراحة عندما تخطىء نبــوءات مسز ديكسون احيانا قائلة انه مما يبعث على الراحة ان نذكر انهــا ليست معصومة من الخطأ .

وقد كتبت روث مونتجومرى فى كتابها الذى أسمتــه « موهبة التنبؤ : جين ديكسون الظــاهرة العجيبــة » . قصة من اروع القصص طرافة وجاذبية .

في يوم منعش من ايام نوفمبر ١٩٦٣ اجتمعت ثلاث سيدات انيقات على مائدة الغداء بفندق «مايفلاور» بواشنطون ، وعندما جيء لهن بالطعام ، اخذت اثنتان منهن تأكلان وتتحدثان في مرح ، وهن : مسز هارلى كوب ارملة قائد بحرى برتبة اميرال ، ومسز ربيكا كوفمان وهي عجوز لطيفة .. اما السيدة الثالثة ، فقد لوحظ انها تجلس ساكنة ..

وسألتها مسز كوفمان :

ـ لماذا لاتأكلين ياابنتي ؟

فاستندت جين ديكسون ـ وهي سمراء جذابة ، في عقدها الرابع ـ الى الوراء في مقعدها ، واغلقت عينيها ثم قالت :

ـ لااستطيع .. انني مضطربة جدا سيحدث اليوم شيء شنيع للرئيس

ـ ماذا تقولين ؟

فقالت مسز كوب تشرح الامر :

ـ لقد تنبأت مسز ديكسون بوقوع مأساة قريبة للرئيس كنيدي ، وقد ذكرتها لي أول أمس .

وربتت مسز كوفمان على يد جين ملاطفة وقالت لها :

ـ هدئي روعك ياعزيزتي .. ان المكتوب سيحدث ، ولا فائدة من توقع المتاعب .

وفي تلك اللحظة توقفت موسيقى اوركسترا سيدني سيدنمان ، واسرع سيدنمان ـ الذي يعرف السيدات الثلاث جيدا ـ الى مائدتهن وقال :

لقد حاول البعض اطلاق النار على الرئيس .

فتمتمت جين في صوت خافت :

ـ لقد مات الرئيس

ولكن سيدنمان قال في اصرار :

ـ كلا كلا .. انه لم يمت

فكررت جين كلامها بنفس الصوت الغريب :

ـ سوف تعرف انه مات

وهرع قائد الاوركسترا خارج القاعة ، ثم عاد على الفور ليقول ان الرئيس كنيدي أصيب فقط بجرح ، وقال انه سمع في الراديو انه مازال حيا ، وسينقلون اليه دما . .

فحدقت فيه جين وقالت في هدوء وحزم :

ـ ان الاذاعة مخطئة . لقد مات الرئيس كنيدي . لقد حاولت أن ابعث له تحذيرا ولكن احدا لم يصغ الي .. والآن فات الوقت !

غيوم سوداء منذرة بالشر

في منتصف الطريق عبر واشنطون كانت هناك مأدبة غداء في جورجتاون

تقام فى قصر « كاى هيـــل » الاثرى المبنى من الطوب الاحمر ، وهى ابنة احد الاغنياء المحسنين من كليفلاند ومن اصدقاء آل تشرشل وال كنيدى وجاءت الخادم تقول ان مسز اليس روزفلت لونجويرش (ابنـة تيودور روزفلت) تتحـدث على التليفون . واستـأذنت ربة البيت واتجهت الى التليفون ، وهناك أخذت تصغى فى رعب الى صديقتها التى كانت تصيح بها : « افتحى الراديو بسرعة .. لقد وقع الامر الذى قيل لك » .

وفتحت كاى أقرب جهاز راديو اليها لكى تسمع هذه الكلمات : « نكرر عليكم ان النار اطلقت على الرئيس ، ولسنا نعرف مدى خطورة الاصابة ، ولكننا نقف بجـــوار مستشفى باركلاند التذكارى هنا فى دالاس » .

وفزعت كاى هيـــل للنبأ وسرت الرعشــــة فى أوصالها ، وكان هناك مايدعوها لهـــذا الاحساس اكثر من غيرها من الامريكيين .. فمنذ ثلاثة شهور ، دقت مسز ديكسون ــ التى تعرفهـــا معرفة عابرة ــ جرس بابها وقالت معتذرة فى تأثر : «ارجو المعذرة لحضورى بهذه الطريقة ، ولكنك واحدة من القليلات اللواتى أعرفهن ممن يعرفن الرئيس . لقد اتخذ الرئيس الآن قرارا بالذهاب الى مكان ما فى الجنوب سيجد فيه مصرعه . لابد من ابلاغه الا يقوم بهـــذه الرحلة . اننى أرى منذ وقت طويل سحابة سوداء تحوم فوق البيت الابيض ، وهى تزداد ضخـامة ، وقد بدأت الآن تتحرك الى اسـفل ، وهذا يعنى ان الوقت اصبح قريبـا .. ان الرئيس ســوف يقتل وهو بعيد عن البيت الابيض ..

وحاولت كاى كيل ان ترد فى ادب ، فقالت : « اذا كانت هذه الاشياء مقدرة علينا ، فلن نستطيع ان نفعـل شيئا لمنعها .. اليس كذلك ؟ »

فقالت جين بثبات : « هناك احيانا لحظة ضئيلة جـــدا تستطيعين فيها ترجيح كفة الميزان ووقف الحدث .. لابد من تحذيره » .

ونظرت مس هيـــل الى زائرتها فى حرج .. كانت قد ســمعت ان جين من المشتغـــلات بالمسائل الروحية ، ولكنهـــا كانت تفترض انها ليست معصومة من الخطأ فقالت :

ــ كيف يمكننى ان احمـــل مثل هذه الرسالة للرئيس ؟ وماذا يظن من فى البيت الابيض اذا حملت اليهـــم انذارا غامضا كهذا ؟.

وادركت جين انها مترددة ، ولكنها استمرت تتوســـل اليها ان تفعل ،

واخيرا وافقت مس هيل على ان تبذل مافى وسعهــا ، فانصرفت جين وهى أسعــد قليلا مما كانت .. وقالت كاى هيل فيما بعد فى حسرة :

ــ لقد قلبت الامر فى ذهنى مرة بعد اخــرى ، ولكننى كنت اعلم أننى لن انجح فى نقل هــذه الرسالة الى رجل فى شــجاعة الرئيس كنيدى ، وكنت اعرف انه آخر من يهتم بهذه المسائل وسيسخر من مجرد ذكره .

كانت جين ديكسون قدرات سحابة الموت الســوداء لاول مرة تحوم فوق البيت الابيض خلال رؤيا شهدتها قبل ١١ عاما ، فى سنـــة ١٩٥٢ . وكانت تتعلق برجل شاب طويل القامة أزرق العينين ، تتدلى على جبينه خصلة من الشعر الكستنائى الكث ، فقد قال لها صوت فى اعماقها ان هذا الشاب الذى ينتمى الى الديموقراطيين سينتخب فى عام ١٩٦٠ وسيلقى نهاية عنيفة وهو فى منصبه . وبعد اربع سنوات ، أى فى عام ١٩٥٦ سجلت هذه النبوءة وهى تدلى بحديث لصحيفة من مجلة (باريد) اذ قالت فجأة ان رئيسا ديموقراطيا أزرق العينين ســوف ينتخب فى عام ١٩٦٠ وسيقتل .

وذهل الصحفيـــان من صراحة كلماتها ، واقترحا الاكتفــاء بذكر انه سيموت وهو فى منصبه ، ولكنها قالت لهما : « اذكرا ماتشــــاءان .. ولكنه سوف يغتال .. »

وظهرت نبوءتهــا فى مجلة (باريد) فى ١٣ مايو سنــة ١٩٥٦ . وتذكرها اصدقاؤها عندما فاز جون كنيدى بترشيح حزبه لانتخابات الرئاسة ، ثم بعد انتخابه رئيسا فى عام ١٩٦٠ ، اذ كان وصفها للرجل الذى رأته فى الرؤيا يحمــــل شبهــــا للرئيس المنتخب يثير القلق .

وعندما فقد كنيدى طفله الوليــد « باتريك » فى صيف ١٩٦٢ بعد كفاح قصير فى سبيل الحياة ، اراد الكثيرون من اصــدقاء جين سؤالها عما اذا كان هذا الحادث يفسر السحابة السوداء التى رأتها تحوم حول البيت الابيض ولكنها قالت :

« كلا .. انها ليست هى . فمازلت ارى نعشــــا كبيرا يحمل الى البيت الابيض . ان الرئيس سوف يواجه الموت فى مكان آخر ، وسيعود جثمانه من هنالك للحداد القومى .. »

نبوءة غريبة تتحقق

لما كنت اعمـــل كاتبة فى احــدى صحف واشنطون ، فقد ســـاورنى الشك فى البداية ، ولـــكن ما لبثت الادلة ان تكدست لدى على مر السنين

عن قدرة جين العجيبة على التنبؤ بالاحداث المستقبلة وبعد ان قابلتها فى ١٩٥٢ ، بدأت اكتب عنها بين حين واخر ، وتطور الامر حتى اصبح تقليدا سنويا فى مطلع كل عام جديد ، اذا اعتدنا ان نلتقى معا فى ديسمبر لبحث ذلك .. ولهذا دهشت عندما رفعت سماعة التليفون فى اواخر اكتوبر ١٩٦٣ وسمعتها تقول :

« عندى معلومات لن تنتظر حتى مقال رأس السنة . انها معلومات مهمة للغاية . هل استطيع الحضور اليك فورا ؟ »

وهرعت بعد دقائق قليلة الى بيتى وقالت لى :

ــ لقد شهدت « رؤيا » واضحة كما اراك الان . رأيت يدين سوداوين تمتدان وترفعان اسم « ليندون جونسون » من باب مكتب نائب الرئيس ، ثم رأيت شخصا مجهولا من اسمه امامى كالبرق . وهو اسم مكون من مقطعين ، وخمسة او ستة حروف ، الحرف الثانى منهما « ز » بكل تأكيد . اما الاولى فهو يشبه «ا» أو «ك» . ولكنني لم أتأكد منه ، والحرف الاخير ينتهى بانحناءة صغيرة تستقيم الى أعلى

ولما كان اسم «بيلى سول استس» يحتل يومئذ عناوين الصحف الرئيسية فقد سألتها عما اذا كان من الممكن ان يكون الاسم « استس » فقالت على الفور :

ــ كلا .. لقد كان الحرف الاول مثل حرف « ا » او « ك » بكل تأكيد وقد ادركت ان رفع اسم مستر جونسون من الباب سيتم فى ظروف لا سيطرة له عليها

وفى المساء التالى ، كانت جين ديكسون مدعوة الى مأدبة عشاء عندما تحدثت عن الرؤيا الى الدكتور ريجيس ريزنمان الطبيب المعروف بمستشفى سانت اليزابيث .

وبعد ان ازداد اضطرابها فى الاسابيع القليلة التالية ، أبلغت عددا اخر من الاشخاص ان الرئيس سيقتل قريبا ومن بين هؤلاء الاشخاص مارى جولا سميث السكرتيرة السابقة بمقر اتحاد سائقى سيارات النقل الدولى ، وجون نيتر المدير التنفيذى لمؤسسة « ديمون رانيدن » التذكارية يومئذ واليانور بامجاردنر السكرتيرة الخاصة لمسز سرجنت شريفر شقيقة الرئيس كنيدى ، وتشارلس بانتر القائد المتعاقد لاوركسترا البحرية .. وفى صباح الجمعة ٢٢ نوفمبر قالت لبائع «هذا هو اليوم الذى سيحدث فيه

وهكذا تحققت النبوءة الغامضة صورة فاجعة .. ترى اكان الاسم لذي لمحته في رؤياها العابرة هو « ازوالد » ؟ ان هذا الاسم يتكون من مقطعين وستة حروف ، والحرف لاول منه « أ » والثانى « ز » ، الاخير فيه انحناءة تستقيم الى اعلى لقد تحققت النبوءة بادق تفاصيلها !

فى يدى طفل !

نشأت جين فى « سانتا روزا » ولاية كاليفورنيا وفى لوس انجليس ، وكان والداها ايما وفرنك بنكرت قد هاجرا من المانيا الى امريكا ، وربيا طفلتهما وفقاللتقاليد والثقافةالاوربية

وقد بدأت دلائل الحاسة السادسة لغريبة تبدو على جين بوضوح بمجرد تعلمها الكلام ، فقد طلبت ذات مرة ان تلعب « بالرسالة » « ذات الاطراف السوداء » . ودهشت امها قائلةانها لا تعرف شيئا كهذا ولكن بعد عشرة ايام جاءت رسالة ذات اطراف سوداء تنبىء عن وفاة والد « ايما بنكرت » فى المانيا .

وفى مرة اخرى قالت جين ان اباها ـ وكان عندئذ على مسافة ١٥٠٠ كيلو متر فى شيكاغو ـ سيحضر معه كلبا ضخما لونه ابيض واسود . وعاد الرجل حقا ومعه كلب نادر لونهابيض واسود . وكانت الطفلة قد « رأت » اباها بطريقة ما وهو يشتريه

وعندما بلغت جين الثامنة ، اخذتها امها لمقابلة امراة من الغجر تقيم فى خيمة بقرية لوتربيربانك القريبة وما كادت الغجرية ترى كف الطفلة اليسرى حتى قالت فى دهشة : « انظروا .. هاهى ذى نجمة داوود . وهاك خطا راسيا مزدوجا ينبعث منها» . وقالت ان هذا وحده يؤكد ان لديها موهبة التنبؤ بالمستقبل ، وكانت هناك نجمة اخرى فى اليد اليمنى فضلا عن نجمة كبيرة تصل الى كل الاتجاهات مع خط رأسي يعبر راحة اليد كلها ويلف حول اليد ، ونصف دائرة فوق الكف الخارجية ، ويقال ان مثل هذه العلامة لا تظهر الا مرة كل الف سنة تقريبا .

وقالت الغجرية فى لهجة جادة : « هذه الطفلة تتمتع بموهبة التنبؤ » .. واختفت المرأة داخل عربتها المغطاة ثم برزت ومعها كرة بلورية . وقالت لجين : « خذى هذه معك . سوف يمكنك ان ترى فيها اشياء مهيبة . ان العلامات التي في يديك رموز صوفية »

وظلت جين فترة من الوقت تستخدم الكرة البلورية وتتمتع بها ، وكانت

تعتقد ان كل شخص يستطيع ان يرى الصور التى تراها هى فيها ، بينما كانت الخادم الالمانية للاسرة، تحاول كلما استطاعت ان تشرح معنى الرموز والرؤى التى تصفها الطفلة . وشجعت مسز بنكرت على تنمية هذه الحاسة السادسة لدى طفلتها ، وسرعان ما اكتشف اصدقاء الاسرة ان جين تتمتع بهذه الموهبة الفذة فى التنبؤ بالاحداث ، وبدأ حتى الغرباء يفدون لمقابلتها .

وكانت فى التاسعة من عمرها يوم جاءت اليها سيدة تلتمس نصيحتها فى التخلى عن العمل كممثلة فاشلة وان تدير فندقا صغيرا ، وبعد ان نظرت جين فى كرتها البللورية ، شاهدت السيدة وهى تبعثر الاوراق النقدية من فئة المائة والالف دولار ، وكأنها العاب نارية . وفسرت هذا على انه الوصول الى مرتبة النجوم والثروة بالنسبة للسيدة التىأمامها ، فقالت لها : « يجب ان تتخلى عن فكرة ادارة الفندق الصغير ، والاستمرار فى حياة التمثيل »

وبدأ اسم مارى دريسلر يتألق فى عالم السينما فى كل مكان ، وكثيرا ما كانت تقول انه لولا الصغيرة جين بنكرت لتخلت عن المسرح ، ولكن جين تقول : « لقد كانت ستشتهر على اية حال ، فهذا قدرها »

مسالك لما قبل الشهرة

وبعد سنوات ـ خلال الحرب العالمية الثانية ـ وقعت لجين مقابلة مثيرة أخرى ، فقد كانت فى صالون « وستمور » للتجميل بلوس انجليس لتصفيف شعرها عندما دخلت كارول لومبارد وعرفت جين فيها النجمة السينمائية الساحرة التىكانت زوجة لكلارك جيبل ، وقدمهما لبعضهما البعض أحد عمال المحل ، فمدت جين يدها لتصافحها فى ابتهاج ، وعندئذ أحست بذبذبة منذرة بالخطر ، فنسيت نفسها وصاحت :

ـ مس لومبارد . يجب الا تسافرى بالطائرة الى أى مكان خلال الاسابيع الستة التالية .

فأجابتالممثلة الشقراء وهى تبتسم انها راحلة على الفور للقيام بجولة للدعوة لبيع سندات الحرب . واعترفت جين بأهمية هذه المهمة ، ولكنها انذرتها بأنها يجب ان تقوم بالرحلة بالسيارة او القطار خلال تلك الفترة الحرجة .

وقد ذكر عامل الصالون فيما بعد لجينانها بعد ان غادرتالمحل ، قذفت مس لومبارد قطعة من النقود فى

لهواء لترى اذا كانت تتبع نصيحتها او لا ، فاستقرت القطعة على الوجه الآخر ، وعندئذ قررت ان تطير الى الولايات الغرب الاوسط بعد أيام قلائل .. وماتت فى حادث سقوط طائرة !

وتقول جين وهى تحاول تفسير احساسها بالكارثة الوشيكة : « عندما لمست يدها ، رأيت رمز الموت عليها ، لقد بدت عالية فوق الارض ، ورأيت الحياة من حولها على الارض ، فأدركت انها ستتفادى الخطر اذا بقيت بقدميها على الارض .. وكان هناك صوت يقول فى اعماقى : ستة اسابيع .. هذا الصوت كثيرا ما يأتينى وانا اصغى اليه دائما .

وتخلب جين ديكسون لب الذين يجرون استقصاءات فى الظواهر الروحية اذ أن شعورها السابق يكشف نفسه من خلال طرق كثيرة مختلفة ، فقد تلمس احيانا اصابع شخص ما فيبدو انها تعرف على الفور المستقبل الذى ينتظره ، وتستطيع احيانا ان تحدد الاحداث فى الماضى والمستقبل لاشخاص لم ترهم قط وذلك بمجرد معرفة تاريخ ميلادهم . وتأتى اكثر تنبؤاتها عن طريق مطالعة الكرة البلورية ، ولكن التنبؤات التى تعلق عليها هى نفسها اكبر الاهمية ، تجىء عن طريق رؤى لم تكن مطلوبة .

وتقول جين : هناك اختلاف بين الصور التى تظهر فى كرتى البلورية كاختلاف الشمس عن النهار ، فعندما تبدأ الرؤيا فى التكوين يتغير كل شىء ، حتى الهواء الذى حولى ، وكأننى أقف وحيدة انظر الى اسفل من طائرة عالية ، ولا يستطيع اى شىء دنيوى ان يلمسنى .

وجين كاثوليكية متدينة ، وهى كأغلب الزهاد ، تؤمن بالاقتصاد فى الطعام والشراب ، ويتكون طعامها اساسا من الخضر والفاكهة وعصيرها ، ولا تكاد تأكل اللحم ، كما انها لا تدخن ولا تشرب الخمر قط . وهى تقف كل صباح امام نافذتها الشرقية وتتلو بعض الآيات الدينية .

لقاء مع فرنكلين روزفلت

عندما كانت جين فى الحادية والعشرين من عمرها تزوجت جيمس ديكسون ، وكان يومئذ شريكا فى متجر كبير لتوزيع السيارات فى لوس انجليس ، وبعد فترة قصيرة كانت الكرة البلورية اداة لانقاذ حياة زوجها ، فقد بدأت الحرب فى اوربا ، وانتقل ديكسون الى ديترويت للعمل فى مشروعات الدفاع ، وسرعان ما أخذ يقوم برحلات كثيرة بين شيكاغو

وديترويت ونيويورك .

وبينما كانت جين تتأمل كرتها البلورية ذات صباح ؛ اذ رات طائرة تهوى الى الارض والنار مشتعلة فيها ؛ وعندما عاد زوجها الى البيت بعد الظهر لاخذ حقيبة ثيابه للطيران الى شيكاغو ، أخبرته بما رأته وحذرته لكى يستقل القطار ، فتردد ولكنها أصرت على رأيها فقرر ارضاءها .. وسقطت الطائرة التى حجز تذكرته عليها بعد ان غادرت شيكاغو مباشرة وقتل كل من كان فيها !

ويقول ديكسون وهو يتذكر هذا الحادث الذى مضى عليه وقت طويل : « اننى اعمل بنصيحة زوجتى كأغلب الازواج ، وأن كنت لااحب دائما ان اجعلها تظن ذلك !» .

وبعد حادث بيرل هاربور ببضعة اسابيع ، دعى ديكسون الىواشنطون لادارة العقارات التى استولت عليها وزارة الحرب ، وتطوعت جين بخدماتها معلجنة الضيافة فىالعاصمة التى كانت تكفل الترفيه للجنود ؛ وكانت جين تقوم فىمآدب اللجنة بأداء أفضل ماتستطيع عمله ؛ وهو قراءة الطالع للجنود ؛ فأثارت ضجة كبرى .

وذاع صيتهاكقارئة طوالع فى ارجاء واشنطون وفى ذات مساء ، وفى حفل خيرى بنادى سالجريف ؛ لمست جين أنامل هارى ترومان نائب رئيس الجمهورية ؛ وتنبأت له بأنه سيصبح رئيسا عن طريق عمل الهى .

وفى أواخر ١٩٤٤ ــ بعد اعادة انتخاب فرنكلين روزفلت للفترة الرابعة بوقت قصير ــ دعيت جين ديكسون الى البيت الابيض ؛ وسمعت صوت سيدة يقول لها فى التليفون : « سوف يسر الرئيس ان يتحدث معك» وتحدد الموعد ، فارتدت ملابسها بعناية ؛ وكان الجو دافئا بالنسبة لشهر نوفمبر ؛ ولكن نظرا لان كرتها البلورية التى تحملها معها جعلت حقيبة يدها تنتفخ ؛ فقد لفت قطعة من فراء الثعلب الفضى حول ذراعها لاخفائها .

ورفع الرئيس روزفلت رأسه عند دخولها وابتسم لها بسمة يشيع فيها الدفء وقال :

« انعمت صباحا ياجين ؛ شكرا لحضورك » . ثم عرض عليها مقعدا بجوار مكتبه . وتحدثا قليلاًعنالجو . وبدا ان ضغط الاحداث العالمية ينوء به كاهله بعبئه الثقيل ؛ واحستجين بموجةعزلة تمتد نحوها فقالت اخيرا :

« سيدى الرئيس . من الحكمة احيانا ان تلمس المشورة اذا كانت

هناك مسألة تشغل بالك » .

فتنهد روزفلت وقال :

ـ ان أجل الانسان قصير ولو طال .. كم تبقى لى لانجاز العمل الذى ينبغى ان انهض به ؟

فقالت تسأله :

ـ هل تسمح لى بلمس أناملك ؟

فمداليها يدا ضخمة ، وبينما كانت تلتقط ذبذباتها ، حاولت يائسة ان تغير الحديث وتتفادى الاجابة على سؤاله ، وعندما أصر على ان ترد مباشرة قالت بعد تردد : « ستة شهور او أقل » .

وتقول جين : « كانت الغرفة صامتة ، واستطعت أن أرى أنه كان يحس بنذير الموت ، ولكنه كان يريد التأكد فقط من الحقيقة » ..

ثم سألها الرئيس :

ـ هل سنظل حلفاء مع روسيا ؟

فهزت رأسها وقالت :

ـ ان الرؤيا التى رأيتها تظهر عكس ذلك . ولكننا سنتحالف ثانية ضد الصين الشيوعية .

فبدت الدهشة على وجه الرئيس وقال : الصين الشيوعية ؟ . ان الصين ليست شيوعية ، ولن تكون هناك متاعب مع الصين ولكننى اعتقد اننا يجب ان نتحالف مع روسيا من اجل الاحتفاظ بوضعها العالمى وبقائه .

وامعنت جين النظر فى الصور التى تجمعت فى كرتها البلورية ثم قالت : « أرى ان الصين ستصبح شيوعية وتصبح مصدر متاعب لنا ، وستكون افريقيا مصدراكبر قلق بعدذلك لنا . »

وقت قليل جدا !

فى منتصف يناير ١٩٤٥ تلقت جين دعوة ثانية من البيت الابيض ، ومرة اخرى اقترح صوت نسائى موعدا بعد ثلاثة ايام .

وسألها الرئيس وهو يستقبلها :

ـ هل أحضرت كرتك ؟

وتقول جين : «لقد التقيناكأصدقاء قدماء .. كان منسترخيا فى تلك المرة ، ولكن ماأكثر ماتغيرت ملامحه فى هذين الشهرين ! كان وجهه نحيلا متعبا . وقد بدا كأنه نقص ٢٤ كيلو جراما

وبينما كانت جين تخرج كرتها البلورية من تحت معطفها ، تبادلت نظرة باسمة مع روزفلت ، وسألها وكأنه غلام صغير نفدصبره وهو يسأل عن هدية عيد ميلاده :

ـ والآن كم بقى لى من الوقت ؟

وفرجت جين مابين ابهامها وسبابتها تاركة بينها حوالى خمسة سنتيمترات وقالت :

ـ مثل هذا ..

فحنى الرئيس رأسه قائلا :

ــ ان الزمن قصير .

فترددت جين ثم قالت :

ــ أجل انه أقصر مما كنا نعتقد .

ومد روزفلت اليها يده اليمنى دون دعوة وقال :

ــ مارأيك فى بعض القرارات التى سيتعين على اتخاذها قريبا ؟

ــ ان المسألة لاتتعلق برأيى الشخصى فيها ، بل هي ما أتلقـاه روحيـا وجسمانيـا .. ان كثيرا من الاشياء التى اتلقاها ليست مما يحب الناس سماعه .

ولمست أنامله واغلقت عينيهـا ، فقال لها :

ــ هل أنت على ثقة من اننا سنكون حلفاء مع الروس فى المستقبل ؟

فأكدت جين تنبـؤها السـابق وقالت :

ــ سنكون حلفـاء مع روسيا فى النهاية ضـد الصين الحمراء ، ولكن هذا سيحدث بعد اكثر من جيل .

ــ لست مخطئا اذن بشأن روسيا ؟ . هل ستكون روسيا معنا ونحن معها عندما يقال ويعمل كل شيء .. !

ــ أجـل .. سينتهى الامر بنا كحلفاء ، ولكن حكومتنـا ستكون قد تغيرت عندئذ ، ولن يصبح عندنا نظام الحزبين كما نعرفه بصفة دائمة .

وكان فى حديثها اكثر من ذلك ، فقد تضمن تنبؤات بمشـكلات عنصرية متزايدة تسفك فيها الدماء فى الولايات المتحدة ، ولكن الرئيس لم يوافقها على ذلك ، وبدا فى هذه المرة مترددا وهو يودعها ، وعندما مدت يدها لمصافحته غطاها بكلتـا يديه وقال لها وقد عاد البريق الى عينيه :

ــ احرصي علي الكرة . باركك الله .

ولم تره بعـد ذلك قط .. ففى أوائل فبراير ذهب روزفلت الى يالتا فى مهمة من اكثر مهام الحرب سرية ، وفى ابريل مات الرئيس من نزيف فى المخ فى «وارم سبرنجز» بولاية جورجيا ..

مذهب غريب

تحدثت جين ديكسون مرة اخرى عن « الصـين الحمراء » في احدي امسيات اكتـوبر ١٩٤٦ عندما أقام « ولنتجتـون كو » سفير الصين وزوجته مأدبة فى السفارة الصينية بواشنطون ، وتجمع الضـيوف فى شلل صغيرة للتحدث عن أنباء اليوم ، وكان عشرة من مجرمى الحرب النازية قد شنقوا ، واتجـه الحديث الى الاتحاد السوفيتى وخطره على العالم «الحر» اذا قورن بخطر المانيا وقال احد الضيـوف مؤكدا : « تذكروا

كلمتى هـــذه . . سوف نضطر فى يوم ما الى مقاتلة روسيا » .

وتذكر زوجة الســــفير لوى هندرسون هـــذا الحديث بصفة خاصـــة ، ففى تلك اللحظة تدخلت جين ديكسون تقاطعه فى حياء قائلة :

ـ لأحب ان اعارضـــك باسيدى، ولكننى أرى ان امريكا ســــتقاتل الصين الحمراء فى المستقبل وليست روسيا .

ونظرت اليها مسز هندرسون فى دهشـــــة ، فقد كان زوجها يومئذ رئيســـا لقسم شئون الشرق الادنى بوزارة الخارجية ، كما عمل قبل ذلك قائما بالاعمال فى روسيا .. وقالت :

ـ ولكن الصين ليست شيوعية ، وهى لن تتجـــه الى مذهب غريب كالشيوعيـــة رغم تراثها الثقـــافى الخصيب .

فقالت جين

ـ سوف تصبح الصين شيوعية

وتقول مسز هندرســون معترفة بصراحة ان احدا منهم لم يصدقها فى ذلك اليوم ..

ولكن بعد ثلاث سنوات اضطروا الى تذكر هذا الحدث عندما اعلن الشيوعيـــون فى ســتمبر ١٩٤٩ جمهـــورية شعبية فى بكين . وفى ديسمبر جلاشيانج كاى تشيك وقواته الى جزيرة فورموزا .

بصيرة من الشرق

من أعجب التنبــؤات التى ذكرتها جين ديكسون تلك التى أعلنتها فى عام ١٩٤٥ ، وكانت قد انشــأت صداقات مع كثيرين من الســـفراء وعقيلاتهم ومساعديهم عن طريق الظهور مرارا فى حفلات السفارات .

وفى حفل استقبال أقيم بعــد ظهر ذات يوم لدى سير جيراشنكارباجباى الوكيل العام لحكومة الهند قدم احد الملحقين العســكريين نفسـه لها باسم نواب جاباشــير على ، وطلب اليها ان تقرأ له طالعـــــه فى مقابلة خاصة ، فاستقبلته جين فى اليوم التالى بمكتب عمل زوجهـــا ، واستشارت كرتها البلورية ثم قالت : ان الهند ســوف تعلن تقسيمها بعد عامين . .

وذهل الكولونيل وصاح :

ـ كلا كلا . . لن نقسم الهند ابدا يامسز ديكسون .

وقالت جين فى ثبات ان هـــذا التقسيم سيعلن فى ٢ يونيو ١٩٤٧ ، وان الكولونيل نفسه سيرحل عن الهند للانضمـــام الى الجــانب الآخر . وسيرتقى بعــد ذلك بسرعة فى حياته العملية .

فصاح الكولونيل :

ـ ابدا !

واستمرت جين وزوجها في استقبال الكولونيل من حين لآخر في واشنطون، وفي صبيحة يوم ٢ يونيو ١٩٤٧ اتصل بهما تليفونيا لكي يذكر جين بنبوءتها الخاطئة ، فقالت له ان اليوم لم ينقض بعد .. وفي الصباح ذهل عندما طالع عناوين الصحف الرئيسية وهي تعلن أن التقسيم قد تم فعلا .

وبعد عودة الكولونيل الى وطنه بوقت قصير ، انتقل الى « الجانب الآخر » في دولة باكستان الجديدة التي اقتطعت من الهند ، وارتقى سريعا الى رتبة جنرال واصبح سفيرا لبلاده في يوغوسلافيا . وكانت جين قد تنبأت بكل ذلك ..

ودعا ايرل جليكو السكرتير الثاني للسفارة البريطانية في واشنطون جين للغداء وقال انه يريد ان يعرف كيف استطاعت ان تتنبأ بتقسيم الهند قبل وقوعه بعامين ، بل وفي **الموعد المحدد بالضبط** ؟ وكان مجلس العموم البريطاني قد أعلن قبل ذلك بيومين فقط انه لن يوافق على التقسيم !

وقالت جين بلهجة من يقرر الامر الواقع ان التاريخ ظهر لها في كرتها البلورية ، وان الارقام كانت واضحة تماما كأسعار الاطعمة في قائمة الغداء التي امامهما .

ثم قالت تبدد دهشة جليكو : «ان قراءة طالع ابناء الشرق الاقصى أسهل من قراءة طالع ابناء الغرب ، لانهم لايضعون العراقيل في طريقي ». وللاسيويين قدرة فطرية على ترك انفسهم على سجيتها في المسائل النفسية والروحية .

ولم تمض فترة طويلة حتى عملت شيئا اخر كتبت له الشهرة ، فقد تنبأت بدقة مذهلة عن احداث في الهند . ففي منتصف ليلة صيف في عام ١٩٤٧ جاء دانييل ماجز المستشار الحكومي وهو صديق لزوجها ، ليتحدث معه عن رحلته القادمة للشرق الاقصى . وجلست جين عبر الغرفة تصغى الى حديث الرجلين دون اهتمام ، ولكنها عندما سمعت في حديثهما كلمة « نيودلهي » صاحت قائلة :

ـ سيقتل المهاتما غاندي !

والتفت الرجلان محدقين فيها بدهشة ، ولكنها أصرت قائلة : « هذا صحيح .. فبينما كنتما تتكلمان رأيت صورة المهاتما غاندي وهو يرفع ذراعيه نحو دين اكثر قربا الى الغرب لايتسامح فيه بعض شعبه .. وسوف يغتال في خلال ستة شهور

بمعرفة انسان لايشك فيه أحد . »

وفي يوم ٣٠ يناير ١٩٤٨ ـ أي في خلال ستة شهور ـ اغتيل زعيم الهند الروحي الكبير بيد متعصب ينتمي لجماعة « هندو ـ مهاسبا » الدينية السياسية .

نبوءات سياسية

في ابريل ١٩٤٨ ، وبينما كانت تقرأ طالع مسز ولتر مالوني زوجة أحد المحامين في واشنطون طلبت اليها جين أن تفكر في امنية . ثم نظرت الى كرتها البلورية وقالت : « ان امنيتك ليست شخصية تماما ، ولكنها سوف تتحقق » وظنت مسز مالوني انها خدعت صديقتها ، فضحكت واعترفت لها بأنها تمنت ان يعاد انتخاب ترومان لرئاسة الجمهورية .. وكان الجميع يقولون ان فرصته في ذلك ضعيفة ، ولكن جين كررت قولها بأن ترومان سيعاد انتخابه . ثم اتصلت بعد ذلك بصديقتها مسز ستيل فردريكس تليفوتيا ـ وهي احدى المساعدات الاداريات بالبيت الابيض ـ وذكرت لها نفس النبوءة .

وعندما ظهرت جين في برامج الاذاعة المحلية والقومية قبل مؤتمرات الترشيح ، تنبأت بأن منافس ترومان سيكون « توماس ديوى » . ولكنها قالت : « أرى مستر ديوى يختفى وسط سيل من الصحف ، وان اكليلا من غار النصر يهبط على رأس ترومان » .

وسرعان ماذاع امر النبوءة في الاوساط الرسمية ، وكانت السبب في ان كثيرات من مضيفات واشنطون شطبن اسمها من قوائم المدعوات الى مآدبهن . وظن الكثير من اصدقاء جين أيضا انها فقدت حاستها السادسة ، اذ كان الرأى مجمعا على ان ترومان سيهزم شرهزيمة . ولكن عندما ظهرت النتائج ، ارتفعت سمعتها كمتنبئة سياسية الى الذروة من جديد .

وكانت جين قد تجاسرت قبل ذلك بثلاث سنوات على ان تقول لونستون تشرشل انه سيخرج من الحكم . وكان الزعيم الكبير قد قام برحلة الى واشنطون في عام ١٩٤٥ واقام لورد وليدى هاليفاكس مأدبة لتكريمه دعوا اليها جين ديكسون . ومع ان جين لم تكن تعرف شيئا عن الموقف السياسي في بريطانيا ، فقد تلقت ذبذبات وهي تصافح يد تشرشل بين طابور المستقبلين ، وقالت له : « سيدى رئيس الوزراء .. أرجو الا تجرى الانتخابات في وقت مبكر ، والا هزمت » !..

والتفت السياسى البريطانى العجوز محدقا فى هذه الشابة الوقحة ، فردت على نظرته بعينيها العسليتين وزمجر هو قائلا : « ان انجلترا لن تخذلنى أبداً » .

وواصلت هى حديثها وكأنها لم تسمعه .. وقالت : « ولكن هون عليك فسوف تعود الى الحكم بعد سنوات قليلة » .

وقرر تشرشل اجراء الانتخابات فى يوليو من ذلك العام ، فسيطر حزب العمال على البرلمان وجاء اتلى محل تشرشل فى رئاسة الوزراء . . ومرت ست سنوات قبل ان يتمكن تشرشل من العودة الى رئاسة الوزارة التى ظل يحتلها حتى تقاعد فى ١٩٥٥

وفى ١٩٥٢ ، أعلنت جين ان الجنرال ايزنهاور سوف يشغل البيت الابيض فى نوفمبر من ذلك العام وهى نبوءة ذكرتها فى العمود الذى اكتبه فى صحيفتى ، ولكنها قالت لصديقتها مسز مالونى ان نجم ادلاى ستيفنسون سوف يرتفع أيضا ، ولكنه لن يدخل البيت الابيض أبدا ، بل سيدخله الجمهوريون مرتين ، ثم الديموقراطيون مرتين .

سر رسمى !

من اكثر الاسرار احاطة بالكتمان خلال عهد ايزنهاور ، عدد الاهداف التى يحرزها الرئيس فى لعب الجولف .

وفى احدى أمسيات مايو ١٩٥٣ ، دعت مارتا راونترى جين ديكسون للظهور مع بوب هوب فى برنامج اذاعى للمحاربين القدماء بمستشفى بيتسوا البحرى . وعندما ظهرت جين على المسرح وقدموها على انها اشهر قارئة طالع فى واشنطون ، راح بوب هوب ينهال عليها بنكاته .

ثم قال لها : حسنا يامسز ديكسون .. لقد كنت العب الجولف مع ايزنهاور بعد ظهر اليوم بنادى الشجرة المحترقة ، فاذا كنت ماهرة حقا فاخبرينى كم هدفا حصلت عليه؟

وتمعنت جين فى كرتها البلورية . ثم قالت فى هدوء : « لن اذكر لك اهدافك فقط .. بل واهداف الرئيس ايضا . لقد فزت انت بـ ٩٦ مقابل ٩٢ » .

وتبددت البسمة على شفتى بوب هوب ، وبدا انه على وشك الاغماء .. وما كاد البرنامج ينتهى حتى جذب بوب يدشقيقه الذى يدير اعماله ، وراء الكواليس وقال هادرا : « هذه المرأة دمرتنى باجاك .. لن يصدق الرئيس ابدا اننى لم افش سر اهدافه » . ثم امر بقص هذا الجزء

من الشريط المسجل لاذاعته فى برنامجه العادى الذى تسمعه امريكا كلها ! ..

روسيا فى الكرة البلورية

فى ١٤ مايو ١٩٥٣ ظهرت جين فى برنامج تليفزيونى قومى باسم «مأدبة بيت واشنطون» بناء على دعوة من مارثا راونترى ، وظهر معها جوزيف ديفيز سفير الولايات المتحدة السابق فى روسيا ومؤلف كتاب « بعثة لموسكو » . وسألها الخبير السياسى الشهير : « كم سيبقى مالنكوف رئيسا لوزراء روسيا؟» فتطلعت جين الى كرتها البلورية ، وعندئذ شاهدت رجلا آخر غير واضح المعالم يحل محل مالنكوف . فأجابت قائلة : « سيخرج فى أقل من عامين ، ليحل محله رجل أبيض الشعر بيضاوى الرأس له ذقن صغير مدبب وعينان خضراوان » .

وضحك ديفيز ساخرا ، وقال ان رؤساء الوزارات فى روسيا لايستبدلون بسهولة ، فهم اما يموتون أو يطلق عليهم الرصاص ، هذا فضلا عن ان الشخص الذى تصفه لايبدو فى هيئة الروس . فقالت جين بهدوء : « اننى أذكر ما أراه لا ما أعتقده .. وسيحدث هذا الامر بكل تأكيد قبل أن ينقضى عامان بقليل ...

وعادت جين تقول فى حماسة وهى ترى صورة اخرى تتكون فى الكرة البلورية ، ان الرجل ذا اللحية المدببة سوف يحكم فترة قصيرة فقط الى أن يحل محله رجل اقصر قامة ، اصلع الرأس وقالت أيضا ان هناك كرة فضية سوف تنطلق فى الفضاء الخارجى وتدور حول الارض . ثم تعود الى روسيا وتهبط كحمامة سلام على رأس الرجل القصير الاصلع ، ثم تغرس مخالبها فى رأسه — وهذا يعنى كما تقول انه بعد ان تطلق روسيا قمرها الصناعى الاول ستصبح للسوفيت قوة كبيرة ..

ولم يستطع السفير ديفيز عندئذ أن يسيطر على اعصابه اكثر من ذلك ، فأمسك بها من ذراعها وجذبها قائلا : — كلا .. كلا ... لن يحدث هذا ابدا .. لقد كنت سفيرا هناك وانا اعرف أن الاشياء لاتحدث بهذه الطريقة فى روسيا ..

وتقول جين وهى تذكر هذا الحادث المثير : كنت اعرف ان اكثر من هذا سيحدث ، ولكن مستر ديفيز امسك ذراعى وهزنى قائلا اننى يجب ان اقرأ كتابه لاعرف بعض المعلومات عن روسيا وقد استغرقت فى ذلك

حتى انني نسيت اننا امام التليفزيون ، وقلت له امام المشاهدين : « سيدى السفير .. لقد اتلفت كل اتصالاتي »

وعندما انتهى البرنامج ، كان ديفيز مازال يسخر من جين ، ولكن قبل انتهاء العامين بثلاثة أشهر ، تولى المارشال بولجانين حكم روسيا مكان مالنكوف ــ بطريقة سلمية ــ وكان بولجانين رجلا ابيض الشعر مدبب اللحية ، وكما وصفته جين بالضبط .. وتولى نكيتا خروشوف القصير البدين ــ الاصلع زمام السلطة الفعلية كزعيم للحزب الشيوعي . وفى ١٩٥٧ اطلق السوفيت قمرهم الصناعى الاول ليدور حول الارض ، وفى مارس التالى أبعد خروشوف بولجانين من رئاسة الوزارة .

وعندما سمع اندرو هالى ــ المستشار العام للاتحاد الدولى لرحلات الفضاء ، ومن أبرز علماء أوربا فى الفضاء الخارجى ــ سمع نبوءة جين عن « الكرة الفضية التى ستدور حول الارض » لم يكن يعرف أن فى روسيا برنامجا للفضاء ، ولكنه بعد عامين سمع من المندوبين السوفيت فى مؤتمر الاتحاد انهم يعملون حقا فى هذا البرنامج ، وعندئذ اتصل بجين ليسألها كيف عرفت ذلك : فقالت انها لم تعرف شيئا عن أى برنامج سوفيتى للفضاء ، ولكنها رأت الروس وهم يطلقون أول قمر .

وعندما اطلق الروس قمرهم الاول فى ١٩٥٧ كان هال من أوائل الذين اتصلوا بجين تليفونيا ليبلغها تهانيه على النبأ الذى تنبأت به قبل اربع سنوات .

اكثر صلابه فى التعامل معه

كان التعديل الذى حدث فى الكرملين فى اكتوبر ١٩٦٤ مفاجأة تامة لحكومات العالم كلها ولكن جين تنبأت به من قبل أيضا ، فقد كتبت فى العمود الذى أحرره مايلى :

« اننى اتنبأ بخطر كبير فى الشئون الداخلية والخارجية معا للولايات المتحدة خلال المدة من ١٩٦٤ الى ١٩٦٧ ، وسيزداد هذا الخطر بظهور زعيم جديد يحل محل خروشوف خلال الثمانية عشر شهرا التالية ويبدأ اسمه بحرف (س) وهو من النوع الاكاديمي المثقف ، وسيكون أصعب مراسا فى التعامل معه من خروشوف . »

وبعد عشرة أشهر ، تم تقسيم اعمال خروشوف بين ليونيد بريزنيف والكسى كوسيجين ، ولكن خبراء الشئون السوفيتية بدأوا يتكهنون على الفور بأن هذين الاثنين قد يكونان أوصياء

مؤقتين على السلطة الى أن يبرز رجل جديد قوى . وقد لوحظ ان ميخائيل سوسلوف الذى يوصف بأنه من المثقفين القلائل فى هرم الزعامة السوفيتى ، هو الذى ألقى خطبة الافتتاح فى اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى . الذى تم فيه هذا التعديل .

وبعد شهر ، ظهر على مسرح الكرملين رجل آخر هو الكسندر شلبين الذى يجمع بين يديه تركيزا فعليا للسلطة بصورة غير عادية ، وقد ارتفع فجأة الى هيئة رئاسة الحزب الشيوعى مما يجعله عضوا فى أقوى ثلاث هيئات للحكم فى الاتحاد السوفيتى .

وسيذكر الزمن وحده ما اذا كان الرجل «المثقف» الذى يبدأ اسمه بحرف (س) سيبرز كزعيم جديد فى روسيا ، وبهذا يضيف اللمسة الاخيرة لنبوءة اخرى من نبوءات جين ديكسون .

صورة الاشياء القادمة !

لقد كانت جين ديكسون تخطىء احيانا فى نبوءاتها . . فقد تنبأت مثلا بأن الصين الشعبية سوف تلقى بالعالم فى اتون حرب كبرى بسبب جزيرة كيموى وماتسو فى اكتوبر ١٩٥٨ ، واعتقدت ان ولتر رويتر زعيم العمال الامريكى سيرشح نفسه للرئاسة فى امريكا عام ١٩٦٤ . وتنبأت خطأ بفوز المحافظين فى انتخابات ١٩٦٤ ببريطانيا .. ويشعر الكثيرون بالراحة لعدم تحقق هذه الاشياء اذ أن الذين يرتعدون لسماع بعض نبوءاتها الرهيبة عن المستقبل ، قد يجدون العزاء اذا تذكروا انها ليست معصومة من الخطأ .

وهاهى ذى بعض نبوءاتها الطويلة الاجل :

* ان اكبر مشكلتين ستسببان صداعا لامريكا ، هما المشكلة العنصرية والصين الشيوعية . فالاولى ستشغل امريكا فى العقدين السادس والسابع من هذا القرن ، كما ان تدخل الصين سوف يؤثر فى دول امريكية وافريقية كثيرة مما يثير حربا عالمية فى العقد الثامن ، وستؤدى المتاعب فى كوريا وفيتنام الى حرب « لامناص منها » مع الصين .

* سيظهر التاريخ ان معاهدة الحظر النووى ليست فى مصلحة امريكا وسوف تستخدم ضدها .

* ستغزو الصين ارضا روسية ، ولكن ن صورة مناوشات على الحدود ولن يشتعل نار الحرب القادمة التى ستقف فيها امريكا وروسيا فى صف واحد .. وفى اواخر هذا القرن سوف تصبح مضايق ديفيز — بين كندا

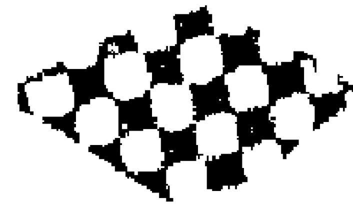
وجرينلند ـ شريان الحياة لامريكا .

* ان السنوات بين ١٩٦٤ و١٩٦٧ ستكون فترة خطر كبير على امريكا فى الميادين الداخليـــة والخارجية على السواء ، وســوف ترتكب اخطاء قد لاتدرك مغبتها تماما الابعد عشر سنوات .. وسيتوالى على الولايات المتحدة ثلاثة رؤســـاء فى الفترة من ١٩٦١ الى ١٩٦٩ .

* ينتصر الحزب الجمهـورى فى انتخابات ١٩٦٨ .

* الدمار العـــالمى الذى تتنبأ به فى العقد الثامن من القرن الحالى سوف يهــدم البشرية لكى تبعث من جديد روحيـــا . فقد ولد طفل فى الشرق الاوسط فى ٥ فبراير ١٩٦٢ سيحدث ثورة فى العالم ، وسيوحد كل العقائد والطوائف المتنازعة فى النهاية فى عقيدة واحدة متماسكة .

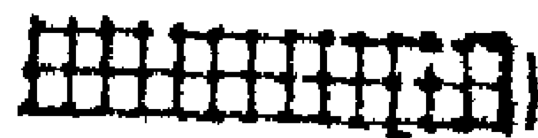
وهـــذا الشخص الذى رأته جين ديكسون فى واحدة من اقوى واوضح رؤاها ، ابن فلاح متواضع وهى تقول ان الانسانية ستبدا فى الشعور بقوة هذا الرجـل العظيم حوالى ١٩٨٠ ، وستنمو قوته نمـــوا هائلا حتى عام ١٩٩٩ ، وهو الوقت الذى يسود فيه السلام الارض لكل ذوى النوايا الطيبة



السر !

عندما اعتقل فرانز ديفيزين الذى يبلغ الثالثة والستين من عمره بتهمة السرقة فى مدينة فينا عاصمة النمسا ، لم يجد غير تفسير واحد محتمل لانه ضبط وهو يسرق ... فقال :

ـ لقد كنت رجلا امينا طوال عمرى ،ولكن منذ بعض الوقت اجريت لى عملية نقل دم ، ولابد ان الدم الذى اعطى لى كان دم لص !



عجز !

قال السائح لاحد اهالى القرية :

ـ الم يولد هنا احد من الرجال الكبار ؟

فاجاب القروى : كلا .. ان كل مانستطيع انجابه هنا هم الاطفال ، ولكن الامر مختلف فى المدن كما اعتقد !